

معهد البحوث والدراسات الإفريقية



أعمال

الندوة الدولية للقرن الافريقى

١ ـ ٧ ـ يناير ١٩٨٥

الجزء الثانى

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
١٩٨٧

محتــويات

الجــزء الثــانى

المجموعة الثالثة : مجموعة التاريخ

١ ـ الاطماع الايطالية فى البحر الاحمر ١٨٥٩ ـ ١٨٨٢ دراسة وثائقية

د/ أحمد ابراهيم دياب ٥١٩ ـ ٥٣٩

٢ ـ تصور بريطـانى للخريطة السياســية للقرن الافريقى والسودان والحبشة

د/السيد على أحمد فليفل ٥٤١ ـ ٥٧٢

٣ ـ التقارب الاثيوبى الصــومالى فى ليج ايـاســو ١٩١٣ ـ ١٩١٦

د/تمام همــام تمــام ٥٧٣ ـ ٦٠٨

٤ ـ النشاط الروسى فى القرن الافريقى فى أواخر القرن التاسع عشر

أ٠د/رأفت غنيمى الشيخ ٦٠٩ ـ ٦٢٤

٥ ـ موقف الحبشة من ممالك الزيلع الاسلامية فى العصور الوســطى

د/رجب محمد عبد الحليم ٦٢٥ ـ ٦٦٦

٦ ـ تطــور العــلاقة بين الكنيستين المصرية والاثيوبيــة وانعكاساتها على العلاقات السياسية بين الدولتين

أ٠د/شوقى عطا الله الجمل ٦٦٧ ـ ٦٩٩

٧ ـ الغزو الايطالى لاثيوبيا وأثره على الاوضــاع فى القرن الافريقى

أ٠د/ شوقى الجمل ٧٠١ ـ ٧٢٦

٨ ـ بريطانيا ومشكلات الحدود فى القرن الافريقى

د/عبد الله عبد الرازق ابراهيم ٧٢٧ ـ ٧٥٧

٩ ـ أثر الصراع الاوربى على القرن الافريقى فى أواخر القرن التاسع عشر

د/عبد الله عبد الرازق ابراهيم ٧٥٩ ـ ٨١١

١٠ـ الملاحة فى الحوض الجنوبى للبحر الاحمر واثــرها فى التاريخ السياسى للمنطقة من القرن التاسع ق.م الى القرن السابع الميلادى

د/فوزى مكاوى ٨١٣ ـ ٨٤٠

١١ـ التنافس الدولى فى منطقة القرن الافريقى حتى ظهــور الاســلام

د/محمد بركات البيلى ٨٤١ ـ ٨٦٣

المجموعة الرابعة : اللغات والانثروبولوجيا

١٢ـ نظام مقترح للملامح المميزة مطبقا على لغــات القرن الافريقى

د/تغريد السيد عنبر ٨٦٥ ـ ٨٨٨

١٣ـ النظام الصوتى للغة الصومالية

د/تغريد السيد عنبر ٨٨٩ ـ ٩١٠

١٤ـ دراسة صوتية لظاهرة الاقتراض من العربية فى الصومالية

د/ تغريد السيد عنبر ٩١١ ـ ٩٣٣

١٥ـ البيئة ، الطعام ، الحياة الاجتماعية فى الصومال

د/توفيق الحسينى عبده ٩٣٥ ـ ٩٥٢

١٦ـ البناء الصرفى للغتين العربية والسواحلية ـ دراســة تقابليــة

د/جعفر نايف عبابنه ٩٥٣ ـ ٩٦٨

١٧ـ مكانة اللغة العربية بين اللغات فى ثيوبيا

د/راجيه عفت ٩٦٩ ـ ٩٩٠

١٨ـ الرعى وآثاره على تقدم البلاد (مثال من الصــومال) دراسة انثروبولوجيه

د/سعاد على حسن شعبان ٩٩١ ـ ١٠٤٦

١٩ـ الصراع الثقافى فى القرن الافريقى

د/عبد الله نجيب محمد ١٠٤٧ ـ ١٠٧٨

٢٠ـ شعوب القرن الافريقى

أ.د./ محمد سيد غلاب ١٠٧٩ ـ ١١٠٠

المجموعة الثـــالثة

مجموعة التـــاريخ

الأطمـاع الايطاليـة فى البحر الأحمر

١٨٥٩ ـ ١٨٨٢

دراسة وثائقية

د. احمد ابراهيم دياب
أستاذ التاريخ المشارك بجامعة أم درمان
الاسلامية

مقـدمة

ارتبط الاستعمار الاوربى الحديث للنصف الجنوبى للساحل الغربى للبحر الأحمر اريتريا بدولة ايطاليا ، منذ منتصف القرن التاسع عشروحتى قبل أن تتم هذه الدولة وحدتها • وسارت ايطاليا بخطوات حثيثة للوصول الى هدفها ، مبتدئة بشراء عصب وتحويلها الى مستعمرة •

لقد بدأ الاحتلال الايطالى لاريتريا بمظهر تجارى برىء ، ففى عام (١٨٦٩) وهو العام الذى افتتحت فيه قناة السويس لتربط بين البحرين الأحمر والأبيض اشترى المبشر الايطالى الوديع المظهر الدكتور « جزيبى سابيتو » قطعة أرض من السلطان ابراهيم بن أحمد ، سلطان عصب ، باسم شركة روباتينو للملاحة لاستخدمهـا » كمكان تحتمى فيه سفن الشركة وتتزود بالفحم فى رحلتها الى الهند » • وما لبث هذا الاتفاق التجارى أن تحول الى احتلال عسكرى شغل الارض الاريترية كلها فى مدى (٣٤) عاما أى من الفترة من (١٨٦٩ م) الى (١٩٠٣ م) •

ثم استولت ايطاليا على مصوع ، المحافظة المصرية ، واتخذتها قاعدة للانطلاق والتوسع نحو التدخل وكان حاكم مصوع ضابطا انجليزيا ولقد أثبت ذلك بن وزير الخارجية الايطالية فى برقية له الى وزيرالحربية يقول فيها : ــ

« بامكان القائد الاعلى لقواتنا العسكرية من مصوع الاستفادة من خدمات السيد تشير مسايد الحاكم المصرى فى مصوع وهو ضابط برتبة مقدم فى الجيش الانجليزى يرشح الضابط المذكور من البداية على احتلالنا مصوع ، الا أن لديه التعليمات من حكومته باستقبالنا هناك وتقديم المعونة التى تلزمنا » .

هذه الفقرة وغيرها من الفقرات من الوثائق الايطالية التى اعتمدت عليها هذه الدراسة تعبر عن مدى السقوط الاخلاقى الذى تنحدر اليه الاساليب الاستعمارية فالواضح أن الحكومة البريطانية اعطت التعليمات للموظفين الانجليز العاملين فى خدمة الحكومة الخديوية المصرية بتقسيم الاقاليم الخاضعة لمصر فى ساحل البحر الاحمر الغربى للحكومة الايطالية ، فيتصرف الموظفون الانجليز بالشكل الازدواجى الذى تبينه هذه الفقرة.

واستخدمت ايطاليا مستعمرة ارتريا قاعدة لتوغل منها والسيطرة على أثيوبيا ، وكذلك الاحتلال أقليم كسلا من السودان ، وكان ذلك وقت انسحاب القوات المصرية من السودان وقيام الدولة المهدية السودانية .

ونلاحظ بالنسبة للنشاط الاستعمارى فى هذه الفترة أى من الربع الاخير من القرن التاسع عشر أن ايطاليا كانت على ود وتفاهم مع بريطانيا، التى كانت قد احتلت مصر .

وأهمية الوثائق التى أعتمدت عليها هذه الدراسة تكمن فى أنها وثائق ايطالية كتبت باقلام المستعمرين أنفسهم ومن ثم فانها تبين الاساليب الكلاسيكية للاستعمار من خديعة ودس وافتراء وعنف وراء الادعاء بنشر المدنية والعمران والتجارة .

وقد قامت باعداد هذه الوثائق لجنة تنظيم وثائق العمل الايطالى فى أفريقيا باشراف كارلو جونيو استاذ التاريخ والسياسة الاستعمارية فى جامعة بافيا بايطاليا وقام بترجمتها للغة العربية البعثه الخارجية بجريدة التحرير الارتيرية ـ قوات التحرير الشعبية وقدم لها عثمان صالح سبسى رئيس المجلس العسكرى ..

أولا ــ الاطماع الايطالية فى البحر الاحمر « ١٨٥٩ ــ ١٨٨٢ » :

أحست ايطاليا بأنها لابد أن تسير فى ركب الدول الاستعمارية اذ أن ــ بقائها بدون محميات استعمارية سوف يجعلها فى مصاف الدول الفقيرة والضعيفة وكان هذا الشعور واحدا من جملة أسباب سنة ١٨٨٢م الى احتلال عصب ذلك الميناء الارتيرى على البحر الاحمر كما شارك هذا الشعور فى دفعها سنة ١٩١١ بالاستيلاء على طرابلس الغرب •

ومن الطبيعى أن عمليات الاستعمار لا تأتى عفوية أو بصورة مفاجئة بل يسبق ذلك العمل جهود جبارة من الدراسة والتقدير والحساب والمعادلة كدراسة البحار واعماقها وأحوالها الجوية والمناخية ودرسة البلاد المزمع استعمارها من الناحية الجرافية والطبيعية بل والبشرية من أجل جس النبض •

هذه الاعمال وغيرها من التفصيلات الدقيقة كانت دائما تأتى قبل اعلان الاستعمار والاقدام على تثبيته ، وهذا ما فعلته ايطاليا فى البحر الاحمر تجاه احتلال الموانى الارتيرية (مصوع ، عصب) وما يحيط بهما من مناطق •

وتحدها الوثائق الايطالية من الاجراءات التى تمت بالنسبة لاحتلال عصب من تمهيد الى صداقة مع الزعماء والمحليين على الساحل الارتيرى الى شراء بعض الاراضى بقصد الاستعمال التجارى الى محاولة التشكيك بوقوع هذه المناطق تحت الحكم العثمانى أو المصرى التابع العثمانى وأخيرا الاحتلال المعلن •

وسوف نرى فى الصفحات التالية كيف تمت هذه الخطوات •

ثانيا ــ التمهيد لتكوين وجود ايطالى فى المنطقة :

منذ سنة ١٨٥٩ م وما قبلها حرصت ايطاليا على أن تقيم علاقات صداقة مع الحبشة فأوفدت بعض الارساليات التبشيرية الى الحبشة والى بلاد الجالا • ولم يكن الهدف الأساسى من هذه الارساليات هو التبشير فقط بل كانت مكلفة الى جانب عملها الدينى بنشاط سياسى وتجارى أيضا •

وقد جاء فى رسالة من كافو رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الايطالية الى الوزير المفوض فى السفارة الايطالية فى باريس أن مثل هذه الارساليات التبشيرية » ترمى الى معرفة مدى مصلحتنا فى اقامة علاقات صداقة وتجارة مع امراء تلك الشواطىء — الافريقية وربما انشاء قنصلية فيهـا » (١) .

ومن الطبيعى أنه يقصد بالشواطىء الافريقية تلك الموانى الواقعـة على ساحل البحر الأحمر الغربى وخصوصا الموانى الاريترية المقابلة للحبشة، حيث يواصل قوله فى هذه الرسالة : « ولا يخفى فيكم ان تجارة الحبشة ليست حاليا ذات أهمية تذكر لكن أهمية مرافئها ستزداد عندما يبقى احجز السويس يشكل مانعا أمام اتصال البحـر » (٢) . وقوله « مرافئهـا ستزداد » يعنى الحبشة وهذا غير صحيح فالمرافىء ليست لها بل هى تتبع ارتيريا وارتيريا ليست هى الحبشة ولم تكن تابعة لها .

ولقد أدى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م أمام الملاحة العالمية الى ربط تجارة الهند والصين والشرق عامة بأوربا وصار هذا الطريق أيسر وأقصر وكانت ايطاليا تعرف أهمية هذا البحر عندما يتم افتتاح القناة . فقامت بارسال رجال التبشير والمستكشفين الجغرافيين لدراسة المنطقة واعداد التقارير اللازمة .

« وفى شهر أكتوبر ١٨٦٩ م وصل لوزارة الخارجية الايطالية اقتراح من المستعمر سابيتو يقضى بشراء اراضى محيطـه بمرفأ طبيعى جميل على مسافة قصيرة من مرفأ عدن بمبلغ ١٤ ألف ليرة بغية اقامة محطة بحرية وتجارية فى البحر الأحمر ولقد كانت الحكومة صاحب الاقتراح لشراء الارض المختارة وأمنت له مبلغا من المال فى أحد بنوك الاسكندرية قدره ٨٠ ألف ليرة ايطـالية .

وهذا يعنى منذ البداية حرص الحكومة على مثل هذا العمل وتشجيعها له ورعايتها للقائمين بتحقيقه وهذا يكفى للرد على القائلين من أن الهدف من وراء شركة روباتينيو اقتصادى فقط .

بل أنه فى رسالة من اكتون (*) الى سابيتو نجد الحث على المسارعة بتنفيذ اقامة المركز التجارى على البحر الاحمر لكى يؤدى عمله السياسى المرتقب .

يقول اكتون « حان وقت ترجمة الابحاث بالاعمال وانشاء مركز ايطالى فى الاراضى المحيطة بخليج عصب » (٥) .

وقد أشار الايطاليون فى مراسلاتهم الخاصة الى أن منطقة الدناكل المحيطة بخليج عصب لا تخضع لاية سلطة ويبدوا أنهم شعروا بخطأ تقريرهم هذا فلاحظو أن الباب العالى قد يحتج على أى تصرف حيال هذه المنطقة من قبل الطليان فيذكر أكتون وزير البحرية فى أحد رسائله سنة ١٨٧٠ م « ان منطقة الدناكل حيث يقوم الخليج المذكـور (أى خليج عصب) غير خاضعة لاى دولة أجنبية ومن شأن كون الديانة الاسلامية فيها . أن تؤدى الى اثارة بعض المطـالب من قبـل امراء محليين أم الباب العالى » (٦) ويقول عبد البارى النجم (٧) : وفى اذار ١٨٦٦ م اشترت الحكومة المصرية من شركة « اخوان باسترى » حقوق ملكيـة «ايد» أنه ٥٨٣٤ جنيها . وبذلك « لم يصبح لها لطلق التصرف تماما على ساحل البحر الاحمر العربى ... وكانت مصر تهدف وصـل اريتريا بالسودان لتجعل منهما اقليما واحدا » (٨) .

كان الايطاليون يعرفون تماما أن هذه الأراضى تعود ملكيتها الى حاكم مصر الذى ــ يحكم باسم الباب العالى ولكنهم ارادوا أن يضللوا بعض الزعماء المحليين لكى يتصرفوا احرارا فى عملية بيع الاراضى التى سـوف تزداد فى المستقبل بدليل الجهود المبذولة منذ الوهلة الاولى التى تمت بها عملية شراء خليج عصب .

يقول اكتون فى مذكرتها السرية « فى غضون تواجد الباخرة فى خليج عصب عليكم تخطيط خريطة جغرافية أرضية وبحرية للمكان ... مرفقة بالشروح الوافية » (٩) .

(*) وزير البحرية الايطالية ــ لواء بحرى .

منظرا الى معرفة سابيتو مثل شركة روباتينيو والمكان والخبرة التي اكتسبها(*) . فقد عهد اليه ، الى جانب عملية الشراء أمر تأسيس مستعمرة ومدينة صغيرة فى قلب خليج عصب .

كان تأسيس مستعمرة منذ الوقت المبكر هو الهدف الاساسى والرئيس الغير معلن وليس الغرض من شراءالخليج هو اقامة مركز تجارى كما هو ظاهر .

وفى ١٥ تشرين الثانى ١٨٦٩ اشترى الاب سابيتو المنطقة الواقعة بين جبل «جنحا»و«رأس لوما» من أبناء السلطان أحمد سلطان عصب وهما حسن وابراهيم بمبلغ (١٥ ألف ليرة) (١٠) .

كما اتفق سابيتو مع وكيل سلطان راجيتا على شراء المنطقة الساحلية الواقعة بين ــ «رأس لوما» و « خليج الالا » و «جبل جانجا» وذلك سنة ١٨٧٠ وفى ١٣ مارس عام ١٨٧٠ رفع سابيتو العلم الايطـالى على هــذه المنطقة التى آلت اليه بالشراء غير الشرعى وهى أول مرة يرفرف فيهــا العلم الايطالى على شاطىء البحر لاحمر لغربى وكان فى عمله هذا اعتداءا على حقوق مصر المستمدة من الفرمانات السلطانية (١١) . استمرالايطاليون فى محاولة اخفاء اهدافهم الاستعمارية من وراء نشاطهم فى ساحل البحر الاحمر وكثير ما كانوا يخشون احتجاج بريطانيا على اعلان مستعمرة عصب ولذلك شعروا بضرورة التوسع الى الداخل وفى منطقة الدناكل فاخذوا يقومون بشراء المزيد من الارض التى تكونت منها مستعمرة عصب فيما بعد وكثيرا ما دفعوا الاموال والهدايا لسلاطين الدناكل بل وادخلوهم فى حمايتهم وطالبوهم بعدم بيع اى قطعة من الارض لغير الطليان .

وفى سبيل توسعهم الى الداخل حرصوا على اقامة علاقات مع ملك شوا . وكانت العقبات التى تقف أمامهم هى مدى امكانية اقامة طريق تجارى بين « مملكة شوا » وبين المنفذ الخارجى لهذا الطريق وهو ميناء عصب .

(*) بل ولاول مرة يرفرف فيها العلم الايطالى على ارض خارج ايطاليا منذ سقوط روما .

يتبين هذا من قولهم « فان بلاد شوا لا يمكنها أن تصبح مفيدة لا يطاليا ان لم يكن لديها منفذ الى البحر غير منافذ زيلع وبربره ...الخ يكون مستقلا شأن استقلال منطقة الارض الايطالية الملكية وهى عصب بالذات » (١٢) .

هذا طبعا غير كاف لدى الطليان الذين يريدون من عصب ان تكون قاعدة لانطلاق كبرى فى عرض البحر الاحمر ففى تقرير سرى أرسله « اميتزانا » قائد احدى السفن الحربية الايطالية فى البحر الاحمر الى وزير خارجية قال « فان قيام مستعمرة ايطالية فى البحر متحررة من الخوف الاجنبى يعنى انتهاء الاستعمار المعنوى والمادى الذى تتمتع به انجلترا فى ذلك البحر ... وبمعنى آخر فيما أن عصب مرشحه لأن تغدو مركز نفوذ سياسى . فان جهود الحكومة ينبغى لها أن تسبق الافراد » (١٣) . ولتحقيق المزيد من شراء الاراضى عملوا على كسب صداقة وود سلطان راحيتا « برهان الدين » الذى أغراه المال الايطالى وفضل العيش فى كنف الطليان وتحت ظلهم والاعيبهم وخداعهم .

فهو فى نظرى قد خان البلاد التى يحكمها عندما أقدم على بيع أجزاء كثيرة منها الى الطليان دون أن تكون ظروف تقهره الى الاقدام على مثل هذا العمل . فباع عددا من المناطق الاستراتيجية على البحر الاحمر الى الطليان ففى الملحق (٢) للتقرير السرى السابق يقول برهان الدين . « اصرح باسمى وباسم خلفائى وذريتى ــ بالتنازل عن أى حق فى الملكية والسيادة على جزيرتى أم ليشار ورأس الرمل وأراضى مجموعة الدراماتية لصالح السنيور جيوزيه سابيتو .. يتصرف بها ما يشاء مع الحق فى رفع العلم الايطالى عليها .. اصرح باننى اجريت عملية بيع الاراضى المذكورة تلقائيا واستنادا الى حقوقى المسلم بها مؤكدا ارادتى تولى وفرض احترام عملية البيع المذكورة » (١٤) .

لا شك أنه قد ارتكب خطأ كبيرا فى هذا التصرف اذ ليس من حقه أن يبيع أرضا هو واليا لمن يملكها أصلا.ثم يبدو من ثنايا النص أنه قد أجبر

شركاؤه على عملية البيع هذه حيث يقول : « وفرض احترام عملية البيع المذكورة » .

ولاحظ زعماء الدناكل أن الايطاليين جادين فى عملية المزيد من شراء الأراضى الواقعة تحت أيديهم فأنهم رأوا أنه سوف يأتى اليوم الذى يسلبون فيه كل ما يملكون اذا ــ استمروا على هذه الطريقة .

وهذا التفكير سبب خلافات بين زعمائهم مما أدى الى وقف عملية الشراء فترة من الزمن يتضح هذا من برقية أرسلت من قائد أحد السفن الحربية فى البحر الاحمر الى وزير خارجيته فى ايطاليا يذكر فيها : ــ

« من الصعب تحقيق أية عملية شراء جديدة بسبب الخلافات بين أصحاب الارض ــ ومع ذلك ستستمر المحاولة بالتزام الامور بشأنها [١٥].
هذه البرقية أرسلت فى ٩ اذار (مارس)١٨٨٠ .

وكانت الوسيلة الوحيدة لاقناع زعماء البلاد الدناكل فى استمرار عملية البيع هى اغراق الاموال ومحاولة كسب رضاهم والتأكيد لهم ظاهريا أن الايطاليين لا يريدون لهم الا الخير والاستقرار . وقد نجحوا فى هذا الاسلوب الى حد كبير فى تكوين اصدقاء لهم من أهل البلاد ومن زعمائها أمكنهم الاعتماد عليهم فترة من الزمن .

يقول « ده اميتزانا » فى احدى رسائله الى وزير خارجيته «كابرولى» فى ١٥ ــ ٢/١٨٨٠ « ان رجالى وأبناء البلاد العاملين معى يعملون بجد فى سبيل انشاء المستعمرة » [١٦] .

ومهما قيل عن أن الوجود الايطالى المتمركز فى عصب هو لاغراض تجارية فقط وتعرض ــ ايجاد مركز تجارى ليس غير أن السفن الحربية المتواجدة حوله ليست الا لحماية التجارة الايطالية فهو قول عار من الصحة يؤكد ذلك المراسلات الخاصة بين الطليان أنفسهم تؤكد تكوين « مستعمرة » بكل ما تعنى هذه الكلمة من مقاصد وأهداف . بل أن الطليان لم يتقبلوا البرقية السابقة بارتياح والتى أكدت على سهولة تحقيق

مزيد من شراء الاراضي واعتبروا ان هذا سوف يشل حركة تكوين المستعمرة المزمع انشائها في أقرب فرصة لذا نجد وزير الخارجية الايطالي السيد كابرولي يرسل على الفور برقية الى امتيزانا في نفس اليوم الذي وصلته برقية الاخير أي في ٩ اذار مارس ١٨٨٠ يقول فيها : —

« نعتبر الشراء في غاية الاهمية .. واذا كانت هناك ضرورة لاكمال مبلغ الستة آلاف من جديد ابرقوا في الحال (١٧) .

وهذا يوضح أن كل الاعمال الايطالية في البحر الاحمر كانت برعاية الحكومة وتحت تصرفها . ومن أجل الاسراع في تكوين المستعمرة أمر وزير الخارجية بتكليف المبشر سابيتو : —

« ان يشترى في الحال لحساب روباتينيو البقية المتبقية من الخليج مع جزيرة دار ماية وسائر الجزر المحيطة » (١٨) .

وغير بعيد أن يكون الهدف من هذا الاسراع في عملية استقصاء الاراضي هو لمخوف من وقوعها في يد انجلترا ومحاولة المصريين الضغط على زعماء الدناكل لوقف مثل هذه العمليات اذ أنه في تقرير سرى جدا أرسله امتيزانا الى وزير خاريجية ففى ١١ اذار (مارس) ١٨٨٠ قال فيه : —

« أن مصر تعد بأيحاء من انكلترا على ما يعتقد قوة عسكرية قوامها ٢٠٠ رجل لشن حرب على خنفرى الاوسط . وعزل عصب (١٩) .

وكان رأيه الشخصي ان تعلن الحكومة احتلال عصب لاحباط مثل هذا التصرف المتوقع من قبل مصر .

هذا ويبدو ان الروس كانوا على علم بما يفعله الطليان في البحر الاحمر وخصوصا قرب عصب بل يبدوا أنهم قد غضوا الطرف عن ذلك حيث يذكر ميتزانا في تقريره السرى السابق ان دارعة روسية مع سفينه حربية أخرى زارتا مرفأ عدن وهما تابعتان للاسطول الروسى في المحيط الهندى فقام باجراء بعض المقابلات مع قادتها يقول اميتزانا : —

« وقعت بالزيارات التقليدية فلقيت افضل استقبال ولم يخف قادة السفينتين ارتياحهم الى قيام مستعمرة ايطالية فى البحر الاحمر » (٢٠) .

ظل الايطاليون يواصلون نشاطهم واتصالاتهم بالزعماء المحليين وكان أخلص صديق لهم هو برهان الدين سلطان راجيتا الذى تعهد للمبشر سابيتو ببيع جميع جزر عصب الواقعة بين رأس شيتان ورأس دوما الى شركة روباتينيو .

بل أنه سمع بنبأ تحرك مصرى الى محمد بن الخنفرى سلطان اوسا فخاف أن يكون هو الهدف فطلب من ايطاليا : « ان وضع الشاطىء كله الممتد من رأس البير الى رأس شيتان من شركة روباتينيو بموجب طلب رسمى تحت حماية حكومة صاحب الجلالة » (٢١) .

بل أنه أصبح واسطة للطليان فى تسهيل مرورهم على جميع الطرق التى تقود من البحر الى داخل بلاد الدناكل .

بعد اتمام عملية شراء خليج عصب والجزر المحيطة به أصبحت عملية تأمين المواصلات .. مع داخل البلاد ضرورية « والان يبقى أن نؤمن المواصلات مع المناطق الدخلية من البلاد بكسب صداقة الزعيم الخنفرى (٢٢) وتأمين الموصلات ضرورة لابد منها « وهذه المسألة حيوية لمستقبل عصب ولابد من اللجؤ الى كافة الوسائل لمنع مصر من ارساء قواعد فيها » (٢٣) .

ويصر اميتزانا على اتمام هذه العملية وعلى الطرق البرية التى تربط عصب بالنهضة وبعض الاودية فى الداخل « فان عصب مرشحه لأن تصبح قاعدة العمليات التى ستطلق منها المدنية بعد أن تحمى ظهرها لتشق طريقها خطوة خطوة بين شعوب ابقتها العزلة فى وضع همجى .. لذا ارى من الضرورى ان نطرق باب الحنفرى قبل أى شىء آخر » (٢٤) .

ويلاحظ الباحث ان احتلال عصب جاء على مراحل متعددة تمثلت فى فى البعثات التبشيرية أولا ثم بشراء الاراضى ثم تكوين الصداقات مع زعماء المنطقة ورفع لعلم لتجارى لايطالى ثم فى ٩ يناير ١٨٨١ وصول المفوض

السامى لاول مرة الى عصب حيث أمر بانزال العلم التجارى ، ورفع العلم الملكى مكانه للمرة الاولى وجدت هذه الخطوة من كل من سلطانى عصب ورامينا عبد الله شحيم وبرهان الدين ترحيبا وقبولا بدليل اعلانهما الزيارة القريبة بعد هذا الحدث والتى تمت فى وقت قريب (٣٥) •

أدرك الايطاليون ان المصريين سوف يتضايقون من مثل هذه الاجراءات وأنهم ربما ضغطوا على برهان الدين سلطان راحيتا برفع العلم المصرى فى بلاده فعقدوا اتفاقية معه من أجل حمايته وأخذوا بتأكيدها « عدم التخلى عن السلاطين الاصدقاء مع الملاحظة على الحذر اللازم ••• امنعوا أية أعمال عنف ضد السلاطين » (٣٦) •

والمعنى واضح ، امنعوا المصريين من الوصول الى المنطقة بل أكدت ايطاليا على مندوبيها فى عصب بأن يبلغوا اصدقائهم السلاطين بالاحتجاج ضد أى اعتداء « ابلغوا هؤلاء السلاطين بالاحتجاج رسميا ضد اى اعتداء يقع عليهم » (٣٧) •

وكأن رفع العلم المصرى فى منطقة رامينا هو اعتداء بينما رفع العلم الايطالى هو شىء قانونى ؟؟ بل لم تتوان ايطاليا فى استعمال القوة عندما حاول المصريين فعل شىء وبالاراضى المباعة لايطاليا أو الواقعة تحت حمايتهم حيث وقفت السفن الحربية فى وجه السفينة (الخرطوم) حينما أرادت جنود فى منطقة راحيتا ربما لكى تعاقب سلطانهم لعدم رفعه العلم المصرى بل نجد ايطاليا تلمح بالتهديد لعواقب مثل هذه العملية : « ان مثل هذا الاجراء أن يتوافق والعلاقات الطيبة السائدة بين ايطاليا ومصر ، ولا يسعنا القبول بانزال جنود فى رامينا » (٣٨) •

ولقد بدأت نوايا الطليان العدوانية تتضح أكثر وظهر ان باطنهم يختلف عن ظاهرهم حتى مع من اخلص معهم واعتز بهم خصوصا بعد المحاولات التى ربما كانت بريطانيا تساندها فهاهم يبدون عدم ارتياحهم للحماية التى وعدوها لسلطان رامتيا يقول الى الامين العام لوزارة الخارجية فى أبريل ١٨٨٠ « ان منح حماية صريحة يشكل التزاما يصعب احترامه فى حالة

حدوث تعقيدات . واعطاء طابع سياسى لاحتلالنا من شأنه اثارة اعتراضات انكليزية جديه يمكن تحقيق الامر نفسه عن طريق وعد شفهى بصداقتنا الواسعة يعطيه سابيتو » (٢٩) .

هذا كله بعد أن اطمأن الايطاليون على تأمين المنطقة لذا نجد المفوض السياسى فى عصب السيد « برانكى » يحاول أن يحث حكومته على عمل شيء معلن فى عصب فى رسالة ارسلها الى وزير خارجيته فى ٣٠ فبراير ١٨٨٢ أخذ يسود فيها ما عملته الحكومة الفرنسية حيال منطقة « ابوخ » من التدرج شيئا فشيئا فى الاستعمار وكانت السلطات الانجليزية تنظر الى أعمال فرنسا فى أبوخ دون أن تحرك ساكنا واقترح على حكومته أن تعمل مثل فرنسا .

وكأن الامر أخذ ماخذ الجد فتجد إنه فى ١٠ / مارس ١٨٨٢ تنازلت روبانينو عن « الملكيـة الخاصة للأراضى التى تشـكل مستعمرة عصب وكذلك عن كافة الاراضى العائدة الى تلك الشركة بموجب العقـود مع أبناء البلاد » (٣٠) .

وكأن لحكومة الايطالية قد عملت بنصائح المفوض فى عصب لتعلن ملكيتها على عصب من آجل التموية والا فهى المالك الاساسى أولا واخرا بدليل التموين المستمر للشركة وتسهيل مهمامها ومطالبها .

ثالثا ــ موقف بريطانيا من النشاط الايطالى فى عصب :

هكذا رأينا أن ايطاليا منذ عام ١٨٥٩ وهى تحاول تعزيز وجودها فى عصب بكل الوسائل لكنها لم تعلن سيادتها التامة بشكل علنى الى الان .

أى حوالى عام (١٨٨٢) رغم أن كل شيء يدل على أنها سوف تقيم لها مستعمرة يكون مقرها خليج عصب وساحل الدناكل .

اذا ما هى الاسباب المانعة من اعلان المستعمرة ؟ هل هى بريطانيا ؟ أم الباب لعالى ؟ أم الخديوية المصرية ؟ أم هذه الاسباب مجتمعة ؟

الواقع أن لكل من بريطانيا والباب العالى والخديوية المصرية موقف معارض تجاه تطور الأحداث فى ساحل البحر الاحمر الغربى المتعلق بنشاط ايطاليا .

صحيح أن بريطانيا ساعدت ايطاليا عند اعلان المستعمرة ولكن هذا الموقف خارج ـ عن الفترة التى سوف نعالجها .

الشيء الذى ينبغى معرفته أن تخوف ايطاليا من معارضة بريطانيا لها أو حتى احباط أى نشاط استعمارى لها ولو بالقوة كان أكثر من تخوفها من الباب العالى أو الخديوية فى مصر .

وفى رسالة أرسلها القنصل الايطالى فى عدن الى وزير خارجيته فى نوفمبر عام ١٨٧٩ يقول فيها : « قبل نحو ثلاثة أسابيع رست السفينة « سى فول » التابعة للاسطول البريطانى فى خليج عصب واوفدت رسلايد عون سلطان راحيتا الى الصعود الى السفينة للتحادث مع قائدها وصعد السلطان فعلا ... وتحادث وقتا طويلا مع قائد السفينة الذى طلب منه معلومات عديدة وخصوصا تفاصيل ودقائق عملية بيع عصب الى ايطاليا والمبلغ المدفوع وشروط البيع ... الخ وقد أعاد أكثر من مرة سؤاله هل يعتقد أن عملية البيع صالحة وهل يسعه اذا شاء الغاء الاتفاقية » (٣١) .

وفى هذا التقرير نجد التخوف الواضح من بريطانيا الذى يمكن أن نسميه تحذيرا من القنصل الايطالى لحكومته لكى تسارع بارسال حاميات ترابط بالقرب من خليج عصب حيث يقول « وأنا متأكد أن من شأن حركة عصب التجارية ان تعرف تطورا كبيرا فى حال اقدام الحكومة الملكية على ارسال سفينه حربية ترابط فى مستعمرتنا » (٣٢) .

وبالفعل اجابت الحكومة الايطالية على هذا المطلب وأرسلت احدى السفن الحربية التى تقرر أن ترابط فى عصب .

وازاء هذا التصرف كتب كابرولى الى سفيره فى لندن لمعرفة ابعاد قضية عصب فى الاوساط البريطانية « ترغب فى الاطلاع على ردود الفعل التى احدثها الخبر فى انكلترا (٣٣) وقد جاء الجواب بالتقرير ألذى أرسله السفير الايطالى فى لندن الى ــ وزير الخارجية كايرولى « ••• مع العلم أن الانجليز سيستمرون فى مراقبة ما سنفعله فى عصب ••• ومن جهتنا يسعنا أن نجيب بائننا نفعل الشىء الذى فعلوه فى عدن » (٣٤) • وهذا التقرير الذى يبدو عليه السرية أكثر وصل فى ٢٣ ــ نوفمبر ــ ١٨٧٦ •

ولم تكن بريطانيا مرتاحة لرفع العلم الايطالى فى منطقة عصــب بل حاولت اعاقة نشاط التجار الذين اخذوا يتعاملون مع عصب جاء هذا فى تقرير سلمه المقيم السامى البريطانى فى عدن الى اميتزانا فى يناير ١٨٨٠ والذى قال فيه : « لقد علمت أن سابيتو •• قد دعا بمساعدة قنصل ايطاليا فى عدن بعض أصحاب الحوانيت فىالمدينة الى الانتقال الى عصب ••• وبصفتى ممثلا لحكومة صاحبة الجلالة اتشرف بسؤالكم التفضل بالتوقف عن القيام بأى نشاط فى هذا السبيل ••• ربما فاتكم انممتلكات الحكومة : ــ المصرية تمتد على ساحل البحر الاحمر الافريقى كله وان هذا الساحل واقع تحت اشراف غوردون باشا المباشر المعتمد لدى هذا المقر » •

وعلاجا لهذا الموقف حاولت ايطاليا تهدئة الموقف بالتظاهر بان مهمة ايطاليا فى عصب ليست سوى مهمة تجارية تتعلق بشركة روباتينو •

وفى مذكرة أرسلها قنصل ايطاليا فى عدن الى المقيم السامى البريطانى فى يناير ١٨٨٠ م جاء فيها : « جئت أعلمكم بأنه لن يتم أى استيلاء عــلى اراضى باسم الحكومة الايطالية كما أنه ليس هناك أى طابع سياسى وراء المهمة التى تقوم بها السفينة البحرية الملكية والتى لا تتعدى حماية فرع مؤسسة شركة روباتينو أية شكوك حول الموضوع » (٣٦) •

وفى فبراير ١٨٨٠ كتب سالسبورى وزير خارجية بريطانيا مذكــرة قدمها الى السفير البريطانى فى روما شرح فيها الاملاك المصرية علىالساحل وذكر بان منطقة عصب واقعة ضمن الاراضى المصرية حيث كان ممتاز

باشا حاكما مصريا على كل الشاطىء الممتد من السويس الى راس جارد فوى فى فرمان سلطانى عام ١٨٦٦ ولم يعترض عليه أحد فى حين صدوره وهذا يمكن حكومتى القسطنطينية والقاهرة من التصرف فى هــذا ــ الساحل • وعليه فان بريطانيا تعتبر السيادة الشرعية على تلك السواحل تتمثل فى الحــاكم المصرى الذى يحكــم بموجب فرمــان من ســلطان تركيا » (٣٧) •

وتؤكد بريطانيا ان آى تصرف من جانب زعيم محلى هو فى الحقيقة لا يمثل أى سلطة شرعية اذ ليس لمثل هذا الزعيم حق التصرف •ولااراها تعنى بذلك سوى ذلك التصرف الذى بموجبه باع برهان الدين سلطان راهيتا بعض المناطق الى ايطاليا لتملكها • ادركت ايطاليا صعوبة موقف بريطانيا فحاولت أن تتحاشى أى اساءة او عمل يفهم منه انه يرمى الى سيادة استعمارية على عصب • ففى برقية ارسلها وزير الخارجية الايطالية فى فبراير ١٨٨٠ الى اميتزافا قال فيهــا : « أنه الى أنه من الضرورة ألقصوى تفادي القيام بكل ما من شأنه أن يبدو انه عمل سيادة والاكتفاء بما من شأنه أن يحمى حقو قنا ••وشدد على ضرورة التقيد بالمعلومات المذكورة » (٣٨) •

ولقد حاولت ايطاليا أن تنفى ان لمصر سيادة على البحــر الاحمــر وخصوصا فى منطقة عصب ففى رسالة كتبها أحد المبعوثين الايطاليين فى عصب الى الجمعية الايطالية الجغرافية بتاريخ ٦نيسان (أبريل) ١٨٨٠حاول فيها ان ينفى أن لمصر سيادة على الشاطىء الغربى للبحر الاحمر وعلى خليج عدن وذكر أن كل ما يعرفه ان تركيا تنازلت عن تلك الاراضى لمصر وبأن تركيا لا تستطيع ان تتنازل الا عن ما تملكه وهى فى نظره لا تحتل الا عددا قليلا من المراكز لم يمسه ونفى ان يكون مركز عصب من بينها • بينهــا •

بينما يذكر قولية قائدا ايسكيا فى تقرير أرسله الى اميتزانا فى ١٣ ــ أيار ــ ١٩٨٠ عن مقابلة حدثت له عندما رسا فى ميناء زيلع مع باشــا زيلع ناوى باشا قال الباشا فيها « ساعمل ما يسعنى عمله لحماية ومساعدة

العلماء الذين يهتمون بالجغرافية فى كافة الاراضى الشاسعة الموضوعة تحت ادارتى وسلطتى الممتدة من مصوع على البحر الاحمر الى رأس جارد فوى فى بلاد الصومال ... وعلى الشاطىء بين الدناكل وكذلك فى عصب وكذلك فى أبوخ » (٣٩) . وهذا يكفى للرد على المزاعم الايطالية . ويتقدم الايام أخذت مساءلة عصب تتطور وكثر الكلام عنها فى الاوساط الدولية واتهمت ايطاليا بالتحركات المصرية التى تهدف الى شل النشاط السياسى الايطالى فى عصب بأن — بريطانيا وراء كل هذه العمليات ففى حديث دار بين ميكافيللى القائم بالاعمال الدبلوماسية الايطالية فى مصر وبين السنيور كوكسون الممثل الانجليزى فى مصر قال فيه « هل مصر تتحرك تلقائيا من غير أن تدعمها انكلترا من أجل عصب وكان رد السنيور الانجليزى بأن على انجلترا السهر بانتباه على ما يجرى فى منطقة لها تلك الاهمية بالنسبة اليها وبأن معاهدة تعقد بين ايطاليا وانكلترا ستكون لها قيمة » (٤٠) .

وقد استنتج ميكافيللى من كلام السنيور أن انكلترا قد تكون على استعداد للاعتراف — بشرعية املاكهم فى أرض عصب .

وقد احتجت مصر على النشاطات الايطالية فى عصب وعلى شراء الارض من سلطان راميتا وبأنه لا يملك التصرف ولكن معروف ان الاحتجاج هو اسلوب الضعف الذى يتخذه الضعيف وما أراه مجديا وقد جاء فى هذا الاحتجاج الى سابيتو فى ديسمبر — ١٨٨٠ ما يلى : —

« ينبغى ان لاتجهلوا ياسيدى ان الشاطىء كله الممتد من السويس حتى رأس حافون هو ملك لمصر يمارس عليه الخديوى سيادة لا نزاع عليها وان شيخ راميتا هو مواطن مصرى يتقاضى معاشا من حكومة صاحب السمو منذ زمن بعيد فليس من حق أو من حق أى شخص اخر التصرف بأى جزء من الساحل أو من الجزر .... اسارع الى اعلامكم باننى اعتبر القرار السابق الذكر باطلا ولا غيا وكذلك قضية عصب نفسها التى جرت بطريقة مماثلة » (٤١) .

وبهذه المناسبة فهناك وثيقة كتبها زعماء القبائل الصومالية الى بينغلورولف القنصل الايطالى فى عدن بتاريخ ٢٩ — نيسيان (ابريل).

١٨٨١ وان صحت هذه الوثيقة ــ وهى أقرب ما تكون الى الصحة ــ فان المصريين أنفسهم يتحملون جزءا كبيرا من مسئولية ضياع الساحل الغربى للبحر الاحمر لانهم اساءوا معاملة اصحاب هذا الساحل وأهانوهم ولندع لوثيقة تحدثنا أ ــ

« انهم يعاملوننا « اى المصريين » بدون اى اعتبار كما لوكنا مجرد حيوانات يعطوننا وعودا ويسحبونها ويضحكون منا بسفالة » (٤٢) • وعليه فلا نلوم زعماء القبائل الصومالية سكان منطقة بلمار اذا قالوا : « نقدم بلادنا الى ايطاليا واثقين من ان حكومتها العاقلة لم تصم اذنيها امام رجاء من يناشد معاضدتها القومية وبعد ايام قليلة لن يبقى العلم المصرى يرفرف فوق ديارنا بيد اننا نأمــل ان تأتى ايطاليا قريبا وتلفنا بحمايتها » (٤٣) • وكثيرا ما ارسل المبعوثون الايطاليون الى حكوماتهم معلومات واهية تخص مناطق ساحل البحر الاحمر الغربى وخصــوصا التابعة للحكم المصرى فحيثما وقعت مجرزة بعثـــة « جيوليتى » • فى منطقة بيلول شمال عصب كتب المفوض السامى فى عصب الى حكومته بأنه لابد من عملية قمع لهؤلاء المجرمين • واعتبروا منطقة بيلول والمناطق المحيطة بها هى مستقلة عن مصر وخاضعة للزعماء المحليين وحدهم • ولكن وزارة الخارجية الايطالية قدرت العواقب فرأت ان تعترف بسيادة مصر على هذه المنطقة وقالت فى ــ مذكرتها : « ان التصور الافضل لوضعنا هو الذى يقر لمصر بملكية بيلول » (٤٤) • ويبدو ان هذا الاعتراف ليس من اجل المصريين بقدر ما هو الخوف من بريطانيا ان تحتل بيلول اذا ادعت ايطاليا استقلالها •

تقــول المذكرة : « فان ادعاء استقلال أراضى بيلول يعنى تدخــل انكلترا لاحتلالها » (٤٥) •

اذا فالموقف هو موقف انكلترا التى يبدو انها هى المالكة والمسيطرة على الزمام الذى يسمح لايطاليا بالتقدم نحو احتلال عصب علينا وبالفعل نجد المذكرة تمضى وتقول :ــ « اصبحت عقدة مسألة الاستيلاء السلمى على عصب تتجسد فى موقف انكلترا وعندما تتوصــل الى الاتفاق على

تسوية مؤقته معها يصبح وسعنا القول ان ممارسة ثلاثة ارباع سيادتنا بصورة سليمة على عصب قد تأمنت على وجه نهائى » (٤٦) .

وفى هذه الفترة نجد ايطاليا تطرق أبواب العالى لاجراء محادثات بشأن عصب ويبدو أن بريطانيا أخذت تغير من موقفها لصالح ايطاليا اذ يبدو أنها الواسطة فى امكان عقد معاهدة بين ايطاليا ومصر بموافقة الباب العالى . فمن الناحية الأولى نجد وزير خارجية ايطاليا يكتب رسالة الى سفيره فى القسطنطينية « بشأن ملائمة وجدوى اجراء المباحثات مباشرة مع الباب العالى بصدد عصب » (٤٧) . اما فيما يتعلق بموقف بريطانيا الذى بدأ يتحسن فى صالح الطليان فيتمثل فى عرض الحكومة تقديم مساعيها الحميدة لعقد المعاهدة المذكورة . يقول ماتشيتى فى رسالته المكتوبة فى ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٨١ : ــ « ونتيجة للعرض الانجليزى الذى تعتبره كدليل جديد على مشاعر الصداقة والنيات الحميدة ... » (٤٨) . ويقصد بالعرض الوساطة الانجليزية .

ولابد لنا من الاشارة الى ان موقف بريطانيا أخذ يتطور فى صالح ايطاليا كثيرا ففى كتبه « منابريا » سفير ايطاليا فى لندن الى وزير خارجيته فى سبتمبر ١٨٨١ أشار فيه الى محادثة جرت بينه وبين جرانفيل وزير الخارجية البريطانية حول مسألة احتلال عصب والانزال المصرى فى راحيتا وحاول « مينابريا » أن يقنع جرانفيل بأن سيطرة الاتراك والمصريين على ساحل البحر الاحمر الغربى لم تكن بصورة وكثيرا ماتعرضوا للطرد من قبل الاهالى .

وقد احتل الاتراك عدن لفترة وجاء الانكليز واحتلوها رغم الاحتجاج التركى على هذا الاحتلال ولذلك فاحتلالنا لعصب سوف يكون مثل احتلال بريطانيا لعدن .

ويبدو من الحديث ان القضية هى موقف بريطانيا فقط اما مصر أو الباب العالى فلن يكون منهم اكثر من الاحتجاج الذى لا يقدم ولا يؤخر . وهم هنا يقرون بأن عصب تابعة للباب العالى الذى تمثله الخديوية فى مصر .

ويظهر أن منابريا وجد من جرانفيل بعض المساعدة فى محاولة اقناع الخديوية بعدم الانزال فى راحيتا ويبدو والتعاطف أكثر من جهة بريطانيا بالسماح لايطاليا ببسط نفوذها وسيطرتها على عصب وما جاورها . فلقد قال جلادستون الذى حضر المحادثة : « انه موافق الموافقة كلها على الجواب الذى أعطاه جرانفيل لما نشيني وانه يأمل أن تذلل الصعوبات التى قامت حول عصب ... وطمأنه بأنهم سوف ينتهون الى التفاهم قريبا » (٤٩) .

اذا فالذى يمكن قوله ان عملية تأخير أو تقديم اعلان مستعمرة عصب اعتمدت بقدر كبير جدا على موقف بريطانيا من القضية وهذا ما حصل فى سنة ١٨٨٥ .

(١) رسالة من كافور رئيس مجلس الوزرا ووزير الخارجية الى نيفر الوزير المفوض فى باريس – تورينو / ٤ نيسان ١٨٥٩ ص ١٧ .

(٢) نفسه : ص ١٧ .

(٣) من ديبوتى وزير البحرية الى اللواء البحرى اكتون / اكتوبر ١٨٥٩ . ص : ٢٦ .

(٤) وثائق الخارجية الايطالية . رقم (١٣) . ص : ٢٧ . –

(٥) وثائق الخارجية الايطالية . رقم (١٣) . ص : ٢٧ .

(٦) نفسه رقم (١٤) ص : ٢٩ .

(٧) عبد البارى عبد الرزاق النجم . ارتيريا شعبا وكفاحا . ص : ١٣٨ .

(٨) نفسه ص : ١٣٩ .

(٩) نفسه ص : ٣٠ .

(١٠) النجم . ص : ١٤٥ .

(١١) النجم . ص : ١٤٦ .

(١٢) وثيقة رقم (٣٥) ص : ٥١ .

(١٣) تقرير سرى رقم (٨٢) ص : ١٠٤ .

(١٤) نفسه ص : ١٠٦ .

(١٥) برقية بدون رقم ص : ١٤٧ .

(١٦) تقرير سرى رقم (٩٥) ص : ١٣٢ .

(١٧) برقية بدون رقم ص : ١٤٧ .

(١٨) برقية بدون رقم ص : ١٤٨ .

(١٩) نفسه ص : ١٤٨ .

(٢٠) نفسه ص : ١٤٩ .

(٢١) تقرير – ٢٧ – سرى ص : ١٥٢ .

(٢٢) رسالة سرية رقم (١٠٧) ص : ١٥٥ .

(٢٣) نفسه ص : ١٥٥ .

(٢٤) ملحق – ٤٥ – سرى ص : ١٧١ .

(٢٥) تقرير رقم (١٦٨) ص : ٢٥٩ .

(٢٦) برقية بدون رقم ص : ٢٢٤ .

(٢٧) برقية بدون رقم ص : ٢٢٥ .

(٢٨) ملحق – ب ص : ٣١٠ .

(٢٩) برقية بدون رقم ص : ١٦٢ .

(٣٠) رسالة بدون رقم ص : ٣٥٠ .

(٣١) تقرير ١٣٠ (٤٣٨٩) ص : ٨٣ .

(٣٢) نفسه ص : ٨٣ .

(٣٣) برقية رقم ٧٣١ ص : ٨٥ .

(٣٤) تقرير ٤٣٦ ـ سرى (ارشيف ٤٤٠٤) ص : ٨٨ .

(٣٥) ملحق رقم (١) مذكرة (٦) ص : ١٠٩ .

(٣٦) ملحق رقم (٨) مذكرة (١٣٩) ص : ١١٥ .

(٣٧) مذكرة رقم (٥) (١٣٥٩) ص : ١٢٦ .

(٣٨) تقرير ـ ١٨ سرى جدا (١ ـ ٩٢٢) ص : ١٤٥ .

(٣٩) تقرير رقم ٩٣ ص : ١٨٣ .

(٤٠) تقرير ٧٧٩ (١ ـ ٢٤٦٠) ص : ٣٠٣ .

(٤١) رسالة بدون رقم ص : ٢٥٧ .

(٤٢) ملحق للتقرير رقم (ـ) (أ ـ ١٦٦٣) ص : ٢٨٤ .

(٤٣) بعثة ايطالية يقودها السنيور (جبراينى) ارسلت من عصب شمالا للكشف فى هذه المنطقة ولكن البعثة ابيدت عن اخرها فى الثلاثين من ايار ١٨٨١ قرب سلطنة (بورو) على بعد خمسة ايام من بيلول . انظر عبد الرزاق النجم ص : ١٥٠ .

(٤٤) مفكرة وزارة الخارجية ص : ٢٩٩ .

(٤٥) نفسه ص : ٢٩٩ .

(٤٥) نفسه ص : ٢٩٩ .

(٤٦) نفسه ص : ٢٩٩ .

(٤٧) رسالة رقم (١٢٨٢) ص : ٣٢٣ .

(٤٨) نفسه ، ص : ٣٢٣ .

(٤٩) تقرير (١٠٨٨) ص : ٣١٥ .

(*) ولد المبشر والمستشرق والرحالة جيزتى سابيتو فى كاركارى بجنوة فى ٢٧ / نيسان ١٨١١ ودخل سلك العازاربين الثامنة عشرة وفى سنة ١٨٣٤ ارسل الى لبنان للتبشير فيه وتعلم فى لبنان العربية ودرس ادابها . ولسابيتو الدور الكبير فى الاحتلال الايطالى لارتريا .
(عبد الرزاق النجم ص : ١٤٥) .

تصور بريطانى للخريطة السياسية
للقرن الافريقى والسودان والحبشة
بعد الحرب العالمية الاولى
ــ وثيقــة جــديدة ــ

د. السيد على أحمد فليفل
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهرة

مقــدمة

ينبغى أن تشكل الوثائق العمود الفقرى لاية دراسة تاريخية جادة • ذلك أن روايتى شخصين مختلفين لقصة خلافهما لن تكونا متفقتين أبدا ، بل أن كلا منهما سيبتعد كثيرا عن روايته الأولى اذا طال به الزمن وبعد العهد بينه وبين مخالفه وقصة خلافهما • ومن ناحية أخرى فان الوثيقة تجمد الأوضاع والمفاهيم والأفكار والأحداث ، وتقدمها كما هى ، لتخرج المؤرخ بذلك من ورطة كبيرة ، ان هو قدم أحكامه وفقا لروح عصره هو •

وعلى الرغم من أن الدراسة التى تلى هذه السطور لا تتعلق بحدث اختلف فيه ، ولا بمشكلة تتصارع الأطراف بشأنها ، بل تتعلق بفكر وتصور مستقبلى ، فان الوثيقة التى تقدمها الدراسة وتقوم عليها بالغة الخطورة والدلالة ، ذلك أنها تقدم تصورا بريطانيا للخريطة السياسية لمنطقة القرن الافريقى وارتيريا والحبشة والســودان ، بل وكينيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وهى تعطى صــورة واضــحة للطريقــة التى كان يفكر بهــا الاســتعماريون البريطانيون ، وللطريقة التى تعاملوا بها مع الشــعوب الخاضعة لهم ، ومع المتزلفين لهم من قادة الدول المحلية • وتبين الوثيقة أخيرا أن التكالب الاستعمارى على المنطقة لم يراع مصالحها المتشابكة وترابط بعض قاليمها ، بل وسلخ أقاليم من مصادر مياهها ، وشعوب من مراعيها ، بحيث ترتبت على هذا مشاكل رهيبة ، حاولت هــذه الوثيقة اقتراح حل لها ، ولكن الظروف الدولية حالت دون تنفيذه • ولعله ليس

من المبالغة القول بأن جانبا من المشاكل التى تعرضـت لهـا الوثيقة هى بعينها ذات المشاكل التى يجرى الصراع عليها اليوم بين الأطراف المحلية فى المنطقة ، وما اسـتقطبته من قوى كبرى ، أو بين القـوى الكبرى وما استقطبته من أطراف محلية .

وقد قسمت الدراسة الى مقدمة وثلاث نقاط رئيسية ، تحاول أن ترسم الخريطة السياسية للقرن الافريقى وارتيريا والسودان وأثيوبيا قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم تستعرض الأوضاع السياسـية للمنطقة ابان اعداد الوثيقة ، ثم تقدم تصورا للخريطة السياسية للمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى وضعه ممثلو الاستعمار البريطانى فيها . وتنتهى الدراسة أخيرا بخاتمة تتضمن ما توصلت اليه من نتائج ، وما تثيره من استفسارات .

واذ أتقدم بهذه الدراسة مجردة من كل هوى أو غرض أرجو أن تحفز عقول وقلوب أبناء المنطقة لمحاولة ادراك ما يراد بهم ، وادراك ما هم صانعون بأنفسهم ، ومحاولة رد المشكلات الى أصولها الأولى ، وربط الأقاليم بطبيعتها التى أرادها الله ، وليس بما اصطنعه الاستعمار وفشل فى علاجه . فما جمعه الله لن تنجح فى تفرقته قوى الاستعمار والدكتاتورية والتخلف ومصالح الدول العظمى الوقتية .

وبالله التوفيـق ،،،،،

دكتور / السيد على أحمد فليفل

تصور بريطاني للخريطة السياسية
للقرن الافريقى والسودان والحبشة
بعد الحرب العالمية الأولى

ـ وثيقـة جـديدة ـ

تكالبت الدول الاستعمارية الأوروبية والامبراطورية الحبشـية على منطقة القرن الافريقى واريتريا والسودان فقسـمتها فيما بينها ، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر • وقد ترتب على ذلك أن فقدت كثير من هذه البلاد أقاليم شديدة الأهمية بالنسبة لاقتصادها ، حيث تأثرت حياتها وانفصـلت قبائلها عـلى جانبى الحـدود التى رسـمتها الدول الاستعمارية •

وقد استبان لبعض رجال الاستعمار البريطانى فى المنطقة ابان الحرب العالمية الأولى مدى الأضرار التى لحقت بشـعوب المنطقة نتيجة هذا التقسيم العشوائى والجائر للحدود السياسية فعرض تصورا جديدا لها فى محاولة لاعادة الأمور الى نصـابها • وقد ارتأينا أن نقسـم البحث الى النقاط الآتية :

- الخريطة السياسية للمنطقة قبل الحرب العالمية الأولى •
- الأوضاع السياسية فى المنطقة ابان اعداد الوثيقة •
- تصور بريطانى للخريطة السياسية للمنطقة بعد الحرب •
- ملاحظات على خريطة التصور البريطانى المقترح •

الخريطة السياسية للقرن الافريقى قبل الحرب العالمية الأولى :

تشكلت الخريطة السياسية للقرن الافريقى قبل الحرب العالمية الأولى فى فترة مبكرة بدأت قبيل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، حين بدأت تهتم بالمنطقة قوتان افريقيتان هما : مصر واثيوبيا ، وثلاث قوى أوربية هى : فرنسا وبريطانيا وايطاليا •

أما مصر فقد اهتمت بالمنطقة استنادا الى حقوق السيادة العثمانية عليها ، والتى كانت قد انتابها الضعف مع ضعف الدولة العثمانية ذاتها . وكان الوجود العثمانى يرتكز على سلطة فعلية فى ميناءى سواكن ومصوع ، وعلى نفوذ ضعيف على ساحل البحر الأحمر الغربى كله ، تمثل فى تحصيل بعض الرسوم ، وعلى ساحل الصومال على المحيط الهندى وعلى سلطناته الاسلامية ، لا سيما سلطنات هرر وأوبيا والميجرتين وتاجوره ، فضلا عن المشيخات المحلية العديدة . وقد ظهر النفوذ العثمانى على هذه المنطقة جليا حين بدأ البريطانيون استعمارها . ففى مقابلة لاحدى اللجان البريطانية مع المدعو محمد عرفه عقيل منطقة هبرتا جالا نوح (Akhil of Habr taggala noh) قرب برغو فى مايو ١٩٠٩ ، أى بعد مضى نحو ربع قرن على استعمار البريطانيين للصومال ، فوجئت بمحمد عرفه يسأل عما اذا كان الانجليز أصدقاء مخلصين للأتراك ، فأضطر أحد أعضائها لأن يقول له : « اننا تجمعنا صداقة وطيدة ، بل اننا من كبار الموظفين فى حكومة اسلامية » فانفرجت أسارير عرفه وقال : انه كمسلم « يعتبر السلطان العثمانى أعلى سلطة ، ويعتبر الأتراك اخوته فى الله » (١).

وقد استطاعت مصر بالفعل أن تبسط سيطرتها على ساحل البحر الأحمر الغربى وعلى ساحل الصومال ، وتضم امارة هرر الاسلامية فى الداخل وذلك فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٧٥ و ١٨٨٤ ، حين أجبرتها بريطانيا على اخلاء المنطقة . وتجدر الاشارة الى أن مصر عندما سيطرت على هذه المنطقة ربطتها بالسودان وحاولت ربطها بالمديرية الاستوائية (٢) .

ولكن بينما كانت مصر تنحدر من القوة الى الضعف بفعل الضغط الاستعمارى وتنسحب مضطرة من منطقة القرن الافريقى ، كانت اثيوبيا ، وهى القوة الافريقية الثانية ، تنهض من سبات طويل وتعمل على التقدم اليها مستندة الى حق تاريخى تدعيه فيها . ومن هنا فقد شاركت أثيوبيا فى التكالب الاستعمارى على القرن الافريقى بعد الجلاء المصرى عنه . وقد بدأ منليك الثانى عاهل شوا تقدمه الى المنطقة باحتلاله هرر فى عام

---

(١) انظر مقابلة محمد عرفه مع اللجنة البريطانية فى
P.R.O. S.A.D., 125/1, P. 82.

(٢) انظر تفصيلات دقيقة عن هذه المحاولة وحملتى ماكيلوب عزدون عن توسيع مصر لممتلكاتها الافريقية فى جلال يحيى (دكتور) : مصر الافريقية والاطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٨٨٧ • ثم أعقب هذا بالسيطرة على مناطق شاسعة فى الصومال الغربى والأوجادين • وعلى عكس الدول الأوربية التى تكالبت على منطقة القرن الافريقى واقتسمت استعمارها ، لم يعمل منليك على الحصول على سند قانونى لوجوده فى الصومال الغربى ، عن طريق عقـد المعـاهدات مع السلاطين والأمراء والشيوخ الصوماليين ، وانما اهتم منليك بالحصول على اعتراف الدول الأوربية بأقصى امتداد لحـدوده الشرقية ، وهـو الاعتراف الذى بدأ بالمعاهدة الأنجلو اثيوبية فى ١٨٩٧ (١) •

ولم تكن أطماع اثيوبيا تقتصر على الصومال الغربى ، وانما كانت أكبر مطامعها تستهدف الوصول الى البحر الأحمر أو المحيط الهندى ، لتأمين تجارتها واتصالها بالدول الأوربية ، المصدر الرئيسى للسـلاح • ولكن التكالب الاستعمارى الأوربى على المنطقة حرم اثيوبيا من تحقيق هذا الهدف • فقد استقرت فرنسا فى جيبوتى ، بعد أن رأت أن أوبوك لا تفى بمتطلبات التجارة والاستراتيجية الفرنسية ، واسـتقرت بريطانيا أيضا فى الصومال فى منطقة شاسعة ضمت ميناءى بربرة وزيلع الهامين ، وذلك حتى تؤمن الاحتياجات الضرورية لقاعدتها فى عدن ذات الأهميـة القصوى فى جنوب البحر الأحمر وقناة السويس (٢) •

أما الاستعمار الايطالى فقد قطع الطريق الى البحر الأحمر على اثيوبيا عندما بدأت شركة روباتينو تأسيس أولى المستعمرات الايطالية حـول خليج عصب فى عام ١٨٧٠ ، على الرغم من احتجاج الحكومة المصرية على اعتداء ايطاليا على منطقة تعتبر خاضعة للسيادة العثمانية المصرية • ولكن الملك منليك وجد فى الايطاليين حليفا ضد كل من الأتراك والمصريين وضد الامبراطور يوحنا فى ذات الوقت • وقد انتهزت ايطاليا فرصـة الثورة المهدية واضطراب أحوال السودان الشرقى وفاتحت بريطانيا فى الاستيلاء على مصوع فوافقتها بريطانيا على أساس أن الوجود الايطالى سيكون أخف ضررا من الوجود الفرنسى ، كما أنه سيعمل على التصدى للثورة المهدية دون تكبيد بريطانيا مزيدا من الخسائر فى حربها • وتم لايطاليـا

(١) Caulk, Richard A.: The Occupation of Harar, January 1887 (Journal of Ethiopian Studies Vol. Lx, No. 2 Haile Sellassie I Umiverrity, Institute of Ethiopian Stndies, Addis Ababa, July 1971 ; P, L.)

(٢) Lewis, I. M: The Midern History of Somaliland, London 1965 pp. 41-44.

ما أرادت فى ٥ فبراير ١٨٨٥ ، وقد حددت الحدود بين المستعمرة الايطالية فى اريتريا وكل من السودان وأثيوبيا فى اتفاقيتى ١٩٠١ ، ١٩٠٨ ، وقد تعدل الاتفاق الاول الخاص بحدود اريتريا — السودان فى ١٩ يناير ١٩٠٤ وصارت تمتد من عند جبل أبى جمل الى نهر العطبرة عند التقائه بنهر ستيت ثم تسير مع هذا النهر جنوبا (١) • ولكن عند التحديد الفعلى لخط الحدود حصلت مستعمرة اريتريا الايطالية على منطقة أم حجر (امبريجا) وذلك حتى تضمن لنفسها جزءا من تجارة أثيوبيا وحتى تحتفظ ايطاليا بمركز يشرف على شمال اثيوبيا أملا فى التوغل اليها حين تتفكك امبراطوريتها (٢) • وبالنسبة للحدود الاريترية الاثيوبية فقد حددها اتفاق ١٦ مايو ١٩٠٨ بين ايطاليا واثيوبيا بخط أنهار مارب — بيلسيا — مونا ، فيبدأ خط الحدود من نهر مونا هذا ، ثم يتجه جنوبا بشرق حتى حدود الصومال الفرنسى ، على بعد ستين ميلا من الساحل ، وبمحازاته • أما فى الصومال فقد تلاحقت المعاهدات الايطالية مع شيوخ ساحل بنادر جنوبى الصومال ، لا سيما سلطان أوبيا وسلطان مجرتين (٣) •

بيد ان ايطاليا لم تكتف بما نالته بل كانت تسعى الى فرض حمايتها ونفوذها على اثيوبيا ذاتها ، وتلاعبت بألفاظ النص الايطالى لمعاهدة أوتشيالى مع اثيوبيا فى عام ١٨٨٩ ، بشكل يحقق لها مسعاها آنف الذكر • بيد أن الامبراطور منليك رفض الاستجابة لحلفاء الامس ، وأوقع بهم الهزيمة فى معركة عدوة دفاعا عن استقلاله فى عام ١٨٩٦ (٤) •

وبدءا من هذا العام صارت اريتريا منطقة ذات أهمية خطيرة لثلاث قوى هى : اثيوبيا التى تريد الوصول الى البحر ، وايطاليا التى تريد منع اثيوبيا من الاستيلاء على مستعمراتها ، وتريد أيضا الانتقام من هزيمة

---

(١) السيد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقيا وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، رسالة ماجستير منشورة — مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص (١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٠ ، ٤٠٢ ، ١٦٥).

(٢) يونان لبيب رزق (دكتور) : السودان فى عهد الحكم الثنائى الاول ١٨٩٩ — ١٩٢٤ ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٩٩ .

(٣) السيد رجب حراز (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٤٧٩ — ٤٩١ .

(٤) انظر دراسة مستيفيضة عن معركة عدوة وما ترتب عليها من آثار فى :
Berkeley, George :
The Campagin of Adwa and the Rise of Menelik, London, 1935.

عدوة ، وأخيرا بريطانيا التى اكتشفت أن سماحها لايطاليا بتأسيس مستعمرة اريتريا — كبحا للثورة المهدية — لم يكن أمرا حكيما • فقد ثبت لها بعد أن استعادت السودان أن له مصالح جمة فى اريتريا (١) •

أما الحدود السياسية بين السودان الانجلو مصرى واثيوبيا فقد ارتبط تحديدها بعدة عوامل أهمها : ضرورة تأمين حقوق مصر فى مياه النيل ، ومطامع اثيوبيا فى الأراضى السودانية استنادا الى خطاب منليك الدورى الى الدول الأوربية فى ١٠ ابريل ١٨٩١ ، والذى وصل بحدود اثيوبيا ، كما تخيلها منليك ، الى الخرطوم ذاتها (٢) • ولكن بعد أن نجحت بريطانيا فى سحق الحكم المهدى فى السودان وازاحة النفوذ الفرنسى من فاشودة مال منليك الى الاستجابة لرغبة بريطانيا فى تحديد الحدود السودانية الاثيوبية • وفى ١٥ مايو ١٩٠٢ وقع منليك مع جون لين هارنجتون Harington الضابط البريطانى المكلف بالتفاوض معه بشأن حدود السودان اتفاقا نصت المادة الأولى منه على أن يسير خط الحدود من خور أم حجر الى القلابات الى أنهار النيل الأزرق وأنهار البار والبيبور والاكوبر ثم الى مليل الى التقاء خط عرض ٦ شمالا بخط طول ٣٥ شرق جرينتش • ويلاحظ أن اثيوبيا حصلت على بنى شنقول على الحدود الشرقية مع السودان ، ومقابل هذا منحت الشركات البريطانية امتياز البحث عن الذهب فيها ، كما نالت بحيرة تانا ومنابع النيل الأزرق ، مقابل تعهدها بعدم منح أية امتيازات فيها الا للحكومتين البريطانية والسودانية مع حق استعمال قوة المياه المندفعة منها دون التأثير على كميتها (٣) •

وقد اتفقت كل من ايطاليا وفرنسا وبريطانيا بعد أن استقرت أوضاع الحدود السياسية فى المنطقة ، ونجحت بريطانيا فى فرض سيادتها على وادى النيل وعقدت الوفاق الودى مع فرنسا فى عام ١٩٠٤ ، تقول اتفقت ثلاثتها على التعاون فيما بينها على عدم الاخلال بوضع الامبراطورية الحبشية السياسى والاقليمى ، وذلك فى عام ١٩٠٦ (٤) •

---

(١) انظر ما يرد عن هذا ص ١٧ •
(٢) حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ، الجزء الثانى ، ص ١٣٠ ، ١٣٢ •
(٣) يونان لبيب رزق (دكتور) : المرجع السابق ص ، ١٠١ ، ١٠٤ — ١٠٥ •
(٤) تمام همام تمام (دكتور) : تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٥ حاشية رقم ٤ •

وقد كانت الحرب العالمية الأولى فرصة لرجال الاستعمار البريطانى فى الصومال والسودان واثيوبيا للتفكير فى مستقبل المنطقة بعد انتهاء القتال • واذا كنا نوشك أن نتعرض لتصورهم للخريطة السياسية لمنطقة القرن الافريقى والسودان الشرقى واثيوبيا ، فاننا نذكر بداية بأن القوى الأوربية التى سيطرت على القرن الافريقى كانت ثلاثتها متحالفة فى الحرب العالمية الأولى • بل ان دخول ايطاليا هذه الحرب الى جانب كل من فرنسا وانجلترا لعب دورا هاما فى ترجيح كفة الحلفاء ، ذلك أن الايطاليين فتحوا جبهة جديدة للجيش النمساوى • ورغم هزائمهم المبكرة فقد اعتبروا انتصاراتهم سببا فى سقوط امبراطورية الهابسبرج فى النمسا والمجر ، بل وفى انتصار قضية الحلفاء ذاتها • ومن ثم امتلكهم الغضب عندما رأوا ضآلة نصيبهم من غنائم الحرب بعد أن وضعت أوزارها (١) •

الأوضاع السياسية فى المنطقة ابان اعداد الوثيقة

تباينت الاوضاع السياسية فى أقطار المنطقة وقت اعداد الوثيقة• فقد ألقت الحرب العالمية الأولى بظلالها على المنطقة • فتجمدت أوضاع الصومال الفرنسى والايطالى والبريطانى والحبشى ، واستكان السودان للحكم الاستعمارى البريطانى المغلف بالسيادة المشتركة الأنجلو مصرية • أما اثيوبيا فكانت تمر بمرحلة انتقالية بعد عصر منليك •

فأما السودان فقد صار الاستعمار البريطانى فيه صاحب الكلمة العليا ، وراح حاكمه العام البريطانى يعمل بكل جهده من أجل التفرقة بين السودان ومصر بل وبين شمال السودان وجنوبه • ولم يعد النفوذ المصرى فى السودان يظهر الا فى أضيق نطاق وعلى الصعيد الرسمى • وقد كان لاعلان الحماية البريطانية على مصر فى عام ١٩١٤ وطأة شديدة على الحركة الوطنية المصرية والسودانية • بيد ان هذه الحركة فضلت الانتظار حتى تنقشع سحابة الحرب لتنظر ماذا ستفعل الدول فى مبادىء الرئيس ويلسن• ولكن عندما انجلت تسويات ما بعد الحرب عن صدمة لآمال الوطنيين فى مصر والسودان كانت ثورة ١٩١٩ فى الأولى وحركة ١٩٢٤ فى الثانية •

---

(١) فيشر هـ. أ. ل. ، تعريف احمد نجيب هاشم ووديع الضبع : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث (١٧٨٩ — ١٩٥٠) ، الطبعة السادسة ، ص ٥٠٨ .

ولكن أثناء الحرب العالمية الأولى ذاتها كان هناك مشروع توسعى ايطالى فى افريقيا ، على غرار مشروع بريطانيا الطولى بين القاهرة فى الشمال والكيب فى الجنوب ، ومشروع فرنسا العرضى للربط بين جيبوتى فى الشرق والسنغال فى الغرب • وكان المشروع الايطالى يستهدف التقاط مفاتيح البحر المتوسط فى جنوب البحر الأحمر ، أو بمعنى آخر وصل اريتريا والصومال الايطالى بطرابلس الغرب عن طريق استئجار مستعمرة الصومال البريطانى وكسلة والتاكة السودانيتين ، مع ضمان سلامة منابع النيل لمصر ومصالح انجلترا التجارية فى السودان (١) • ولعل هذا التصور الايطالى للخريطة السياسية للسودان والقرن الافريقى ومحاولة ربط مستعمرات ايطالية فى البحر الأحمر بأخرى فى البحر المتوسط يقدم دليلا على أن الانجليز لم يكونوا وحدهم الذين يضعون التصورات لخريطة المنطقة بعد الحرب •

ومن ناحية أخرى فان السودان خلال الحرب صار هدفا للدعاية الألمانية والتركية التى حاولت اثارة أبنائه ضد لمستعمرين الانجليز ، ولكن ذكريات الجراكسة والأتراك فى السودان فضلا عن حسن معالجة المجاعة فى مديريات النيل الأزرق والنيل الأبيض جنبت الانجليز ثورة سودانية محتملة ، بل ان سير ريجنالد وينجب حاكم عام السودان استطاع الحصول على تأييد المشايخ والزعماء للحكم البريطانى (٢) •

أما القرن الافريقى بمستعمراته الصومالية المختلفة فان الوضع السياسى فيه قد تجمد عند نقطة معينة منذ ما قبل الحرب • فقد استمرت الحركة الوطنية المسلحة التى يقودها الشيخ محمد بن عبد الله حسن ضد الأحباش والانجليز ، وهى الحركة التى كانت تحصل على السلاح عبر جيبوتى وتهادن الايطاليين فى ذات الوقت • واذا كانت هذه الحركة قد عجزت عن طرد أى مستعمر من الأراضى الصومالية ، فانها قد سببت مشاكل جمة للمستعمرين جميعا وكبدتهم خسائر فادحة فى الأرواح والاموال والعتاد ، لدرجة أن فكر البريطانيون فى اخلاء الصومال وتسليمه لايطاليا على نحو ما سنرى عما قليل ، بعد أن كانوا قد ركزوا ادارتهم فى المنطقة الساحلية (٣) •

(١) السيد رجب حراز (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٤٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ •

(٢) يونان لبيب رزق (دكتور) : المرجع السابق ص ٣٥٢ — ٣٦٠ •

(٣) S.A.D. Appendix V 11, 119.

أما اثيوبيا فانها كانت تمر بمرحلة انتقالية • ذلك أن عاهلها الكبير منليك الثانى قد توفى فى عام ١٩١٣ قبل الحرب العالمية الأولى ، بعد حكم طويل ناجح استطاع خلاله توحيد الحبشة ، ثم توسيع مملكته حتى صارت امبراطورية ضخمة ضمت اليها أجزاء شاسعة فى الصومال الغربى وفى سيدامو وعروسى فى جنوب بلاده ، حيث أرض الجالا ، وفى السودان الشرقى ، بحيث ورث حفيده ليج اياسو مملكة تبلغ أضعاف المملكة التى حكمها هو نفسه عند بداية عهده ، ولكن ليج اياسو فاجأ النبلاء الأمهرة جميعا ، والدول الأوربية المترقبة كلها ، فأعلن اسلامه وراح يقدم كل عون ممكن لحركة الجهاد الاسلامى فى الصومال ضد الانجليز ، وصارت هرر بتراثها الاسلامى ورغم الحكم الحبشى ، مركزا للدعاية التركية ضد الحلفاء • فقد عمل القنصل التركى فيها ، بتشجيع من الامبراطور ليج اياسو فيما يبدو ، على تعكير العلاقات بين الانجليز والشيوخ الصوماليين الخاضعين لحمايتهم بترويج فكرة الجهاد المقدس ضد المسيحيين (١) • ولكن فى ٢٧ سبتمبر ١٩١٦ نجح النبلاء الأمهرة والأسقف المصرى للكنيسة الاثيوبية فى خلع اياسو ، وخلفته الامبراطورة زاوديتو على العرش وصار رأس تفارى ، (الامبراطور هيلاسيلاسى فيما بعد) ، وصيا على العرش • وقد حاول الامبراطور المعزول اعادة الأوضاع الى نصابها معتمدا على أنصاره من المسلمين • وعلى الرغم من فشله فان الفتن عمت الحبشة من أقصاها الى أقصاها (٢) •

كانت هذه هى الأوضاع السياسية المتردية فى المنطقة ابان اعداد الوثيقة موضوع الدراسة • وليس من شك فى أنها قد ألقت بظلالها الكثيفة على فكر كاتبها ، ويلفريد تسيجر ، عندما شرع يضع من اديس ابابا ، تصوره لشكل الخريطة السياسية للمنطقة كلها ، بعد أن تنتهى الحرب العالمية الأولى •

تصور بريطانى للخريطة السياسية للقرن الافريقى
والسودان والحبشة بعد الحرب العالمية الأولى
وثيقة جديدة

لم يكن التصور الذى نعرضه هنا هو التصور البريطانى الوحيد للخريطة السياسية للمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن كان تصور

(١) S.A.D. 125/8, G.F. Archer to Sir R. Wingate, 7 th December 1914.

(٢) تمام همام تمام (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

المسئولين البريطانيين فى المفرضية البريطانية فى أديس أبابا ، والذى وافقهم عليه المسئولون البريطانيون فى السودان. وقد استخرجنا التصور البريطانى هذا من وثيقة بريطانية وردت فى وثائق الأرشيف السودانى ، بدار المحفوظات البريطانية . وهذه الوثيقة عبارة عن خطاب موجه من المفوض البريطانى فى أديس ابابا ، المدعو ويلفرد تسيجر Wilfred Thesiger الى الجنرال سير ريجنالد وينجت حاكم عام السودان فى ظل الحكم الثنائى المصرى البريطانى . والخطاب مؤرخ فى الحادى عشر من اكتوبر ١٩١٧ ولم تزل رحى الحرب العالمية الأولى دائرة (١) .

وقد حمل الخطاب علامة السرية ، واستهل بمقدمة تبين أنه مهتم بقضية مستقبل الحبشة والاتفاقات المحتملة بين بريطانيا وكل من ايطاليا وفرنسا ، ولكن الواقع أنه عرض تصورا كاملا أيضا لمنطقة القرن الافريقى والسودان وكينيا . ويظهر فى مقدمة الخطاب أنه لم يكن الوحيد الذى تبادله المسئولان الكبيران فى السودان واثيوبيا ، وينجت وتسيجر ، حول القضية آنفة الذكر . ورغم أننا لم نستطع الحصول على مراسلاتهما السابقة ، فاننا نظن الخطاب الذى بين أيدينا كافيا لاستنتاج ما ورد فيها . واذا كنا عازفين عن القيام بأية محاولة للاستنتاج نظرا لخطورتها وعدم دقتها ، فاننا نرى الخطاب الذى بين أيدينا وثيقة متكاملة وقائمة بذاتها ، وتحقق للدراسة أهدافها من حيث تبيان أنانية الدول الاستعمارية حتى فيما بينها ، ومدى هوان القوى المحلية بالنسبة لها مهما تزلفت هذه اليها وتقربت ، ومدى ما صاحب عملية التكالب الاستعمارى على القارة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر من مظالم للشعوب وعدم مراعاة لبيئاتها ومصالحها وتراثها .

ويمكن لنا أن نقسم الموضوعات التى تناولتها الوثيقة الى :

(أ) مستقبل الحبشة فى التصور البريطانى .

(ب) فرض الاصلاح أو فرض الحماية على الحبشة وموقف تافارى .

(جـ) تقسيم الحبشة وضم أقاليم منها للسودان .

(د) مستقبل اريتريا .

---

(١) P2: R.O. S.A.D. : Letter from Wilfred Thesiger British Legation, Addis Ababa, October II th, 1917, to General Sir R, Wingate.

(هـ) مستقبل الصومالين الفرنسى والبريطانى •

(و) مستقبل شرق افريقيا البريطانية (كينيا) •

(ز) ضمانات ايطالية لبريطانيا والسودان •

وسنتناول فيما يلى هذه النقاط الصغيرة باعتبارها الجوانب الرئيسية للتصور البريطانى الذى نعرضه هنا لخريطة القرن الافريقى والسودان وأثيوبيا ، بيد أننا نسارع فنذكر أن تصور تسيجر المفوض البريطانى فى أديس أبابا لهذه الخريطة يقوم باختصار على أن ينال السودان الانجلو مصرى اريتريا من ايطاليا ، وأربعة أقاليم من الحبشة وتضمن مصر مصالحها فى مياه تانا ، وتمد خط سكة حديد من الخرطوم الى البحر عبر أديس ابابا، وتضمن بريطانيا ميناء بربرة وظهيره فى هرر ، مقابل أن تنال ايطاليا كلا من الصومالين البريطانى والفرنسى ، فضلا عن الصومال الايطالى وتفرض حمايتها على الحبشة • أما فرنسا فتتنازل عن جيبوتى ، مقابل تعويض مناسب فى أوربا بعد هزيمة المانيا •

(أ) مستقبل الحبشة فى التصور البريطانى :

كانت أولى القضايا التى انشغل بها ويلفرد تسيجر ، حين كتب فى ١١ أكتوبر ١٩١٧ من أديس ابابا الخطاب الذى نحن بصدده الى جنرال سير ريجنالد وينجت حاكم عام السودان ، هى قضية مستقبل الحبشة • فلقد كانت ، كما ذكرنا من قبل ، تمر بمرحلة انتقالية بعد ليج اياسو ، فلم يكن الوصى على العرش ، رأس تافارى ، قد بدأ بعد جهوده لاقرار النظام بعد أن عمت الفوضى أنحاء البلاد • وشعر تسيجر بأن هذه الفوضى مبرر كاف للتدخل الأوربى فى شئون الحبشة ، والذى يعنى تقسيمها بين الدول المهتمة وهى على وجه التحديد : بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، والتى سبق أن ذكرنا أنها قد تعاهدت فى عام ١٩٠٦ على أن تحفظ الوضع السياسى والاقليمى للامبراطورية الحبشية (١) •

وقد تبين تسيجر أيضا أنه لما كان تدخل هذه الدول محتملا فان من الضرورى أن يعمل البريطانيون على مناقشته مبكرا ، حتى يستقر رأيهم على تصور واضح لأوضاع الخريطة السياسية للمنطقة ، حتى لا يأخذهم

(١) راجع ما سبق عند الحديث عن الخريطة السياسية المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى .

الحليفان الايطالى والفرنسى على غرة • وقد رأى تسيجر أنه لما كان للحلفاء الثلاثة حق التدخل فى الشئون الحبشية فان التعاون بينهم أو توقع أية نتيجة طيبة سيكون محالا • ولما كان البريطانيون عازفين عن الاضطلاع بعبء القيام بحملة عسكرية ضد الحبشة حيث ليست لهم فيها مطامع خطيرة كفرنسا أو ايطاليا ، فقد مال تسيجر الى اقتراح أن تنفرد دولة واحدة من الدول الثلاث بالحبشة فتفرض عليها حمايتها (١) •

كان رأى تسيجر بانفراد دولة واحدة بغرض الحماية على الحبشة ، متأثرا بالتجربة الانجلو فرنسية فى مصر ، ذلك أن الادارة المشتركة من دولتين لبلد ثالث نادرا ما تكون فى صالح هذا البلد ، ونادرا ما تستمر بسبب وقوع خلافات مستديمة ومتزايدة بين طرفى الادارة • وقد رأى تسيجر أنه على الرغم من أن التعاون بين بريطانيا وايطاليا فى الشئون الحبشية أمر ممكن ، فيما لو قدر لهما أن يديرا دفة الحكم فى الحبشة فان من الطبيعى أن يدب الخلاف بينهما ، وستتساوى غيرة ايطاليا من بريطانيا فى الحبشة عندئذ مع ما كان لفرنسا من غيرة فى مصر (٢) •

من هنا رأى تسيجر أن الدولة المؤهلة للانفراد بالحماية على الحبشة هى ايطاليا لعدة أسباب ذكر منها :

١ ــ أنها أقل خطرا على المصالح البريطانية من فرنسا •

٢ ــ أن بريطانيا تود تقديم امتياز سخى لايطاليا نظير دخولها الحرب الى جانب الحلفاء ، طالما أن هذا السخاء لن يتعارض مع المصالح البريطانية (٣) •

٣ ــ أن الأوضاع فى الحبشة سيئة وسوف تعمل الحكومات الأوربية المهتمة على التدخل بالضغط الدبلوماسى لأجل تحسينها • ولكن لما لم تكن هناك حكومة مسئولة للحبشة يمكن الضغط عليها فممن يطلب الاصلاح (٤)؟

٤ ــ أنه لا يمكن ، فى ظل ظروف التنافس من أجل السيطرة على الحبشة بين الدول الحليفة الثلاث ، أن تضطلع احداها بعبء شن حملة

---

(١) S.A.D. 125/8 Op. Cit., P.I.
(٢) Ibid., PP. 1, 3.
(٣) Ibid., P. 2.
(٤) Ibid., P. 5.

عسكرية على الحبشة دون أن تحصل على مساعدة من دولة أو دولتين منها ، وستعمل الحبشة على ضرب كل دولة من الثلاث بالأخرى أو بالأخرين • كما أن تقسيم الحبشة بين الدول الثلاث سيكون نغمة نشازا فى آذان الرأى العام العالمى •

٥ - أن من الممكن لبريطانيا أن تسترضى فرنسا فى مكان آخر من أوربا ، ولكن بالنسبة لايطاليا فليس هناك أمل فى اقناعها بالتنازل عن ادعاءاتها • وبوسع بريطانيا فى حالة اقرار انفراد ايطاليا بالحماية على الحبشة أن تنسحب لصالحها ، دون التضحية بأى من مصالحها الحساسة وفق ترتيب معين وضعه تسيجر ، وسنعرض له حالا (١) •

٦ - أن ايطاليا لن تعترض على الاتفاق المقترح ، لانها ستنال مستعمرة غنية فى الحبشة وستنال فوق ما كانت تحلم به فيما لو قسمت الحبشة بين ثلاث دول وتتحرر تماما من أية مزاحمة من دولة أخرى فى الشئون الحبشية (٢) •

(ب) فرض الاصلاح أو فرض الحماية على الحبشة وموقف تافارى :

ان الخبرة التى جناها تسيجر من التعامل مع رأس تافارى (هيلاسلاسى فيما بعد) ، خاصة خلال الشهور الأخيرة من عام ١٩١٦ وما انصرم من شهور عام ١٩١٧ حتى كتابة الخطاب فى أكتوبر ، أظهرت له عجز رأس تافارى عن انجاز أى اصلاح حقيقى فى الحبشة • فيذكر انه على الرغم من تقربه الشديد الى الانجليز واتصاله الكثيف بممثليهم ، وهذه صفات حميدة يراها تسيجر فيه ، الا انه عاجز عن امضاء رغبته فى فرض الأمن فى الحبشة حتى فقدت البلاد معنى الطاعة والالتزام بالنظام ، ذلك أن معارضيه ينتشرون فى كل مكان • وبالنسبة للعلاقات بين الأحباش والأوربيين فقد كانت سيئة تماما داخل الحبشة سواء فيما يتعلق بالمشاعر أو فيما يتعلق بالمعاملة • وليس متاحا أن يعامل الأوربيون وفقا لروح العدالة بل قد يحدث أن يتعرضوا للفتك بهم • أما حرية التجارة فهى أمر بعيد المنال تماما ، رغم أنها أكثر ما تهتم به الدول الأوربية تمهيدا لتغلغلها الرأسمالى (٣) •

---

(١) Ibid.,
(٢) Ibid., P. 7.
(٣) S.A.D. 125/8 : Op. Cit., PP. 4, 5.

وذكر تسيجر بأن محاولة حل الأزمة الحبشـــية أمر لا يمكن تأجيله طويلا ، فسرعان ما ستضطر الدول الأوربية صاحبة المطامع الى البحث عن مخرج ، ولكنها لن تجد الضغط الدبلوماسى مجديا ، حيث ليست هناك حكومة مسئولة يوجه هذا الضغط اليها ، ولا نظام للاصلاح يمكن قبول الجانب الحبشى به ، بسبب العداء التقليدى لكل اصلاح • والاصـــلاح الذى ينشده الأوربيون هنا ليس هو الاصـــلاح الذى يتفق ومصـــالح الحبشة ، بل الذى يمهد لهم السيطرة عليها دون تكبد نفقات الحملات الحربية لفرض مصالحهم •

وما دامت الحبشة لن تخضع للدول الأوربية طواعية فلابد من التدخل العسكرى ، والتدخل العســكرى معناه الحرب ، ونتيجــة الحرب هى تقسيم الحبشة • وللخروج من هذا المأزق ينبغى ، فى نظر تسيجر ، أن تخضع الحبشة للحماية الايطالية بموافقة كل من فرنسا وبريطانيا ودعمهما • وسوف تدرك الحبشة أن فرصتها الأخيرة قد حانت وأن المسألة مســألة اصلاح أو خسارة استقلالها ذاته ، وستضطر والحالة هذه أن تقبل نصح من يرشـــدها فى ادارة الشئون التجارية والمالية وســيكون المرشـــدون الايطاليون مســئولين عن اتخاذ الخطوات الأولى فى اتجــاه اعادة تنظيم الحبشة بما يتفق والمطامع الأوربية (١) •

وحاول تسيجر أن يقدم المبررات لاعلان الحماية على الحبشة اذ كان يتوقع سلفا اعتراض حزب العمال البريطانى والدول المحايدة ، والرأى العام العالمى ، خاصة بعد أن انتشرت مبادىء ويلســـون عن حق تقرير المصير ، وحق الشعوب الصغيرة فى أن تحكم نفسها • ولما كان التناقض جليا بين هذه المبادىء والحماية المزمع فرضها على الحبشـــة ، فان تسيجر وضع فى حسبانه تدبير ذريعة للتدخل الايطالى وذلك بافتعال حادثة شنيعة يرى الرأى العام العالمى معها أن يغض الطرف عن هذا التدخل ، بل وقد يرحب به (٢) •

---

(١) S.A.D. 12518 : Op. cit., p. 6.

(٢) Ibid., P. 5.

(ج) تقسيم الحبشة وضم أقاليم منها للسودان :

عندما تنجح ايطاليا فى فرض حمايتها على الحبشة ستعمل بريطانيا معها على تقسيم الحبشة ، لحل كثير من المشاكل المترتبة على تقسيم منطقة القرن الافريقى بين الدول الاستعمارية والحبشة ابان فترة التكالب فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر • ذلك أن الحبشة قد استولت على أقاليم شاسعة من السودان ، كان فقدانه لها شديد الخطورة على اقتصاده وتعتبر استعادته لها ضرورة لرخائه •

وقد قام تصور تسيجر على أساس تقليص الامبراطورية الحبشية الى حدود تقترب من حدودها السابقة على توسعات منليك • ولكنه رأى أن مصالح السودان فى الامبراطورية الحبشية أكثر وضوحا وارتباطا بمصيره من مصالح الصومال وشرق افريقيا البريطانية ، بحيث ينال السودان النصيب الأوفى فى الأراضى الحبشية عند تقسيمها ، وذلك بضم أجزاء منها للسودان وأخرى للصومال وثالثة لكينيا ، كما سنوضح فيما بعد • أما السودان فيكون نصيبه عند تقسيم الحبشة على النحو التالى :

أولا — يحصل السودان على ضمان كاف بعدم المساس اطلاقا بتدفق المياه من النيل الأزرق وبحيرة تانا عبر اراضيه • ولم يوضح هل تضم المنطقة الى السودان أم يكتفى بضمانات سياسية •

ثانيا — يسترد السودان أقاليم أربعة سبق للحبشة أن ضمتها ، وبهذه الأقاليم وحدها يستطيع السودان أن يعتمد على نفسه • وهذه الأقاليم لم يتوقف السودان ومصر عن المطالبة بها وباستردادها وهى :

١ — منطقة جوجام (Gojjam) بمنفذها على البحيرة ، وأقاليمها المنتجة للحبوب والوفيرة الماشية •

٢ — منطقة واليجا (Walega) بمناجم الفحم المحتمل توافرها بها وبثرواتها المعدنية غير المشكوك فيها •

٣ — منطقة كافا وجور (Kaffa & Gore) بامداداتها غير المحدودة من البن •

٤ — منطقة جيما بما تضمه من سكان مسلمين نشطين مجدين ومن امكانيات تجارية •

وتنبأ تسيجر فى تصوره بأن السودان اذا ما أعيدت اليه هذه الأقاليم سيمتلك ظهيرا بريا يمده بحاجته من الحبوب والبن والسكر والقمح والذهب ، بل ومن المحتمل أن يمده بالبترول ، بينما يمكن استخدام مرتفعات جوجام كمركز للاستشفاء ولتربية الجياد والبغال (١) •

وتنبأ تسيجر أيضا بان الأقاليم الاثيوبية الأربعة آنفة الذكر لن تعترض على هذا المشروع بل سوف ترحب بالانضمام الى السودان ، وبصفة خاصة جوجام فانها ستتعجل اليوم الذى تنضم فيه الى السودان وتتحرر فيه مرة أخرى من مساوىء الحكم الحبشى (٢) •

(د) مستقبل اريتريا ـ ضمها للسودان :

كان على تسيجر ، اكما لا لتصوره ، أن يتعرض لمصير اريتريا ، المستعمرة الايطالية الأولى فى القرن الافريقى • ويبد وأن البريطانيين بعد ما استقر بهم المقام فى السودان قد شعروا بأن سماحهم للايطاليين باحتلال اريتريا كان عملا خاطئا ، وأن اعتراض مصر على التدخل الايطالى فى عصب ومصوع كان له ما يبرره تماما ، حيث ان هذه المنطقة تمثل منفذا هاما لتجارة السودان ومجالا حيويا رئيسيا له • ولهذا بين تسيجر ضرورة تصحيح هذا الوضع باعادة اريتريا الى السودان وتعويض ايطاليا فى أماكن أخرى مثل الصومالين الفرنسى والبريطانى •

وقد رأى تسيجر أن تضحية ايطاليا باريتريا وتنازلها عنها للسودان واجبة ، لاعادة الأوضاع الى ما كانت عليه من قبل وتحقيقا لمصالح السودان ، هذا من ناحية ، ولتمكين بريطانيا من فرض سيادتها المطلقة على البحر الأحمر والتحكم الفعلى فى ساحله الغربى من ناحية أخرى ، وهذا سيلغى أية ميزة تنشأ من سقوط بربرة وجيبوتى فى أيدى ايطاليا •

وذكر تسيجر بأنه لا يرى ضم تيجرا الى السودان ، لأنها تنتمى للبيئة الحبشية أكثر من انتمائها لبيئته ، كما أن الظهير الطبيعى لاريتريا ليس تيجرا أو الحبشة بل السودان • كذلك فان عدم ضم تيجرا الى السودان سيخلصه ويخلص الاستعمار البريطانى فيه من كل مشاكل الحبشة (٣) •

(١) S.A.D. 125/8 : Op. Cit., PP. 3,4.

(٢) Ibid., PP. 6, 7.

(٣) Ibid., P. 4.

(هـ) مستقبل الصومالين الفرنسى والبريطانى :

كان على جيبوتى ، مثلها فى ذلك مثل اريتريا ، أن تستبدل استعمارا باستعمار • فقد تصور تسيجر أن مصالح فرنسا فى الحبشة يمكن مقايضتها بمكان آخر لاسيما فى أوربا • وفى هذه الحالة تحصل ايطاليا على جيبوتى، اكمالا لسيطرتها على الحبشة ، وتمكينا لها من الضغط عليها بالتحكم فى خط سكة حديد جيبوتى ــ اديس ابابا [1] •

أما الصومال البريطانى فانه ادراكا من تسيجر لمدى ما تواجهه بريطانيا فيه من مقاومة اسلامية عنيفة [2] ، ورغبة منه فى تخليص بلاده من مصاعبها هذه فى الصومال [3] • فقد وضع تصورين مستقبليين للصومال البريطانى:

الأول ــ يقوم على التنازل لايطاليا عن أجزاء فقط من الصومال ، مع احتفاظ بريطانيا بميناء بربرة الاستراتيجى وضم هرر اليه بعد سلخها من الحبشة التى كان قد سبق لها أن استولت عليها فى عام ١٨٨٧ • وذكر تسيجر أن بريطانيا ليس لها مصلحة كبيرة فى الاحتفاظ بباقى أنحاء الصومال حيث انها قد اضطرت الى استعمارها نتيجة رغبتها الملحة فى منع سقوط ميناء بربرة فى أيدى دولة معادية • ويمكن لهذا الميناء اذا ضمت اليه هرر أن يصبح مستعمرة بريطانية جديدة قادرة على الاعتماد على نفسها ، وستكون فى هذه الحالة أكثر فائدة للاستعمار البريطانى من الصومال البريطانى بوضعه الراهن • وهذا التصور يفترض أن استيلاء ايطاليا على بربرة قد يهدد الهيمنة البريطانية فى البحر الأحمر فى حالة حدوث خلاف بينهما ، ولهذا فهو حريص على الحفاظ عليها وعلى ظهيرها الاقتصادى فى هرر [4] •

والثانى ــ يقوم على معاملة ايطاليا بكرم والاستجابة لتطلعاتها المستقبلية فى الحبشة فتمتنع بريطانيا عن المطالبة بهرر باعتبارها الظهير البرى الطبيعى للصومال البريطانى وهذا يقتضى أن تنسحب بريطانيا من

---

(١) S.A.D. 125/8 : Op. Cit., P. 6.

(٢) راجع مما سبق ذكره عن أوضاع الصومال ابان اعداده الوثيقة .

(٣) S.A.D. 125/8 Op. Cit., P. 6.

(٤) Ibid., PP. 2, 3.

الصومال كله وتتركه لايطاليا على شرط عدم التضحية بالمصالح البريطانية فيه وذلك بالحصول على ضمانات من ايطاليا (١) •

(و) مستقبل شرق افريقيا البريطانية (كينيا) :

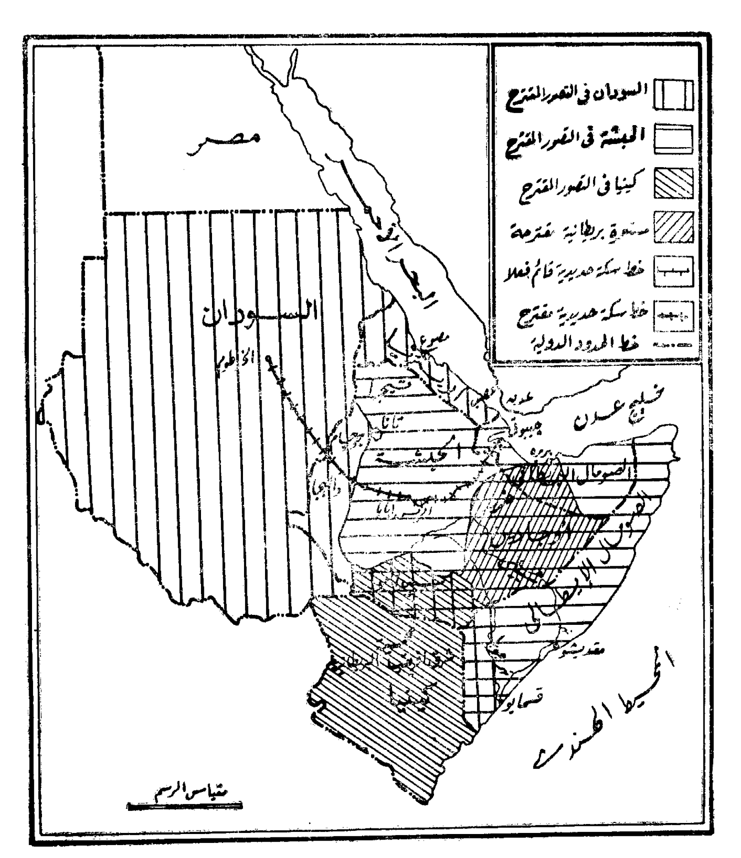
تعرض تسيجر أيضا فى تصوره لشكل الخريطة السياسية للمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى لمحمية شرق افريقيا البريطانية • وقد سلم بداية بضآلة مصالح هذه المحمية فى الأراضى الحبشية عند الشروع فى تقسيمها بعد الحرب العالمية الأولى فليس لها اتصال مباشر بالحبشة حيث أن الأقاليم الخصيبة من المحمية منفصلة تماما عا الحبشة واقليمى سيدامو وبوران Sidamo & Boran اللتين ضمهما منليك من بلاد الجالا والمنطقة الرئيسية التى تفصل الحبشة عن المستعمرة هى الصحراء التى تمتد مائتى ميل من نهر الجوبا الى بحيرة رودلف •

ولكن مع هذا فان تسيجر يفترض ان هذه المنطقة الحبشية سيدامو وبوران مع غناها وثرائها قد تكون محط أنظار بريطانيا وعندئذ يذكر أن من الضرورى بل والعملى أن تتم ادارتها من الخرطوم لا من نيروبى • وكان معنى هذا ببساطة أن تسيجر يكرر وجهة النظر المصرية القائلة بالبحث عن مخرج على الساحل لمديرية خط الاستواء • فلقد تبين البريطانيون بعد أن جربوا بأنفسهم حكم جنوب السودان الأهمية القصوى لربطه بمنطقة الساحل مرورا باقليم سيدامو الذى احتلته الحبشة من أرض الجالا الى الجنوب منها • ولكن تسيجر يعود فيقول بأن سيدامو لن تمد محمية شرق افريقيا بشىء نتيجة وفرة انتاج المحمية وبسبب مصاعب المواصلات بينها وبين سيدامو • ولكن تظل فكرة ربط السودان الجنوبى بسيدامو ونهر الجوبا على نحو ما حاولت مصر نقطة هامة فى التصور البريطانى للمنطقة • ويضيف تسيجر أخيرا بأنه فى حالة عدم ضم الصومال البريطانى لايطاليا فان الضرورة الاقتصادية تحتم حصوله على هرر • أما بالنسبة لمحمية شرق افريقيا البريطانية فان هذه الضرورة الاقتصادية تحتم حصولها على سيدامو الخصيبة (٢) •

---

(١) وسنعرض هذه الضمانات فيما بعد .

(٢) S.A.D. 125/8 Op. Cit., PP., 2-4.



خريطة التصور البريطانى المقترح
من وضع الباحث

(ز) ضمانات ايطالية لبريطانيا والسودان :

حرص التصــور البريطانى المطروح هنا لخريطة المنطقة أن يضــع الضمانات الكافية للمصالح البريطانية فى الحبشة وغيرها من المناطق التى خطط لتسليمها لايطاليا ويمكن أن نجمع هذه الضمانات فى النقاط الآتية :

١ ــ الحصــول على تأكيد من ايطــاليا بمعاملة كل الرعايا الأجانب الذين يعيشون فى الحبشة على قدم المســاواة • وليس يخفى أن هدف بريطانيا من هذا هو ضمان حرية التجارة وتشــجيع الشركات البريطانية على الاستثمار فى الحبشة •

٢ ــ الاتفاق مع ايطاليا على انشاء خط سكة حديدية من الســودان الى الساحل عن طريق اديس ابابا • وواضح تماما مدى الارتباط بين هذا الضمان والضمان الســابق عليه ، وارتباطهما معا بالمصــالح التجــارية البريطانية •

٣ ــ عقد معاهدة تضمن حقوق مصر والسودان فى مياه بحيرة تانا •

٤ ــ الحصول على ضمانات من ايطاليا فيما لو تخلت لها بريطانيا عن بربرة بحيث تستطيع بريطانيا تحقيق مصالحها •

٥ ــ وأخيرا فان السيطرة على اريتريا ســيتيح لبريطانيا دون ادنى شك فرصة الاشراف على البحر الأحمر بحيث لن تتأثر كثيرا بفقدها لميناء بربرة [١] •

اذا كان هذا التصور البريطانى الذى ارتأى ويلفريد تسيجر من اديس ابابا أنه تصــور مثالى للخريطة السياســية للقرن الافريقى والســودان والحبشة ، فاننى حريص على أن أؤكد أنه لم يكن يتحدث به الى نفسه أو الى حاكم عام السودان سير ريجنالد فقط ، بل ان دوائر وزارة الخارجية البريطانية قد أحيطت علما به وحصلت على نســخة من الوثيقة التى بين أيدينا [٢] •

---

(١) S.A.D. 125/8 : Op. Cit., P. 6.

(٢) Ibid., P. 7.

كذلك فانه قد تأكد لنا من وثائق بريطانية أخرى أن هــذا الاقتراح الذى أفرد له تسيجر صفحات طوال قد حظى بمناقشة طويلة مع ارشر Archer حاكم الصــومال البريطــانى فى بربرة ، فضــلا عن وينجت فى السودان • وقد وافق آرشر تسيجر فى كثير من آرائه ، لا ســيما تنازل ايطاليا عن اريتريا وحصول السودان على تانا وجوجام ، وايطــاليا على تيجرا وســيدامو وفرض حمايتها على الحبشــة ، وحصــول الصــومال البريطانى على هرر (١) •

ولم يقتصر اتفاق آرشر مع تسيجر على هذا التقسيم فقط ، بل لقد اتفق معه فى ملاحظة ما يبديه رأس تافارى (هيلاسلاسى) من تقرب من البريطانيين الذين كانوا ، مع هذا ، يخططون لتقسيم الحبشة (٢) •

حاولت الخريطة التى تقدمها هــذه الورقة اجمال جوانب التصــور البريطانى المقترح للحدود السياسية للمنطقة • ويمكن من اســتعراضها ومراجعتها أن نستخرج الملاحظات التالية :

أولا : أن السودان قد صارت له منافذ ثلاثة على البحر أ أولهــا ــ عبر اريتريا ، وثانيها ــ عبر سيدامو الحبشية وجنوب الصومال وشمال كينيا ، وثالثها ــ عبر جيبوتى مرورا بخط سكة حديد الخرطوم ــ أديس ابابا المقترح ، موصولا بخط سكة حديد أديس ابابا ــ جيبوتى القائم فعلا • والهدف من هذا واضح ، وهو أن يتوافر لتجارة السودان الشرقى منفذ عبر اريتريا ، ولتجارة السودان الأوسط منفذ عبر الحبشة نجيبوتى، ولتجارة السودان الجنوبى منفذ عبر سيدامو ومنطقة جوبا الســفلى • وهذا المنفذ الأخير كان اقتراحه اقتفاءا دقيقا لآثار المصريين عندما حاولوا ربط المديرية الاستوائية بالجوبا ، وهى المحاولة التى فشلت بسبب اعاقة السياسة البريطانية لها •

ثانيا : أن الحبشة قد عادت فى التصور المطروح الى حــدودها قبل التكالب الاستعمارى على المنطقة وقبل توسع منليك فى السودان الشرقى وفى سيدامو من أرض الجالا والأوجادين من أرض للصومال •

---

(١) S.A.D. 125/8 : Government House, Berbera, Somaliland, Archer to Sir R. Wingate, PP. 1-2.

(٢) Ibid., P. 3.

ثالثا : أن ربط بريطانيا بين شمال كينيا وجنوب كل من الصومال والحبشة كان السبب فى حدوث مشكلة الصومال الكينى أو مقاطعة الحدود الشمالية من كينيا •

رابعا : يظهر بعض التداخل بين جوانب التصور البريطانى المختلفة ، بسبب رغبة بريطانيا فى مراعاة مصالح مستعمرة شرق افريقيا البريطانية (كينيا) ، وكذلك عند الصومال الحبشى حول هرر وأوجادين • وهاتان المنطقتان ، أوجادين وأنفدى بؤرتان للصراع بين الصومال وجارتيها اثيوبيا وكينيا حاليا ، وقد تفجرت أولاهما (الأوجادين) ، وتتعاطف كينيا مع اثيوبيا فى ذلك خوفا من تفجر ثانيتهما انفدى •

خامسا : أن المشروع البريطانى المعروض لم يراع مطلقا مصالح الشعب الصومالى ووحدته ، مثلما راعى مصالح السودان • وكان هذا التصور مقدمة لتمزيق الوحدة الصومالية ، التى بدأت عمليا منذ التكالب الاستعمارى على القرن الافريقى • وعلى الرغم من أنه قد اتيحت لبريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى فرصة لاعادة الامور الى نصابها ، فانها لجأت مجددا الى تقسيم القرن الافريقى وفصلت الأوجادين وانفدى عن الصومال ، كما ورد فى التصور ، وأضافت اليهما اريتريا وضمت ثلاثتها للحبشة ، التى قدر لها أن تتوسع من جديد ، فى عصر كان الاستعمار الأوربى ينكمش ويتلاشى • فلم تجد بريطانيا بأسا من الاستجابة لمطامع وهى المصالح التى لم تقم لها وزنا عندما كان عليها أن تختار بين مصالحها ومصالح الحبشة •

الخاتمة

لم أشأ أن تكون مشـاركتى فى الندوة الدولية للقرن الافريقى التى ينظمها معهد البحوث والدراسات الافريقية ببحث يستهدف دراسة احدى المشكلات القائمة الآن ، مثل مشكلة ارتريا أو الأوجادين أو غيرها . ولكننى اخترت أن تكون مشـاركتى ببحث لفكرة لم تخرج الى حيـز التنفيذ . وربما كان عدم تنفيذ هذه الفكرة هو السبب فى أننى أرى أنها تقدم درسا سياسيا طيبا لى وللأطراف المتنازعة فى القرن الافريقى اليوم .

واذا كنت أرى أن الوثيقة المتضمنة لفكرة وضـع تصـور بريطانى لخريطة المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى جديرة بالدراسـة فاننى اختم بحثى هذا باستخلاص جملة أمور :

أولا ــ العقلية الاسـتعمارية الأنانية التى لا تعبأ بغير مصـالحها ولا تسترضى سوى القوى الكبرى .

ثانيا ــ مدى هوان القـوى المحلية لدى الاسـتعماريين ، ومدى ما تتعرض له من خداع وتضليل ، يجعلها تثق فيمن تظن محالفته من الدول الكبرى ثقة عمياء .

ثالثا ــ ان تشكيل الخريطة السياسـية للمنطقة ابان فترة التكالب الاستعمارى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على منطقة شرق أفريقيا . أدى الى الفصل السياسى بين أقاليم جمعتها الطبيعة الجغرافية والمصالح الاقتصـادية والاتصـالات البشرية ، بحيث اضطر الساسـة الاستعماريون أنفسهم الى اعادة النظر فى خريطة المنطقة برمتها لمحاولة اعادة الأوضاع الى ما كانت عليه ، ولكن الظروف الدولية لم تحقق لهم مآربهم .

رابعا ــ وقد قام التصور البريطانى الذى عرضنا له على بضعة أسس أهمها :

أن يحصل السودان الانجلو مصرى على اريتريا وأربعة أقاليم حبشية مقابل حصول ايطاليا على الصومالين البريطانى والفرنسى وفرض حمايتها على الحبشة .

خامسا — ان هذه الوثيقة تبين مدى الحاجة الى يقظة دول المنطقة وتعاونها على رأب الصدع فيما بينها هذا من جهة • ومن جهة أخرى فان من الضروري قيامها باعادة ترتيب بيتها بما يتناسب مع تطلعات الشعوب المختلفة ، الخاضعة لحكم واحد ، أو على الأقل بما يتناسب مع كون هذه الشعوب « شعوبها » •

لقد كان من الممكن أن تنفذ الدول الكبرى التصور المعروض هنا ، وعندئذ فان الخريطة السياسية للمنطقة كانت ستتغير عما هي عليه الآن تغيرا كبيرا • وكنا سنجد امتدادات شاسعة لدول هي الآن مهضومة الحق ، وتقلصا كبيرا في مساحة دول هي الآن شاسعة • واذا كان الموقف الدولي قد منع بريطانيا من الاستجابة لتصور ممثلها الرسمي في اديس ابابا ، واذا كنا لم نعلم بهذا التصور بصورة متكاملة وعلمية الا اليوم ، أليس معنى هذا أنه يحتمل تماما أن تكون القوى العظمى في عالم اليوم تضع هي أيضا تصوراتها ، وتقسم مناطق النفوذ فيما بينهما ؟ وأليس هـذا هو السبب في تردد علاقات هذه القوى العظمى بين الحرب الباردة والصراع والوفاق منذ الستينات وحتى الثمانينات ؟ وأليس هـذا داعيا للقوى المحلية بأن تبحث لنفسها عن حلول لمشكلاتها فيما بينها ، وتضعها هي ذاتها ؟ أم لابد أن تنتظر ليفرض عليها « حل » من الدول الكبرى ، يزيد المشكلات القائمة تعقيدا ؟ وهذا هو الواقـع بالفعل لأن حلول الدول الكبرى تناسب مصالحها وسياساتها ونادرا ما تراعي مصالح وسياسـات الدول المحلية الا بقدر توافقها مع مصالحها •

وأرجو أخيرا أن يكون بحثي هذا اضافة متواضعة في تاريخ المنطقة على الرغم من أن الفكرة الرئيسية للبحث وردت فقط في الوثائق وترددت في خواطر محدودة معلومة وبين دوائر ضيقة ، ولم تنتقل الى حيز التنفيذ •

وعلى الله قصـد السبيل ،،،

السيد فليفل

— ملحق —

British Legation
Addis Ababa
October 11th, 1917

My dear General,

Your letter of the 25 th April and mine of the 16 th May last concerning the future of Abyssinia and any possible arrangements with Italy and France.

In that correspondence we discussed the various combinations possible with Italy, basing our considerations on the necessity of eliminating French influence by the acquisition of Jibuti without which any attemp to establish some form of stable Government in Abyssinia must be impossible. As I mentioned in my letter, it is hopeless to expect any good result so long as three powers have the right of interference in Abyssinian affairs, although cooperation between two govrnments might be possible.

Our experience, however, in the old days with France in Egypt shows that the joint administration by two Powers of a third country is scarcely to the advantage of the country so governed and that friction between the administrators on an ever increasing scale is inevitable, and I think that it would be found that the problems of Abyssinia will be as distracting as those we had to face in Egypt and that Italian jealousy would equal that of France during the period we worked together.

It is very certain that after the every effort will be made to clear up contentious questions between us and our present allies, and it has struck me that a fourth

His Excellency General Sir Reginuid Wingate, G.C.B.,
etc. etc. etc.

solution might be passible as regards Abyssinia and Italy which, like the other three mentioned in my letter of the 16 th May, is based on the primary necessity of acquiring Jibuti without which the whole of the present discussion falls to the ground.

Briefly stated the fourth proposition would include the cession to the Sudan of Eritrea in return for British Somaliland, French Somaliland and the Merehan country, and a protectorate over the whole of Abyssinia. Italy, in return for this, must guarantee to the Sudan all rights over the waters of

Tana and the eventual reversion to the Sudan of the four provinces of Gojjam, Walega, Jimma and Kaffa, which are vital to her future prosperity, and will then assume all responsibility for the future government of this country.

As you mentioned in your letter of the 25 th April, «This telegram (of the 27 th March) made it clear that His Majesty's Government were anxious arises whether, as regards our future relations with Italy, it would not pay us to make this concession as generous as possible so long as this generosity could be made compatible with the safeguarding of the interests of uch of our Colonies as border on Abyssinia.

The intersts of Somaliland and East Africa in the eventual partition to Abyssinia seem to me to be altogether secondary, those of the Sudan alone being vital.

The acquisition of Somaliland was brought about by the necessity of preventing the harbour of Berbera from falling into hostile hands; its retention depends mainly, I gather, or whether its cession would endanger our predominance in the Red Sea. The administration of Somaliland would doubtless be made to pay for itself if the Harrar provinee were place under the Berbera Government, but it would mean practically the formation of a new colony which would become even more valuable if British Somaliland were jettisoned and it were worked independently.

As regards East Africa, she has properly speaking no hinterland in Abyssinia, as the fertile districts of the Protectorate are completely cut off from the Boran and Sidamo regions by a stretch of desert 200 miles wide extending from the Juba river to Lake Rudolf, and if ever these portions of Abyssinia fell into British hands it would certainly be necessary and more practical to administer them from Khartoum and not from Nairobi. They would, moreever, supply nothing to the Protectorate which she does not produce herself in abundance and would certainly complicate the question of administration owing to the difficulties of communication.

In my opinion therefore Somaliland and East Africa have no vital economic or territorial interests in the eventual partition of Abyssinia.

The Sudan, however, is in a very different position. Leaving aside the question of Tana, the importance of which is self-evident, it is essential that the Sudan should retain her claim to the reversion of

certain districts which are now included in Abyssinia, as it is only by their acquisition that she can ever hope to become entirely self-supporting. The districts over which, in my opinion, she can never renounce her claim are Gojjam with its outlet from the Lake and its grain and cattle districts, Walega with possible coal mines and undoubted mineral wealth, kaffa and Gore with their unlimited supplies of coffee, and Jimma with its hard working Moslem population and commercial possibilities. Given these districts roughly outlined by the Absi and Omo the Sudan would possess a hinterland which would provide her with unlimited grain, coffee and sugar, with coal, gold and probably petroleum, while the highlands of Gojjam could be used as a horse and mule breeding centre and as a sanatorium.

If you agree with me in this, it is evident that we can afford to treat Italy generously as regards her future aspirations in Abyssinis and to renounce any claim we might have on Harrar and Sidamo as the hinterlands of British somaliland and East Africa, without, prejundice to the interests of these colonies, that is of course supposing that we seriously contemplate ceding Somaliland to Italy, as in the contrary case the acquisition of a fertile hinterland is economically imperative.

If we could thus assure to Italy the immediate occupation of French and British Somaliland, thoroughly safeguarding our aventual rights to the four western provinces I have mentioned and to the waters of Lake Tsana, it would be worth her while, I should say, to sacrifice Eritrea to us. This ould give Great Britain the absolute supremacy in the Red Sea and practical control of the Arabian Coast, and would at once nullify any disadvantages urising from Berbera and Jibuti falling into Italian hands.

You will notice that I have made no mention of reserving any rights over the Tigrean hinterland of Elitrea. My reason for not doing so is that I consider the natural hinterland of Eritrea would, in the event of its cession to us, be the Sudan and my object is, as I will explain later, to cut our selves free from all Abyssinian problems.

The experiences of the past year, and especially of the past few months, have reluctantly forced me to the bellef that we have nothing to expect from Ras Taffari in the way of reform. In spite of his genuine friendship for us and many good qualities, he is too impotent and weak of character to enforce his will in the face of the opposition which he encounters everywhere, or to restore order in a country which has lost

all idea of discipline or obedience. The situation grows steadily worse ; justice for Europeans and freedom of trade are now unobtainable, and there is a marked increase in the bad feeling which exists on both sides between Europans and Abyssinians.

The crisis cannot be long delayed and the Governments interested will soon be forced to consider how it is to be met. Diplomatic pressure will have no effect now as there is no responsible Government on which it may be brought to bear, and no system of reforms can be introduced in the face of undisciplined Abyssinian hostility, unless by force, nor can they hope to succeed unless the administrative machinery is placed in European hands.

These things cannot, however, be obtained without recourse to military intervention, and military intervention means war, and war the partition of Abyssiia.

This sequence is, I think, inevitable and the problem will be complicated, and its success rendered doubtful, by the conflicting intersts and ambitions of the Powers engaged upon the task.

I cannot think any of the powers will willingly underteke a military expedition against Abyssinia immediately after the close of the great war, and the partition of Abyssinia, unless provoked by some outrageous incident, will certainly sound strange in neutral ears, and possibly in those of our Labour party at home, after all the talk of the right of small nations to govern themselves, and yet there will soon be no choice between partition or the practical renunciation of the right we claim for our subjects to live peaceably and trade frely in Abyssinia.

From this dilemma I can see only one way of eseape, and that is by the assumption of a Protectorate over Abyssinia by a single Power. We may buy out Frennch interests but we cannot hope to persuade Italy to renounce her claim ; I believe, however, we could withdraw in her favour without the sacrifice of any our vital interests according to the scheme I have outlined above.

The recognition by us of an Italian Protectorate would bring just in vain, and Abyssinia, unable then to play one Power off against another, would realise that her last chance had come and that it was a question of reform or of lose of independence and would be obliged to accept that guidance in commercial and financial affairs which must necessarily be the first step towards reorganization.

We should of course require from Italy an assurance of equal treatment for all foreign subjects living in Abyssinia, a guarantee that she would assist us in getting the Tsans treaty signed without delay ; and an accord for future railway connection from the Sudan via Adis Ababa to the sea.

In this way we should free ourselves from all our difficulties in Somaliland, we should hasten the realization of our Tsana projects, which will never be granted by an independent Abyssinia, and free ourselves from the uncertainty of havig on day to under take a military expedition against this country with all its contingent problems.

The four provinces which I have under this scheme reserved for the Sundan would welcome the arrangement and, as regards Gojjam especially, would certainly sim at hastening the day when they would be absorbed into the Sudan and be free once and for all from Abyssinian [illegible]

I cannot believe that any serious objection would be raised by Italy to an arrangement on these lines which wuld give her the ultimate reversion of a colony far exceeding in wealth and extent anything that she could hope to obtain by a partition «a trois», and open to her the prospect of securing really valuable concessions in Abyssinia in the immediate future free from all possible rival competition.

I should be very glad if you would let me know what you think of this proposal and I only wish it were possible for me to come and discuss it with you in detail.

I am forwarding a copy of this letter to the Foreign Office.

Yours sincerely,

(signed) Wilfred G. Thesiger.

اولا : الوثائق غير المنشورة :

١ — (P.R.O). S.A.D., 125/1. —

وتتضـــمن هذه الوثيقة اســـتطلاعات للراى أجرته احـــدى اللجـــان البريطانية الرسمية مع عقلاء وشيوخ القبائل الصومالية .

٣ — S.A.D. Appendix v II. ..

وتتضمن هذه الوثيقة مراجعة لموقف القوات البريطانية بعد الثورة التى قادها الشيخ محمد بن عبد الله حسن وقرار الانســحاب الى الساحل .

٢ — Governnent House, Berhern, —

— S.A.D. 125/3, Government House Berhera, G.F. Archer to Sir R. Wingate 7 th December 1914.

وتتضمن هذه الوثيقة خطابا مرسلا بين المسئولين ، بشأن اعادة تنظيم الحدود السياسية بين اثيوبيا وكل من الصومال والسودان وموقف راسو تافارى من ذلك .

.. S.A.D. Wilfred hesiger, British Legation, Addis Ababa, October II th 1917, to General Sir R. Wingate.

وهذه الوثيقة هى عماد الدراسة ، وتقـــدم وجهـــة النظر البريطانية المعروضة هنا لاعادة تشـــكيل الخريطة السياسية للمنطقة موضـــوع الدراسة بعد أن تنتهى الحرب وقد نشرناها فى ملحق البحث .

(والاختصارات الواردة فى البحث تتعلق بالوثائق وهى :

— P.R.O. = Public Record Office.

— S.A.D. = Sudan Archie e Docunents.

ثانيا — المراجع العربية والمعربة :

١ — تمام همام تمام (دكتور) :
تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢ — جلال يحيى (دكتور) :
مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

٣ ــ حمدى السيد سالم :
الصومال قديما وحديثا ، الجزء الثانى .

٤ ــ السيد رجب حراز (دكتور) :
التوســع الايطالى فى شرق افريقية وتأسـيس مسـتعمرتى اريتريا والصومال ، رسالة ماجسـتير منشـورة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٠ .

٥ ــ فيشر هـ . ا. ل. ، تعريب احمد نجيب هاشم ووديع الضبع :
تاريخ اوروبا فى العصر الحديث (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠) الطبعة السادسة ، القاهرة .

٦ ــ يونان لبيب رزق (دكتور) :
السودان فى عهد الحكم الثنائى الاول
١٨٩٩ ــ ١٩٢٤ ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

ثالثا : المراجع الاجنبية :

— Lewis, I.M.: The Modern History of Somaliland, London 1965.

رابعا : الدوريـات :

— **Caulk, Richard A.: The Occapation of Harar, January 1887 (Journal of Ethiopian Studies, Vol. IV ; No. 2, Haile Sellassie I University, Institute of Ethiopian Studis, Addis Ababa July 1971).**

التقارب الاثيوبى الصومالى
فى
عهد ليج اياســـو
١٩١٣ - ١٩١٦

دكتـــــور
تمام همام تمـــام
استاذ مساعد تاريخ الحديث
والمعاصر بمعهد البحوث
والدراسات الافريقية

لاحظ الباحث أثناء دراساته عن منطقة القرن الافريقى ، أن الفترة من ١٩١٣ الى ١٩١٦ ، وهى الفترة التى كان فيها ليج اياسو حاكما على اثيوبيا ، أنها تكاد تكون فترة غامضة فى تاريخ البلاد المعاصر •

فلم يحاول الباحثون الكشف عنها ودراستها دراسة متكاملة وأكاديمية وانما لسبب أو لآخر ، يشيرون اليها اشارة عابرة ، مما يجعلها لا تسترعى انتباه الكثيرين بل يحاول معظم المؤرخين اسقاطها من تاريخ اثيوبيـــا المعاصر •

ولمـا كانت هناك نظرية شائعة بين معظم المؤرخين وعلماء السياسة، تشير الى وجود عداء تقليدى دائم بين اثيوبيا والصومال منذ عدة قرون، بسبب عوامل عديدة كان ينتج عنها فى كثير من الاحيان حروب ساخنة بين البلدين ، استمروا فى ابراز هذا العداء فى كتاباتهم ، وعمقوا فى اختلاف وجهات النظر ، مما يجعل القارىء يتصور أن هذين البلدين الاخـــوين المتجاورين متنافران دائما ومن المستحيل أن يحدث سلام بينهما •

ولكن من خلال الاشارات التاريخية المبعثرة فى بطون الكتب شد بعضها الباحث ، ومن ثم تطلب الامر الوقوف عندها فلاحظ حدوث تطورات كانت فى منتهى الخطورة فى تاريخ اثيوبيا المعاصر واكبت فترة من فترات تاريخ الصومال الهامة ، نتج عنها ولعله لاول مرة فى تاريخ منطقة القرن الافريقى الحديث والمعاصر تقارب بين أثيوبيا والصوماليين تمت من خلاله

علاقات ودية وطيبة بين الطرفين ، وتقاربت وجهات النظر ، وصار الهدف واحدا نحو تحرير المنطقة من الاستعمار الاوروبى .

وعندما أدرك المستعمرون هذا التقارب خاصة وانهم كانوا يخوضون الحرب العالمية الاولى فى أكثر من جبهة ويتصدون لمواقف اسلامية معادية فى أكثر من مكان وأن ذلك التقارب يشكل خطورة على تواجدهم فى القرن الافريقى ومن الممكن أن ينتج عنه فتح جبهة حربية جديدة ضدهم فى شرق افريقيا اجتهدوا فى ضرب ذلك اللقاء الاثيوبى الصومالى قبل أن يشتد عوده ويستفحل خطره وذلك بالتخلص من اقطابه وحتى لايحدث تقارب مرة أخرى بين الصوماليين والاثيوبيين .

لذلك رأى الباحث أن يكشف من خلال الدراسة التاريخية المنجردة من العواطف عن حقيقة هذا التقارب فى تلك الفترة والاسباب التى أدت الى ايجاده وما هى سياسة أثيوبيا فى تلك الفترة ــ بصفة عامة ــ والنتائج التى انعكست على الشعبين ومواقف الطرفين (١) واجراءاتهما بالنسبة لكل من قطبيه .

هذا وأرجو أن تكون هذه الدراسة بداية للباحث ولغيره للكشف عن تاريخ الفترات الغامضة والساقطة فى تاريخ الافارقة ، فيعتقد الباحث أن هناك فترات زاهية ومملوءة بالعلاقات الودية والاخوية بين البلاد الافريقية وأن هدف المستعمرين طمسها زيادة فى الشك والفرقة بين الافارقة .

---

(١) القوى المتخاصمة فى الحرب العالمية الاولى من التقارب .

يكاد يجمع المؤرخون والمهتمون بالعلوم السياسية ، أن العلاقات بين أثيوبيا والصومال كانت ولاتزال حتى اليوم ، تتسم بالعداء السافر وصارت هذه المعلومة تشكل أمام الباحثين المعاصرين حقيقة تاريخية تكاد تكون ثابتة وأمام محللى السياسة خاصة منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين نظرية يبنون عليها وجهات نظرهم ازاء العلاقات الحاضرة بين البلدين .

والواقع أن هذه المعلومة وتلك النظرية صحيحة الى حد كبير فالعداء بين البلدين لم يكن حديثا وأن كان اتسع منذ الستينات من القرن العشرين وأخذ أبعادا جديدة لم تقتصر أثارها عليهما وانما امتدت الى مناطق جغرافية أخرى مجاورة لهما .

فتشير المصادر التاريخية الى أن جذور العداء تمتد الى عدة قرون سابقة حيث كانت الحبشة قلعة محصورة بين دول اسلامية تسمى بدول الطراز الاسلامى وكانت فى معظم الاحيان تستنجد بالدول الاوربية متشدقة بالمسيحية لاسباب سياسية وعاطفية للتغلب على تلك الدول المحيطة بها ولتتوسع ان أمكن على حساب جيرانها خاصة الصومال (١) .

واستمرت حالة العلاقات بين الاثيوبيين والصوماليين فى مدوجزر حتى نهاية القرن الثامن عشر .. وفى مطلع القرن التاسع عشر اخذت الدول الاوربية الاستعمارية خاصة انجلترا تتطلع الى أهمية مصر والبحر الاحمر والقرن الافريقى حيث تفتحت عيونها على هذه لمناطق اثر احتلال الفرنسيين لمصر فى عام ١٧٩٨ ومنذ ذلك وضعت تلك المناطق فى حساباتها .. وبعد أن احتلت (عدن) فى عام ١٨٣٩ (٢) . اخذت ترنو بأبصارها الى ساحل الصومال المواجه الى ميناء عدن للتحكم فى مداخل البحر الاحمر من ناحية الجنوب فوقعت معاهدة مع سلطان (تاجورا) فى ١٩ أغسطس ١٨٤٠ تعهد فيها السلطان بعدم عقد أية معاهدة مع أية دولة أخرى دون ابلاغ السلطات البريطانية فى عدن ..

---

(١) للمزيد انظر : ـ د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية . ص ٤١٣ وما بعدها .

(٢) للمزيد أنظر : د. فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ (القاهرة ١٩٧٦) .

ويبدو أن فرنسا شعرت بالمخطط البريطاني تجاه البحر الاحمر والقرن الافريقى فأسرعت بعد أن سوت مشاكلها بعد عام ١٨١٥ تتطلع الى أن يكون لها نفوذ على الساحل الغربى للبحر الاحمر فى نظير النفوذ البريطانى فى عدن حتى لا تنفرد انجلترا بالسيطرة على مداخل هذا البحر فاشترت فى عام ١٨٦٢ ميناء (أوبوك) من أحد المشايخ على خليج (تاجورا) وهنا تدخلت انجلترا واحتجت بأن هذه المنطقة من املاك الدولة العثمانيـة ولا يحق لفرنسا أن تشترى أوبوك من غيرها .

والحقيقة أن انجلترا كان لا يهمها مصلحة الدولة العثمانية وانمـا كانت تخشى من وجود فرنسى فى هذه المناطق يتزاحم مع مشروعاتهـا الاستعمارية فيها فسنرى فيما بعـد أنها توافق على أن يكون لفرنسا وجود فى هذه المنطقة ، بعد تسوية حسابات فيما بينهما وتضرب بسيادة الدولة العثانية على أوبوك وغيرها عرض الحائط .

على أية حال رأت فرنسا عدم الخوض فى معارك سياسية مع بريطانيا فى ذلك الوقت لاسباب منها :

١ ـ أن المنطقة فقيرة ولا تستحق احتلالهـا عسكريا .

٢ ـ كانت فرنسا تلقى بثقلها العسكرى فى الجزائر وغرب افريقيا وبثقلها السياسى والاقتصادى فى مصر .

وبعد أن تم افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وزادت أهمية البحر الاحمر الذى صار يشكل ممرا بحريا له أهميته الدولية لاحظت مصر أن انجلترا شديدة الاهتمام بميناء (بربرة) على الساحل الصومالى ، لمـا له من أهمية بالنسبة لموقعة الاستراتيجى فى مداخل ذلك البحر من الجنوب بالاضافة الى توفر المواد التموينية التى كانت تحتاج اليها الحامية البريطانية فى ميناء عدن .

والواقع أن مصر فى ذلك الوقت كانت تقوم بتأدية رسالتها الحضارية تجاه افريقيا بدافع انسانى وأدركت بحسها الاسـلامى الخطر الاوربى الاستعمارى الذى صار يزحف الى شرق أفريقيا بصورة أو بأخرى فأسرعت ووضعت يدها على بربرة وزيلع وبلهار وتاجورا ورفعت رايتها على هرر

فى عام ١٨٧٥ (٢) • حتى لا يتعرض سكان هذه المناطق الى ما كان يتعرض له سكان الجزائر من جانب الفرنسيين على سبيل المثال •

فى ذلك الوقت كانت بريطانيا تتزعم حركة الغاء التجارة فى الرقيق الافريقى بعد أن استنفدت هى وغيرها من الدول الاوربية الاستعمارية اغراضها من تلك التجارة خاصة بعد حدوث الثورة الصناعية فتتفق ذهنها الاستعمارى عن امكانية استغلال هؤلاء الرقيق فى مواطنهم الاصلية وتحت ستار تلك الحركة تمكنت من فرض نفوذها على بعض البلاد فى افريقيا (٢)•

ولما رأت أن مصر تنشط هى الاخرى فى محاربة هذه التجارة على مسمع من الدول والجمعيات المناهضة لتجارة الرقيق عقدت معاهدة فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ اعترفت فيها بسيادة مصر على السواحل الصومالية حتى رأس حافون (٣) •

وكان هدف انجلترا من تلك المعاهدة ابعاد أى قوى أوربية أخرى من تلك المنطقة نظرا لخطورتها الاستراتيجية ، وأن وجود مصر فيها لا يعنى مشكلة بالنسبة لها لان خطتها منذ قدوم الحملة الفرنسية على مصر كانت تدور حول احتلال مصر نفسها فلما تم لهـا ذلك فى عام ١٨٨٢ أخذت تعمل على تمزيق املاكها فى الصومال مما جعل الدول الاوربية تسـارع الى أن يكون لهـا نصيب من أرض الصومال فظهرت على الخريطـة السياسية مناطق النفـوذ الاسـتعمارى ممثلة فى الصـومال الانجليزى والصومال الفرنسى والصومال الايطالى (٤) •

---

(١) للمزيد انظر : د. شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر • ص ١٠٩ وما بعدها (القاهرة ١٩٥٩) •

(٢) فرضت بريطانيا نفوذها على زنجبار فى عام ١٨٩٠ بحجة ان سلطانها لم يتمكن من وقف وابطال تجارة الرقيق •

(٣) المزيد انظر : د. جلال يحيى : العلاقات المصرية الصومالية ص ٧ وما بعدها • الاسكندرية •

(٤) للمزيد انظر : د. جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا ص ١٥٧ وما بعدها وكذلك السيد محمد رجب حراز : التوسع الايطالى فى شرق افريقيا وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ص ٥١٤ وما بعدها (القاهرة ١٩٦٠) •

وتتساءل ماهو موقف اثيوبيا وهى الطرف الثانى فى القرن الافريقى وما هو شعور حكامها من هذه التقسيمات الاوربية الاستعمارية لارض شقيقتها الصومال المتلاحم معها جغرافيا .

فى الواقع منذ كانت مصر تتحمل مسئولياتها التاريخية والانسانية تجاه أفريقيا وتحاول ابعاد الخطر الاستعمارى عن منطقة القرن الافريقى بقدر امكانياتها لم يسترح الملك (منليك) عاهل شوا فى ذلك الوقت الوجود المصرى وانتشار الثقافة الاسلامية بين ربوع السكان الصوماليين وفى الوقت نفسه كان يلحظ أن الدول الاوربية ــ خاصة انجلترا لاترتاح الى توسعات مصر فى افريقيا .. فسولت اليه نفسه . أن يستفيد من تلك الدول تحت ستار حمايته للمسيحية فأرسل فى عام ١٨٧٨ رسالة الى معظم ملوك أوربا والى الجمعية البريطانية لمحاربة الرقيق بواسطة اثنين من المبشرين تضمنت أن بلاده بعيدة جدا عن أوربا وطريقه الى زيلع وتاجورا وعدن مقفول عنه بسبب وجود المسلمين ويقصد بذلك الحكومة المصرية التى كانت تضع يدها على ساحل الصومال وتحول دون وصول السلاح الى بلاده وطلب هذا الملك من ملوك الدول الاوربية مساعدته فى فتح هذا الطريق وارسال السلاح اليه .

واستجابت انجلترا لهذا النداء المغلف بالعواطف الدينية وتدفقت الاسلحة والذخيرة على الحبشة بحجة محاربة تجارة الرقيق مع العلم بأن مصر كانت تبذل جهودا جبارة فى القضاء على هذه التجارة غير الشريفة فبينما كانت الدول الاوربية خاصة انجلترا تيسر وصول السلاح الى اثيوبيا كانت فى الوقت ذاته تعمل على اغراق مصر بالديون ولعل الهدف واضح فى كلتا الحالتين .

فقد كانت تلك الديون سببا من الاسباب التى تذرعت بها انجلترا لاحتلال مصروا واجلائها عن الصومال وكان وصول السلاح الى الملك منليك من أكبر العوامل التى جعلته ينقض على سلطنة هرر الاسلامية فى ٦ يناير ١٨٨٧ ويطرد اميرها (عبد الله بن محمد عبد الشكور) الذى فر الى اوجادين ،تحت سمع وبصر انجلترا نفسها التى سبق أن سلمت له هذه السلطنة بعد اجلاء الوجود المصرى منها (١) .

(١) كان فى امكان انجلترا أن تحتل هرر فى ذلك الوقت ولكنها خشيت من فرنسا وايطاليا اللتان كانتا تتطلعان الى تلك السلطنة الغنية بمواردها الاقتصادية ففضلت أن يستولى عليها عاهل شوا .

وعين منليك عليهـا ابن عمه الرأس (ماكونين) ولتصير قاعدة متقدمة لتوسعاته وشن غاراته على الصوماليين فى اوجادين (١) •

ويبدو أن بريطانيا كانت تبارك هذه العملية فى قرارة نفسها لاسباب منهـا : ـ

١ ـ كان يهمها أن يظل الصومال ممزقا وضعيفا حتى لاتحدث فيه حركة اسلامية مضادة لهـا مثل ما كان جاريا فى السودان من قبل المهدية •

٢ ـ عدم معارضة منليك خاصة وانه توج امبراطورا على الحبشـة فى عام ١٨٨٩ فى توسعاته على حساب الصومال طالمـا تحتفظ هى أى انجلترا بممتلكاتها على السـاحل الصومالى •

وقد ترتب على هذا الانتصار الذى تحقق بمساعدة الضباط الايطاليين والسلاح الاوربى أن ازدادت مطامعه التوسعية فأرسل كتابه الـدورى فى عام ١٨٩١ الى رؤساء الدول الاوربية تضمن أنه سيعيد املاك اثيوبيا القديمة التى تصل الى الخرطوم والى بحيرة نيانزا بما فى ذلك كل شعب الجـالا •

وتجمعت عدة عوامل كانت مواتيه جعلت منه أكبر قوة وطنية فى القرن الافريقى وبدلا من أن يوجه قواته ضد الدول الاستعمارية (انجلترا وفرنسا وايطاليا) لطردها من الصومال دفعه طموحه الاستعمارى وتعصبه الدينى الاعمى الى التحالف معها لضرب الصوماليين وتمـزيق بلادهم واقتسامها معها ـ أى مع تلك الدول (٢) •

لذلك عندما لا حظ الصوماليون مشاعر هذا الامبراطور العدائية ضدهم ومطامعه التوسعية فى بلادهم بادلوه العداء بعداء •

---

(١) Lewis I. M. The Moderm History of Somaliland. P. 49 (London 1965).

(٢) يلاحظ انه بينما نص مؤتمر بروكسل فى عام ١٨٩٠ على حظر وصول السلاح الى الافارقة كانت انجلترا وايطاليا وفرنسا ترسل السـلاح الى امبراطور اثيوبيا ضاربة عرض الحائط بقرارات هذا المؤتمر طالمـا أن هذا الاجـراء يتمشى مع سياستها انظر للمؤلف تجارة السلاح فى مستعمرة سيراليون : مجلة معهد البحوث والدراسات الافريقية .

واستمر الحال على هذا الوضع الى أن ظهرت حركة دينية وطنية فى الصومال بزعامة الملا محمد عبد الله حسن فى بداية القرن العشرين اتخذت لها الحرية شعارا والاسلام دينا والكفاح والجهاد سبيلا .

عندئذ خشى الامبراطور من هذه القوة الصومالية خاصة وأنها قائمة على اسس دينية ووجد ذات الاحساس بالخوف منها لدى كل من بريطانيا وايطاليا فقدم اقتراحا لهما بعمل عسكرى مشترك للقضاء على تلك الحركة قبل أن يشتد عودها وتصبح خطرا عليه وعلى الوجود الاوربى فى منطقة القرن الافريقى .

وفى شهر أبريل ١٩٠٠ تم الاتفق بين ثلاثتهم (الحبشة وانجلترا وايطاليا) على أسر أو قتل قائد الحركة الصومالية (١) ولاحظ الصوماليون أن الامبراطور الاثيوبى يندفع ويشارك منذ البداية بجيش مكون من أكثر من خمسة عشر الفا من المقاتلين تحت قيادة الفيتور ارى «جابرى» كانت مهمته تمزيق أى تجمع بين الصوماليين انفسهم والحيلولة دون أى مساعدة لقوات الجهاد الصومالى من أشقائهم فى أوجادين (٢) .

فتشبع الصوماليون بالمرارة من القوات الاوربية عامة والحبشية خاصة، وكان أن ازدادوا تعاونا والتفافا حول زعيم الحركة الذى عرف كيف يوجه الصوماليين ضد اعدائهم .

واستمرت الحرب سجالا بين الطرفين حتى عام ١٩٠٥ دون أن يحقق التحالف الثلاثى (الحبشة وانجلترا وايطاليا) هدفه بل حدث عسكريا كان يبغيه كل طرف فقد انكسرت هيبة الامبراطورية البريطانية فى منطقة القرن الافريقى وارتعدت فرائض ايطاليا وتملكها الخوف من طردها من هذه البلاد أما الحبشة فكان خوفها أكثر ، بسبب زيادة سمعة قائد الجهاد الوطنى فى الصومال واعجاب مسلمى الحبشة بانتصاراته .

---

(١) Samantar, Nicole, Lecuyer. Mohamed Abdulle-Hassan- PP. 83-85 (Paris 1979).

(٢) Jardine, Douglas. The Madmullah of Somali-Land. PP. 38-50 (London 1923).

(٣) انظر تفاصيل ذلك فى :
د. تمام همام تمام : تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال ص ٩٥ وما بعدها (دار النهضة العربية ١٩٨٣) .

وقد ترتب على فشل التحالف الثلاثى أن أبرمت تلك الدول فى عام ١٩٠٥ اتفاقية (اليج) مع الصوماليين تتضمن قيام مشيخة « نوجال » برئاسة قائد الحركة السيد محمد عبد الله حسن (٣) ٠

ولكن سرعان ما تحطمت هذه الاتفاقية على صخرة وجهات نظــر كل الاطراف المعنية واستؤنفت التحرشات بين الطرفين فجددت الحبشة غاراتها على أوجادين ورد الصوماليون عليهم بتقوية جيوشهم وتشييــد الحصون والقلاع فى الجنوب وكلما ازدادت التحرشات التى استمرت طوال سنوات ١٩٠٦ الى ١٩٠٨ ، زاد العداء بين الصوماليين وبين حكومة ذلك الامبراطور الذى بدأ المرض يهاجمه ويعيقه فى كثير من الاحيان عن مباشرة ادارة الحكم ولكن تلاحظ انه بعد عام ١٩١٠ وحتى عام ١٩١٣ بينما كان الاحتكاك مستمرا بين الصوماليين وبين الانجليز والطليان كانت الاحوال على الجبهة الغربية أى بين الصوماليين وحكومة الامبراطور تكاد تكون شبه مستقرة بسبب ظروف البلاد الداخلية وبسبب الشلل الذى أطبق على الامبراطور فى أواخر حياته (٤) ٠

أسباب التقارب : ـ

يستحسن أن نعرف أولا ، كيف وصل (اليج) الى الحكم وهل كانت ظروف نشأته لها تأثير على شخصيته حتى نستطيع أن نعرف هذه الاسباب ومن ثم الحكم عليها ٠٠

فكما ذكرنا أن الامبراطور منليك أصيب بالمرض فى أواخر حيــاته فعزت عليه جهوده فى تكوين امبراطوريته خاصة أن خلفاءه بالامس القريب (ايطاليا وانجلترا وفرنسا) بدأوا يتطلعون الى تمزيقها الى مناطق نفوذ بينهم لان قوته لم تكن بالدرجة التى كان عليها حين ظهرت مطامعــه التوسعية (١) ٠

وشاءت الظروف أن تصعد على المسرح السياسى فى أوربا دولة المانيا مما جعــل تلك الدول الثلاث تزداد تقاربا وكان المحرك الاساسى لهــذا

---

(١) Hess, L. Robert.. The Poor Man of God Mohammed Abdulla Hassan P. 88 (Boston 1968).

(٢) د. يونان ، لبيب رزق : السودان فى عهد الحكم الثنائى ـ ص ٥٩ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

التقارب فى تلك الفترة هو تخوفها من تلك الدولة بجانب طمعها الاستعمارى فى افريقيا فأبرمت فيما بينها اتفاقية فى ١٣ ديسمبر ١٩٠٦ بحجة المحافظة على استقلال الحبشة وهى فى الحقيقة قسمتها الى مناطق نفوذ (٢) .

وقد فطن الامبراطور الى هذه اللعبة السياسية وادرك ــ ولكن بعد ان ضعفت قواه ان تلك الدول الاستعمارية لاتعرف ولا تعترف بالصداقة وأن كل الذى يهمها هو مصالحها وذهب الرجــل بعيدا بفكره حــول مصير الامبراطورية ولما كان لم ينجب ولدا يحافظ عليها وقع اختياره على حفيدة (ليج اياسو) فقربه منه وزوجه من « رمانة » حفيدة الامبراطــور يوحنا (٣) . ثم عقد اجتماعا لرءوس الامبراطورية والمطران المصرى ، وقدمه لهم وقال لقد اخترت لكم حفيدى هذا وليكن خليفتى واعهد به الحكم وليكن محروما ذلك الذى لا يخضع له فليرزقه الله بكلب أسود ولدا له ، وليكن هو ايضا امينا لكم اما اذا خانكم فتحل عليه لعنة الله (٤) .

وعين الرأس (تساما Tasamma) معلما له ووصيا ، وفى ١٧ مايو ١٩٠٨ صدر منشور عام يتضمن أن ليج اياسو(Lij Iyasu) صار وريثا للعرش(٥). ولكن نتساءل من هو والده ايضا ؟ فنقول :

كان منليك حين لاحظ زيادة قوة قبائل الجالا ، وانتشارها فى الحبشة واقبالها على الدخول فى الاسلام رأى أن الضرورة تتطلب كسر شوكة هذه القبائل فقد خشى أن يحدث ما حدث أيام البطل (أحمد ابراهيم جرى) (١) . وتمكن بمساعدة السلاح الاوربى أن ينتصر عليها وكان أهمها بدون شك انتصـاره على السلطان « محمد على » زعيم قبائل « اللوا للوجالا » الذين كانوا يقيمون حول مدينـة (ديس Dessie)

---

(١) كانت هذه الاتفاقية من الاسباب التى شجعت موسولينى على غزو الحبشة فى ١٩٣٥ انظر للباحث : موقف عصبة الامم من الغزو الايطالى للحبشة (١٩٣٥ ــ ١٩٣٦) ص ٤ وما بعدها مجلة معهد البحوث والدراسات الافريقية العدد التاسع .

(٢) اغتيل فى موقعة القلابات على يد السودانيين فى مارس ١٨٨٩ .

(٣) Jones, A.H. & Monroe Elizabeth-Ahistory of Ethiopia, PP. 153-154 (Oxford 1966).

(٤) Marcus, G. Harold. The End of the Reign of Menilek 11 (Journal of African History, (XI, 4 - 1970) PP. 579

(٥) تزعم حركة الجهاد الاسلامى ضد الحبشة فى النصف الاول من القرن السادس عشر .

وارغمه منليك على أن يعتنق المســيحية فخشى الرجل على حياته وتظاهر بانتمائه الى النصرانية وسمى بالرأس « ميخائيل » ونظرا لما اشتهر به هذا السلطان من قوة وسعة فى الافق اراد منليك أن يستفيد منه فقربه اليه وزوجه من كريمته (اريجاش) التى انجبت منه ليج اياسو أى قلب يسوع فشب وشب الاســلام وترعرع فى قلبه منذ طفولته (٢) •

لذلك نرى أن الجهود العظيمة التى بذلها الرأس (تساما) فى تعليمه لم تؤثر كثيرا فى شخصيته ولعله بدأ يتبرم منها منذ بداية حياته السياسية•

على أية حال بعد أن توفى الرأس (تساما) فى ابريل عام ١٩١١ تكون مجلس وصــاية برئاسة الملكة (تايتو Tait) زوجة الامبراطور منليك وكانت سيدة وية ولكن ليس لها طاقات كافية لادارة شئون الحكم (٣) •

وسرعان ما دب الخــلاف بينها وبين ليج اياسو لدرجة انه حين سئل بعد وفاة « تساما » من سيكون وصيا قال أنا مما يوضح انه يتطلع الى جمع كل السلطات فى يده ويبدو أن الوزراء اعدوا انفسهم للتعامل معه كرئيس لمجلسهم (٤) •

والواقع أن العداء ضد الامير لم يقتصر على الملكة التى حاولت بكل الطرق ازاحته عن ولاية العرش لدرجة انها دست السم له فى يوم ١٤ يوليو ١٩١١ فى حجرته الخاصة بل كان أكثر مرارة بينه وبين بعض الرؤوس فى اثيوبيا مما جعل الوكيل الامريكى فى اديس ابابا (Guy Love) يبرق الى حكومته بأن هناك أحاديث فى شوا تشير الى الرغبة فى تحويل الحبشة الى جمهورية برلمانية برئاسة (ولدى جيورجيوس Ras Wolde Georgius)

ونحن لانستبعد أن يكون وراء تعميق تلك الخلافات وزيادة العداء بين الامير وهؤلاء الرؤوس قناصل انجلترا وفرنسا وايطاليا بل والولايات

المتحدة فقد طفحت تقاريرهم المرسلة الى حكوماتهم باخبار تلك الخلافات وتجسيمها (١) .

ويبدو أن الامير ليج اياسو ، أخذ منذ ذلك الوقت ينظر الى علاقات بلاده مع جيرانها من ناحيـة ومع الدول الاجنبية من ناحية أخرى بمنظار يختلف كلية عن منظـار جده الامبراطور طريح الفراش .

فقد لاحظ الامير أن هناك فى الصومال ثورة دينية وطنية هدفهـا تحرير الصومال من المحتلين وتوحيده فى دولة اسلامية .

وأن الانجليز والطليان يفرضـون نفوذهم على جيرانه الاخرين كما هو الحال فى اريتريا والسودان ولما كان غير قادر فى ذلك الوقت على اتخاذ أى اجراء بالنسـبة للشئون الخارجية رأى أن يغض بصره عن تسرب السلاح الى كل من السودانيين والصوماليين .

ولذلك رأت دول الاتفـاق الثلاثى (ايطاليا وفرنسا وانجلترا) أن أثيوبيا لديهـا أكثر مما تحتاج من السلاح الذى يجد طريقا له الى اعداء الوجود الأوربى فى شرق افريقيا واشارت تلك الدول الى تعديات المانيا واليابان وبيعهما السلاح الى أثيوبيا وتوهت بطريق غير مباشر الى أن ألمانيا بصفة خاصة تجتهد فى فرض نفوذها فى الحبشـة .

والواقع أن المانيا رأت أن تستفيد من التوترات التى كانت تسـود القرن الافريقى فقد سبق لها أن استفادت من تدخلها فى المسألة المغربية وارغمت فرنسا على توقيع اتفاقية معها فى ٤ نوفمبر ١٩١١ حصـلت بمقتضاها على ٣٠٠٠ كيلو متر مربع فى الكونغو الفرنسى (٢) .

لذلك لا نستبعد أن تكون المانيا وضعت دولة اثيوبيا نصب عينيهـا منذ ذلك الوقت .

ونظرا للظروف التى كانت عليها أوربا وقتذاك لم تستطع دول الاتفاق الثلاثى أن تقف صراحة ضد النفوذ الالمانى فى اثيوبيا فطلبت من الامير أن يتخذ اجراء لوقف تدفق السلاح على بلاده ، فخرج من أديس أبابا

---

(١) Marus G. Harold. the Life and Times of Menileh II of Ethiopia1 844-1813. p. 257 (Oxford 1975).

(٢) محمد خير فارس : المسألة المغربية . ص ٦٤ وما بعدها (القاهرة ١٩٦١) .

بحجة محاربة (العفار) وان كان فى الحقيقة يريد أن يتقرب من شعب الجالا .

ومن هنا بدأت العلاقات الوثيقة بينه وبين هؤلاء الجالا ، الذين عبروا عن ارتياحهم لهذا الامير .

ويبدو أنه تعمد أن يتجول فى بعض المقاطعات الاثيوبية الاخرى ليشاهد على الطبيعة مدى تجاوب الناس مع سياسة جده الامبراطور رغم أن مجلس الوزراء كان يلح عليه بالعودة الى أديس أبابا للنظر فى مسائل هامة (١) .

وكان ليج اياسو خلال تجوله فى المقاطعات يجمع جيشا تحت قيادته وعندما وصل تعداده الى ما يقرب من عشرين ألف مقاتل عاد به الى أديس أبابا فى أول فبراير ١٩١٣ الامر الذى افزع (جبرا ماريام) قائد حرس الامبراطور الخاص وحاول اعتراض الامير ولكن الاخير تمكن من هزيمته وابعاده خارج المدينة (٢) .

وقد ترتب على ذلك الانتصار أن اصبح أمن العاصمة تحت رحمة الامير ومن ثم صار قناصل الدول الاجنبية يرصدون تحركاته وأفعاله وطفق هو يعبر عن كراهيته الشديدة للاوربيين بل وبكل شىء له صلة بأوربا (٣) .

وعندما توفى الامبراطور منليك فى يوم ١٢ ديسمبر ١٩١٣ (٤) . أعلن الاب (ماثيو) تولية ليج اياسو حكم اثيوبيا واقسم الجميع يمين الولاء بالطاعة والاتحاد معه وكان عمره فى السابعة عشر وقتذاك (٥) .

وبدأ يمارس سلطاته كامبراطور للبلاد وعين والده نجاشيا(Negus) على مقاطعات الواللو والتيجرى ولكنه سرعان ما لاحظ أن بعض رؤوس

---

(١) Marcus G. Harold, op. cit. p. 258.

(٢) F.O. 403/439, the Sieger to Grey, Addis Ababa 11 Feb. 1913.

(٣) Dudge, Sir, E.A. Wellis, op cit. Vol. II, p. 546.

(٤) لم تعلن الحكومة الاثيوبية ذلك الخبر رسميا الا فى منتصف يناير ١٩١٤ ومع ذلك فان الناس كانوا يعرفون خبر الوفاه رغم انه لم تعمل جنازه رسمية ولا شعبية ودفن الاب ماثيو جثمانه فى احد الاماكن السرية .

المقاطعات يتوجون هم الاخرون على أنهم ملوك ويماطلون فى دفع الضرائب المستحقة لخزينة الدولة الامر الذى تطلب من ليج أن يضرب المعارضة الظاهرة بعنف حفاظا على وحدة الامبراطورية وأن كانت هناك قوة اخطر صارت تلعب من وراء الستار ضده ممثلة فى الرأس (تفارى ابن الرأس ماكونين) (١) .

فاذا اضفنا الى كل ذلك حقد الملكة تايتو عليه ومحاولاتها المتكررة لسلب السلطة منه لادركنا على الفور أن ليج ورث ملكا لا يحسد عليه(٢) ويبدو أن ظروفه النفسية كانت فى غاية السوء فقد ادرك أن الاعداء يحيطون به وبدولته من كل جانب الامر الذى تطلب منه اعادة حساباته مع نفسه أولا ثم اعادة النظر فى سياسة الدولة ككل فقام برحلة مع بعض اصدقائه خارج أديس أبابا لعلها كانت رحلة للاستجمام والتفكير وقد أولها البعض بأنها كانت رحلة فاسدة وشيطانية هدفها تمتع النفس بالموبقات (٣) .

والواقع أن ليج اياسو كان قد بدأ يعلن بغضه للديانه المسيحية ويأتى من التصرفات ما يعبر عن ميوله للاسلام واستيائه من الوجود الاوربى فى بلاده بل وفى منطقة القرن الافريقى ككل مما يدل على تفكيره فى هدم سياسة جده الراحل الامر الذى ترتب عليه أن قلل من قدر دولته فى أعين الاوربيين وصاروا يعاملونه بحذر شديد (٤) .

وبالنسبة للصوماليين كانت الامور قد تأزمت بينهم وبين الانجليز والطليان وكان زعيم الصومال (السيد محمد عبد الله حسن) اتخذ من (تالح) مركزا عاما له وكانت قواته وصلت الى درجة عظيمة من التدريب الروحى والعسكرى وصارت تمارس ضغوطها على بعض مواقع الانجليز مما جعل أحد قادة الاحتلال المدعو (كورفيلد) يترأس قوة مزودة بأحدث السلاح البريطانى للفتك بهم وكان أن حدث اللقاء الساخن فى صباح

---

(١) كان الرأس ماكونين حاكما على هرر توفى فى عام ١٩٠٦ وكان من اخطر المنافسين للرأس ميخائيل وصار بعد ذلك الرأس تفارى (هيلا سلاسى فيما بعد) من أكبر الاعداء الحاقدين على ليج .

(٢) Morcus G. Harold, the End of the Reign of Menilek II (Journal of African History XI-4-1970) p. 58.

(٣) Jones A.H.M. & Elizabeth Monroe op. cit. p. 157.
Christine, Stanford, op. cit. pp. 24-25.

السبت الموافق ٩ أغسطس ١٩١٣ حيث أشتد القتال وارتفعت حرارة النيران وسالت الدماء وصارت مجزرة ، لم تستمر أكثر من ست ساعات اسفرت عن مصرع كورفيلد وفصل الصوماليون رأسه ومزقوا جسده وأقاموا صلاة الظهر والعصر على أرض المعركة (١) هذا وترتب على هذه المعركة عدة اثار منها :

١ ـ ارتفاع روح الصوماليين وصار الملا محمد عبد الله فى أعين الناس البطل الصومالى الذى يجاهد فى سبيل الله لتحرير شعبه وبلاده من المستعمرين .

٢ ـ قلق انجلترا على وجودها فى الصومال خاصة وأن الرياح بدأت تشتد فى أوربا وتأتى بما لا تشتهيه السفن وصارت فى شغل شاغل من هذه المشاكل الجديدة وكان يهمها الى حد كبير أن تظل طرق مواصلاتها مفتوحة الى الهند وهذا يتطلب أن يكون البحر الاحمر وقناة السويس وعدن وموانى الصومال فى أمان .

٣ ـ تزايد خوف الايطاليين بجانب تصاعد قوة الصوماليين كانت ظروفهم سيئة فى اريتريا وكانوا يخشون من هجمات اثوبية عليهم بعد أن فترت علاقاتهم مع الاثيوبيين .

٤ ـ كان ليج اياسو فى تلك الفترة يسيطر سيطرة تكاد تكون كاملة على مقدرات الامور فى بلاده ولانستبعد أن يكون قد أوعز بعدم الاحتكاك مع الصوماليين مما ترتب عليه استقرار الهدوء وانتعاش التبادل التجارى بين الاحباش والصوماليين على طول الجبهة الغربية (٢) .

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الاولى فى أوربا وظهر تعاطف الدولة العثمانية مع المانيا واستعدادها الى للهجوم على مصر واخراج الانجليز منها اعلنت دول الحلفاء (انجلترا وفرنسا وروسيا) الحرب رسميا عليها فى ٥ أغسطس ١٩١٤ وبذلك أخذت تأثيرات تلك الحرب تمتد من أوربا الى البحر الاحمر وخليج عدن ولا نستبعد أن يكون

(١) للمزيد انظر للباحث : تطور الجهاد الوطنى فى الصومال ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) Hess L. Robert. op. cit. pp. 88-108.

« ليج اياسو » اهتم منذ ذلك الوقت بالشئون الخارجية وعلاقة بلاده مع غيرها .

فكما ذكرنا كانت الحكومة البريطانية يهمها أن يظل الطريق مفتوحا الى الهند عبر قناة السويس والبحر الاحمر وضمان وصول المواد التموينية من ميناء بربره الى محاميتها فى عدن . وبصفة عامة ، كان يهمها استقرار الاوضاع فى كل من مصر والسودان والقرن الافريقى وكان اخشى ما تخشاه هى وحليفاتها أن يعلن الخليفة العثمانى الجهاد فهذه مسألة لها من الخطورة بمكان اذا أخذنا فى الاعتبار أن انجلترا كانت تتحكم فى سبعين مليون من المسلمين فى الهند علاوة على مسلمى مصر والسودان والصومال وأن روسيا كانت تتحكم فى مسلمى وسط اسيا وكانت فرنسا تتحكم فى مسلمى شمال افريقيا وغربها (١) فاذا أعلن الخليفة الذى كان يسيطر روحيا على معظم العالم الاسلامى الجهاد فانه لابد أن تحدث على الاقل قلاقل وعراقيل فى وجه الحلفاء .

كما أن الوجود العثمانى فى سواحل البحر الاحمر كان يسمح لدول الوسط الاتصال بمصر والسودان والقرن الافريقى والتوغل الى داخل القارة لافريقية وامداد الاهالى بالسلاح واثارة مشاعرهم ضد الحلفاء وحثهم على الكفاح المشترك تحت راية الاسلام .

وحدث ما كانت تخشاه دول الحلفاء فأعلن الخليفة « السلطان » العثمانى الجهاد واصدر شيخ الاسلام فى استانبول خيرى بن عونى الاركومى فتوى أعلن فيها أن اتحاد المسلمين فى العالم بما فى ذلك الشعوب الخاضعة لدول الحلفاء هو واجب مقدس وعليهم أن يرفضوا التعاون مع حكومات تلك الدول فى هجومها على الدولة العثمانية حتى ولو تعرضوا للاستشهاد من أجل ذلك ثم اصدر السلطان بلاغا الى رجال الجيش والاسطول حثهم فيه على الجهاد من أجل تحرير الاسلام من الدول الاستعمارية ثم صدر بيان من هيئة العلماء يقضى بضرورة الجهاد المقدس امهره الخليفة بتوقيعه وامر بنشره فى كل البلاد الاسلامية وحث هذا البيان كل المسلمين على الالتفاف حول الخلافة والدفاع عن البلاد الاسلامية والعمل على تطهيرها من المستعمرين الاجانب .

---

(١) د. جلال يحيى : العالم العربى الحديث . ص ٤٥٤ وما بعدها (القاهرة ١٩٧٤) .

وانطلقت الدعاية الاسلامية قوية ومدوية فى شكل منشورات وكتيبات صغيرة سرعان ما وصلت الى القرن الافريقى ففضحت سياسة الدول الاستعمارية ومواقفها تجاه الاسلام والمسلمين •

والواقع أن عام ١٩١٥ كان عام انتصارات متكررة لتركيا ودول الوسط فرغم أن تركيا فشلت فى هجومها على قناة السويس فى الثانى من فبراير ١٩١٥ الا انها اصابت بعض النجاح فى اتجاه عدن حيث تمكنت من احتلال لحج فى يوليو ١٩١٥ وصارت قواتها على مقربة من القوات البريطانية فى عدن ونظرا لضعف موقف الانجليز طوال ذلك العام أمام ضربات دول الوسط فانهم تغاضوا عن احتلال الاتراك لسلطنة لحج على امل ان لاتزداد العمليات العسكرية فى البحر الاحمر وابعاد القوات الالمانية — خاصة — عن مياهه ، فقد خشيت انجلترا من أن تستثمر المانيا معاهدة الدفاع السرية التى ابرمت بينها وبين الدولة العثمانية فى ٢ أغسطس ١٩١٤ وتنزل بقواتها فى مياه ذلك البحر وتتخذ من ممتلكات الاتراك على ساحله الشرقى مركز تموين لاسطولها فى طريقه الى تنجانيقا ونقط ارتكاز ووثوب على المصالح الانجليزية والفرنسية فى القرن الافريقى •

على أية حال ترتب على انتزاع سلطنة لحج وعلى النواحى التسع والاقامة فيها أن اهتز مركز بريطانيا وانكسرت هيبتها لدى مستعمراتها ومازاد الطين بلة انسحاب قواتها من (جاليبولى) على أثر الانتصار الذى احرزه الاتراك عليها فى ١٩ ديسمبر ١٩١٥(١) كان ليج اياسو يتتبع هذه الاخبار عن كثب ويعيشها • وتأثر وشاركة فى مشاعره معظم مسلمى الحبشة بانتصارات الدولة العثمانية ودول الوسط التى قامت بعثاتها الدبلوماسية وقناصلها فى أديس أبابا بدعاية جبارة ومثيرة ضد دول الحلفاء واستثمرت البعثة التركية مسألة الجهاد وتطايرت هناك أقوال مفادها أن الالمان أصدقاء الاسلام والمسلمين والمدافعين عنهم وعن حقوقهم وقد عبر عن ذلك قيصر المانيا نفسه « ويلهلم » منذ عام ١٨٩٨(٢) •

---

(1) Magnus, Phillip. Kitchner-Potrait of an Imperialist P. 313.

(٢) باول شمتز الاسلام قوة الغد العالمية ، نقله الى العربية د. محمد شامه . ص ٣١٥ وما بعدها . (القاهرة ١٩٧٤) .

ونعتقد انه منذ ذلك الوقت صارت سياسة « ليج اياسو » تتبلور وتأخذ الطـابع الاسلامى رغم أن تأثير الحرب العالمية على القرن الافريقى لايزال ضئيلا حتى وقتذاك وأن مسرح العمليات العسـكرية فى البحر الأحمر مازال ثانويا فقد ظل المسرح الرئيسى للحرب فى أوربا نفسها .

ومع ذلك فقد عرض على ليج اياسو اقتراح بأن يغزو السودان بقوة قدرها خمسون الف مقاتل لطرد الانجليز منه وأشاروا عليه بانهم ــ أى دول الوسط ــ ستساعده فى طرد الفرنسيين من جيبوتى وأوضحـوا له أن ضعف الانجليز سيؤدى الى حدوث ثورة ضدهم فى الهند وكانت تركيا من جانب آخر تخاطب السنوسى فى ليبيا والامير على دينـار فى دارفور وتحثهما على ضرورة حمل السـلاح ورفع راية الجهـاد وبعث أنور باشا فى ٣ فبراير ١٩١٥ خطابا لكل منهما بذلك وطلب من السلطان على دينار أن يوجه حملة عسكرية لانقاذ مصر وطرد الانجلتر منها (١) .

فالذى لاشك فيه أن قناصل تركيا والمانيا لعبا دورا نشطا للغاية فى نشر الدعاية لصالح دول الوسط وضد الحلفاء مما ترتب عليه أن اثرت تلك الدعاية على الاثيوبيين ومن ثم راوا أن امكانيات تحقيق أهدافهم كبيرة ومتاحة لطرد الوجود الاسـتعمارى من القرن الافريقى فاستصرخ القنصل البريطانى فى أديس أبابا طالبا المشـورة من حكومته أمام الموقف الذى صـار يتعقد امامهم بسبب قوة تأثير الدعاية الاسلامية والالمانية على الاحباش لدرجة انهم كانوا ينتظرون وصول الصحف المحررة بالعربية . ويتلقفونها من الاسواق باستمرار (٢) .

ومما زاد فى تعقيد الموقف امام قناصل دول الحلفاء انهم لاحظوا أن الامبراطور نفسه صار يكشف عن تعاطفه مع دول الوسط لذلك خشيت تلك الدول أن يحدث تقارب بينه وبين الصوماليين الذين كانوا يؤرقون الوجود الاوربى الاستعمارى فى الصومال وفتح جبهة حربية فى شرق افريقيا تكون بلاشك خطرا عليهم فى القرن الافريقى وعدن والبحر الاحمر .

فرأت بريطانيا أن تضرب الصوماليين الوطنيين وتشتت شملهم حتى لا يحدث أى تقارب بينهم وبين امبراطور اثيـوبيا فطلبت من قواتهـا

(١) د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون . ص٥١٧ (بيروت ١٩٦٤)

(٢) F.O. 371/2227. Doughty - Wylie to Grey, Addis Ababa 20-12-1914.

القادمة من الهند رغم احتياجها الشديد اليها فى ميادين عسكرية ساخنة ان تهجم عليهم فقذفت المدفعية البريطانية فى ٢ فبراير ١٩١٥ موقع الصوماليين المتقدم فى « شيمبربيرس » وتمكنت من اغلاق الموانى البحرية فى وجههم لحرمانهم من السلاح الذى كانوا يحصلون عليه عن طريق البحر (١) .

أما موقفها من الامبراطور الاثيوبى فكانت فى غاية من الحيرة منه لانه لم يكن فى حسبانها خاصة وان مركزها الحربى والسياسى كان فى منتهى السوء لذلك لم تستطيع ان تتخذ اجراء مناسبا ضده .

وعقب الهجوم الانجليزى على الصوماليين السابق الاشارة اليه قام ليج اياسو مع شخص يدعى « عبد اللاهى صادق » كان عينه نائبا لحاكم اوجادين الى مدينة هرر ليقف بنفسه على مشاعر المسلمين هناك ورأيهم — بصفة عامة — بالنسبة لجهاد الصوماليين ومسألة الحرب العالمية الاولى .

وفور وصوله الى المدينة قصد مسجدها الجامع ومكث فيه حوالى ثلاث ساعات وسط جمع من فقهاء المسلمين وعلمائهم وكبار وجوههم وعبر الامبراطور عن نبل مشاعره تجاه الاسلام والمسلمين ووعدهم برفع سياسة الظلم عنهم التى كان يمارسها الرأس « تفارى » ضدهم (٢) .

والواقع أن الرأس تفارى لم يكن فى ذلك الوقت فى موقف يسمح له بالوقوف ضد الامبراطور ومعارضة سياسته بعد أن لاحظ اقبال المسلمين وتعلقهم به ليس فى هرر فقط بل فى كل اثيوبيا والصومال حقيقة كانت له — أى تفارى — سيطرة على تجمع لم تكن اهدافه قد تبلورت بعد وان كان واضحا انه ضد ليج اياسو ولكن تفارى ببعد نظره ودهائه وخبثه رأى أن يكتم حقده وأن يخفى مشاعره العدائية وان يظهر امام

(١) Samantar, N-L. OP Cit., P. 176.

(٢) كان عبد اللاهى صادق فى وظيفة ادارية بمدينة هرر وكان ينوب عن الامبراطور منليك فى المحادثات مع الدولة العثمانية عندما كان الملا محمد عبد الله حسن زعيم الصوماليين يثير القلاقل فى أوجادين ضد الاحباش وصار عبد اللاهى يتردد على القسطنطينية وعلى كثير من البلاد الاسلامية ومن ثم كان معروف لدى المسئولين فى تركيا ولدى الزعيم الصومالى وعندما حكم ليج اياسو عينه نائبا لحاكم اوجادين وقد لعب هذا الرجل دورا نشطا وبارزا فى التقارب بين ليج والملا .

الامبراطور بمثابة الحاكم الامين المخلص والمطيع له مبديا كل التعاون في تنفيذ سياسته .

على أية حال أخذ الامبراطور يدرس موقف بلاده من مسألة الحرب العالمية الاولى خاصة وأن الدعاية الاسلامية والالمانية كانت تحاصره ولما كانت دول الحلفاء هي التي مزقت بلاد جيرانه وتسيطر عليها فلم يستبعد احتمال هذه الدول اذا فازت بالنصر في آخر المطاف أن تمزق بلاده هو الى مناطق نفوذ فقد سبق وقامت بهذا الاجراء في عهد جده الامبراطور منليك حين كان مريضا في عام ١٩٠٦ (١) .

وعلى ضوء كل ذلك رأى أن يستفيد من ظروف الحرب العالمية الاولى خاصة وأن دول الوسط حققت انتصارها الاول العظيم على أعدائه واعداء جيرانه ومن ثم تطلب الامر منه أن يعلن صراحة وقوفه بجانب تركيا والمانيا فقام في ابريل ١٩١٥ بزيارة لبعض المقاطعات في الامبراطورية ليناقش مع الحكام مسألة دخول بلاده الحرب بجانب دول الوسط وليتأكد من موقفهم منها بنفسه (٢) .

وهنا تضاربت وجهات النظر بالنسبة لموقف اثيوبيا من تلك الحرب هل تقف على الحياد أم تعلن الحرب على الحلفاء فكان هناك رأى يحبذ تأييد الدولة العثمانية والمانيا حيث بهرهم الانتصار الاول على دول الحلفاء في اوربا وهناك رأى آخر يرى التريث وعدم الاندفاع الى اعلان الحرب ضد الحلفاء .

ويبدو أن الرأى الاول كانت له الغلبة لذلك احتضنه ليج اياسو ومن ثم تجمعت مفاتيح الموقف كلها في يده واعتقد هو شخصيا أن انتصار دول الوسط سيساعده على طرد المستعمرين من القرن الافريقي وكان توقعه ايضا ان انتصار تركيا يترتب عليه ازدياد نفوذها في شمال وشرق افريقيا فكان عليه والحالة هذه ان يجد تسوية أو أن يكيف نفسه مع مسلمي اثيوبيا وخاصة في المناطق الشرقية المتاخمة لمسلمي الصومال

---

(١) انظر للباحث — موقف عصبة الامم من الغزو الايطالي للحبشة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ ص ٤ وما بعدها — مجلة معهد البحوث والدراسات الافريقية العدد التاسع .

(٢) F.O. 371/2228, Thesiger to Grey, Addis Ababa. 14-4-1915.

ومحاولة توحيد سياسته مع قائد الصوماليين الوطنيين لطرد المستعمرين الاوربيين من القرن الافريقى .

مظاهر التقارب ونتائجه :

عندما لاحظت انجلترا سوء موقف الحلفاء العسكرى والضربات التى تنهال على قواتهم من جانب قوات دول الوسط واعلان الخليفة العثمانى الجهاد ومحاولة الاتراك الهجوم على قناة لسويس . رأت أن تحاصر الوجود العثمانى نفسه فى شبه الجزيرة العربية والحيلولة دون وصول الالمان الى مستعمراتهم (تنجانيقا) ولم تعط اهتماما كبيرا بالنسبة لمنطقة القرن الافريقى فألقت عبء مواجهة الصوماليين على عاتق ايطاليا بعد أن اطمأنت اليها عقب ابرام معاهدة لندن السرية فى٢٦ أبريل ١٩١٥ والتى تضمنت منحها مناطق نفوذ فى تركيا الاسيوية وتوسيع رقعة املاكها فى القرن الافريقى وليبيا (١) .

واستغلت انجلترا العداء الذى كان بين الاتراك وبين بعض الحكام العرب ، فدخلت معهم فى مفاوضات طوال عام ١٩١٥ نتج عنها عقد سلسلة من الاتفاقات ربطتهم فيها بسياستها ضد الدولة العثمانية وكان اخطر تلك المفاوضات هى التى دارت بينها وبين الشريف حسين أمير مكة لما كان يتمتع به هذا الشريف من سمعه لدى المسلمين بصفته خادم الحرمين الشريفين ومن ناحية أخرى اخذت تقوى من وجودها فى البحر الاحمر يتناسب مع القوة التركية بل ويزيد عليها فاحتلت قسران والشيخ عثمان وعززت من قواتهــا فى عدن وبربرة ولمــا رأت الدولة العثمانية أن انجلترا تزيد من نشاطها المعادى فى شبه الجزيرة العربية ولم تتمكن من احــراز نصر حاسم عليها فى البحر الاحمر وان هناك عمليات عسكرية شديدة السخونة فى ميادين أخرى اجتهدت فى أن تثير الشعوب الاسلامية عربية وغير عربية ضد الحلفاء وتضرب على الوتر الحساس الذى يلهب حماس تلك الشعوب واعنى به الجهاد الدينى المقدس .

هذا وكان الملا محمد عبد الله حسن ينشط فى تدريب رجاله روحيا وعسكريا مستغلا ظروف انجلترا فى حروبها خارج الصومال وحالة الهدوء

---

(١) كان فشل ايطاليا فى الحصول على مكاسب فى مؤتمر الصلح بباريس من الاسباب التى تذرع بها موسولينى لغزو الحبشة فى ١٩٣٥ ، انظر للباحث موقف عصبة الامم من الغزو الايطالى للحبشة . ص ٦ وما بعدها .

مع الاحباش ويستمع فى الوقت نفسه الى نداءات الخليفة العثمانى ضد دول الحلفاء •• ومن ناحية أخرى كان ليج اياسو ينشط من جانبه فى التقارب مع مسلمى الحبشة ويتفهم لمشاكلهم ويعدهم بازالة كل العقبات التى وضعها الحكام الاثيوبيون السابقون أمامهم وبعد تفكير عميق وعلى ضوء الظروف الدولية وقتذاك رأى أن افضل السبل لانجاح سياسته التى تخدم بلاده هى الاعتماد على المجموعة الاسلامية التى كانت على عداء شديد مع الاوربيين المستعمرين وتطلب منه الامر أن يطرد القوات الاجنبية من بلاده (١) •

كان الامبراطور الاثيوبى تفهم جيدا حركة الصوماليين الدينية الوطنية وأن هدفها هو ذات هدفه طرد الاوربيين من القرن الافريقى فارسل لزعيم الحركة فى اكتوبر ١٩١٥ — ثمانى من الابل محملة بالسلاح والذخيرة من هرر وقام عبد اللاهى صادق السابق الاشارة اليه بدور عظيم فى هـذا الشأن فانفتحت جسور التفاهم بين الامبراطور والصوماليين وارسل الملا بعثة الى هرر فى يناير ١٩١٦ لتعزيز التفاهم ووضع الاسس لعلاقات الاخوة بين الطرفين الامر الذى ترتب عليه أن توقفت الحـروب بين الجانبين وضمدت الجروح وفتحت الاسواق الاثيوبية أمام الصـوماليين مما ادى الى انعاش الحركة التجارية راطمئنان الاهالى على ارواحهـم وممتلكاتهم ومن ثم انصرف كل الى عمله وبعـد أن تأكد الصوماليون أن الامبراطور ليست له مطامع فى بلادهم وأن سياسته نحوهم ونحو بلادهم تختلف كلية عن سياسة سلفة الراحل •• ومن ناحية أخرى وقفوا على معاملته الطيبة ومشاعره النبيلة تجاه أخوانهم المسلمين فى الحبشـة نفسها اقبلوا عليه بصـدر مفتوح ومدوا له ايديهم للتعاون فى تنسيق المجهودات الحربية ضد المستعمرين الاوربيين •

والواقع ان ليج اياسو لم ينشرح صدره للاسلام فقط بل سرعان ماهجر زوجته (رمانة) وتزوج من عربيات فتزوج بنت اخت (ابى جعفر) وبنت السيد / عبد الله وبنت السيد محمد أبو بكر وانكر انه سـليل سليمان ولا ملكه سبأ وانما هو من سلالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) Marcus, G. Harold. Genisis of an Ethiopian Monarch Haile-Sellassie, 1918 1919 P. 46 (Horn of Africa Vol. 111, 4-1980-1981- U.S. A,D.

وعاد بنسبة الى السيدة فاطمة الزهراء كريمة الرسول ثم اجتهد فى تقريب وجهاء المسلمين منه وجعل له حاشية منهم كانت تضم بعض مشايخ اوجادين وممثلين عن الزعيم الصومالى محمد عبد الله حسن وارتدى ثياب الامراء المسلمين فلبس العمامة ومنطق بالخنجر واضاف الهلال الى العلم الاثيوبى وأمر بكتابة الشهادتين عليه (١) .

وصــار الامبراطور فى طريقة لايلوى على شىء يعــزز الاســلام والمسلمين ويبنى المساجد فى دير داوا وجكجكة ويتردد عليها لاداء الصلاة مع المسلمين وأكثر من فتح المدارس ــ لتدريس العلوم الإسلامية وتحفيظ القــرآن الكريم واعلن انه سيكون على رأس المجاهدين ضد الاوربيين الاستعماريين فى القرن الافريقى .

هذا وقد ترتب على تلك السياسة أن صــار المسلمون فى اثيوبيــا ينظرون اليه نظرتهم الى المخلص الذى جاء لينقــذهم من تعسف وظلم الحكام الاثيوبيين .

وبسبب هذه السياسة بدأ الرأس تفارى ينفس عن حقده الدفين فى صدره ضده فعبر عن ذلك بقوله « كل حاكم » كل جندى كل تاجر يشعر بالالم بسبب الحالة التى وصلت اليها اثيوبيا (٢) .

والحقيقة كان على ليج اياسو ان يتخذ اجــراء تصفية اجنحــة عدوه الاول الرأس ــ تفارى اذا كان يبغى نجاح سياسته فضرب ضربته بأن قلص من حجم ونفوذ قوته العسكرية فأشرك معها قواتا من العــــرب والصوماليين والجالا .

وكانت هذه الخطوة فى حد ذاتها ضربة فى الصميم ضد المعارضة فصار الحكام لايستندون على قوة واحدة خالصة لهم فقط بل صاروا يخشون بأس قوات الامبراطورية التى ظلت تفرض عليهم رقابة شديدة .

وقد ترتب على كل ذلك أن أخذ قناصل دول الحلفاء يعبرون عن قلقهم وتخبطهم ازاء سياســة ليج اياسو والتقارب المتزايد بينــه وبين

(١) Budge, Sir, E, A. Wellis; Op. Cit., Vol. 11. P. 543.

(٢) F.O. 371/2595, Thesiger to Wingate, Addis Ababa. 14-4-1916.

الصوماليين الوطنية وقد ظهر الفزع بصورة جلية على وجوه الطليان عندما وصلتهم الاخبار عن وصول وفد من زعماء مسلمى الحبشة الى معسكر الملا فى تالح واعتناق ليج اياسو الاسلام مما يترتب عليه اتحاد بين الطرفين وربما يمتد ليشمل مسلمى اريتريا والسودان واوغندا ضد الاوربيين مما يجعل وجود ايطاليا فى القرن الافريقى اكثر عرضه لخطر الاسلام والمسلمين من غيرها (١) •

والذى لاشك فيه انه منذ ذلك الوقت صار اعتناق الامبراطور للاسلام مسألة لاغبار عليها ففى ٢٩ ابريل ١٩١٦ كان هذا اليوم يناسب عيد ميلاد سلطان تركيا فأمر ليج اياسو بأعداد حفلة كبيرة تتناسب مع مقام ذلك السلطان وقدم للوزير التركى وساما ووشاح نجمة اثيوبيا الكبير وبعث للخليفة العثمانى بواحد من علمه الجديد وارسل نسخا منه هدايا الى حكام بلاده المسلمين طالبا منهم الاستعداد للجهاد الذى ينوى القيام به لنصرة الاسلام والمسلمين وحظى الممثل التركى منذ ذلك الوقت بمكانة مرموقة فى البلاط الحبشى (٢) •

والواقع ان هذا التكريم (ارسال احد الاعلام الاثيوبية الجديدة الى الخليفة (السلطان) العثمانى له مغزاه الدينى والسياسى فى الوقت نفسه فيعنى ان اثيوبيا صارت تدين بالولاء الروحى لخليفة المسلمين (٣) • ومن الناحية السياسية يعبر انهـا ترغب فى الانضمام الى دول الوسط ووضح ان السياسة الالمانية كانت توجه الاحباش نحو اريتريا لطرد الطليان وظلت السياسة التركية تتعامل مع الملا محمد عبد الله حسن والصوماليين لطرد الانجليز والفرنسيين من الصومال •

وقد ترتب على كل ذلك ان حدث رعب عام لدى اطراف المعاهدة الثلاثية وبعد دراستهم للموقف من جميع زواياه توصلوا الى نتيجة واحدة وهى أن وجود ليج اياسو صار يشكل تهديدا لهم فى الحرب فى منطقة الشرق الاوسط ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا لا يستطيعون اتخاذ اى اجراء ضده بسبب مساندة الالمان والعثمانيين له من ناحية وبسبب الرصيد

---

(١) Hess, L. Robert. The Mad Mullah and Northern Somalia P. 430 (Journal of African History, V. 3 - 1964).

(٢) Jones, A.H.M. 8 Eliwabeth, Monroe. Op. Cit., PP. 157-158.

(٣) Budge. Op. Cit., Vol. 11 P. 543.

السياسي الذي اكتسبه بين مسلمي القرن الافريقي من ناحيـة أخرى فكان في امكانه أن يوحد جيوشه مع جيوش الصوماليين ويفتح جبهة حربية في شرق افريقيا لاتكون خطـرا على وجودهم في القرن الافريقي فقط بل تكون خطرا على البحر الاحمر وقناة السويس وعونا للاتراك الذين كانوا لا يزالون يأملون في الاستيلاء على القناة وقاموا فعلا بالهجوم عليها مرة اخرى في ٢٣ ابريل ١٩١٦ الامر الذي لايبغيه الحلفاء خاصـة بريطانيـا •

وضح اذا أن النفوذ الالماني والتركي صار يفوق بكثير نفوذ الحلفاء في اثيوبيا وطفقت تركيا ترسل كتيبات الدعاية بالعربية الى الصوماليين تحثهم على الجهاد والوقوف بكل ما يملكون خلف الملا محمد عبد الله الذي يعتبر ممثلا للخليفة في الصومال وأوضحت الدعاية أن اعداء خليفة المسلمين في الصومال بل في القرن الافريقي كله هم الانجليز والفرنسيين والايطاليين واشارت الى أن الاخوة والمشاعر الاسلامية تتطلب أن يفهموا أن الحكومة الاثيوبية ليست مع اعداء الخليفة وليست في حرب ضد حكومة الاسلام فهي صديقة ومخلصة لحكومة الدولة العثمانية وأن مصلحـة الاسلام والمسلمين في الصومال الاتحاد مع الحكومة الاثيوبية (١) •

لاشك أن مثل هذه الدعاية زادت وقوت من التقارب بين اثيوبيا والصوماليين فاصدر الامبراطور اوامره بتقديم كل المساعدات لهم ومنحهم كل التسهيلات لشراء ما يريدون من أسواق الحبشة وارسل في ١٩ أبريل ١٩١٦ خطابا باللغة العربية الى بعض زعماء الصومال الاخرين امثـال السلطان عثمان محمود والكنديت محمود على ضمنه نسبة الى السيدة فاطمة الزهراء ورغبته في تحرير القرن الافريقي من المحتلين الاوربيين ثم قام بزيارة سرية الى جيبوتي في بداية أغسطس دون أن يعلم بها القنصل الفرنسي في اديس أبابا أو حاكم المستعمرة وقضى بها يومين بصحبة نفر من خاصته ولاشك أن هذه الزيارة كانت تنطوي على شيء ما لصالح سياسته الاسلامية الجديدة فليس ببعيد أن يكون قد تقابل مع مبعوثين للسيد محمد عبد الله حسن او زعماء صوماليين أخرين من الصومال البريطاني أو الصومال الايطالي ومن المحتمل أن يكون طرح عليهم موقفه بخصوص الحرب العالمية وبخصوص سياسة المسالمة مع الصوماليين •

---

(١) من منشورات الدعاية التركية ، انظر : F.O. 371/2593.

فبعد عودته من هذه الزيادة أصدر أوامره فى ١٣ أغسطس ١٩١٦ باستبعاد الرأس تفــارى الذى كان لا يزال محدد الاقامة فى أديس أبابا من حكم هرر وجعلها تحت ادارة المسلمين وجميع الجيش ومنحه الاوسمة ووزع عليه الاعلام التى نقشت عليها الشــهادتان ومن ثم كســب كل الصوماليين فى أوجادين (١) . وعبر عن احتقاره لهؤلاء الذين ينقــدون له رجال الدولة لدقة استنتاجاته وتنهمه للأمور (٢) .

فيبدو أن الرجل لم ينهج تلك السياسة الا بعد اقتناع تام خصوصا اذا أخذنا فى الاعتبار أنه كان ذكيا سريع الفهم نشيطا جيد اللغة العربية والفرنسية وكان من الحكمة وبعد النظر رغم صغر سنه ، ماكان يدهش له رجال الدولة لدقة استنتاجاته وتنهمه للامور (٣) .

هذا وقد تردد القول فى أديس أبابا عن امكانية حدوث انقلاب ضد الأمبراطور فقد طرحت بعض الخطط ونوقشت لخلعه عن العرش ولعل الذى كان من ورائها دول المعاهدة الثلاثية التى رأت فى سلوكه ما يتنافى كلية مع سياستها ومشاريعها الاستعمارية بجانب أنها تصورت أن نتيجة تلك السياسية ستؤدى الى مذبحة للمسيحيين واليهود (٤) .

والواقع أن قناصل تلك الدول بذلوا الكثير من الجهود الشخصية والرسمية لزحزحة ليج اياسو عن سياسته الاسلامية ولكن دون فائدة مما جعلهم يستصرخون حكوماتهم المرة تلو الأخــرى طالبين المشــورة ومشيرين الى نشاط الاتراك والالمان المتزايد فى اثيوبيا خاصة فى هــرر حيث ينشط القنصل التركى فى اثارة المتاعب ضدهم ويعمل على تسهيل وصول السلاح والذخيرة الى المجاهدين الصــوماليين من ناحية (٥) . ويشجع على توزيع المنشورات وكتب الدعاية فى الاسواق العــامة التى تتضمن الجهاد وحث المسلمين واستقارهم ضد الخلفاء (٦) .

---

(١) Hess, L. Robert ; Op. Cit., P. 430.

(٢) Christine, Sandford ; Op. Cit., PP 24-25.

(٣) Budge ; Op. Vol. I1. PP. 543-545

(٤) Jone, A.H.H. 8 Elizabeth Monroe. Op. Cit., P. 158.

(٥) S.A.D. 125/2594, Tesiger to Grey Ababa 3-8-1916.

(٦) F.O. 371/2594, Thesiger to Grey Addis Ababa, 3-8-1916.

ورغم كل هذه المواقف العدائية استمر ليج اياسو على سياسته الاسلامية وسياسة التقارب مع الصوماليين فتوجها بابرام اتفاقية معهم فى ٢٦ أغسطس ١٩١٦ تتضمن أن تقدم اثيوبيا كل المساعدات للصوماليين وأن يعملا سويا لتحرير الارض المحتلة فى منطقة القرن الافريقى وفتح الاسواق الحبشية امامهم فدخلت السلع الاثيوبية الى الصومال بدون قيود وشوهدت الابل تتحرك محملة بالملابس ومواد التموين والسلاح والذخيرة الى جكجكة لمساعدة هؤلاء الصوماليين ولتتحول اى جكجكة الى قاعدة هجوم ضد هير جيسا التى يسيطر عليها البريطانيون .

وزيادة فى حسن نوايا الامبراطور تجاه الصوماليين ورغبته الشديدة فى طرد الاوربيين بعث بالمغامر الالمانى (أميل كيرش) الى الملا فى الصومال لتصليح الاجهزة الحربية وكانت هذه الحركة لها قدرها وتوضح مدى العلاقة الوثيقة التى ربطت بينه وبين زعيم المجاهدين الصوماليين فقد كانوا لا يستخدمون الاسلحة فى حالة توقفها عن العمل لعدم خبرتهم فى هذا المجال (١) .

ومن ناحية أخرى وكعادة العرب اراد الامبراطور أن يزيد هذه العلاقات قوة بمصاهرة الملا فتقدم للزواج من احدى كريماته وفعلا اتخذت الاجراءات اللازمة وأرسل وفد من هرر فى اغسطس ١٩١٦ الى معسكر الملا فى تالح لاحضار العروس (٢) .

اما بالنسبة لدول المعاهدة الثلاثية فانها حين علمت أمر الاتفاقية بين الامبراطور والصوماليين قررت ارسال احتجاج رسمى له وليكون كتحذير أخير للاقلاع عن سياسته الاسلامية (٣) .

وكان الرأس تفارى كما ذكرنا فى أديس ابابا محدد الاقامة فصمم على أن يضرب التقارب فى مقتل وأن ينتقم من الامبراطور والصوماليين على

---

(١) Samantar, N.L ; Op. Cit., 178-188.

(٢) شاءت الظروف ان لايتم هذا الزواج بسبب خلع الامبراطور من الحكم فى ٢٧ سبتمبر ١٩١٦ كما سنشير اليه بعد قليل انظر :

Hess, L. Ro Bert ; Op. Cit., P. 430.

(٣) F.O. 371/2595, Thesiger to Grey Addis Ababa. 5-9-1916.

حد سواء وطفق يخطط فى الكتمان وتم عقد اجتماعين فى أديس ابابا فى نهاية اغسطس اسفرا عن استدعاء الامبراطور رسميا الى العاصمة فاذا رفض توجه القوات الاثيوبية الى هرر للقبض عليه وعندما وصلت هذه الاخبار الى مسامع ليج ادرك أن ابواب الصراع مع اعدائه فتحت على مصاريعها •

ومع ذلك لم يعد مسرعا الى اديس ابابا ليقبض هو على هـؤلاء المتمردين على سياسته وبدلا من ذلك عقد اجتماعا كبيرا فى بداية سبتمبر ١٩١٦ فى جكجكه حيث تشاور مع رؤساء أوجادين الصوماليين ووزع عليهم السلاح وخطب فيهم قائلا انه ينشد السلام والصداقة مع المسلمين واشار الى أن سلطان تركيا منحه السيادة على كل الشط الســاحلى من بربره الى مساوا بما فيها اريتريا ويأمل أن يسيطر على هذه المناطق قريبا وحذر من أن الانجليز والفرنسيين والطليان اذا وقفوا فى طريقه فسيلقى بهم الى البحر •

وعلى اثر ذلك ازداد الخوف لديهم أى لدى المحتلين فأرسلوا فى ١٢ سبتمبر مذكرة الى وزير الخارجية الاثيوبية يشكون فيها من نشاط الامبراطور وتأييده للثوار فى الصومال وطلبوا توضيحا لهذه الامــور فى الحال (١) •

ولكن الامبراطور ضرب بهذه عرض المذكرة عرض الحائط وبذل مجهودات جبارة فى اعداد جيش من المسلمين استعدادا لحرب مقدســة ضد هؤلاء الاوربيين على غرار الحروب التى يشنها على دينار فى دارفور والسنوسيون فى ليبيا والدراويش فى الصومال (٢) •

وبعد أن تم تدريب الجيش الاسلامى وجهزت معداته الحربية قام باستعراض عســكرى على غاية من الانضباط فى دير داوا يتقدمه أحد الفرسان رافعا العلم الاثيوبى الجديد مما يعنى دخول اثيوبيا الحرب بجانب دول الوسط الامر الذى ازعج دول الحلفاء وأربك من خططهم العسكرية فقد كانوا لا يتصورون حتى ذلك الوقت أن الامبراطــور سيتمادى فى سياسته الاسلامية ويفتح جبهة عسكرية فى القرن الافريقى

(١) F.O. 371/2595, Thesiger to Grey, Addis Ababa 14-9 1916.
(٢) Budge. Op. Cit., P. 545.

ستؤثر بصورة أو بأخرى على خط سير الثورة العربية التى اشعلها الشريف حسين — امير مكه — فى الحجاز وسوريا ضد الاتراك فى ١٠ يونيو ١٩١٦ لدرجة انه على ضوء هذا التصــور عندما اشتعلت الحرب العالمية فى أوربا لم تكن هناك خطة عسكرية لنقل فصائل من الجيوش العاملة ولا حتى أى محاولة جادة لمواجهة المشاكل أمام الالمان فى مستعمرتهم «تنجانيقا» •

ولكن بسبب هذه التغيرات الجديدة سارع البريطانيون بجمع قوات من مستعمراتهم فى شرق افريقيا وكونوا منها فصائل مدربة على القتال لمواجهة ما يسفر عنه الغد من احتمالات أى خطر فى هذه المناطق (١) •

ومع كل تلك الظروف التى كان عليها القرن الافريقى رأت الحكومة البريطانية التريث وعدم التدخل بثقلها العسكرى فكانت ترى أن ميدان الحرب الرئيسى مع دول الوسط لايزال فى أوربا نفسها •

حقيقة كانت تدرك أن التقارب الاثيوبى الصومالى وثورة على دينار الاســلامية فى دارفور ومقاومة السنوسية فى ليبيا كلها أعمال تهــدد معســكرات الحلفاء ولكن كما هو معروف ان السياسة البريطانية دائمــا تؤثر تفادى السير فى الطرق المؤدية الى صدام مباشر مع اهالى البــلاد وتميل الى الدفاع عن مصالحها بأقل صورة من صوره وتركز جهودها فى المسائل التى تراها تتطلب ضرورة التدخل المباشر أو حتى غير المبــاشر فاذا فرغت منها وجهت انظارها الى المسائل الاقل خطورة وهذا ما كانت تحسبه بالنســبة للقرن الافريقى •

لذلك أعطت السياسة البريطانية كل اهتمامها السياسى والعسكرى بالنسبة لجبهة الشرق الاوسط وركزته فى شبه الجزيرة العربية بصفتهــا مركز الاسلام •

فبعد أن نجحت فى أشعال الثورة العربية ضد دولة الخلافة العثمانية التى كانت معظم الثورات الاسلامية الاخرى تستمد منها قوتها المــادية والروحية والتى كانت لاتزال فى نظر كثير من المسلمين هى التى تحمى

---

(١) Hodges, G.W.T. African Manpower-Statistics for the British forces in East Africa 1914-1918. P. 102. Journal of Afican History, XIX, 1-1978).

الاســلام والمسلمين من اخطار الدول الأوروبية الاستعمــارية وبعد أن اطمأنت أى السياسة البريطانية على خط سير الانتصارات على الاتراك وعدم احتمال قيام أى تكتل اسلامى مضاد فى شبه جزيرة العرب وعلى تحسن موقف الحلفاء فى أوربا ، التفتت الى مناطق الثــورة الاســلامية الأخرى للاجهاز عليها وطبقا لمنهجها الذى يحبذ أن تصفى القيــادات المعارضة لها بعضها البعض ولا تتدخل الا فى الوقت الذى يتطلب منهــا التدخل كانت الخطة بالنســبة للتقارب الاثيوبى الصومالى أن يغتــال بالطريقة التى تراها هى ومن قبل اهالى البلاد انفسهم .

ففى الوقت الذى تحسن فيه مركز الحلفاء كانت ازمة الخلافات مع ليج اياسو وصلت الى ذروتها وهنا ظهر دور انجلترا قويا فى مســاندة المعارضة وعلى رأسها « تفارى » الذى لم يضيع لحظة واحدة فى تدبير مؤامرة ضــد الامبراطور .

فقد جاء الوقت وتدخلت دول المعاهدة الثلاثية من وراء الكواليس لتدفع بالمعارضة ضد ليج اياسو وضد سياسته الاسلامية (١) فتنفست الكنيسة الحبشية الصعداء فقد فزعت هى الاخرى من سياسة الامبراطور وأخذت توغر صدور الرءوس الامراء وهيجت الرأى العام المسيحى داخل البلاد وفى الوقت نفســه كانت القوات الانجليزية تتجمع فى بربره والقوات الفرنســية فى جيبوتى والقوات الايطالية فى مقديشيو لتشد من أزر تفارى والمعارضين للامبراطور (٢) .

وبعد أن احبكت خيوط المؤامرة وحددت ساعة الصفر تم ابلاغها الى كل من السفيرين الانجليزى والايطالى (ثيجروكولى) فاتصل ثيجر فى ٢٧ سبتمبر ١٩١٦ بلندن يقول ان حركة مضادة لابد من وقوعها اليوم لخلع ليج اياسو عن العرش بسبب سياسته الاسلامية وجارى اتخــاذ الاجراءات (٣) .

---

(١) Ullendorff, E. The Ethiopians - P. 95 (London 1960).

(٢) Budge ; Op. Cit., PP. 545-546.

هــذا ويقول بدج ان ليج اياسو حاول القضاء على الكنيســة الحبشــية الوطنية ونعتقد أن هذا الكلام يجــانب الصــواب ولعــل الحقيقة هى بسبب سياسته التى كانت لاترضى الدول الاوربية ولا الكنيسة على حد سواء .

(٣) Marcus, G. Harold. The life and time of Menelik, Ethiopia, 1844-1913. P. 277.

فقد انتهز امراء شوا وجود ليج اياسو فى هرر ليزيد الجيش عددا وعدة وتحركوا على رءوس قواتهم وسرعان ما انضم اليهم رءوس المعارضة وتوجهوا الى المطران وطالبوه بأن يحلهم من قسم الولاء للامبراطور لأنهم لن يخضعوا للاسلام ولن يسمحوا بأن يستولى الاجانب على بلادهم عن طريق خيانة ليج اياسو الذى يقودها الى الخراب وطالبوه بأن تصير (زاوديتو) ابنة منليك الاخرى ملكة على الحبشة والرأس تفارى وليا للعهد (١) وكانت فرصة مواتيه للكنيسة قد لا تعوض فامسك بها المطران وأعلن فى ذات اليوم ٢٧ سبتمبر ١٩١٦ رسالة موجهة الى الفيتأورارى جابرى الى الجيش والامراء والشعب خلع « الخائن » ليج اياسو من على عرش اثيوبيا وتنصيب « زاوديتو » كريمة منليك الاخرى امبراطورة على البلاد وتعيين الرأس تفارى بن الرأس ماكونين وصيا على العرش ووليا للعهد (٢) وطالب المطران الشعب باطاعتهما والاخلاص لعقيدته المسيحية وقال ان الشخص الذى يرفض ذلك تحل عليه اللعنة .

وعندما وصلت هذه الاخبار الى ليج اياسو فى هرر التف انصاره ومؤيدوه من حوله وقطعوا سبل المواصلات مع أديس أبابا ومن ناحية أخرى حاول والده الملك ميخائيل الذى كان فى انكوبار فى ذلك الوقت أن يدافع عنه ولكن تمكنت قواعد اعداء الامبراطور وعلى رأسها الرأس تفارى من الانتصار عليه ووضع الاغلال فى يديه ودخل به العاصمة متشفيا فى ٣ نوفمبر ١٩١٦ (٣) .

أماليج اياسو فقد لجأ الى اقليم « والو » فى الجنوب حيث الاغلبية الاسلامية من الجالا وهناك اتصل بهم ودارت معارك شبيهه بالحروب الاهلية بين انصاره وبين مؤيدى الأميرة راود يتو وبينما كانت دول الحلفاء ــ خاصة انجلترا ــ التى كانت وراء كل هذه الاحداث وتمد تفارى بالمساعدات الحربية والمالية كانت المانيا والدولة العثمانية غير قادرتين على مساعدة ليج اياسو بسبب الخسائر التى بدأت تلاحق دول الوسط مما جعل الرأس تفارى يتمكن فى النهاية من القبض على الامبراطور فى عام ١٩٢١

(١) Trimingham, J.S. Islam in Ethiopia. P. 131 (Oxford 1952).

(٢) Christine, Sandford. Op. Cit., PP. 24-25.

(٣) Marcus, G. Harold Op. Cit., P. 281.

ورميه بالسجن الذى ظل به الى أن اعلن رسميا عن وفاته بسبب أو بأخر فى ٢٦ نوفمبر ١٩٣٥ (١) .

وبعد أن انتهت انجلترا من ليج اياسو واطمأنت الى الرأس تفارى الذى نجح فى اغتيال التقارب الاثيوبى الصومالى رأت انه من الممكن الاعتماد عليه فى كبح جماح أى ثورة من قبل مسلمى الحبشة والمتعاطفين معهم سواء كانوا فى الصومال أو السودان أو اوغندا حيث كانت الدعاية الاسلامية تركت اثرها فى تلك البلاد (٢) .

فالواقع ان انجلترا تقدر خطورة توحيد الصفوف الاسلامية وتخشاها لانه لم يكن غريبا عليها وبعيدا عنها حين تصدت الصفوف الاسلامية للغزو الايطالى فى عام ١٩١٢ (٣) .

لذلك كانت تعمل حساباتها بدقة لضرب أى تقارب اسلامى وفى أى مكان واذا أخذنا فى الاعتبار أن خصومها فى الحرب لم يقتصروا على دولة الخلافة العثمانية وانما تشترك معها المانيا ــ القوة الجديدة الضاربة فى أوربا لادركنا المغزى من وراء سعيها لتفريق الصفوف الاسلامية وتمزيقها واشعال الفتنة فيها .

وبالنسبة للصوماليين فالذى لاشك فيه ان خلع ليج اياسو من على عرش اثيوبيا غير من مجرى العلاقات الودية التى ترتب عليها حقن الدماء وانتعاش الاحوال الاقتصادية الى علاقات عدائية من جديد بينهم وبين الاثيوبيين .

فبدأت الحكومة الاثيوبية تنكل بالمسلمين وانصار الامبراطور المعزول وتزيد من تقاربها مع دول الحلفاء لتحقيق مطامعها التوسعية فى الصومال أى انها صارت تنهج سياسة الامبراطور السابق منليك الثانى ذى العداء المرير مع الصومال والصوماليين .

---

(١) لتفاصيل ذلك انظر للباحث : تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال ص ١١٠ وما بعدها .

(٢) Security, 2/28/410 Central Records office - Sudan

(٣) للمزيد انظر : د. جلال يحيى : العالم العربى الحديث . ص ٣٩٩ وما بعدها .

فصارت اثيوبيا فى نظر الصوماليين شأنها شأن تلك الدول الاستعمارية التى تحتل مناطق فى الصومال •

فبعد أن اطمأن الصوماليون أن ليج اياسو ليس له مطامع توسعية فى بلادهم وأن سياسته كانت موجهة اساسا ضد الاوربيين الاستعماريين وتتفق تماما مع سياستهم ركزوا نشاطهم العسكرى ضد الانجليز والطليان•

ولكن تغير الاوضاع فى أثيوبيا قلب من خططهم العسكرية وغير من سياستهم الخارجية فصاروا يعيدون توزيع نشاطهم الحربى من جديد لمواجهة الاحباش بجانب الانجليز والطليان وتطلعوا الى خليفة المسلمين سلطان الدولة العثمانية باعتباره لايزال حامى حمى الاسلام والمسلمين فى معظم ارجاء العالم الاسلامى •

وكما ذكرنا كانت هناك بين الطرفين فضلا عن تشابه سياستهما الاسلامية علاقة ودية وأن كانت غير رسمية فتطلبت الضرورة منهما تنمية تلك العلاقة لصالح الاثنين فكانت الدولة العثمانية ترسل السلاح للصوماليين بهدف اثارة القلاقل امام الحلفاء فى القرن الافريقى لتضعف من جهودهم فى الميادين الحربية الرئيسية وكانت هذه مساعدة طيبة للصوماليين لتحرير بلادهم من هؤلاء المستعمرين •

وكان لموقف ليج اياسو اثره الفعال فى تقوية هذه العلاقة حيث كان يسمح بنشاط القنصل التركى فى هرر فى تسهيل وصول السلاح الى زعيم الدراويش الملا محمد عبد الله حسن •

فلما عزل هذا الامبراطور رأى الصوماليون أن الافضل لهم أن يصبغوا هذه العلاقة بصبغة رسمية حتى تستمر الدولة العثمانية فى ارسال السلاح اليهم خاصة وانها مازالت تنازل الانجليز والفرنسيين والطليان — اعداء الصوماليين فى الحرب •

فأرسل الزعيم الصومالى محمد عبد الله حسن وفدان من خاصته برئاسة الشيخ أحمد الشروع بن محمود الصومالى الى قائد القوات العثمانية فى لحج امير اللواء على سعيد باشا ليشيد بالسياسة التى تتبعها دولة الخلافة العثمانية تجاه المسلمين ويخبره ان الصوماليين يخوضون حربا مقدسة منذ عام ١٩٠٠ ضد الاوربيين الاستعماريين وهم يعلنون تأييدهم

لخليفة المسلمين فى جهوده ضد دول الحلفاء وعرض رغبة الملا فى عقد معاهدة تتضمن حماية الدولة العثمانية لارض الدراويش وهى الارض التى يسيطرون عليها وتنطلق منها قواتهم لمحاربة الاعداء وكانت حدودها الشرقية قبائل مجرتين من الصومال والبحر وحدودها الغربية الحبشة وحدودها الجنوبية مقديشيو وتحدها من الشمال قبائل وورسنقلى والبحر .

وبعد مناقشات بين الطرفين تم عقد المعاهدة فى ٩ محرم ١٣٣٥ الموافق ٤ نوفمبر ١٩١٦ وقد تضمنت المعاهدة حدود مشيخة الدراويش السابق ذكرها واعترافهم بالتبعية الدينية والسياسية لخليفة المسلمين محمد رشاد خان الخامس سلطان الدولة العثمانية والتماس الدراويش ان تنشر الدولة العثمانية اعلان الحماية رسميا على بلادهم الى جميع الدول (١) وأرسل رئيس الوفد المعاهدة الى زعيم الصوماليين مع رجل متقدم فى السن من البدو بغرض التمويه على سلطات الاحتلال حتى لا تسقط فى ايديهم ولكن شاءت الظروف ان لا ترى هذه المعاهدة النور فقد وقع الرجل اسيرا فى قبضة المسئول الايطالى فى (علوله) فى أوائل عام ١٩١٧ .

حدثت تلك التطورات فى وقت كان فيه دول الحلفاء يستعدون لجنى ثمار انتصاراتهم على دول الوسط وكانت ايطاليا كبيرة الامل فى أن تستفيد من تلك الحرب وتوسع من املاكها فى الصومال وارتيريا بناء على معاهدة لندن السرية فى ٢٦ ابريل ١٩١٥ السابق الاشارة اليها فأسرعت وعرضت المعاهدة العثمانية مع الدراويش على الحكومة البريطانية التى أخذت تدرسها وتحللها من جميع الوجوه وانتهى بها الامر بأن رأت أن الصوماليين بدأوا يقفون على أرض هشه وأن ازاحة ليج اياسو عن حكم اثيوبيا بدأت تؤتى ثمارها . فبجانب أن انجلترا اطمأنت على عدم معاداة الحكم الجديد فى اديس ابابا لها وللحلفاء حرم الصوماليون من المساعدات والمشتريات بما فيها السلاح والذخيرة التى كانت تصل اليهم عن طريق اثيوبيا .

فنشطت الحكومة الانجليزية ورأت أن الفرصة مواتية للتخلص من زعيم الصوماليين وحزب المجاهدين فأوعزت الى حكومة الحبشة الجديدة

---

(١) انظر تفاصيل المعاهدة والتعليق عليها فى تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال للباحث ص ١٠٣ وما بعدها .

بأن تستأنف غاراتها على الصوماليين ومن ناحية أخرى صارت تؤلب عليهم بعض القبائل المعادية لهم وكانت قواتها أى القوات البريطانية فى الصومال حتى ذلك الوقت فى حالة دفاع لانها لم تجرؤ على تحقيق نصر حاسم عليهم لكن عندما انتهت الحرب العالمية الاولى وانهارت الدولة العثمانية رأت حكومة لندن أن الموقف الدولى صار فى صالحها ومن ثم يتطلب الوضع فى القرن الافريقى التخلص نهائيا من الملا ومن رجاله المجاهدين الصوماليين •

وبعد دراسة مستفيضة جمعت بين كبار ضباطها وعلى مستوى القوات المسلحة لوحظ أن الخطط الحربية السابقة التى مارستها جيوشهم لم تحقق الهدف الذى وجهت من اجله (١) وهو قتل أو اسر قائد الدراويش وانما حدث العكس فقد زعزع مركز انجلترا فى شرق افريقيا واصاب من كبرياء وهيبة الامبراطورية البريطانية وقتل الكثير من خيرة ضباطها •

فأعدت خطة للهجوم عليه بنيت أساسا ولاول مرة فى شرق افريقيا على تدخل القوات الجوية بمشاركة القوات البحرية والقوات البرية •

وبدأت القوات المشتركة تصب نيرانها من الجو والبحر والبر وتطارد وتحاصر الملا وقواته المجاهدة وظل هو ورجاله يضرب ويتلقى الضربات ونظرا لان المعركة لم تكن متكافئة بسبب كثافة القوة البريطانية وتدخل الطيران الذى لم يعرفه الصوماليون من قبل انتهت المعركة لصالح البريطانيين وتوفى الزعيم الصومالى بسبب أو بآخر فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٠ • وهكذا عز على المستعمرين أن توجد فرصة التقط فيها الاثيوبيون والصوماليون انفاسهم حيث تجمدت الحروب بينهم وضمدت الجروح وانفتحت الطرق المسدودة وانتعشت التجارة وتصافحت الايدى فنظر الصوماليون الوطنيون الى جيرانهم الاثيوبيين بعد أن ظهر أن ليس لهم مطامع توسعية فى بلادهم على انهم اخوة لهم فى الجهاد لطرد الوجود الأوربى الاستعمارى من القرن الافريقى ولينعموا جميعا بحرياتهم ويستثمروا حق الجوار فى العمل لصالحهم العام المشترك •

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى

Official History of the operation in Somaliland (1901-1904) Vol. 1. General Staff War office PP. 54-265. (London 1907).

لكن هذه الفرصة وما ترتب عليها من آثار اضاءت الطريق أمام تلك الدول الاستعمارية فرأت خطرا على مصالحها بل على وجودها نفسه فى القرن الافريقى لذلك نشطت فى العمل لتمزيق التقارب الذى جمع بين الاثيوبيين والصوماليين والفتك باقطابه بصورة أو باخرى لتخمد أى روح وطنية فى المنطقة وليكون عبرة لغيره اذا حدث هنا أو هناك .

والواقع أن هذا الاجراء ليس بجديد ولا بغريب على الدول الاوربية الاستعمارية فهناك أمثلة عديدة فى التاريخ الحديث والمعاصر يبرهن على أن هدف تلك الدول كان دائما تمزيق التقاربات الاقليمية المعارضة لسياستها ومشاريعها وبذر الخلافات فيها حتى تظل ضعيفة ومفككة ليسهل قيادتها واستمرارها فى بسط نفوذها عليها .

واذا كان الامر كذلك وهو صحيح بدون أدنى شك أفلا يجب على حكومات المنطقة والغيورين على مصلحة البلاد أن تتخذ عبرة من تاريخ الاستعمار والمستعمرين وتدرس بعناية النتائج التى استفاد منها الاثيوبيون والصوماليون التى ترتبت على التقارب بينهما فى تلك الفترة ؟ أفلا يجب على حكومات المنطقة أن تتخذ مع نفسها وقفة وتنظر الى مصالح شعوبها فتطرح الماضى بعيدا وتخلق جوا من التفاهم نقيا من أى مؤثرات خارجية للوصول الى مصالحة وخلع جذور الشك حتى يستطيع الشعبان الاخوان من الالتقاء على جسور من العلاقات الودية ومن ثم يتمكنان من الانطلاق الى العمل والتنمية لخير صالحهما العام خاصة اذا أخذنا فى الاعتبار أن المنطقة فى أشد الحاجة الى الاستقرار بل لعلها لم تكن فى فترة أحوج من تلك الفترة بالذات له حيث شباك وتصارع القوى الدولية العظمى تجاه الدول النامية .

نعتقد انه فى الامكان ان يتم ذلك ، اذا توفرت النيات الحسنة ووجدت الرغبة واتتفت المطامع وأقفلت الابواب امام هؤلاء الذين لا يريدون الخير والتقدم لشعبى اثيوبيا والصومال .

والامل كبير فى حكومات المنطقة الذى لا نشك انها قادرة على ايجاد الحلول المنصفة لكل مشكلات القرن الافريقى .

من منطلق الاخوة والمصلحة العامة المشتركة والغيرة على حرية واستقلال بلادها .

والله ولى التوفيق ،،

النشاط الروسى فى القرن الأفريقى فى اواخر القرن التاسع عشر

ا.د. رافت غنيمى الشيخ
وكيل كلية الآداب جامعة الزقازيق

مقـدمة

لم يكن النشاط السوفيتى الذى شهدته مياه البحر الأحمر خـلال السنوات القليلة الماضية وبالذات منذ أول السبعينات من القرن العشرين حدثا جديدا قام به الروس فى هذه المنطقة ، اذ أن لروسـيا نشاط سابق فى ساحل البحر الأحمر الأفريقى خلال القرن التاسـع عشر وعلى وجه التحديد أواخر هذا القرن عقب مؤتمر برلين الشهير (١٨٨٤/١٨٨٥م) •

واذا كان الاتحاد السوفيتى قد بدأ نشاطه بشكل عملى منذ السبعينات من القرن العشرين بالحصول على موضع قدم فى ميناء بربرة الصومالى ، ثم مساندة الثورة الاشـتراكية التى انفجرت فى أثيوبيـا خـلال عامى ١٩٤٧/١٩٧٥م ، وتدعيم نفوذه فى الأرض الاثيوبية خاصة بعد أن فقد وجوده فى الأرض الصومالية •

فان روسيا القيصرية قد نشطت منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر ــ أى منذ حوالى مائة سنة ــ لبسط نفوذها فى أثيوبيا وساحل البحر الأحمر مستندة الى الادعاء بوحدة المذهب بين الكنيستين الروسية والأثيوبيـة اللتان تتبعان الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى ، واستنادا الى هذا الادعاء تبادل الطرفان الروسى والأثيوبى زيارات الوفود وبدأت الأسلحة الروسية تجد لها طريقا الى الحبشة ومع الأسلحة عسكريون روس لتدريب الأحبـاش عليها ، بل وجنود روس لمسـاعدة الأحباش فى حروبهم •

وقد لفت النشـاط الروسى فى الحبشة وساحل البحر الأحمر الأفريقى اهتمام الدول الأوروبية مثل انجلترا وفرنسـا وايطاليا وهى الدول ذات المطامع الاستعمارية فى أفريقيا ، وبالذات فى منطقة شرق أفريقيا ، وكانت انجلترا أكثر الدول الأوروبية اهتماما بالنشـاط الروسى فى البحر الأحمر، كيف لا وقد وصفـه سالسبورى Salisbury أحد قادة الاستعمـار البريطانى بأنه وتر بريطانيا الحساس • حيث ذكر بالنص :

«Our roadof Communication
with the Indies, our senstive nerve-string».

وانطلاقا من هذه الحقيقة حرصت انجلترا على متابعة وتحديد ومراقبة النشاط الروسى فى البحر الأحمر ، وهى فى حرصها هذا تهتم بألا يشاركها فى مياه البحر الأحمر ، وفى شرق أفريقيا بصفة عامة أية قوة أخرى ، اذ أن طريق الهند يمر عبر هذا البحر وقد ازداد هذا الطريق أهمية منذ افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية فى عام ١٩٨٦م •

وفى الصفحات التالية تحليل للنشاط الروسى فى ساحل البحر الأحمر الأفريقى والعلاقات الروسية الحبشية خلال تلك الفترة التى امتدت منذ انعقاد مؤتمر برلين الذى أعطى الضوء الأخضر للتسابق الاستعمارى فى أفريقيا ، وحتى الحرب العالمية الأولى التى شهدت انفجار الثورة الاشتراكية فى روسيا القيصرية عام ١٩٧١م • ولقد أتيحت لى الفرصة بتصوير الوثائق البريطانية التى تغطى هذه الفترة من دار الوثائق البريطانية P.R.O. أثناء وجودى فى لندن منذ عدة سنوات ، ولم أجد كتابات عن هذا الموضوع فى المؤلفات سواء التى عالجت التاريخ الأفريقى أو تلك التى تناولت أحداث التاريخ الأوروبى الحديث •

روسيا ومؤتمر برلين

جاء انعقاد مؤتمر برلين الشهير (نوفمبر ١٨٨٤ — فبراير ١٨٨٥م) قمة الصراع بين الدول الأوروبية لاقتسام أفريقيا ، وجاء هذا المؤتمر ليعطى الضوء الأخضر لتتسابق الدول الأوروبية لاستعمار أفريقيا ، واذا كان المؤتمر قد اعترف بسيادة ملك بلجيكا على « دولة الكنغو » واعترف بنفوذ انجلترا فى حوض نهر النيجر ، وتأكيد حرية الملاحة والتجارة فى حوضى نهر الكنغو والنيجر ، والأشادة بدور البعثات التبشيرية فى تمدين الأفارقة ، وتحريم الرق (١) •

فان المؤتمر بالنص على وضع قواعد اثبات ملكية الأراضى الأفريقية وهى الاحتلال العسكرى أو الحصول على معاهدات مع زعماء القبائل يضعون أراضيهم تحت حماية هذه الدولة الأوروبية أو تلك، أو رفع علم الدولة الأوروبية المدعية بامتلاك أرض أفريقية على تلك الأرض ، قد زاد من حدة الصراع بين الدول الأوروبية من أجل وضع اليد على الأراضى الأفريقية ، وذلك فى اطار محاولة كل دولة أوروبية تكوين امبراطورية أفريقية خاصة بها (٢) •

وعقب مؤتمر برلين شهدت القارة الأفريقية نشاطا استعماريا محموما حيث أخذ مبعوثو الحكومات الأوروبية يتجولون فى أنحاء القارة الأفريقية عارضين الرشاوى والهدايا على زعماء القبائل ليوقعوا على اتفاقيات لا يدرون عنها شيئا ، وكل زعيم قبيلة خط بحسن نية علامة (×) على ورقة بيضاء قدمها له رجل أوروبى فقد أرضه وأباح رقاب قبيلته الرجل الأوروبى الذى هو فى الواقع مقدمة للاستعمار المسلح (٣) •

ويعتبر مؤتمر برلين اذن نقطة تحول فى تاريخ القارة الأفريقية حيث أتاح تنظيم اقتسام الأرض الأفريقية دون صراع بين الطامعين ومن ثم شهدت أفريقيا فترة التسابق الجنونى بين الدول الأوروبية للاستيلاء على أراض جديدة فى أفريقيا ، وعلى حقوق للتجارة ثم السيطرة الفعلية بعد ذلك ، وكما عقدت بعد مؤتمر برلين اتفاقيات ومعاهدات أخرى بين القوى الأوروبية الاستعمارية اختص أغلبها بتخطيط الحدود السياسية لمستعمراتها (٤) •

كما يعتبر انعقاد مؤتمر برلين قمة الصراع بين الدول الأوروبية من أجل استعمار أفريقيا بعد أن تصادمت مصالحهم ، كما يعبر اصطلاح الزحف أو التسابق Scramble نحو أفريقيا عن عملية الاستيلاء على المناطق الأفريقية خاصة الجهات الاستوائية من جانب الدول الأوروبية المتنافسة بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٩١م بشكل أو بآخر (٥) •

وهكذا نشطت المشاريع الاستعمارية الأوروبية فى أفريقيا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر منذ انعقاد مؤتمر برلين ، حيث عقدت بين الدول الأوروبية صاحبة تلك المشروعات الاستعمارية معاهدات واتفاقيات خاصة برسم الحدود وتعيين الفواصل السياسية بين حكم رجل أبيض وحكم رجل أبيض آخر (٦) ، ويمكن القول أنه فى عام ١٨٧٥م كان أقل من ١/١٠ أفريقيا قد صار مستعمرات أوروبية ، ولكن فى عام ١٨٩٥م بقى ١/١٠ أفريقيا غير خاضع لسيطرة استعمارية أوروبية (٧) •

وقد شاركت فى مؤتمر برلين معظم الدول الأوروبية وهى ألمانيا وانجلترا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال وأسبانيا والسويد والدانمرك وايطاليا وروسيا وتركيا ، الى جانب الولايات المتحدة الأمريكية (٨) ، مع هذا الحشد من الدول المشاركة فى المؤتمر ، فان سبعة دول فقط

هى التى حصلت على تأييد وموافقة المؤتمر على اقتسام القارة الأفريقية فيما بينها ، وهذه الدول السبع هى انجلترا وفرنسا والبرتغال وأسبانيا وألمانيا وبلجيكا وايطاليا (٩) ، وهذا يعنى أن بقية الدول المشاركة فى المؤتمر لم تستطيع أن تكون لها مشروعات استعمارية فى القارة الأفريقية اما لعدم توفر الأمكانيات لديها أو لسبق قوى أوروبية أخرى .

وتتساءل لماذا لم تشارك روسيا فى حركة التسابق الاستعمارى لاقتسام أفريقيا مع مشاركتها فى مؤتمر برلين ؟

ان الاجابة على هذا التساؤل يدعونا الى الاشارة الى ظروف روسيا الداخلية ونشاطها فى آسيا وفى أوروبا ، مع ابراز أن روسيا لم تغض الطرف تماما عن أفريقيا لأنها حاولت — وكما سيتضح فيما بعد — أن تجد لنفوذها طريقا فى الأرض الحبشية منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر .

تكونت الدولة الروسية الحديثة ذات الحكومة المركزية القوية أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر (١٠) ، وأخذت الدولة الجديدة بالاهتمام بالناحية الزراعية فى البناء الاقتصادى والاجتماعى ومن ثم وجدت طبقة اقطاعية أرستقراطية تحيط بالقيصرية وتسندها ومنها يخرج أفراد الهيئة الحاكمة فى روسيا ، وبرغم أن نظام رقيق الأرض كان قد ألغى فى عهد القيصر اسكندر الثانى عام ١٨٦١م الا أن النظام الاقطاعى بقى ثابت الأركان .

ومع ذلك حدث تغير ملحوظ فى أحوال روسيا الاجتماعية نتيجة لاصلاحات عام ١٨٦١م بوجود طبقة من صغار الملاك الفلاحين ، وزيادة سرعة التصنيع ، وبنمو البورجوازية وبانتشار الآراء المتحررة (١١) ، ومن ثم نمت المدن بصورة ملحوظة وتضاعف عدد سكانها ، ونمت المراكز التجارية والصناعية مثل « بطرسبرج » و« موسكو » و«ريغا» و«أوديسا» وغيرها ، وحققت التجارة الداخلية والخارجية تطويرا كبيرا ، وتوطدت علاقات الزراعة مع المدينة ومع السوق ، وتغير التركيب الاجتماعى للسكان بظهور طبقة الملاك العقاريين ، ونمو طبقة البورجوازية وظهور طبقة جديدة هى الطبقة العاملة « البروليتاريا » التى كانت مهيأة تماما للدعاية الاشتراكية (١٢) .

بدأت الصناعة تدخل روسيا بشكل واسع فى الثمانينات من القرن التاسع عشر حيث أنشىء عدد كبير من المصانع المستندة الى توفر المواد الخام اللازمة للصناعة مثل البترول والفحم ، الى جانب توفر الأيدى العاملة ورخصها ، فى الوقت الذى أظهرت فيه بعض دول غرب ووسط أوروبا استعدادها لاستثمار أموالها فى الصناعة الروسية بتقديم القروض اللازمة لاقامة المصانع فى روسيا ، ومن ثم ازدهرت الصناعة الروسية بصورة واضحة فى الفترة التى تولى فيها « سيرجيوس ويت » Sergius Witte وزارة المالية فى عهد كل من القيصر اسكندر الثالث والقيصر نيقولا الثانى وامتدت من عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٠٣م •

وكان من أهم النتائج التى تمخض عنها التصنيع السريع فى روسيا محاولة البحث عن ميادين الاستثمار خارج الحدود الروسية ، وكانت ايران أهم سوق لمنسوجات روسيا القطنية ، واتجهت أنظار القيصرية الى البحر المتوسط ولكنها ووجهت بمعارضة الدول الكبرى ، فاتجهت بأنظارها الى منطقة الخليج العربى فاعترضتها انجلترا ، فاتجهت نحو الشرق الأقصى بدعوى أن على روسيا رسالة تاريخية تؤديها ، وأنه يمكنها أن تصل الى ذلك فى آسيا بسهولة أكثر منها فى أوروبا ، وأن الروس كانوا من وجهة نظر حضارية وسياسية أشد قربا للأسيويين من الأوروبيين الآخرين (١٣) •

وتبعا لهذه الاتجاهات عند الروس فقد ظهر النشاط التوسعى لروسيا وسط آسيا وفى شرقها ، وبالنسبة لوسط آسيا اصطدم الروس هناك بالانجليز مما أدى بعد عام ١٨٩٢م بروسيا الى أن توقف رغبتها فى التوسع بوسط آسيا والاتجاه نحو الشرق والصين ، ونتيجة لهذا الموقف الروسى الجديد فقد تحسنت العلاقات بين انجلترا وروسيا ، وأما بالنسبة لشرق آسيا فقد أدت رغبة روسيا للتوسع هناك الى صدام مع اليابان عام ١٩٠٤ م انتهى بهزيمة روسيا أما اليابان (١٤) ، تلك الهزيمة التى أدت الى ثورة عام ١٩٠٥م فى روسيا كما أدت الى اتجاه روسيا للقيام بدور أوروبى نحو الدولة العثمانية والبلقان (١٥) •

وقد عمدت روسيا فى سياستها الأوروبية الى صبغ البلاد التى تتطلع لضمها اليها بالصبغة الروسية عن طريق الثقافة الروسية المكثفة ، ثم الاتجاهات السياسية ، وقد حاولت الحكومة الروسية خاصة فى عهد

القيصر اسكندر الثالث تنفيذ سياستها الأوروبية هذه فى فنلندة حيث ظهر النفوذ الروسى هناك بصورة ملحوظة ، وفى بولندة حاول الروس التأثير فى الشعور الوطنى عن طريق التنمية الصناعية . بينما شهدت الولايات الجنوبية مطالب الاستقلال خاصة فى « جورجيا » ولدى تتار الفولجا ، والرومان فى « بسارابيا » ، بينما وجدت روسيا نفسها فى القوقاز تعمل بالتعاون مع السلطان العثمانى لقهر الأرمن (١٦) .

وقد عاشت روسيا فى الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر حتى اشتعال الثورة الروسية عام ١٩١٧م فى ظل مشكلات داخلية امتصت جهود الروس وأضعفت قوتهم ، وقد رأينا كيف انهزمت روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٤م ، فقد كان القيصر نيقولا الثانى وصل الى العرش عام ١٨٩٤م ضعيف الشخصية يخضع بسرعة لنفوذ المحيطين به ، فى الوقت الذى ظهرت فيه جبهتان سياسيتان فى روسيا ، الجبهة الأولى تمثل مصالح الطبقة البورجوازية التى تسعى الى الغاء الاقطاع وتشجيع التجارة والصناعة مع ضمان حرية سياسية ديموقراطية ، وقد انقسمت هذه الجبهة على نفسها ، والجبهة الثانية تمثل مصالح الطبقة العاملة ولذلك تقوم مبادئها الاقتصادية على المبادىء الاشتراكية الماركسية (١٧) .

كانت تلك صورة روسيا داخليا وخارجيا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حيث لم يكن لدى روسيا مثلها فى ذلك مثل ايطاليا فائض من المنتجات المصنعة أو رأس المال حتى تشترك فى السباق الدولى للاستعمار ، ومع ذلك فقد ضمت روسيا الى ممتلكاتها نصف مليون ميل مربع من الأرض فى آسيا يعيش عليها ستة ونصف مليون نسمة ، وذلك أثناء توسعها فى وسط آسيا وشرقها (١٨) .

كانت ظروف روسيا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ كما رأينا ـ عائقا لكى تشارك روسيا القيصرية فى التسابق الاستعمارى لاقتسام أفريقيا بين الدول الأوروبية ، وعلى هذا فان اشتراكها فى مؤتمر برلين (١٨٨٤/١٨٨٥م) كان بمثابة اثبات الذات أو تقرير الوجود على المستوى الدولى على أمل أن تتاح لها فرصة للمشاركة فى التسابق الاستعمارى الأوروبى لاقتسام أفريقيا .

ورغم ذلك وجدنا روسيا تسلك نحو الحبشة نفس السياسة التى

اتجهتها نحو أوروبا وأعنى الاعتماد على الجوانب الثقافية ثم الجوانب العسكرية فى بسط النفوذ السياسى ، وحفلت السنوات الممتدة من ثمانينات القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى بنشاط روسى ثقافى وعسكرى فى الحبشة أنتج جذبا للأحباش لتقوية صلاتهم مع الروس •

وكانت ظروف الحبشة فى تلك الفترة مهيأة للاستجابة للنشاط الروسى اذ كان على رأس الحكم فى الحبشة يوحنا الرابع منذ عام ١٨٧٢م ، وشاركه فى النفوذ السياسى منليك أمير مقاطعة « شوا » ، الذى خلف بعد ذلك يوحنا فى ارتقاء عرش الحبشة من عام ١٨٨٩ حتى عام ١٩٠٨م عندما حدث خلاف بين الرءوس حول من يخلف منليك • وكانت هذه الأحداث الداخلية تسير سيرها بينما حصرت الحبشة بين أسوار مثلث من المستعمرات الأوروبية الانجليزية والفرنسية والأيطالية ، وكل دولة من الدول الأوروبية الثلاث تسعى للتوسع فى ساحل البحر الأحمر وشرق أفريقيا حتى ولو كان على حساب الحبشة ، التى خاضت حربا وقائية ودفاعية انتهت بهزيمة الايطاليين فى موقعة « عدوة » فى مارس ١٨٩٦م ، خرجت منها الحبشة دولة ذات كيان وبأس اتجهت اليها وفود فرنسا وانجلترا وروسيا وتركيا ، بل وايطاليا كذلك ، الكل يعرض مشروعات عمرانية لتنمية موارد الحبشة [١٩] •

الاهتمام بالاستعمار

جاء اهتمام روسيا القيصرية باستعمار جزء من شرق أفريقيا شاملا ، بمعنى الدعوة الى استخدام وسائل دينية وسياسية وعسكرية والدخول فى التسابق الاستعمارى الأوروبى ، نحو أفريقيا • وقد ظهر هذا الاهتمام الشامل بعد عقد مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥م •

فقد نشرت جريدة « موسكو جازيت » Mascow Gazette التى تصدر فى العاصمة الروسية « سان بطرسبورج » فى عددها الصادر فى ٤ — ١٦ سبتمبر ١٨٨٧م ما يدل على السياسة والاهتمام القيصرى بكل من مصر والحبشة بل وبمستقبل قناة السويس • متخذا من الدين دافعا للحركة بدعوى الوقوف أمام الأطماع الايطالية فى شرق أفريقيا وساحل البحر الأحمر ، خاصة أن ايطاليا كاثوليكية المذهب الدينى بينما الحبشة تتفق مع روسيا القيصرية فى المذهب الأرثوذكسى [٢٠] •

وأشارت الصحيفة الى أنه فى الوقت الذى أخذت القوى الكبرى فى أوروبا الغربية تتسابق لاستعمار أفريقيا وتصل الى اتفاقيات فيما بينها لتحديد مناطق النفوذ وتحديد حياد قناة السويس الذى توصلت اليه كل من انجلترا وفرنسا ، فقد تم تجاهل روسيا تماما فى كل هذه الترتيبات وكأنها لا تهتم بمثل هذه المسائل على حيويتها ، مع أن هذا الأمر هام وحيوى لروسيا ومن الخطأ الاعتقاد بعدم اهتمام روسيا بما يحدث من تصارع حول النفوذ بين الدول الأوروبية فى شرق أفريقيا .

ودعت الصحيفة الى ضرورة أن يكون لروسيا صوت مسموع فى مسألة حياد قناة السويس وأن تكون لها أوثق العلاقات مع الحبشة التى تكن تعاطفا كبيرا نحو روسيا بسبب وحدة المذهب الدينى الذى يربط بين شعبى روسيا والحبشة كما أن استقبال « أشينوف » Ashinoff ورفاقه الروس بترحاب من حاكم الحبشة فى العام الماضى دليل على الوحدة الروحية التى تربط الحبشة بروسيا الأرثوذكسية .

وأضافت الصحيفة أنه من الخطأ أن تترك روسيا اهتمامها بالحبشة تحت رحمة ايطاليا الاستعمارية والبابوية الكاثوليكية ، حيث تسعى ايطاليا الى السيطرة على الحبشة سياسيا وتسعى البابوية الى فرض مذهب الرومان الكاثوليك عن طريق عدة ارساليات دينية تتبع جماعة الجزويت الذين يجوبون بلاد الحبشة وما جاورها آنذاك مؤيدين من القوات العسكرية الايطالية .

واختتمت الصحيفة مقالها بالقول بانه اذا كانت كل دولة أوروبية لها الحق فى التدخل فى الشئون الروسية ، على سبيل المثال فى بلغاريا ، فان روسيا من ناحيتها ما زال لديها أسبابها المتعاظمة لترفع صوتها فى مسألة تهمها تماما على قدم المساواة كما تفعل تلك الدول الأوروبية ، وعلى هذا فان مسألة حياد قناة السويس مرتبطة تماما باستقلال الحبشة (٢١) .

الصلات العسكرية بين روسيا والحبشة

نتيجة للتعاطف الذى ظهر بين كل من روسيا القيصرية والحبشة عقب عقد مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥م انطلاقا من وحدة المذهب الدينى بين الكنيستين والترحيب بالوفود المتبادلة بين الطرفين ، فقد اتسعت دائرة

الاتصالات بين روسيا والحبشة لتشمل شئونا عسكرية تمثلت في وصول عسكريين روس من القوزاق الى الحبشة وامداد القوات الحبشية بأسلحة روسية .

اذ تشير الوثائق البريطانية الى وصول مجموعة من القوزاق على ظهر اليخت المسمى « دوق الأراضى المنخفضة Duke of Sutherland " بعدن في ٢٩ نوفمبر ١٨٨٧م في طريقهم الى الحبشة (٣٢) . وأن هؤلاء القوزاق الروس قد نزلوا فى الساحل الأفريقى المطل على المحيط الهندى الى الجنوب من ميناء زيلع حيث احتلوا موقعا هناك ، وأن هؤلاء القوزاق كانوا بقيادة القوزاقى آشينوف Ashinoff ، وقد استدعى ذلك أن أبلغت ايطاليا الحكومة البريطانية بهذه التحركات الروسية ، وكلفت قاربا حربيا مسلحا ايطاليا بالتحرك من مصوع للتفتيش على طول ساحل البحر الأحمر خاصة في المنطقة التى تخضع للنفوذ الايطالى (٣٣) .

وقد نشرت صحيفة « روسكى كوريير » Russki Courrier الصادرة في ١٥ يونيو ١٨٨٨م خطابا منسوبا الى « أشينوف » أشار فيه بأنه قد اكتشف نقطة على ساحل المحيط الهندى صالحة لاقامة محطة روسية تبعد قليلا عن ميناء زيلع ، وأنه قد نزل بهذه النقطة هو ورفاقه وقد استقبلهم السلطان المسلم لهذه الجهات استقبالا طيبا ، وقد أعطاه أشينوف قميصه كدليل على الصداقة ، وذكر أشينوف أن المنطقة التى نزل بها خصبة جدا حيث تنتج تمرا وموزا كثير من المياه العذبة ، وفوق ذلك تهيىء الفرصة لاقامة ميناءا صالحا للسفن .

وأضاف أشينوف في خطابه الذى نشرته الصحيفة المذكورة أنه لم يضيع وقتا بعد نزوله حيث أسس هو ورفاقه فورا محطة أطلقوا عليها اسم « موسكفا » وأن السلطان حاكم بلاد الدناكل — التى تمتد حتى الحدود الحبشية — صديق له وقد قدم للروس ميناء على الساحل بالاضافة الى مساحة كبيرة من الأرض يمكن أن يحتاج اليها الأصدقاء الروس ، وأعلن أن الميناء به كل الامكانيات التى تجعل منه محطة للفحم ، ويمكنه فى الوقت نفسه أن يشكل مدخلا مناسبا لترويج التجارة مع شوا والحبشة ، كما أن الميناء تحميه جبال مرتفعة . وذكر أشينوف أنه يفكر الآن في بناء كنيسة روسية في الموقع الذى اختاره والذى أعلن أنه سيدافع عنه اذا ما هاجمه أحد .

وقد أشارت صحيفة « جرادانين » Gradanin الروسية فى تعليقها على خطاب أشينوف بأنه بالاضافة الى التعاطف الخاص والمساعدة التى يجب اعطاؤها لهذه المستعمرة الروسية الجديدة التى أقامها أشينوف ، فان الحاجة ماسة الى تأييد معنوى من الحكومة الروسية لمواجهة المعارضة التى تلقاها هذه المستعمرة الروسية فى ساحل أفريقيا الشرقى المطل على المحيط الهندى ، وأنه يجب على الحكومة الروسية أن تعلن بأن انشاء محطة « موسكفا » ليست عملا فرديا ولكنها تمثل توسعا روسيا يحصل على حماية الدولة (٣٤) .

وعندما أثارت هذه الأحداث اهتمام حكومات كل من ايطاليا وفرنسا وانجلترا فان المسئولين البريطانيين لم يعطوا تأكيدا قاطعا بأن أشينوف قد أسس مستعمرة روسية ، وأن الحكومة البريطانية لا تنظر الى ما تنشره الصحف الروسية على أنه حقيقى بل يحتمل الشك (٣٥) ، وأنه اذا كان ذلك قد حدث فعلا فالمعتقد لدى الدوائر البريطانية أن أشينوف مغامر يسعى لاقامة مركز خاص باسمه ثم يطلب اعتراف الحكومة الروسية به (٣٦) .

وفى تقرير عن مستعمرة أشينوف نشرت صحيفة « استانيتسا » ـ اسم قرية فى اقليم القوزاق Stanitsa of Moscow أن الموقع الذى تم اختياره يقع فى خليج تاجورة ، وفى الامتداد الشمالى لمدخل هذا الخليج توجد مستعمرة أوبوك الفرنسية ، وتوجد مدينة زيلع الى الجنوب من هذا الموقع بحوالى ٢٥ ميل ، وان كان الخليج بشواطئه يخضع للدناكل .

وذكرت الصحيفة أنه فى مارس الماضى تحركت سفن أشينوف حاملة رفاقه عبر البسفور حيث وصلوا الى خليج تاجورة ونزلوا الى الأرض ليلا وعندما هاجمتهم القبائل المحلية استطاعوا الحاق الهزيمة بهذه القبائل التى وقعت مع أشينوف معاهدة منح أشينوف بمقتضاها الخليج وسواحله ابتداء من رأس جيبوتى جنوبا باتجاه أوبوك شمالا .

وتبلغ مساحة مستعمرة أشينوف بين ١٥ الى ٢٠ ميل مربع تقع الى الغرب من ميناء أوبوك وقد زارت المكان طرادة انجليزية بعد عدة أيام من تأسيس المستعمرة ، وبقيت هناك عدة أيام قليلة ، وعندما لم تجد

سببا للاحتجاج غادرت المكان ، كما زارت سفينة فرنسية نفس المكان أيضا .

وتبلغ جماعة أشينوف كما ذكر حوالى ٦٠٠ رجل معظمهم من الأحباش والمستعمرة محاطة بجبال يبلغ ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم ، وأن القوزاق المصاحبين لأشينوف كانوا قد نزحوا من مستوطنة قوزاقية اتخذت مقرا لها فى ديروجا ، كان أفرادها غير راضين عن معاملة الحكومة الرومانية لهم (٣٧) .

ولم تكن مستعمرة الضابط الروسى القوزاقى المتقاعد هى كل النشاط الروسى فى ساحل أفريقيا الشرقى ، بل تعددت المشروعات وتعددت الأسماء الروسية المتجهة الى المنطقة فتذكر الوثائق البريطانية أن القنصل الانجليزى فى بور سعيد أبرق فى ٦ يناير ١٨٨٩ الى اللورد سالسبورى وزير الخارجية البريطانية أن ١٤٦ رجلا روسيا ومعهم عدد قليل من النساء الروسيات والقسس ذكروا أنهم حجاج الى بيت المقدس غادروا ميناء بور سعيد الليلة الماضية ـ ٥ يناير ١٨٨٩ ـ على باخرة نمساوية فى طريقهم الى أوبوك (٣٨) . وكأنهم متجهين الى مستعمرة أشينوف . ولذلك أخذت السلطات البحرية البريطانية تتبع تحركاتهم .

ومن ثم أخطر القنصل البريطانى فى ميناء سواكن السودانى سير ايفلن بارنج القنصل البريطانى العام ـ المعتمد البريطانى ـ فى القاهرة الذى أبلغ بدوره اللورد سالسبورى وزير الخارجية البريطانية بأن البعثة الروسية المتجهة الى الحبشة هى بقيادة الجنرال نيكولاييف Nicolaieff ومعه عدة قسس وتلك البعثة التى يصل عدد أفرادها ١٥٠ فردا قد غادرت اليوم ـ ١٥ يناير ـ ميناء أوبوك على متن باخرة مجرية نمساوية تتبعها سفينة حربية ايطالية كلفتها الحكومة الايطالية بمراقبة تحركات سفينة البعثة الروسية (٣٩) .

وفى تقرير عن بعثة « نيكولاييف » أبرق سير ايفلن بارنج من القاهرة بتقرير من حاكم سواكن بأن جنرال نيكولاييف ينوى النزول فى أوبوك ثم التقدم منها الى جنوب الحبشة عبر هرر للالتحاق بخدمة نجاشى الحبشة وهو يعلم حاجة الحبشة الى ضابط لجيشها ومن ثم أحضر معه خمس وعشرين ضابطا . وهناك حاليا فى أبوك بعض القوزاق ، وهو

يتوقع المزيد بحيث يصل العدد الى ألفى (٢٠٠٠) رجل . وهو يسعى الى الالتحاق بخدمة الجيش الحبشى ومن ثم يتقدم الى كسلا فالخرطوم . وهو قلق حول امكانية التعاون مع الانجليز للتقدم نحو بربر ومعاونته بالأموال . وقد طلب منى اذا أمكن أن أرسل الى الحبشة (٢٠٠٠) ألفى قطعة سلاح (٣٠) .

وثمة بعثة روسية ثالثة اتجهت الى شرق أفريقيا ، حيث ذكرت صحيفة نوفوفريميا Novoe Vrema أن حملة روسية فى طريقها الآن ــ فى أبريل ١٨٩٠ م ــ الى الحبشة ، وهذه الحملة يقودها شخص يدعى كارجو بولوف Kargopoloff ، قد غادرت طشقند عبر فارس وبمباى وعدن ، وقد وصلت حديثا الى جيبوتى المحطة الثانية من الميناء الفرنسى فى أوبوك . وان هذه الحملة التى أعلنت أن غرضها البحث العلمى سوف تتقدم قريبا الى هرر (٣١) .

وثمة بعثة روسية رابعة اتجهت الى الحبشة يقودها المستر ليوتتييف ادعى أنه رحالة مستكشف اعتزم التوجه من الحبشة لزيارة الخرطوم اذا وصلته موافقة الخليفة عبد الله التعايشى على الزيارة ، وقد اعترض كل من بارنج ــ لورد كرومر ــ المعتمد البريطانى وقنصل روسيا العام على هذه الزيارة دون جدوى . الا أن ليوتتييف ترك الفكرة بزيارة الخرطوم عندما لم تصله دعوة من الخليفة . وقد أكد السفير الروسى فى لندن بأن هدف بعثة ليوتتييف الوحيد هدف دينى (٣٢) .

ومن العجيب أن نرى الامبراطور الحبشى منليك يطلب من السلطات البريطانية فى زيلع وبربرة والسلطات الفرنسية فى جيبوتى بعدم السماح للرحالة ليوتتييف بدخول الأراضى الحبشية ، وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٠٣ م . ولكن الأمبراطور منليك يبعث بسكرتيره الخاص المدعو أتوجوزيف Atojosif الى سانت بطرسبرج من أجل التفاهم مع الروس لأرسال بعثة روسية للبحث عن الذهب فى أعالى النيل الابيض . وأن هذه البعثة ستكون تحت رئاسة مهندس التعدين المدعو « م.ن . كورناكوف » M.N. Kurnakoff ، وأنها ستذهب الى الحبشة بناء على رغبة الامبراطور منليك (٣٤) .

ومع ذلك نجد رسالة من الامبراطور منليك مؤرخة فى ٨ مايو موجهة الى الليفتانت كولونيل هارينجتون قنصل انجلترا بالحبشة جاء

فيها أنه سمع أن المدعو ليوتتييف يؤسس عدة شركات للبحث عن الذهب فى انجلترا وبلجيكا وأننى أعطيته اذنا بالبحث عن الذهب فى أثيوبيا ..

وأضاف منليك فى رسالته أن ليوتتييف أخطأ فى ترجمة خطابى له المؤرخ فى ٩ يونيو ٨٨٩٧ م باختلاف كلمات لم أقلها ، وأظهرها للشركة البلجيكية ، بينما علمت من نفس الشركة أنه خدعهم وسبب لهم خسائر كبيرة .

ومن هنا ـ كما يذكر منليك ـ أننى أعلن أن ليوتتييف لم يحصل منا على اذن بالبحث عن الذهب فى أى أرض أثيوبية ، كما أننى لم أعطه الرسالة التى أعلن أنها منا والتى أشير عنها فى الاتفاق بينه وبين الشركة الأستوائية (٣٥) .

ولعل الدافع الذى لجأ اليه منليك فى انكار اعطاء امتياز للمهندس الروسى ليوتتييف لكى يبحث عن الذهب فى أراضى اثيوبيا تفسره رسالة هارينجتون الى المركيز لانسدون فى ١٦ مايو ١٩٠٢ والتى جاء فيها أنه عقد اتفاقية فى اليوم السابق بين بريطانيا العظمى وأثيوبيا بشأن الحدود الجنوبية بين أثيوبيا والمستعمرات البريطانية بشرق أفريقيا (٣٦) .

ويبدو أن ليوتتييف فشل فى تحقيق أهدافه فى الحبشة نظرا لأن البريطانيين يترصدون خطواته ويتابعون نشاطه ويؤثرون على امبراطور الحبشة حتى لا يأخذ موقفا متعاطفا مع الروس ، ومن هنا نسمع أنه اتجه بنشاطه أو يريد أن يتجه بهذا النشاط نحو أمريكا بعد أن وقفت أمامه القوى الأوروبية فى اثيوبيا .

فقد جاء فى رسالة المستر بيرد « من أديس أبابا أن الوزير المفوض الروسى فى أديس أبابا قد أبلغه بذلك ، لأن مشروعات ليوتتييف قد أثمرت خسارة فى أثيوبيا ، ويوجد هنا فى أديس أبابا مطالبون لحقوقهم منه هم عبارة عن صوماليا وسودانيا وهنديا (٣٧) .

ويبدو أن ليوتتييف قد ترك شرق أفريقيا وانتقل الى باريس ، اذ أن الكولونيل ستيوارت وورتلى الملحق العسكرى للسفارة البريطانية فى باريس كتب تقريرا عن وصول ليوتتييف ونشاطه وتحركاته هناك وذلك لوضع هذا التقرير تحت عناية ادارة المخابرات فى لندن .

فقد جاء فى تقرير الكولونيل ستيوارت أنه يستطيع التأكيد بأن ليوتتييف يعمل لحساب الحكومة الروسية من أجل مد النفوذ الروسى عند الامبراطور منليك وفى الحبشة بصفة عامة • وأن ليوتتييف كان يقدم نفسه فى الحبشة كأخ للقيصر •

وقد أوضح ليوتتييف ــ كما يذكر ستيوارت فى تقريره ــ أنه حصل على امتياز كبير للتنقيب على الذهب فى جنوب الحبشة ، وهو يبحث عن رأس المال من أجل البدء فى العمل ، وأن كانت الحقيقة تقول أنه لم يحصل على أية امتيازات ، بل مجرد موافقة من الامبراطور للكشف عن الذهب •

وجاء فى التقرير كذلك أن ليوتتييف سعى الى الاتصال ببعض البلجيك المقيمين فى باريس لشراء أسلحة لحساب الحبشة ، وان كانت الحقيقة تقول أنه كان ينوى بيعها لمحمد عبد الله حسن قائد النضال الصومالى ضد بريطانيا والمعروف باسم الملا ، كما أن ليوتتييف عمل اتصالات مماثلة مع شركات فى « أنتورب » •

وأضاف التقرير كذلك أن أحد الروس المقيمين فى باريس والذى كان مندوبا للجمعية الملاحية الصينية والذى رافق ليوتتييف الى جيبوتى قد أوضح أن ليوتتييف مغامر لا يمكن الوثوق به الى درجة كبيرة ، وأن الحكومة الروسية قد تخلت عن استخدامه (٣٨) •

وهكذا لم نسمع بعد عام ١٩٠٤ م أى نشاط استعمارى لروسيا فى منطقة القرن الأفريقى ولعل مرد هذا ما ذكرناه من انشغال روسيا بالرغبة فى التوسع بشرق آسيا وصدامها مع اليابان الذى انتهى بهزيمة روسيا عام ١٩٠٤ م ثم الثورة الروسية عام ١٩٠٥ م واتجاة روسيا الى الميدان الأوروبى •

الهـــوامش

(١) د. رافت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ص ٩٧ .

(٢) — Endre Sik : The History of Blak Africa, Vol. 1.

(٣) د. عبد الملك عودة : السياسة والحكم فى أفريقيا ص ٩٢ .

(٤) د. محمد صفى الدين : إفريقيا بين الدول الأوروبية ص ١١٩ .

(٥) — Coupland, R. : The Exploitation of East Africa, P. 319.

(٦) د. عبد الملك عودة : المرجع السابق ص ٩٦ .

(٧) — David Thomson : Europe Since Napoleon, P. 498.

(٨) رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٦ .

(٩) د. محمد صفى الدين : المرجع السابق ص ١١٨ .

(١٠) بيبفانون : تاريخ الاتحاد السوفيتى ص ١٠٢ — ١٠٥ .

(١١) بيير نوفان : تاريخ العلاقات الدولية ص ٦٧١ .

(١٢) بيير رنوفان : المرجع السابق ص ٦٧٢ .

(١٣) بيبفانوف : تاريخ الاتحاد السوفيتى ص ٣٨٥ .

(١٤) — Dayal, R. : Modern European History, P. 303.

(١٥) بيير رنوفان : المرجع السابق ص ٦٧٣ .

(١٦) — Wood, A. : Europe 1815-1945, P.P. 261-267.

(١٧) بيبفانوف : المرجع السابق ص ٤٠٨ — ٤٥١ .

(١٨) — David Thomson : op. cit., P.P. 497-498.

(١٩) — Endre Sik : op. cit., P. 299.

(٢٠) — F.O. 403, 75, Sir R. Morier to the Marquis of salisbury, St. Betersburg, September 20, 1887.

(٢١) — Ibid, Inclosure in No. 75. Extract from the Moscow Gazette of September 16, 1887.

(٢٢) — Ibid, 225, India Office to foreign Office, Inclosure 2 in No. 225, Aden, December 14, 1887.

(٢٣) — Ibid, 91, No. 202. The Marquis of Salisbury to J.G. Kenned

(٢٤) — Ibid, 92, No. 1, Extract of the Russian Newspapers, St. Betersburg, june 27, 1888.

(٢٥) — Ibid, 92, No. 29, F.O. july 25, 1888.

(٢٦) — Ibid, 92, No. 43, St. Betersburg, July 24, 1888.

(٢٧) — Ibid, 92, No. 54, A, Extract of Cronstadt Messenger, August 3, 1888. Intelegent department.

(٢٨) — Ibid, 123, No. 2.

(٢٩) — Ibid, 123, No. 13.

(٣٠) — Ibid, 123, No. 15.

(٣١) — Ibid, 125, No. 93. sir R. Morier to the marquis of Salisbury. St. Betersburg, April 7, 1890.

(٣٢) — Ibid, 221, No. 21, 22, 54.

(٣٣) — Ibid, 346, No. 36.

(٣٤) — Ibid, 346, No 48.

(٣٥)

Lansdowne. Addis Ababa, May 12, 1902.

— Inclosure in No. 238, Emperor Menelek to lieutenant-colonel Harrington, Addis Ababa, May 8, 1902.

(٣٦) — Ibid, No. 239.

(٣٧) — Ibid, No. 35 : Mr. Baird to the Marquess of Lansdowne. Addis Abbaba, June 21, 1902.

(٣٨) — Sir E. Monson to the Marquess of Lansdowne, Paris December 11, 1903.

— Inclasure in No. 170, Colonel Stuart-Wortley to Sir E. Monson, Paris, December 9, 1903.

موقف الحبشة من ممالك الزيلع الاسلامية
فى العصور الوسطى

دكتور / رجب محمد عبد الحليم
مدرس التاريخ الاسلامى بمعهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعـــة القـــاهرة

المقصود بممالك الزيلع الاسلامية فى هــذا الحديث هى الممــالك الاسلامية التى نشأت فى الجنوب الشرقى لهضبة الحبشـــة وكذلك فى المنطقة الشرقية المحصورة بينها وبين خليج عدن وساحل البحر الأحمر الغربى . وكانت هذه الممالك مراكز للتجارة تحولت بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين الى ممالك وسلطنات اسلامية تحدث عنها بعض المؤرخين واشاروا الى علاقتها بمملكة الحبشة المسيحية المستقرة فــوق هضبة الحبشـــة .

وممالك الزيلع كانت تسمى الطراز الاســـلامى لأنهــا كانت تحف بالبحر الأحمر كالطراز له (١) ، وكانت تسمى أيضا باسم بر سعد الدين تخليدا لهذا السلطان المسمى بهذا الاسم والذى استشهد أثناء صراعه مع الأحباش دفاعا عن الاسلام والمسلمين فى بلاد الزيلع (٢) وقد فضلنا اسم ممالك الزيلع لأنه هو الاسم الذى عرفت به تلك البلاد فى مصر والشام (٣) ولأنه هو الاسم الغالب الذى ورد عند معظم المؤرخين .

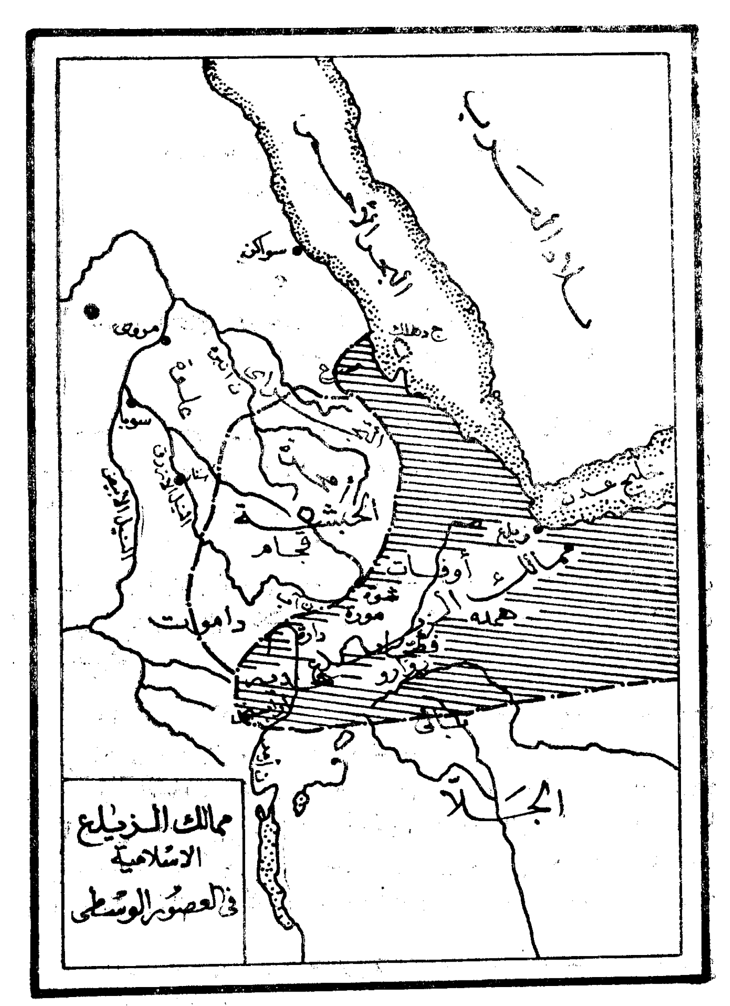
ويتحدث المقريزى عن بلاد الزيلع ويقول أنهــا تنقسم الى سبـــع ممالك هى : « أوفات ، ودوارو ، وارابينى ، وهدية ، وشرخا ، وبالى ،

---

(١) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٢ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤ .

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ص ٣٢٥ .



عن كتاب الاسلام في أثيوبيا لبرمنجهام (ص ٦٥)

ودارة » (١) وكانت هذه الممالك تختلف قوة وضعفا ، ولذلك اتيحت الفرصة لاقواها لكى تفرض سلطانها على جاراتها من ممالك الزيلع . وكانت مملكة أوفات هى المملكة التى اتيحت لها هذه الفرصة وصار ملكها « يحكم على الزيلع » (٢) ، ولذلك تصدت هذه المملكة لمحاولات الأحباش فى السيطرة على بلاد الزيلع وفى اضطهادهم للمسلمين فى تلك البلاد .

وكان موقف الحبشة عدائيا منذ أن ظهرت هذه الممالك الى الوجود ، بل ومنذ أن ظهر الاسلام ذاته . وكانت البداية بين الحبشة والاسلام بداية طيبة تتمثل فى حسن استقبال أصحمه نجاشى الحبشة للمهاجرين المسلمين فى العام الخامس من البعثة النبوية (٣) ويقال أن هذا النجاشى أعلن اسلامه ، ولكنه توفى فى العام التاسع للهجرة (٤) . وخلفه نجاشى آخر لم يتبع سياسة سلفه .

يظهر ذلك من قيام بعض السفن الحبشية بمحاولة الهجوم على جدة وتصدى النبى لها ، فعادت هذه السفن دون أن تؤدى الغرض من ارسالها (٥) .

وهذا الموقف دليل على روح العداء التى أظهرها ملوك الحبشة تجاه الاسلام منذ البداية ، والتى أظهرها أيضا رجال الدين المسيحى بالحبشة اذ من الثابت أنهم أظهروا اعتراضهم على روح المودة التى أظهرها النجاشى أصحمة بعد أن سمع الحوار الذى دار — بين جعفر بن أبى طالب وبين وفد قريش المطالب بتسليم جعفر ومن هاجر معه من المسلمين الى الحبشة وردهم الى بلادهم (٦) فقد خاف رجال الكنسية الحبشية من هذا التجاوب ومن العطف الذى أظهره أصحمة بالنسبة للمهاجرين ، وبالنسبة

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص ٦ ، انظر الخريطة .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣) الطبرى : تاريخه ، جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ، ص ٣٢٢ الحلبى : السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٥) الحلبى : نفس المصدر جـ ٣ ، ص ٢٠٤ .

(٦) ابو هشام : السيرة النبوية جـ ١ ، ص ٣٢٨ — ٣٢٨ . وابن الأثير جـ ٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

للدين الاسلامى ذاته فقد رفض تسليم المهاجرين ، وعبر عن صحة رسالة الاسلام بقوله « ان الذى جاء به عيسى والذى جاء به محمد ليخرج من مشكاة واحدة (١) أى من مصدر واحد .

وكان موقف هذا النجاشى هو الذى دفع بالنبى (محمد) لأن يقول حديثه « اتركوا الحبشة ما تركوكم » (٢) ، والذى بنى عليه الخلفاء الراشدون موقفهم من الحبشة ، فلم يعتبروا أرضها أرض جهاد الا اذا أتى الأحباش ما يعكر الصفو بيهم وبين المسلمين .

وكان المسلمون فيما يبدو يتوقعون عدوانا — من جانب الأحباش فقد أغاروا فى عهد عمر بن الخطاب عام ٢٠ هـ على ساحل البحر الأحمر الشرقى (٣) ، كما أغاروا على جدة عام ٨٣ هـ / ٧٠٢ م فى عهد بنى أمية فى محاولة لتهديد الاماكن المقدسة فى مكة والمدينة (٤) .

وكانت محاولاتهم تلك فى الاغارة على بلاد العرب تنبع من منطلق تعصبهم الشديد لدينهم « ومعاداتهم لمن خالفهم من سائر الملل أشد عداوة » (٥) وقد بلغ تعصبهم درجة جعلتهم يقتلون حتى من خالفهم من المسيحيين فى مذهبهم (٦) .

وقد بلغت هذه الروح القمة فى عهد الأسرة السليمانية التى قامت فى حكم الحبشة منذ عام ١٢٧٠ م . ونتج عن ذلك اصطدام الحبشة المسيحية بممالك الزيلع الاسلامية منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية العصور الوسطى ، بحيث لم يخل عهد أى ملك حبشى من معارك دموية خاضها ضد مسلمى الزيلع ، وتبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة وحدث فيها أو نتج عنها من مظاهر التخريب والتدمير والقتل وسفك الدماء الشىء الكثير . فهل كانت هذه الحروب ردا على اضطهاد بعض سلاطين مصر

---

(١) نفس المصدرين السابقين ونفس الصفحات .

(٢) السيوطى ازهار العروش فى اخبار الجيوش ، ورقة ٢٦ ، الحلبى : نفس المصدر جـ ٣ ، ص ٢٤٨ .

(٣) السيوطى : نفس المصدر ، ورقة ٢٧ .

(٤) Jones and Monroe, A history of Abyssina, P. 45.

(٥) المقريزى : الالمام ، ص ٣ .

(٦) نفس المصدر ونفس الصفحة السابقة .

لقبطها أو لأن الزيالعة كانوا تجــار رقيق وقطــاع طرق وأراد ملوك الأحباش القضاء على تلك التجارة أو لأن الزيالعة كانوا مواطنين أحباش متمردين ويجب ردهم الى الطــاعة ؟

حاول بعض المؤرخين المحدثين تصوير الحروب التى شنها الاحباش ضـــد مسلمى الزيلع على أنها حروب قامت نتيجة لهــذه العوامل التى وضعناها موضع الاستفسار والتساؤل ، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما • وقبل أن نصل لتلك الحقيقة ، علينا أن نفند هــذه الأقوال التى كان الهدف منها هو ابعاد شبهة التعصب الدينى وابعاد صفة الروح الصليبية عن الأحبــاش وعن حروبهم ضــد مسلمى الزيلع •

وبالنسبة للمقولة التى تزعم أن حروب الأحبــاش لمسلمى الزيــلع كانت ردا على اضطهاد بعض سلاطين مصر من المماليك لاقباطها ، نقول بأن بعض هؤلاء السلاطين ضايقوا الأقباط فى بعض الأحيان ، لكن ذلك لم يكن قاعدة عامة ، ولم يكن سياسة ثابتة ومستمرة وكان فى الواقع انعكاسا لعدوان صليبى أوروبا على بلاد الاســلام فى مصر والشــام ولعدوان الأحباش على مسلمى الزيلع وليس العكس (١) ولذلك كــان سلاطين مصر يرفضون فى احيان كثيرة ارسال مطران قبطى للحبشة كما جرت العادة بذلك ويتخذون ، من هذا المنع وسيلة يضغطون بها على ملوك الحبشة حتى يخففوا قبضتهم ويمتنعوا عن العدوان على مسلمى الزيلــع •

حدث ذلك فى عهد سلطان مصر الظاهر بيبرس عام ٦٧٣ هـ/١٢٧٤ م الذى رفض طلب ملك الحبشة ٣ يكونو أملاك) فى ارســال المطــران اليه ، لتأكد الظاهر من عدوان ملك الحبشــة على مسلمى الزيلع (٢) وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون وصل أحد الزيالعة للاستغاثة به ضد عدوان الأحبــاش وكان ذلك أكبر دليل استند اليه النــاصر فى رفض تهديد ملك الحبشــة والســخرية منه ورد رســله (٣) بل أرســل

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ، جـ ٣ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ •

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١١٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ •

(٣) النويرى : نهاية الارب ، جـ ٢٨ ، ورقة ٤٦ •

له رسالة عن طريق بطريرك الاقباط فى مصر ، يستنكر فيها اضهاده لمسلمى الزيلع ويحرم عليه ذلك العمل (١) .

وقد استمر عدوان الأحباش على مسلمى الزيلع وتكرر ارسال بطريرك أقباط مصر الرسل والكتب ينهونهم عن هذه السياسة ، حتى لا يتعرض الأقباط لاضطهاد سلاطين مصر ، حدث ذلك فى عهد الناصر برقوق عام ٧٨٨ هـ / ١٣٨٩ م (٢) والظاهر جقمق الذى شك فى علاقة البطريك بالأحباش وأمره الا يكتب اليهم الا بعد الاطلاع على نصوص رسائله والا تعرض للمساءلة والعقاب ونصح الظاهر مسلمى الزيلع فى نفس الوقت أن يسلكوا مسلك الاعتدال فى علاقتهم بملوك الأحباش وبين لهم أن حكام مصر يكرمون قبطها رعاية لمسلمى الحبشة وخوفا عليهم من عدوان الأحباش (٣) .

وكان استمرار عدوان الأحباش على مسلمى الزيلع مخيبا لآمال سلاطين مصر فى تحسين العلاقات بين مصر والحبشة التى يأتى منها النيل بالفيضان ولذلك أخذت تلك العلاقات فى الفتور ، ولم يعد سلاطين مصر يحتفلون كثيرا بقدوم رسل الحبشة ولم يقبلوا هداياهم . ومنعوا ارسال المطران القبطى اليهم . حدث ذلك فى عهد سلطان مصر قايتباى وكذلك فى عهد الغورى ، وشعرت العامة فى مصر بسلك الأحباش العدوانى على أخوانهم من مسلمى الزيلع فكانوا ينتهزون فرصة قدوم ملوك الحبشة أو الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر فى طريقهم لبيت المقدس ويظهرون سخطهم وغضبهم ، وكان سلاطين مصر يتخذون كثير من الاحتياطات للحفاظ على سلامة هؤلاء الأحباش ومنع اعتداء العوام عليهم حتى يغادروامصر (٤) .

---

(١) العمرى : مسالك الابصار ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ورقم ٤٧٧ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٣٣ .

(٣) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك . ص ٧١ ، ٧٢ ، ٢١٠ بن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور . جـ ٣ ، ص ١٨٠ ، جـ ٥ ، ص ١٠ – ١٢ .

واضح أن سوء علاقات حكام مصر بقبطها فى بعض الأحيان وبملوك الحبشة فى معظم الأحيان ، لم يكن الا رد فعل لما كان يقوم به هؤلاء الملوك من عدوان مستمر على مسلمى الزيلع ، وكانت مضايقات بعض سلاطين مصر للقبط تنتهى ويعود الوئام والمحبة بين أهـل مصر قبطهـا ومسلميها ، أما اضطهاد الأحباش لمسلمى الزيلع فكان لا ينتهى واستمر قائما بهدف القضاء على ممالك الزيلع الاسلامية .

أما المقولة الثانية التى تزعم بأن حروب الأحباش لمسلمى الزيلع لأن هؤلاء الزيالعة كانوا تجار رقيق وقطاع طرق فهى أيضا بعيدة عن الصدق لعدة أسباب ، السبب الأول أن ملوك الحبشة كانوا يحـاربون ملوك وسلاطين دولة اسلامية قامت حول الحبشة ، ولم يكونوا يحاربون أفردا وجماعات أو عصابات أو تجار رقيق . فليس من المعقول أن يتحول ملوك أوفات وعدل وهدية وفطجـار ، واراببنى وداورو وشرخا وبالى ودارة . وهى ممالك اسلامية كانت تحيط بالحبشة من الجنوب والشرق الى تجار رقيق أو قطاع طرق فقطاع الطرق واللصوص الذين كان يعبر عنهم باسم الشفتا كانوا من الأحباش وليسوا من العرب أو المسلمين . ونشاط الشفتا قديم منذ أيام الملك عيزانا الحبشى فى القرن الرابـع الميلادى واستمر هذا النشاط حتى العصر الحديث (1) .

وكانت عصابات الشفتا تغير على القرى وتصطاد الرجال والنسـاء والأطفال وترسلهم الى أسـواق الرقيق حتى امتلأت أسـواق فارس ومصر واليمن وبلاد الحجاز بالرقيق من الأحباش نتيجة لنشاط الشفتا هؤلاء (2) . وهذا سبب كثرتهم قبل وبعد البعثـة النبوية لدرجـة أن كثيرا من المؤلفين والمؤرخين المسلمين ألفوا كتبا فى ذكر أسماء الأحباش من الصحابة والصحابيات . مثال ذلك أزهار العروش فى أخبار الحبوش ، ورفع شأن الحبشان وتنوير الغبش فى فضل السودان والحبش ، وكلها للامام السيوطى ، وهناك أيضـا الطراز المنقوش بمحـاسن الحبـوش لعلاء الدين محمد بن عبد البـاقى واعلام الطراز المنقوش فى محـاسن

---

(1) زاهر رياض : الشفتا فى اثيوبيا منذ العصور الوسطى ، مجـلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، مجلد ١٩ ، جـ ٢ ، ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، ص ٢١٦ ، ٢١٨ .

(2) المرجع السـابق ، ونفس الصفحات .

الجبوش لأبى الفرج نور الدين الحلبى والجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان للقنائى • وهى كلها مخطوطات لم تر نور النشر بعد •

وثانى هذه الأسباب هو أن ملوك الحبشة أنفسهم كانوا يستعينون بعصابات الشفتا وبتجار الرقيق فى ضرب المسلمين ، وكانت ثورة الامام أحمد بن ابراهيم الغازى ضد ملك الحبشة (لبنا دنجل) ، لأن هذا الملك كان يشجع قطاع الطرق المفسدين واللصوص ويدفع بسلاطين مملكة عدل الاسلامية والذين يسيرون فى فلكهم للسير فى هذا السبيل ، مما اضر بالبلاد وتسبب فى اضطراب الأمن ببلاد الزيلع (١) • واستمر ملوك الحبشة فى الاستعانة بعصابات الشفتا حتى داخل مملكة الحبشة نفسها حينما يريدون التغلب على الأمراء الذين يناوئونهم على كرسى العرش (٢) •

ومعنى ذلك أن نشاط الشفتا كان موجودا فى بلاد الحبشة قبل وصول الاسلام اليها وظل موجودا بها حتى القرن العشرين وكان نشاطا حشيا منذ بدايته وحتى نهايته ، ولم يكن للاسلام أو المسلمين فى بلاد الزيلع دخل فيه • واذا كان بعض ملوك الحبشة قد اتخذ موقفا من هذا النشاط ، فان هذا الموقف لم يكن ضد نشاط الشفتا وما ينتج عنه من تجارة الرقيق ، بل كان ضد عملية خصى بعض الرقيق فقط فقد كان ملوك الحبشة يمنعون ذلك (٣) •

والسبب الثالث هو أن ظاهرة الرق والاسترقاق كانت وما زالت شيئا مألوفا عند الاحباش ، فهم كما قلنا يسترقون بعضهم بعضا ، وكانت بيوت الأحباش الأثرياء ومتوسطى الثراء تزخر بالاماء والعبيد من أخوانهم الأحباش وغيرهم من السودان وكانت زراعاتهم وتجارتهم ونقل محاصيلهم وسلعهم لا يقوم بها الا هؤلاء الأرقاء (٤) وما زاد عن حاجة العمل والخدمة فى المنازل والقصور كان يباع بيع الرقيق • وقد استمرت

---

(١) زاهر رياض : نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٣) المقريزى : الالمام ص ٧ .
(٤) صادق العظم ، رحلة الحبشة ، ص ١٠٣ .

هذه الحال حتى صدر فى الحبشة مرسوم بالغاء الرق فى عـام ١٩٢٣ ، وجعل عقوبة الاعدام لكل تاجر رقيق [١] •

وكانت هذه أول ضربة أصابت الشفتا فى الحبشة اذ كان اصطيـاد الرقيق والاتجار فيه هو الهدف الأول من غارتهم ونشاطهم [٢] •

وقد استعان بعض ملوك الحبشة بتجار الرقيق فى سفـاراتهم وفى ضرب المجاهدين المسلمين فى منطقة القرن الافريقى أو فى بلاد الزيلع ، فقد كان على رأس بعثة زرء يعقوب الى جقمق سلطان مصر عام ١٤٤٤ رجل يسمى عبد الرحمن وكان تاجر رقيق ، لأن السخاوى يشير الى أنه أصطحب معه الى مصر أكثر من مائتى رقيق واستعان ملك الحبشـة زرء يعقوب بهذا التاجر نفسه فى قتل ملك مملكة عدل الاسلامية التى كانت قد تزعمت ممالك الزيلع بعد قضاء الاحباش على مملكة أوفات[٣]•

ومن ناحية أخرى كانت معظم السفارات أو الوفادات التى أرسلها ملوك الحبشة الى سلاطين مصر ، تضم بين ما تحمل من هـدايا لهؤلاء السلاطين العدد الوفير من الجوارى والطواشى الأحباش • مثال ذلك ما أرسله ملك الحبشه (يجبياصيون) الى المنصور قلاون عام ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠١ م مما جرت به العادة عند طلب المطـران من الخـدم والجـوار والذهب [٤] ، وما أرسله (داود بن سيف أرعد) الى الظاهرة برقوق عـام ٧٨٨ هـ/١٣٨٩ م من الذهب ، وعـدة جوار حبش وطواشيـة حبش [٥] ، وما أرسله (زرء يعقوب) الى الظاهر جقمق عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤٤ م من أوانى الذهب وسبعين جارية [٦] •

أما المقولة الثالثة والتى تزعم أن حروب الأحباش لمسلمى الزيلع لأن الزيالعة كانوا مواطنين أحباش متمردين ويجب ردهم الى الطاعة ، فهى أيضا بعيدة عن الصدق وذلك لسببين : السبب الأول هو أن مسـلمى

---

(١) زاهر رياض : نفس المرجع ص ١٣١ •
(٢) زاهر رياض : مرجع سابق ص ١٣١ •
(٣) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ •
(٤) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ، ص ١٧٠ •
(٥) ابن اياس : نفس المصدر ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٩ •
(٦) السخاوى : نفس المصـدر ، ص ٦٨ •

الزيلع كانوا لا يطلقون على أنفسهم اسم الأحباش مطلقا ، فكانوا يسمون أنفسهم باسم الزيالعة أو الجبرتية ويخصون مسيحى الحبشة باسم الأحباش أو الحبش ، واذا ورد فى حديثهم لفظ الحبشة فمدلوله يقع على مملكة الحبشة النصرانية فقط ولا ينسحب على غيرها من ممالك الزيلع الاسلامية . وكان ملوك الحبشة أنفسهم يطلقون على مسلمى الزيلع اسم الجبرتية ولم يقولوا عنهم أنهم أحباش أو أثيوبيون (١) .

فالجبرتية أو الزيالعة مسلمون ، والأحباش نصارى ، والجبرتية يتكونون من عناصر أو قبائل ليست حبشية مثل قبائل الصومال التى كانت تسكن جنوب شرقى الحبشة (٢) . وربما هى التى عناها ابن بطوطة وأطلق عليها اسم البرابرة وقال انها تسكن مدينة زيلع وان بلادها تمتد من هذه المدينة حتى مقديشيو (٣) .

وهناك أيضا قبائل الاعفار الذين يسكنون الآن ما يعرف باقليم اريتريا وكذلك القبائل العربية التى كانت تقيم فى المناطق الساحلية وفى بعض المدن الداخلية .

ولغة الجبرتية أو الزيالعة كانت العربية والمقدشية (٤) (لعلها الصومالية) — والحبشية ، بينما كانت لغة الأحباش الغالبية هى الأمهرية ولغات أخرى تزيد على الخمسين لسانا (٥) والزيالعة يتوجهون الى البحر والى عالم الاسلام بينما الأحباش منعزلون فى هضبتهم (٦) .

واذا كان مدلول لفظ الحبشة أو أثيوبيا قد اتسع عند المؤرخين المسلمين وجعلوه يشمل بعض ممالك الزيلع ، فلم يكن ذلك الا لأن هؤلاء المؤرخين كانوا ينظرون الى الناس على أساس ألوان بشرتهم ، فالمسلمون والنصارى أحباش من حيث لون البشرة فغالبهم من أصحاب الوجوه المحروقة ، وهم يسكنون فى منطقة واحدة تعرف الآن باسم

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٠ .
(٢) عرب فقيه : فتوح الحبشه ص ٦ .
(٣) ابن بطوطة : رحلته ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٤) ان بطوطة : رحلته ، ص ١٦٩ ؛ المقريزى : الالمام ، ص ٧ .
(٥) المقريزى : الـمام ، ص ٨ .
(٦) Jones and Monroe, op. cit., P. 89.

منطقة القرن الافريقى • ورغم ذلك فالحيمى الذى زار الحبشـة عـام ١٦٤٨ م يعتبر أن بلاد الحبشة النصرانية هى البلاد الجبلية التى تبعد عن بحر الأحمر مسيرة شهر ، ولا يعتبر صحراء الدناكل (الأعفار) التى تشكل الآن جزءا من اقليم اريتريا من بلاد الحبشة (١) •

وقد ورد هذا التحديد أيضا لبلاد الحبشة النصرانية فيما ذكره عرب فقيه عندما عبر مسلمون نهر عواش بقيادة زعيمهم الامام أحمد بن ابراهيم الغازى الملقب بجران لمطاردة ملك الحبشة المهزوم ، فأرسل هذا الملك للامام أحمد رسالة يقول له فيها : أنتم المسلمون ونحن النصارى ، وقد كنا نسير الى بلادكم ونخربها ونحرقها ، والآن فقد أدالـكم الله علينـا ويكفيك ما فعلت وارجع الى بلدك من غنيمتك وذهبك (٢) فملك الحبشة يعترف بأن جنوب نهر عواش هو من بلاد المسلمين ، وأن الهضبة أو الجزء الذى يعلو نهر عواش هى دولة الأحباش المسيحيين وهنـاك الكثير من من الاشارات التى وردت فى هذا المعنى (٣) وهى واضحة الدلالة على أن منطقة القرن الافريقى لم تكن كلها بلاد الحبشـة وانما كانت قسمة بين مملكة الحبشة النصرانية وممالك الزيلع الاسلامية ، فمملكة الحبشـة المسيحية كانت تتركز أساسا فى أقاليم أمهرة وجود جام وشوا وجنوبى تجرى (٤) ومملكة الاسلام كانت فيما عدا ذلك •

وقيام ممالك الزيلع الاسلامية ووجودها هو السبب الثـانى الذى ينقض دعوى أن مسلمى الزيلع رعية حبشية ويدل على أن هؤلاء المسلمين لم يكونوا كذلك بل كانوا رعية لملوكهم وليس لملوك الحبشة النصرانية وإذا أعتبر البعض أن مسلمى الزيلع أحباش ، فلأن ممالكهم كانت تقع فى كثير من الأحيان تحت سيطرة وهيمنة ملوك الحبشة النصارى ، فكانوا رعية لهم بالقهر والغلبة والتسـلط الاسـتعمارى مثـلما كانت تفعـله الامبراطوريات الأخرى فى العصور القديمة والوسطى من ضم الشعوب وقهرهم بالقـوة العسـكرية •

---

(١) الحيمى : سيرة الحبشة ، ص ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) عرب فقيه : نفس المصدر ، ص ٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤٢ — ٧٦ .

(٤) Jones and Monroe, Op. Cit., P. 9.

والواقع أن ممالك الزيلع الاسلامية نشأت أول ما نشأت دولا مستقلة ليس للأحباش عليها سلطان ، أنشأتها ارستقراطية عربية امتزجت بالسكان المحليين واختلطت بهم ، أو وطنيون امتزجوا بهؤلاء العرب واختلطوا بهم وأقدم هذه الدول هى دولة شوا الاسلامية (٢٨٣ـ٦٨٤هـ ٨٩٦ ـ ١٢٨٥م) وقد قامت هذه الدولة منذ هذا التاريخ المبكر فى الجزء الشرقى من هضبة شوا ـ وهى جزء من هضبة الحبشة ـ على يد أسرة عربية من قبيلة بنى مخزوم القرشية ، صاهرت بعض الحكام المحليين ، وعن طريق هذه المصاهرة وصلت الى حكم شوا (١) .

ورغم غموض تاريخ هذه الدولة ، الا أننا لم نسمع عن أى صدام عسكرى حدث بينها وبين دولة الاجويين المسيحية التى كانت تحكم الحبشة قبل الأسر السليمانية مما يجعلنا نعتقد بأن العلاقات بينهما كانت علاقات مستقرة بين دولتين مستقلتين وكانت ظروف الأسرة الاجوية نفسها تدعو الى ذلك فقد كان ملوكها ضعافا لا تتعدى سلطتهم أسوار العاصمة علاوة على الحروب والمنازعات التى قامت بين الملوك والأمراء حول كرسى العرش ، مما أعطى الفرصة لحكام المقاطعات والأقاليم كى يستقلوا عن العاصمة ، ولذلك انشغل ملوك لاستا بالحفاظ على ما تبقى من سلطان لهم فى بلاد الحبشة ، ولم يتصدوا لمملكة شوا الاسلامية ، وتركوها تعيش فى هدوء (٢) .

وثانى الدول الاسلامية الكبرى التى قامت فى بلاد الزيلع أو فى منطقة القرن الافريقى هى مملكة أوفات الاسلامية ، التى نشأت حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على يد أسرة عربية قرشية تنتسب لبنى عبد الدار أو لولد عقيل بن أبى طالب (٣) ونشأت مع تلك الدولة ست ممالك اسلامية أخرى دانت لمملكة أوفات بالزعامة والقيادة ، وخاصة اذا ما احست تلك الممالك باقتراب الخطر الحبشى يقترب من حدودها (٤) . وهذه الممالك السبع شكلت المنطقة الجنوبية الشرقية لهضبة الحبشة ،

---

(١) زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ، ص ٧٤ ، وثيقة تشيرولى : ابراهيم طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ص ٣٢ .
(٢) زاهر رياض : نفس المرجع ، ص ١٦٣ ـ ١٦٦ .
(٣) المقريزى : الالمام ، ص ٩ .
(٤) العمرى : مسالك الابصار ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ورقة ٤٨٤ .

وتمتد أراضيها من الجزء الشرقى لهضبة شـوا حتى جـزيرة الزيلع فى خليج عدن ، وتمتد جنوبا حتى منابع نهرى جوبا وشبيلى ، وتوغل فى بلاد الصومال وتمتد شمالا لتشمل سهل أوسا وديار الاعفار (١) وتشمل ما يعرف الآن بالصومال الغربى • وبلغت مسـاحة الأراضى التى كانت تحوزها هذه الممالك السبع مقدارا أكبر عما كانت تحوزه مملكة الحبشة المسيحية نفسها (٢) •

على أية حال فعند ظهور الأسرة السليمانية وتوليها حكم الحبشـة منذ عام ١٢٧٠م كانت هذه الممالك موجودة ، ومعنى ذلك أنهـا كانت سابقة فى النشأة على دولة السليمانية ، رغم ما يقوله المقريزى من أن الحطى (٣) هو الذى ولى عمر ولشمع القرشى مدينة أوفات وأعمالها ، وبذلك صار ملكا عليها (٤) •

ويذهب البعض فى خياله الى حد القـول بأن اتفاقا عقـد بين عمر ولشمع القرشى هذا وبين (يكونو أملاك) أول ملوك الأسرة السليمانية على أن يساعد كل منهما الآخر فى قيام مملكة تدين له بالطاعة والولاء • فالأول يساعد الثانى فى القضاء على الأسرة الاجوية ، والثانى يسـاعد الأول فى جعله ملكا على أوفات وفى القضاء على مملكة شوا الاسلامية وضمها الى أوفات (٥) •

ونحن نميل الى الاعتقاد بأن مملكة أوفات الاسلامية كانت موجودة كدولة مستقلة قبل قيام الأسرة السليمانية وقبل ظهور (يكونو أملاك) كملك للحبشة عام ١٢٧٠ م • ذلك أن المقريزى وغيره من مؤرخى العصور الوسطى لم يذكروا صراحة أن (يكونوا ملاك) هو الذى عين عمر ولشمع ملكا على أوفات بل يذكر المقريزى أن الحطى ولاه مدينة أوفات وأعمالها

(١) محمد غلاب وآخرون : البلدان الاسلامية ، ص ٣٤ •

(٢) Trimingham, Islam in Ethiopsia, P. 69.

(٣) الحطى لقب ملك الحبشه فى ذلك الوقت ، ومن قبل كان يعرف باسم النجاشى انظر ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٤١١ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ، ص ٣٢٢ ، ابن عبد الباقى : الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش ، ورقة ٦ •

(٤) المقريزى : الالمام ، ق ٩ •

(٥) زاهر رياض : نفس المرجع ، ص ١٦٨ •

فى زمن لم يحدده هو أو غيره من المؤرخين وعلى فرض أن ذلك صحيح فلا بد أن هذا الحطى كان من الأسرة الاجوية التى كانت تحكم البلاد قبل الأسرة السليمانية لأننا كما سنرى أن مملكة أوفات كانت سابقة فى الظهور على تولى الأسرة السليمانية حكم الحبشة ولكن ملوك الأسرة الاجوية الأواخر كانوا ضعافا ، وكانت سلطتهم لا تتعدى عاصمتهم فليس من المعقول أن يولوا أحدا أو يقيموا امارة أو دولة اسلامية ، وهو ما يتناقض تماما مع تعصب الأحباش الشديد لدينهم المسيحى .

ولا نظن أن اتفاقا عقد بين عمر ولشمع وبين (يكونو أملاك) على النحو الذى تخيله البعض لعدة أسباب : ــ

أولاها : أنه اتفاق يجافى روح العصر ، وهو عصر الحروب الصليبية كما هو معروف فلا يعقل أن يعقد عمر ولشمع المسلم اتفاقا مع يكونو املاك المسيحى بهذا الشكل ويتآمر على الدولة الاسلامية فى شوا ، بالتدخل بين أمرائها المتنازعين على العرش كما قال بذلك البعض (١) ومعروف عن يكونو أملاك أنه كان يكره العرب والمسلمين ويهاجمهم أينما كانوا وخاصة فى بلاد الزيلع (٢) .

ثانيها : أن عمر ولشمع نفسه كان صهرا لدلمارة أحد سلاطين شوا الاسلامية فقد تزوج دلمارة ابنة عمر ولشمع عام ٦٧٠ هـ/١٢٧٠ (٣) وليس من المعقول أن يعقد عمر ولشمع اتفاقا مع يكونو املاك ضد مملكة صهره دلمارة . وقد حكم دلمارة هذا مملكة شوا عدة مرات حتى قتل عام ٦٨٢ هـ/١٢٨٢ م (٤) أى قبل قبل سقوط شوا فى يد عمر ولشمع بعام واحد .

ثالثها : أننا نرجح أن استيلاء عمر على شوا الاسلامية كان انتقاما من المتآمرين الذين قتلوا دلمارة واغتصبوا العرش . ولذلك فقد طرد منها عمر ولشمع كل السلاطين المغتصبين للعرش مع أهليهم وأسرهم بعد استيلائه عليها ، كما أحرق وخرب عددا من المدن والامارات التى يبدو

---

(١) زاهر رياض : نفس المرجع ، ص ١٦٨ .

(٢) Budge : A history of Ethiopsia Vol. I. P. 285 and Trimingham, Op. Cit., P. 69.

(٣) وثيقة تشيرولى انظر : الاسلام فى أثيوبيا زاهر رياض ، ص ٦٩ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٧٢ .

أنها كانت ضالعة فى هذه الفتنة التى انتهت بمقتل صهره دلمارة فقد غزا مدره وعدل وقتل صاحبها عام ٦٨٧ هـ / ١٢٥٨ م كما أحـرق الزناتير وصحى وصلى ، ومجية كالجور ، عام ٦٨٨ هـ ــ ١٢٨٩ م (١) •

وأخيرا تلاحظ من التواريخ السابقة أن مصاهرة عمر ولشمع لدلمارة والتى جرت عام ١٢٧٠ م تدل أن عمر ولشمع كان ملكا على اوفات قبل ذلك التاريخ ، ولم يكن تاجرا فى ذلك الحين كما أشار البعض فليس من المعقول أن يعقد (يكونو املاك) ملك شوا الغربية اتفـاقا مع أحـد التجار على أن يساعده هذا التاجر فى القضاء على دولة الاجويين نظير اعطائه حكم اوفات • فمهما كان هذا التاجر غنيا فلن يمكنه ثراؤه من التصرف على هذا النحو لا سيما وأنه ليس من أهل البلاد أصـلا •

والمعقول أن مملكة اوفات الاسلامية قامت قبل تولى يكونو أملاك حكم الحبشة عام ١٢٧٠ م ، ولو كان هناك اتفاق بين يكونو املاك وبين عمر ولشمع ، لكان اتفاقا بين ملك اوفات عمر ولشمع وبين أمير أو ملك مقاطعة شوا الغربية يكونو أملاك • وبعد أن أصبح هذا الأمير ملكا على بلاد الحبشة أراد أن يرد الجميل لملك أوفات الذى سـاعده فى الوصول الى العرش ، فشن هوومن خلفه من ملوك الحبشة حروبا طاحنة ضد اوفات أدت الى تدميرها واسقاطها كدولة فى النهاية ، ممـا يدل على عدم وجود هذا الاتفاق أصلا ، ولو كان موجودا لحلت روح الصداقة بين الأسرتين أو الدولتين محل ذلك الصراع الهائل الذى امتد ليشمل تاريخ هاتين الدولتين •

اذن فمملكة شوا ومملكة أوفات وغيرهما من الممالك الاسـلامية نشـأت نشـأة مستقلة وكان لكل منهـا عاصمتها ، ولكل منهـا ملك مستقل (٢) ، وكل منها تحكمها أسرة تتوارث الحكم (٣) وفيها الكثير من المدن العظيمة • فمملكة اوفات على سبيل المثال كان فيها من أمهات المدن الكثير مثل مدن يقلدزة وكلجوره ، وسميق ، وسوا ، وعدل ، وحبا ، ولاو • وكان لملكها سماط عامز ممدود (٤) وله كركسى يجلس

---

(١) نفس المصـدر السـاق ص ٧٣ •
(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ، ص ٣٢٠ •
(٣) المصدر الساق ، جـ ٥ ، ص ٣٣٢ •
(٤) العمرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ق ٣ ورقة ٤٧٩ •

عليه ويركب بالجتر والطبل والزمر (١) الى اخر مظاهر الملوكيـة التى كانت مألوفة فى ذلك الحين ، ومملكة عدل كان فيها من أمهات المدن ، مدينة دكر العاصمة ، ومدن أرجبرا وميجيات وسكونيا (٢) .

وعلى ذلك فانه لا دخل لملوك الأسرة السليمانية فى قيام تلك الممالك الاسلامية لأن الأسرة السليمانية نفسها قامت فى حكم الحبشة بعد قيام تلك الممالك بفترة ليست بالقصيرة ، فليس من المعقول أن هذه الممالك كانت غير موجودة ثم فوجئت بها الأسرة السليمانية التى قامت فى حكم الحبشة عام ١٢٧٠ م وليس من المعقول أن تلك الأسرة هى التى أقامت أكبر مملكة اسلامية بين هذه الممالك وهى مملكة أوفات ، ومن يدعى ذلك يريد أن يقول أن الأحباش هم الذين أقاموا هذه الممالك الاسلامية ، وتبعا لذلك فانه لا حق لها فى الاستقلال والحرية ، وانه لو خرجت هذه الممالك على الطـاعة فهذه خيـانة وجحود ونكران الجميل ولا بد من اعادتها للطـاعة مرة أخرى ، وهو ما قام به ملوك الحبشـة فى حربهم لتلك الممـالك .

والهدف من ذلك هو تصوير الصراع الذى قام بين الحبشـة وبين أوفات أو غيرها من الممالك الاسلامية على أنه صراع بين دولة وبين أحد أقاليمها ، أو بين ملك وبين أحد كبار موظفيه أو ولاته فى اقليم من تلك الأقاليم الاسلامية التى تخضع لملك الحبشة ، وتتبعه تبعية اقليم بدولته التى ينتمى اليها ، ولا يمكنه أن يستقل عنها وعلى ذلك فليست هنـاك شبهة فى تعصب دينى أو حروب دينية أو اضطهـاد دينى قام به ملوك الحبشة ضد مسلمى الزيلع . وهذا هو الهدف الحقيقى من تصـوير الصراع الذى قام بين ملوك الحبشة وملوك الممالك الاسلامية فى بلاد الزيلع على أنه صراع ضد تجار رقيق وقطاع طرق ولصوص ، أو ضد متمردين من رعية ملوك الحبشة ويلزم تأديبهم وردهم الى الطـاعة ، أو بسبب اضطهاد كان يقع على قبط مصر من بعض سلاطينها ، ولا بد من القصاص لهم ولا يكون ذلك الا بالعدوان على بلاد الزيلع الاسلامية ومطاردة الاسـلام والمسلمين أينما كانوا .

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص ٧ .

(٢) محمد المعتصم سيد : دول اسلامية ، ص ١٨ .

واذا كانت كل هذه المزاعم قد انهارت كما رأينا ، فما هو سر ذلك الصراع الذى قام بين الأحباش ومسلمى الزيلع ، وما هى طبيعته ، وماهى الدوافع والأسباب الحقيقية التى أدت اليه ؟

أما عن طبيعة ذلك الصراع الذى استمر بين مسلمى الزيلع وبين بلاد الحبشة طوال عهد الأسرة السليمانية ، فهو أنه كان صراعا دينيا سياسيا اتخذ شكل الحروب الصليبية وخاصة فى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى والتى تشمل القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، وانتهى ذلك الصراع حوالى منتصف القرن السادس عشر النهاية المتوقعة بعد أن تكاتف الغرب الصليبى مع ملوك الحبشة فى القضاء على تلك الممالك الاسلامية فى ذلك الوقت .

وكانت هناك دوافع معينة دفعت الأحباش للقيام بذلك العدوان المتصل على الاسلام والمسلمين ببلاد الزيلع . وأولى هذه العوامل هو شدة الحركة الاسلامية فى بلاد الزيلع وتوغلها داخل الهضبة الحبشية حيث معقل المسيحية ذاتها . ذلك أن الحركة الاسلامية كانت تسير فى طريقها الى داخل الهضبة بخطى حثيثة بعد أن تم اسلام المناطق المحيطة بالهضبة من الشمال والشرق والجنوب الشرقى فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين ، وكانت مقدشيو فى الجنوب ومصوع فى الشمال وزيلع فى الوسط أهم منفذ للعرب والاسلام فى اختراق منطقة القرن الافريقى وتسربها عبر مناطق القبائل البدوية كالبجة والاعفار والصومال والجلا الى هضبة الحبشة (١) .

وكان هذا التسرب يتم عن طريق الهجرات العربية القادمة من شبه الجزيرة العربية ، ونتيجة للعلاقات التجارية التى لم تنقطع طوال العصور التاريخية بين العرب والأحباش (٢) ونتيجة أيضا لظروف الدولة الاسلامية والصراعات التى قامت بين أحزابها على منصب الخلافة

---

(١) عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا ، ص ٧٣ ؛ جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا ، ص ٣٠٨ .

(٢) محمد السيد غلاب وآخرون : نفس المرجع ص ٤٥٦ .

وساعدت على تدفق الهجرات العربية الى منطقة القرن الافريقى (١) ، وكانت ظروف بلاد الحبشة نفسها تشجع على هذا التوغل الاسلامى فى أراضيها ، بسبب ضعف ملوكها من الأسرة الأجوية ، وبسبب تدهور حالة الديانة المسيحية هناك لعوامل لا داعى للحديث عنها فى هذا المقام (٢) .

ونتج عن ذلك أن تسرب الاسلام والعرب الى قلب هضبة الحبشة ذاتها فقامت مملكة شوا الاسلامية على يد أسرة عربية هى أسرة بنى مخزوم القرشية عام ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م (٣) كما أقام العرب سلطنة أخرى فى مقدشيو على يد هجرة عربية وفدت الى ذلك المكان فى بداية القرن العاشر الميلادى (٤) .

وفى شمال الحبشة تسرب الاسلام عبر مصوع وجزر دهلك وعبر مواطن البجة حيث كانت توجد قبائل جهينة وبلى العربية التى هاجرت من صعيد مصر الى شمال الحبشة وزاحموا الحبشة فى بلادهم وشاركوهم فى أطرافها (٥) .

وتوغل البليون أكثر من البجة داخل هضبة الحبشة ، حيث سكنوا اقليم التجرى (٦) ومما يؤكد ذلك اكتشاف قبور بها نقوش عربية أحدها تاريخه ٨ ذى القعدة عام ٣٩٦ هـ فى جنوب ذلك الاقليم (٧) .

ومن ناحية الغرب كانت هناك بلاد مزجة أو مساجة وكان أهلها يدينون بالاسلام ويخشون بطش ملوك الحبشة (٨) ، وكانت هناك

---

(١) محمد محمد امين وآخرون : العلاقات العربية الأفريقية ، ص ٣٩ .

(٢) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ص ٤٣١ ، طرخان : نفس المرجع ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) وثيقة تشيرولى ، انظر زاهر رياض ، الاسلام فى اثيوبيا ، ص ٦٥ — ٦٤ .

(٤) Coupland, East Afirica, PP, 20-24.

(٥) ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٦ ، ص ١٠
Jones and Monroe, op. cit., P. 48.

(٦) عرب فقيه : نفس المصدر ، ص ٣١٩ .

(٧) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٤٣٣ .

(٨) عرب فقيه : نفس المصدر ص ٣٢٤ .

أيضا قبائل العرب التى كانت تسكن على الحدود الغربية لبلاد الحبشة ، والتى استطاعت أن تقوض أركان دول السـودان المسيحية فى دنقلة وسوبا وتحولها الى الاسلام (١) .

وبذلك أحاط المسلمون بالحبشة من جميع الجهات تقريبـا بعد أن قامت ممالك الزيلع الاسـلامية فى الشرق والجنوب الشرقى لهضبـة الحبشـة .

وكان انفعال المسلمين فى تلك البلاد والممالك التى أحاطت بالحبشة بالاسلام والتقاليد الاسلامية انفعـالا قويا لدرجة أنهم كانوا ينسبون أنفسهم فى كثير من الأحيان الى أصل عربى أو يدعون الاتصال من قديم بنبى الاسلام ذاته وملوك شوا كانوا يرجعون أصولهم الى ود بن هشام المخزومى من قريش ، وملوك أوفات يعودون بأصولهم الى بنى عبد الدار أو بنى عقيل بن أبى طالب من قريش كما سبق القول . وقبيلة الدارود الصومالية ترجع أصلها الى كلمة داود من سلالة السيد عبد الله بن محمد عقيل بن أبى طالب أيضا (٢) ومسلمو قبائل الجالا يدعون أن اسـم قبائلهم هذا أتى من رفض جدهم الأكبر المسمى (ولاب) لدعوة الاسلام الأولى « وقال لا أو جال لا » لرسول النبى اليه (٣) وهـم يقصـدون ان اتصالا قديما كان لهم مع النبى حتى وان كان هذا الاتصال سلبيا ولم يؤد الى اسـلام جدهم الأكبر كما زعموا .

وكانت طبيعة تكوين وقيام ممالك الزيلع الاسلامية بالذات تسـاعد على قيام علاقات الود والصداقة مع جيرانها الأحباش لو أراد هؤلاء هذا الود وتلك الصداقة ذلك أن تلك الممالك لم تقم نتيجة لغزو عسكرى قام به العرب والمسلمون من خارج منطقة القرن أو من داخلها ، بل اتسم قيامها بالطابع السلمى التجارى بصفة عامة ، ذلك أنها فى الأصل مراكز للتجارة أنشأها المهـاجرون العرب أو المواطنون الذين اختلطوا بالعرب والمسلمين ، ثم نمت وتطـورت تلك المراكـز حتى أصبحت ممـالك وسلطنات (٤) .

(١) Jones and Monroe, op. cit., P. 67.

(٢) محمد عبد المنعم يونس : الصومال وطنا وشعبا ، ص ١٠١ .

(٣) Budge, Op. Cit., Vol. 2 P. 616.

(٤) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٤٣٢ .

وهذا الطابع كان يفرض على تلك المسالك الحرص على توافر السلام والأمن وعلاقات الود والصداقة مع الحبشة . حتى تنمو تجارتها ويزدهر نشاطها سواء مع الأحباش أو مع غيرهم من الشعوب ورغم ذلك فقد كان لقيام تلك الممالك فى حد ذاته واحاطتها بالحبشة وسيطرة المسلمين عليها سيطرة كاملة وانفعالها بالاسلام والتقاليد الاسلامية انفعالا قويا كما أشرنا أثر سىء جدا فى نفوس ملوك الحبشة المسيحين ، وخلق لديهم نوعا من التوتر النفسى الشديد . وزاد ذلك التوتر من حدة تعصبهم الدينى لدرجة أن أحد ملوكهم أصر الا يبقى بالحبشة مسلم قط (١) .

وكان الأحباش ينظرون الى تلك المسالك النامية نظرة خوف . ويعتبرون أن ملوك الزيلع مزاحمين خطرين قد يستأثرون بالمنطقة كلها حينما تسنح لهم الفرصة (٢) خاصة وأن هؤلاء الملوك ازداد حرصهم على التمسك ببلادهم وصيانة حدودها وحاولوا توسيع تلك الحدود اذا ما لمسوا ضعفا فى دولة الحبشة المسيحية ، مما زاد من الشك فى نفوس الأحباش ، وحرك فى قلوبهم كوامن الحقد على الاسلام والمسلمين وأدى ذلك الى اندلاع الصراع بين الفريقين ، واعتقد كل منهما وخاصة فى مرحلة من مراحل الصراع الأخيرة بينهما أن كل واحد منهما يريد القضاء على الآخر تماما ، فكانت الحرب بينهما حرب افناء ، اتخذت طابعا دينيا متطرفا واستمرت هذه الحرب طوال العصور الوسطى وانتهت بهزيمة الجبهة الاسلامية لعوامل سوف نتناولها فى بحث مستقل ان شاء الله . ولا يفوتنا فى هذا المقام الاشارة الى أن هذه الحرب تجددت فى العصر الحديث وفى الوقت الحالى بين الحبشة والصومال وبين الحبشة واريتريا فيما يعرف الآن بمشكلة القرن الافريقى .

والعامل الثانى الذى أدى الى قيام الصراع بين الحبشة وممالك الزيلع الاسلامية هو أن تلك الممالك أحاطت كما قلنا بالحبشة وسيطرت على موانىء البحر الأحمر ، وعلى الطرق التجارية التى تربط هذه الموانىء بهضبة الحبشة وتنج عن ذلك أن تجارة الحبشة الخارجية

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص١٦ .

(٢) محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقيا ، ص ٣١ ، ٣٢ .

أصبحت فى قبضة المسلمين (١) بحكم موقع بلادهم وبحكم فهمهم لطبيعة الحبشى الذى لا يحب الاشتغال بالتجارة أو الحرف الصناعية ولا يجيد الا حرفتى الرعى والجندية (٢) .

ومعنى ذلك أن مسلمى الزيلع أصبحوا وسيطا تجاريا بين الحبشة وبين العالم الخارجى . وكان الأحباش يرون ضرورة الخلاص من هذا الوسيط بعد أن ازدادت اتصالاتهم بأوربا وعرفوا عنها سعيا لتحقيق نفس الهدف ، وهو التخلص من وساطة المسلمين التجارية ومن سيطرتهم على الطرق التجارية بين الشرق والغرب . وهكذا تلاقت أهداف الأحباش والأوربيين فى هذا المجال .

ولكن يبدو أن هذا الدافع الاقتصادى كان مبالغا فيه بعض الشىء ، ذلك أن الأحباش فى قتالهم لمسلمى الزيلع لم تدفعهم الى ذلك دوافع سياسية أو اقتصادية بقدر ما كانت تدفعهم كراهيتهم للاسلام وتعصبهم لدينهم ومعتقداتهم فمسالك الزيلع لم تعزل الحبشة وتقطع صلتها بالعالم الخارجى تماما وطول الوقت ، لأن سيطرة المسلمين على الساحل لم تكن ثابتة أو مستمرة ومنتظمة ، فقد تراخت قبضة المسلمين عن كثير من الموانى وعادت الحبشة مرة ثانية قوة بحرية وتجارية منذ بداية القرن العاشر الميلادى وأصبح لها علاقاتها الودية والاقتصادية مع اليمن ومع مصر (٣) وخاصة بعد سيطرتها على جزيرة زيلع (٤) وعلى جزر دهلك التى كانت مراكز هامة للتجارة بين الحبشة واليمن (٥) .

واذا كانت هناك عزلة بين الحبشة وبين العالم الخارجى فلم يكن سببها الاسلام بل أن الاسلام هو الذى ربط أفريقية الشرقية كلها بما فيها الحبشة بأهم مصادر الانتاج والتجارة العالمية فى بلاد الشرق

---

(١) الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، ص ١٠ ، طرخان نفس المرجع ص ٤٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، ٦٥ .

(٣) حسن محمود ، نفس المرجع ص ٤٢٩ .

(٤) Trimingham, Op. Cit., P. 51, Gones and Monroe. Op. Cit., P. 40.

Jones and Monroe : Op. Cit., P. 46.

(٥) ابى سعيد برواية القريزى : المام ، ص ٢٦ .

والغرب (١) • كما أن اشتغال مسلمى الزيلع بالتجار لم يؤد الى حدوث أزمات اقتصادية لبلاد الحبشة ، وحدوث قحط أضر بها كما يرى البعض (٢) لأن سبب تلك الأزمات وهذا القحط هو قلة الامطار فى بعض الأحيان كما هو حادث الآن فيحدث الجدب والقحط وتنفق الماشية وتتلف المزروعات وتحدث المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية الخطيرة مثال ذلك الوباء الذى انتشر عام ٨٣٩ هـ/١٤٣٦ م وهلك فيه من النصارى والمسلمين عدد كبير حتى قيل أن البلاد كادت تخلو من سكانها (٣) •

ومهما يكن من أمر فقد رأى ملوك الحبشة أنه لا بد من الحد من نشاط المسلمين الاقتصادى ، ولا بد من القضاء على سيطرتهم على مرافق التجارة وطرق القوافل (٤) • وتركز اهتمام الأحباش فى السيطرة على مدينة هرر الاسلامية بالذات نظرا لتوسطها لطرق القوافل التى تربط داخل الحبشة بموانى زيلع وبربرة وتاجورة (٥) •

أما العامل الثالث الذى ساعد على ازدياد حدة الصراع بين الحبشة ومسلمى الزيلع فهو البيئة الجغرافية والطبيعية لبلاد الحبشة • ذلك أن هذه البيئة هى التى أدت الى عزلة الحبشة عن العالم الخارجى وأدى ذلك الى نتائج أخرى زادت من كراهية الأحباش للاسلام والمسلمين •

فالهضبة الحبشية يتراوح متوسط ارتفاعها بين ٧٠٠٠ ، ٨٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، ويعزلها عن المناطق المحيطة بها جدارين هائلين من الجبال المرتفعة التى تحصر بينها سهولا خصبة ، ووديانا سحيقة وجبالا شاهقة وانهارا متعددة ذات فروع وجداول كثيرة (٦) •

---

(١) السيد رجب حراز : افريقية الشرقية ، ص ٦ .
(٢) طرخان : نفس المرجع ، ص ٤٦ .
(٣) المقريزى : الالمام ، ص ٥ ، ٦ ، ٢٠ .
(٤) الشاطر بصيلى : نفس المرجع ، ص ١١ .
(٥) محمد عبد المنعم يونس : نفس المرجع ص ٥٤ .
(٦) على أحمد أنور : النزاع الصومالى الاثيوبى ، ص ١٣٠ .

وقد أدى هذا الوضع الجغرافى الى تعدد الأقاليم وتنافسها مع بعضها البعض ، فلم تعرف الحبشة معنى الوحدة السياسية الكبيرة الالماما (١) .

كما أن هذه الهضبة كانت محاطة بسهول صحراوية شاسعة تفصلها عن ساحل البحر الأحمر وخليج عدن ، وتسكنها قبائل بدوية معادية لسكان الهضبة من الأحباش . وأدى ذلك كله الى عزلة الأحباش عن بعضهم البعض داخل هضبتهم والى عزلتهم جميعا عن العالم الخارجى .

وقد أثرت هذه العزلة التى عاشها الأحباش طويلا فى شخصية الانسان الحبشى ، واختلط هذا عنده بالنظرة الدينية المتعصبة التى رافقت الحروب الصليبية فتأججت فى نفسه كراهية أصحاب الديانات الأخرى والحط من شأنهم وبقيت هذه الكراهية لدى الأغلبية من الأحباش المسيحيين ، وخاصة الريفيين منهم حتى اليوم فهم لا يقبلون الجلوس مع أحد لا يعتنق المسيحية ، ولا يشاركونه الطعام ولا يختلطون به ، ويفرون منه ازدراء وتحقيرا طالما أنه على غير دين المسيح (٢) وفى العصور الوسطى كانوا يقتلونه حتى ولو كان مسيحيا على غير مذهبهم الذى يعتنقونه وهو المذهب اليعقوبى (٣) .

وأدى هذا كله الى ازدياد عداوة الأحباش للاسلام والمسلمين فى بلاد الزيلع وجعلهم يصممون على التصدى لهم . ولما كانت البيئة الجغرافية والطبيعية فى الحبشة لا تساعد على انتشار النفوذ وعلى القضاء على المنافسين من المسلمين أو غير المسلمين الا بقوة السلاح (٤) وفى كان الصراع بين الأحباش وبين مسلمى الزيلع صراعا دمويا فى معظم الأحيان .

والعامل الرابع الذى ساعد على ازدياد روح العداء الحبشى لمسلمى الزيلع والى شدة الصراع بينهما ، هو المستوى الحضارى المتخلف الذى كان يعيشه الأحباش وهو مستوى كان أقل بكثير عما كان موجودا

(١) المقريزى : المام . ص ٣ زاهر رياض : نفس المرجع ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) انور (على احمد) : نفس المرجع ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) المقريزى : الالمام ، ص ٣ .

(٤) زاهر رياض : نفس المرجع ، ص ١١٨ .

لدى مسلمى الزيلع فمعظم الأحباش كانوا يسكنون « بيوتا من قش تطلى باحشاء البقر ويأكلون اللحم نيئا » (١) وكانوا لا يعرفون لبس الملابس ، فقد كان معظمهم عراة الأبدان لا يسترون الا عوراتهم فقط بخرق من الثياب أو الجلود (٢) .

وقد ظل هذا المستوى المعيشى المنخفض للأحباش موجودا حتى وقت قريب ، فقد زار الحيمى اليمنى (٣) الحبشة حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، ثم زارها صادق العظم (٤) على رأس وفد عثمانى فى القرن الماضى واعطيا نفس الأوصاف التى أعطاها لنا المقريزى فى القرن الخامس عشر الميلادى . وهذا المستوى المتدنى من عادات الأحباش وأسلوب معيشتهم البدائى يدعم مظاهر التعصب الدينى الذى عرفوا به ولا يقلل منه ، فالانسان البدائى يكون عادة أكثر اصرارا واستمساكا بما يعتقد ولا يقبل مناقشته فى هذا الاعتقاد لانخفاض مستواه الحضارى ، ويخاطر بنفسه وبحياته حفاظا على ما يؤمن به ويدين ، ولو كان ما يدين به خرافة فما بالك لو كان دينا سماويا كالمسيحية .. ؟

وتفيدنا بعض المصادر من أن ملوك الحبشة أنفسهم كانوا يعيشون هذا المستوى الحضارى المنخفض من حيث عاداتهم وتقاليدهم فى تناول الطعام وارتداء الملابس ، ومن حيث تنظيم دولتهم التى لم يكن لها نظام ولا ديوان ولا قانون (٥) ولم يتغير ذلك كله الا بفعل بعض الاقباط المصريين وبعض المماليك الفارين من سلاطينهم فى مصر الى بلاد الحبشة حيث استقروا هناك فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى وعلموا الأحباش كيفية استعمال آلات الحرب التى كانوا لا يعرفونها ، وصنعوا لهم زردخانات عظيمة تشتمل على أنواع السلاح التى لم يرها الأحباش من قبل ، وأعادوا ترتيب نظام الدولة الادارى ووضعوا لها الدواوين

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص ٣ ، ٤ .
(٢) المصدر السابق (نفس الصفحات) .
(٣) الحيمى : نفس المصدر ، ص ٩٩ .
(٤) صادق العظم : رحلة الحبشة ص ٦١ ، ٧٨ .
(٥) المقريزى : الالمام ، ص ٣ — ٥ .

ونظموا جباية الأموال ، فعظمت الدولة وصار ملوكها يركبون وهم يرتدون الملابس الفاخرة ويخرجون فى مواكب جليلة (١) .

هذا عن المظهر المادى للحضارة الذى كان يعيشه الأحباش أما عن المظهر الثقافى والدينى فكان أيضا لا يساعد على الأخذ بيدهم فى طريق التقدم والفهم الصحيح للأديان وضرورة العيش فى سلام مع الآخرين . ذلك أن غالبية الأحباش كان يغلب عليهم عدم فهمهم لدينهم وعدم الاطلاع على أحكام شريعتهم (٢) مما جعلهم ينساقون وراء كل ناعق ويتأثرون بتحريض المغرضين من رجال الدين الأحباش أو من الملوك الأحباش الذين أرادوا هدم الاسلام وسلكته فى بلاد الزيلع (٣) .

وقد قامت الأسرة السليمانية بجهود ضخمة فى جميع البلاد لصبغها بصبغة مسيحية واضحة (٤) فأتخذ ملوكها ألقابا مسيحية (٥) وقاموا ببناء عدد كبير من الأديرة والكنائس بدرجة لفتت أنظار القائد الفاريز عندما زار الحبشة عام ١٥٢٠ م (٦) وكان خضوع ملوك الحبشة لرجال الدين المسيحيين الأحباش وللمطران القبطى الذى كان يرأس كنيسة الحبشة تاما فى معظم الأحيان ، لما كان يتمتع به المطران من سلطات دينية وكذلك كان خضوع الشعب لرجال الكنيسة شديدا (٧) ولذلك كان الارتباط شديدا بين الكنيسة والدولة فى الحبشة (٨) وكانت حروب ملوك الحبشة ضد المسلمين هى حروب للكنيسة ضدهم فى نفس الوقت . ولذلك كان الرهبان والقسس يتقدمون الصفوف يبثون الشجاعة فى قلوب المحاربين دفاعا عن دين الآباء والأجداد (٩) .

---

(١) نفس المصدر السابق ونفس الصفحات .

(٢) الحيمى : نفس المصدر ، ص ١٠٨ .

(٣) عرب فقيه : نفس المصدر ، ص ١٤٠ .

(٤) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٤٤١ .

(٥) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٤٩ .

(٦) Trimingham, Op., Cit., PP. 65-66 jones and Monroe op. cit.,

(٧) عرب فقيه : نفس المصدر ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، سعيد عاشور ، نفس المرجع ص ١٣ .

(٨) عابدين : نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

(٩) عرب فقيه : نفس المصدر ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

ولذلك أتت تلك النهضة الدينية فى عصر الأسرة السليمانية بغير ما كان متوقعا منها فلم تدع الكنيسة الحبشية لنشر السلام والوئام والمحبة بينها وبين الاسلام فى بلاد الزيلع أو غيره من البلاد كما تأمر المسيحية نفسها ، بل اتخذت من سيطرتها على الأحباش ملوكا ورعية سلاحا للفتك بمسلمى الزيلع ، وسلاحا لتهديد الاسلام فى عقر داره ولعل هذا هو السر فى تلك التهديدات المتعاقبة عبر العصور والتى كان يطلقها ملوك الحبشة بهدم الكعبة ، بدءا من محاولة أبرهه الحبشى فى عام الفيل قبيل ظهور الاسلام ، ومرورا باعتداء الأحباش عام ٢٠ هـ على شواطىء بلاد الحجاز ، ثم عام ٨٣ هـ على جدة وتهديد الكعبة ، ثم تهديدهم لبدر الجمالى فى عهد المعتز بالله الفاطمى فى القرن الخامس الهجرى بتدمير مكة تدميرا شاملا بحيث لا يبقى فيها حجر على حجر (١) . وقيام زرء يعقوب ملك الحبشة باعداد أسطول ضخم يتكون من مائتى سفينة لغزو الحرمين والسيطرة على شواطىء الحجاز عام ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩ م (٢) .

وكما كان انخفاض المستوى الدينى لعامة الأحباش مدعاة لسرعة استجابتهم لتحريض رجال الدين المسيحى ضد بلاد الزيلع الاسلامية ، فقد كان تأخرهم الثقافى الشديد سببا فى انقيادهم انقيادا أعمى سواء لرجال دينهم أم لملوكهم . وهذا التأخر الثقافى يعود الى تعدد الألسنة واللغات واللهجات التى بلغ عددها حوالى الخمسين لغة كما أن القلم الحبشى أو الأبجدية الحبشية كانت عسيرة على الفهم والتعلم لأن عدد حروفها يزيد على المائة (٣) ولذلك لم يكن هناك من الأحباش من يحسن القراءة والكتابة الا طائفة العلماء والرهبان والقس (٤) .

وقد استغل ملوك الحبشة ورجال الكنيسة تلك الحالة أحسن استغلال للحفاظ على مصالحهم من جهة ودرءا لخطر الاسلام من جهة أخرى ، فأخذوا يوجهون الناس لضرب المسلمين فى كل مكان سواء فى بلاد الزيلع أم فى غيرها من بلاد الاسلام ، وأخذ رجال الدين يكرسون

---

(١) بتشر : تاريخ الامة القبطية ، جـ ٣ ، ص ٧٣ .
(٢) سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٤٠ .
(٣) القنائى : الجواهر الحسان ، ص ٢ .
(٤) مقدمة المصدر السابق .

روح التعصب الدينى فى نفس النــاس ويحثونهم على قتــال المسلمين ولذلك كان المسلمون يقتلونهم أثناء المعارك حتى يقضوا على خطرهم وعلى تعصبهم المقيت (1) ٠

والعامل الخامس الذى ساعد على قيــام الصراع بين الأحبــاش ومسلمى الزيلع هو ارتفاع مستوى هؤلاء المسلمين الحضارى عما كان موجودا لدى الأحباش وبمعنى أوضح فأنه اذا كان المستوى الحضارى المتخلف للأحباش قد أدى الى شــدة الصــدام مع مســلمى الزيلع فان ارتفاع مستوى هؤلاء المسلمين قد أطمع فيهم الأحبــاش وجعل هؤلاء الأحباش لا يتوانون عن قتال الزيالعة والاستحواذ على بلادهم وثرواتهم ومدنهم العــامرة ٠

ذلك أن مظاهر الحياة المادية والثقافية أكثر رقيــا وتقدما فى بلاد الزيلع ويخطىء من يظن أن مسلمى الزيلع كانوا بدوا أو يعيشون حياة البداوة . والبدو عادة أقل فى المستوى الحضارى عن الحضر أو سكان المدن ؛ فمسلمو الزيلع سواء كانوا من العرب أم من أهل البلاد الأصليين استقروا وانشأوا مدنا وممالك وسلطنات اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة ونمت تجــارتهم وازدهرت ودرت عليهم ثروات طائلة أســالت لعــاب الأحباش . وساعدتهم فى نفس الوقت على تكوين الجيوش وبناء المدن والمساجد ومظاهر العمران المختلفة (2) وجعلتهم يصمدون أمام عدوان العامة من الأقمشة القطنية (1) ٠

واذا كانت بيوت الأحباش من القش والطين فان مســاكن المسلمين كانت من الطين والأحجــار والأخشــاب (3) ومدنهم مثل أوفات وهرر وزيلع وعدل ودكر كانت من أكبر المدن بها المساجد حيث تقام صــلاة الجمع والجماعات (4) زاخرة بالعلماء والطلاب والقضــاة وكان للوكهم

---

(1) عرب فقيه : نفس المصدر ص ١٤٠ .

(2) زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا (تعليق مجلة كلية الآداب ؟ عدد ١٨ لعام ١٩٥٦ ، ص ١٢٧ .

(3) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ١٣٧ ، ص ٣٢٤ .

(4) المقريزى : الالمام ، ص ٦ .

مواكب غاية فى الفخامة والبهاء ، وملابسهم من الحرير والديباج وملابس العامة من الأقمشـــة القطنية (١) .

ويتحدث المؤرخون عن أزدهار الحياة الاقتصادية ورخص الأسعار بتلك المدن وبممالك الزيلع بصفة عامة ، لدرجة أن اللحم كان الثلاثون رطلا منه تباع بدرهم ونصف (٢) فعاش الناس حيـاة طيبــة ، وكثرت الأموال لديهم لدرجة أنهم كانوا يتعاملون بالذهب والفضة (٣) بينمـا كان الأحباش يتعاملون بأسلوب المقايضة ويحتقرون ممارسة النشـاط التجارى (٤)أ . مما أدى الى انخفاض مستوى معيشتهم والى تركز التجارة فى أيدى المسلمين فازدادوا ثراء على ثراء .

وكانت نسبة الحضارة والانتعاش الاقتصادى تقل كلما اتجهنـا من المدن الساحلية التى كانت واسعة الثراء ، الى المدن الداخلية ذات المناخ الصحراوى والتى لم يكن بها أسواق مثلما كان موجودا فى المدن الساحلية . وبذلك يقول عنها المقريزى أنها « بلاد حارة » .. قليلة المتحصل ويصف أهلها بأنهم « لا فخامة لأمورهم » (٥) ورغم ذلك فقد كانت تلك المدن اكثر تحضا من مدن الحبشة .

واذا كان الجهل والتأخر الثقافى يرتع عند أغلب الأحباش فان مسلمى الزيلـع كانوا عكس ذلك ، لأنهم كانوا يهتمون كثيرا بتعليم أبنـائهم وارسالهم الى مدارس اليمن ومكة والقـاهرة ودمشق للتفقه فى الدين وتحصيل العلوم المختلفة . وكانت تخصص لهم أماكن معينة لتسهيـل اقامتهم ، ففى دمشق خصصت مقصورة كبيرة لطائفة الزيالعة والسودان فى المسجد الأموى (٦) وفى القاهرة خصص الأزهر احدى أروقته للزيالعة

---

(١) العمرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ورقة ٤٨١ ، ٤٨٦ ، المقريزى : الالمام ص ٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٣٣٢ — ٣٣٥ .

(٢) المقريزى : الالمام ، ص ٦ .

(٣) العمرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ق ٣ ، ورقة ٤٨٧ ، المقريزى : الالمـام ، ص .

(٤) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٦

(٥) المقريزى : الالمـام ، ص ٦ .

(٦) طرخان : نفس المرجع ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

وسمى برواق الجبرتيه (١) • ولذلك تفوق المسلمون تفـوقا أدبيـا على مسيحيى الحبشة لدرجة أن بعض ملوك الأحباش كانوا يفضلون اسناد أعمال معينة للمسلمين المقيمين فى بلادهم لثقتهم فى أنهـم أكثر اجـادة على أداء هذه الأعمال من الأحباش المسيحيين (٢) •

ولا شك أن البذور الحضارية التى حملها الاسلام الى أهل منطقـة القرن الأفريقى بصفة عامة كان لها أثرها الكبير فى سلوكهم ، فقد ظهر لديهم نبل التعبير وحسن المعاملة والحيوية والنشاط والذكـاء (٣) • وانعكس ذلك على أخلاقهم وعلاقتهم بجيرانهم الأحبـاش ، فسالموهم وأرادوا العيش بجوارهم فى هدوء وسلام ، ولم يعرفوا تعصبا دينيـا ولم يضمروا للاحباش المسيحيين أى عداء (٤) لأن عقيدة الاسـلام كانت لا تقر لهم الا حياة السلم (٥) ولأن ممارستهم للتجارة كانت تحتم عليهم هـذا النوع من الحيـاة •

وبلغ من تسـامح مسلمى الزيلـع أنهم كانوا يخيرون ــ فى بعض الأحيان ــ أسرى الأحباش بين الدخول فى الاسـلام وبين دفع الجزية والاقامة معهم أو العودة الى أهليهم وقومهم سالمين (٦) وعندما كان هؤلاء المسلمون يتعرضون لعدوان الأحباش ، ويرون مساجدهم تدمر ومدنهم تحرق • ونساءهم يعتدى عليهن ، كانوا يقومون بنفس هـذه الاعمال اذا ما وصلوا الى بلاد الأحباش (٧) •

ورغم ذلك فان الصفات الطيبة والتسـامح الذى تحلى به مسلمو الزيلع دفع عددا كبيرا من قواد ملوك الحبشة وامرائهم وجماعاتهم الى الفرار الى ديار المسلمين والدخول فى الاسلام ، تخلصا من ظلم ملوكهم

---

(١) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٧ ، ٨ ، محمد محمد امين : نفس المرجع ص ٤١ .
(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٣٩ .
(٣) القلقشنـدى : نفس المصـدر ، جـ ٥ ، ص ٣٢٤ ، أرنولد ، نفس المرجـع ص ١٣٩ .
(٤) أرنولد : نفس المرجـع ــ ص ١٠٤ .
(٥) جيان : وثائق تاريخية ، ص ٣٢٣ .
(٦) المقريزى : الالمام ص ١٥ .
(٧) المصدر السابق ، ص ١٣ ، ١٤ ، ١٦ .

لهم واستمتاعا بعدالة المسلمين وتسامحهم وهنــاك أمثلة عــديدة يمكن ذكرها فى هذا المجال ، منها ذلك الأمير الحبشى المسمى (حرب جوش) الذى فر الى سعد الدين ملك أوفات الاســلامية واسلم على يديه ، وقاتل بنى قومه من الأحباش دفا عن الاســلام والمسلمين (١) ومنهــا أيضا أهل اقليم ورب الحبشى الذين قاتلوا قومهم من الأحباش وقالوا لحاكمهم المسلم « أنتم أحب الينا من المشركين ــ يقصــدون الأحبــاش النصارى ــ وما استرحنا الا معكم ، وأما أهلنا فانهم قوم ظلمة يأخذون أموالنا غصبا بغير ما نعطيهم ، فنحن نقــاتل معكم ونحن أشــد عداوة لهم منكم » (٢) .

أما العامل السادس والأخير والذى ساعد فى اشعــال الصراع بين الحبشة وبلاد الزيلع الاسلامية فهو تحريض أوربا للأحباش على معاداة الاسلام والمسلمين أينما كانوا سواء كانوا فى مصر أم فى بلاد الحجاز أم فى بلاد الزيلع ولم يكن مسلمو مصر أو بلاد الحجاز مصــدر خطر مبــاشر على الحبشــة بقدر ما كان مسلمو الزيلع ، ولذلك كان عداء الأحبــاش مركزا عليهم .

وبجانب هذا العداء لمسلمى الزيلع والذى دفعهــم لخــوض غــمار حرب صليبية ضد هؤلاء المسلمين ، قام الأحباش أيضا بمحاولات عــدة للاشتراك فى الحــروب والمشروعات الصليبيــة الأوربيــة التى كانت تستهدف مصر وبلاد الشام وذلك بفرض الحصار البحرى ومنع وصول المتاجر الشرقية اليها ، وقام ملوك قبرص من آل لوزجنان بهذا الدور بالنسبة للبحر الأحمر المتوسط خير قيام (٣) ورأى الأوربيون أن خير من يؤدى هذا الدور بالنسبة للبحر الأحمر هى دولة الحبشة المسيحية ، بحــكم موقعهــا عند الطرف الجنوبى لذلك البحر ، وبحكم عدائهــا للاســلام والمسلمين والذى يتمثــل فى عدوانها المتصــل على مسلمى الزيلع ، ولذلك جرت اتصالات مباشرة بين البابوية ودول أوربا من ناحية وبين الحبشة من ناحية أخرى لتحقيق هذا الهدف (٤) واستغلت

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص ١٦ .

(٢) عرب فقيه : نفس المصدر ص ٢٩٩ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ، ص ١٢٠٥ ، ١٢٠٧ .

(٤) سعيد عاشور : نفس المرجــع جـ ٢ ، ص ٢٠٩ بعض أضــواء جديدة لنفس المؤلف ص ٢٩ ، ٣٠ .

الحبشة تلك الاتصالات فى ضرب مسلمى الزيلع وفى تهديد حدود مصر الجنوبية ، وفى تهديد الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة المنورة .

والواقع أن الحبشة كان لا يمكنها أن تظل بعيدة عن العدوان الصليبى ضد الاسلام مدة طويلة ، بحكم موقعها عند مدخل العالم الاسلامى من ناحية الجنوب ولكونها أكبر دولة مسيحية فى منطقة القرن الافريقى ، ويمكنها أن تساهم مساهمة فعالة فى ضرب الجبهة الاسلامية من الخلف ، ولا يمكن أن يتهيأ لها ذلك الدور الا بعد أن تتخلص من المقاومة الاسلامية فى بلاد الزيلع الاسلامية وتقضى على الوجود الاسلامى الذى ينمو ويتكاثر بسرعة رهيبة حول بلاد الحبشة ذاتها بل وفى داخلها . وهذا هو سر الاتصالات المتبادلة بين الحبشة وبين دعاة الحروب والمشروعات الصليبية من ملوك أوربا وأمرائها .

وهناك من يرى أن أوربا لم تعرف بوجود دولة الحبشة الا بعد وصول البرتغاليين الى الساحل الشرقى لأفريقيا فى بداية القرن السادس عشر (١) والهدف من ذلك هو نفى أى دور للحبشة فى الحركة الصليبية ، ونفى اى اتصال لها بأوربا الصليبية ، وبالتالى نفى الصفة الصليبية عن الحروب التى شنها ملوك الحبشة ضد مسلمى بلاد الزيلع الاسلامية .

والحقيقة أن الأحباش كانوا متصلين بأوربا فى عصر الحروب الصليبية أى منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، وكانوا يتابعون أخبار الحروب فى بلاد الشام عن طريق دير كان لهم فى مدينة الشام (٢) وعن طريق جالية حبشية كانت تقيم اقامة دائمة فى تلك المدينة (٣) وعن طريق الحجاج الأحباش الذين كانوا يترددون باستمرار على بيت المقدس للحج والزيارة (٤) .

وكان اتصال الأحباش بالقوى الصليبية فى أوربا نفسها يتم فى شكل سفارات ووفود تبادلها الجانبان حتى بداية العصر الحديث .

---

(١) زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ، ص ١٤١ .

(٢) Runciman, A history of the crusades V. 2, P. 295.

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، فتحى غيث الاسلام فى الحبشة ص ١١٩ .

(٤) Trimingham, Op. Cit., P. 56.

ومن هذه الاتصالات رسالة من ملك الحبشة الى الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين عام ١١٦٥ م يصف فيها مملكته ويبين له أنه يخرج الى الحرب محاطا بثلاثة عشر صليبا من الذهب وان طموحه العظيم هو أن يذهب الى أور شليم ، ويبيد الكفار (١) مما يبين لنا مدى الروح الصليبية التى اتسم بهـا ملوك الأحبـاش منذ وقت مبكر •

وهناك رسالة من البابا اسكندر الثالث الى ملك الحبشة عام ١١٧٧ م نعلها تشجعه على التصدى للاسلام والمسلمين ، لأنهـا كانت ردا على تقرير كان قد وصل من قبل الى ذلك البابا يفيد بأن ملك الحبشة تقدم للمحاربة من أجل أورشليم وضد المسلمين ولكنه عاد الى بلاده بعد أن عجز عن عبور منطقة التيجرى (٢) •

وقد اتصل الغرب الأوربى بالحبشة مرتين خلال القرن الثالث عشر الميلادى : الأولى عام ١٢١٨ حيث طلب الصليبيون الأوربيون من ملك الحبشة أن يغزو بلاد الحجاز ويهدم الكعبة (٣) انتقاما للضربات التى كالها لهم سلاطين بنى أيوب وفى المرة الثانية اتصل (يكونو أملاك) أول ملوك الأسرة السليمانية (١٢٧٠ ــ ١٢٨٥ م) بالامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن واتحفه بهدايا الحبشة نكاية فى حكام مصر الدين كـانوا قد امتنعوا عن ارسال مطران قبطى للحبشـة ، وارهابا لمسلمى الزيلـع باظهار نفسه أنه لا يقف أمامهم فى الميدان وحيدا • وقد تضاعف شعور التعصب الدينى لدى الأحباش منذ حكم (يكونو أملاك) وأصبحت الحبشة ملجأ للهاربين من القبط ، وأظهرت نفسها أمام العالم المسيحى على أنها مركز الامبراطورية المسيحية التى سيلتف حولها المسيحيون فى أفريقيا لمحاربة المسلمين (٤) •

ولذلك اتصل ملك الحبشة ودم أرعد (١٢٩٩ ــ ١٣١٤ م) بالبابا كليمنت الخامس للتنسيق معه ضـد المسلمين بعد أن نشبت الحـروب

---

(١) Jones and Monroe - op. cit., PP. 59-61.

(٢) I bid. PP. 60-61.

(٣) سعيد عاشور ــ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٦٥ .

(٤) حسن محمود : نفس المرجع ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ . عابدين : نفس المرجع ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

الصليبية فى بلاد الشام (١) وارسل شارل السابع ملك فرنسا رسولا الى الشرق فعاد ذلك الرسول واقترح قيـام حلف من القوى المسيحية فى الشرق يشمل الى جانب الدولة البيزنطية أمينيا ، والحبشة (٢) .وأرسل البابا نيقولا الرابع رسولا الى بلاد الحبشة عام ١٣٠٥ م ، وارسل البابا يوحنا الثانى والعشرون اليها سفارة من الرهبان الدومينيكان عام ١٣١٦ م وأرسل ملك فرنسا سفارة أخرى من الرهبان الدومينيكان الى الحبشة عام ١٣٣٨ ولكن انكشفت أمر السفارتين الأخيرتين وقبض عليهم المماليك فى مصر (٣) .

ازداد حقد الصليبيين من الأحباش والأوربيين ضد الاسلام فاتصل ملك الحبشة سيف أرعد (١٣٤٤ ــ ١٣٧٢) بملك قبرص بطرس لوزجنان يطلب منه مهاجمة مصر من الشمال بينما يقوم هو بمهاجمتها من ناحية الجنوب (٤) ولما فشل هذا المشروع ازداد سعار الصليبين وخاصة فى القرن الخامس عشر الميلادى ، حيث سقطت مملكة أوفات الاسـلامية التى كانت تقود كفاح مسلمى الزيلع عام ١٤٠٢ م ، على يد ملك الحبشة داوود (٥) ثم سقطت قرب نهاية هذا القرن أيضا دولة الاسلام فى الأندلس عام ١٤٩٢ م وفى نفس ذلك القرن حقق الاسلام هو الآخر نصرا فى ميدانين : فى آسيا الصغرى حيث سقطت الدولة البيزنطية على يد الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٢ م وفى قبرص حيث تم للمماليك غزوها واسقاط الحكم المسيحى بها عام ١٤٢٦ م فزادت حمى التعصب الدينى لدى ملك الحبشة اسحاق بن داود (١٤١٢ ــ ١٤٢٩ م) وكتب الى ملوك الفرنج يحثهم على ملاقاته لازالة دولة الاسلام وواعدهم على ذلك (٦) .

انتهز ملوك أوربا الفرصة وكتبوا الى ذلك الملك يطلبون التنسيق

---

(١) Budge, op. cit., PP. 287-8.

(٢) حسن محمود : نفس المرجع ص ٤٤٣ .

(٣) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ، ص ٣٠ حسن محمود ، ص ٤٤٣ .

(٤) سعيد عاشور : نفس المرجع السابق ، ص ٣١ فتحى غيث ، الاسلام والحبشة ص ١٠٤ ــ ١١٩ .

(٥) المقريزى : الالمام ، ص ١٣ .

(٦) المقريزى : الالمام ، ص ٥ ، سعيد عاشور ، نفس المرجع ص ٥٣٣

معــه لتحقيق هــذا الهدف ، ولكن موت اسحــاق عام ١٤٢٩ م بدد آمالهم (١) وأتى ملك الحبشة الجديد زرء يعقوب (١٤٣٤ ــ ١٤٦٨ م) وأحيا هذه الآمال ، باشتراكه فى مجمع فلورنسا الدينى عــام ١٤٣٩ ، حيث اتفقت الكنــائس الثلاث ، كنيسة روما ، وكنيسة الاســكندرية وكنيسة الحبشة على تأليف جبهة قوية تقف فى وجه المسلمين (٢) .

وكان لهذه الاتصالات المتبادلة بين الحبشة وأوربا وللمصالحة التى تمت بين الكنيسـتين الشرقية والغربية أثر كبير فى تطرف ملك الحبشة زرء يعقوب فى تصديه للمسلمين ، سواء فى بلاد الزيلع أم فى بــلاد الحجــاز ومصر (٣) . ولذلك جنح ملوك مملكة عدل الاسلامية التى كانت قــد خلفت مملكة أوفات فى قيادة الكفاح ضد الأحبــاش الى مسالمة ذلك الملك وخلفائه فى حكم الحبشة ، وخاصة بعد أن طلب منهم سلاطين مصر أن يصانعوا الأحباش وأن يكفوا عن التطرف فى علاقتهم بهم ، حرصــا على سلامة مملكتهم التى لا يمكن مد يد المساعدة اليها ، نظرا لبعدها عن مصر ، وللأسباب تتعلق بمصر ذاتها ولقلة عدد الزيالعة أنفسهم (٤) .

وقــد تم التحــالف الحبشى الأوربى بشكل عملى عنــدما تمكن البرتغاليون من الدوران حول أفريقيا والوصول الى بلاد الهند والحبشة .

ولذلك كان اتصال البرتغاليين بالأحباش سريعا ومكثفا ومبكرا . فقد أرسلوا فى عام ١٤٩٠ م مبعوثهم بيتردى كوفيلهام الى بلاد الحبشة لعقد تحــالف معها (٥) كما أرسلوا رجلين الى الحبشــة عام ١٥٠٠ م للاتصال بملكها (٦) ، ثم عادوا للاتصال بالأحباش مرة ثالثة عام ١٥١٠ م

---

(١) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، عابدين : نفس المرجع ص ١٨٣ .

(٢) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٣٧ ،
Trimingham : op. cit., p. 76.

(٣) سعيد عاشور : نفس المرجــع : ص ٤٠ ، فتحى غيث ــ نفس المرجع ١٠٥ .

(٤) السخاوى : نفس المصدر ، ص ٧٢ .

(٥) حسن محمود : نفس المرجع ص ٤٤٧ ،
Jones and Moneroe, Cp. Cit., P. 62.

(٦) جيان : نفس المصدر ، ص ٢١١ ، ٢١٣ .

حيث أرسل البوكيرك نائب ملك البرتغال فى بلاد الهند رسـولين الى ملك الحبشة ، نسقا معه لمهاجمة مصر بقطع مياه النيل عنها (١) وقام هـو بمحاولة الهجوم على سواحل بلاد الحجاز ولكنه فشل وعاد يجر أذيال الخيبة والهزيمة (٢) .

ويبدو أن هذا الفشل أثار الملكة هيلنا الوصية على حفيدها ملك الحبشة لبنادنجل (١٥٠٨ ـ ١٥٤٠) فبادرت بالاتصال بعمانويل ملك البرتغـال ، وأرسلت له رسولا أرمنيـا يدعى ماتيو فى عام ١٥١٠ م ، ومعه رسالة منها لملك البرتغال تصف المسلمين فيها بأبشع الأوصاف ، وتبدى استعدادها لمساعدته فى قهرهم فى كل مكان حتى يتم القضـاء تماما « على جرثومة الكفار » وعلى تلك الأمم الاسلامية المتبربرة (٣) .

والغريب أن يصور البعض أن هذه الرسالة أو هذا الاتصـال لم يكن سببه الا تدخل الاتراك فى المنطقة ، ومدهم مسلمى الزيلع بالأسلحة الحديثة ، وأن هذا هو السر فى لجوء الأحباش للمرة الأولى فى تاريخهم ـ هكذا ـ الى طلب المعونة الأجنبية حتى يتمكنوا من القضاء على ثورة الامام أحمد بن ابراهيم أمير هرر الاسلامية وقائد الزيالعة فى كفاحهـم ضد الأحبـاش ، وحتى يتمكنوا أيضـا من القضـاء على خطر الترك العثمانيين فى نفس الوقت (٤) .

والحقيقـة أن الاتراك لم يكونوا قـد ظهروا فى البحر الأحمـر وقتذاك ، ولم يكن قد حدث اتصالهم بمسلمى الزيلع بعـد ، ولم يضـع الاتراك أقدامهم فى عدن ويهاجموا النفوذ البرتغـالى فى خليج عـدن

---

(١) جيان : نفس المصدر ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٤٢ .

(٢) جيان نفس المصدر ص ٢٥٩ .

(٣) Trimingham, op. cit., P. 83, Jones and Monore, P. 62.
سعيد عاشور : نفس المرجع ، ٤٢ ، عابدين نفس المرجع ، ص ١٩٠، ١٩١ .

(٤) زاهر رياض : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، عبد المجيد عابدين ، نفس المرجع ص ١٩٠
Jones and Monroe, op. Cit., P. 82.

والخليج العربى والمحيط الهندى الا فى عام ١٥٣٨ بينما كان البرتغاليون قد سبقوهم فى وضع أقدامهم فى عدن ١٥١٣ م (١) واحتلوا قمران ودهلك ومصوع عقب ذلك (٢) .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان اتصال الأحباش بالبرتغـال عام ١٥١٠ م لم يكن أول اتصال لهم بها أو بغيرها من القوى الصليبية الأوربية، وما سبق من حديث فيه الغاية لدحض هذه النظرية المغرضة كما أن ثورة الامام أحمد بن ابراهيم لم تكن قد ظهرت بعد ذلك أنها بدأت فى عام ١٥٢٧ م (٣) أى بعد اكتمال المفاوضات بين الاحباش والبرتغاليين .

وقد اكتملت هذه المفاوضات وتمت عام ١٥٢٠ م فى شكل اتفـاق تم عقده بين الجانبين على أساس أن يحتفظ ملك فرنسا بقوة عسكرية فى سواكن ، ويحتل ملك أسبانيا زيلع ويتخذ ملك البرتغال من مصـوع قاعدة لقواته ، وأن تعمل جيوش هذه البلاد مع الأحبـاش على غزو جزيرة العرب مهد الاسلام ، وعلى طرد الاتراك والمسلمين من مصر ، وأن تمد الحبشة قوات حلفائها بما تحتاجه من رجال وطعام وأموال حتى يتم تحقيق هذه الأهداف (٤) .

ولا شك أن احتلال مصوع وزيلع وسواكن على النحو الذى أشار اليه هذا الاتفاق ، فيه قضاء تام على امكانية اتصال القوات الاسلامية فى بلاد الزيلع بغيرها من القوى الاسلامية فى الدول الاسلامية الأخـرى وبذلك فان تصل الى الزيالعة أى مساعدة اسلامية ويمكن للحبشة أن تنفرد بهم وتقضى عليهم قضاء تاما خاصة اذا ما تمكن الحلفاء من اخراج العثمانيين من مصر حسبما اتفقوا ، فتقع المنطقـة كلهـا تحت رحمـة البرتغاليين والأحباش .

---

(١) رجب حراز : نفس المرجع ، ص ١٧ ، ١٨ ،
Jones and Monroe, P. 83.

(٢) زاهر رياض : نفس المرجع ص ٢١٦ ، مراد كامل : سيرة الحبشة للحيمى ص ٢٥ .

(٣) حسن محمود : نفس المرجع ص ٤٦٤ .

(٤) الشاطر بصيلى : نفس المرجع ، ١٤ ،
Jones and Monroe, op. cit., PP. 62, 63, 78, 80, 81.

وحقد الأحباش على مسلمى الزيلع وغيرهم من مسلمى حوض البحر الأحمر يظهر فى تلك الرسالة التى أرسلها (لبناد نجل) الى ملك البرتغال مع فرنسيسكو ألفاريز عقب انتهاء المفاوضات وعودة البعثة البرتغالية الى بلادها عام ١٥٢٦ م فقد امتلأت سطور تلك الرسالة بأقذر الألفاظ وأحط العبارات ضد المسلمين وفيها يحث ملك الحبشة ملك البرتغال ألا يستريح له جنب حتى يأخذ أورشليم ويخلصها من يد المسلمين (١) مما يدل على روح صليبية كامنة لدى هؤلاء الاحباش وملوكهم .

وقد تم تنفيذ أحد بنود الاتفاق السابق عندما استنجد لبنا دنجل ملك الحبشة بالبرتغال ضد الهجوم الكاسح الذى قام به الامام أحمد ابن ابراهيم الغازى المشهور بأحمد جران ، وأمير هرر الاسلامية وقائد مسلمى الزيلع ، والذى استطاع أن يغزو بلاد الحبشة ويسيطر على معظم أقاليمها خلال خمسة عشر عاما (١٥٢٧ — ١٥٤٣ م) ردا على عدوان الأحباش على بلاده ومنعا لهم من مواصلة القهر والاذلال لشعب الزيلع المسلم ، الذى كان الأحباش يضطهدونه ويحتلون بلاده ويرغمونه على دفع الجزية (٢) .

حينئذ تأكد للبرتغاليين أن مصير دولة الحبشة المسيحية أصبح فى الميزان فخافوا على مشروعاتهم الصليبية من الاخفاق ، وعلى نفوذهم الذى تدعمه الحبشة فى منطقة القرن الأفريقى وأفريقيا الشرقية من ضربة قد تصيبه فى مقتل ، فأمدوا الأحباش بمساعداتهم وبأسلحتهم النارية الحديثة ، وتمكن الاثنان سويا من انزال الهزيمة بالامام أحمد وقتله فى بداية عام ١٥٤٣ م (٣) وانتهت باستشهاد دولة الاسلام فى بلاد الزيلع نتيجة للتحالف الحبشى البرتغالى الذى أشرنا اليه .

---

(١) Jones and Monroe, op. cit., PP. 80-81.

(٢) عرب فقيه ، نفس المصدر ص ٧ ، ١٦ ، ٤٢ — ٣٠١ ، ٣٣٩ ، عبده بدوى : السود والحضارة العربية ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، زاهر رياض نفس المرجع ص ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
Trimingham, op. cit., P. 88, and Jones and Monroe PP. 81-85.

(٣) نفس المصادر والمراجع السابقة ونفس الصفحات .

وهكذا أدت الاتصالات المكثفة المتبادلة بين الأحباش والبرتغاليين وغيرهم من القوى الصليبية الأوربية الى تأكيد الصبغة الدينية والصفة الصليبية للحروب التى دارت بين الأحباش ومسلمى الزيلع فى العصور الوسطى ، والى أن هذه الاتصالات كانت متبادلة بين الحبشة وأوربا منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، وان أوربا كانت تعلم بوجود هذه الدولة المسيحية فى منطقة القرن الافريقى وعملت على الاستفادة من وجودها ومن موقعها فى ضرب القوى الاسلامية من الخلف ، واستفادت الحبشة من وراء تحالفها واتصالها بأوربا فى ضرب كفاح مسلمى الزيلع بالعدوان على دولتهم وعلى كيانهم السياسى حتى عام ١٥٤٣ م .

وفى نهاية هذا البحث نستطيع أن نقرر أنه كانت هناك دولتان فى منطقة القرن الأفريقى ، أحداهما مسيحية وهى دولة الحبشة ، والثانية اسلامية وهى ممالك الزيلع الاسلامية ، وقد صممت الدولة الأولى على اخضاع الثانية ، وعلى القضاء على كيانها وعلى عقيدتها الاسلامية فقام الصراع بينهما طويلا وممتدا حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث .

وقد رأينا أن هذا الصراع لم يكن بسبب أن الزيالعة كانوا تجار رقيق وقطاع طرق ويلزم منعهم من ذلك ، وليس لأنهم رعايا أحباش متمردين ويجب ردهم الى الطاعة ، وليس لأن سلاطين مصر كانوا يضطهدون قبطها وكان الأحباش يرفعون عنهم هذا الاضطهاد بالضغط على مسلمى الزيلع ، بل كان هذا الصراع لعوامل أخرى بعيدة عن هذه المزاعم تماما ، وقد تناولنا هذه العوامل والدوافع الحقيقة لهذا الصراع ، وبينا أنها كانت عوامل تتعلق بخوف الأحباش من شدة الحركة الاسلامية فى منطقة القرن الأفريقى الى غير ذلك من العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والجغرافية التى تتعلق بالأحباش أنفسهم وبطبيعة بلادهم والتى دفعتهم للقيام بهذا الدور الصليبى ضد ممالك الزيلع الاسلامية طوال العصور الوسطى .

* * *

مصـــادر البحث ومراجعــه

١ ــ مخطــوطات

١ ــ **ابن عبد الباقى :** (علاء الدين محمد) ألفه عام ٩٩١ هـ .
ــ الطراز المنقــوش فى محــاسن الحبوش . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٨٣ تاريخ

٢ ــ **السيوطى :** (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩٠١ هـ
ــ ازهار العروش فى أخبار الحبوش . مخطوط مصور عن نسخة مخطوطة بالاسكوريال برقم ١٧٦٤ ، والنسخة المصورة موجودة بدار الكتب المصرية برقم ٢٨٣١٨ ح .

٣ ــ **العمرى :** (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله) ت ٧٤٩ هـ
ــ مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة .

٤ ــ **النويرى :** (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ٦٧٧ ــ ٧٣٢ هـ
ــ نهــاية الارب فى فنون الآدب ، جـ ٢٨ ، مخطــوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

٢ ــ مصـــادر عربية قديمة

١ ــ **ابن الاثير :** (على بن احمد بن أبى الكرم) ت ٦٣٠ هـ .
ــ الكامل فى التاريخ ، جـ ٢ ، طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ م .

٢ ــ **ابن اياس :** (أبو البركات محمد أحمد) ت ٩٣٠ هـ .
ــ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٣ ، جـ ٥ ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٣ .

٣ ــ **ابن بطوطه :** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩ هـ .
ــ تحفة النظار فى غرائب الابصار وعجائب الاسفار المشهورة برحلة ابن بطوطة ، دار الكتاب اللبنانى (بدون تاريخ) .

٤ ــ **جيـــان :** وثائق تاريخية ، وجغرافية وتجــارية ، ترجمهــا الى العربية يوسف كمال ــ الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٢٧ .

٥ ــ **ابن حجــر :** (الحافظ ابن حجر العسقلانى) ت ٨٥٢ هـ .
ــ انبــاء الغمربانباء العمر ، جـ ٣ ، تحقيــق د. حسن حبشى ، القاهرة سنة ٦٩ ــ ١٩٧٢ .

٦ ــ **الحلبى :** (على بن برهان الدين الحلبى الشافعى) ت ١٠٤٤ هـ .
ــ السيرة الحلبية ، جـ ٣ ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .

٧ ــ **الحيمى :** (الحسن بن أحمد)
ــ سيرة الحبشــة ، تحقيق د. مراد كامل ، الطبعــة الثــانية ، القــاهرة ١٩٧٢ م .

٨ ــ **ابن خلدون :** (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ .
ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٦ طبعة ١٩٦٦ نشر دار الكتاب اللبنــانى .

٩ ــ **السخــاوى :** (محمد بن عبد الرحمن بن محمد المصرى الشافعى) ٨٣١ ــ ٩٠٢ هـ .
ــ التبر المسبوك فى ذيل السلوك القاهرة (بدون تاريخ) .

١٠ ــ **الطبرى :** (محمد بن جرير) ت ٣١٠ هـ .
ــ تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ طبعة بيروت (بدون تاريخ) .

١١ ــ **ابن عبد الظــاهر :** (محى الدين عبد الله بن عبد الظاهر الجذامى المصرى ت ٦٩٢ هـ .
ــ تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور / تحقيق مراد كامل القــاهرة ١٩٦١ .

١٢ ــ **عرب فقيــه :** (شهاب الدين أحمد عبد القــادر والمشهور بعرب فقيــه) .
ــ فتوح الحبشة ، نشر رينيه باسيه باريس سنة ١٨٩٧ .

١٣ ــ **القلقشندى :** (شهاب الدين أحمد بن على) ت ٨٢١ هـ .
صبح الأعشى فى صناعة الانشــاء ، جـ ٥ ، طبعــة وزارة الثقــافة والارشــاد القومى بمصر ، (بدون تاريخ) .

١٤ ــ **القنــائى :** (احمد الحفنى القنــائى)
ــ الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان بولاق سنة ٣٢١ هـ .

١٥ ــ **المقريزى :** (تقى الدين ابو العباس احمد بن على) ت ٨٤٥ هـ .
ــ الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام طبع بمطبعــة الترجمة والتأليف بمصر ١٨٩٥ م .

٣ ــ مراجــع عربيــة حديثــة

١ ــ **ابراهيم على طرخان :**
ــ الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة بحث بالمجلة التاريخية المصرية المجلد ٨ لعام ١٩٥٩ م .

٢ ـ السيد رجب حـراز :

ـ أفريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ، دار النهضـة العربية ، ١٩٦٨ م .

٣ ـ بتشر (أ. ل. الانجليزية) :

ـ تاريخ الأمة القبطية ، ج ٢ ، القـاهرة ١٩٠٦ م .

٤ ـ توماس ارنولد :

ـ الدعوة الى الاسلام ، ترجمـة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٥ ـ جمال زكريا قاسم :

استقرار العرب فى ساحل شرق افريقية ، بحث فى مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ، عدد ١٠ لعام ١٩٦٧ م .

٦ ـ حسن أحمد محمود :

الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، القاهرة ١٩٦٣ .

٧ ـ زاهر رياض :

ـ الاسلام فى أثيوبيا ، الطبعة الاولى دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦٤

ـ الشفتا فى أثيوبيا منذ العصور الوسطى ، بحث بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ج ٢ لعام ١٩٥٧ طبعة ١٩٦١ .

ـ الاسلام فى اثيوبيا (تعليق على كتاب الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام فى مجلة كلية الآداب جامعة القـاهرة ، مجلد ١٨ ج ٢ لعـام ١٩٥٦ طبعـة ١٩٥٩ .

٨ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور :

ـ الحركة الصليبية . ج ٢ الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٣ .

ـ بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، بحث فى المجلة التاريخية المصرية عدد ١٤ لعام ١٩٦٨ .

٩ ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل :

ـ معالم تاريخ السودان وادى النيل . الطبعة الأولى ، القـاهرة ١٩٥٥ .

١٠ ـ صـادق العظم :

ـ رحلة الحبشة ، تعريب رفيق العظم وحقى العظم ، طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ .

١١ ـ **عبـد الرحمن زكي :**

ـ الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، القاهرة (بدون تاريخ) .

١٢ ـ **عبد المجيـد عابدين :**

ـ بين الحبشة والعرب ، دار الفكر المصرى ، القاهرة (بدون تاريخ).

١٣ ـ **عبـده بدوى :**

ـ السود والحضارة العربية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦

١٤ ـ **فتحي غيث :**

ـ الاسلام والحبشة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ)

١٥ ـ **محمد السيد غلاب وآخرون :**

ـ البلدان الاسلامية والاقليات المسلمة فى العالم المعاصر .
الرياض ١٩٧٩ .

١٦ ـ **محمد عبد المنعم يونس :**

ـ الصومال وطنا وشعبا ، دار النهضة العربية ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٢ .

١٧ ـ **محمد محمد امين وآخـرون :**

ـ العلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ١٩٧٧ .

١٨ ـ **محمد المعتصم سيد :**

ـ دول اسلامية فى شرق أفريقيا (هرر والصومال) القاهرة ١٩٦٤ م.
١٩٦٤ م .

المراجـع الأجنبيـة

Budge (E.A.W) :

— A history of Ethiopia, Vol. 1,2 - (London) 1928.

Coupland (Reignald):

— East A frica and its Invaders (Oxford, 1938).

Jones and Monoroe :

— A history of Abyssinia., (Oxford, 1935).

Runciman (Sir Steven) :

— Ahistory of the Crusades Vol. 2 (London, 1951).

— Islam in Ethiopia, (Oxford, 1952).

Encyc. of Islam, «Art of Adal»

تطور العلاقة بين الكنيستين المصرية والاثيوبية وانعكاساتها على العلاقات السياسية بين الدولتـــين

ا . د / شوقى عطا الله الجمــل
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القــاهرة

« لا نعرف جارا احق أن يحسن الى جاره ، وأن يحسن جاره اليه كامة الحبشة بالنسبة الى مصر أو مصر بالنسبة للحبشة ــ لنا بالجزيرة العربية كما ان لهم صلات ، ونهلنا كما نهلوا من المنابع المســيحية ، والاسلامية ، وبنيت نصرانيتهم كما بنيت النصرانية المصرية على قواعد وطنية ، وبلادهم مداخل ومخارج لحياتنا التجارية ، وكذلك بلادنا لهم ــ ويلتقون بنا فى أكثر من مكان ، يلتقون بنا فى وادى النيل وفى البحر الأحمر ، وفى بيت المقدس » .

غربال ، محمد شفيق : من مقدمة كتاب العلاقات
بين مصر وأثيوبيا فى القــرن التاســع عشر

تقع أثيوبيا فى شرق أفريقيا فى منطقة القرن الافريقى بين خطى عرض ٤ ، ١٨ شمالا ، وخطى طول ٣٣ ، ٤٨ شرقا ، والطرف الجنوبى الأقصى منها يبتعد عن خط الاستواء مسافة تقرب من مائتى ميل . وبذا فهى موقع ممتاز وهام اذ تعتبر بمثابة الجسر الذى يربط بين القارتين الأفريقية والآسيوية فلا يفصلها عن الساحل الاسيوى الا مسافة ضيقة تقل عن عشرين ميلا .

أما عن حدودها مع البلاد الافريقية الأخرى ، فمن الغرب والشمال الغربى يحدها السودان ، ومن الشمال البحر الأحمر ، ومن الشرق والجنوب الشرقى الصومال ، ومن الجنوب كينيا . ولم يكن لاثيوبيا منفذ الى البحر يقع داخل أراضيها حتى عهد قريب ، الى أن اقيم فى عام ١٩٥٢ الاتحاد الفيدرالى بينها وبين ارتريا بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة فصارت تمتد على ساحل البحر بمسافة ٦٠٠ ميل تقريبا ، وأصبحت على اتصال مباشر بالعالم الخارجى عن طريق ميناءى مصوع وعصب (١) .

وتتدرج أثيوبيا فى الأرتفاع عن سواحل البحر الأحمر شرقا ومن السودان برا وأواسط أفريقيا غربا حتى تصل الى الهضبة الاثيوبية التى يتراوح متوسط أرتفاعها بين ٧٠٠٠ ، ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وفيها من المرتفات والجبال ما يصل الى ١٤٫٠٠٠ قدم. تبدو الهضبة كأنما تستند من حافتيها على جدارين هائلين جعلت منها الطبيعة سندين يحمعان وسطهما أرض اثيوبيا الخصبة وأهم هاتين الجدارين وعورة ذلك الحرف الهائل الذى يقع الى الغرب من بحيرة تانا ويفصل بين أثيوبيا والسودان وهو الذى يدور من حوله النيل الازرق فى انحداره من بحيرة تانا فى مجراه العجيب على شكل قوس الى ان يدخل أرض السودان فيكمل سيره حتى يلتقى بالنيل الأبيض (٢) .

واشير الى أن أسم حبشة ((Abyssinia)) الذى كان يطلق على هذه البلاد هو اسم قبيلة (حبشت) يمنية هاجرت الى هذه

---

(١) الدناصورى ، جمال الدين وآخرون : خفرافية العالم ــ دراسة اقليمية ص ٢١٥ .

(٢) رفله ، فيليب : الجغرافية السياسية لافريقيا ص ٣٤٠ .
ــ وأنظر الخريطة المرفقة بالبحث .

البلاد من الجزيرة العربية قبل الميلاد بعدة قرون ، وأعطت أسمها لهذه البلاد ، ويفضل السكان اليوم اطلاق اسم اثيوبيا على بلادهم .

واثيوبيا (Aithiopia) لفظ يوناني مركب من ((Opsis) ومعناها وجه ((Aito)) ومعناها الأحمر القاتم أو المحروق أي أصحاب الوجه الأحمر القاتم . وقد أطلق هذا اللفظ قديما على منطقة واسعة لم تحدد تحديدا دقيقا وتمتد الى السودان ، ومصر حتى ان البعض أشار الى ان الامبراطورية الاثيوبية كانت تتكون من تحالف ممالك وأقاليم متعددة كانت تشمل الأرض الممتدة من حوض البحر المتوسط شمالا وتمتد جنوبا على ضفاف النيل حتى خط ١٠° ، وأنها تضم بذلك مملكة اكسيوم ، ويقسم هؤلاء أثيوبيا الى قسمين رئيسيين :

اثيوبيا الشمالية وتدخل مصر في نطاقها ، واثيوبيا الجنوبية وهي التي احتفظت باسم (اثيوبيا) واختصت به . ولم يعط الكتاب القدماء تحديدا جغرافيا دقيقا لكل قسم من القسمين ، فكتاب اليونان عن اثيوبيا ابأنها جزء من وادي النيل وأطلق البعض عليها بلاد (كوش) وقد تردد هذا الاسم في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وقد شاع اطلاق اسم (اثيوبيا على البلاد التي كانت تعرف باسم الحبشة ، وان كنا لا نستطيع ان نحدد بالضبط متى اتخذ الاثيوبيون أنفسم هذا الاسم بصفة رسمية (١) .

واذا كانت مصر وأهميتها بالنسبة للقارة الافريقية ترجع لعوامل عده منها موقعها على البوابة الشمالية الشرقية للقارة ، فان اثيوبيا بموقعها الذي أشرنا اليه يعتبر المدخل الشرقي المؤدي لداخل القارة فمنه تندفع التيارات المختلفة لشمالها وجنوبها وقلبها .

وقد ارتبطت أثيوبيا ومصر بعلاقات ترجع الى اقدم عصور التاريخ، بل ان صلة مصر باثيوبيا تمتد جذورها الى اقدم من التاريخ ذاته ، فالنيل الذي خلف في مصر حضارة عاشت على مر الزمن يدين بوجوده

---

(١) كامل ، مراد : الحبشة بين القديم والحديث (محاضرة القيت بالجمعية الجغرافية المصرية في ٤ مارس ١٩٥٩ .

ـ وكذلك مصعب ، جميل محمود : القضية الارترية (١٩٨٠) ص ص ٢٣ ـ ٢٤ .

وفيضانه لاثيوبيا والغرين الذى يحمله كل عام فيجدد خصب أرض مصروما تمده به من مياه وما تنحته المياه وتحمله من جبال اثيوبيا .

ويرجع التبادل التجارى بين مصر واثيوبيا الى العصر الفرعونى ، ولعل طريق البحر الاحمر كان الطريق الذى تسلكه السفن التجارية بين البلدين ، ويؤدى هذا الرأى محاولة الفراعنة شق قناة بين النيل والبحر الأحمر لهذا الغرض ، كما ان الطريق البرى بطول ساحل البحر الاحمر الغربى كانت تستخدمه أيضا القوافل التجارية وبهذا الطريق معالم اثرية تدل على ذلك . وكانت هناك طرق ودروب فى الصحراء الشرقية بين بعض المدن المصرية الهامة الواقعة على النيل وموانى البحر الأحمر المعروفة فى هذه العصور القديمة .

وجانت مصر تشترى من اثيوبيا ما يلزمها من أخشاب وبخور وجلود بعض الحيوانات المفترسة وغيرها مما يلزم للمعابد المصرية ، وعن هذين الطريقين البحرى والبرى كانت أيضا تنقل بعض السلع الاثيوبية الى الدولة الرومانية الشرقية (١) .

ووقد عثر الاثرى ليتمان فى عام ١٩٠٥ على نقوش تشير الى العلاقات التجارية بين مصر واثيوبيا ، يرجح ان هذه النقوش ترجع لعهد حكم الملك عذانا الذى تربع على عرش اكسيوم فى الثلث الأول من القرن الرابع الميلادى .

على ان العلاقات الاقتصادية بين البلدين تطورت بمضى الوقت فأصبح هناك تبادل تجارى قوى ومنتظم بين البلدين ـ فأصبحت أثيوبيا تصدر لمصر البلح والتمر الهندى ، وعسل الشمع ، والصمغ والمسك ، والفحم الحجرى ، والكبريت ، والبن والجلود ـ وتستورد الدبلان والشيت ، والصوف والحرير ، والادوية ، والبترول وبعض المنتجات الأخرى المصنعة . وفى عام ١٩٠٥ ساهم البنك الأهلى المصرى فى تأسيس بنك اثيوبيا ، ومع ذلك ظلت العمليات المصرفية الاثيوبية محدودة حتى تم انشاء خط سكة حديد اديس ابابا ـ جيبوتى فى عام ١٩١٧ فادى ذلك لتحسين تدريجى فى المبادلات التجارية ، وفى الاقتصاد

---

(١) عطا ، محمد : البحر الأحمر ، ودول العالم القديم .

الاثيوبى بوجه عام ، وفى عام ١٩٣١ تكونت ادارة وطنية للاشراف على بنك أثيوبيـا ، اشترى الامبراطـور هيلاسلاسى حقـوق البنـك الاهلى المصرى فى البنك الاثيوبى •

على ان سوء حالة المواصلات الداخلية وعدم وجود منفذ اثيوبى على البحر بالاضافة الى عدم الاستقرار الداخلى ادى كل ذلك الى عرقلة التوسع فى التبادل التجارى الخارجى ـ لكن قيـام الاتحاد الفيدرالى بين اثيوبيا واريتريا عام ١٩٥٢ اتاح لاثيوبيا فرصة وجود ميناء تجارى على البحر الأحمر يتمثل فى ميناء مصوع ـ لكن مشكلة ارتريا كانت لها أيضا انعكاساتها على العلاقات الاقتصادية من اثيوبيا وغيرها من الدول الافريقية ومنها مصر •

هكذا ارتبطت مصر واثيوبيا بروابط طبية (النيل) وروابط اقتصادية منذ أقدم العصور •

على انه جرت احداث أخرى كانت لها آثار قوية وعميقة فى الروابط والعلاقات بين مصر واثيوبيا •

فمنذ القرن الرابع الميلادى أخذت المسيحية تنتشر فى اثيوبيا فى فترة حـكم الملك عذانا ، وكان على رأس الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت الامبراطور قسطنطين الأكبر ، وتردد المراجع قصة ترتبط بظروف انتشار المسيحية فى ذلك الوقت فى اثيوبيا واعتناق الملك الاثيوبى وحاشـيته وأهل بيته لهـذه الديانه فيروى أن تاجـرا من صـور اسـمه ميروبيس (Meropius) كانت له سفن تجارية تجوب البحر الأحمر ، وقد تحطمت احدى سفنه قرب ثغر عدول فى الساحل المواجة لاثيوبيا ، وكان من بين من نجوا من ركابها بحار مصر مسيحى (١) اسـمه فرومينتس

(٥) دخلت المسيحية الى مصر على يد القديس مرقس الذى بنى فى الاسكندرية اول كنيسة مصرية حوالى عام ٦٩ م ، وجدت الديانة الجديدة لها معتنقين من اليهود ومن الوثنيين من سكان البلاد ، بل ومن الاغريق الذين كانوا بمصر ، وكان انتشارها سرا بسبب بطش الحكام الرومان ، وقد اختلفت الاراء حول الظروف التى لاقى فيها القديس مرقس نهايته ، وقد اختلفت الكنيسة القطية فى مصر عام ١٩٦٨ بنقل رفاة القديس مرقس من روما الى الكاتدرائية المرقسية الجديدة بمصر وكـان بعض البحـارة البنادقة قد نقلوه من الاسكندرية الى البندقية فى عام ٨٢٥ •

(Frumentius) آواه ملك اثيوبيا زمنا ، وفى أثناء ذلك تحدث الملك وحاشيته عن مبادىء المسيحية فتأثر الملك الحبشى وبعض رجال قصره ، ولما عزم اللاجىء المصرى على الرحيل حثه الملك على العودة لاثيوبيا مرة أخرى لمتابعة شرح تفسير مبادىء المسيحية للاثيوبيين ، ثم عاد فرومنتس الى الاسكندرية حيث رسمه البطريرك اثناسيوس مطرانا لاكسوم، ولقب بالاب سلامة (١) .

على أنه بمجرد وصول أخبار هذا النشاط الذى يمارسه هذا المطران القبطى فى اثيوبيا — الى مسامع الامبراطور البيزنطى قسطنطين — أسرع بارسال سفارة للتبشير بالمذهب الرسمى لدولته ، وللتحقير من شأن فريمونتس ودعوته (٢) .

على ان هذا العمل الذى قام به الامبراطور البيزنطى لم يكن له آية نتيجة فقد ظل المطران القبطى يعمل بنشاط فى اثيوبيا حتى وفاته ولاقت دعوته قبولا من كثيرين وكانت بداية الارتباط بين الكنيستين المصرية والاثيوبية فقد ظلت كنيسة الاسكندرية من ذلك الوقت تعتبر نفسها مسئولة عن رعاية شئون المسيحيين فى اثيوبيا ، وقد الحقت الكنيسة

---

(١) البطريرك الرئيس الدينى للكنيسة القبطية فى مصر ، ويطلق عليه أيضا لقب بابا (Pope) .

المطران — وظيفة دينية تلى وظيفة البطريرك ، ويقوم صاحبها برئاسة عدد من الكنائس فى المنطقة المحددة له دينيا وماليا واجتماعيا ويشرف على رجال الدين فى الكنائس التابعة له (بسبب التقسيم الادارى) وجرت العادة على ان تخذ المطران اسما اخر يعرف به بعد أن يدخل الكهنوت — انظر المصرى ، ايزيس حبيب : قصة الكنيسة القبطية — الجزء الثانى (١٩٧٦) ص ٢٧١ .

(٢) اعتنق الامبراطور قسطنطين (٣٢٣ — ٣٣٧) المسيحية وأصبحت ديانة على قدم المساواه مع الديانات الاخرى المعترف بها فى الامبراطورية البيزنطيه — وبذلك استطاع مسيحو مصر اعلان دينهم وفى سنة ٣٨٥ م فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس (Theodesius) أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة لكن اختلاف المذهب ادى لانقسام فى الرأى بين المسيحيين وقد اعتنقت كنيسة الاسكندرية المذهب اليعقوبى عكس كنيسة روما التى كانت على المذهب الملكى وقد عقدت عدة مجامع دينية للفصل فى شأن هذا الخلاف المذهبى اشهرها (مجمع خلقدونية الرابع) الذى عقد فى النصف الاول من القرن السادس الميلادى — ولم تنجح هذه المجامع فى حسم هذا الخلاف .

القبطية المصرية بالمطران الأول للكنيسة الاثيوبية (الاب سلامة) بمراتب القديسين لجهوده الموفقة فى نشر المسيحية بهذه البلاد •

على اننى اشير الى ان هناك روايات عن دخول المسيحية اثيوبيا فى القرن الأول الميلادى ، وان هجرة المصريين للجنوب كلما اشتد عليهم الضيق فى مصر سواء اكان ضيقا اقتصاديه أو لأسباب سياسية كان امرا عاديا — وان المسيحيين المصريين الذين هاجروا الى اثيوبيا فى هذا الوقت المبكر نشروا المسيحية فى الاوساط التى استقروا بها وان فرومنتوس حين قدم الى اثيوبيا فى القرن الرابع الميلادى وجد بها بعض المسيحيين يمارسون طقوس دياناتهم فى حرية تامة — لكن يرجع اليه الفضل فى نشر المسيحية بين أفراد البيت المالك فاعتنقها الملك ورجال قصره ومهما يكن من أمر فان القرن الرابع يمثل هذا الارتباط بين الكنيستين المصرية المصرية والاثيوبية فأصبحت الكنيسة القبطية المصرية تتكفل بشغل كرسى المطرانية فى اثيوبيا كلما شغر هذا المنصب الدينى الهام •

وكان المطران الاثيوبى يعيش فى قصر خصص له بالقرب من القصر الملكى يحيط به فريق من رجال الدين ومنذ البداية خصص الملك بعض الأرض الصالحة للزراعة للكنيسة ليصرف رجالها من دخلها •

اما عن الاختصاصات التى أصبحت للمطران يتلخص فى رعاية شئون الشعب دينيا واجتماعيا ، وتنصيب القسس فى الكنائس المختلفة التى انشئت على نفس النظام المصرى — فى مختلف التجمعات السكانية الهامة فى أثيوبيا ، والاشراف على تعليمهم وتوجيههم لواجباتهم وانماط السلوك التى يجب ان — يتبعوها • كما كان المطران يقوم بتتويج الاباطرة فلايصبح حكم الامبراطور شرعيا ، ولا تلتزم الرعية بالخضوع له الا بعد قيام المطران بتتويجه ، ومن يملك حق التتويج يملك حق العزل — اذا اساء الامبراطور التصرف وضر بمصالح الشعب أو خرج عن قوانين الكنيسة وقد نص فى الدستور الاثيوبى الصادر عام ١٩٥٥ على الا يتولى العرش الا من كان مسيحيا على المذهب الارثوذكسى (١) •

---

(١) فى سنة ١٦٠٣ عزلت الكنيسة الملك زوينقل عن العرش ، كما اقصت الملك سوسينوس فى عام ١٦٠٧ كذلك كان لها دور فى تنحية الامبراطور ليج اياسو سنة ١٩١٧ كما كان لها دور فى احباط الانقلاب العسكرى الذى وقع فى عام ١٩٦٢ عندما كان الامبراطور هيلاسلاسى فى زيارة رسمية للبرازيل — أنظر مصعب : مرجع سابق ص • ص ٧٤ — ٧٥

وكانت مراسيم تتويج الملك فى أول الأمر بسيطة ـ لكنها تطورت بعد ذلك فأصبح الامبراطور يذهب الى الكنيسة لهذا الغرض فى موكب رسمى وتقام احتفالات ضخمة بهذه المناسبة ، ويلقى المطران كلمة يطلب فيها من الوزراء ورؤساء الجيش والاعيان والشعب طاعة الامبراطور وأوامرة ذلك بعد ان يتعهد الامبراطور بالعمل على مافيه سعادة الشعب ورفاهيته والمحافظة على الديانة المسيحية والمذهب الارثوذكسى وبذلك يكسب الامبراطور صفة القداسة الى جانب خضوع الشعب له ، وكان التتويج يتم عادة فى مدينة اكسيوم القديمة التى ظلت لفترة طويلة العاصمة الدينية للبلاد (١) .

ولا ندرى متى بدأ هذا التقليد الخاص بتتويج رجال الدين الاباطرة لكن كان الاباطرة من زمن بعيد يحرصون على هذا الاجراء ، ولعل الاباطرة وجدوا فى ذلك ما يضمن ولاء الرعية لهم بالاضافة الى ان يكسبهم الهيبة ويميزهم عن غيرهم من بقية الرؤوس فى الدولة .

وقد حرصت الكنيسة على مساندة الملك الشرعى فى حكمة للبلاد مساندة متناهية وذلك بالربط بين انحدار الملوك من السلالة السليمانية والعقيدة الراسخة فى نفوس الناس بأن الملوك يحكمون رعيتهم بتفويض الهى سماوى (٢) .

وفضلا عن ذلك كان المطران يخرج مع الامبراطور فى حروبة ليمنح الجيش تباريك النصر (٣) وهو أيضا الذى يسن القوانين بالطابع الدينى الذى يضفى عليها القوة ، ويتولى اصدار قرار الحرمان الدينى والسياسى على من يحل به سخط النجاشى ، ويضاف الى ذلك ان المطران هو الذى يهيمن على املاك الكنيسة وأموالها وبذا كان ملوك اثيوبيا يرون أن المطران يكسب ملكهم طابعا من الاستقرار (٣) .

---

(١) رياض زاهر : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا (١٩٦٥) ص ١٠ وما بعدها .

(٢) مصعب : مرجع سابق ص ٢٧ .

(٣) توجد بمحفوظات معهد الدراسات القبطية بالقاهرة ـ صورة لخروج المطران الاثيوبى بملابسة الكهنوتية مع الجيش الذى حارب الايطاليين فى موقعة عدوه .

(٤) Goulbeaux : Hiet Politique et Religeuse de L'Abyssinie T. I. P. 161.

ومن أجل هذا حرص الاباطرة على الا يتركوا منصب المطران شاغراً فلا يكاد المنصب يشغر بسبب وفاة صاحبه حتى يبادر الامبراطور فيكتب بنفسه كتابا الى البطريرك ليعلمه بخبر وفاة المطران ويطلب اليه تعيين مطران جديد ، ويحمل هذا الكتاب الى البطريرك وفد معه كثيرا من الهدايا ، كما يحمل الوفد أيضا كتابا الى صاحب السلطة فى مصر يسأله السماح لبطريرك الكنيسة المصرية بتنصيب المطران (١) •

وكان وصول المطران الجديد الى اثيوبيا حدثا هاما اذ يبادر الامبراطور الى استقباله عند الحدود ويسير معه فى موكب دينى الى العاصمة وكلما مر من بلد خرج أهلها لاستقباله حتى اذا وصل العاصمة دخل الكنيسة وصلى صلاة الشكر ونثر الامبراطور ومن معه الذهب على رأسه ثم يسلم اليه مفاتيح القصر البطريركى وجميع أمور الرئاسة الدينية (٢)

وهكذا ظلت بطريركية الاسكندرية ترسم بطارنة مصريين للكنيسة الاثيوبية بناء على طلب ملوكها ، وأصبح لبطريرك الاسكندرية يلقب بلقب بطريرك الاسكندرية وأقاليم مصر وأثيوبيا والخمس مدن النوبية •

وفى عام ١٨٧٦ كتب النجاشى يوحنا كاسا — الى البابا كيرلس الخامس اثر وفاة مطران الحبشة الانبا اثناسيوس — يطلب منه اعادة النظر فى التقليد الذى جرى عليه اسلافه حيث اعتادوا ان يرسموا مطرانا واحدا على كرسى اثيوبيا ، واقترح ان يرسم مع المطران ثلاثة اساقفة من الرهبان المصريين لمعاونته والعمل تحت رئاسته وقد اجيب الامبراطور الى طلبه • ومما يذكر عن البطريرك كيرلس الخامس انه كان ذات مرة جالسا فى بهو الاستقبال بالبطريركية بالقاهرة فدخل عليه خمسة من الشبان الاثيوبيين وبعد ان مثلوا بين يديه وقدم لهم اقداح القهوة قالوا له اننا من مسلمى اثيوبيا جئنا للالتحاق بالأزهر الشريف ورأينا ان الواجب يقتضى منا ان نمر أولاً على أبوتكم الكريمة لنتزود بدعواتكم الصالحة أسوة بمواطنينا المسيحيين الذين يحفظون لسلطانكم الروحى فبارك البابا شعورهم

---

(١) تحتفظ الدار البطريركية بالقاهرة ببعض هذه الهدايا التى وردت فى فترات متفاوته بمناسبة تعيين المطارنة لاثيوبيا •

(٢) رياض زاهر : كنيسه الاسكندرية فى أفريقيا ص ١٢ •

الطيب وقد لكل منهم منحه مالية مع طاقم من الملابس الازهرية وأوصاهم عند انصرافهم بألا يخلوا عليه بزيارة كهذه كلما اتيحت لهم الفرصة(١).

وعلى أثر قيام الثورة المهدية فى السودان رأت السلطات البريطانية التى كانت تفرض الحماية على مصر ان تتفق مع امبراطور أثيوبيا لتسهيل سحب القوات المصرية من شرق السودن ـ فعقـدت فى عام ١٨٨٤ (معاهدة عدوه) بين مصر واثيوبيا وبريطانيا بهذا الخصوص ـ واشترطت اثيوبيا فى المعاهدة ان يتعهد خديو مصر بعمل كل التسهيلات فيما يختص بتعيين رجال الدين فى اثيوبيا ويدل هذا على الأهمية التى كان يوليها ملوك اثيوبيا حتى لا يبقى منصب المطران شاغرا .

وبعد وفاة الامبراطور يوحنا فى معركة القلابات مع المهدية فى عام ١٨٨٩ كان كرسى المطرانية شاغرا ـ اتجه الرأس منليك الى الاسقف المصرى فى شوا طالبا منه ان يتوجه امبراطورا فاعتذر الاسقف بأن هذا الأمر من سلطة المطران فحسب فكتب منليك الى بطريرك الاسكندرية فقام البطريرك بترقية هذا الاسقف الى مطران واذن له بتتويج منليك امبراطورا لاثيوبيا (٢) .

وحين أصبح الرأس تفرى (الامبراطور هيلاسلاسى الأول فيما بعد) وليا للعهد الاثيوبى طلب رسامة اساقفة اثيوبيين الى كانب المطـران المصرى ، وحدثت عدة اتصالات فى هذا الشأن مع الكنيسة المرقسية انتهت فى مايو ١٩٢٩ بأن أصدر الانبا يوانى بطريرك الاسكندرية قرارا بتعيين أربعة اساقفة اثيوبيين الى جانب المطران المصرى فكان أول قرار من نوعه بعد ستة عشر قرنا من اعتناق اثيوبيا المسيحية (٣) .

---

(١) السريانى ، صموئيل تاوضروس : باباوات الكرسى الاسكندرية ١٨٠٩ ـ ١٩٧١) القاهرة ١٩٧٣ ص ٨٨ .

(٢) السريانى : مرجع سابق ص ١٠٦ .

(نص خطاب الامبراطور الاثيوبى محفوظ بمكتبة معهد الدراسـات القبطاية بالقاهرة) وانظر رياض زاهر : تاريخ اثيوبيا (١٩٦٦) ص ١٢٣ .

(٣) ملاحظة : فى فبراير ١٩١٧ توجت الاميرة (زاودتيو) ابنة منليك امبراطورة لاثيوبيا واصبح الراس تفرى وصيا ووريثا للعرش وقد توفيت الامبراطورة فى عام ١٩٣٠ فارتقى الراس تفرى العرش واطلق على نفسه اسم هيلاسلاسى الاول .

ولتوطيد العلاقات الدينية بين الكنيستين المصرية والاثيوبية بعد هذا التطور الذى حدث وبعد العديد من المكاتبات المتبادلة بين الطرفين رأى بطريرك الاسكندرية الانبا يوانى ان الأمر يستلزم سفره بنفســة الى اثيوبيا فاستأذن من الملك فؤاد الذى وافق بطيب خاطر على هذه الزيارة • اذ ان ملك مصر كما قالت جريدة الاوبزرفر البريطانية فى ذلك الوقت — كان يعلق أهمية كبرى على استمرار العلاقات الدينية الوثيقة التى كانت تربط بين اثيوبيا ومصر منذ امد بعيد •

وقد وصل البطريرك المصرى الى العاصمة الاثيوبية فى ٣٠ ينــاير ١٩٣٠ حيث كان فى اســتقباله فى المطار كبار رجال الاسرة الحاكمــة الاثيوبية ، والرؤس ، والوزراء والقــواد ، والامناء ورجــال الجيش بالاضافة الى الكهنة وممثلى الدول الأجنبية فى اثيوبيا — وتفقد البطريرك الكنائس والاديرة الاثيوبية ، وانعم عليه وعلى مرافقية بالنياشين وتيمنا بهذه الزيارة الفريدة وهبت الحكومة الاثيوبية دارا ضخمة فى مدينــة اديس ابابا لتكون مدرسة أطلق عليها اسم البطريركية المصرية (١) •

وبعد نهاية الزيارة سافر البطريرك المصرى من ميناء جيبوتى فى ١٣ يناير ١٩٣٠ أصبح الرأس تفرى ملكا على اثيوبيا ودارت مكاتبات بين الحكومة الاثيوبيــة والبطريركية المصرية بشأن تتويج الملك الجــديد فانتدب الانبا يوانس — الانبا يوسان مطران جرجا للقيام بهذا الامر فسافر المطران على رأس وفد من رجال الدين حيث قام بتتويج الملك تفرى امبراطورا لاثيوبيا باسم هيلاسلاسى الأول وكان ذلك فى نوفمبر ١٩٣٠ (٢) •

وفى عام ١٩٣٥ تعرضت اثيوبيا للغزو الايطالى ودخل الايطاليون اديس ابابا فى السادس من مايــو ١٩٣٦ وأرادوا أن يتخــذوا من الدين وسيلة للسيطرة على البلاد وأخضاع الشعب الاثيوبى لهم — ولتحقيق

---

(١) كانت هذه ثانى مدرسة اثيوبية على النظام الحديث ، وكانت الاولى هى التى انشأها منليك واستعان لادارتها والتدريس بها بسبعة من الاساتذة المصريين •

(٢) السريانى : مرجع سابق ص ١١٩ ، ١٢٠ •
رياض زاهر : مصر وافريقيا ص ١٧١ — ١٧٢

هذا ارسل المارشال بادوليو (M. Badelieux) الى المطران كيرلس مطران الكنيسة الاثيوبية وقتئذ رسولا يطلب فيه مقابلته وطلب منه ان يصدر منشورا يدعو فيه الشعب الاثيوبى للخضوع للحكم الجديد والأخلاص له لكن المطران اعتذر بأن الكنيسة يجب أن تكون بعيدة عن السياسة ليمكنها ان تؤدى رسالتها الروحية . وقد حاول الايطاليون اغراء المطران بأن يعين بطريركا للكنيسة الاثيوبية فيصبح لا ريس آخر عليه ، ويمنح حق رسالة الاساقفة وعيرهم وتوضع تحت يديه ايرادات الكنيسة ليتصرف فيها بنفسه . لكن هذه الوعود لم تحيده وبعد ذلك طلب من المطران السفر الى روما ، وهناك بذلت أيضا الوعود لينفذ ما ارادوا من استخدام سلاح الدين ــ وهو أقوى الاسلحة لتحدثة الشعب الاثيوبى وأخضاعه للغزاه ــ واعيد المطران الى مصر بعد ان فشلت الوسائل الميته والضغوط لاغرائه للخضوع لطلبات الايطاليين(١).

وبعد ذلك انتهز الايطاليون فرصة غياب المطران فى مصر واعلنوا فى سبتمبر ١٩٣٧ انفصال الكنيسة الاثيوبية عن كنيسة الاسكندرية ، واقاموا أحد الاساقفة الاثيوبيين الانبا بطرس بطريركا وخولوه حق رسامة الاساقفة ورغم مافى هذه الخطوة من ارضاء للنزعة الاستقلالية عند الاثيوبيين لكن جمهرة الشعب الاثيوبى نظروا للبطريرك الجديد على أنه خائن لامته وكنيسته فقد كان تعيينه بيد الغزاة الايطاليين (٢) .

وبذلت ايطاليا طوال حكمها لاثيوبيا جهودا ضخمة لتغليب المذهب الكاثوليكى على المذهب الارثوذكسى ــ وزاد من ذلك الوقت عدد الكاثوليك الاثيوبيين ــ لكن بقيت الغالبية الاثيوبية على المذهب الارثوذكسى مذهب الاباء والاجداد .

على انه لم تكد الحكومة الوطنية تعود الى اثيوبيا فى مايو ١٩٤١ بعد عودة الامبراطور هيلاسلاسى الأول وهزيمة الايطاليين حتى بادرت فأرسلت وفدا برئاسة وكيل وزارة الخارجية الاثيوبية فطلب اعادة المطران الذى كان الايطاليون قد خلعوه ، ويطلب معونة مصر فى اصلاح ما خربه

---

(١) انظر التقرير الكامل للانبا كيرلس فى هذا الشأن وثيقة رقم ١١ بمحفوظات الدار البطريركية بالقاهرة (ملحق) البحث .

(٢) رياض ، زاهر : تاريخ اثيوبيا ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

الايطاليون — وعاد المطران المصرى الى اثيوبيا حيث استقبل استقبالا رائعا •

لكن لم تتوقف الاثار التى ترتبت على الاحتلال الايطالى لاثيوبيا ، والاجراءات التى اتخذتها ايطاليا أثناء حتلالها لاثيوبيا لفصم عرى الاتصال بين الكنيستين المصرية والاثيوبية بانتهاء الحكم الايطالى — فقد تقدم الاثيوبيون بمطالب تتلص فيما يلى :

١ — الحق فى اختيار مطران اثيوبى للكنيسة الاثيوبية •

٢ — ان يكون لاثيوبيا مجمع مقدس مستقل يتشكل من أساقفة اثيوبيين •

٣ — ان يكون للاثيوبيين رأى فى انتخاب بطريرك الاسكندرية •

٤ — ان يكون لهم ممثل فى المجمع المقدس المصرى •

وقد عقدت عدة مؤتمرات للوصول لحل يرضى الاتجاه القومى الاثيوبى ويبقى فى نفس الوقت على العلاقات التاريخية بين الكنيستين •

وفى عام ١٩٤٦ قرر المجمع المقدس المصرى الواقعة على ان يكون مطران الكنيسة الاثيوبية اثيوبيا على أن يقوم البطريرك المصرى بتعيينة كما قرر الموافقة على انشاء مجمع مقدس اثيوبى •

لكن لم تنته المسألة عند هذا الحد — فقد تقدمت الحكومة الأثيوبية بمطالب جديدة تتلخص فى رفع درجة المطران الأثيوبى الى درجة بطريرك ومنحه حق تعيين الأساقفة الأثيوبيين دون الرجوع للسلطات الدينية المصرية •

وانتهى الأمر فى عام ١٩٥٩ بعقد اتفاق يقضى برفع درجة المطران اثيوبى الى درجة بطريرك على كنيسة أثيوبيا (١) •

وبناء على ذلك توج البابا كيرلس السادس بابا الاسكندرية فى ٢٨ يونيه ١٩٥٩ الأنبا باسيلوس الأثيوبى بطريركا للكنيسة الأثيوبية

(١) أنظر نص الاتفاق بملحق البحث (الاصل محفوظ بالمحفوظات القبطية الانبا رويس) •

وذلك فى حفل دينى ضخم أقيم فى الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة وحضره الأمبراطور هيلاسلاسى الأول أمبراطور أثيوبيــا .

وفى هــذا الحفل أقسم الأنبا باسيليوس الأثيوبى اليمين التى نص عليها الاتفاق السابق وهو يوضح نوع العلاقة الجديدة بين الكنيستين فقد جاء فيــه :

أتعهد بأن أظل أمينــا لعقيدتى وايمانى القبطى الأرثوذكسى ايمــان كنيسة الاسكندرية وكرسى القديس مرقس الأنجيلى .

وأتعهد بأن احترم قوانين كنيستنا التى انتقلت الينا من الرســل وخلفــائهم القديسين الثلثمائة والثمانية عشر المجتمعين بنيقيا ، وأباء الكنيسة ، وأن أجل بابا الاســكندرية وبطريرك الكرازة المرقســية ، خليفة القديس مرقس وأن اعتبره بابانا .

وقد عاهدت نفسى أن لا أشترك فى سيامة بطريرك لأثيوبيا ، أو أى بطريرك آخر دون موافقة واعتماد قداســة بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية واعد أن أظل وفيا لعهدى أمام الله والكنيسة (١) .

وبموجب هــذه الاتفاقية يعتبر بطريرك الأقبــاط فى مصر ــ الأب الروحى الأعلى لكنيسة القديس مرقس بأثيوبيا ويعتبر شخصية مصونه لا تمس بتجريح ــ وأن يذكر اسمه فى كافة الصــلوات بالكنــائس الأثيوبيــة .

وبعد أن حقق البــابا كيرلس للأثيوبيين مطالبهم رسم لهم بطريركا أثيوبيا لأول مرة فى تاريخ الكنيسة الأثيوبية وبذلك زال التوتر الذى شاب العلاقات بين الكنيستين ، ووجهت الكنيسة والحكومة الأثيوبية الدعوة للبابا كيرلس لزيارة أثيوبيا فسافر اليها بالطائرة فى ٢٦ أكتوبر ١٩٦١ وأستقبله الاثوبيون حكومة وشعبا بكل مظاهر الحفاوة والاجلال . وتمكن خلال هــذه الزيارة من تفقد العديد من الكنــائس الأثرية فى أثيوبيا ، بالاضافة الى الأديرة الشهيرة بهــا ، كما زار مدينة أكسيوم العــاصمة الدينيــة ، وحضر القــداس الثــلاثينى لتتويج الأمبراطور هيلاسيلاسى الأول فى ٢ نوفمبر ١٩٦١ وعاد الى القاهرة فى ٧ نوفمبر .

(١) ارجع لنصوص الاتفاق ذاته بملحق البحث .

ولم تكن هذه الزيارة الوحيدة للبابا كيرلس السادس لأثيوبيا فقد زارها مرة ثانية بدعوة من الأمبراطور هيلا سيلاسى الأول لحضور مؤتمر الكنائس الأرثوذكسية الذى عقد فى أديس أبابا فى عام ١٩٦٥ وأصر الأمبراطور على أن تكون رئاسة المؤتمر لبابا الاسكندرية ، وقد أفرد قصره الخاص للبابا القبطى ليمكث فيه طوال مدة اقامته بأثيوبيا واستمرت جلسات هذا المؤتمر من ١٦ من يناير ١٩٦٥ حتى الخامس والعشرين منه ٠

بحث المؤتمر عدة موضوعات هامة واتخذت قرارات تتعلق بتنسيق العمل بين رؤساء الكنائس التى اشتركت فى المؤتمر وبالعمل على تدعيم القيم الروحية بين الشباب ، وتنشيط الخدمات الاجتماعية والثقافية والدينية التى تقوم بها الكنائس والمؤسسات الاجتماعية الملحقة بها ٠ وتقرر أن يعقد المؤتمر اجتماعه التالى فى القاهرة فى يناير من العام التالى لمتابعة ما أتخذ من قرارات وما تم فى مجال تنفيذها وبحث ما يستجد من موضوعات وقد كانت زيارة بابا الاسكندرية الثانية لأثيوبيا فرصة لافتتاح العديد من الأنشطة الجديدة فى أثيوبيا ولمشاركة الاثيوبيين فى احتفالاتهم الدينية والرسمية (١) ٠

وحين احتفلت الكنيسة المصرية فى يونية عام ١٩٦٨ بمرور تسعة عشر قرنا على استشهاد القديس مرقس الرسولى الذى نشر المسيحية فى مصر ، ولوصوله رفاقه من روما (٢) وكذلك افتتاح الكاتدرائية الجديدة بالعباسية ــ دعى الأمبراطور هيلاسيلاسى أمبراطور أثيوبيا لحضور هذا الاحتفال الذى حضره العديد من الكنائس العالمية ٠

واشترك الأمبراطور الأثيوبى مع رئيس جمهورية مصر العربية فى ازاحة الستار عن اللوحة التذكارية بهذه لمناسبة رمزا لما يربط الكنيستين

---

(١) عن مؤتمر اديس ابابا انظر :

السريانى : مرجع سابق ص ٠ ص ٩٢ ، ١٩٣ ٠

(٢) كان بعض البحارة البنادقية قد نقلوا رفات القديس مرقس من الاسكندرية سنة ٨٢٥ م الى مدينة البندقية وقد اجاب الفاتيكان رغبة الكنيسة بالاسكندرية اعادة هذا الرفات للارض التى استشهد عليها ، وذهب وفد من عشرة اساقفة مصريين الى روما حيث قام فى ٢٢ يوليو ١٩٦٨ بتسليم الرفات مع وثيقة تاريخية تؤكد حقيقة هذا الرفات وعادت البعثة المصرية القبطية بالرفات لمصر فى ٢٤ يونيو ١٩٦٨ ٠

المصرية والأثيوبية من ربط وطيدة وتبرع الأمبراطور بمبلغ كبير مشاركة فى اتمام بناء الكاتدرائية ، والقى كلمة فى افتتاح الكاتدرائية جاء فيها « طالما يوجد نهر النيل (١) • والكنيسة القبطية ــ ستستمر علاقات أثيوبيا بمصر حسنة وممتازة » (١) •

وفى عام ١٩٧٣ زار بابا الاسكندرية الأنبا شنوده الثالث وفد من الكنيسة القبطية المصرية أثيوبيا ــ وكان فى استقبال الوفد المصرى فى أديس أبابا الأمبراطور هيلاسلاسى الأول والأنبا ثافيلس بطريرك أثيوبيا ، ورئيس الوزراء والوزراء ومحافظ العاصمة وكبار شخصيات الدولة ورجال الدين الأثيوبى وأطلقت المدافع ٢١ طلقة تحية لمقدم رئيس الكنيسة القبطية الأرثوذكية وبعد مراسم الاستقبال الرسمية توجه البابا الى الكاتدرائيه الكبرى بالعاصمة حيث صلى صلاة الشكر وفى أثناء هذه الزيارة تفقد بابا الاسكندرية العديد من الكنائس والأديرة الأثيوبية والمؤسسات الاجتماعية التى تشرف عليها وتديرها الكنيسة الأثيوبية ، وتبرع لها بمبالغ كبيرة وفى ختام الرحلة قدم البابا للأمبراطور هدايا تذكارية وبادل الأمبراطور البعثة المصرية الهدايا وأثناء وجود الوفد المصرى لأثيوبيا عقدت اجتماعات مشتركة لبحث وسائل دعم التعاون بين الكنيستين المصرية والأثيوبية فى مختلف المجالات وتقرر تأليف لجنة لمتابعة البحث والدراسة لتحقيق هذا الهدف (٢) •

وفى فبراير ١٩٧٤ قامت ثورة فى أثيوبيا أطاحت بحكم الأمبراطور هيلاسلاسى وحددت اقامته (٣) •

وأعقب ذلك عزل البطريرك الأثيوبى ثافيلوس من منصبه فى فبراير ١٩٧٦ لعدم اقتناع مجلس الثورة باخلاصة للثورة واتخذ ولاة الأمور فى أثيوبيا الاجراءات لانتخاب بطريرك جديد وأرسلوا لبابا الاسكندرية دعوة ليشترك مع رجال الدين الأثيوبيين فى اختيار البطريرك الجديد •

---

(١) لمزيد من التفاصيل ــ المحاضر الرسمية للاحتفال بدار الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة •

(٢) التقرير الكامل عن الرحلة بالمحفوظات القبطية بالانبا رويس •

(٣) توفى الامبراطور هيلاسلاسى فى سبتمبر ١٩٧٥ وقد اقامت الكنيسة القبطية بمصر فى يوم الجمعة ١٢ : ٦ : ١٩٧٥ صلاة الجناز على روح العاهل الاثيوبى العظيم •

وبناء على ذلك جمع بابا الاسكندرية المجمع المقدس بجلسة طارئة عقدت فى ١٤/٨/١٩٧٦ لبحث طلب حكومة الثورة فى أثيوبيا وقد جاء فى قرارات المجمع المقدس التى بلغت للحكومة الأثيوبية (١) •

١ ــ يرى المجمع أن عزل البطريرك الأثيوبى الأنبا ثاوفيلس لم يتم بطريقة سليمة اذ لم يحاكم أمام المجمع الأثيوبى المقدس محاكمة قانونية ،

٢ ــ وبذلك لا يجوز انتخاب بطريرك آخر لأثيوبيا فى حالة وجود بطريرك لها ولم يجرد من رتبته الدينية •

٣ ــ فالاجراءات التى تمت حتى الآن لاختيار بطريرك جديد لأثيوبيا مخالفة للبروتوكول المبرم سنة ١٩٥٩ بين الكنيستين القبطية الأرثوذكسية والكنيسة الأثيوبية •

وبناء على ذلك يقرر المجمع المقدس عدم الاشتراك فى هذه السياسة لأنها بهذا الوضع تعتبر مخالفة للقوانين والتقاليد الكنسية بالاضافة الى مخالفتها للبروتوكول المبرم بين الكنيستين فى عام ١٩٥٩ • ولذا يوصى المجمع المقدس الكنيسة الآثيوبية بتصحيح الوضع والالتزام بقوانين الكنيسة وتقاليدها •

على أن السلطات الأثيوبية استمرت فى اجراءاتها وأقامت بطريركا جديدا باسم (تكلاهيمونوت) وتم ذلك فى ٢٩ أغسطس ١٩٧٦ (٢) •

انعكاسات العلاقات بين الكنيستين على العلاقات السياسية بين الدولتين

تعود العلاقات بين مصر وأثيوبيا ــ كما ذكرنا ــ الى أزمنة قديمة بل موغلة فى القدم فهى ترجع للعصر الفرعونى واستمرت هذه العلاقات فى العصر اليونانى على أن الارتباط الذى تم بين الكنيستين المصرية والأثيوبية كما شرحنا من قبل ربط البلدين أكثر بعلاقات استمرت عبر عصور التاريخ المختلفة ، كان للأحداث التى تحدث فى أى من البلدين صداها القوى فى البلد الآخر •

---

(١) السريانى : مرجع سابق ص ١٦٦ •

(٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة •

ولما أصبحت مصر منذ القرن السابع الميلادى دولة اسلامية لم يعن ذلك قطع علاقاتها مع أثيوبيا بل بالعكس فان العـلاقات ظلت مستمرة وقوية ــ خاصة أن مصر الاسلامية كان لها ومازال وضع فريد فقد ظل أقباط مصر متمتعون بوضعهم كمواطنين مصريين على قدم المساواة مع أخوانهم مسلمى مصر ، وظلت الكنيســة القبطية فى مصر لهـا وضعها السامى المعترف به من الدول ولها مكانتها فى العالم المسيحى والعـالم الاســلامى .

وقد حفلت أخبار مصر خلال العصور الوسطى بما يقطع بانعكاسات العلاقات الدينية بين الكنيستين المصرية والأثيوبية على العلاقات السياسية بين البلدين بل وعلى المجتمعين المصرى والأثيوبى .

فمن قبيل المثال أن أقباط مصر كانوا حتى العصر الفاطمى شديدى العناية بالاحتفال بعيد الغطاس أكثر من أى عيد قبطى آخر وكان الحكام يشاركون الشعب القبطى فى الاحتفال بهذا العيد حتى أن هذا الاحتفال أصطبغ بالصبغة الرسمية وقد وصف لنا المسعودى الذى زار مصر أيام الأخشيديين الاحتفال بليلة الغطاس فقال (١) .

لقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس فى مصر ، والأخشيد محمــد بن طغج قد أمرنا فأسرج فى جانب الجزيرة ، وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشــطوط ــ يظهرون كل ما يمكن اظهــاره من المآكل والمشــارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف .

وهى ليــلة تكون بمصر اشملهو سرورا ولا تغلق فيهــا الدروب وبغطس أكثرهم فى النيــل ويزعمون أنهم بذلك فى أمان من المرض .

وعلى أن الأثيوبيين أخذوا من المصريين هــذه العادة وذلك التقليد فهم يحتفلون بهذا العيد أكثر من أى عيد مسيحى آخر .

---

(١) رياض زاهر : كنيسة الاسكندرية ص . ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

على أن الأثيوبيين أخذوا من المصريين هـذه العادة وذلك التقليد فهم يحتفلون بهذا العيد أكثر من أى عيد مسيحى آخر • وكان يشارك فى هذا الاحتفال الأمبراطور نفسه الى جانب رجال الكنيسـة •

وظلت العلاقات بين البـلدين وطيدة وقوية طوال العصر المملوكى أيضا وما بعده وكانت تتحكم فيها أربعة عوامل هامة نجملها فيما يلى :

١ ـ العـامل الدينى :

ويرجع العلاقات التى شرحناها بين الكنيستين المصرية والأثيوبيـة وكان الحجاج الأثيوبيون فى طريقهم الى بيت القدس يقضون فى مصر وقتا غير قصير ويصاحبون الحجاج المصريين فى سفرهم الى القدس •

وكذلك كان بأثيوبيا عـدد كبير من المسلمين تربطهم بالمسلمين فى مصر أقوى الربط ، ويحفظ لنا ديوان الانشاء فى القاهرة العديد من الرسائل المرسلة من سلطان مصر الى أمبراطور الحبشة أو العكس بشأن أمور تتعلق بالوطنيين فى البـلدين سـواء أكـانوا من المسـيحيين أو المسلمين (١) •

وكانت الوفود الأثيوبية تأتى سواء لطلب تعيين مطران للكنيسـة الأثيوبية أو لحمل خطاب يتعلق بشأن آخر من الشئون التى تهم البلدين فيستقبل بالاحترام وتنزل فى منزل الضيافة المخصص لذلك • ويحـدث عادة تبادل الهدايا فى هذه المناسبة ـ وتيسر مهمة الوفد اذا كان يقصد السفر الى القدس أو كان ينوى العودة مباشرة لى بلده •

٢ ـ العـامل الثقـافى :

فكما ساهم المصريون فى نشر المسيحية فى أثيوبيـا كذلك كان لهم دورهم الواضح فى نشر العلم والثاقة منها فالرهبان المصريون والأثيوبيون الذين عاشوا فترات فى الأديرة المصرية كان لهم الفضل فى ترجمة كثير من الكتب الدينية الى الجفرية كذلك انتقلت الديرية وما ارتبط بهـا من تنظيمات من مصر الى الحبشة • وكان يلحق بكل دير أو كنيسـة مكتبة ومدرسة أو أكثر وكان التعليم يقوم به رجال الدين حيث يعلمون الأطفال مبادىء القراءة والكتابة واللغة الجفرية والأمهرية •

---

(١) وردت فى صبح الاعشى : جـ ٨ الكثير من هذه الرسائل .

وحين بدأ التعليم الحديث فى أثيوبيا فى عام ١٩٠٧ بتوجيه من الأمبراطور منليك طلب من مصر ارسال مدرسين للمدرسة التى يزمع اقامتها ولبت مصر الطلب وتوالى ارسال المدرسين المصريين لهذه المدرسة وغيرها من المدارس التى فتحت بعد ذلك وظل لتعليم ينتشر بالحبشة حتى قضى الاحتلال الايطالى عام ١٩٣٥ على استقلال الحبشة .

هذا كما أن الفن القبطى كان له أثره على الفن الأثيوبى كما تأثر الأدب الأثيوبى بالأدب القبطى

وكان تأثير الكنيسة الأثيوبية بتعاليمها وتقالديها الغالبة من الكنيسة القبطية كبيرا فى المجتمع الأثيوبى .

١ ــ العــامل الطبيعى :

يتعلق بوجود منابع النيل باثيوبيا وكانت هناك فكرة شائعة أن من يتحكم فى منابع النيل يستطيع اذا اراد أن يسبب اضرارا بالنسبة لمصر ، وظلت هذه الفكرة سائدة بعد ذلك فكتب صمويل بيكر فى هذا الموضوع عام ١٨٩٢ وذكر انه يعرف نقطة على نهر العطبرة يسكن منها انزال ضرر بفيضان النيل الازرق والعطبرة ، وكتب أيضا عن وجوب درء الخطر بشكل ما عن مصر عن طريق ابعاد أية دولة أو أية قوة تستطيع انزال الصرر بها . واشار لهذه الفكرة أيضا (سكويمان جليف) الذى تولى وزارة الاشغال بمصر بعد الاحتلال مباشرة ــ والقيت فى ذلك الوقت فى المجمع العلمى المصرى عدة ابحاث هندسية تتعلق بسياسة الرى وضبط النيل ــ نذكر منها أبحاث المهندس الفرنسى (برميت **(Prompt)** الذى كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية وفى ابحاثة قرر ان مشروعات ضبط النيل تستلزم التفاهم بين الدول المتعددة التى يهمها الامر (١) .
وان توسع مصر الزراعى فى المستقبل يقتضى البحث فى نهر النيل كله من منبعة الى مصبه .

على ان الكثيرين من حكام اثيوبيا كانوا يلوحون بهذا السلاح سلاح النيل ــ اذا حدث خلاف بينهم وبين حكام مصر .

---

(١) عن مشروعات ضبط النيل وارتباط المصالح بين دولة فى هذا الشأن انظر ، شكرى محمد فؤاد : مصر والسودان ، ووحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (١٩٠٨) ص ٤٦١ وانظر الدراسة الكاملة التى أجراها السير هارى جونستون عن مشروعات ضبط النيل .

٢ ــ عامل اقتصــادى :

فقد أشرنا الى ان العلاقات التجارية بين مصر واثيوبيا بدأت منــذ العصور القديمة واستمرت بعد ذلك وكان يهم الطرفان استمرار هــذه العلاقات وازدهارها •

٣ ــ الملاحة فى البحر الاحمر :

تتصل اثيوبيا بالعالم الخارجى اما عن طريق السودان ومصر أو عن طريق البحر الأحمر والاثيوبيون طوال تاريخهم يتطلعون لان يكون لهم نافذة على البحر ولعل هذا من أهم الدوافع للعمل لضم ارتريا بثغورها على البحر الأحمر •

وقد أثر الركود الذى شمل حركة الملاحة فى البحر الأحمر ــ بعــد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول الطرق التجارية والملاحة الى الطريق الجديد فى العلاقات بين مصر واثيوبيا وانعكس ذلك بدوره على العلاقات بين الكنيستين المصرية والاثيوبيــة وكثيرا ما كانت تتأخــر استجابة كنيسة الاسكندرية للطلبات الملحة والمتعددة للحكومة الاثيوبية لشغل كرسى المطران الشاغرة فى اثيوبيا •

١ ــ عامل الجــوار :

على ان العلاقات السياســية بين مصر واثيوبيــا تأثرت فى العصر الحديث بعامل جديد هو عامل الجــوار بعد امتــداد الادارة المصرية للسودان فى عهد محمد على فى عام ١٨٢٠ •

فقد واجهت الادارة المصرية بالسودان مشكلة الاضــطرابات على الحدود بين البلدين وتصدت لبعض التصرفات من رؤوس الاحباش الذين كانوا يغيرون على القبائل فى مناطق الحدود فى القضارف وفازوغلى ، ودار القلابات ، ويجبرون الاهالى على دفع اتاوات ، تعرف (بالتير)(١)•

وقد حاولت مصر جاهدة فى عهد محمد على الوصول الى اتفــاق مع اثيوبيا يؤدى للاستقرار والهدوء على الحدود دون جدوى ، فقــد استمر التوتر على الحدود فى عهد عباس باشا وسعيد باشا (٢) •

(1) Dye, W. : Moslem Egypt & Ethiopian Abysseme (N.Y.) 1880). p. 120.

(٢) السروجى ، محمد محمود : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ص ١٢ .

واتجه سعيد باشا الى معالجة مسألة الحدود بين البلدين بالاتعانة بنفوذ الكنيسة القبطية المصرية فى دوائر الحكومة الاثيوبية الاقباط بمصر بالسفر الى اثيوبيا لاقناع الامبراطور تيودور باتباع سياسة المسالمة والصداقة (١) .

وقد استقبل البطريرك المصرى بالحبشة استقبالا طيبا لكى اثيرت شكوك الامبراطور حول هذه الزيارة التى جاءت فى توقيتها مع زيارة سعيد باشا للخرطوم . وحشد القوات بها لتأمين حياته ولاستقباله بالاضافة الى ان البطريرك فى مقابلته للامبراطور طلب ضمانات تتعلق بحسن معاملة المسلمين فى اثيوبيا لكى تعامل الحكومة المصرية المسيحيين بمصر والسودان بالمثل . ونتيجة لهذه الشكوك حجز البطريرك المصرى ووضعت قيود على تحركاته واضطر سعيد باشا لان يرسل للامبراطور موضحا أن زيارته للسودان لم تكن الا بقصد النظر فى أحوال السكان وأبدى قلقه وقلق أقباط مصر بخصوص البطريرك المصرى ومن معه (٢) .

وترتب على هذا ان أفرج الامبراطور عن البطريرك المصرى ومن معه واعتذار له عما بدر منه — لكن يبدو ان الخلافات لم تحل .

وقد ارسل موسى حمدى حكمدار السودان فى عهد اسماعيل يقترح ان يسمح له بازالة اثار العمران فى المنطقة الفاصلة بين البلدين لتفريق القبائل من هذه الجهات ، ويوضع حد لفرص الاحتكاك بين الطرفين — لكن الحكومة المصرية رفضت هذه الفكرة تماما واستجنتها وطلبت على النقيض من ذلك ان يعمل على عمران هذه المناطق ورفاهية أهلها وراحتهم فذلك ادعى للاستقرار ، وان الافضل ان تقوم هناك قوة عسكرية كافية للمحافظة على الانفس والارواح (٣) .

ولما قررت انجلترا فى عام ١٨٦٧ — ١٨٦٨ ارسال حملة بقيادة نابيير (Napier) لقتال الملك تيودور ملك اثيوبيا الذى اعتقل وسجن قنصل انجلترا وبعض الأجانب الاخرين ورفض اطلاق سراحهم بالحسنى

(١) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ج ٢ ص ٢٩٦ .
(٢) سامى ، امين : تقويم النيل المجلد الاول ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .
(٣) للوقوف على المراسلات المتعددة فى هذا الشأن يرجع الى شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ــ كان موقف الحكومة المصرية دقيقا وحرجا فقد ادركت النتائج التى قد تترتب مستقبلا على اتصال الانجليز ببعض القبائل التى تقطن فى هذه المناطق وعلى دخولهم هذه البلاد ذات الموقع الهام ولذا اتجهت مصر لان تلعب دور الوسيطين الدولتين المتخاصمتين (١) •

على كل انتهت حملة نابير باطلاق سراح المسجونين الأجانب وانتحار الملك تودور ، واعتلاء الملك يوحنا عرش اثيوبيا •

وقد ادى تثبيت الادارة المصرية بالسودان اقدامها فى اقليم بوغوص سنة ١٨٧٥ الى زيادة التوتر على الحدود بين مصر واثيوبيا وانتهى الامر بالحملات التى أمر الخديو اسماعيل بتجديدها ضد اثيوبيا وانتهت هذه الحملات كلها بعقد صلح بين الطرفين بعد ان هزمت جيوش اسماعيل ــ ولا شك فى ان أقدام اسماعيل على محاربة اثيوبيا كان خطأ لا مبرر له ــ ويشير الدكتور محمد صبرى الى ان حرب اثيوبيا قد فرضت على الخديو تقريبا كما فرض عليه الغاء تجارة الرقيق بالطريقة التى اتبعت وأن الخديو وقع فى الفخ الذى نصب له فى هذا الشأن (٢) •

على ان هذه الحروب كانت من الاسباب التى ادت لمزيد من الارهاق للميزانية المصرية كما اضعفت مركز والى مصر ــ فلم يكن غريبا ان يخضع الباب العالى لضغط كل من انجلترا وفرنسا لتغيير الوضع القائم فى مصر فعزل الخديو اسماعيل وولى مكانة ابنه توفيق ــ ولم يكن الوالى الجديد الشخص القوى الذى يتطلبه الوقت الذى الت اليه الامور فى مصر ليقف فى وجه التدخل الاجنبى ويعالج المشكلات المعقدة التى تواجهها البلاد •

وقد ادركت اثيوبيا حقيقة الوضع فى مصر ــ لذلك حين اوفد الخديو توفيق غوردون باشا حاكم عام السودان لتهدئة الامور على الحــدود مع اثيوبيا ومحاولة عقد صلح نهائى مع الملك يوحنا ــ اصر الملك على ضرورة ضم ميناء مصوع واقليم بوغوص الى اثيوبيا ، بل طالب بأن تتنازل مصر عن منطقة القلابات والتاسور لاثيوبيا اذا رغبت فى ان يسود الســلام بين البلدين ــ وانتهت حكمدراية غوردون للسودان وخلفة محمد رؤوف

---

(١) تفاصيل الرسائل المتبادلة فى هذا الشأن موجودة فى شــوقى الجمل تاريخ سودان وادى النيل جـ ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ •

(٢) السروجى ، محمود : مرجع سابق ص ١٨٧ ــ ١٩٠ •

باشا فى مارس ١٨٨٠ دون ان يصل الطرفان لاتفاق واتجهت سياسة مصر من ذلك الوقت الى محاولة لتهدئة الموقف على الحدود مع اثيوبيا ضد أى عدوان تتعرض له الأراضى السودانية .

ظل الوضع هكذا على الحدود السودانية الاثيوبية الى ان نكبت مصر ذاتها بالاحتلال البريطانى وكانت الثورة قد أخذت تنتشر فى السودان وقد اهتم شريف باشا رئيس الوزراء المصرى بمسألة الحدود مع اثيوبيا فاعلن عن رغبة مصر فى تحديد تلك الحدود بشكل يرضى كلا الطرفين حتى نصل الى حسن جوار فعلى مع اثيوبيا لكن الظروف السالفة الذكر كلها كانت تغرى حكام اثيوبيا بالمبالغة فى مطالبهم .

واتجهت مصر فى مواجهة هذه الظروف الى توسط انجلترا للتدخل بينها وبين اثيوبيا املا فى ان يساعد ذلك للوصول لحل مقبول بين الطرفين ولعل الحكومة المصرية كانت تأمل ان يدعو ذلك انجلترا لان تقف موقفا أكثر اعتدالا فى السودان من موقف العدو المتربص المنتظر لما قد يحدث من نكبات ليفيد هو منها .

وقد رحبت الحكومة الانجليزية بهذه الوساطة واقترحت على الحكومة المصرية ان ترسل بعثة للمفاوضة مع اثيوبيا ، وان يكون على رأسها ضابط بريطانى واختير وليم هوت (William Hewett) لهذه المهمة وكانت التعليمات التى زودته بها الحكومة البريطانية تقضى بأن يسعى لدى الملك يوحنا لتسهيل سحب الحاميات المصرية الموجودة بشرق السودان بالقرب من الحدود الحبشية عن طريق الحبشة على ان تترك للملك الحبشى الحرية لاحتلال اقليم بوغوض ، وتيسر الحكومة البريطانية حصول الملك على الاسلحة عن طريق مصوع ، واذا أصر الملك على احتلال القلابات وتوقف نجاح البعثة فى مهمتها على هذا الشرط فلا مانع من قبوله كذلك يعطى الملك الاثيوبى وعدا اكيدا بارسال مطران مصرى لبلاده على الفور (١) .

وفى ٣ يونية ١٨٨٤ وصل الجانبان الى ما عرف (بمعاهدة عدوة) وبموجبها وضع الملك يوحنا يده على منطقة بوغوص فى مقابل تسهيل

---

(١) يحى ، جلال : مصر الافريقية والاطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ص ص ٤٩ — ٥١٠ .

عبور الحاميات المصرية فى شرق السودان عبر بلاده ، كما نصت الاتفاقية على السماح لاثيوبيا باستعمال ثغر مصوع كمدخل لتجارتها ، وان تيسر مصر ارسال مطران مصرى لاثيوبيا •

وصدقت حكومة جلالة ملك بريطانيا على المعاهدة فى ٤ يوليو ١٨٨٤ كما صدق عليها خديو مصر فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٤ •

ولاشك فى ان اشتراك انجلترا فى المفاوضات المصرية الاثيوبيـة وتوقيعها على الاتفاق النهائى بين البلدين اعطى صورة جديدة للعلاقات الاالدولتين الافريقيتين وجعـل لانجلترا وضـعا خاصا عند الامبراطور الاثيوبى وفى القارة الافريقيـة وهـذه على كل حال مرحـلة التكالب الاستعمارى الاوربى على النفوذ فى المناطق الهامة فى القارة •

وبالطبع هناك تساؤل الى أى حد يتعارض ذلك مع الوضع القانونى لمصر كولاية عثمانية ؟ وهل من سلطة الوالى أن يوقع على معاهدة تنازل بموجبها عن بعض المناطق الخاضعة لنفوذه على سواحل البحر الاحمـر لدولة أخرى (١) •

على كل لم تحل هـذه المعاهدة المشـاكل الحقيقة القـائمة لكنها حققت أهداف السياسة البريطانية فى المنطقة فقد أصبحت أثيوبيا كما قصـدت انجلترا تواجه دولة أخرى واحتـدم الصراع بين الطرفين فى منطقة القلابات وامتد لمناطق أخرى فى شرق السودان وأصبح الانجليز نفوذ فعلى فى المنطقة كما أمكن سحب الحاميات المصرية من السـودان الشرقى •

والعجيب أن انجلترا لم يمض عام على توقيعها على هذه المعـاهدة مع أثيوبيا حتى سمحت فى فبراير ١٨٨٥ لايطاليا باحتلال مصـوع ولم تضع لاحتجاج الأمبراطور الاثيوبى على ذلك •

هذا وقت اضطرت مصر فى عام ١٨٨٥ الى اخلاء الأقاليم الأفريقية التى كانت تحت سلطانها على سـاحل البحر الأحمر ومن الأقاليم التى كانت أخلتهـا مصر منطقة هرر لكن فى عام ١٨٨٧ زحف منليك حاكم شوا على هرر واحتلهـا •

---

(١) فوزى ، ابراهيم : السودان بين يدى غوردون وكتشنر (١٣١٩هـ) جـ ١ ص ١٣٢ •

على أن معاهدة عدوه كما ذكرنا — وضعت الأثيوبيين والمهديين وجها لوجه فلم تلبث أن اندلعت الحرب بين الطرفين فى وقت كان النزاع على العرش بين يوحنا أمبراطور أثيوبيا ومنليك حاكم أقليم شوا قد وصل لدرجة خطيرة .

وانتهى الاصطدام بين الأثيوبيين والدراويش فى معركة القلابات فى مارس ١٨٨٩ بقتل الأمبراطور الأثيوبى وانكسار جيشه ووقع تابوت الأمبراطور فى يد المهديين واستولوا على غنائم عديدة منها التاج الملكى .

وأهمية معركة القلابات هذه بالنسبة لمصر وعلاقاتها الأفريقية ترجع الى أن انتصار قوات الخليفة ذلك النصر الساحق على الأحباش قوى مركزه وجعله يعتقد أن فتح مصر أيسر من هزيمة أثيوبيا .

وتطورت الأمور بعد ذلك تطورا خطيرا وسريعا فمنذ وقعت ايطاليا فى ٢ مايو ١٨٨٩ معاهدة أوتشيالى مع منليك ، وأعلن الايطاليون فى ١٩٨٠ قيام مستعمرة أريتريا واحتلوا كيرن وأسمره وغيرهما من المناطق الهامة المؤدية لهضبة الحبشة ، كما استعدوا لاحتلال كسلا وتم لهم ذلك فى يولية ١٨٩٤ بموافقة انجلترا ، أما انجلترا فقد احتلت طوكر فى ١٨٩١ .

وهكذا اجتمعت على المسرح عدة دول أوربية هى انجلترا ، وايطاليا ، وفرنسا بالاضافة الى ثلاث دول أفريقية هى مصر ، وأثيوبيا ودولة المهدية فى السودان .

ولم تتوان ايطاليا فى الاعلان عن نواياها مستغلة ظروف وصول حليفها منليك للعرش الأثيوبى ، فأعلنت الدول بمضمون معاهدة أوتشيالى وتفسيرها لها بما يوحى بأن الأمبراطور الأثيوبى قد قبل وضع بلاده تحت النفوذ الايطالى (١) .

وفى فبراير ١٨٩٣ أعلن الأمبراطور منليك من جانبه الغاء معاهدة أوتشيالى وأرسل مبعوثا مسلما يدعى محمد الطيب مفاوضه المهديين للوقوف صفا واحدا ضد العدو الأوروبى المشترك (٢) .

---

(١) د . شوقى ، الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ص ٢٥٦

(٢) محمد ابراهيم ، نور الدين : علاقات الدولة المهدية بالحبشة واثر العوامل الدولية فيها — رسالة ماجستير جامعة القاهرة (١٩٧٧) ص ١٤٦ .

وهكذا أمن الامبرطور الاثيوبى ظهره من ناحية المهديين ، كما لقى مؤازرة من فرنسا وروسيا ، فأمدته الدولتان بالسلاح والذخيرة التى أخذت تتدفق الى أثيوبيا عبر ميناء جيبوتى ، كما نجح منليك فى أن يكسب الى جانبه رؤوس الاثيوبيين فى صراعه مع الايطاليين •

وفى مارس ١٨٩٦ وقعت بين الاثيوبين والايطاليين موقعه عدوة واستطاع الاثيوبيون أن يوقعوا بالايطاليين هزيمة منكرة فقتلوا منهم حوالى ستة آلاف ــ وأسروا مثلهم ، كما قتل واسر اغلب قواد الحملة الايطالية فكانت هزيمة ايطاليا من أبشع الهزائم التى منيت بها دولة أوربية فى القرن التاسع عشر

وكانت لمعرفة عدوة نتائجها العميقة من بينها ان ايطاليا انصرفت عن فكرة تكوين امبراطورية كبرى بشرق افريقيا وركزت اهتمامها على شمال القارة كما أن نفوذ فرنسا فى أثيوبيا فى عدوه هو انتصار لفرنسا وشعرت بتهديد فرنسا لها فى منطقة اعالى النيل من الغرب والشرق • كما أن هذا النصر ساعد على ايجاد جسر من التقارب بين المهديين فى السودان والحبشه واستمرت مظاهر هذا التعاون بينها سائدة حتى بدأت القوات المصرية زحفها فى طريقها الى أم درمان فيما عرف بحملات استرداد السودان (١) •

هذا على أن الايطاليين كانوا ايضا يواجهون ضغطا عنيفا من قوات الدراويش فى منطقة كسلا التى احتلتها ايطاليا فى ١٨٩٤ ، وقد وصل هذا الضغط الى دورته حين هاجمت قوات الدرويش كسلا فى عام ١٨٩٥ وكان لزاما على الانجليز القيام بعمل يخفف الضغط على حليفتهم ايطاليا فى كسلا •

وفى هذه الظروف كانت انظار الدول الاوربية الثلاث انجلتراوايطاليا وفرنسا ــ متجهة الى اثيوبيا وما يمكن ان تقوم به فى هذا الصراع ولذا شهدت هذه الفترة عدة بعثات دبلوماسية لاثيوبيا للوصول لاتفاق معها (٢)•

---

(١) لبيب ، يونان رزق : السودان فى عهد الحكم العثمانى الاول ص ١١٣ •

(٢) لمزيد من التفاصيل عن اتجاهات الدول المختلفة فى هذا الوقت ــ أنظر عبده ، على ابراهيم : المنافسة الدولية فى اعالى النيل (١٩٥٨) ص ــ ٢٥٤ •

فقد أرسلت الحكومة الفرنسية فى ديسمبر ١٨٩٦م المسيو لجارد (Lagarde) م الصومال الفرنسى فى بعثة لاثيوبيا لتنفيذ معاهدة سلامه مع الامبراطور الاثيوبى ، ونجح المبعوث الفرنسى فى توقيع معاهدة صداقة بين فرنسا واثيوبيا كما نجح فى الوصول بخصوص الحدود مع الصومال الفرنسى •

كما أرسلت انجلترا فى فبراير ١٨٩٧ جيمس رينل ردد James Renell Rodd) فى بعثة الى اديس ابابا لمحاولة الاتفاق مع اثيوبيا وعرقلة الجهود الفرنسية وضمان عدم تقدم اية مساعدات للدراويش فى حربهم ضـد الجيش المصرى وقد جاء فى اهداف هذه البعثة كما حددت لرئيس البعثة

الحصول اذا أمكن على حياد الاثيوبين المشبع بالود والعطف وهم الذين بعد نجاحهم ضد الطليان ــ قد أصبحوا قوة ذات شأن فى مساحة شاسعة من الاراضى المتاخمة للسودان ، وان تبذل قصارى جهدها لتحول دون أى تعاون بين الملك منليك والخليفة عبد الله ، وان تجمع ما يتسنى لها ان تجمعه من معلومات عن الحالة داخل اثيوبيا ان تنظر البعثة بعد نجاح مهمتها لمسألة تخطيط الحدود بين الصومال البريطانى واثيوبيا من ناحية هــرر

وقد نجحت بعثة ردد فى تحقيق الاهداف المحددة لها فاستطاعت ان تزيل سوء التفاهم بين بريطانيا ومنليك وتعهد منليك بعدم مساعدة اتباع التعايشى بل أعلن انهم اعداءه ، كما سويت مسألة حدود الصـومال البريطانى مع اثيوبيا وتركت مسألة الحدود بين السودان واثيوبيا حتى تكمل الحملخة التى كان على رأسها سردار الجيش المصرى السير هيربرت كتشنر (H. Kitchener) المهمـة التى كلفت بهـا فى مـارس ١٨٩٦ بالتقدم صوب دنقله للقضاء على قوة الدراويش هناك وعقدت رينل ردد فى ١٤ مايو ١٩٨٧ معاهدة مع أثيوبيا من ست مواد تضمنت ما اتفق عليه الطرفان الاثيوبيون والانجليز

Rodd, Rennel : Socid & Diplomatie Memories London 1925) Vol. II. P. 164.

وفيما يتعلق بالحملة التى كان يقودها سردار الجيش المصرى السير هنرى كتشنر ضد الدراويش ــ والتى اطلق عليها حملة الاسترداد ــ فقد نجحت فى ٢٣ سبتمبر ١٨٩٦ فى احتلال ونقله بعد أن اضطر اتباع التعايش لاخلائها وأمرت الحكومة الانجليزية كتشنر بالاستعداد للزحف جنوبا حتى يصل الى فاشوده قبل وصول القائد الفرنسى مارشان (Marchan) اليها ــ حسب الاخبار التى شاعت فى ذلك الوقت

ونجحت حملة النيل أو حملة ام درمان ــ كما يطلق عليها ــ فى هزيمة جيش الدراويش فى واقعة العطبرة فى ١٨ أبريل ١٨٩٨ ، وانفتح الطريق أمام الجيش الزاحف صوب أم درمان فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ وتابع كتشنر بعد ذلك رحلته صوب فاشوده فوصلها فى ٢١ سبتمبر ١٨٩٨ (١) •

على أن منليك اراد ان يوفق بين ارتباطاته المختلفة مع الخليفة عبدالله التعايشى ومع الفرنسيين ومع الانجليز أو كما يقول المثل اراد ان يسك العصا من النصف فلم يشأ ان يتجاهل الخليفة عبد الله فكتب له رسالة جاء فيها اخبرك ان الاوربين الموجودين حول النيل الابيض قد خرجوا من الشرق والغرب وقصدوا أن يدخلوا بين بلادى وبلادك فأمرت جيوشى أن يوصلوا الى النيل الابيض ولذلك كتبت اليك كى تعرف بالقصد ، وانت من جهتك تحفظ ولا تدع الافرنج يدخلوا بيننا وتشدد لانه اذادخل الافرنج وسطنا يصير تعب عظيم لنا (٢) •

وعندما علم الاثيوبيون بسقوط ام درمان فى يد القــوات المصريــة الانجليزية الزاحفة من الشمال اسرعوا باحتلال القلابات وكتب منجاشا القائد الاثيوبى بالقلابات الى القائد الانجليزى فى القضارف رسالة جــاء فيها : لقد دخلنا التلابات بأمر الملك منليك ــ الذى يرحب فى خلق علاقات حسنة معكم بخصوص فتح الطريق التجارى ــ وانشاء علاقات تجارية بين السودان واثيوبيا ، وقد اكد لى الملك منليك انه لا يوجد اى شىء سوى المحبة بين الاثيوبين والانجليز (٣) •

---

(١) لمزيد من التفاصيل الدقيقة لمعركة ام درمان (كدرى) ، والمعارك الحربية الاخرى ضد المهديين يرجع الى ــ زانو عصمت حسن : كدرى ــ تحليل عسكرى لمعركة أم درمان (الخرطوم ١٩٣٧) •

(٢) القدال ، محمد سعيد : مرجع سابع ص ١٥٦ •

(٣) القدال ، محمد سعيد : مرجع سابق ص ١٥٨ •

على أن انجلترا نجحت بعد ذلك فى اقناع اثيوبيا باخلاء التلابات ، ودخلت الجيوش المصرية الانجليزية فى ٧ ديسمبر فى نفس العام .

هذ على أن انجلترا رأت فى حادث فاشودة خطرا يهدد مصالحها فى افريقيا بل اعتبرته عملا من أعمال الغدر ــ ولعل وصف تشرشل لرد فعل هذا الحادث فى انجلترا يوضح ذلك فقد قال :

واشير الى ان اكثر من دولة اوربية كانت فى ذلك الوقت لها اطماع فى أثيوبيا ، والمنطقة المحيطة بها والتى عرفت بمنطقة القــرن الافريقى وفى مقدمة هذه الدول برنطانيا ، وايطاليا وفرنسا وروسيا (١) .

وفى مقدمه هذه الدول بريطانيا ، وايطاليا وفرنسا وروسيا (١) .
العاصمة الاثيوبية ، والواقع ان علاقة مصر القوية والطبيعية باثيوبيا كانت تحتم عليها انشاء هذه القنصلية خاصة بعد أن صار لمصر ممثلون فى الاقطار الاجنبية الاخرى ــ ولما يربط اثيوبيا ومصر من علاقات متعددة تمتد كما ذكرنا عبر عصور التاريخ المختلفة ــ وقد اختير الدكتور فرج ميخائيل موسى ليكون أول قنصل مصرى فى أديس ابابا ــ كما عين السيدان محمود رامزونمر شنوده لمعاونة القنصل المصرى ، وبدأ ممثلو مصر فى أديس ابابا مباشرة عملهم فى القنصلية اديس ابابا فى ٤ فبراير ١٩٢٩ .

هذا واشير الى أنه حين اتجه تفكير الحكومة الاثيوبية لانشاء خزان على بحيرة تانا ــ طلبت الحكومة المصرية من الحكومة الاثيوبية موافاتها ببيانات وافيه عن هذا الامر حيث ان الامر يهم مصر ويمس مصالحها ــ ودعيت مصر لحضور مؤتمر اديس ابابا الذى عقد فى فبراير ١٩٣٠ بهذا الشأن لكن يعطل تنفيذ المشروع بسبب الغزو الايطالى لاثيوبيا .

وحين اعتدت ايطاليا على أثيوبيا كانت مصر فى مقدمه الدول التى استهجنت هذا الاعتداء الغاشم على دولة مسالمة من دول عصبة الامم .

---

(١) للالمام بموقف كل من هذه الدول واطماعها فى هذه المناطق ارجع الى : رزق ، يونان لبيب : بحث منشــور فى كتــاب العــلاقات المصرية الافريقية .

وقد رأينا كيف حاولت ايطاليا بعد دخول قواتها اديس ابابا فصل الكنيستين المصرية والاثيوبية ومحاولة نشر المذهب الكاثوليكى فيهالكنها لم توفق فى ذلك .

وعادت العلاقات بين الكنيستين بعد استعادت اثيوبيا استقلالها .

على أن مساعى اثيوبيا لضم ارتريا اليها خلقت مشكلة جديدة ـ أثرت الى حد ما على العلاقات المصرية الاثيوبية خاصة ان اثيوبيا انتهزت قرار الامم المتحدة فى دورتها الخامسة بأن تكون ارتريا وحدة ذات استقلال ذاتى على أن تنضم مع اثيوبيا فى اتحاد فيدرالى ـ فقررت أثيوبيا من جانبها وضع ارتريا معها فى اتحاد كامل ـ وادى هذا لبروز حركة تحرير ارتريا وتتهم اثيوبيا مصر بتعاطفها مع هذه الحركة .

على أن مصر من جانبها تحاول اليوم جادة فى ضوء سياستها العامة القائمة على أساس تصفية المشكلات بين الدول الافريقية بالطرق السليمة ان تخلق جوا من الصفاء بينها وبين أثيوبيا بل انها تسهم فى تحسين العلاقات بين أثيوبيا والسودان وبينها وبين الصومال .

والحقيقة التى نرجو ان تدركها دول هذه المنطقة الهامة من القارة الافريقية منطقة القرن الافريقى ان الدول الاستعمارية الكبرى التى انتهزت فرصة الاضطرابات والخلافات بين دول هذه المنطقة الحيوية من القارة فتدخلت مع هذا الجانب أو ذلك الجانب ـ انما تعمل لمصلحتها الشخصية ولتحقيق اطماعها ـ فلن تكسب أية دولة من الدول الافريقية من مساندة دولة كبرى ظاهريا لها فهذه الدول لازالت تلعب بمهارة دورها القديم القائم على نظرية فرق تسد .

تحل مشكلة القرن الافريقى وامثالها من المشكلات الافريقية يجب ان يتم فى اطار افريقى صرف وبوعى واتفاق بين الدول الافريقية التى يهمها الامر .

والله ولى التوفيق .

أولا وثائق أصلية :

(محفوظات الدار البطريركية بالانبا رويس بالقاهرة) من أهمها :

١ ــ خطاب من جلالة الامبراطور منليك الثانى الى البطريرك كيرلس الخامس يستأذنه فى ان يقوم اسقرشوا بتتويجة (مؤرخ بالتاريخ القبطى ٢٥ بابه سنة ١٦٠٦) .

١ ــ تقرير من الاب كيرلس مطران اثيوبية ــ قدمة بعد عودته من مفاوضاته مع عاهل ايطاليا موسولينى بعد غزو ايطاليا لاثيوبيا (مايو ١٩٣٧)

٣ ــ الاتفاقية بين الكنيستين المصرية والاثيوبية (فى عام ١٩٥٩) .

ثانيا ــ مراجع باللغة العربية :

١ ــ الجمل شوقى : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر (١٩٥٨) .

٢ ــ الجمل شوقى : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (١٩٨٠) .

٣ الجمل شوقى : تاريخ سودان وادى النيل جـ ٢ (١٩٦٩) .

٤ ــ الناصورى ، جمال الدين وآخرون ــ جغرافية العالم دارسة تكميلية (د . ت) .

٥ ــ رفلة ، فليب : الجغرافيا السياسة لافريقيا (١٩٦٥) .

٦ ــ رياض ، زاهر : تاريخ اثيوبيا (١٩٦٤) .

٧ ــ كنيسة الاسكندرية فى افريقيا (١٩٦٥) .

٨ ــ زانو ، عصمت حسن : كررى تحليل عسكرى لمعركة ام درمان (١٩٣٧) .

٩ ــ سامى ، أمين باشا : تقويم النيل المجلد الاول (١٩٣٦) .

١٠ ــ السروجى ، محمد محمود : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر (١٩٦١) .

١١ ــ السريانى ، صموئيل تاوكضروس : بابوات الكرسى الاسكندرى من ١٨٠٦ الى ١٩٧١ (١٩٧٦) .

١٢ ــ شكرى محمد فؤاد : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل اسياسية فى القرن التاسع عشر (١٩٥٨) .

١٣ ــ الاعشى صبحى : جـ ٨ .

١٤ ــ عبده ، على ابراهيم : المنافسة الدولية فى اعالى النيل (١٩٥٨)

١٥ ــ عطا ، محمد : البحر الاحمر ودول العالم القديم (١٩٥٨) .

١٦ ــ غربال ، محمد شفيق : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ١٩٥٨ .

١٧ ــ فوزى ، ابراهيم : السودان بين يدى غوردون وكتشنر جزآن (١٣١٩ هـ) .

١٨ ــ يحيى ، جلال : مصر الافريقية والاطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ١٩٦٧ .

ثالثا ــ مراجع اجنبية :

1 — Cobleaux, J.B., Politique et Religeus de L'Alyssinie T. 1 (pou 1929).

2 — Dyes W. ; Moslem Egypt & Ethiopia Abyssinia N.Y. 1880).

3 — Jiffen, N.B. Fashoda, The Incident & Its Diplomatic Memories (London 1923).

4 — Rodd, Rennel ; Sociel qnd Diplomatic Memories (London 1923).

الغزو الايطالى لاثيوبيا
وأثره على الأوضاع فى القرن الافريقى

دكتور / شوقى الجمل

برزت أهمية القرن الافريقى [1] على وجه الخصوص فى الفترة مابين الحربين العالميتين باعتباره بوابة القارة من الناحية الشرقية ، هذا بالاضافة الى تحكمه فى طريق البحر الاحمر — الطريق الذى سلكته التجارة العالمية عبر البحرين المتوسط والأحمر الى المحيط الهندى .

وتعتبر قناة السويس الجسر الشمالى الذى تعبر عليه هذه التجارة فى انتقالها بين البحرين .

لذلك اتجهت الانظار الى الاقطار التى تطل على هذا الطـــريق الحيـــوى .

وفى الفترة بين الحربين العالميتين كانت الدول الاستعمارية الكبرى تسيطر على المناطق الهامة المشرفة على هذا المدخل الحيـــوى للقـارة الأفريقية — فكان للانجليز نفوذ فيما عرف بالصومال البريطانى ، ولفرنسا النفوذ فى جيبوتى (الصومال الفرنسى) ، ولايطاليا النفـــوذ فى منطقة ارتريا ، والصومال الايطالى .

وكانت انظار ايطاليا منذ وضعت أقدامها على الساحل الافريقى — قد اتجهت الى اثيوبيا . لكن هزيمة الايطاليين فى معركة عدوه فى عـــام ١٨٩٦ وضعت حدا لهـــذه الاطماع الايطالية فتخلت ايطاليا عن مطامعها

---

(١) اطلق لفظ القرن الأفريقى على ذلك البارز فى الجانب الشرقى من وسط القارة الافريقية والممتد فى المحيط الهندى ، ويضم الصومال ، وجيبوتى ، واريتريا كما يمتد فى الداخل الى اثيوبيا .

فيها حتى العهد الفاشيستى عندما نهض موسولينى فاحتل اثيوبيا سنة ١٩٣٥ وكان ذلك مقدمة للحرب العالمية الثانية (٢) .

على أنه رغم عدم تغير الأوضاع السياسية فى منطقة القرن الافريقى بعد الحرب العالمية الأولى لأن الدول صاحبة النفوذ فى هذه المناطق كانت هى الدول المنتصرة فى الحرب — بعكس المانيا التى خسرت مستعمراتها الأفريقية بعد هزيمتها فى هذه الحرب — فان تيارات التحرر بدأت تهب على القارة ولم يكن ممكنا استمرار الأوضاع على ما كانت عليه قبل الحرب ، فقد شهدت أرض القارة الافريقية بعض معارك الحرب ، كما شارك الافارقة فى هذه الحرب ، وعانوا الكثير من ويلاتها ، كذلك كان بعض الافارقة قد وصلوا الى مستوى ثقافى جعلهم يدركون حقيقة الأوضاع فى بلادهم وتفهموا واجبهم فى ان يتقدموا الصفوف لتخليص بلادهم من الاستعمار ، وكانت الوعود التى شرح بها الحلفاء أثناء الحرب كمبدأ حق شعوب المستعمرات فى تقرير مصيرها واختيار نوع الحكم الذى يلائمها — كل هذه كانت لها آثارها العنيفة على مختلف دول القارة الأفريقية ، فهبت تطالب بحقها فى التمتع بالحرية وفى استغلال خيرات بلادها لصالحها .

على أن الامور لم تسر سيرها الطبيعى بعد الحرب — ففى الوقت الذى كانت فيه الدول المنتصرة والدول المنهزمة على السواء تحاول أن تعالج آثار التخريب والدمار الذى تركته الحرب فى المدن والمجتمعات والأفراد — روعت القارة الافريقية بل اهتز العالم كله حين أقدمت الدول الاوروبية — وهى ايطاليا فى عام ١٩٣٥ على عملية غزو جديدة لدولة من

(٢) تفاصيل عن معركة عدوه والاحداث المتصلة بها يرجع الى :
Berkely ; The :
Compaign of adwa & Rise of Merelik (1953) P. 123.
وكذلك الجمل ، شوقى : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (١٩٨٠) ص ٣٦٣ ، ٣٧١ .

الدول الأفريقية المستقلة — مهدرة بذلك الدروس الأولية المستقاه من الحرب الطاحنة التى اكتوت بنارها البشرية (٣) ٠

الغزو الايطالى لاثيوبيا :

ولعل عملية الغزو التى اقدمت عليها ايطاليا لاثيوبيا عام ٣٥/١٩٣٦ من أهم الأحداث التى هزت منطقة القرن الافريقى — وأثرت فى مجريات الأمور فى المنطقة كلها لاعوام عدة تالية ٠

فقد وقع هذا الغزو من دولة عضوا فى عصبة الأمم على دولة أخرى كانت هى الأخرى عضوا فى العصبة ٠

فكان هذا الاعتداء انتهاكا صريحا للمبـادىء التى قامت عليهـا العصبة وخرقا لميثاقها ، فالميثاق يدعو أعضاء العصبة فى حالة وقوع خلاف بينهم أن يعـرض الخلاف على هيئة تحكيم أو على محكمة عليا ، أو على مجلس العصبة نفسه (٤) ٠

ولكن لعل التغيير الذى حدث فى ايطاليا منذ ان تمكن موسولينى من السيطرة على زمام الأمور فيها فى عام ١٩٢٢ هو المسئول عما طرأ على سياسة ايطاليا الخارجية عامة وسياستها تجاه اثيوبيا بصفة خاصـة من تغيـير ٠

ويحاول المؤرخون أن يجدوا أسبابا معينة لغزو ايطاليا لاثيوبيا ، فالبعض يرجع السبب لمعركة عدوة السابقة الذكر ، ويرى أن الاوضاع فى ايطاليا فى الثلاثينات من القرن العشرين كانت ملائمة للثـأر من الهزيمة السابقة ٠

---

(٣) لم تكن فى افريقيا فى ذلك الوقت سوى اربع دول مستقلة هى مصر ، وليبيريا ، واثيوبيا ، وجنوب افريقيا ٠

(٤) انضمت اثيوبيا للعصبة فى عام ١٩٢٣ ، وكانت ايطاليا فى مقدمة الدول التى ايدت انضمام اثيوبيا للعصبة ٠

(٥) انظر المادتين ١٢ ، ١٣ من ميثاق عصبة الأمم ٠

والبعض يرجع الأمر لحوادث الحدود بين اثيوبيا والمستعمـرات الايطالية فى شرق القارة ، فحدود اثيوبيا السياسية مع جيرانها لم تكن حتى ذلك الوقت محددة بدقة ، ويستند هؤلاء على أن الاحتكاك بين بين قـوات الدولتـين بدأ بالأحـداث المرتبطـة بمنطقـة وال وال (١٩٣٤ - ١٩٣٤) القريبـة من منـاطق الحـدود بين الصـومال الايطـالى واثيوبيا (٦) •

ويرجع البعض الأمر الى موقف الحلفاء من ايطاليا بعد الحـرب العالمية الاولى ، فرغم أنها كانت فى صف الدول المنتصرة ــ لكنهـا لم تفز من غنائم الحرب بما كانت تطمع فيه ، ولذا كان الشعب الايطالى يشعر بقلق زادت حدته بسبب الأحوال الاقتصادية المتدهورة مما يسر اندفاعه وراء الدكتاتورية الفاشية التى ظهرت على مسرح الأحـداث فى ايطاليا بوصول بينيتو موسولينى (Benito Mousolin) للسلطة •

ويرجع البعض الأمر الى أن اثيوبيا التى اعترضت الطريق بين المستعمرتين الايطاليتين ليبيا شمالا والصومال فى منطقة القرن الافريقى ــ والتى كان يذاع عنها وفرة مواردها الطبيعية وضعف قوتها الحربية ــ بدت لقمة سائغة يمكن ان يبدأ بها الدوتشى مغامراته الحربية • وسواء أكان سببا من هذه الاسباب أو اكثر ، أو كانت كلها وراء الغزو الايطالى لاثيوبيا فان النتائج التى ترتبت على الغزو كانت عميقة الأثر •

لقد لجأت اثيوبيا منذ البداية الى المنظمة الدولية (عصبة الامم) تستصرخها فى أن تحميها من الاعتداء الايطالى ، فقدمت فى ١٤ ديسمبر ١٩٣٤ شكوى للعصبة بهذا ــ الخصوص ــ وتكررت الشكاوى من اثيوبيا ورغم ادراج المشـكلة فى جدول أعمال مجلس العصبة فقـد نجحت

---

(٦) للتفاصيل الكاملة عن حادثة وال وال يرجع الى :
Poter, K. : Wal - Wal : arbitration (Washington 1938)

ايطاليا فى تمييع القضية وابعاد المجلس من اتخاذ قرار حاسم فيها الى أن ينتهى موسم الأمطار باثيوبيا ، وتتم الاستعدادات التى كانت على قدم وساق فى موانىء ارتريا والصومال الايطالى فيمكن أن تبدأ العمليات العسكرية (٧) •

ونشطت ايطاليا من جهة أخرى فى اثارة الاضطرابات الداخلية فى اثيوبيا بتحريض القبائل التى كانت على خلاف مع الامبراطور هيلاسلاسى على الثورة ضده (٨) •

ورغم المحاولات التى بذلت لايجاد حل للنزاع الايطالى الأثيوبى — فلم يبد موسولينى أى استعداد للحل السلمى ، وعبرت القوات الايطالية الحدود عند عدوة وتوغلت فى منطقة تجرى Tegri كما بدأ الجنرال جرازيانى Graziani زحفه من جهة الصومال الايطالى •

والعجيب أن الدول الاوربية وخاصة انجلترا وفرنسا التى كان يهمها الأمر أكثر من غيرها وقفت من هذه المشكلة الحادة موقفا هزيلا مما شجع ايطاليا على المضى فى غيها •

لقد كان الغزو الايطالى لاثيوبيا تهديدا لمصالح انجلترا فى افريقيا وفى البحرين المتوسط والأحمر خاصة أن موسولينى هدد بضرب مالطة بالقنابل ، وغزو مصر ، والزحف من ارتريا صوب السودان ، ومن

---

(٧) Walter, F.G. : A hisctory of the League of Nations (London 1952).

ويرجع لوثائق العصبة عام ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ •
(Dispute bet. Ethiopia & Italy League Official Journal 1934-1935 and 1936).

(٨) Francis, R. : Moussolini over Africa. (London 1948).

الصومال صوب كينيا ، اذا اتخذت انجلترا أى موقف فى قناة السويس أو غيرها يهدد مصالح ايطاليا (٩) •

وقد اتجهت بريطانيا — كرد فعل للأحداث الجارية فى اثيوبيا وللاستعدادات الايطالية فى موانى شمال افريقيا وشرقها التابعة لها ، وجزر البحر المتوسط التى تحت نفوذها الى رفع كفاءة قواتها العسكرية فى جبل طارق ، ومالطة ، وعدن ، وعززت اسطولها فى البحر المتوسط بالاضافة الى تدعيم قوتها فى موانيها فى الصومال البريطانى — كما اتجهت لاقرار وضعها فى مصر — كما سنوضح فيما بعد (١٠) •

أما فرنسا فقد كان موقفها يتسم بالحذر ، ولعل هذا يرجع قبل كل شىء — الى نشاط جارتها المانيا ، والأحداث السريعة التى كانت تجرى فيها • ففى اغسطس ١٩٣٤ أصبح هتلر رئيسا للجمهورية بعد موت الرئيس هند نبرج ، واحتفظ هتلر بمنصب مستشار الرايخ أيضا ، وأخذ منذ ذلك الوقت يحطم القيود التى فرضتها (معاهدة فرساى) على المانيا ، فأعاد نظام التجنيد الاجبارى فى مارس ١٩٣٥ ، وتحدى قرار تحديد قوة المانيا البحرية ، واعلن بعد ذلك عزمه على تحصين أراضى الرين التى كانت معاهدة فرساى قد قضت بتجريدها من السلاح •

وقد اتضح موقف فرنسا المتذبذب هذا من رد وزير خارجيتها بيرلافال على استفسار انجلترا عن موقف الاسطول الفرنسى فى البحر المتوسط اذا وقع اعتداء بين ايطاليا على الاسطول الانجليزى •

---

(٩) Schonfield, Dug : Italy and Suez (London 1947) P. 24.

(١٠) لمعرفة سياسة البحرية البريطانية فى البحرين المتوسط والأحمر فى ذلك الوقت يرجع الى مذكرات :

(Admiral, Sir Charles Farbes ; the Mediterranean Commander in Clinref.

وقد كانت اجابته أن بـلاده فى استمرار حسن التفاهم بين كل من بريطانيا وايطاليا وانه يعتقد أنه لايزال هناك مجـال للمفاوضات للحصول لحل مرض للمشكلات القائمة([١١]) ٠

على انه رغم هذا التردد من القوى العظمى فان العصبة اضطرت ازاء استمرار ايطاليا فى عدوانها على اثيوبيا وفشل اللجان المتعددة التى شـكلت لمحاولة ايجاد حل للنزاع الايطالى الاثيوبى لان توافق فى ٩/١٠/١٩٣٥ على تنفيذ المادة ١٦ من ميثاق العصبة التى تقضى بفرض عقوبات اقتصادية على ايطاليا ــ ولم تكن تلك العقوبات الاقتصاديه فى الحقيقة ــ وسيلة ضاغطة قوية على ايطاليا تدعوها للتراجع عما اعترضت القيام به فقد اتضح للجان التى شكلتها العصبة لبحث هذا الموضوع أنه بما يتعلق بالبترول ــ وهو من أهم المواد الحيوية فى الحـرب ــ لا جدوى من الحظر الا اذا أوقفت الولايات المتحدة الامريكية صادراتها البترولية لايطاليا ــ اذ أن معدل كمية البترول التى تصدرها لها تتجاوز احتياجات ايطاليا ــ ولذا فالحل العملى هو فرض رقابة مشددة عـلى ناقلات البترول المـارة بالبحار المؤدية الى ايطاليا ([١٢]) ٠

وفيما يتعلق بالعمليات الحربية ــ فقد عبرت القوات الايطالية الحدود الأرترية عند منطقة عدوه Adawa فى ٣ أكتوبر ١٩٣٥ ــ وأخذت تتوغل فى منطقة تجرى Tegri وتقدم للداخل ، وفى الجهة الجنوبية زحف الجنرال جرازياتى Graziani بقواته من الصومال الايطالى ، وفى الجبهة الشمالية أحرزت القوات الايطالية نجاحا كبيرا فى اقليم انديرات (Endaerat) وتمكنت من احتـلال المنحـدرات الجبلية ، واضطرت القوات الاثيوبية للانسحاب وانفتح الطريق أمام القوات الايطالية لقلب الفريسة ([١٣]) ٠

(١١) Hibere, Christophr : Benito Mousolini (1965) P. 115.

(١٢) تقارير عصبة الأمم ٠

(١٣) Francis, R. : Op. Cit. Italy PP. 189-205.

وأصــدر الجنرال باد وجلى (Badogli) الذى خلف الجنرال دى بونوايميلو (De Bono Emilo) كقائد عام لقوات الغزو الايطــالى فى أول فبراير ١٩٣٦ أوامره لجيشه بأكمال الزحف حتى يتم تطهـير الأقليم الشمالى كله الواقع بين حدود الســودان والبحر الأحمر من القوات الاثيوبية .

وفى مارس ١٩٣٦ احتلت القــوات الايطــالية مــدينة جوندار (Grondar) الهامة الواقعة فى شمال بحيرة تانا والتى كانت فى المــاضى ولعدة قرون عاصمة لاثيوبيا (١٤) .

وفى ابريل ١٩٣٦ بدأت القوات الايطالية زحفها صوب اديس أبابا بعد ان تم لها احتدل المناطق المحيطة ببحيرة تانا ، وقد استخدمت ايطاليا الأسلحة المدمرة من قنابل وغازات سامة لاحراز نصر سريع . وفى ٤ مايو ١٩٣٦ دخل الجنرال باد وجليو على رأس قواته العامة الاثيوبية بعد أن كان الامبراطور هيلاسلاسى قد غادرها مع عائلته وبعض الزعماء الأثيوبيين الى جيبوتى ومنها اطار الى القدس ثم الى لندن لترقب تطور الاحــداث .

وفى ٩ مايو ١٩٣٦ أعلن الملك فيكتور عماأوئيل سيادته على اثيوبيــا وأضاف الى ألقــابه ــ لقب امبراطور اثيوبيا (١٥) .

وعين الجنرال بادوجلبو أول نائب للملك الايطــالى فى اثيوبيــا ، لكنه غادر أديس أبابا فى ٢١ يونية ١٩٣٦ وحل محله (جرازيانى) ب للملك وقائد أعلى للجيش الايطالى بأثيوبيا .

وفى سبتمبر ١٩٣٧ تولى دوق اوستا منصــب نــائب الملك خلفا

---

(١٤) للوصف التفصيلى للمعارك يرجع الى :
Newman, P. : Italy, conquest of Abysinia (1056).

(١٥) Margery, P. : The Government of Ethiopia (London 1963) PP. 173-185.

لجرازيانى وقد بقى فى منصبه الى أن انتهى الاستعمار الايطالى لاثيوبيا .

وحين عقد مجلس عصبة الأمم جلسة فى ٣٠ يوليو ١٩٣٦ فى جنيف سافر الامبراطور هيلاسلاسى اليها حيث القى امام ممثلى الدول فى العصبة خطابا مؤثرا كان له دوى كبير — فقد شعر الجميع بخيبة أمل كبيرة نتيجة عجز العصبة عن القيام بواجبها تجاه عضو من اعضائها تعرض لعدوان غاشم (١٦) .

وقد نظرت السلطات الايطالية لاثيوبيا على أنها ولاية تابعة لايطاليا . وكانت التعليمات أو التشريعات تصدر من روما لينفذها الحكام الايطاليون فى اديس ابابا ، وحل التنظيم الايطالى الجديد فى الادارة والاقتصاد والسياسة محلَ النظم القديمة المتوارثة ، وحلت الأحزاب السياسية الاثيوبية . كما صودرت ممتلكات البلاد والرءوس الاثيوبتيين باستثناء الذين اظهروا ولاءهم للسلطات الايطالية .

اثار الغزو الايطالى لاثيوبيا على الاوضاع فى منطقة القرن الافريقى :

كانت انعكاسات الغزو الايطالى لا ثيوبيا وأثارها قوية على منطقة القرن الافريقى على وجه الخصوص .

فيما يتعلق بالصومال الايطالى (صوماليا) فقد شهدت موانى اوبيا Obbia ، وموجاديشيو (Mogadishu) وغيرهما من موانى الصومالَ الايطالى استعدادات ضخمة لمسايرة متطلبات الغزو ، وتدفقت القوات الايطالية على المنطقة ، وكانت أحداث وال وال (Wal Wal) على الحدود الصومالية الاثيوبية فاتحة العلميات العسكرية كما ذكرنا سابقا .

(١٦) George, S. : Ethiopia under Hailesalassi (London 1946) PP. 123-126.

ومن الصومال اجتــاح الايطاليون اقليم اوجادين Ogaden الاثيوبى واندفعوا للشمال الغربى صوب ديس ابابا •

وبغزو اثيوبيا واعلان ايطاليا قيام امبراطوريتها فى شرق أفريقيا ـــ وضع نظام جديد لحكم هذه الامبراطورية •

فقد قسمت الامبراطورية الايطالية فى شرق افريقيا الى ست وحدات ادارية هى(١٧) :

١ ـــ أمهرة وعاصمتها غندر (Gonda)

٢ ـــ جالاسيدام وعاصمتها جيما (Jima)

٣ ـــ هـــرر وعاصمتها هـــرر (Harar)

٤ ارتريـــا ، وقد ضمت لها بعض المقاطعات وكانت عاصمتها فى اسمرة

٥ ـــ الصومال (Somalia) وقـــد ضمت اليها مقاطعة اوجادين ، وبعض المناطق الاخرى التى تسكنها عناصر صومالية •

واصبح نائب الملك فى اديسى ابابا على رأس هذه الادارة(١٨) •

وصدرت القوانين والتشريعات لتشجيع هجرة الايطاليين لهذه الجهات بشرق القارة ، ووجه الاقتصاد والتجارة لخدمة أهداف الاســـتعمار الايطالى ، ولم تترك فرصة للمواطنين للمشاركة الحقيقية فى النشـــاط الاقتصادى فى بلادهم •

وحاولت الحكومة الفاشستية أن تجعل من المجتمع الصومالى صورة من المجتمع الفاشستى الايطالى ، وقد أوجد الايطاليون للشباب الايطالى معسكراتهم الخاصة للتدريب على النظام الفاشستى ، كما أصبحت اللغة

---

(١٧) Virgin, E. : The process of Re-unification of Ethiopian Empire (London 1962) P. 297.

(١٨) Bandini, F. : Italy in Africa (Rome 1971) P. 17.

الايطالية هى اللغة السائدة ، وأشاعوا بين الصوماليين عقدة الانتماء للجنس الادنى ، وبأن لغتهم غير متحضرة يجب أن تترك المجال للغة الشعب المتحضرة (١٩) •

ورغم أن أكثر من ٤٠٠٠ شاب صومالى شاركوا فى غزو اثيوبيا لكن لم يجنوا عائدا يذكر من هذه التضحيات — بل بالعكس زاد النصر من تعالى الايطاليين الذين كانوا يتباهون دائما بأنهم ورثة الحضارة الرومانية العريقة •

ومن الناحية السياسية لم يكن هناك أى مجال أو فرصة للصوماليين ليمارسوا نشاطهم الا فى حدود نظامهم القبلى ، كما لم يفتح امامهم المجال للمشاركة بأى شكل فى الحكومة أو الادارة بالمستعمرة •

ومن الاسباب التى عوقت تقدم الصومال فى ظل الادارة الفاشستية أن الايطاليين فى الوقت الذى وضعوا فى اذهانهم أنهم السادة فترفعوا عن القيام بالاعمال اليدوية التى يعتبرونها أعمالا وضيعة يجب ألا يقوموا بها لم يقدموا أى تشجيع للاهالى للنهوض بمجتمعهم •

وقد اشار التقرير الذى قدمته الادارة البريطانية العسكرية المؤقتة فى عام ١٩٤١ عن حالة الصومال بعد هزيمة الايطاليين — الى ان المستعمرة الايطالية — السابقة — كانت فى حالة يرثى لها ، فالسكان لايزالون يعيشون على الفطرة ، وأن الاصلاحات التى قام بها الايطاليون لاتتعدى المناطق التى يعيش فيها الايطاليون(٢٠) •

وفيما يتعلق بالصومال الفرنسى (جيبوتى) — كانت للغزو الايطالى لاثيوبيا آثار عميقة — فقد كان الايطاليون فى حاجة لاستخدام السكة الحديدية المارة بالمستعمرة الفرنسية بالاضافة الى ميناء جيبوتى لسد

---

(١٩) Leuis, I.M. : Op. Cit P. 111.

(٢٠) Hollis, Christopher : Italy in Africa (London 1941).

حاجة جيوشهم من المؤن وخلافها ، واظهر الفرنسيون فى جيبوتى استعدادا طيبا للتعاون مع الايطاليين(٢١) .

وفى اوائل عام ١٩٣٦ حولت ايطاليا قنصليتها فى جيبوتى الى قنصلية عامة لمواجهة النشاط المتزايد للايطاليين فى جيبوتى .

وفى ١٦ يوليو عقد القنصل الايطالى فى جيبوتى مع الحاكم الفرنسى لساحل العاج اتفاقية تعاون — حصلت ايطاليا بموجبها على تيسيرات بخصوص استخدام الخط الحديدى عبر جيبوتى واديس ابابا(٢٢) .

ودعت هذه الاتفاقية باتفاقية أخرى وقعت فى روما فى ٢٦ يوليو ١٩٣٦ بين ممثلى الحكومتين الفرنسية والايطالية(٢٣) .

ومع كل هذا فقد كانت ايطاليا لاتزال تطمع فى الاستيلاء نهائيا على جيبوتى باعتبارها المنفذ الطبيعى لاثيوبيا . وقد كثرت فى عام ١٩٣٨ تصريحات الساسة الايطاليين بهذا الخصوص . فنجد الكونت شيانو (Count Ciano) وزير خارجية ايطاليا فى خطاب له القاه فى ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ يحث فرنسا على بيع الخط الحديدى بين جيبوتى وأديس ابابا الى ايطاليا ، ويشير الى ميناء جيبوتى الذى ينتهى قربه الخط الحديدى الذى قدم مصالح ايطاليا فى اثيوبيا يجب ان يكون فى ايدى الايطاليين(٢٤) .

وقد دفع ذلك الحكومتين الانجليزية والفرنسية للعمل سويا لحماية مصالحهما فى هذه المنطقة الهامة — منطقة القرن الافريقى — فعقد مندوبو

---

(٢١) Thompson Virginia & Adloff, Richard : D Jibouti & the Horn of Africa (Stonford California 1968) PP. 12-15.

(٢٢) للمزيد من التفاصيل يرجع الى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية . (Ministre des ; Affaires Etrangeres. M.A.E. Vol. P.P. 217-219.

(٢٣) Thompson, Virginia & Adolff, Richard : Op. cit., P. 12.

(٢٤) Jœelson, F.S. : Italy & Dgebouti (East Africa and Rhodesia, vol. 15, No. 746 January 5, 1959 P. 509).

الحكومتين اجتماعا بهذا الشأن فى عدن فى يونيو ١٩٣٩ ، ثم عقد اجتماع ثانى فى جيبوتى فى يناير ١٩٤٠ للتنسيق بين خطط الدولتين فى مواجهة الاطماع الايطالية فى المنطقة .

وفيما يتعلق بالصومال البريطانى أحست بريطانيا بأن النشاط الايطالى فى البحر الاحمر منذ وصول الفاشست للحكم — يهدد مصالح بريطانيا الحيوية — وكانت لهجة الصحافة الايطالية فى عام ١٩٣٥ تنم عن روح العداء لبريطانيا ، وقد حذر موسولينى فى خطاب له من عمل انتقامى ضد بريطانيا اذا أغلقت قناة السويس فى وجه السفن الحربية الايطالية التى تنقل العتاد للمستعمرات الايطالية بشرق القارة — ولذا كان رد الفعل الطبيعى لبريطانيا رفع الكفاءة العسكرية لقواتها فى موانى الصومال وعدن وغيرها الى الدرجة القصوى واعداد الموانى البريطانية فى هذه الجهات لكل الاحتمالات المنتظرة .

هذا على أن الغزو الايطالى لاثيوبيا كانت له نتائج ايضا على الاوضاع فى وادى النيل — فقد اتجهت ايطاليا ضمن ما اتجهت اليه الى اشاعة روح العداء ضد انجلترا فى كل البلاد العربية وفى مقدمتها مصر — وهى مناطق لم تكن الاوضاع قدا ستقرت فيها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى رغم أهميتها الاستراتيجية .

ورغم أن المصريين كانوا متعاطفين مع الاثيوبيين فى نضالهم البطولى ضد الغزو الايطالى كما أنهم كانوا يدركون ان منابع النيل الازرق أكثر امانا وهى فى أيدى الاثيوبيين منها لو انتقلت الى أيدى الايطاليين — هذا بالاضافة الى العلاقات التقليدية الدينية بين الكنيستين المصرية والاثيوبية — لكن الدعاية الايطالية بلا شك ايقظت كوامن الحقد الدفين فى المصريين على الاستعمار البريطانى لبلادهم(٣٥) .

---

(٣٥) Beor. George, W. : The Coming of the Italian Ethcopian war (1967) PP. 352-358. & Schonfield. Hug. : Op. cit.. P. 81.

وكانت قد فشلت المحاولات المتعددة لتسوية قضية مصر والسودان بخصوص وضع انجلترا فى وادى النيل ــ منذ صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ــ لكن انجلترا بسبب الضغوط التى كانت تفرضها الاوضاع فى منطقة القرن الافريقى ضد اتجاه ايطاليا لغزو اثيوبيا كانت ميالة للوصول لتسوية مع مصر ــ كما أن الوطنيين المصريين من جانبهم كانوا يخشون اذا مانشبت حرب فى المنطقة أن تستنزف بريطانيا مصر بنفس الاسلوب الذى تم فى أثناء الحرب الاولى • كما كانوا بسبب الاوضاع الدولية المضطربة على استعداد لقبول مساعدة حربية بريطانية فى حالة ما اذا تعرضت حدود وادى النيل سواء فى مصر أو السودان لهجوم من ايطاليا أو غيرها •

ولعل هذا ما دعا حزب الوفد المصرى أن يعلن فى سبتمبر ١٩٣٥ أن مصر ترضى بالتعاون مع بريطانيا اذا كان الامر يتم بين ندين على قدم المساواة •

وكانت مطالب المصريين تنحصر فى :

١ ــ تشكيل وزارة مسئولية أمام برلمان شعبى •

٢ ــ ازالة أى مظهر للتدخل الاجنبى فى شئون مصر •

٣ ــ دخول مصر فى عصبة الامم باعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة •

وهكذا ادت الاحداث فى منطقة القرن الافريقى بالاضافة الى الاستعدادات الايطالية فى ليبيا على حدود مصر الغربية لتقارب وجهات النظر ، والتقاء الرغبة بين الطرفين للوصول لاتفاق ثابت •

وفى ١٣ فبراير ١٩٣٦ صدر مرسوم ملكى مصرى بتعيين هيئة رسمية لابرام معاهدة صداقة ومودة ومحالفة مع بريطانيا العظمى وكان على رأس هذه الهيئة مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد المصرى ، كما تألفت الهيئة البريطانية التى كان على رأسها السيرمايز لامبسون •

وانتهت الاجتماعات بالتوقيع فى ٢٦ اغسطس ١٩٣٦ بقاعة لوكارنو بوزارة الخارجية البريطانية على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمى ، وتبعها اتفاق مونترو بسويسرا سنة ١٩٣٧ الخــاص بالغاء الامتيازات الاجنبية فى مصر •

وبهذه المعاهدات مع انجلترا وحلفائها — دخلت مصر والسودان فى نطاق التمهيد للحرب العالمية الثانية ، ونطاق الحرب الثانية ومابعد ذلك دخل وادى النيل فى هذه التيارات العاتية بموجب ما فرضته المعاهــدة من وقوف مصر الى جانب حليفتها فى حروبها ضد اعدائها ، ودخلت مصر فى عصبة الامم باعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة(٢٦) •

التطورات فى منطقة القرن الافريقى فى الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٥ :

كان الغزو الايطالى لاثيوبيا — كما رأينا — بداية الهزات العنيفة التى اجتاحت منطقة القرن الافريقى ، بل التى أدت لانزلاق العــالم الى الحرب العالمية الثانية — كذلك كان اعلان ايطاليا الحرب ضد الحلفاء فى ١٠ يونية ١٩٤٠ — بمثابة الشرارة التى اشعلت النار فى منطقة القرن الافريقى وغيرها من المناطق الهامة التى كانت تحت سيطرة القــوات المتحاربــة •

وجاء اعلان ايطاليا هذا بعد أن حققت المانيا نصرا حاسما فى أوربا

---

(٢٦) نصت المادة السابعة من المعاهد على تعاون كل طرف من الطرفين فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها .

— انظر القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ الصــادر بمصر بالموافقــة على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمى .

— وانظر غربال ، محمد شفيق : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية (١٨٨٢/١٩٣٦) بحث فى العــلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال الى عقد معاهدة التحالف ص ٢٢٦ وما بعدها .

على جيوش الحلفاء ، واضافت الهدنة الفرنسية الالمانية التى عقدت بعد هزيمة فرنسا ودخـول الالمان باريس فى ١٦ يونية ١٩٤٠ مـزيدا من التعقيدات فى الموقف خاصة أن الجنرال ديجول (De Gaulle) رفض الاعتراف بحكومـة المارشال بنثيان (Marchal Petain) التى وقعت الهدنة مع المانيا واتخذت مدينة فيشى (Vichy) مقرا لها ، ووجـه ديجول من لندن فى ١٨ يونية سنة ١٩٤٠ نداء للفرنسيين فى فرنسا ذاتها وفى المستعمرات الفرنسية بالمقاومة ، وأعلن ديجول فى ندائه انه يأخذ على عاتقه مهمة حماية المستعمرات الفرنسية فى افريقيا والدفاع عنها .

وأدى هذا لارتباك صـفوف المسئولين الفرنسيين فى المستعمرات الفرنسية ــ وقد أسرعت حكومة فيشى بارسال الجنرال جرمان (Germain) لجيبوتى ليحل محل الجنرال ليجينلهوم (Legentilhomre) الذى هرب من المستعمرة الفرنسية وأعلن انضمامه الى قوات فرنسا الحرة ، وخلف جرمان كحاكم عام للمستعمرة الجنرال بيرنو اليتاس (Pierre Nouailhetas) ــ لكن انجلترا نجحت فى فرض حصار بحرى كامل على الفرنسيين التابعين لحكومة فيشى فى الصومال الفرنسى معتمدين على قوتهم فى عدن(٢٧) .

وبذل الفرنسيون الاحرار جهدا كبيرا لحث الحاميـة الفرنسية فى جيبوتى لاعلان ولاءها لقوات فرنسا الحرة ، كما حث القائد البريطانى الجنرال ويفل (Wavell) الانجليزى الحاكم الفرنسى فى جيبوتى ليعلن ولاءه للجنرال ديجول ليمكن رفع الحصار عن المستعمرات الفرنسـية وتزويدها بحاجتها لكن ظل نواليتاس (Nouail hetas) اكثر من عامين مواليا لحكومة فيشى وبذا حال دون انضمام ما يقرب من ٨٫٠٠٠ جندى فرنسى مرابطين فى جيبوتى ــ لقوات ديجول ــ وفى عام ١٩٤٢ عينت حكومة فيشى ديمونت (Dupont) حاكما للصومال الفرنسى خلفا لنواليتاس (Naulihetas) واضطر الحاكم الجديد لان يستسلم لقوات الحلفاء فى ٢٦ ديسمبر ١٩٤٢ .

---

(٢٧) Thompson, Virginia & Adolff Richard : Op. Cit., P. P. 17-18

وقد تعاقب منذ ذلك الوقت على لمستعمرة الفرنسية عدد من الحكام الفرنسيين الموالين لحكومة فرنسا الحرة ، لكن أدى التغيير المستمر للحكام لعدم الاستقرار السياسى فى المستعمرة .

على انه بحلول عام ١٩٤٥ بدأت الامور فى المستعمرة تستقر واخذت تستعيد الكثير من ملامحها قبل الحرب(٢٨) .

على أن اعلان ايطاليا الحرب على الحلفاء كان مؤشرا لان تبـدأ هجماتهم على القوات الايطالية فى شرق افريقيا ، ففى يناير ١٩٤٤ بدأت انجلترا هجومها على الجيش الايطالى بمنطقة القرن الافريقى ، وأبدى الاسطول البريطانى نشاطا مضاعفا فى البحر الاحمر والمحيط الهندى .

واضطرت ايطاليا لاخلاء مدينة كسلا (Kassala) السودانية اتى كانت قد استولت عليها وذلك لتركيز قواتها للدفاع عن امبراطوريتها بشرق القارة — وزحفت القوات الانجليزية على القوات الايطالية من عـدة جهـات .

فزحفت قوات الجنرال بلات Plate صوب أسمرة Asmara عاصمة ارتريا وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على مصوع Massawa فأصبح البحر الاحمر تقريبا خالصا للحلفاء .

كمـا كلف الجنرال كمنجهـام Cunnigham قائد القـوات البريطانية فى كينيا بالاستيلاء على قسمايو Kesmayu الميناء الهام على المحيط الهندى حتى يمكن ان تعتمد عليه البحرية البريطانية لتموين الحملات الحربية ضد ايطاليا فى منطقة القرن الافـريقى . وسقطت موجاديشيو Mogadishu فى يد القوات الانجليزية فى ٢٥ فبراير ١٩٤١ وبذا قطع خط التموين الرئيسى الطويل للقوات الايطالية الـذى كان يمتد من هذا الميناء للداخل فى اتجاه أديس ابابا العاصمة الاثيوبية .

---

(٢٨) Ibid., P.P. 20-21.

وفى نفس الوقت كانت القوات الاثيوبية اللاجئة للسودان تساندها القوات الهندية التابعة للكومنولث البريطانى وبعض الفرق الاسترالية وغيرها تحت قيادة الجنرال ونجت Wingate تزحف لتحرير اثيوبيا فاجتاحت مقاطعـــة جـــوجام Gojam واســـتولت على دبرا ماركوس Debra Markis عاصمة الاقليم واضطرت القوات الايطالية فى اكثر من موقع للاستسلام ، وعبرت القوات الزاحفة النيل الازرق متوجهة صوب أديس ابابا العاصـــمة التى تم تحـــريرها فى ٦ ابريـــل ١٩٤١(٢٩) •

وتوالى استسلام القوات الايطالية للقوات البريطانيـــة والقوات المتحالفة معها حتى آخر نوفمبر ١٩٤١ عندما سقطت آخر معاقل الايطاليين بشرق أفريقيا •

وبعد هزيمة الايطاليين بدأت تظهر مشكلة الحدود بين دول القـــرن الافريقى — وهى مشـــكلة مازالت الى اليـــوم تثير خـــلافات بين دول المنطقة(٣٠) •

وفيما يتعلق باثيوبيا فبعد أن استعادت حريتها عقدت فى ينايـــر ١٩٤٢ اتفاقية مع انجلترا بشأن الحدود الاثيوبية ووافقت اثيوبيا على ان تبقى بصفة مؤقتة الادارة العسكرية البريطانية فى أوجادين Ogaden وفى الهود ، وكذلك فى منطقة الخط الحديدى الحيوى الذى يربط اثيوبيا بالصومال الفرنسى وذلك لتيسير حـــركة جنود الحلفاء ولدرء أى خطـــر قد يأتى من جهة جيبوتى التى كانت لاتزال تحت حكم حكومة فيشى •

---

(٢٩) Ghabod, Frederico. : A history of Italian F oscism (Translated by weidenfeld and Nicolson) London 1963 P.P. 156-162.

(٣٠) للدراســـة المستفيضة للمعـــارك الحربية بين قـــوات الحلفاء والقوات الايطالية فى منطقة القرن الافريقى يرجع الى

Steer, George : The Abyssin ian Compaigins (London 1942).

وفى عام ١٩٤٥ عقد بين انجلترا واثيوبيا اتفاق جديد عادت بموجبه ادارة سكة الحديد الاثيوبية بعد حرب الصومال لوضعها السابق لكن رغم الاعتراف بسيادة اثيوبيا على اقليم اوجادين والهود فقد اتفق على بقاء الادارة العسكرية البريطانية(٣١) •

على أن مشكلة الحدود بين الصومال وجيرانه بقيت ، لم تحل ، ومازالت هذه المشكلة لليوم من أسباب الاضطراب فى منطقة القرن الافريقى •

لم تكن هذه هى المشكلة الوحيدة التى واجهتها دول المنطقة بعد الحرب، فقد واجهت الزراعة مشكلة قلة الايدى العاملة ، فقد فر معظم الفلاحين الايطاليين الى المدن ، ولم تكن هناك أيد عاملة وطنية مدربة لتحل محلهم — فكان على الادارة العسكرية البريطانية أن تقدم القروض والمساعدات الاخرى كالآلات لتشجيع الفلاحين الايطاليين للعودة لإراضيهم • ومن المشكلات الاخرى التى برزت فيما بعد مشكلة ايجاد ادارة حازمة ، وفى نفس الوقت تطمئن اليها دول الحلفاء — وقد اضطرت الظروف للاستعانة بعدد من الاداريين السابقين الايطاليين والخبراء ممن لم يظهروا أية ميول واتجاهات فاشستية •

اما قوات الامن الايطالية فقد استلزم الامر تغييرها لقوات الجندرمة الوطنية التى وضعت تحت قيادات بريطانية •

وقد حدث تعديل فى التقسيم الادارى السابق ، كما شجعت الزعامات القبلية والمحلية لتساير الادارة الجديدة وتسهم معها ، وأوجدت مجالس محلية للاشتراك فى بحث المشكلات الملحة واقتراح الحلول لها ، كما أتخذت خطوات لتعويض التخلف الكبير فى التعليم • وكانت هناك بعض المدارس التى تعمل تحت اشراف الارساليات الايطالية تدعمت لتقوم برسالتها ، كما فتحت مدارس ابتدائية جديدة وصل عددها فى عام ١٩٤٤ ١٩ مدرسة

---

(٣١) Lewis : Op. Cit., P. 118-120.

جديدة بالاضافة الى المدارس الخاصة ومراكز اعداد المدرسين اللازمين لهذه المدارس .

وبالاضافة الى الاهمال الذى شمل المناطق التى خضعت للاستعمار الايطالى خاصة فى العهد الفاشستى ــ فان منطقة القرن الافريقى أصابها الكثير من التدمير والتخريب ــ بسبب الحرب • وبسبب الظروف التى فرضتها الحرب فان المشلات الملحة لم تجـد حلولا سريعة بعد الحرب •

اثر الغزو الايطالى لاثيوبيا فى اذكاء الحركة الوطنية فى منطقة القـرن الافريقى :

ادت الحرب العالمية الاولى والاحتكاك بين الافارقة وغيرهم مـن الشعوب ، وما عانتهالدول الافريقية من جراء الحرب بالاضافة الى الوعود **التى قدمها الحلفاء اثناء الحرب** للشعوب المستعمرة الى اذكاء الحركات **الوطنية •**

وكانت منطقة القرن الافريقى بموقعها الاستراتيجى الهام وباعتبارها من أهم مداخل القارة الافريقية ونقطة احتكاك وحركة فى مقدمة المناطق التى شهدت بعد الحرب الاولى انتعاش الحركات الوطنية بها •

وقد بدأت هذه الحركات الوطنية فى مختلف المناطق فى صورة يقظة ووعى قومى واحساس بالحقوق • وتمثلت فى شكل اجتماعات لبعض الشباب الذى حظى بقدر من الثقافة • وقد شعرت السلطات الايطالية فى ارتريا والصومال الايطالى بالذات ــ وبحظر هذه الحركات • ولم تغب عن الاذهان الدور الذى لعبه من قبل البطل الصومالى محمد بن عبد الله حسن الذى توفى فى شهر فبراير ١٩٢١ لكن ذكراه ظلت ماثلة فى الاذهان، وظلت أشعاره العربية تتردد فى أغانى الفولكلور الصومالى(٣٢) •

(٣٢) Collins, R.C. : African History P.P. 330-333.

على أن الامر لم يقتصر على الصومال الايطالى ففى موانى بربره ، وبلهار وغيرهما فى الصومال البريطانى كان النشاط التجارى من أسباب الاحتكاك الفكرى •

على أن أحداث الغزو الايطالى لاثيوبيا والسياسة التى اتبعها الفاشست والمبادىء العنصرية التى نادوا بها كانت لها آثارها العميقة فى المنطقة كلها — هذا بالاضافة الى أن موقف عصبة الامم العاجز من المحنة التى تعرض لها الشعب الاثيوبى كانت لها أيضا آثارها فى ايقاظ الشعور القومى فى المنطقة التى كانت أقرب للاحداث من غيرها من مناطق العالم •

وتميزت الحركة الوطنية فى الصومال عام ١٩٣٥ بظهور الجمعية الوطنية الصومالية (Somali, National Society) — واخذت الحركة تتبلور فى شكل برنامج قومى يهدف لتوحيد الصومال وتحقق الوحدة بين أقطاره •

وفى عام ١٩٣٧ ظهرت حركة Somali Official Union) ورغم أن اهدافها المعلنة كانت تحسين اوضاع الصوماليين ومعارضة الاتجاه الى استيراد الفنيين لشغل الوظائف وادارة المشروعات بدلا من ابناء الصومال انفسهم — فان الحركة تطورت الى حركة وطنية كاملة خاصة أن عددا كبيرا من أبناء الصومال ساهموا فى بناء الطرق والمطارات وشكلت منهم وحدات مقاتلة لعبت دورا هاما فى المعارك سواء مع هذا الطرف أو ذاك •

فقد قدر مثلا عدد العاملين بالجيش البريطانى فى شرق افريقيا فى عام ١٩٤٥ — بما لايقل عن٣٧٤٫٠٠٠ منهم على الاقل ٦٠٪ من أبناء شرق افريقيا(٣٣) •

ولذلك لم يكن غريبا أن يتطلع الوطنيون الى تحقيق ماناذى به الحلفاء

---

(٣٣) حسب احصائيات مكتب الحرب البريطانى .

فى عام ١٩٤١ فى ميثاق الاطلنطى من حق كل الامم فى حكم نفسها بنفسها وفى الاستقلال •

ولم تكد تظهر بوادر انقشاع ليل النظام الفاشستى فى منطقة القرن الافريقى حتى أخذ الوطنيون فى المناطق التى ابتليت بسيطرة هذا النظام لفترة ما — ينظمون انفسهم فى جماعات وطنية •

ففى ١٣ مايو ١٩٤٣ ظهر فى موجادشيو نادى شباب الصومال (The Somalia Youth Club) وبرز من اعضائه عبد القادر شيحاوى، وكذلك يس حاج عثمان ، الحاج محمد حسين — وتحول هذا النادى رسميا فيما بعد الى حزب سياسى له برنامج محدد ولم تعترض السلطات البريطانية على نشاطه ، وقد حدد اهدافه فيما يلى[٣٤] :

١ — تحرير الصومال وتصفية الاستعمار •

٢ — اتحاد اجزاء الصومال تحت راية واحدة •

٣ — محاربة عوامل التفرقة والتعصب القبلى •

٤ رفع مستوى التعليم ونشر الافكار الوطنية •

وأصبحت للحزب فروع فى الاقاليم ، وانضم اليه العديد من الصوماليين من مختلف الفئات والاعمار قدر عددهم فى عام ١٩٤٥ بـ ٢٥٠٠٠ شخص ، واستطاع الحزب أن يبلور أهدافه فى ضوء وضوح فكرة القومية وفى العمل على تحقيق تقدم فى مختلف الاتجاهات •

وفى عام ١٩٤٧ غير الحزب اسمه الى « عصبة شباب الصومال » (Somali Youth Leaque) واصبحت له فروع فى صوماليا واوجادين ، والهود والصومال البريطانى ، وحتى فى كينيا — وحدد أهدافه فى :

---

(٣٤) Lewis, I.M. : Op. cit., P. 121.

١ — توحيد كل الصوماليين .

٢ — نشر الثقافة بين الشباب الصومالى .

٣ — توحيد ونشر اللغة الصومالية .

٤ — وضع حد لما يعوق وحدة الشعب الصومالى وتحقيق أهدافه .

وظل هذا الحزب يناضل الى أن قررت هيئة الامم المتحدة فى ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ منح الاستقلال والسيادة القومية للاقليم الذى عرف سابقا بالصومال الايطالى على أن يصبح ذلك الاستقلال نافذا بعد مضى عشر سنوات من تاريخ موافقة الجمعية العامة على شروط اتفاقية الوصاية ، وخلال هذه الفترة يوضع الاقليم تحت الوصاية الدولية وتتولى ايطاليا أدارة شئون الاقليم يعاونها مجلس استشارى من ممثلى كولومبيا ومصر ، والفلبين(٣٥) .

وفى ٢٦ يونية ١٩٦٠ أعلن استقلال الصومال البريطانى ، وفى أول يولية ١٩٦٠ تقرر إعلان استقلال الصومال الجنوبى — واعقب ذلك اتحاد الصومال الشمالى والجنوبى وقيام الجمهورية الصومالية .

وفيما يتعلق بالصومال الفرنسي بدأ النشاط السياسى فى هذه الحقبة بتأسيس النادى العربى فى جيبوتى فى اغسطس ١٩٣٥ ، وكان اهتمام النادى بالشئون السياسية تحت قناع الاهتمام بالرياضة — وقد اثار نشاط النادى شكوك السلطات الفرنسية ، لذا كان رئيس النادى السيد/ عبد الكريم دورانى وأعضائه تحت رقابة السلطات الفرنسية .

وفى عام ١٩٤٥ تأسس أول مجلس نيابى فى الصومال الفرنسى من عشرين عضوا نصفهم من الفرنسيين ونصفهم من الوطنيين لكن تشكيل هذا المجلس كان على اساس طائفى ، ولذا فقد أدى ذلك الى توسيع

(٣٥) انظر قرارات الدورتين الثالثة والرابعة لهيئة الأمم المتحدة .

الهــوة بين العفار Afars والعيسى Issas واعتبارهما كيانين مستقلين بدلا من تقريب الفجوة بينهما ، وكان للصومال الفرنسى مندوب يمثله فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى باريس(٣٦) •

على ان الاحداث التى احاطت بالمنطقة والصراع بين حكومتى فيشى وفرنسا الحرة أدى لبروز الحركة خاصة بين نقابة عمال ميناء جيبوتى ، وكان على رأس هذه النقابة شخصية صومالية وطنية وقوية هى شخصية محمود حربى(٣٧) •

وقد تطــور النظام النيابى فى الصــومال الفرنسى بعد ذلك تبعــا للتطورات التى حدثت فى العــلاقات الفرنسية الأفريقيــة والدســاتير المختلفة التى أصدرتها فرنسا لمستعمراتها •

وقد رأينا الروابط والمصالح المشتركة التى ربطت بين الايطاليين فى أثيوبيا والساطات فى ميناء جيبوتى بالذات •

وقد أجرت فرنسا استفتاء فى الصومال الفرنسى فى ١٩ مارس ١٩٦٧ وأعلنت عقب الاستفتاء أن ٦ر٦٠٪ من النــاخبين المسجلين صوتوا فى صالح استمرار السيطرة الفرنسية على الاقليم(٣٨) •

وأعقب ذلك فى مــايو ١٩٦٧ تغيير اســم الاقليم الفرنسى للعفــار والعيسى(٣٩) •

وقد أغربت فرنسا على لسان الرئيس بومبيدو Pompidou

(٣٦) Somali Denocratic Repuplic, The Somali Coast & French Colonial Dominatin P. 4.

(٣٧) Somal. Democratic Republic : Op. cit., P. 14.

(٣٨) Legum, Colin : Africa Contemporary, Records (Annual Survey Docments 1968-69) P. 26.

(٣٩) United Nations, General Assnly Offical Records Addelend-in to Agenda. Item 23, Annexes - wenty Third sesion document No A (1200-Rev.) P. 252.

عن أن الوجـــود الفرنسى فى القرن الافريقى يسهم فى استقرار المنطقة ويســـاعد على نزع الفتيل من الموقف المتفجر بين جمهورية الصـــومال وأثيوبيا — بالاضافة الى ايجـــاد التوزان بين الوجـــود السوفيتى فى المنطقة وتحقيق حرية الملاحة فى البحر الاحمر ومضيق باب المندب(٤٠) •

ومنذ قيام جمهورية الصومال وهى تطالب الأمم المتحدة ببحث الموقف فى الصـــومال الفرنسى •

واذا كانت العلاقات بين جمهورية الصومال — والصـــومال الفرنسى قد تحسنت فى عام ١٩٦٩ حتى أن جمهورية الصـــومال افتتحت لهـــا قنصلية فى جيبوتى — فان هذا التقارب أثار المشـــكلات مع الحكومـــة الاثيوبية التى تربطها بالصومال الفرنسى مصالح حيوية •

على أن الأمور لم تستقر على ذلك ، فاضطرت فرنسا تحت ضغط الحركة الوطنية والمنظمات الدولية لمنح شعب الاقليم الفرنسى للعفـــار والعيسى **الاستقلال وحـــق تقرير المصير** — وأعلن استقلال الاقليم فى ٢٧ يونية ١٩٧٧(٤١) •

هذه هى الأحداث المرتبطة بالحرب الايطالية الاثيوبية وانعكاســـاتها على منطقة القرن الافريقى •

والملاحظ أنه رغم أن الأمـــر انتهى باستقلال أقاليم المنطقـــة التى كانت من قبل تحت نفوذ الدول الاستعمارية — انجاترا ، فرنسا ، وايطاليا لكن انحسار نفوذ هذه الدول واعلان استقلال شعوب المنطقة لم يضـــع حدا للمشكلات والاضطرابات التى كانت تعانى منها المنطقة •

---

(٤٠) Const antin, Francois : Territoire Francis des, Afars et des Issas (Cintre d'Etude D'Arique Noire de Bordeux aunee Africaine 1975-Paris 1976) P. 381.

(٤١) لمن يريد تفصيل عن الظروف التى ادت لاستقلال الأقليم يرجع الـــى :

Le Gum, Colin : African Contemporery Records (Annual Survey & Documents 1976-1977) London 1977.

فلا زالت مشكلات الحدود بين جمهورية الصومال وأثيوبيا وكينيا ، وتطلع الصومال لتحقيق الوحدة بضم كل الاقاليم التى يعتبرها من أرض الصومال — وتدخل الدول الكبرى فى شئون هذه المنطقة مستمرة على ما تتيحه هذه الخلافات من فرص للتدخل .

كل هذا يجعل المنطقة بموقعها الاستراتيجى الهام منطقة صراع جديد لايمكن تلافى نتائجه الا اذا استطاعت الدول الافريقية نفسها حل مشاكلها فيما بينها بحيث تقفل بذلك الباب أمام التدخل الخارجى فى شئون القارة الأفريقية .

على أن اليقظة القومية التى كان الغزو الايطالى لأثيوبيا أحد العوامل القوية فى اذكائها كانت من نتائجها غير المباشرة الحركات الشعبية التالية والثورات ضد نظم الحكم الرجعية متمثلة فى أحداث الصومال وأثيوبيا المعاصرة .

بريطانيـــا
ومشكلات الحدود فى القرن الافريقى

د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهـرة

من اكبر المشكلات تعقيدا فى القارة الافريقية مشكلة الحدود التى خلقها الاستعمار الأوروبى أثناء تكالبه على تلك القارة فى القرن التاسع عشر • وقضية الحدود فى القرن الافريقى لا تزال تشغل بال كافة المحافل الافريقية ، بل كانت من أوائل المشاكل التى وضعت أمام منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ • ولا تزال هذه المشــكلة تشكل حجر الزاوية فى سياسات دول القرن الافريقى لقد جعلت هذه المشــكلة من قرن افريقيا أكثر المناطق بلقنة بعد ان كان وحدة متجانسة فى عاداته وتقاليده على مر العصور • وكانت قبائل هذا القرن تسعى وراء العشب فى كــل مكان وتتبع الامطار والخضرة دون عائق أو معوقات — حتى جاء الاستعمار الأوربى واجتاح المنطقة فى أكبر عملية تكالب شهدتها قارة بأسرها • وترك الاستعمار هذه المنطقة بعد ان قام بتشريحها وتقسيمها الى وحدات متمزقة يصعب تحقيق الانســجام بينهما • ذلك لان شعوب المنطقــة بعد أن كانت متجانسة صارت موزعة بين أكثر من وحدة سياسية ، وقد أدت هذه المشــكلة الى دخول القــرن الافريقى فى اعتبارات توازن القوى بين الدول العظمى •

واذا كانت مشكلة الحدود هى ميراث التكالب الاستعمارى بعد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤/١٨٨٥ فانه من الجدير بالذكر ان نحدد كيف بدأت المشكلة ، وما هو دور القوى الاوربية المختلفة فى خلقها • وكيف استطاعت بريطانيا بالذات ان تلعب دورا مشتركا بين كافة القــوى الدولية والمحلية حتى وصلت المشكلة الى وضعها الحالى •

هذه المشكلة ومواقفها المختلفة تجاه القوى الاوربية . ثم موقفها من دول القرن مثل اثيوبيا والصومال وغيرها من دول وشعوب المنطقة .

التوسع البريطانى فى القرن الافريقى :

بعد أن استولت بريطانيا على عدن فى عام ١٨٣٩ ، اتخذتها قاعدة امامية وبعد افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، صار البحر الأحمر أهم شريان للمواصلات البحرية خاصة بعد اكتشاف البخار واستخدامه فى المواصلات البحرية ، وتطلعت بريطانيا الى الساحل الصومالى لتأمين مدخل البحر الأحمـــر الجنوبى (باب المندب) وساعد بريطانيا على فرض سيادتها على تلك المنطقـــة أنها بدأت تتوسع فى شرق افريقيا واصطدمت مصالحها هناك مع المصالح المصرية التى كانت قد وصلت بالفعل الى القرن الافريقى حيث امتدت التوسعات المصرية الى زيلع والى نهر جوبا ، والى رأس حافون ، فضلا عن سيطرتها على قسايو (١) .

لكن اضطرت مصر الى سحب قواتها من مناطق الصومال الجنوبية وتجمعت فى رأس حافون ، وجرت مفاوضات بين مصر وبريطانيا فيما يختص بسلطان مصر وسيادتها على سواحل الصومال ، واضطرت مصر الى عقد اتفاق فى ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ مع انجلترا التى اعترفت بالسيادة المصرية على ساحل الصومال حتى رأس حافون الواقعة على بعد ٢٠٠ ميل جنوب رأس جردفون ، كما اقرت بريطانيا بسلطة الحكومة المصرية على اراضى سواحل الصـــومال عـــلى ان تبقى بلهار وميناء بربـــرة موانى حـــرة (٢) .

ولما كان تنفيذ هذه المعاهدة يتوقف على تقديم الباب العالى تعهدا

---

(١) انظر خريطة شكل رقم (١)

(٢) Hertslet, M. : Map of Africa by Treaty Vol. 11 (London 1906 P. 615.

بعدم اعطاء اية دولة من الدول الأجنبية أى قطعة من سواحل الصومال ، ولما لم يقدم الباب العالى التعهد المطلوب فقد اعتبرت الحكومة البريطانية المعاهدة غير القائمة(١) .

وكان لسقوط مصر فى قبضة الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ أثره العكسى علـى التنافس الاوربى فى القرن الافريقى خاصـة بعد أن نقل الباب العالى مسئولية ادارة ممتلكاته على السواحل الافريقية الى الحكومة المصرية ، وبدأت بريطانيا تفـكر جديا فى اخلاء القوات المصرية من هذه الجهات وأخذ الميجور هنتر (F. Huntlr) التابـع لفرقة أركـان بومباى والمقيم السياسى فى عدن يفكر فى تنفيذ عملية اخلاء القـوات المصرية . واضطرت مصر الى سحب قواتها من هذه المناطق بعد ازدياد حـدة التدخل الاجنبى ، وضغطه على خديوى مصر بسبب الازمة المالية الى الاذعان للمطالب البريطانية ، وقررت فى يولية ١٨٨٤ التخلى عن السودان فصدرت الأوامر بالجلاء عن كسلا وسنهيت وأماديبه .

ولم تكتف بريطانيا بالتدخل فى شئون السواحل المصرية بدعوى مقاومة تجارة الرقيق ، بل لعبت السياسة الانجليزية دورا ملتويا لتحقيق اطماعها ، فتارة تجبر مصر على اخلاء اقاليم من ممتلكاتها بحجة الارهاق المـالى الذى يسببه احتلال هذه الاقاليم للخزانة المصرية ، وتارة أخرى تتذرع باسم حق مصر الشرعى لتقصى دولة أخرى منافسة لها ، ومرة ثالثة تسـلم املاك مصر لدولة حليفة أو أقل خطرا حتى تحين الفرصة لتضع يدها عليها(٢) .

وترتب على هذا الانسحاب الاجبارى للقوات المصرية وجود فراغ ضخم فاعتبر الاوربيون هذه المناطق ارضا لا صاحب لها (Res Nullius) وحاولت الدول الزحف على تلك الاراضى لكن انجلترا كان يحدوها الامل

---

(١) شكرى ، محمد فؤاد : مصر والسودان فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٦٣) ص ٣٦٨ .

(٢) د . الجمل شوقى : سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٧٤) ص ٢٤٥ .

فى منع هذا الزحف حتى تكون الوريثة الوحيدة عندما تحين لها الفرصة لتحقيق ذلك ، وقد بنت سياستها على مقاومة كل من يعترض طريقها لاتمام مشروع تأسيس امبراطورية من البحر المتوسط الى رأس الرجاء الصالح .

ترتب أيضا على هذا الانسحاب صراع محموم بين القوى الأوربية وأخذت بريطانيا تمارس دورها فى عمليات التقسيم والتجزئة ، ورسم الحدود فى هذه المنطقة من القارة الافريقية ، وقد ظهرت اثار هذه السياسة البريطانية بوضوح فى الوقت الحاضر حيث تعانى شعوب المنطقة من مشكلات الحدود التى كانت لبريطانيا اليد الطولى فى زرع بذورها وسوف نحاول فى هذا البحث التركيز حول ذلك الدور البريطانى وابرز المعاهدات الدولية التى شاركت بريطانيا فى صنعها والتى كانت سببا فى وصول مشكلة الحدود الى وضعها الحالى وسنستند فى تلك الدراسة على الوثائق التى عالجت هذه المشكلات .

فالبرغم من الاتفاقية المصرية الانجليزية لعام ١٨٧٧ قامت وزارة الخارجية البريطانية بتقسيم الساحل الصومالى الى قسمين ، القسم الأول يمتد من باب المندب الى زيلع ، والقسم الثانى يمتد شرق زيلع ويضم بلهار وبربره . واخطرت بريطانيا الباب العالى بانها سوف تحافظ على مصالحها شرق زيلع وخاصة فى بربره (١) .

وبدأت بريطانيا أحكام سيطرتها على بعض مناطق القرن الافريقى عندما عقدت عام ١٨٨٤ عدة اتفاقات مع رؤساء القبائل الصومالية ، والتى نصت فى مضمونها على حماية القبائل مقابل بعض الامتيازات والتزام الرؤساء بعدم التنازل لأى دولة عن أى قطعة من اراضيهم (٢) . كما نجح الميجور هنتر فى نفس العام فى عقد معاهدة مع

---

(١) امال توفيق ابراهيم : مشكلة الحدود فى القرن الافريقى (رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الافريقية ١٩٧٧) ص ٨٧

(٢) Puplic Record Office (Vol. 1-22) Rodd to Salisbury No. 20, May 31. 1897.

قبيلة حبر أول ، تعهد شيخ القبيلة بعدم التنازل عن أرضه لأى دولة عدا بريطانيا(١) .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٨٨٤ قام الملازم كنجيل (Kingceel) نائب القنصل البريطانى فى زيلع باحتلال جزر موسى وأباض المتحكمين فى مدخل قبة الخراب ورفع العلم البريطانى عليهما ، وفى ٣١ ديسمبر من نفس العام عقد هنتر معاهدة مع قبيلة العيسى بخصوص الأراضى التى تمتد من زيلع حتى هرر(٢) .

وفى نفس العام احتلت انجلترا بربره ورفضت أى تدخل من جانب الدولة العثمانية وفى هذا الجزء من الساحل والممتد من بربرة وزيلع شرقا واجبرت مصر على اخلاء هذا الجزء من ساحل افريقيا واتخذته قاعدة لاقامة مستعمرة الصومال البريطانى . واضطرت فى ٢٠ يولية ١٨٨٧ الى اعلان الحماية على الصومال نظرا للمنافسة القوية بينها وبين الدول الأوربية الأخرى ، وأبلغت بريطانيا نصوص هذه الحماية الى الدول الاوربية الموقعة على برتوكول مؤتمر برلين لعام ١٨٨٥/٨٤ ، وجاء فى هذا التبليغ ان منطقة الساحل الصومالى ابتداء من رأس جيبوتى حتى بندر زياده عند خط طول ٤٩° شرقى جرينتش قد وضع تحت الحماية البريطانية ، واسندت ادارتها الى حكومة الهند عبر عدن وبمباى (٣) .

وبدأت بريطانيا بعد ذلك توسع مجال نفوذها فى المنطقة ولهذا الغرض اوفدت الميجور هنتر الى بلاد الصومال لتوقيع المزيد من المعاهدات مع رؤساء وزعماء القبائل ، ومن الأمور التى تدعو الى العجب

---

(١) Aitchison, C.U. : A Collection of Treaties, (India 1892) Vol. XI, PP. 201-202.

(٢) سالم حمدى السيد : الصومال قديما وحديثا — الجزء الثانى ص ص ٧١ — ٧٢

(٣) Hertslet, M. ; Op. Cit., : Vol. 11 P. 410.
وايضا شكرى : مرجع سابق ص ٤٠٠

ان مثل هذه الاجراءات كانت تتم والادارة المصرية لم تنسحب بعد من بلاد الصومال كما استمرت الحكومة المصرية فى دفع اتاوة زيلع ومصوع الباب العالى رغم احتلال بريطانيا لهما(١) .

أجبرت بريطانيا مصر على اخلاء هرر عام ١٨٨٥ ووافقت على ارجاعها الى سلالة الامراء السابقين ، وفى ٢٥ ابريل من نفس العام تولى عبد الله بن عبد الشكور حكم هرر لكنه لم يستطع الدفاع عنها عندما تقدم الامبراطور منليك امبراطور اثيوبيا لاحتلالها ونجح فعلا فى السيطرة عليها عام ١٨٨٧ بعد التحام قواته مع قوات الأمير عبد الله ، ولم تتحرك بريطانيا نحو اتخاذ أية خطوة أمام الزحف الاثيوبى الى هرر رغم ابرام بريطانيا معاهدة مع فرنسا تقضى باستقلال هرر(٢) .

ولا تزال هرر منذ ذلك التاريخ فى أيدى اثيوبيا حتى يومنا هذا ، ويدل ذلك على أن بريطانيا منذ البداية قد وافقت على اعطاء هذه المنطقة الى اثيوبيا ، ولم تحرك ساكنا اثناء صراع الأمير مع القوات الاثيوبية ، وتركته فريسة لهذه القوة الاثيوبية البالغ عددها عشرين ألف مقاتل(٣) .

وكانت بريطانيا تهتم اساسا بانسحاب القوات المصرية من هذه البلاد بعد قيام الثورة المهدية عام ١٨٨١ . وخوفا من تشديد الهجمات المهدية على الحاميات المصرية فى السودان الشرقى فقد أوفدت بريطانيا وليم هويت (W. Hewett) بهدف ابرام اتفاقية مع اثيوبيا لتسهيل عملية انسحاب القوات المصرية الموجودة بشرق السودان قرب الحدود

---

(١) محمد المهتصم : مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار (بدون) ص ٢٧ .

(٢) جامع ، عمر عيسى : تاريخ الصومال فى العصور الوسطى والحديثة (القاهرة ١٩٦٥) ص٨٤ وأيضا سالم : مرجع سابق ، ج٢ ص٧٥

(٣) الصياد ، محمد محمود (دكتور) : السودان والحبشة مقال بالمجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع العدد الاول مايو ١٩٥١ . ص ٢٣٩ .

الأثيوبية وعقدت بالفعل معاهدة عدوه فى ٣ يونية ١٨٨٤ ونصت فى مادتها الثانية على تنازل مصر الى نجاشى الحبشة عن البلاد المعروفة باسم البوغــوص (Bogos) على ان يتعهد نجاشى الحبشة بتسهيل مهمة انسحاب القوات المصرية فى كسلا وسنهيت ، وقد تسلم الاثيوبييون فعلا مقاطعة البوغوص فى ١٢ سبتمبر ١٨٨٤ (١) •

وهكذا نجد ان بريطانيا بهذه المعاهدة قد نجحت فى تدعيم علاقتها مع يوحنا ملك الحبشة على حســاب مصر ، وكانت تقوية سلطة هــذا الملك ــ الذى يدين بعرشة لانجلترا جزءا من السياسة البريطانية امام ازدياد خطر الثورة المهدية واحتمال وصولها الى شواطىء البحر الأحمر حتى تحتفظ بتوازن القــوى لمصلحتها فى هــذا الجزء الهــام من افريقيا (٢) •

ومن الأمور الغريبة ان بريطانيا سمحت فى فبراير ١٨٨٥ لايطاليا باحتلال مصوع قبل مرور عام على توقيع هذه المعــاهدة ولم تــلق بالاصيحات الامبراطور يوحنا ، واحتجاجه على هذا الاجراء (٣) •

وهكذا أخذت السياسة البريطانية فى القرن الافريقى تسير وفق أسس تهدف الى المحافظة على مصالحها الخاصة ، وتدعم قوى حلفائها على حســاب القوى الأخرى ، وكان لهذه السياسة صداها فى ادخال التعديلات من حين لآخر على الحدود فى القرن الافريقى ، وهذا مما ساعد على زيادة المشكلات تعقيدا وادخلتها فى طرق مسدودة عجز الحــكومات الوطنية بعد استقلالها عن التوصل الى حلول لهذا الميراث الاستعمارى المعقد شكلا وموضوعا •

---

(١) انظر نص المعاهدة فى
Herlslet, M. : Op. Cit., Vol. 11 P. 422.

(٢) يحى ، جلال (دكتور) : سواحل البحر الاحمر (القاهرة ١٩٦٠) ص ٦٦ •

(٣) الجمل ، شوقى (دكتور) : دور مصر فى افريقيا (القــاهرة ١٩٨٤) ص ٧٧ •

وسوف نحاول تحديد هذه السياسة البريطانية مع القوى الأخرى التى نافستها فى هذا المضمار ونعنى بذلك كل من فرنسا وايطاليا حتى تكتمل صورة هذا المخطط الاستعمارى تجاه مشكلات الحدود فى القرن الافـــريقى •

أولا التنافس البريطانى الفرنسى وأثره على الحدود :

تطلعت كل من انجلترا وفرنسا الى ممتلكات مصر فى شرق افريقيا والبحر الأحمر ، وانتقلت الأضواء الى هذه المناطق بعد استكمال ايطاليا وحدتها وسعيها هى الأخرى للحصول على مستعمرات ومناطق النفوذ لها فى افريقيا وقد الهب هذا الحماس والتكالب على القرن الافريقى ، الصراع بين هذه القوى ، وأسرعت فرنسا الى المنطقة وسيطرت على ميناء اوبوك (Obok) عام ١٨٦٢ ، هذا بالاضافة الى الســـهل الممتد من رأس على فى الجنوب حتى رأس دميره فى الشمال (١) •

وفى مارس ١٨٨٥ أبرمت معاهدة مع بعض زعماء الصومال تعهدوا فيها بوضع أراضيهم تحت حماية فرنسا ، كما تفاوضت فرنسا مع أحمد ابن محمد سلطان تاجوره • وتم تالفعل ضمه الى المتلكات الفرنسية • الفرنســـية •

ونجح المستعمر الفرنسى لاجارد (Lagarde) فى عقد معاهدات مع سلطان تاجوره فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٤ تنازل السلطان بموجبها عـــن المنطقة الواقعة بين رأس على الى قبه الخراب ، وفى ١٨ أكتوبر تنازل السلطان عن رأس على وقبة الخراب لفرنسا (٢) •

---

(١) اهملت فرنسا هذه المنطقة بعد استيلائها عليها عام ١٨٦٢ ولكن بسبب التنافس الاستعمارى حاولت الاستفادة من هذا الميناء لانه يقع عند مخرج بوغاز باب المندب علاوة على انه مركز استراتيجى يسيطر على الطريق الى الشرق فضلا على انه مركز للتجارة مع الداخل .

المعتصم : مرجع سابق . ص ٢٥ .

(٢) شكرى : مرجع سابق . ص ٤٠٠ .

وبالطبع ادى هذا التوسع الفرنسى فى المنطقة الى احتكاك مع انجلترا التى ارسلت الميجور هنتر لساحل البحر ونجح فى عقد عـدة معاهدات مع زعمـاء القبائل وبدأت المنافسـة بينهما بعـد ان قبلت بريطانيا مبدأ ملكية فرنسا لاوبوك .

وترتب على هذا الصراع بينهما احتلال بريطانيا لجزر موسى وأوباض التى كان الفرنسيون قد استولوا عليها ، لكن وجدت الدولتان أنه من المفيد تحديد مجـال النفوذ كل منهمـا ، وبدأت سلسـلة من المفاوضات اسفرت فى النهاية عن اتفاق فى ٢/٩ فبراير ١٨٨٨ نص على تنازل بريطانيا عن جزر موسى لفرنسا والاعتراف لفرنسا بحقها فى ميناء ابوك وامبادو مقابل تنـازل فرنسا لبريطانيا عـن مينـاء دونجاريتا (Dongarita) على الساحل بين زيلع وبربره (١) .

وقد أرادت بريطانيا أن تصل بهذا الاتفاق مع فرنسا الى هـدف آخر هو منع امتداد النفوذ الفرنسى الى اثيوبيا حيث تعهدت الحكومتان الفرنسية والبريطانية فى المـادة الرابعة من هذا الاتفاق بأن لا تسعيا لضم هرر لاى منهما أو وضعها تحت الحماية (٢) .

وبناء على هذا الاتفاق تم وضع حدود فاصلة بين الصومالين البريطانى والفرنسى حيث يبدأ خط الحدود من الساحل مقابل ابار هادو ، ويمتد خلال ابار سعيد حتى آباسوين ، ويسير الخط بعد ذلك مع طريق القوافل الى . بياكوبوبا حتى زيلع وهرر ويمر بجلديسا ، واعترفت بريطـانيا بالحمية الفرنسية غرب هذا الخط على ساحل خليج تاجوره بما فى ذلك جزر موسى وجزر باب (٣) .

---

(١) انظر خريطة شكل رقم ٢ .

(٢) شكرى : مرجع سابق ص ٤٠٢ .

(٣) Hertslet, M. : Op. Cit., Vol. 11 No. 225, P. 726.

وأيضا يحى جلال : التنافس الدولى فى شرق افريقيا (القاهرة ١٩٥٦) ص ١٩٧ .

وصارت المحمية البريطانية شرق هذا الخط على طول الساحل الصومالى حتى بندر زيادة • وبهذه الاتفاقية انتهت خلافات بريطانيا وفرنسا فى الصومال وحصلت فرنسا على اعتراف بريطانيا بحقوقها فى اقليم الساحل الصومالى •

وهكذا نخلص من هذا العرض الى ان بريطانيا قامت بالاتفاق مع فرنسا بوضع حدود بين المحميتين دون أى اعتبار للقبائل أو الشعوب الافريقية التى تسكن المنطقة وأدى هذا الى تمزيق شمل القبيلة الواحدة الى وحدات سياسية مصطنعة •

ثانيا — بريطانيا وايطاليا فى القرن الافريقى :

بعد الوحدة الايطالية تطلعت ايطاليا الى ساحل البحر الاحمر ، ونجح المبشر سابيتو (Sabito) فى عقد اتفاق مع بعض شيوخ الدناكل فى ١٥ نوفمبر ١٨٦٩ حصل على قطعة من الارض مقابل ٨١٠٠ ريال نمساوى(١)•

وقد نجح سابيتو اثناء وجوده فى عصب فى تشييد دار صغيرة اتخذها كمكتب لشركته ، وفى أوائل عام ١٨٨١ عينت ايطاليا قنصلا لها فى عصب لكن حكومة مصر احتجت لدى الشركة الايطالية التى عقدت اتفاقيات مع مشايخ رهيطه وعصب لان كل الساحل حتى رأس حافون ملك لحكومة الخديو فى مصر ، وتأزمت الامور بين ايطاليا ومصر ، وتدخلت انجلترا لحل هذه المشكلة واستطاعت التوصل الى عقد اتفاق بين مصر وايطاليا عام ١٨٨١ تضمن اعتراف مصر بحقوق ايطاليا فى عصب ، وقصر استخدام المنطقة للاغراض التجارية(٢) •

وتوسعت ممتلكات ايطاليا بعد ذلك حيث استولت على بعض المناطق على المحيط الهندى فى ممتلكات سلطان زنجبار كما احتلت القوات الايطالية

---

(١) شكرى : مرجع سابق • ص ٤١٨ •

(٢) Lewis, I. : The Modern History of Somaliland (London 1965) P. 52.

مدينة كرن • ومن الواضح أن استيلاء ايطاليا على عصب كان بداية مشروعات استعمارية على سواحل البحر الاحمر وشرق افريقيا ، وقد شجعت بريطانيا الايطاليين على تحقيق هذا التوسع فى هذه المناطق •

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو •

لماذا أقدمت بريطانيا على تشجيع ايطاليا فى التوسع فى شرق افريقيا على حساب بعض ممتلكاتها هناك ؟ •

ومن المعروف أن انجلترا كانت تعارض اشتراك ايطاليا فى السيطرة على حقوق مصر فى البحر الاحمر ، لكن ابتداء من عام ١٨٨١ بدأت تغير سياستها نحو ايطاليا وذلك بسبب التنافس البريطانى الفرنسى ، وخوف بريطانيا من استيلاء فرنسا على املاك مصر فى القرن الافريقى فاتخذت من ايطاليا حارسا يحمى الاملاك المصرية هناك حتى تتمكن من استردادها فى المستقبل(١) •

ولهذا السبب نجد ان بريطانيا سهلت للايطاليين الاستيلاء على المنطقة الواقعة جنوب رأس قصار خوفا من وقوعها فى ايدى الفرنسيين ، وأيضا لمنع الفرنسيين من التقدم والوصول الى حوض النيل(٢) •

وعلاوة على ذلك فقد يسرت بريطانيا للايطاليين بسط نفوذهم على المناطق الواقعة شمال المناطق الفرنسية فى اريتريا ، فضلا عن تنازلهم عن منطقة ضيقة من الصومال البريطانى فى ساحل بنادر(٣) •

---

(١) الشيخ ، رأفت : افريقيا فى التاريخ المعاصر ١٩٨٢ ص ١٧٦ .

(٢) Wolf, L. : Empire and Commerce in Africa (New York 1920) P. 160.

(٣) الجمل ، شوقى (دكتور) : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها . ص٣٧٥

والتقت اهداف السياسة فى ايطاليا وبريطانيا ، وتحسنت العلاقات بينهما ودعمهما قوة تأييد ايطاليا لبريطانيا فى سياستها فى مصر ، هذا فى الوقت الذى وقفت فيه فرنسا موقفا معاديا لبريطانيا • كل هذا جعل بريطانيا تنظر الى ايطاليا باعتبارها القوة التى يمكن ان توازن بها الوجود الفرنسى فى منطقة القرن الافريقى(١) •

لكل هذه العوامل ومن أجل المصالح البريطانية حدث التحالف بين ايطاليا وبريطانيا ، وغيرت بريطانيا سياستها نحو النشاط الايطالى فى سواحل البحر الاحمر وتحول جرانفل من سياسة معارضة لاستيلاء الايطاليين على حقوق مصر فى منطقة القرن الافريقى الى التأييد الكامل والمطلق لها وتطالعنا الوثائق البريطانية بهذا التأييد عندما ابرق جرانفل فى أول ديسمبر ١٨٨١ الى القنصلية البريطانية بالقاهرة يخبرها بنصح الحكومة المصرية بالامتناع عن ممارسة حقها فى انزال جنود برهيطة وبالفعل ارسل السير ايفلن بارنج أوامره الى محافظ مصوع والى قواد السفن البريطانية فى البحر يوجههم الى ترك حرية العمل للايطاليين وقد شجع هذا الحكومة الايطالية على سرعة احتلال مصوع فور انسحاب القوات المصرية منها ، ورغم هذا التأييد البريطانى لايطاليا فقد ظلت حكومة مصر متمسكة بحقوق سيادتها على الشواطىء الافريقية للبحر الاحمر(٢) •

وظهر هذا التعاون البريطانى الايطالى فى عدة مجالات وكان له اثره على مشكلات الحدود فى القرن الافريقى •

وسوف نستعرض بعض المجالات التى ظهر فيها هذا التعاون •

أولا : عندما ناشدت الحكومة الايطالية بريطانيا للتدخل للوصول الى اتفاق بشأن موضوع عصب ، أبدت بريطانيا رغبة اكيده ، وعرضت اقتراحا

---

(١) Ramm, A. : Great Britain and the Planting of Italian Power in the Red Sea, 1868-1885, English Historical Review, May 1944.

(٢) F.O. 78 : 3365 Confid. Cookson to Granville, 16 Sep. 1881.

بعقد معاهدة مع مصر فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ تتضمن اعتراف الخديو بما سيطرت عليه ايطاليا من اراضى عصب ، وكذلك قصر استخدام أراضى المنطقة على الاغراض التجارية .

ثانيا : سهلت بريطانيا لايطاليا السيطرة على المنطقة الواقعة جنوب رأس قصار ، كما سمحت لايطاليا باحتلال مصوع فى فبراير ١٨٨٥ ، ناهيك عن تشجيعها لها لبسط نفوذها على بعض المناطق الاخرى فى شرق افريقيا وذلك بقصد الوقوف فى وجه التوسع الفرنسى هناك .

ثالثا : بعد ان صار لايطاليا وجود حقيقى على الساحل الصومالى المطل على المحيط الهندى اندفعت نحو قسمايو وغيرها من الموانى على الساحل وأدركت ايطاليا أن الاستيلاء على هذه الموانىء لن يتحقق دون موافقة بريطانيا . ولذا نلاحظ انه بعد ان وافق سلطان زنجبار فى مارس ١٨٨٩ على منح شركة شرق افريقيا البريطانية امتياز استغلال مناطق نفوذه اجرت هذه الشركة مفاوضات مع الخارجية الايطالية وتم الاتفاق على أنه بمجرد حصول الشركة على عقد الامتياز من السلطان ، فانها سوف تسلم الحكومة الايطالية الموانى الواقعة شمال نهر جوبا ، وتحتفظ الشركة بادارة الموانى الواقعة جنوب النهر ويظل احتلال قسمايو مشتركا بين الطرفين[1] .

وبالفعل قامت بريطانيا بتوقيع عقد ايجار من الباطن مع ممثل الشركة الايطالية فى ٣ اغسطس ١٨٨٩ سلمته بمقتضاه موانى مقديشو ومركا وبراوه والمناطق المحيطة لمسافة عشرة اميال فى الداخل بنفس شروط عقد الامتياز الممنوح للشركة البريطانية .

وهكذا افصحت السياسة الانجليزية عن مراميها الحقيقية حيث وقفت امام التوسع المصرى فى هذه الجهات حتى تتاح لهم الفرصة لالتهامها ، فضلا عن سماحها لايطاليا بالاستيلاء على براوة ومقديشو

(١) Hertslet, M. : Op. Cit., Vol. 11 P. 1088.

وغيرهما من الموانى التى أرغمت مصر على اخلائها بحجة انها من املاك سلطان زنجبار وسلمتها لايطاليا لتكوين ماسموه بالصومال الايطالى(١).

رابعا : بعد التوسع الايطالى فى بلاد الصومال قامت بريطانيا بتحديد الحدود بينهما وبين ايطاليا ، وعقدت لهذا الغرض اتفاقين احدهما فى ٢٤ مارس والاخر فى ١٥ ابريل وقد نص الاتفاق الاول على رسـم خط الحدود بين منطقة النفوذ الايطالى والبريطانى ابتداء من نهر جوبا الى النيل الازرق بحيث تدخل الصومال ومستعمرة ارتريا الى رأس قصار اقصى نقطة على الساحل الاريترى فى الشمال ، وبحيث تدخل كسلا والمنطقة المجاورة لها حتى نهر عطبره فى دائرة النفوذ الايطالى بينما تخرج قسمايو والمنطقة التى على الشاطىء الايمن للنهر من دائرة النفوذ عند اقصى حدود الصومال الايطالى الجنوبية وتظل تابعة لانجلترا(٢) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الحكومة البريطانية رغم اطلاق يد ايطاليا فى احتلال كسلا والجهات الممتدة الى نهر عطبره الا انها احتفظت فى نفس المعاهدة بحقوق الحكومة المصرية فى استرجاع هذه المنطقة بما فيها كسلا من ايطاليا بمجرد أن تتهيأ الحكومة المصرية لذلك(٣) .

اما اتفاق ١٥ أبريل ١٨٩١ فقد حدد تمنطقة النفوذ الايطالى فى الشمال والغرب من جهة افريقيا الشرقية بخط يبدأ من رأس قصار على البحر الاحمر الى نقطة تقاطع الخط السابع عشر من خطوط العـرض الشمالية مع الخط السابع والثلاثين من خطوط الطول شرقى جرينتش ، ويتبع خط الحدود خط الطول هذا الى ان يلتقى مع خط عرض ١٦٫٣° من خطوط العرض الشمالية ويرسم خط الحدود من نقطة الالتقاء هـذه فى خط مستقيم الى سابدرات (Sabderat) وبحيث يترك هذه المدينة

(١) دكتور تمام همام : تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال ١٩٨٣ ص ١٦ .

(٢) الجمل ، شوقى (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الاحمر (القاهرة ١٩٧٤) ص ٢٧٣ .

(٣) انظر الخريطة شكل رقم ٣ .

الى الشرق ثم يمتد جنوبا الى نقطة على نهر الجاش على بعد ٢٠ ميلا من كسلا ثم يتصل بنهر العطبره الى نقطة عنـــد خط ١٤ر٥٢° من خطـــوط العرض الشمالية • وينزل الخط مع نهر العطبره حتى التقائه مع خور كاكاموت (Kakamot) ثم يسير فى اتجاه الغرب حتى يلتقى بخور لمسن (Lemsn) ويصل الى التقائه مع الرهد (Rahad) واخـــيرا يســـير الخط حتى يلتقى بالنيل الازرق(١) • واستكمل الايطاليون الحدود فى اتفاق ٥ مايو ١٨٩٤ ، وكان هدفهم أن يحصلوا من بريطانيا على اعتراف بحقوقهم فى المنطقة المجاورة لاملاكهم ، والاعتـــراف بادعاءاتهم فى السودان الشرقى كذلك • وقد اتفقت بريطانيا من جانبها على تحـــديد مناطق النفوذ بينهما وبين ايطاليا فى الصومال بحيث اطلق البريطانيون يد ايطاليا فى احتلال كسلا والمناطق المجاورة حتى نهر عطبره (٢) •

وهكذا نجد فى هذا الاتفاق الذى وقع فى روما ان خط الحدود بين الممتلكات البريطانية والايطالية فى شرق افريقيا على خليج عدن وبـــدأ من جيلديسا (Gildessa) ويسير نحـــو خط عرض ٨° شمالا ثم تترك قرى جلديسا ودرامى (Darmi) وجيججيجا (Gig Giga) وميلمل (Mil Mil) وعندما يصل الى خط عرض ٨° شمالا يسير حتى تتقاطعه مع خط طول ٤٨° شرقا ويسير بعد ذلك حتى التقاء خط عرض ٩° شمالا مع خط طول ٤٩° ثم يسير بعد ذلك حتى البحر(٣) •

وبهذا الاتفاق اصبح ساحل الصومال الايطالى يصل الى نهـــر جوبا ويبلغ طوله حوالى ٣٠٠٠ كيلو مترا •

خامسا : فى ١٣ يناير ١٩٠٥ وقعت بريطانيا اتفاقا مع ايطاليا تـــم بموجبه استئجار ايطاليا لساحل البنادر مقابل ١٤٤٠٠٠ ليرة ايطالية ،

---

(١) Races, A. : A. History of the Colonisation of Africa (Cambridge 1913) P. 395.

(٢) السيد رجب حراز : افريقيا الشرقية والاستعمار الاوربى (القاهرة ١٩٧٢) ص ٤١٣ .

(٣) وخريطة رقم ٢ Hertslet, M. : Op. Cit., Vol. III.

وتعهدت الحكومة الايطالية باحترام حقوق البريطانيين فى هذه المدن الساحلية كما تعهدت فى المادة الثالثة بأنه فى حالة رغبة ايطاليا التخلى عن هذه المدن فان بريطانيا سوف تستردها(١) .

سادسا : وقعت بريطانيا مع ايطالية اتفاقية لندن فى ١٥ يونية ١٩٢٤ وفيها تنازلت عن ٣٣٠٠٠ ميل مربع من جوبالاند لايطاليا كتعويض نظير اشتراكها فى الحرب العالمية الاولى ، ومن ثم صار خط ٤١° من خطوط الطول الشرقية حدا فاصلا بين منطقة جوبالاند التى ضمت الى الصومال الايطالى ومنطقة انفـدى N. F. D. اقليم الحدود الشمالية فى كينيـا (٢) .

وقامت بريطانيا فى نفس العام بتأجير قطعة من الارض جنوب شرق قسمايو من اجل بناء مركز للحكومة الايطالية على أن يستمر هذا الايجار لمدة ثلاثين عاما ..

ومن هذا العرض السريع للسياسة البريطانية فى شرق افريقيا نجد ان هذه السياسة قد قامت على اساس مساعدة ايطاليا بقدر الامكان حتى تقف حائلا ضد أى توسع فرنسى فى المنطقة ، كما انها بهذه المعاهدات والاتفاقات حاولت ابعاد ايطاليا عن النيل الازرق ، وقد جاء هذا بوضوح فى المادة الثالثة من بروتوكول ١٥ ابريل ١٨٩١ والتى نصت على ان تتعهد الحكومة الايطالية بعدم اقامة اية مشروعات على نهر العطبره من شأنها ان تؤثر على جريان المياه الى النيل(٣) .

وغنى عن القول أن الدبلوماسية البريطانية حققت بابرامها هـذه السلسلة من المعاهدات مع ايطاليا انتصارا كبيرا حيث حصلت بريطانيا على مكاسب كثيرة واستغلت سيطرتها على مصر لتجبرها على الانسحاب

---

(١) مجلة السياسة الدولية : ملف الخلاف الصومالى الاثيوبى الكينى العدد ١٩ لعام ١٩٧٠ ص ٢١٥ .

(٢) Hertslet, M. : Op. Cit., Vol. 111 P. 955.

(٣) Hertslet, M. : Op. Cit., Vol. 111 P. 950.

من شرق افريقيا ، وقامت بتقسيم هذه التركة المصرية على من تشـــاء ، وتضع العراقيل امام القوى المنافسة لها حتى لاتقف حجر عثرة امام توسعاتها فى القرن الافريقى وقد ظهرت هذه السياسة البريطانية بشكل واضح اثناء صراعها مع اثيوبيا ، والذى ادى فى النهاية الى وصول هذه المشكلات الى وضعها الحالى •

ثالثا : بريطانيا ومشكلات الحدود مع اثيوبيا :

ظهر تواطؤ بريطانيا مع اثيوبيا منذ دخولها فى مجـــال المنافســـة الاستعمارية حتى لاتفقد ارباحها من تجارة الترانزيت الاثيوبية المارة بموانى مستعمراتها الصومالية ، ولذا نجد انها ارسلت الى اثيوبيا فى عام ١٨٩٠ حوالى الفى بندقية استطاع بها الامبراطور منليك ان يقضى على استقلال امارات الصومال فى الشرق وأن يؤسس امبراطورية اثيوبيا(١)•

وساعدت بريطانيـــا اثيوبيـــا بالمعـــدات والاسلحة التى ســـاعدت الامبراطور على هزيمة قوات الامير عبد الله بن عبد الشكور امير هرر ، فاستطاع منليك بهذه الاسلحة ان يدخل هرر فى يناير ١٨٨٧ رغـــم ان بريطانيا كانت قد تعهدت مع فرنسا فى اتفاق عام ١٨٨٨ باستقلال هرر• وفى عام ١٨٨٩ ساعدت بريطانيا اثيوبيا على ضم منطقة الاوجادين بعد ان اشتركت مع القوات البريطانية فى اخماد الثورة المهدية فى السودان فضـــلا عن ضـــم الاراضى المحجوزة ومنطقة هود الاثيوبيا(٢) •

وبعد هزيمة الايطاليين فى موقعة عدوة عام ١٨٩٦ حدثت تغييرات كبيرة فى السياسة البريطانية بعد اجبار ايطاليا على توقيع معاهدة سلام فى نفس العام واعتراف الاوربيين باستقلال الحبشة وسيادتها ، وبدأوا يتنافسون فى كسب ود منليك ومهادنته ، وكانت بريطانيا تسعى لصداقة منليك من اجل تبادل منافع تجارية معه •

---

(١) Greenfield Richard, : An Introduction to Refugee Problems in Somalia Democratic Republic (Somalia and the World, Vol. II, P. 371.

(٢) يونس محمد عبد المنعم : الصومال ١٩٦٢ ص ٨٨ •

وكانت الحكومة البريطانية قد عقدت النية على استرداد السودان لكنها خشيت من حدوث تقارب بين السودانيين والاثيوبيين ولذا ارسلت جميس رود (James Rodd) فى ١٨ ابـــريل ١٨٩٧ الى بـــلاط الامبراطور منليك ، وكما يحدثنا رود فى مذكراته بأن الحكومة البريطانية كانت تسعى نحو تأكيد انه لن يكون هناك تحالفا بين منليك والخليفة المهدى بالاضافة الى الحصول على معلومات عن الاحوال الداخلية فى أثيوبيا وأن تنظر البعثة بعد نجاح مهمتها فى تخطيط الحدود بين الصومال البريطانى وأثيوبيا من ناحية هرر • (١)

وعلى أية حال بدأ رود المباحثات بجرأة وشجاعة واستطاع ان يقنع منليك بأن الدراويش فى السودان سيكونون اشد المنافسين له ، كما كان رود يهدف الى مناقشة مسألة الحدود ، ووصل الى اتفاق فعلا تنازل البريطانيون بمقتضاه عن حوالى ١٥٫٠٠٠ ميل مربع ، وبعبارة اخرى تنازلت بريطانيا عن الاراضى الصومالية التى تسكنها قبائل العيسى الصومالية دون علم الصوماليين مقابل تعهد منليك بعدم السماح بمرور السلاح الى السودان • (٢)

ونجح رود فى عقد معاهدة فى ٢٥ يولية ١٨٩٧ ناقشت مسألة الحدود ونصت فى مادتها على بحث مسألة الحدود مرة ثانية فى اتفاق ينتهى اليه رود مع الرأس ماكينون وتبادل المذكرات بالمعاهدة وتكون جزاء منها •

وتفيد الوثائق المتبادلة بين الرأس ما كينون حاكم هرر والســـيد رينيل رود أنه قد تم الاتفاق على حدود محمية الصومال البريطانى بخط يبدأ من شاطىء البحر فى مواجهة آبار هادو (Hadou) حسب الاتفاق الابريطانى الفرنسى فى فبراير ١٨٨٨ ، ويتبع طريق القوافل الى اباسوين حتى جبل سومادو (Somadou) ومن هناك تسير الى جبل سو (Mount Saw) ويسير الى جبل ايجو (Egu) ويصل بعد ذلك

---

(١) الجمل ، شوقى : دور مصر فى افريقيا . ص ٨٢ .

(٢) تمام : همام تمام : مرجع سابق ، ص ٢١ .

الى موجا مدير (Moga Medir) ثم يسير فى خط مستقيم الى الينتا كادو (Eylinta Kaddo) وارن أره (Arran Arrhe) على خط ٤٤° شرق جرينتش وخط عرض ٩° شمالا ، ويسير بعد ذلك فى خط مستقيم الى خط ٤٧° درجة والتقائه مع خط ٩° شمالا ، واخيرا يصل الخط الى الحدود المتفق عليها بين بريطانيا وايطاليا فى ٥ مايو سنة ١٨٩٤[1] •

وهكذا نجد ان بريطانيا قد تنازلت عن ٦٧٫٠٠٠ ميل مربع من الأراضى فى اقليم (Haud) لكنها استطاعت المحافظة على هرجيسا ، وجزء من داخل المحمية • ومن المؤكد ان شروط الاتفاقية قد وضعت بطريقة تجبر اثيوبيا على الاعتراف بـ الحدود الجديدة للمحمية البريطانية[2] •

وفى ١٣ ديسمبر ١٩٠٦ وافقت كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا على المحافظة على الوضع فى اثيوبيا حسب الاتفاقيات التى وقعتها هذه القوى الاوربية وتعهدت هذه الدول ببذل ما فى وسعها للمحافظة على مصالح الاثيوبية بالاضافة الى مصالح كل من بريطانيا ومصر وفرنسا فى المناطق المحددة لكل منهم •

وهكذا ضمنت بريطانيا والدول الاوربية لاثيوبيا حدودا امنه بعد أن ضمت اليها مناطق صومالية دون أى اعتبار للسكان الذين يقطنون هذه المناطق واستمر الدور البريطانى يساند الوجود الاثيوبى ويساعده فى فرض سيطرته على تلك المناطق التى اقتطعتها الدول الأوربية من بلاد ، الصومال وضمتها لاثيوبيا ولم يتوقف هذا الدور بالرغم من الظروف الدولية وقيام الحرب العالمية الأولى ثم الثانية ووضح هذا الأثر البريطانى وتلك الدبلوماسية الانجليزية عندما توغلت القوات الايطالية فى عام ١٩٣٦ داخل اراضى اثيوبيا لمحو عار هزيمة الايطاليين

(١) Herlset, M. : Op. Cit., Vol. 11 P. 429.

(٢) Lewis, M. : Op. Cit., P. 59.

فى عدوة ١٨٩٦ وواصلت هذه القوات زحفهـا حتى جنـدار وهـرب الامبراطور هيلاسلاسى الى بريطانيا ، فقدمت له كل عون وتأييد وحسمت الموقف لصالح اثيوبيا عندما هاجمت الممتلكات الايطالية فى شرق افريقيا فى عامى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ وأعادت السيادة الاثيوبية على أراضيها حيث انه فى ٣١ يناير ١٩٤٢ أعادت الامبراطور هيلاسلاسى وعقدت معه اتفاقا من شأنه ترك الادارة ــ العسـكرية البريطانيـة فى منطقتى أوجادين والمنطقة المحجـوزة التى كانت سابقا تحت حـكم الايطاليين كما هى(١).

لكن فى ٢٥ مايو ١٩٤٣ طلب الامبراطور تعديل الاتفاق السابق ووافقت بريطانيا على التعديل فى ٩ ديسمبر ١٩٤٣ وأبرم اتفاق جديد عام ١٩٤٤ أعطى ضمانات لتثبيت السـيادة الحبشـية على المنطقـة المحجوزة وهود على ان تستمر الادارة العسكرية فى منطقة اوجادين لفترة عشر سنوات ثم تتخلى عنها بريطانيا نهائيا للحبشة(٢) .

وبعد الحرب العالمية الثانية عقدت سلسلة من المؤتمرات ، ثم وقع الحلفاء فى باريس فى ١٠ فبراير ١٩٤٧ معاهدة الصلح مع ايطاليا وفى المعاهدة تصريح تحت رقم ١١ . ونصت المـادة ٢٣ من معاهدة الصلح من ايطاليا على تنازلها عن كل ادعاء فى الممتلكات البريطانية الاقليمية(٣).

واصـدرت الجمعية العامة بعد ذلك عدة قرارات أوصت بتعيين الحدود بين الأقاليم الصومالية تحت الوصاية من جهة وأثيوبيا من جهة أخرى عن طريق المفاوضات بين الاطراف المعنية(٤) .

---

(١) سـالم : مرجع سابق جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) Perham, Margery : The Government of Ethiopia (Lond. 1948 P. 50.

(٣) حراز ، السيد رجب (دكتور) الأصـول التاريخية للمشـكلة الاريترية ص ٥٦ .

(٤) انظر قرارات الجمعية العامة رقم ٣٩٢ وأيضا القرارات ٨٥٧ ، ٩٤٧ (الدورة التاسـعة) والتى تضـمنت قرار بانشاء خط الحدود بين اقليم الصومال ــ البريطانى وبين اريتريا عن طريق المفاوضات المباشرة .

وفى نوفمبر ١٩٥٤ وقعت بريطانيا اتفاقا مع اثيوبيا ، وجاء فى مادته الأولى تخلى بريطانيا عن الأراضى المحجـوزة وعلى الحـكومة الاثيوبية ممارسة سلطتها عـلى هذه الاقاليـم اعتبارا من ٢٨ فبراير ١٩٥٥(١) .

كما نصت المادة الثانية على أنه « من حق القبائل من الاصوماليين وأثيوبيا عبور الحدود من أجل الرعى كما جاء فى المعاهدة الانجليزيـة الأثيوبية عام ١٨٩٧ ، ويتعهد الطرفان ان يتخذا الخطوات اللازمة نحـو حماية ومراعاة حقوق القبائل فى الرعى فى هذه المساحة تكون تحـت حماية كل منهما(٢) .

وهكذا نجد أنه بمقتضى هذا الاتفاق تنازلت بريطانيا عن الأراضى الصومالية والأوجادين وهود والمنطقة المحجوزة الى اثيوبيا .

وقد قامت بريطانيا قبل تسليم الصومال برسم الخط الأدارى المؤقت وهو الذى يلتقى بحدود البريطانى سابقا عند خط طول ٤٨° شرقا وخط عرض ٨° شمالا . لكن رفضت اثيوبيا الاعتراف بهذا الخط كحدود سياسة بينها وبين الأقليم الصومالى هذا فى الوقت الذى تمسك فيـه الصوماليون بخط طول ٤٥° شرقا وخط عرض ٨° شمالا .

ثم وقعت بريطانيا معاهدة مع اثيوبيا فى ٢٩ نوفمبر ١٩٥٤ تعهدت فيها بريطانيا بسحب حكمها العسكرى من منطقة هود وجزء من منطقة أوجادين وتولت اثيوبيا ادارتها منذ ٢٨ فبراير ١٩٥٥(٣) .

وغنى عن البيان أن الدبلوماسية البريطانية قامت أساسا فى القرن الافريقى على قاعدة ابعاد كافة القوى المتصارعة فى المنطقة عن حوض وادى النيل ، ونظرا لان اثيوبيا كانت أكثر تلك القوى احتكاكا بالنيل

---

(١) انظر خريطة رقم (٤) .
(٢) سالم : مرجع سابق ج ٢ ، ص ٢١٨ .
(٣) القرعى : مرجع سابق ، ص ٧٩٨ .

ووأديه فقد لعبت بريطانيا دورا هاما فى تحديد الحدود بين اثيوبيا والسودان ، هذا الدور يبرز الأثر البريطانى ، ويقدم مما لايدع مجالا للشك دليلا على أن بريطانيا قد تركت بصماتها على حدود هذه المنطقة ، هذا فى الوقت الذى يوضح أن مشكلات القرن الافريقى الحالية انما تعود بجذورها الى تلك الدبلوماسية البريطانية والتى خططت ورسمت ووزعت المناطق حسب مصالحها ومصالح حلفائها فى القرن الافريقى

لقد بدأت بريطانيا تهتم بمسألة الحدود بين اثيوبيا والسودان — عندما احست بالتهديدات نحو النيل من جهة الغرب ، وكذلك التهديدات الفرنسية من الشرق خاصة بعد ان تسربت اشاعات فحواها تأييد لفرنسا من جانب اثيوبيا عند تقدمها نحو نهر النيل ، وبناء على ذلك قررت الحكومة البريطانية استئناف الزحف من دنقلة واسترجاع كل أقاليم السودان المصرى والوصول الى فاشوده قبل الفرنسيين(١) .

كان منليك قد ارسل خطابا دوريا للدول الأوربية فى ١٠ أبريل ١٨٩١ أعلن فيه عن حدود اثيوبيا حسب تصوره والتى ضمنت أن يسير خط الحدود الغربى من نقطة عند ارفال (Arafale) على البحر (الحد الايطالى) ويمتد عبر سهل جحرا Jegra ناحية الغرب ثم يسير بعد ذلك الى ماهيو (Hahis) وهالاى Halai ودجسا Gigsa) ثم يمتد الى جورا اديبارو Guro Adibro ومن هناك الى نقطة الالتقاء بين نهرى مارب Mareb واراتد Arated ويمتد جنوبا الى التقاء نهرى عطبره وستيت (Setit) حيث توجد مدينة تومات ، ومن هناك يمتد الى مدينة القضارف ، ويسير بعد ذلك الى التقاء النيل الابيض بنهر السوباط(٢) .

وتأزمت الأمور بين منليك وبين رود الذى اقترح على منليك تأجيل دراسة الحد الغربى حتى تصبح أكثر ملاءمة لهذا الغرض ، وطلب منه

---

(١) شكرى : مرجع سابق ص ٤٦٥ .
(٢) انظر خريطة شكل (٥) .

رود ان يؤكد لبريطانيا عدم التنازل عن أى منطقة من المناطق الواردة فى المجال البريطانى حسب معاهدة ١٨٩٠ مع المانيا أو أى مناطق كانت تحكمها مصر من قبل(١) •

ووافق منليك على مطالب رود ، الا انه لم يعترف بالاتفاق الالمانى البريطانى لعـــام ١٨٩٠ ، وادعى أنه لم يسمع عن هذا الاتفـــاق من قبـــل(٢) •

وفى عام ١٨٩٧ عينت بريطانيا جون لين هارنجتن (John Lan Harrington) قنصلا لها فى زيلع وليكون ممثلا لجلالة الملكة فى اثيوبيـــا(٣) •

واستطاع هارنجتون فور وصوله الى اديس ابابا أن يقف على اطماع منليك التوسعية ، ويتفق كل من هارنجتون وكرومر على ان الحل العسكرى والاحتلال الفعلى هما اللذان يسهلان عملية التوصل الى اتفاق بشأن الحد الغربى الذى صار أكثر تعقيدا بسبب تقدم الفرنسين نحو فاشودة • لكن هزيمة الفرنسيين فى فاشوده ، وسقوط ام درمان فى أيدى البريطانيين قد غير الموقف السياسى فى اثيوبيا ، ويحدثنا هارنجتون أنه بعد انتشار اخبار الانتصار العسكرى البريطانى الميرى لقى حفاوة بالغة من الرأس ماكينون فى هرر ، وأفاد ان سقوط الخرطوم قد أدهشهم جميعا وأن الحديث فى الأوساط السياسية يدور حول بريطانيا بوصفها القوة القادرة على احداث الاضرار لهم(٤) •

وفى أول نوفمبر ١٨٩٨ أخبر هارنجتون منليك عن احتـــلال القضارف والرصيرص • وقد تضايق منليك بسبب احتلال الرصيرص التى تعد من المراكز الاستراتيجية على النيل الازرق اشار منليك الى خريطـــة

(١) F.O. 403 : 255, Rodd to Salisbury, 14 May 1897

(٢) F.O. 403 : 255 Menelik to Rodd 14 May 1897.

(٣) F.O. 1 : 403 : 255, Salisbury to Cromer 27 Nov. 1897.

(٤) F.O. 1 : 35, Harrington to Rood, 25 Sept, 1898.

ورسم باصبعه المنطقه مابين ١٤°، ٣٠° من خطوط الطول ، وحدد الغرب بالنيل الأبيض المناطق التى فقدتها الحكومة المصرية (١) .

بدأت المفاوضات بين الطرفين فى أو لابريل ١٨٩٩ وسط جو من التوتر وسعى كل من الطرفين نحو المزيد من الامتيازات ، وانتهت المباحثات فى ١٩ مايو بسبب الخلاف حول بنى شنجول التى علق عليها منليك آمالا كبيرة ، ثم جاءت مشكلة المتمة (Matamma) وهى مدينة استراتيجية ومركز تجارى هام فى مديرية القلابات وتقع على بعد ٩٥ كيلوا مترا شرقى جوندار ، وكان منليك يطالب بهذه المدينة بسبب وضع المسيحيين هناك . وبعد المفاوضات تمت الموافقة على تقسيم عائد شرق المتمة بين انجلترا واثيوبيا على أن تحتفظ اثيوبيا بالمدينة القديمة شرق خور انبا كارا (Anbakara) وقد تم كل ذلك فى ١٤ مايو ١٩٠٠ (٢) .

وظهرت مشكلة أخرى لأن الحد يجرى شرق خط الحدود الذى رسم فى البروتوكول الايطالى الانجليزى لعام ١٨٩١ وكان على الحكومة البريطانية الرجوع الى ايطاليا ولذا توقفت المفاوضات لحين وصول رد روما . وفى نوفمبر ١٨٩٩ وافقت ايطاليا على تعديل خط عام ١٨٩١ جنوب تومات (٣) .

واقترحت بريطانيا على الحكومة الايطالية أن يبدأ خط الحدود من نقطة على خط تومات ــ غرب طريق التجارة ، وأن يرسم حتى التقاء نهرى ستيت وميتاب (Mateab) وعلى هذا يظل الطريق بين هاتين النقطتين داخل المنطقة الاثيوبية مقابل ان تحصل ايطاليا على أراضى حول امبريجا (Ombrega)

وهكذا نجد أن بريطانيا بهذا التعديل قد وضعت هذه المنطقة فى

---

(١) F.O. 403 : 275 Harrington to Salisbury 6 Nov. 1898.

(٢) F.O. 403 : 284, Memo by Rodd 4 August 1899.

(٣) F.O. 403 : 284 Currie to Salisbury 27 Nov. 1899.

ايدى قوة ضعيفة . وحصلت على ضمانات بعدم القيام بأى أعمال أو مشروعات دون الرجوع الى السلطات السودانية (1) .

وبعد ان تسلمت بريطانيا رد الحكومة الايطالية فى ديسمبر ١٩٠١ ، ورد اثيوبيا فى مارس ١٩٠٢ بدأ هارنجتون اعداد مسودة المعاهدة وبالرغم من طلب منليك بعض التعديلات على النيل الازرق وبحيرة تانا ، الا ان هارنجتون رفض ذلك واخيرا توصل الانجليز والأحباش فى مايو ١٩٠٢ الى اتفاقية الحدود شرق السودان وتنازل منليك عن مطالبه السابقة ، ورضى بالحدود التى تسير مع المرتفعات وتعهد بعدم اقامة أى مشروعات على النيل الازرق أو بحيرة تانا أو نهر سوباط تكون من شأنها عرقلة تدفق المياه الى النيل الا بالاتفاق مع الحكومة البريطانية وحكومة السودان وهكذا حافظت بريطانيا على مصالحها فى وادى النيل ، وحصلت على ضمانات من منليك ولا يزال خط الحدود الذى رسمته بريطانيا هو الخط السارى حتى يومنا هذا فى الوقت الذى تشهد خطوط الحدود الاخرى فى المنطقة مشكلات لا حل لها .

رابعا بريطانيا ومشكلات الحدود بين الصومال وكينيا :

لم يتوقف اثر بريطانيا على مشكلات الحدود فى منطقة القرن الافريقى بل انه امتد جنوبا الى كينيا التى دخلت اليها الادارة البريطانية فى عام ١٨٩٥ وكانت الحكومة البريطانية عشية توقيع البروتوكول الانجليزى الايطالى عام ١٨٩١ والذى أوضح الحدود بين اقليم كينيا واقليم الصومال الايطالى قد خشيت من ظاهرة التوغل المستمر للقبائل الصومالية فى شمال كينيا (2) .

وفى عام ١٩٢٤ قامت بريطانيا باقتطاع جزء من أنفدى (3) ومنحته

---

(1) F.O. 403 : 313 Lansdoune to Buchanan, 29 Aug. 1901.

(2) غالى ، بطرس بطرس (دكتور) العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية (القاهرة ١٩٧٤) ص ٢٨٣ .

(3) اقليم انفدى هو الاقليم الشمالى الشرقى الكينى وتبلغ مساحته نحو ٥٠ الف ميل مربع اى ما يعادل خمس مساحة كنيا .

لايطاليا مكافأة لها على اشتراكها فى الحرب العالمية الأولى بجانب بريطانيا واصبح الخط الواحد والأربعين من خطوط الطول حدا فاصلا بين منطقة جوبالاند التى ضمت النومالين ومنطقة انفدى الذى وضع له نظام ادارى خاص يختلف عن النظام الادارى المطبق فى كينيا وهذا ما جعل للاقليم شخصية قائمة بذاتها .

وعملت بريطانيا على اذكاء روح الخلافات القبلية والدينية والقومية فقامت بتقسيم المنطقة ابان العهد الاستعمارى الى مناطق عديدة ومنها منطقة الحدود الشمالية (انفدى) والتى يمثل الصوماليون غالبية سكانها واعتبرت هذه المنطقة مغلقة ، وضربت قيودا على الحركة منها واليها ولم تعتبر الصوماليين مواطنين كبقية سكان كينيا بل اعطتهم امتيازات خاصة وعاملتهم معاملة تختلف عما هو سائد مع سكان كينيا من الأوربيين والأثيوبيين وبالطبع ترتب على ذلك عدم امكانية دمج الصوماليين فى كينيا [1] .

واستمرت تلك النزعة القومية بين صومالى كينيا حتى اعلان استقلال الصومال فى عام ١٩٦٠ فأسس هؤلاء حزب صومالى كينيا وحمل اسم (الحزب التقدمى لشعب اقليم الحدود الشمالية) الذى تقطنه أغلبية صومالية وضمته الى جمهورية الصومال المستقلة ، ورويدا رويدا أخذت هذه النزعة الانفصالية تتبلور حتى اثناء انعقاد المؤتمر التأسيسى لوضع دستور دولة كينيا فى نيروبى عندما انسحب ممثلو السكان الصوماليين من المؤتمر بعد أن طالبوا بحق تقرير المصير القومى لهم . ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل قاطع صوماليو كينيا انتخابات المجلس التشريعى عام ١٩٦٢ وابتداء من مارس ١٩٦٢ أخذت الأحزاب الصومالية فى الاقليم الشمالى بكينيا تدخل فى نزاع الحدود وأصدرت بيانا طالبت فيه باتحاد الاقليم مع جمهورية الصومال ، كما اصدرت هذه الأحزاب

---

(١) انظر مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٩ . ص ٢٤٩ .

بيانا فى مارس ١٩٦٢ تضمن عدم السماح لأى كائن افريقى أو أوربى أن يتحكم فى مصرها[1] •

واستمر الخلاف بين الحكومة الصومالية والسلطات الكينية وبريطانيا حيث اعترضت الصومال على قيام السلطات البريطانية والسلطات الكينية باعادة تخطيط الحدود الداخلية بين اقاليم ومناطق كينيا والتى اشتملت ايضا اقليم الحدود الشمالية •

وجاء رد بريطانيا على حكومة الصومال بأنها سوف ترجع اليها قبل اتخاذ أى قرار نهائى بشأن مستقبل اقليم الحدود الشمالية قبل اعلان قيام الدستور الكينى ، كما اعلن وزير المستعمرات البريطانى فى ١٩٦٣ أن الحكومة البريطانية قررت اصدار نظام الحكم الذاتى فى كينيا على اساس ان المناطق التى تسكنها غالبية من الصوماليين ستصبح اقليما سابعا منفصلا عن كينيا يطلق عليه اسم الاقليم الشمالى الشرقى (٢) •

لكن بريطانيا رفضت تطبيق مبدأ حق تقرير المصير القومى للصوماليين فى شمال كينيا وقامت حكومة الصومال بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا فى ١٨ مارس ١٩٦٣ •

وفى ١٣ ديسمبر من نفس العام أعلن استقلال كينيا وسمى اقليم الحدود الشمالية (الاقليم الشمالى الشرقى) وصار رسميا جزءا لا يتجزأ من كينيا • ولذا تدهورت العلاقات بين كينيا والصومال وتصاعدت أعمال الفدائين الصوماليين المسلحين من الاقليم الشمالى الشرقى • واستمرت المشكلة بين الدولتين حتى أواخر عام ١٩٦٥ •

وعندما قام الرئيس التانزانى جوليوس نيريرى بزيارة رسمية

---

(٢) انظر نص البيان فى مجلة السياسة الدولية — السنة السادسة عدد ١٩ يناير ١٩٧٠ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ •

(١) غالى : مرجع سابق ص ٢٨٥ •

للصومال قدم مبادرة بعودة العلاقات بين الصومال وكينيا ، لكن هـذه المبادرة لم تحقق الهدف بسبب تمسك حكومة الصومال بالمطالب الاقليمية الصـومالية .

وفى يونيو ١٩٦٦ قطعت حكومة كينيا علاقاتها التجارية مع حـكومة الصومال ، وظلت الأمور على هذا المنوال حتى وصول الدكتور عبد الرشيد شارماركى الى رئاسة جمهورية الصومال فى يونية ١٩٦٧ واستجابت كينيا للنزعة الصومالية الجديدة ، واصدرت كتابا اصفر اظهر استعداد الحكومة الكينية لعودة مفاوضات السلام مع الحكومة الصومالية لكن جاء رد حكومة الصومال برفض هذه المطالب الكينية .

وأثناء انعقاد مؤتمر القمة الافريقى الرابع فى كنشاسا (١١ — ١٤ سبتمبر ١٩٦٧) استأنفت كينيا والصومال مباحثات بشأن الخلاف حول الحدود وتوصلت الدولتان الى اتخاذ قرار مشترك بايقـاف كل دعاية مضادة والتزام الدولتين بالعمل على استئناف السلام والامن على جانبى حدودهما المشتركة (١) .

واجتمع الطرفان فى اروشا (تنزانيا) فى ٢٨ أكتوبر ١٩٦٧ وابرما اتفاقا جديدا كان بمثابة تسجيل رسمى لكل بنود الاتفاق الذى توصـل اليه طرفا النزاع فى مؤتمر كنشاسا للقمة الافريقى .

وفى ديسمبر ١٩٦٧ استأنفت الصومال علاقاتها الدبلوماسية مـع بريطانيا كما اتفقت الصومال وكينيا فى أوائل عام ١٩٦٨ على تبادل التمثيل الدبلوماسى بينهما ، ثم اعلنت حكومة كينيا العفو الرسمى عن جميـع المعتقلين السياسيين فى الحركة الانفصالية باقليم الحـدود الشماليـة وبدأت حكومة كينيا تنتهج سياسة الدمج الجـذرى الاجتماعى تجـاه الصوماليين الموجودين بها ، كما قامت بتوطين الصوماليين فى قـرى

---

(١) انظر نص التصريح فى ١٩ يناير ١٩٧٠ من مجلة السياسة الدولية ص ٢٤٤ .

نموذجية لربطهم بالاراضى الزراعية ومنع ترحالهم المستمر عبر الحدود الدولية فى القرن الافريقى .

من هذا العرض لمشكلة الصوماليين فى كينيا تتضح الحقيقة التى لا جدال حولها وهى ان السياسة البريطانية هى أساس المشكلة ولبها وهى التى قسمت هذه الاجزاء وتنازلت لا يطاليا عن جزء منهـا ثـم طبقت نظمها الرامية الى التفرقة والانفصال مما أدى الى انفجـار مشكلة الحدود بين كينيا والصومال عشية استقلال الصومال فى عام ١٩٦٠ .

يقدم العرض السابق الدليل الواضح الذى يدحض أى ادعاء بأن مشكلات الحدود مشكلات قديمة ولا دخل للدول الاوربية بها • فالعكس هو الصحيح فدول أوربا على رأسها بريطانيا رائدة التقسيم والتفتيت فى القرن الافريقى هى التى خلقت هذه المشكلة وفرضتها على منظمـة الوحدة الافريقية عشية انشائها ، ففى مؤتمرها الأول فى اديس ابابا عام ١٩٦٣ ساق الرئيس الصومالى الحجج والبراهين التى اوضـحت ان التقسيمات التى تمت كانت بين اطراف خارجية ، وأشار الى أن دول غرب أوربا الاستعمارية (بريطانيا وفرنسا وايطاليا) هى التى خـلقت المشكلة ابان التقسيم الاستعمارى خدمة لمصالحها على حساب الشعب الصومالى ، وأكد ان بريطانيا بالذات هى التى امعنت فى تقسيم الأراضى الصومالية ، وهى التى اعطت اجزاء من الصومال للدول الأخرى وهى التى لم تحل مشكلة الحدود مع كينيا قبل استقلالها (١) •

وقد واجهت منظمة الوحدة الافـريقية حرب الحـدود الصومالية الاثيوبية باعلان قرارها الذى يتمسك باحترام الحدود الراهنة بين الدول الأعضاء عند الاستقلال وهو الأمر الذى يعنى تثبيت الوضع القائم كما اصدر الزعماء الافارقة فى اجتماعهم فى القاهرة فى الفترة من ١٧ الى ٢١ يونية ١٩٦٤ قرارا عاما بشأن نزاعات الحدود على المستوى الافريقى ككل والذى نص على ضرورة حل تلك المنازعات ايا كانت ظروفها عـلى اساس مبدأ احترام الحدود القائمة فى وقت اعلان الاستقلال (٢) •

وهكذا حصلت دول افريقية على مكاسب اقليمية نتيجة ارتباطها بسياسات الدول الاستعمارية التى فرضت سيطرتها على منطقة القرن

---

(١) نص خطاب الرئيس الصومالى فى المؤتمر نشر بمجلة السـياسة الدولية عدد ١٩ يناير ١٩٧٠ ص ٢٣٠ .

(٢) قرار مؤتمـر القمة الافريقى رقم ١٦ فى دورته العـادية الاولى بالقاهرة .

الافريقى خاصة بريطانيا التى كانت القاسم المشترك فى عمليات تخطيط الحدود وسواء كانت مع فرنسا أو مع ايطاليا أو مع اثيوبيا وقد وضح من عرض هذه السياسة البريطانية انها كانت تهدف اساسا الى عـرقلة أى وجود اجنبى على منابع النيل بالاضافة الى عرقلة التوسع الفرنسى الذى كان يرغب فى ربط المستعمرات الفرنسية فى غرب القارة بشرقها وذلك لان هذا المخطط يقضى على احلام السياسة البريطانيين فى رسم خط حديد الكاب القاهـرة • ومن هذه الزاويـة ومن تلك السـياسة الاستعمارية قامت بريطانيا بالتحالف مع ايطاليا وسهلت لها الكثير والكثير فى الحصول على اجزاء من مناطق القرن الافريقى بعد ان سلبت مصر حقوقها هناك وأجبرتها على الانسحاب من تلك الجهات بل ووقفت سدا منيعا أمام التوسعات المصرية فى القرن الافريقى ، وعندما انسـحبت مصر صارت بريطانيا الوريث الشرعى لتلك المناطق وأخذت تقسـمها وتوزعها حسـب هواها دون مراعاة للسـكان أو للعـوامل القبلية أو الاثنوغرافية فخرجت لنا هذه التركيبة الغريبة وتلك المعادلة الصـعبة من حدود غير متفقة مع الطبيعة أو الشعب الذى عاش وقطن هنـاك لآلاف السنين • وستظل مشكلة الحدود فى القرن الافريقى تسـير فى متاهات ودوامات وصراعات القوى الكبرى لانها وضعت وخططت على اسس غير سليمة أو موضوعية وستظل منطقة القرن الافريقى محورا للاحتكاك بين القوى الكبرى طالمـا ان مشكلات الحدود لم تصل بعـد الى طريقها الصحيح . وستظل بريطانيا وسياستها فى التفرقة المسئول الأول عن مشكلات الحدود فى القرن الافريقى •

أثر الصراع الأوربى على القرن الافريقى
فى أواخر القرن التاسع عشر

د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهـــرة

شهدت منطقة القرن الافريقى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حلقة جديدة من التكالب والصراع الاوربى على هذا الجزء من افريقيا حيث أخذت الدول الاوربية وخاصة انجلترا وفرنسا ثم ايطاليا تسعى جاهدة للسيطرة على مختلف مناطق هذا الجزء من افريقيا ، وساعـــدها فى ذلك مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤/١٨٨٥ الذى نص فى بعض مواده على ضرورة الاحتلال الفعلى لمناطق النفوذ ،واخطار الدول الاخرى بذلك ، فـــكان السباق المحموم والتكالب والصراع لبسط السيطرة ولمد النفوذ على القرن الافريقى •

لكن كيف كان الوضع فى تلك المنطقة قبل بداية التنافس الاوربى ، ولمـــاذا تركز الصراع على هذا الجزء من القارة الافريقية ، وما هى أهم الدول التى دخلت حلبة الصراع وكان لها الأثر الأكبر فى تغيير الخريطة السياسية لمنطقة القرن الافريقى ؟ وما هى الآثار التى ترتبت على ذلك الصراع الاوربى •

يحاول هذا البحث القاء الضوء على منطقة القرن الافريقى فى اواخر القرن التاسع عشر ، وكيف ازداد النفوذ المصرى فى شرق افريقيا وبـــلاد الصومال خاصة فى عهد الخديو اسماعيل ويشـــير البحث الى الصراع الأوربى فى المنطقة مع تحليل دوافع هذا الصراع والتركيز على ابـــرز القوى الأوربية التى اثرت فى المنطقة وخاصة انجلترا وفرنسا وايطاليا •

ويلقى البحث المزيد من التحليل عن هذا الصراع الأوربى مع القوى الوطنية وخاصة اثيوبيا مع التركيز بصفة خاصة على الصراع الايطالى الاثيوبى الذى كان له انعكاسات خطيرة فى منطقة القرن الافريقى .

ويشير البحث الى ابرز المعاهدات والاتفاقات التى وقعتها الدول الأوربية سواء مع بعضها البعض أو مع القوى المحلية والتى كانت لها اثارها على مشاكل الحدود فى المنطقة .

واخيرا يحلل البحث الآثار التى ترتبت على هذا الصراع الاوربى فى منطقة القرن الافريقى ، واثر ذلك على المشكلات التى تعانيها المنطقة فى الوقت الحاضر خاصة مشكلات الحدود ، وتوزيع القبائل داخل وحدات سياسية لا تتفق مع التقسيمات الطبيعية أو البشرية .

اثر الصراع الاوربى على القرن الافريقى فى أواخر القرن التاسع عشر

لقد ترك الاستعمار الاوربى للقارة الافريقيه حدودا سياسية مصطنعة مزقت أوصال شعوب وجماعات قومية متماثلة فى مصالحها أو اهدافها ومتجانسة فى أصولها العنصرية وفى ثقافتها وكانت هذه الوحدات السياسية المصطنعة سببا فى مشكلات الكثير من الدول الافريقية خاصة بعد الاستقلال • ويمثل القرن الافريقى صورة حية وواضحة لهذه التجزئة الافريقية التى رسمتها السياسة الاستعمارية فى هذه المنطقة ونعنى بالقرن الافريقى • ذلك البروز الشرقى من أقصى شمال افريقيا ، ويمتد الى منتصف أرض جيبوتى فى الشمال حتى نهر تانا فى كينيا ، ويمتد داخل حدود اثيوبيا ويحده من الشمال خليج عدن ، ومن الشرق المحيط الهندى ورأس جرد فون فى الشمال حتى مصب نهر تانا فى الجنوب ، ويحده غربا اثيوبيا من ناحية الشمال وكينيا من ناحية الجنوب ، ومساحته حوالى ٤٥٠ ميل مربع ويشمل كل أرض الصومال ونحو نصف أرض جيبوتى وخمس مساحة كل اثيوبيا وكينيا (١) •

ففى النصف الاول من القرن السادس عشر بدأ اهتمام الدولة العثمانية بالبحر الاحمر لمواجهة الغزو البرتغالى ، وخرج أسطول عثمانى ضخم من ميناء السويس فى عام ١٥٣٨ فاستولى على عدن ، كما احتل العثمانيون جزيرة مصوع ، وتوسعوا بعد ذلك فاستولى على بلاد الشاطىء وهى اريتريا الحالية ، واطلق العثمانيون على هذا الساحل من سواكن الى مصوع ولاية الحبش وبعد القضاء على الحركة الوهابية عين ابراهيم باشا واليا على جدة والحجاز وصار ابراهيم يحمل لقب متصرف جدة والحبش وامتد النفوذ المصرى فى هذه المنطقة حتى بلغ اقصاه فى عهد الخديو اسماعيل حيث امتدت الادارة المصرية فى عهده الى البحيرات

---

(١) احمد يوسف القرعى : الخريطة السياسية للقرن الافريقى ، مجلة السياسة الدولية العدد ٥٤ لعام ١٩٧٨ ، ص ٨

الاستوائية والسودان ، وبعض اقاليم الحبشة والصومال ؛ ففى فرمان تغير الوراثة الذى صدر لاسماعيل فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ نص على ان تنتقل ولاية مصر مع ماهو تابع لها من الاراضى وكل ملحقاتها وكذلك سواكن ومصوع الى اكبر اولاد الوالى بطريق التوارث وبالصورة نفسها الى اكبر اولاد ذريته(١) وكان ذلك مقابل دفع ضريبة قدرها سبعة الاف جنيه تدفعها الخديوية المصرية للسلطان العثمانى سنويا(٢) .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحول البحر الاحمر من بحيرة راكده الى اهم شريان للمواصلات البحرية خاصة بعد اكتشاف البخار واستخدامه فى الموصلات البحرية وازدادت هذه الاهمية بعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٨٦٩ ومن الطبيعى ان يزداد التنافس الاستعمارى على الساحل الشرقى من افريقيا وأدركت مصر اهمية هذا الساحل فلم تقف مكتوفة الايدى امام هذا التكالب بل راحت تثبت اقدامها هناك قبل ان تسبقها دول اخرى ، وبالفعل بسطت نفوذها على سواحل البحر الاحمر ودعمت نفوذها هناك(٣) وقد مر التوسع المصرى بعدة مراحل استولى المصريون فى مراحله الاولى على زيلع فى عام ١٨٧٥ ثم امتدوا بعد ذلك الى نهر الجوبا وارسلت مصر حملة الى هذا الغرض غادرت السويس فى سبتمبر ١٨٧٥ بقيادة ماكيلوب باشا مدير الموانى والمنارات المصرية ووصلت الى رأس حافون الواقعة جنوب رأى جردفون فى ١٥ اكتوبر ١٨٧٥ ثم الى قسمايو ، وكان الهدف من هذه الحملة الوقوف فى وجه الاطماع الاستعمارية الاوربية(٤) . واضطرت مصر الى الموافقة على وجهة نظر بريطانيا بتحديد رأس جردفون نهاية للسيادة

---

(١) مجموعة الفرمانات الشاهانية ـ فرمان رقم ٩١٣ فى ١ ذى الحجة ١٢٨٧ .

(٢) محمد رجب حراز : التوسع الايطالى فى شرق افريقيا وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال رسالة ماجستير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٦٠ ص ٨٦

(٣) دكتور شوقى الجمل : سودان وادى النيل الجزء الثانى . ص ١٩٢

(٤) دكتور شوقى الجمل : دور مصر فى افريقيا ، ص ١١٠ .

المصرية على الساحل الشرقى لافريقيا وجرت مفاوضات بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية انتهت بتوقيع اتفاق بين الطرفين فى ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ حيث اعترفت بالسيادة المصرية على ساحل الصومال حتى رأس حلفون الواقع على بعد ٢٠٠ ميل الى الجنوب من رأس جردفون(١) .

واشترطت بريطانيا فى هذه المعاهدة تعهد الدولة العثمانية بعـــدم اعطاء اية دولة اجنبية اية منطقة من سواحل بلاد الصول أو من البلاد التى دخلت فى حوزة الحكومة المصرية ، لكن الباب العالى لم يصدر التعهد المطلوب ، فاعتبرت بريطانيا هذه المعاهدة غير كاملة(٢) وفى ٢٩مايو ١٨٨٤ اصدر اللورد جرانفل تعليماته الى السفير البريطانى لدى الباب العالى اللورد دفرين بعدم اعتبار المعاهدة قائمة وان بريطانيا قد قررت اتخاذ الترتيبات الضرورية للمحافظة على الامن والسلام خصوصا فى بربرة التى تمد عدن بحاجتها الرئيسية واحتج الباب العالى لكن دون جدوى .

ومما لايدع مجالا للشك ان سقوط مصر فى قبضة الاحتلال البريطانى كان له آثاره العكسية على التنافس الدولى على سواحل البحر الاحمر خاصة بعد ان نقل الباب العالى مسئولية ادارة ممتلكاته على الســـواحل الافريقية الى مصر ، وبدأت بريطانيا تقوى من نفوذها خاصة بعد ان جال بخاطرها فكرة اخلاء مصر لهذه السواحل(٣) .

وأدركت بريطانيا ان البحر الاحمر قد صار بعد شق قناة السويس الطريق الطبيعى الى الشرق الاقصى ، لذا نجدها تسعى للسيطرة على عدة نقاط هامة ، فاستولت على عدن فى ١٦ يناير ١٨٣٩ واتخذت منها قاعدة

---

(١) د . جمال زكريا قاسم : العلاقات المصرية الافريقية . ص ٢٩٢ .
وايضا د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا ص ١١٩ .
وانظر نص الوثيقة : د . شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر وثيقة رقم ١٦٦ ص ٣٥١ .

(٢) India office library and Records, 1; Pand 5 : 18-27 Home No. 393, Somali Coast Sect. 110.

(٣) د . جاد محمد طه : بريطانيا والصومال بحث فى سمنار البحر الاحمر فى السياسة والتاريخ بجامعة عين شمس ص ٤٧٣ .

امامية تشرف منها على بلاد الصومال والبحر الاحمر وتؤمن طـرق مواصلاتها الى الهند(١) •

وكان اول من فكر فى الاخلاء هو الميجور هنتر (F. HUNTER) التابع لفرقة اركان بومباى والمقيم السياسى فى عدن حيث ادعى ان منليك حاكم شوا يستعد مع قبائل الجلا للاستيلاء على هرر ، وان قبائل الصومال تهدد الحاميات المصرية من زيلع وبربرة •

وثبت كذب مايقوله هنتر من خلال قبطان السفينة سفنكس Sphinx الذى ارسل تقريرا افاد فيه عدم تحديد مينائى زيلع وبربرة ، وان كل شىء هادىء هناك ولا يوجد مايدل على حدوث اية اضطرابات(٢) •

رغم هذا فقد طلبت وزارة الخارجية البريطانية من حاكم بومباى فى ٣ يوليو ١٨٨٤ بأن يأمر الميجور هنتر بان يرسل تقريرا عن كيفية انسحاب القوات المصرية من ساحل الصومال(٣) •

واضطرت مصر الى سحب قواتها من هذه المناطق بسبب ازدياد النفوذ الاجنبى وضغطه على خديوى مصر لوقف سياسته الافريقية بل وتقلص نفوذه هناك ، وكانت الازمة المالية فى مصر سببا فى عجز مصر عن استمرار سياستها الافريقية ، واضطرت الى انهاء وجودها فى شرق افريقيا اولا ثم فى وسطها خاصة فى السودان بعد قيام الثورة المهدية وفقد مصر املاكها فى بحر الغزال وسنار ودارفور وخط الاستواء والصومال بعد ان اصدر الخديو عدة قرارات باخلاء تاجوره وزيلع وبربرة عام ١٨٨٤ كما اخليت هرر فى يونية عام ١٨٨٥ وحلت القوات البريطانية محل هذه القوات

---

(١) محمد عبد المنعم يونس : الصومال ، القاهرة ١٩٢٢ . ص ٣٤ .

(٢) Baring to Graville, Jan 1 st 1884. FO. 141-192 No. 5.

(٣) S.P. Vol. LXXXIX, EGYPT No. 141 (1885) Correspondence respcting Ports in the Red Sea and Gulf of Aden Provinces of Harrar (C 4417) No. P. 3).

المصرية فى هذا الجزء[1] •

وترتب على انسحاب مصر من شرق افريقيا وجود فراغ ضخم ، حيث اعتبر الأوربيون هذه المناطق ارضا لاصاحب لها (Res Nullius) وكان الغرض من ذلك هو اتاحة الفرصة امام الامبراطوريات الاوربية لبسط نفوذها فى المنطقة ، واعادة تقسيمها بعد ذلك وبالفعل ظهر على مسرح الأحداث كل من بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا • ودار صراع محموم بين هذه القوى خاصة بعد انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤/١٨٨٥ والذى تضمنت مادته ٣٤ على ان أى قوة تستولى على أى جزء من الأرض على سواحل افريقيا خارج ممتلكاتها الحالية ، أو تنوى اعلان الحماية عليها ان تخطر هذه الدولة كل القوى الموقعة على مرسوم المؤتمر وذلك لاعطائها حق الدفاع عن ادعاءاتها الخاصة[2] •

وقد ترتب على ظهور القوى الاستعمارية تخطيط المنطقة بشكل لايتفق مع توزيع السكان والقبائل ولم تراع فيه مصالح الوطنيين بقدر ما كانت كل دولة تحاول السيطرة والسيادة على مناطق نفوذ لحسابها •

أولا : بريطانيا والصراع فى القرن الافريقى :

سجل البريطانيون اول تواجد اجنبى على الساحل الشرقى لافريقيا عندما حاصرت وحدة بريطانية سواحل الصومال فى الفترة من عام ١٨٢٥ حتى عام ١٨٣٣ بسبب قيام بعض الوطنيين فى بربرة بالاعتداء على بحارة الباخرة الانجليزية مارى آن (Mary Ann) ولم يفك الحصار الا بعد دفعت السلطات الصومالية تعويضا ، ونظرا لاهمية عدن الاستراتيجية وتوسط موقعها بين مستعمرة جنوب افريقيا والهند فان

---

(١) د . محمد عبد الرحمن برج . البحر الاحمر فى السياسة الدولية فى نهاية القرن التاسع عشر بحث فى سمنار البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية بجامعة عين شمس ، ص ٥١٢ .

(٢) Hertslet, M. : Map of Africa by Treaty. Vol. (2) . pp. 468-486

السيطرة عليها يسهل السيطرة على ساحل افريقيا الشرقية من جهة سواحل شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى ولذا تركز الوجود البريطاني ابتداء من عام ١٨٣٩ حيث قامت سفينتان بريطانيتان بحصار الصومال مرة اخرى بسبب هجوم بعض الوطنيين على بعثة انجليزية بقيادة الرحالة بيرتون (Burton) وبعد ذلك عقدت معاهدة تجارية مع حاكم بربرة تضمنت حق استخدام الانجليز للميناء وتعيين مقيم بريطاني لها . وقد بدأ الاهتمام البريطاني بالساحل الصومالي بعد احتلال عدن في ١٩ يناير ١٨٣٩ وذلك لاستخدامها كمحطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمياه والمؤن اللازمة نظرا لموقعها المتوسط بين بومباى والسويس من جهة وصلاحية مينائها للملاحة طول السنة من جهة اخرى كما وجد البريطانيون في عدن قاعدة دفاعية امامية(١) لان بريطانيا بدأت تتخلى عن مبدأ حرية التجارة ، وأخذت تنغمس في مجال التوسع الاستعماري . وصار اهتمامها بالبحر الاحمر داخلا في اطار استراتيجيتها القائمة على حماية الطرق المؤدية للهند(٢) ويعتبر احتلال بريطانيا لعدن بداية التكالب الاوربى على منطقة القرن الافريقى وفاتحة التسابق الدولى لفرض السيطرة على هذه الجهات .

ونظرا لان عدن فقيرة الموارد ولاتستطيع ان تمد الحامية البريطانية بحاجتها من الغذاء ، فقد اتجهت انظار الانجليز الى الساحل الصومالي لكن تتخذ منه موردا لتزويد حاجتها من اللحوم بالذات(٣) .

وعقدت بريطانيا عدة اتفاقيات لعل اهمها اتفاقية عام ١٨٨٤ مع الامتيازات كما التزم الرؤساء بعدم التنازل لاى دولة عن اية تقعة من

---

(١) فاروق عثمان اباظة : التنافس الدولى في جنوب البحر الاحمر في النصف الاول من القرن التاسع عشر بحث في سمنار البحر الاحمر في التاريخ ص ٣٨ — ٣٨١ .

(٢) Robinson, R. and others ; Africa and the Victorians New-York 1868. p. 18.

(٣) Lewis, J.W. : The Modern History of Somaliland, London 1965 p. 40.

اراضيهم[1] واستطاع الميجور هنتر عقد معاهدة فى ١٤ يوليو ١٨٨٤ مع قبيلة جد اول . تعهد شيخ القبيلة بعدم التنازل ايضا عن اية بقعة من أرضه لاية دولة اخرى عدا بريطانيا[2] •

وكان من مصلحة بريطانيا ان يسود الهدوء هذا الساحل الافريقى حتى يمكن حماية قوافلها ولكن بعد افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ بدأت المنافسة بين انجلترا وفرنسا على سواحل افريقيا الشرقية ممـا اضطر بريطانيا الى اعلان حمايتها على الصومال عام ١٨٨٥ وقد جاء فى الاتفاقات المواقعة بين الصومالين والحكومة البريطانية تعهد رؤسـاء القبائل بعدم بيع أراضيهم لاية دولة أجنبية غير الحكومة البريطانية[3] وأبلغت بريطانيا ذلك الى الدول الموقعة على نصوص مؤتمر برلين وأعلنت ان الساحل الصومالى ابتداء من رأس جيبوتى حتى بندر زيادة عند خط طول ٤٩ شرقى جرينتش قد وضع تحت الحماية البريطانية • ولم تعترض الدول الاوربية على هذا الاجراء[4] •

واصبح من اهداف السياسة البريطانية السيطرة على منابع النيل سواء تلك التى تقع فى بلاد الحبشة أو فى منطقة البحيرات الاستوائية ، ولم يتم هذا الابالسيطرة على اوغندة وبحر الغزال وهرر والحبشـة والصومال أو على الاقل تمنـع اية دولة اوربية من السيطرة على هـذه المنـاطق •

وأرسلت بريطانيا الميجر هنتر (Hunter) للاتصال بالشيوخ واخذ التنازل المطلوب عن اراضيهم للسلطات البريطانية • والغريب ان بريطانيا طلبت التنازل عن هذه الاراضى ، والادارة المصرية لم تنسحب بعد • كما

---

(1) Public Record Office (Vol. 1-22) Rodd to Salisbury No. 20 May, 31, 1897.

(2) Aitchison, C.U. Acollection of Treaties, India 1892 Vol. XL pp. 201-202.

(3) صلاح حافظ : مرجع سابق . ص ٢٥٢ .

(4) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسة فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤٠٠ وأيضا الشاطر بصيلى عبد الجليل معالم تاريخ سودان وادى النيل ، ص ٢٤٦ .

استمرت مصر فى دفع اتاوة زيلع ومصوع لتركيا رغم احتلال بريطانيا لهمـــا(١) •

واجبرت بريطانيا مصر على اخلاء هرر فى ٥ مايو ١٨٨٥ ووافقت انجلترا على ارجاعها الى امير من سلالة الامراء السابقين ، وذهـب الميجور هنتر مع رضوان باشا الى هرر لابلاغ المشايخ والاعيان بقرار الاخلاء ، ولتنظيم حكومة وطنية • وفى ٢٥ ابريل ١٨٨٥ اصبح عبد الله بن عبد الشكور حاكما عليها(٢) وتعد جلاء القوات المصرية حاول عبد الشكور ابعاد أى تدخل اجنبى ، ووقف امام محاولات الانجليز لفرض حمايتهم على السلطنة • وانتقم الانجليز من هرر ، فسمحوا لاثيوبيا بأن تزحف اليها فى يناير ١٨٨٧ ورغم مقاومة الاهالى فان الاحباش نجحوا فى تدعيم وجودهم هناك(٣) • بسبب منافسة فرنسا لها وحاولت بريطانيا ان تجعل من ايطاليا حارسا يحمى املاك مصر هناك الى ان تستردها(٤) •

ولهذا السبب سهلت للايطاليين الحصول على المنطقة الواقعة جنوب رأس قصار خوفا من وقوعها فى أيدى الفرنسيين • وخوفا من تشديد الهجمات المهدية على الحاميات المصرية فى السودان الشرقى فقد اوفدت بعثة الى امبراطوار الحبشة بقيادة وليم هويت
ومزون بك محافظ مصوع لابرام اتفاقية مع اثيوبيـــا لتسهيل عمليـــة ســحب القـــوات المصرية الموجـــودة بشرق الســـودان بالقـــرب من الحدود الاثيوبية وقد ضمنت هذه المعاهدة للحبشة حرية تجارة الترانزيت عن طريق مصوع تحت الحماية البريطانية ، كما منحت ليوحنا امبراطور الحبشة اقليم بوغوص ابتداء من اول سبتمبر ١٨٨٤ ، وفى مقابل ذلك

---

(١) محمد المعتصم سيد : مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار ص ٢٧ .

(٢) د . شوق الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر وثيقة ١٥٢ ص ٣٣١ .

(٣) د . محمد محمود الصياد : الســـودان والحبشـــة مقـــال بالمجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع ، العدد الاول (مايو ١٩٥١) ص ٢٣٩ .

(٤) د . رافت الشيخ : افريقيا فى التاريخ المعاصر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص١٧٦

تعهد يوحنا بتسهيل انسحاب القوات الخديوية من كسلا وسانهيت عبر بلاده الى مصوع ، كما تعهدت الحكومة المصرية بتسهيل امر تعيين اسقف للحبشـــة(1) .

وقد صدقت بريطانيا على المعاهدة فى ٣ يونية ١٨٨٤ وتسلم الاثيوبيون بالفعل مقاطعة بوغوص عام ١٨٨٥(2) .

وتنافس ممثلو السلطات البريطانية فى عدن مع الفرنسيين حـــول الحصول على مناطق نفوذ لهم فى باب المندب ، فاحتل البريطانيون جزر موسى وأوباص التى كان الفرنسيون قد استولوا عليها ،ولكن البريطانيين ادعو انلهم معاهداتمع الشيوخ المحليين هناك(3) كما اتفقتانجلترا وفرنسا على المحافظة على الوضع الراهن فى منطقتى نفوذهما التى تقع على خليج عـــدن ، وأرسلت كل منهما مندوبين لبحث المعاهدات والاتفاقيات التى عقودها مع قبائل الصومال(4) .

وأسفرت المباحثات بينهما على اتفاق مايو ١٨٨٧ الذى نص على تنازل بريطانيا عن جزر موسى (Mushah Islands) والاعتراف بحق فرنسا فى ميناء أوبوك (Obok) وتاجوره وامبادو على ان تتنازل فرنسا لبريطانيا عن ميناء دونجاريتا(5) .

---

(1) F.O. 93 ; 2-2 : Treaty between Great Britain Egypt and Abyssinia 3 June 1884.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه المعاهدة انظر د . جلال يحيى : سواحل البحر الاحمر القاهرة ١٩٦٠ ص ٥٦ — ٦٢ .

(2) د . شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الاحمر ص ١١٥ .

(3) انظر نص المعاهدة فى مكرم سويحة بخيت : العلاقات المصرية الحبشية ١٨٨٤ — ١٢٩ رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد البحـوث الافريقية جامعة القاهرة ١٩٧٩ ص ص ٢٣٩ — ٢٤٥ .

(4) S.A.D. : 125 Lieutenent General Sir Wingate S Special Appendix Treaties leading to the political Situation in Somaliland on the rise of Mullah p. 10.

(5) تقع بين زيلع وبربرة وهى تقع ضمن دائرة النفوذ البريطانى فى الصومال انظر خريطة رقم (1) .

وكانت الحدود الفاصلة بين الصومال البريطانى والفرنسى عبارة
عن خط يبدأ على الساحل مقابل ابار هادو (Walls of Hadou)
ويمر خلال ابار سعيد (Walls of Said) الى اباسوين (Abassouen)
وبعد ذلك يتبع خط القوافل الى بياكو بسوبا (Biy ababoba)
ثم يسير مع طريق قوافل زيلة الى هرر مارا بجلدسيا (Gildessa)
وتشترك أبار هادو فى كلا الجزئين ، وقد اعترفت الحكومة البريطانية بالمحمية الفرنسية الى الغرب من هذا الخط على ساحل خليج تاجوره بما فيها جزر موسى وجزر باب (Bab) وبالمثل اعترفت الحكومة الفرنسية بمحمية بريطانيا الى الشرق من هذا الخط على الساحل الصومالى حتى بندر زيادة (١) واتفقت الدولتان على عدم ضم هرر او فرض الحماية عليها ، وقد حاولت فرنسا عام ١٨٩١ الحصول على تعهد من ايطاليا بخصوص هرر ولكنها فشلت لعدم اعتراف ايطاليا بشرعية حقوق فرنسا على الساحل .

وبعد ذلك قامت بريطانيا بتحديد الحدود بين الصومال الايطالى والصومال الانجليزى ، فأبرمت مع ايطاليا اتفاقين أحدهما فى ٢٤ مارس والآخر فى ١٥ ابريل ١٨٩١(٢) وقد نص اتفاق ٢٤ مارس على رسم خط الحدود بين منطقة النفوذ الايطالى والبريطانى ابتداء من نهر جوبا الى النيل الأزرق بحيث يدخل الصومال الايطالى ومستعمرة أريتريا الى رأس قصار أقصى نقطة على الساحل الاريترى فى الشمال وبحيث تدخلا كسلا والمنطقة المجاورة لها لغاية نهر عطبره فى دائرة النفوذ الايطالى

(١) د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا ص ١٨٩ .
(٢) محمد المعتصم سيد : مرجع سابق ، ص ٣١ .

بينما تخرج قسمايو من دائرة النفوذ عند اقصى الصومال الايطـالى الجنوبية(١) .

وحددت اتفاقية ١٥ بريل ١٨٩١ منطقة النفوذ الايطالى فى الشمال والغرب من جهة أفريقيا الشرقية . بخط يبدأ من رأس كسار عـلى البحر الأحمر الى نقطة تقاطع الخط السابع عشر من خطوط العـرض الشمالية مع الخط السابع والثلاثين من خطوط الطول شرق جرينتش . ويتبع خط العرض خط الطول هذا الى ان يلتقى مع خط عرض ٣٠ر١٦° من خطوط العرض الشمالية . ويرسم خط الحدود من نقطة الالتقـاء هذه فى خط مستقيم الى سابدرات (Sabderat) وبحيث تترك سبدرات الى الشرق(٢) .

واستكمل الايطاليون الحدود فى اتفاق ٥ مايو ١٨٩٤ وكان هدفهم ان يحصلوا من الانجليز على اعتراف بحقوقهم فى المنطقـة المجـاورة لاملاكهم . والاعتراف بادعاءتهم فى السودان الشرقى كـذلك وافقت بريطانيا من جانبها على تحديد مناطق النفوذ بينهما وبـين ايطاليا فى فى الصومال وعلى اطلاق يد الايطاليين فى احتلال كسلا والبلاد المجـاورة لها حتى نهر عطبره(٣) .

وبهذا الاتفاق صار ساحل الصومال الايطالى يصل الى نهر جوبا ويبلغ طوله الفى كيلو متر(٤) .

---

(١) ونص هذا الاتفاق الذى وقع فى فبراير ١٨٨٨ بين فرنسا وانجلترا على تعهد الحكومتين بعدم ضم هرر اليهما او بوضعها تحت النفوذ ومقاومة محاولات اية دولة اخرى لضم هرر (أنظر صلاح حافظ : صراع القوى العظمى حول القرن الافريقى ص ٢٥٧) .

(٢) Races. A. : A History of the Colonisation of Africa Cambridge 1913, p. 395.

(٣) د . السيد . رجب حراز : افريقيا الشرقية والاستعمار الاوربى ص ٤١٣ .

(٤) S.A.D. : 125 7 Appendix 11 Notes on the various Treaties Op. Cit., p. 11.

وجاء رسم حدود الصومال مع اثيوبيا ضمن سلسلة من المساومات التى قامت بها بريطانيا مع اثيوبيا ، وقد استطاعت بريطانيا توقيع معاهدة اديس ابابا مع منليك فى ١٤ مايو ١٨٩٧ وقد تضمنت أرجاء تخطيط الحدود بين مستعمرة الصومال البريطانى واثيوبيا الى اتفاق ينتهى اليه رينيل رود (Rennel Rodd) مع الرأس ماكونين وذلك بتبادل المذكرات التى تلحق بالمعاهدة وتكون جزءا منها • وفى ٤ يونية ١٨٩٧ وقعت اتفاقية فى هرر مع الرأس ماكونين بشأن تحديد الحدود بين الصومال البريطانى واثيوبيا (١) •

وكانت مناقشات الحدود بين الرأس ماكينون فى هرر صعبة ولكن فى النهاية تم التوصل الى حل وسط تنازلت فيه بريطانيا عن ٦٧٫٠٠٠ ميل مربع من الأراضى فى اقليم هود (Haud) لكنها استطاعت المحافظة على هارجيسا (Haragisa) وجزء من داخل المحمية (٢) •

وفى مجال المنافسة الاستعمارية قرر سالسبورى عام ١٨٨٩ احكام الرقابة على حوض النيل ومصر ، وكان مصدر القلق امامه هو منليك الذى يهدف الى التوسع على حساب المنطقة • ولذا نجد ان بريطانيا تساند ايطاليا فى ادعاءاتها فى اثيوبيا واستطاعت ان تضمن رقابتها واشرافها على روافد النيل فى البروتوكول الايطالى الانجليزى فى ١٥ ابريل ١٨٩١ • لكن هذه السياسة البريطانية قد انهارت بعد هزيمة ايطاليا فى عدوة عام ١٨٩٦ ، حيث ترتب على هذا الفراغ اندفاع الاثيوبيين نحو النيل ، وخشى البريطانيون من التهديدات الفرنسية من ناحية الشرق خاصة بعد محاولات فرنسا التقرب من منليك ، ووصول بعثة لاجارد (Lagarde) عام ١٨٩٧ الى معاهدة تحالف حقيقة (٣) •

وبناء على ذلك اتخذ البريطانيون قرارهم الاستراتيجى بالسير

---

(١) Landger, William : The Diplomacy of Imperialisn p. 110

(٢) Lewis. M.; Op. Cit., p. 59.

(٣) Pierre-Alype : L'Empaire des Negus, Paris 1925 p. 94.

نحو دنقله لتخفيف الضغط على الايطاليين ولمواجهة رد الفعل المرتقب من جانب الفرنسيين على اعالى النيل(١) •

وأثبتت ازمة فاشودة وما ترتب عليها من نتائج ان بريطانيا هى القوة العظمى فى وادى النيل بعد ان فشلت فرنسا فى الحصول عـلى أى موقع استراتيجى على حوض النيل وبعد تحطيم حلمها فى الحصول على أية ادعاء فى مصر بعد انسحاب مارشان من فاشـوده وتسـوية الخلاف فى ٢١ مارس ١٨٩٩ بالاتفاق على اصدار تصريح انجـليزى فرنسى وبمقتضاه خرج حوض بحر الغزال وبحر العرب وبما فى ذلك دار فرتيت ودارفور من دائرة النفوذ الفرنسى •

واذا كانت بريطانيا قد حسمت الصراع فى أعالى النيل لصالحها بانسحاب مارشان وخروج الفرنسيين من هذه المنطقة فانها واجهت قوة أخرى لا تقل عن الفرنسيين وتمثلت فى ادعاءات منليك الذى ارسل خطابا دوريا عام ١٨٩١ الى القوى الأوربية حدد فيه حسب وجهة نظره الحدود الأثيوبية ، واضطرت بريطانيا الى ارسال رينيل رود (Rennel Rodd) الى اثيوبيا لتسوية هذه المشكلات ووجد رود تشدد من منليك الذى يهدف الى التوسع نحو الغرب وقد طلب منه رود ان يترك الموقف على الحد الغربى ليحل فى المستقبل بعد دراسته بحسن النوايا(٢) واقترح رود ضرورة اقامة علاقات دبلوماسية قوية ودائمة مع منليك خوفا من استغلال القوى الأوربية الأخرى هذا العداء فى الدعاية ضد بريطانيا وقد فهمت الخارجية البريطانية هذه الضرورة ، وفى نوفمبر ١٨٩٧ عينت جون لين هارنجتن (John Lane Harrington) قنصلا لها فى زيلع وقد استطاع هارنجتون بعد وصوله الى اديس ابابا ان يضع اصابعه على أسس سياسة منليك التوسعية القائمة على اساس ان الاحتـلال الفعلى

---

(١) Marcus, Harold : Ethio-British Negotiations Concerning The Western Border with Sudan 1896-1902 Journal of African History, IV, I (1963) pp. 81-94.

(٢) F..O 403-255, Rodd to Menelek, 14 May 1897.

هو الورقة الرابحة فى افريقيا وآن منليك لن يتخلى عن تحقيق اطماعــه التوسعية الا اذا وجد معارضة قوية(١) .

وقد تقلصت أطباع منليك التوسعية فى أعالى النيل بعد هزيمــة الدراويش فى موقعة الرجاف Rajjaf عام ١٨٩٨ حيث أحتل البريطانيون القضارف والرصيرص التى تعد من المدن الاستراتيجية على النيل الأزرق ، وبعد ذلك بدأت المفارضات بين الطرفين فى اوائل ابريل ١٨٩٩ واستمرت المفاوضات فترة من الزمن حين تم توقيع معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا لتسوية الحدود السودانية والأثيوبية واستطاعت بريطانيا المحافظة على مصالحها فى وادى النيل وحصلت على ضمانات من اثيوبيا بخصوص النيل الازرق وبحيرة تانا(٢) .

ثانيا ــ ايطاليا والقرن الافريقى :

بعد الوحدة الايطالية فكر الزعيم غريبالدى فى مشروع لاحتلال شريط من الأرض على ساحل البحر الأحمر لكن المشكلات الداخلية حالت دون تنفيذ المشروع وبعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ بدأ الاهتمام الايطالى بالبحر الأحمر للبحث عن منطقة تصلح لانشاء محمية ايطــالية هناك وقد وقع اختياره على عصب التى اشتراها فى أواخر عام ١٨٦٩ من السلطان ابراهيم(٣) .

وفى ١٥ نوفمبر ١٨٦٩ عقد اتفاقا مع شيخين من شيوخ الدناكل وحصل بموجبه على قطعة ارض مقابل ٨١٠٠ ريال تساوى(٤) كمــا نجح فى عقد بضع اتفاقيات جديدة كان أولها فى ٣٠ ديسمبر مع الشيخ برهان سلطان رهيطه حصلت شركة روباتينو بموجته على جزر أم البقر

---

(١) F.O. 1-32. Rodd to Salisbury, June 1897.

(٢) F.O. 1-34. Harrington to Col. T. Walker 11 May 1898.

(٣) عثمان صالح سبى : تاريخ اريتريا . ص ٧

(٤) د . محمد فؤاد شكرى : مرجع سابق . ص ٤١٨ .

ورأس الرمل ومجموعة الجزر المسماه درماكيا (Darmakia) [1] .

واتصلت الحكومة الايطالية بأحد رجال الأعمال ويدعى رفا يلى روباتينو (Raffaele Ruibattino) لاجل شراء قطعة من الارض لاستخدامها للمصالح القومية الايطالية وعقد سابيتو اتفاقا جديدا مع ثلاثة من شيوخ الصومال جحيل بموجبه على قطعة أرض على الساحل بين رؤس لوما وخليج علالا رجبل جانجا ، ورفع عليها العلم الايطالى[2] الذى رفرف لأول مرة على شاطىء البحر الأحمر وانتهز سابيتو فرصة وجوده فى عصب فشيد فى هذه القرية دارا صغيرة لاستخدامها كمكتب للشركة[3] .

وفى أواخر ١٨٨١ عينت ايطاليا قنصلا لها فى عصب ليتولى الادارة المدنية لهذه المستوطنة ولكن فى السادس من يولية ١٨٨١ وصل خطاب احتجاج قدمه محافظ ساحل البحر الأحمر للشركة الأيطالية على اتفاقها مع مشايخ رهيطه وعصب وجاء فيه ان كل الساحل حتى رأس حافون ملك للحكومة المصرية ولا توجد فيه سلطة عليها الا سلطة الخديو ، وان شيخ رهيطه ما هو الا تابع للحكومة ومن ثم فليس له الحق فى التصرف فى أى جزء من الساحل أو الجزر المواجهة[4] كما وصلت لندن برقية من عدن تتضمن انباء عن استيلاء ايطاليا على خليج عصب فأبرق سالسبورى الى باجت (Paget) سفيره فى روما يطلب منه على الفور الاتصال بالحكومة الايطالية لمعرفة حقيقة هذه الانباء ،

---

(1) F.O. 78-3192, Stanhope to Tenlrden, 19 March 1880, encl. Loch to the Government of Bombay, 6 Feb. 1880.

(٢) . شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر مرجع سابق وثيقة رقم ٣٧ ص ١٠٦ وايضا د . رجب حراز التوسع الايطالى فى شرق أفريقيا ص ١٤٣ .

(٣) عثمان صالح سبى : مرجع سابق ، ص ٧١ .

(٤) نص الخطاب من رضا باشا الى سابيتو فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨٠ منرجم فى : د . شوقى الجمل الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر وثيقة رقم ٧٧ ص ١٨١ .

وعما اذا كانت روما قد اعطت تعليماتها بالاستيلاء على خليج عصب وختم برقيته قائلا : ان خليج عصب يخص مصر[1] .

ورغم ذلك فان ايطاليا طلبت من قنصلها ان يستكتب الشيخ برهان محمد حاكم رهيطه اقرارا جديدا يعترف فيه بعدم خضوعه للخديوية المصرية ، وعقد الايطاليون بعد ذلك معاهدة مع الشيخ برهان وضعت بموجبها رهيطه تحت حماية الحكومة الايطالية[2] وفى ٩ ديسمبر ١٨٨١ أبلغ هيلتون (Hilton) قبطان السفينة دراجون (Dragon) بأن المسئول الايطالى فى عصب قد اخبره بطريقة رسمية بأنه قد اعطى الشيخ برهان راية ايطالية وانه قد وقع معه معاهدة الحماية .

وقد تدخلت انجلترا بعد ذلك فى المشكلة وحاولت عقد اتفاق بين مصر وايطاليا فى اكتوبر ١٨٨١ وتضمن اعتراف خديو مصر بما حصلت عليه ايطاليا من أرض عصب والتنازل عن دعواها بشأن مساحتها وقصر استخدام أراضى عصب على الاغراض التجارية فقط وألا تقام بها تحصينات أو تستخدم كمحطة عسكرية أو بحرية وبالرغم من محاولات انجلترا لاقرار المعاهدة فى كل من مصر وتركيا الا ان الخديو رفض الاتفاقية نهائيا[3] .

وبعد ذلك وقعت ايطاليا معاهدة مع سلطان الميجرتين اعلن بأنه مستقل تماما عن سلطة اوبيا ووقعت ايطاليا وثيقة مع السلطانين بشأن وضع بلادهما تحت الحماية الايطالية وطبقا لمقررات مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ فقد أبلغت ايطاليا الدول الاوربية بذلك[4] .

وتوغلت القوات الايطالية فى الأراضى الداخلية فيما وراء مصوع غربا واستولت على زيادة كما مدت سلطانها شمالا حتى وصلت الى ١٠٠

---

(١) F.O. 78-3182, Tel. Salisbury to Paget, 5. Jan. 1880.

(٢) د . رجب حراز : الاصول التاريخية لمشكلة اريتريا ص ٢٥ .

(٣) Lewis, M. : Op. Cit., p. 45.

(٤) د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا ص ٢٤٦ .

ميل جنوب سواكن وفى الجنوب صارت المناطق الايطالية متاخمة للممتلكات الفرنسية فى أوبوك ومقابلة لباب المندب(١) ٠

وبعد ذلك ازداد النفوذ الايطالى على سواحل المحيط الهندى فى ممتلكات سلطان زنجبار وفى فبراير عام ١٨٨٥ وصلت السفنة الايطالية بارباريجو (Barbargo) الى مصوع فى اتجاهها نحو عصب ٠

وبعد ان ثبتت ايطاليا اقدامها على الساحل الصومالى المطل على المحيط الهندى اندفعت لمد نفوذها الاستعمارى الى قسمايو وغيرها من الموانى الهامة على الساحل مثل مقديشيو ومركا وبراوة ، وعرفت ايطاليا ان الاستيلاء على هذه الموانى لن يتم الا بموافقة بريطانيا ، ولذا فانه بعد موافقة سلطان زنجبار فى ٢١ مارس ١٨٨٩ على منح شركة شرق افريقيا البريطانية امتياز استغلال بلاده ، اجرت هذه الشركة مفاوضات مع الخارجية الايطالية ، وتم الاتفاق على انه بمجرد حصول بريطانيا على عقد الامتياز فانها سوف تسلم الحكومة الايطالية الموانى الواقعة شمال نهر جوبا ، وتحتفظ الشركة بادارة الموانى الواقعة جنوب النهر وبعد ان وقع وليم ماكينون على عقد الامتياز فى ٣ أغسطس ١٩٨٩ قام على الفور بتوقيع عقد ايجار من الباطن مع ممثلى الحكومة الايطالية سلمه بمقتضاه موانى مقديشيو ومركا وبراوة والمناطق المحيطة بهم لمسافة عشرة أميال فى الداخل بنفس شروط عقد الامتياز الممنوحة للشركة البريطانية ٠

واعترفت الحكومتان الايطالية والشركة الانجليزية فى المساواة فى الحقوق والملاحة على نهر الجوبا وفروعه كما وافقت الشركة البريطانية على حق اعطاء الحكومة الايطالية امتيازاتها لشركة ايطالية تسمى الشركة الملكية الايطالية لافريقيا الشرقية أو أى اسم مشابه ٠ وكان هدف

---

(٤) د . شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا ، ص ٣٦٢ ٠

بريطانيا من وراء تشجيع ايطاليا على الاستيلاء على هذه الجهات ايقاف توسع الفرنسيين وحصرهم فى مستعمرتهم فى أبوك .

وفى أول يناير ١٨٩٠ اصدر الملك الايطالى امبرتو الأول مرسوما بتأسيس مستعمرة اريتريا بتوحيد الممتلكات الايطالية على سواحل البحر الاحمر والمرتفعات التى احتلها الجيش الايطالى وعينت الحكومة الايطالية الجنرال اوربرو أول حاكم عام عليها (١) .

وكان الاستيلاء على مصوع بداية لتنفيذ المشروعات الاستعمارية الايطالية على سواحل البحر الأحمر وشرق افريقيا وشجعت بريطانيا الايطاليين على تنفيذ المشروع لمنع وصول الفرنسيين الى وادى النيل والاحتفاظ بساحل البحر الأحمر بعيدا عن ايدى الفرنسيين (٢) .

ومما لاشك فيه أن المنافسة البريطانية الفرنسية على سواحل الصومال قد ساهمت فى تحسين العلاقات الانجليزية الايطالية نظرا لاعتماد الانجليز على الايطالين فى الوقوف امام التوسع الفرنسى .

وما ان ثبت الايطاليون نفوذهم حتى بدأوا يعلنون عن حقيقة اطماعهم بصراحة وانهم يسعون للتوسع فى المناطق الداخلية ومعنى هذا تهديد التوسع الحبشى ، ولكى تنجح ايطاليا فى تنفيذ خطتها فكرت فى الانضمام الى الملك منليك ضد منافسه فى الحبشة وشجعت منليك على الاستيلاء على اقليم هرر عام ١٨٨٧ بسبب مصرع بعض الكشافة الايطاليين ، ولما قتل الملك يوحنا منافس منليك عام ١٨٨٩ فى حروبه مع الدراويش صار منليك الحاكم الأوحد للحبشة . وابرمت معه ايطاليا تحالفا عام ١٨٨٩ .

---

(١) احمد طربين : تحرير اريتريا الحديثة من الاحتلال الاجنبى واثرة فى الميزان الاستراتيجى العربى ، ضمن بحوث فى التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ١٩٧٥ ص ٣٨ .

(٢) Wolf. L. : Empire and Commerce in Africa, New York 1920 p. 150.

ومكان منليك قد حصل على اعتراف رسمى من ايطاليا ، بحقه فى الحصول على اسلحة ومعدات حربية بدون دفع رسوم جمركية عبـــر الميناء الايطالى الى مصوع وفى مقابل هذه التسهيلات ارسلت ايطاليـــا انطونيلى لعقـــد معاهدة لتسهيل التوسع الايطالى فى الداخل وبالفعـــل عقد معاهدة اوتشيالى فى ٢ مايو ١٨٨٩ وحسب المـــادة السابعة عشرة منها ادخلت اثيوبيا فى مجال التبعية الايطالية حسب النص الايطـــالى

The King of kings of Ethiopia consentsto use the government of the king of Italy for all the business he has with other powers or Governme-nts

ووافق منليك على المعاهدة لان النص الأمهرى اقترح بأنه يمـــكن استشارة الحكومة الايطالية فى المسائل الدبلوماسية •

وطبقـــت ايطاليا المعـــاهدة واحتـــلت كيرين (Keren) عاصمة بوغوص فى ٢ يونية ١٨٨٩ وأسمره فى ٣ أغسطس ١٨٨٩ وتخطى الايطاليون شروط الاتفاق وسيطروا على بقية اقليم ألولا (Alua) وسافر الرأس ماكينون الى ايطاليا ووقع معاهدة تكميلية لمعاهدة اوتشيالى فى أكتوبر ١٨٨٩ وحسب المادة الخامسة والسادسة من هذه المعاهـــدة تم اقراض منليك اربعة ملايين ليرة ، ونصت المـــادة الثالثة على انهـــاء الحدود بينهما ولكن دار نقاش طويل حول تفسير المـــادة السابعة عشر من معاهدة أوتشيالى ، وكانت ايطاليا طبقا لنصوص مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤/١٨٨٥ قد اخطرت القوى الاوربية يفيد وجود اختلافات بين النسختين الأمهرية والايطالية وأعلن ان ايطاليا قد خدعته ، وفى ١٨ أغسطس ١٨٩٠ كتب منليك الى الحكومة الايطالية يفيد بأن مكانة اثيوبيا قد اهتزت بسبب سوء ترجمة المـــادة ١٧ بالرغم من أن المـــادة ١٩ قد نصت على ان النسختين الايطالية والأثيوبية من المعاهدة صحيحتان •

وفى ٢٧ سبتمبر ١٨٩٠ كتب منليك الى الملك الايطالى هامبورت

(١) Carlo Rossitte, Storia Diplomatic dell, Ethopia durante il Regno di Menilek II (Turin 1910) pp. 45.

موضحا عدم اتفاق النص الأمهرى مع الترجمة الايطالية وتمنى ان تصحح الأخطاء وتعلن القوى الاوربية بذلك وبناء على هذا الخطاب وصل انطونيللى (Antonelle) الى اديس ابابا فى ١٨ ديسمبر ١٨٩٠ ومعه تفويض باعطاء منليك الحدود التى يرضاها اذا قبل النص الايطالى للمادة ١٧ وقد دارت مباحثات رفض الجانب الاثيوبى خلالها اعتبار الحبشة تابعة لايطاليا • ولما ادرك انطونيللى ان محاولاته قد باءت بالفشل ارسل فى ٢٣ يناير ١٨٩١ الى كريسبى (Crispi) رسالة مطولة أوضح فيها ان المادة ١٧ ليست ضرورية لضمان مصالح ايطاليا فى اثيوبيا ، وان هذه المادة قد عرقلت التوصل الى اتفاق مع القوى الأوربية حول مجال النفوذ الايطالى واوضح ان الغاء المادة سيسهل العلاقات الودية مع منليك (١) •

وفى الثالث من فبراير عام ١٨٩١ قدم الرأس ماكينون الى انطونيللى مسودة اتفاق نصت على قبول الامبراطور منليك للمادة ١٧ كما هى فى النصين الايطالى والامهرى وفى السادس من فبراير استدعى انطونيللى الى القصر حيث عقد عدة اتفاقات • وأكد لأنطونيللى أنه فور الانتهاء من ترجمة نصوص المعاهدات فترسل اليه نسخة كاملة ولما لم تصله الترجمة حتى الثامن من فبراير طلب انطونيللى من سالمبينى (Salimbini) ترجمة النص الأمهرى اليه ، واكتشف سالمبينى ان النص الأمهرى يحتوى على عبارة تعنى الغاء المادة ١٧ • وفى الحال اندفع انطونيللى الى القصر وبعد مناقشة حامية مع الامبراطور منليك طلب ان تعاد اليه كل الوثائق التى ابرمت ، وفى نفس اليوم ارسل الى القصر يطلب سحب كل الدبلوماسيين الايطاليين من اثيوبيا وترك سالمبينى وانطونيللى اثيوبيا فى ١٢ فبراير ١٨٩١ وهكذا نجد ان العلاقات الايطالية الأثيوبية فى الفترة من ١٨٨٣ حتى ١٨٨٨ كانت حافلة بالتطورات والأحداث غير العادية ، فلقد كان احتلال مصوع ، ثم التوغل الايطالى

(١) Gann, L.H. and others : Op. Cit., p. 429-432.

فى الداخل ومذبحة دوجالى سببا فى استحالة الوصول الى اتفاق سلام بين الامبراطور منليك والايطاليين (١) •

وبدأت الحكومة الايطالية الجديدة بزعامة الماركيز انطونيو دى رودينى (Antonio de Ruini) العمل على كسب ولاء الزعماء والرؤساء التجريين على أمل تكوين دولة حاجزة بينهم وبين شوا وتقسيم شمال الحبشة وجنوبها ضمانا لأمن اريتريا (٢) •

وأخذت السلطات الايطالية فى اثيوبيا تتفاوض مع زعماء تجيرى وخاصة مع المانجاشا (Mangasha) الذى رحب بالتأييد الايطالى ووقع ميثاق صداقة مع الايطاليين فى ٨ ديسمبر ١٨٩١ ورد منليك على هذا التحالف باعلان الغاء معاهدة اوتشيالى فى أول ١٨٩٣ وتعاطفت الدول الأوربية مع منليك وأخذت الاسلحة الأوربية تتدفق على اثيوبيا من فرنسا ومن حليفتها روسيا (٣) وارسل ايضا مبعوث اثيوبيا مسلما يسمى محمد الطيب لمفاوضة المهديين للوقوف صفا واحدا ضد العدو الاوربى (٤) •

وأرسلت ايطاليا بعثة الى منليك ولكنها فشلت وحاولت ايطاليا تأليب المانجاشا على منليك لكنه رفض وأعلن الولاء لاثيوبيا • فما كان من الايطاليين الا ان زحفوا عليه فى ٣٠ ديسمبر ١٨٩٤ وانتصر الايطاليون على المانجاشا وفى عام ١٨٩٥ خيل للايطاليين ان الفرصة سانحة لتنفيذ برنامجهم التوسعى فاستولوا على اجوردات وصاروا سادة ولاية تيجرى الأثيوبية وظنت ايطاليا انها قادرة على اكتساح الأثيوبيين الذين تجمعوا بقواتهم فى أمبا الأجى بقيادة الرأس ماكينون ، ودارت معركة ٧ ديسمبر

---

(١) Robinson, Sven: The protectorate paragarph of withele Treaty, Journal of African History 5, 1964 pp. 243-83.

(٢) Oreste Baratieri : Memoires D'Afrique 1882-1896. (Paris 1899) 17.

(٣) Gann, L.H. and others : Op. Cit., p. 434.

(٤) د . شوقى الجمل : دور مصر فى افريقيا ص ٦٧ .

عام ١٨٩٥ وقضى فيها على الجيش الايطالى وكانت هذه الهزيمة سببا وتفكير الايطاليين فى كسب الحرب ضد الاثيوبيين بأن ثمن(١) •

ودارت بين الطرفين مفاوضات صلح ولكن تشدد كل من الطرفين حيث طلب الايطاليون الاعتراف بملكيتهم لكل ارتيريا حتى عدوة واحتلال امبا الأجى بصفة مؤقته واصر منليك على وجوب تخلى الايطاليين عن كل ما كسبوه من الأرض دون وجه حق ولهذا فشلت المفاوضات واستعد كل فريق للمعركة •

وفى أول مارس ١٨٩٦ التقى الجيش الايطالى مع جيش منليك فى عدوه وهى العاصمة القديمة لاقليم تيجرى • وهناك سحق جيش اثيوبى قوامه مائة ألف مقاتل القوة الايطالية التى كانت تضم ١٧٫٧٠٠ من القوات الاستعمارية منهم ١٠٫٥٩٦ من الأوربيين هذا وقد بلغت الخسائر الايطالية ٠٠٠ر٤ قتيل ، وألفى جريح والفين من الاسرى(٢) •

وتلقت ايطاليا نتائج المعركة بشيء من الخجل والعار ، وصدمت هذه الاخبار الشاب بنيتو موسولينى (Benito Mossolini) الذى أعلن بأن ارقام عشرة آلاف من القتلى قد شغلت باله لعدة سنوات بعد ذلك(٣) •

وترتب على هذه الهزيمة موجة عارمة من الغضب والمهانة فاستقال كرسبى وصار الانتقام لهذه الهزيمة فى عدوة من أبرز الاهداف الوطنية فى ايطاليا •

هذا فى الوقت الذى استفاد منليك من هذا الانتصار حيث أحس الاثيوبيون بالفخر والاعتزاز ، واستقرت الحكومة الوطنية فى اثيوبيا

---

(٥) د • زاهر رياض السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال القاهرة ١٩٦٦ ص ١٨٤ •

(١) Smith, Mack, D. : Italy, a Modern History (Ann Arbor, 1959). pp. 179-88.

(٢) Fermi, L. : Mussolini, Chicago) 1961 p. 349.

حتى قيل ان هزيمة الايطاليين فى عدوه قد وضع اثيوبيا على خريطة العالم(١) .

وكانت خسائر اثيوبيا حوالى ٧٠٠٠ قتيل و١٠٠٠٠ جريح أو ١٤٪ من جيش الامبراطور وبعد الهزيمة اعترف منليك بحق ايطاليا فى البقاء فى ارتيريا والغيت معاهدة اوتشيالى التى رسمت مؤقتا الحدود بين ارتيريا واثيوبيا وجعلت انهار مارب بيليسيا ــ مونا الحد الطبيعى الفاصل بينهما(٢) .

واعترفت ايطاليا فى معاهدة الصداقة فى ٢٦ اكتوبر ١٨٩٦ باستقلال اثيوبيا استقلالا تاما ورسمت الحدود وخرجت اثيوبيا من معركة عدوة دولة ذات بأس وقوة واتجهت اليها وفود فرنسا وانجلترا وروسيا وتركيا كل يعرض مشروعات عمرانية لتنمية مواردها(٣) .

وكان لهزيمة الاستعمار الاوربى أثره فى اعطاء اثيوبيا أربعين عاما اخرى من الاستقلال خلال هذه الفترة واصل منليك توسعة وتوحيد امبراطوريته(٤) .

وترتب على الصدام بين الاثيوبيين والايطاليين فى عدوه ان تحول اهتمام ايطاليا فى شرق افريقيا من التوسع على حساب الممتلكات الاثيوبية الى التوسع فى الساحل الصومالى واستطاعت بالفعل ان تدعم وجودها فى كل من موانىء قسمايو وبرافا ومقديشو حتى وصلت الى رأس دلجادو فى الشمال وكونت من هذه مستعمرة ثانية فى شرق افريقيا عرفت باسم مستعمرة الصومال الايطالى(٥) .

---

(١) Baer, George : The Coming of the Italian-Ethiopian war, London 1967. p. 4.

(٢) أحمد طربين : تحرير ارتيريا الحديثة . مرجع سابق ص ٣٨ .

(٣) Endre, Sik : The history of Black Africa Vol. I p. 299.

(٤) Gann L. H. and others : Op. Cit., p. 455.

(٥) شار اندريه : تاريخ افريقيا ص ١٨٥ .

وتنازل الايطاليون عن كسلا رسميا للحكومة المصرية عام ١٨٩٧ وابرم الايطاليون اتفاقيات مع بريطانيا ومصر استقرت بعدها حدود مستعمرة اريتريا ففى سبتمبر من نفس العام اتفقت ايطاليا مع اثيوبيا على تخطيط الحدود بينهما وبموجب هذا الاتفاق منحت ايطاليا منطقة تمتد من حدود الصومال البريطانى بموازة الساحل وعرضها ١٨٠ ميلا نحو الداخل(١) ٠

وكان من نتيجة استيلاء الايطاليين على جزء من سواحل البحر الاحمر واعلان حمايتهم على أجزاء من سواحل الصومال ثم على اثيوبيا ان فكرت ايطاليا فى تحديد مناطق نفوذها فى شرق القارة ، والحصول على اعتراف دولى سيادتها على تلك المناطق خوفا من توغل الفرنسيين من خليج عدن غربا ولهذا الغرض اقترحت ايطاليا على بريطانيا رسم خط يسير الى الشمال من اريتريا الى الغرب من اثيوبيا ثم يتجه صوب المحيط الهندى عند مصب نهر الجوبا ، وبعد ذلك يرسم خط ثان الحدود للصومال الانجليزى المطل على خليج عدن بحيث يترك الاراضى الواقعة بينهما للنفوذ الايطالى وتم الاعتراف بالمحمية الايطالية على الساحل من خط ١٥ — ٨° شمالا حتى بندر زياد وذلك فى البروتوكول الانجليزى الايطالى فى ٥ مايو ١٩٨٤ وفى عام ١٨٩٧ تم احتلال الشاطىء الشمالى لنهر جوبا، وفى العام التالى عهدت الحكومة الايطالية الى شركة بنادر (Bendir Company) بالاشراف على ساحل البنادر والمناطق الداخلية(٢) ٠

وفى عام ١٩٠٥ تم توقيع اتفاقية بين بريطانيا وايطاليا قامت ايطاليا بشراء ساحل بنادر مقابل ١٤٤٠٠٠ ليرة ايطالية ، وفى عام ١٩٠٦ قبل منليك المعاهدة الثلاثية والتى عقدت بين فرنسا وبريطانيا وايطاليا والتى أعطت ايطاليا حقوقا تصل بين مستعمرتى اريتريا والصومال الايطالى ٠

والهدف من هذه المعاهدة هو اعطاء الدول الثلاث وسائل لضمان اوضاعها المختلفة فى حالة انهيار الحكومة الاثيوبية بسبب مرض

---

(٢) مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٩ يناير ١٩٧٠ ملف خاص عن الخلاف الصومالى الاثيوبى الكينى ص ٢١٥ .

(٣) Hamilton, Angus, Somaliland London 1911, p. 46.

الامبراطور منليك ، كما اعطت هذه المعاهدة لايطاليا مجالا للنفوذ داخل اثيوبيا الجنوبية ، وحق التدخل المسلح فى حالة التغيير السياسى الاقليمى الذى قد يؤثر على وحدة الدول المجاورة(١) .

ثالثا فرنسا والصراع فى القرن الافريقى :

من المعروف ان انجلترا وفرنسا تطلعتا الى امـــلاك مصر فى شرق افريقيا والبحر الاحمر وقد انتقلت الاضواء السياسية الى هذه المنطقة خاصة بعد ان استكملت ايطاليا وحدتها واخذت هى الاخرى تتطلع الى هذه المنطقة ، وقد أوجدت كل من فرنسا وانجلترا مجالا جديدا للتنافس وتذكرت فرنسا انها كانت قد اشترت منطقة اوبوك فى عام ١٨٦٢ ولكنها اهملتها ، وبسبب التنافس الاســـتعمارى فى افريقيا اسرعت فرنســـا للاستفادة من ابوك التى تقع عند مخرج بوغاز باب المندب ، علاوة على انها مركز استراتيجى يسيطر على الطريق الى الشرق ، وكذلك صلاحيتها كمركز للتجارة مع الداخل(٢) .

ولم تهتم الحكومة الفرنسية بالسواحل الافريقية للبحر الاحمر الا فى عهد الامبراطورية الثانية (امبراطورية نابليون الثالث) وكان ذلك فى عام ١٨٥٨ وهو الوقت الذى بدأ فيه التفكير فى انشـــاء وزارة الجزائر والمستعمرات(٣) .

وفى ٥ مارس ١٨٨٥ ابرمت فرنسا معاهدة مع بعض زعماء الصومال تعهدوا فيها بوضع أراضيهم تحت حماية فرنســـا ونصت الفقرة الثالثة

---

(١) Lewis, M. : Op. Cit., p. 89.

(١) د . محمد المعتصم سيد : مرجع سابق ص ٢٥ .

(٢) وقعت معاهدة أوبوك فى باريس فى ١١ مارس ١٨٦٢ وفيها تنازل ودنى احمد أبو بكر ممثل المشايخ الدناقلة عن ميناء أوبوك والمنطقةالواقعة غرب رأس بير مع السهل الممتد من رأس على فى الجنوب حتى رأس دميره فى الشمال مقابل مبلغ ١٠٠٠٠ ريال وتعهد المشايخ باستخدام مافى وسعهم لتسهيل اتصال الفرنسين مع الداخل .

د . جلال يحيى . التنافس الدولى فى بلاد الصومال ص ٤١ .ـــ

من المعاهدة بأن تأخذ فرنسا على عاتقها مهمة تسهيل التجارة على الساحل[1] .

ولما ظهرت اهمية اوبوك ، ارسلت فرنسا قوة لاحتلالها وتفاوضت مع احمد بن محمد سلطان تاجورة على شراء خليج تاجورة وتم ضمه الى املاك فرنسا ، وقد ازعج هذا التواجد الفرنسي فى ميناء اوبوك رجال الاعمال الايطاليين الذين اخذوا يتطلعون الى المنطقة بعد فشلهم فى تونس وأرسلت ايطاليا قوة اشترت خليج عصب ووضعته تحت السيطرة الايطالية وانتهزت فرنسا فرصة القرار الذى صدر باخلاء هرر من الادارة المصرية وبعثت بمركب فرنسى الى ميناء ورشال القريب من تاجورة فى أوائل عام ١٨٨٤ وقد انتهزت فرنسا فرصة اعتراف الحكومة المصرية بالسيادة الفرنسية على اوبوك حتى ارسلت احد موظفيها الى هناك وفى وسط هذه المنافسة الاستعمارية استطاع المستعمر الفرنسى لاجارد ان يعقد معاهدة مع السلطان حامد سلطان تاجورة فى ٢١ سبتمبر عام ١٨٨٤ تنازل السلطان عن المنطقة من رأس على الى قبة الخراب[2] .

وتعهد بعدم ابرام معاهدة مع اية دولة اجنبية دون موافقة قائد اوبوك الفرنسى وقد اعطت هذه المعاهدة لفرنسا اقليما هاما يوسع من مستعمرة اوبوك — ويعطيها مفتاح الطريق التجارى الذى تستخدمه القوافل لوصول الى الحبشة[3] .

وكان الاحتلال الفرنسى لتاجوره قد دفع انجلترا الى فكرة الحصول على معاهدات مع القبائل على سواحل البحر الاحمر وما ان طلب الميجور هنتر التصريح له بعقد معاهدة مع قبيلة القضاء بورس صومال حتى صرح له وعقدت هذه المعاهدة بالفعل فى ١١ ديسمبر ١٨٨٤[4] .

---

(١) انظر نص الاتفاق فى صلاح حافظ : مرجع سابق ص ٢٥٤ .
(٢) جاد طه : مرجع سابق ص ٤٧٥ .
(٣) محمد عبد المنعم يونس : الصومال . ص ٤٥ .
(٤) India Offica Library and Records, Political External files and Collections (L-p and S-18) B. 44 Somalia Coasts (FrenchEnglish Treaties) Feb. 1887.

وبدأت المنافسة الانجليزية الفرنسية تتضح ابتداء من مارس ١٨٨٤: وقد قبلت بريطانيا مبدأ ملكية فرنسا لاوبوك لكنها أرادت ان تمنع التوسع الفرنسي في هذه المنطقة واقترحت عدم اثارة المشاكل امام فرنسا في مسألة مليكتها لاوبوك نفسها وذلك بشرط ان تقبل حكومة فرنسا ابلاغ انجلترا بالحدود الفعلية لاراضي اوبوك(١) .

وفي عام ١٨٨٧ وبعد مناقشات طويلة توصلت الحكومتان الانجليزية والفرنسية الى اتفاق لمطالبهما على الساحل الصومالي ، اتفقت الحكومتان على ان تمتد المحمية البريطانية من خط عرض ٤٩° شرقا الى النقطة الواقعة عند ابار هدو في نحو منتصف الطريق بين مصوع ورأس جيبوتي بينما يمتد الخط الذي يفصل بين المجموعتين الانجليزية والفرنسية الى ابا سوين (Abbasswain) ماوا بجاديسا وهرر . اما جزائر موسى وباب (Bab) فقد دخلت ضمن حدود المحمية الفرنسية بموجب اتفاق عقد في عام ١٨٨٨ ونصت المعاهدة ايضا على تعهد كل من الحكومتين بعدم التدخل عبر خط التقسيم الذي يفصل بين المحميتين وعلى بقاء طريق القوافل الممتدة من زيلع وهرر عبر جلديسا مفتوحا للتجارة(٢) وبمقتضى المعاهدات التي عقدتها فرنسا مع سلطان جوباد وتاجورة التي نصت على فرض الحماية الفرنسية على منطقة دناكل بشرط عدم تدخل فرنسا في شئونهم الداخلية تمكن الفرنسيون من السيطرة على اكثر من ٢٥,٠٠٠ كيلو متر مربع .

وهكذا خرجت فرنسا من هذه الاتفاقيات بنصيب الاسد حيث ظفرت بمناطق حيوية واكدت سيادتها على جزء هام من سواحل الصومال وفي نفس الوقت الذي لم تخسر شيئا وحصلت فرنسا على اعتراف انجلترا بحقوقها في بلاد الصومال(٣) .

---

(١) Lord Granville to Waddington 10 March 1884. (C. 4417) No. 11

(٢) Aitchison, C.U. : Op. Cit., p. 11.

(٣) Hamilton Angus : Op. Cit., p. 64

واضيف أراضى العيسى الى المستعمرة الفرنسية بموجب اتفاقيـة فرنسية اثيوبية فى عهد الامبراطور منليك عام ١٨٨٤ وقد اسرعت فرنسا بالاهتمام بساحل الصومال والوصول الى داخل القارة ونقلت قاعدتها من ابوك الى جيبوتى نظرا لاهميتها الاستراتيجية لحماية المصالح الفرنسية لوقوعها عند مخرج البحر الاحمر ولاشرافها على المحيط الهندى ولم تقتصر اهميتها على اشرافها على الطريق الى الشرق الاقصى فحسب، بل لوقوعها عند نهاية الخط الحديدى القادم من هرر ، كما انها ايضا المخرج الوحيد لاثيوبيا على البحر الاحمر لذا انتقلت السلطات الفرنسية نفسها الى جيبوتى وكان هدفها من هذا العمل على تحقيق مشروع استعمارى عرف باسم مشروع البحر الاحمر المحيط الاطلسى استهدفت منه ربط ممتلكاتها على ساحل البحر الاحمر بممتلكاتها على ساحل المحيط الاطلسى وذلك بالزحف م ن الشرق ومن الغرب معا نحو حوض النيل . هذا فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تسعى الى تنفيذ مشروع القاهرة الكاب لبسط النفوذ البريطانى من المحيط الهندى جنوبا الى البحر الاحمر شمالا ، وتأسيس امبراطورية كبرى فى افريقيا تمتد دون انقطاع من مستعمرة الكاب فى جنوب افريقيا الى ساحل البحر المتوسط(١) .

وبالطبع تطلب هذا المشروع تثبيت اقدامها فى مصر ، ثم ابعاد النفوذ الفرنسى من اعالى النيل وافريقيا الوسطى ، وكانت وسيلة انجلترا فى ذلك هى تشجيع ايطاليا على احتلال الصومال من الجنوب ، وقد سبق حصارهم من الشمال بمستعمرة ارتريا وبذلك يعجزون عن التدخل أو التوغل فى حوض النيل(٢) .

رابعا ــ اثيوبيا والصراع فى القرن الافريقى :

كانت الاراضى الحبشية حتى نهاية القرن التاسع عشر محصورة فى اراضى الامهره عند جوجام شمال اقليم شوا وجنوب تيجرى ، ولكن

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الصراع انظر د . شوقى الجمل : كشف افريقيا واستعمارها . ص ص ٥٢٣ ــ ٥٢٦ وأيضا د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان فى القرن التاسع عشر . ص ٤٧٠ .

(٢) محمد عبد المنعم يونس : مرجع سابق ص ٤٦

مع نهاية القرن التاسع عشر وبمساعدة القوى الاوربية بعـــد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ ، اخذ التوسع الحبشى يتجه نحو الجنوب والشرق فى أراضى الصومال وانتقلت العاصمة من مدينة اكسوم عام ١٨٨٤ الى اديس ابابا عام ١٨٩٠ وتغير اسم الحبشة التاريخى الى اسم اثيوبيا(١)

وساعدت الدول الاوربية التوسع الاثيوبى لكى تظهر الى حيز الوجود دولة حليفة ترتبط بهم ثقافيا ودينيا وبدأت اثيوبيا تدخل فى اطار الدول الاستعمارية المعادية للصومال(٢) •

وكان ملوك الحبشة يحلمون باليوم الذى يجدون فيه منفذا عـلى البحر الاحمر وكتب الامبراطور منليك (١٨٩١ ـ ١٩١٣) الى الجمعية البريطانية لمحاربة الرق يحضها على مساعدته قائلا بأن زيلع وعدن تقعان تحت اشراف المسلمين ولا يستطيع الاقتراب منهما واستخدم كل مشاعر العنصرية فى مملكته حتى حصل على اسلحة حديثة ساعدته فى توسعاته واهدته فرنسا دفعة واحدة بلغت ٤٠ الف بندقية ، ١٠٠ الف خوذة ، ١٣ الف مسدس للمشاه واستجابت بريطانيا لنداء منليك وتدفقت الاسلحة على الحبشة بحجة محاربة الرق(٣) •

وكان تواطؤ بريطانيا مع اثيوبيا واضحا نتيجة دخلولها فى مجـــال المنافسة الاستعمارية حتى لاتفقد ارباحها من تجارة الترانزيت الحبشية المارة بموانىء مستعمراتها الصومالية وقد ارسلت الى الحبشة فى عـــام ١٨٩٠ حوالى الفى بندقية وبذلك صار لمنليك جيش قوى مجهز بأسلحة حربية حديثة واستطاع بهذا الجيش ان يحطم استقلال امارات الصومال فى الشرق • وان يؤسس منها امبراطورية اثيوبيا(٤) •

---

(١) صلاح حافظ : مرجع سابق ص ١٧٤ .

(٢) د . تمام همام تمام : مرجع سابق ص ١٧٤ .

(٣) جمهورية الصومال الديمقراطية الاقليم الصـــومالى الخاضـــع الصومالى الخاضع للاستعمار الاثيوبى ص ٨٦٧ .

(٤) Richard, Greenfield : An Introduction to Refugee problems in Somalia Democratic Republic (Somalia and the World. Vol. p. 371.

وكان منليك قد جهز قوة لاحتلال هرر لكن قوات الامير عبد الله هزمت هذه القوة فاضطر الى تجيهز جيش من ثلاثة الاف مقاتل مزودين بأحدث الاسلحة النارية التى حصل عليها من القوى الاوربية وبعد التحـام الجيشين هزمت قوات الامير عبد الله ؛ ودخل منليك مدينة هرر فى يناير ١٨٨٧ وكان الانجليز قد جردوا قوة الامير عبد الله من السلاح فى اعقاب جلاء الادارة المصرية عنها وحيث لم يوجد سوى مدفعين فقط(١) .

وكان سقوط هرر نقطة تحول هامة انتشر بعدها الاثيوبيون فى أراضى المناطق المجاورة وتحول ميزان القوى لصالح الاثيوبيين بعد الاسلحة التى حصلوا عليها من الاوربيين ، وكان سقوط هرر بمثابة مسأة لتلك المدينة التى كانت قد بلغت الذروة والكمال .

وبعد احتلال هرر فرض منليك عليها الحصار وعين ابن عمه الرأس ماكونين حاكما عليها لتكون قاعدة لتوسعاته(٢) .

وهكذا نجح منليك فى توسيع امبراطوريته على حساب جيرانه فى الجنوب والجنوب الغربى والشرقى من مملكة اثيوبيا وكانت هـــذه الفتوحات التوسعية هامة لأنه ترتب عليها انضمام المقاطعات الاسلامية والصومال الغربى والمناطق الوثنية (المناطق الجنوبية) الى الامبراطورية الاثيوبية واستخدم منليك القوة لتوسيع مناطق نفوذه رغم انه اعطى الحكام المحليين فرصة الاستسلام سلميا لسيادته ولما رفضت هذه القوى استخدام القوة ضدها ، وكانت النتيجة خضوع هذه المناطق لسيطرته بسبب ما كان يحصل عليه من اسلحة حديثة(٣) .

والملاحظ ان انجلترا كانت السبب فيما وصلت اليه هرر ، فلم تتخذ أى اجراء ضد الاثيوبيين ولم تحرك ساكنا للوفاء بالتزاماتها تجاه الشعب الصومالى الذى ابرم من قبل معاهدات معها ومن الامور الغريبة ان

---

(٢) على أحمد نور : النزاع الصومالى الاثيوبى ص ٥٥ .

(٣) Lewis, M : op cit., p. 49.

(٤) Gann, L. and Peter, Duingnan : Op. Cit p. 428.

انجلترا وفرنسا كانتا قد تعهدتا باستقلال ، هرر فى معاهدة بينهما فى فبراير ١٨٨٨ ولكنهما لم ينفذا التزاماتهما(١) •

ومما لاشك فيه أن الصراع الاثيوبى مع القوى الأوربية خاصة مع ايطاليا له انعكاسات على احداث القرن الافريقى كما يعزى اليه الكثير من المشكلات الحالية •

وكان لهزيمة اثيوبيا لايطاليا اثره فى ازدياد قوتها وتوسعها على حساب جيرانها •

الاثار التى ترتبت على الصراع الاوربى فى القرن الافريقى

لقد ترك الصراع الاوربى فى منطقة القرن الافريقى آثارا لاتزال تنطق بتلك المشكلات التى خلفها الاستعمارى الأوربى أثناء تكالبه على هذه المنطقة فى أواخر القرن التاسع عشر ، والمعروف ان التكالب يعنى الصراع ، والصراع بطبيعته لابد وان يولد التفرقة والعداء ، ويجعل الاستقرار والسلام أمرا بعيد المنال أو صعب التحقيق ، فلقد ترتب على هذا التكالب الاوربى اختلاف فى وجهات النظر بين القوى الاوربية بصفة عامة وبين شعوب منطقة القرن الافريقى بصفة خاصة حيث اخذ كل فريق يساند الاخر من أجل مصلحة خاصة أو منفعة قد تعود عليه بالتوسع على حساب جيرانه ، ودون مراعاة لشعب من الشعوب أو جماعة من الجماعات • واتخذت الدول الاوربية مواقف متناقضة بقصد تحقيق مكاسب اقليمية على اكتاف الجماعات البشرية التى قنطت منطقة القرن الافريقى ناهيك عما خلفه هذا التكالب من آثار سوف نتعرض لها بشكل موجز •

---

(١) Hertslet, M : op. cit., Vol. II pp 727-728.

أولا : أن انجلترا اجبرت مصر على الانسحاب من شرق افريقيا واستغلت الازمة المالية فى مصر لتتدخل فى شئونها الداخلية ، واستغلت الثورة العرابية لتحتل مصر ، واستغلت الثورة المهدية فى السودان لتقضى على الجيش فى حملة هكس كما استغلت هزيمة هكس امام قوات المهدى لتطلب من الحكومة المصرية الانسحاب من السودان وملحقاته ، واستغلت اخلاء السودان فى النهاية لتستولى على املاك مصر وتضمها الى دائرة نفوذها ، ثم توزع ماتشاء على القوى الاوربية الاخرى .

فلقد تنازلت بريطانيا لفرنسا عن جزيرة موسى فى مايو ۱۸۸۷ كما اعترفت بحق فرنسا فى ميناء تاجورة ، وقامت بعقد معاهدة مع اثيوبيا نصت على اعادة اقليم بوغوص لها كما وافقت من جانبها فى معاهداتها مع ايطاليا فى ١٥ ابريل ١٨٩١ على اطلاق يد الايطاليين فى كسلا والبلاد المجاورة لها حتى نهر عطبره ، كما تنازلت لها فى عام ١٨٩٤ عن رأس جردافون وجميع المناطق المحيطة به والتى وصل طول سواحلها حوالى ٤٠٠ كيلو متر .

وتنازلت بريطانيا كذلك لاثيوبيا عن اراضى صومالية لاتفاق عـام ۱۸۹۷ الذى يعتبر عام كل المساوىء والتناقضات فى تاريخ استعمار القرن الافريقى حيث ترجع المشاكل بين اثيوبيا والصومال الى تلك الحقبة . والمعروف أن بريطانيا ساومت ببعض الاجـزاء من الصومال مع اثيوبيا(١) كى تحافظ على مصالحها هناك ودون أدنى اعتبار للشعب الصومالى الذى يقطن هذه المناطق والذى اعلنت عليه الحماية فى ٢٠ يولية ۱۸۸۷(٢) .

وكان لاقتطاع اجزاء من الصومال وضمها الى اثيوبيا خلال فترة توسعها الاثر البالغ فى تعميق جذور الخلافات بينهما وبين الشعوب

---

(١) على أحمد نور : مرجع سوبق ص ٧٧ .

S.A.D. 125-7 Appendix, 11 Note on the Various Treaties. (١)

المجاورة فاحتلت اثيوبيا منطقة هرر عام ١٨٨٧ ثم حصلت على أوجادين كمنحة من بريطانيا عام ١٨٨٩ مقابل تعاون اثيوبيا عسكريا مع بريطانيا لاخماد الثورة المهدية وضمت ايضا فى نفس العام منطقة هود ثم جـــاء غزو ايطاليا للحبشة وما تلاه من احداث وتطورات بسبب الحرب العالمية الثانية والتى كان لها الاثر فى اعادة تقسيم الممتلكات الايطالية فى القرن الافريقى كله حيث استعادت اثيوبيا كل الاراضى التى كانت ايطاليا قد استولت عليها ثم وضعت مناطق اوحادين وهود وهـــرر تحت اشراف بريطانيا ، وظل الوضع كذلك حتى توقيع معاهدة لندن لعام ١٩٥٤ والتى تعهدت فيها بريطانيا بسحب حكمها العسكرى من منطقة هود وجزء من منطقة اوجادين وكان هذا التعهد سببا جوهريا فيما تعانيه دول القرن الافريقى من مشكلات على الحدود خاصة بين الصومال واثيوبيا(٢) ٠

ثانيا : ان بريطانيا باحتلالها لعدن عام ١٨٣٩ وتحكمها فى مضيق باب المندب وفى حرية المرور من والى البحر الاحمر عند مرخله الجنوبى اشعلت حماس التكالب الاستعمارى بين الدول الاوربية فى المنطقة وخاصة فرنسا التى كانت فى صراع دائم ومستمر مع انجلترا منذ الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ولقد ترتب على احتلال بريطانيا لعدن ان اسرعت فرنسا لاحتلال جيبوتى والصومال الفرنسى على ساحل البحر الاحمر الافريقى لكى تقف فى وجه التوسع والتحكم البريطانى فى باب المندب ، كما ان احتلال فرنسا لهذه المنطقة على الساحل الشرقى للقارة الافريقية اعطاها منفذا يخدم مصالحها الاقتصادية والتجارية فى وسط القارة ، والمستعمرات الفرنسية منها بالاضافة الى ان هذا الموقع الفرنسى فى القرن الافريقى قد اعطى الفرنسيين املا فى ربط مستعمراتهم فى شرق القارة وغربها ، وبالطبع ادى هذا الى صراع محموم بين فرنسا وانجلترا انتهت احداثه الاخيرة بحادثة فاشودة التى قضت على امال فرنسا فى تحقيق هذه الوحدة بين مناطق نفوذها ، وجعلها تفكر فى التحالف مـــع

(٢) صلاح حافظ : مرجع سابق ، ص ١٢١ ٠

اثيوبيا ضد بريطانيا ونجحت بالفعل فى عقد تحالف مع الامبراطور منليك عام ١٨٩٧ ، وكان النجاح الفرنسى سببا فى عرقلة بريطانيا فى تنفيــذ خط حديد الكاب القاهرة .

ثالثا : كان لتأيد ايطاليا لبريطانيا عند احتــلال مصر والتهنئة على انتصارها فى التل الكبير (١٤ سبتمبر ١٨٨٢) ثم تصريح وزير الخارجية الايطالى بصداقة ايطاليا لبريطانيا وتأييدها لها فى المسألة المصرية أثره الموازية لفرنسا فى منطقة القرن الافريقى .

يضاف الى ذلك أن وقوف فرنسا موقف عدائيا ازاء بريطانيا فى مصر وسعيها الى تدويل القناة جعل بريطانيا تنظر الى ايطاليا على انها القوة الموازية لفرنسا فى منطقة القرن الافريقى [١] .

ولذا اخذت انجلترا تغير سياستها نحو النشاط الايطالى فى ساحل البحر الأحمر الغربى وتحول جرانفل من سياسة معارضته الاعتداءات الايطاليين على حقوق السيادة المصرية فى القرن الافريقى الى تأييد كامل لها ، وعندما ناشدت الحكومة المصرية فى القرن الافريقى الى تأييد كامل لها ، وعندما ناشدت الحكومة الايطالية بريطانيا للتوصــل الى اتفــاق مع الحكومة المصرية بشأن عصب ، ايدت بريطانيا استعدادها لقبــول اية شروط فيما عدا اخلاء عصب[٢] وعرضت بريطانيا اقتراحا بعقــد معاهدة مع مصر فى اكتوبر ١٨٨١ تضمنت اعتراف خديو مصرى بما حصلت عليه ايطاليــا من أراضى عصب ، كذلك قصر استخدام أراضى المنطقة على الاغراض التجارية .

ونتيجة لهذا التنافس الاوربى فى شرق القارة اتخذت بريطانيا من ايطاليا حارسا لها فى هذه الجهات وذلك لعرقلة التقدم الفرنسى فى المنطقة وقد سهلت بريطانيا لايطاليا السيطرة على المنطقة الواقعة جنوبى رأس

---

(١) محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءة ص ص ١٥٨ ــ ١٦٣ .

(٢) F.O. 78-3365. Tel. Macdonell to F.O., (Sep. 1881).

قصار • كما سمحت لايطاليا باحتلال مصوع فى فبراير ١٨٨٥ كما شجعت انجلترا وايطاليالبسط نفوذهما على مناطق اخرى فى شرق افريقيا ليقفوا فى وجه اطماع الفرنسيين وساندت ايطاليا فى ادعائها بأن سلطان أوبيا (Obbie) وغيره من شيوخ الصومال المستقلين فى المنطقة الممتدة من بداية الصومال الانجليزى المطل على خليج عدن وبين النهاية الشمالية لاملاك سلطان زنجبار قد ابدوا رغبتهم فى وضع بلادهم تحت الحماية الايطالية(٣) •

يضاف الى ذلك ان بريطانيا اتفقت مع الخارجية الايطالية بعد حصولها على عقد الامتياز مع سلطان زنجبار على ان تسلم للحكومة الايطالية الموانى الواقعة شمال نهر جوبا ، وبالفعل وقعت عقد ايجار من الباطن سلمت بمقتضاه موانى مقديشو ومركا وبراوه والمناطق المحيطة بها لمسافة عشرة اميال فى الداخل بنفس شروط عقد الامتياز الممنوح لشركة شرق افريقيا البريطانية •

رابعا : ترتب على هذا الصراع الأوربى ان وجدت ايطاليا مجالا لتوسعها الاستعمارى فى شرق افريقيا ، ووجدت اثيوبيا الموقع المناسب لبناء امبراطوريتها فراحت تتحالف مع منليك وتؤازره ضد اعدائه ، وتمده السلاح بدون دفع رسوم جمركية عبر الميناء الايطالى فى مصوع ، مقابل الحصول على تسهيلات ومناطق استراتيجية فى تيجرى ، وعقدت ايطاليا معاهدة اوتشيالى فى مايو ١٨٨٩ والتى اظهرت نوايا ايطاليا التوسعية فى اثيوبيا ولما حدث اختلاف حول تفسير المادة ١٧ من هذه المعاهدة توترت العلاقات بين الطرفين ، وتأزمت الامور بصدام عسكرى فى عام ١٨٩٦ انتهى بموقعة عدوة التى كانت نكسة للمصالح الايطالية فى اثيوبيا ، والتى اجبرت ايطاليا على الغاء المعاهدة التى تدعى الحماية الايطالية على اثيوبيا ، وفى نفس الوقت عقدت ايطاليا معاهدة صداقة فى ٢٦ اكتوبر ١٨٩٦ اعترفت باستقلال اثيوبيا استقلالا تاما • ولكن تسبب هذا الصراع

---

(٣) د ٣ شوقى الجمل : دور مصر فى افريقيا ص ٧٨ .

وما ترتب عليه من هزيمة لايطاليا ، ان ظلت العلاقات متوترة حتى تمكنت ايطاليا من محو عار الهزيمة ، عندما اكتسحت القوات الايطالية اقليم تيجرى ووصلت الى العاصمة جــوندار (Gonder) وهرب هيلاسلاسى الى بريطانيا التى قدمت له كل عون ومساعدة ضد الايطاليين .

وباختصار فان الصراع الاوربى فى القرن الافريقى قد احدث توترا بين الايطاليين والاثيوبيين امتدت اثاره الى قرابة نصف قرن من الزمان .

خامسا ــ ترتب على الصراع الاوربى فى القرن الافريقى انه بعد عام ١٨٩٦ ان صار منليك وعلى وعى كامل بالتهديدات الاوربية على دولتـــه حيث وجـــد بعـــد هزيمـــة الايطاليين فى عـــدوة قوى اوربية أخرى تتأهب لالتهام بلاده وادى ذلك الى ان يعيد منليك الكره فى الاتصال بالخليفة عبد الله التعايش فى السودان يطلب منه الوقوف معه ضـــد البيض اعداء الله ، وقد اتخذ هذا الموقف بعد تقدم قوات كتشنر فى اعالى النيل وخوفه من ان يهـــدد هذا التقدم دولة اثيوبيا (١) .

ففى يولية ١٨٩٦ طلب منليك من الرأس منجاشا بتواتيد (Bitwatid) ان يكتب للخليفة عبد الله يفيده ان الانجليز قد تقدموا نحو دنقله وان عدوه هو عدو منليك وطالبه بالوقوف سويا كحلفاء اقوياء (٢) .

وقد اضطر بريطانيا الى ارسال بعثة ماكدونالد لعقد معاهـــدات مع منليك ولرفع الاعلام فى المنطقة شرق بحر الجبل حتى خط عرض ١٠° وأرسل منليك قوة الى بحيرة رودلف وأعالى نهر الجوبا لمقاومة أى اقتراب بريطانى من مملكته ، وكان هدفه مساندة المهدى ضد البريطانيين الذين يهددون اثيوبيا مثلما يهددون المهدية فى السودان ، وكان التحالف

---

(١) Sanderson, G.N. : The Foreign Policy of the Negus Menelik Journal of African History Vol. V. 1 (1964) pp. 87-97.

(٢) الخرطوم / المهدية ١ ــ ٣٤ ــ ١٦ من الراس بتواتيد الى الخليفة عبد الله ٦ صفر ١٣١٤ الموافق ١٧ يولية ١٨٩٦ .

مع حكومة أم درمان أمرا ضروريا وحيويا لسياسة منليك للوقوف ضـــد الاوربيين وتواسعهم والذى لم ينتـــه بهزيمة ايطاليا فى عدوة[1] •

وكان الخليفة مستعدا لقبول هذا التحالف حيث ارسل مبعوثه الخاص محمد عثمان الى اديس ابابا ، ولكن بسبب تشدد المهدى فى شروطه مع منليك لم يحـــدث تحالف رسمى بينعما ، واستمرت العلاقات بين الطرفين حتى وقعت بريطانيا المعاهدة الانجليزية الاثيوبية فى ١٤ مايو ١٨٩٧ والتى نصت على الا يقدم منليك مساعدات للمهدية[2] •

وهكذا نرى ان الصراع الاوربى فى القرن الافريقى قد أوحى الى منليك بفـــكرة التحالف مع المهدية بالرغم من الاختلاف الايدويولوجى وذلك للوقوف سويا ضد العـــدو الاوربى المشـــترك ، ولولا يقظـــة بريطانيا لمثل هذا التحالف وسعيها بسرعة لاحباطه لحدث تعاون وثيق بين منليك والمهدية فى السودان •

سادسا ــ كان للانتصار الرائع للاثيوبين على القوات الايطالية فى عدوه عام ١٨٩٦ الأثر الواضح فى اجبار الدول الاوربية على الاعتراف بالسلطة والسيادة الاثيوبية فى شرق افريقيا حتى قيـــل ان هزيمـــة الايطاليين فى عدوه قد وضعت اثيوبيا على خريطة العالم واعطتها اربعين عاما أخرى تنعم فيها بالاستقلال والسلام ، حيث واصل الامبراطـــور منليك توسعاته ووحد ارجاء امبراطوريته وفتح الباب على مصراعيـــه على العالم الخارجى ، وكان لهذا الاستقرار الفضل الأكبر فى تقـــوية اثيوبيا التى بدأت عهدا جديدا واخذت الدول الاوربية تنشد ود منليك وتقدم له كل عون مساعده واكدت الدول الاوربية فى عام ١٩٠٦ لمنيلك التزامها بالمحافظة على وحدة الامبراطورية الأثيوبية وحق بريطانيا فى الاشراف على منطقة بحيرة تانا وحق فرنسا فى انشاء خط حديد •

---

(١) وجد خطاب اللغة العربية مدون تاريخ وغير موقع وبدون ختم ، وهو الخطاب الوحيد الموجود فى الخرطوم والذى يوضح سياسة منليك نحو كل من الخليفة والبيض •

(٢) احمد يوسف القرعى : مرجع سابق ص ٧٩٦

جيبوتى اديس ابابا وحق ايطاليا فى الاستيلاء على منطقة تقع بين مستعمرتى اريتريا والصومال الايطالى (١).

وهكذا ترتب على هذا الصراع الاوربى دخول اثيوبيا فى عملية التقسيم الاوربى لافريقيا . وقد حصلت بالفعل على مساحات واسعة بسبب مشاركتها فى عمليات تقسيم القارة ، كما استفادت من مساعدات الدول الأوربية المتصارعة على هذا القرن والتزمت الدول المتصارعة الثلاث فى اتفاق مشترك بحماية ودعم حدود الامبراطورية الأثيوبية من أى تهديد وبذا صارت اثيوبيا تضم داخل حدودها شعوبا وقوميات مختلفة أخذت تتصادم فيما بينها ، واستطاع الاستعمار الأوربى ان يعمق من هذه الخلافات وان يغذى هذا العداء بعد ان دخلت اثيوبيا شريكا فى عمليات التقسيم التى تمت دون مراعاة لوحدة الشعوب أو عمليات التقسيم التى تمت دون مراعاة لوحدة الشعوب أو قومياتها الامر الذى ترتب عليه تداخل الحدود .

ومن الطبيعى ان تؤدى هذه التقسيمات الى فصل ابناء القبيلة الواحدة وتوزيع ابنائها على اكثر من دولة . ومن هذا المنطلق كان ولابد وان يحدث الصراع فى القرن الافريقى ولاتزال الى اليوم مشكلات الحدود بين دول القرن الافريقى المترسبة من هذه الصراعات السالفة الذكر تمثل النصيب الأكبر فى صراع المنطقة فى هذه الأيام خاصة بعد استقلال الصومال البريطانى والايطالى فى عام ١٩٦٠ وسعى دولة الصومال المستقل نحو تحرير كل مناطق الصومال التى استولت عليها اثيوبيا بمساعدة القوى الاستعمارية فى القرن التاسع عشر والتى اعطت اثيوبيا بعض الأقاليم الصومالية وهو ما يخالف تماما معاهدات الحماية التى عقدتها كل من بريطانيا وايطاليا وفرنسا مع الشعب الصومالى والتى تعهدت بمقتضاها بالمحافظة على سلامة أراضيه واستقلاله (١) .

---

(١) F.O. 1-32, Rodd to Salisbury No. 21, 14 May 1897. The Treaty is in Hertslet, M, op. cit., 11, no. 99 p. 423.

سابعا — وترتب على هذا الصراع الاوربى ان أخذت تفد علـى المنطقة تيارات ثقافية وحضارية وكانت اهذه التيارات فيما بعد اثارها السيئة على شعوب المنطقة التى هبت للمطالبة بحقوقها فى المشاركة فى حكم بلادها وتقرير مصيرها ولذا ستشهد المنطقة ثورات شبه متتالية تتصدى لنظم الحكم القديمة التى الفتها المنطقة •

ثامنـا — فتحت هذه الصراعات الباب لدخول دول أخرى فى هذا الميدان خاصة ان الحروب التى شاهدها العالم فيما بعد غيرت موازين القوى فظهرت على مسرح السياسة والعسكرية قوى جديدة كان طبيعيا ان تتجه ببصرها لهذه المناطق الافريقية التى ظهر بجلاء ان لها أهمية خاصة من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية •

وفى الختام نستطيع القول ان الصراع الاوربى فى القرن الافريقى فى أواخر القرن التاسع عشر قد غرس على ارضية المنطقة الكثير من المتاعب والمشاكل ويمكن ان نقول ان مايعانيه القرن الافريقى اليـوم من مشكلات فى الحدود أو اختلافات فى توزيع القبائل ، أو فصـل لابناء الوطن الواحد أو تدخل من الدول الكبرى فى شئون هذه البلاد يعود فى الأصل الى تلك الحقبه من القرن التاسع عشر التى بـدأت بانسحاب مصر — مضطره من القرن الافريقى ثم التكالب الاوربى على المنطقة والذى لعبت فيه بريطانيا وغيرها من الدول العظمى فى هـذه الحقبه دورا لا يمكن أن يغفله المؤرخون عند الحديث عن مشـكلات القرن الافريقى •

المصادر والمراجع

أولا وثائق عربية :

(أ) وثائق عربية :

د . شوقى عطا الله الجمل

الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر – القاهرة ١٩٥٩

قرارات الامم المتحدة ارقام ٣٩٢ ، ٨٥٧ ، ٩٤٧

قرارات مؤتمر القمة الافريقى رقم ١٦ فى دورته العادية الاولى بالقاهرة .

مجموعة الفرمانات الشاهانية ، فرمان ٩١٣ فى ١٥ ذى الحجة ١٢٨٧

(ب) الوثائق الاجنبية :

1 — F.O. 107-434, No. 23.

Africa Memorandum of British Imperial African Company on 3 May 1890.

2 — Baring to Granville, Jan., 1 St 1884 F.O. 41-192 N. 5.

3 — India office library and Records : 1 p and sil 8-27 Home No. 393 Somali coast sect-110.

4 — The Information Services of the Somali Government, the Somali peninsula Reprinted 1962.

5 — Lord Granville to Waddington 10 March 1884-4417. No. 11.

6 — Public Record office, Vol. 1-22 Rodd to Salisbury No. 20 May 31. 1897.

7 — S,A,D, : 125 : 3.

Remark on the par liamentary Debate of the 15th March 1909.

8 — S.A.D. : 125/7.

Lieutenant General Sir, Wingate's Special Appendix II Note on the Political Situation in Somaliland on the Rise of Mullah.

9 — S.P. Vol. IXXXIX, Egypt, No. 14, 1885.

Correspondence respecting ports in the Red Sea and Gulb of Aden and Provinces of Harrar 4417 No. 9.

ثانيا ـ الرسائل الجامعية :

١ ـ محمد رجب حراز .

التوسع الايطالى فى شرق افريقيا وتأسيس مستعمرتى ارتيريا والصومال رسالة ماجستير منشورة ، جامعة القاهرة سنة الطبع ١٩٦٠

٢ ـ مكرم سويحة بخيت :

العلاقات المصرية الحبشية ١٨٨٤ ـ ١٩٢٩

رسالة ماجستير غير منشورة ، بمعهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

ثالثا ـ بحوث تاريخية :

١ ـ احمد طربين : تحرير ارتيريا الحديثة من الاحتلال الاجنبى وأثره على الميزان الاستراتيجى العربى .

بحوث سمنار فى التاريخ الحديث ـ جامعة عين شمس ١٩٧٥ .

٢ ـ جاد محمد طه : بريطانيا والصومال .

بحوث سمنار فى التاريخ الحديث جامعة عين شمس ١٩٧٩ .

٣ ـ عبد العزيز الرفاعى : الصراع الدولى فى القرن الافريقى .

بحوث سمنار فى التاريخ الحديث جامعة عين شمس ١٩٧٩ .

٤ ـ فاروق عثمان اباظة :

التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

بحوث سمنار فى التاريخ الحديث جامعة عين شمس ١٩٧٩

٥ ـ محمد عبد الرحمن برج :
البحر الأحمر فى السياسة الدولية فى نهاية القرن التاسع عشر .
بحوث سمنار فى التاريخ الحديث ـ جامعة القاهرة سنة ١٩٧٩ .

رابعا : دوريات عربية :

١ ـ **أحمد يوسف القرعى :**
الخريطة السياسية للقرن الافريقى
مجلة السياسة الدولية العدد ٥٤ لعام ١٩٧٨ .

٢ ـ **د . بطرس غالى واخرون**
ملف الخلاف الصومالى الاثيوبى الكينى .
العدد ١٩ لعام ١٩٧٠ .

٣ ـ **صلاح الدين حافظ :**
صراع القوى العظمى حول القرن الافريقى .
سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٩ لعام ١٩٨٢ .

٤ ـ **ماجدة محمود الجندى :**
أبعاد الصراع فى القرن الافريقى .
مجلة دراسات افريقية ، العدد ١ لعام ١٩٧٩

٥ ـ **د . محمود الصياد :**
السودان والحبشة .
مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع العدد الاول مايو ١٩٥١

خامسا ـ المراجع العربية :

١ ـ **د . بطرس غالى**
العلاقات الدولية فى اطار منظمة الوحدة الافريقية القاهرة ١٩٧٤ .

٢ ـ **تمام همام تمام**
تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال ١٩٠٠ ـ ١٩٦٠ القاهرة ١٩٨٣ .

٣ ـ **د. جلال يحيى**
التنافس الدولى فى شرق افريقيا القاهرة ١٩٥٩ .

٤ ــ د . جلال يحيى

التنافس الدولي في بلاد الصومال . القاهرة ١٩٥٩ .

٥ ــ د. جمال زكريا قاسم

العلاقات المصرية الافريقية ، القاهرة ١٩٧٥ .

٦ ــ حمدى الطاهرى :

قصة الصومال (القاهرة ١٩٧٧)

٧ ــ راشد البراوى :

الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث القاهرة ١٩٦٢ .

٨ ــ د. رأفت الشيخ

أفريقيا في التاريخ المعاصر (القاهرة ١٩٨٢)
أفريقيا في التاريخ المعاصر (القاهرة ١٩٨٢)
٩ ــ د. زاهر رياض

تاريخ أثيوبيا (القاهرة ١٩٦٦) .

١٠ ــ د . زاهر رياض

السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال (القاهرة ١٩٦٦)

١١ ــ د. السيد رجب حراز :

افريقيا الشرقية والاستعمار الاوربى (القاهرة ١٩٧١ .

١٢ ــ د . السيد رجب حراز

التوسع الايطالى فى شرق افريقيا ــ القاهرة ١٩٦٠ .

١٣ ــ د. السيد رجب حراز :

الاصول التاريخية لمشكلة ارتيريا .

١٤ ــ شارل ادرية :

تاريخ افريقيا .

١٥ ــ الشاطر بصيلى عبد الجليل :

معالم تاريخ سودان وادى النيل .
القاهرة ١٩٥٥

١٦ ــ د . شوقى عطا الجمل :

دور مصر فى افريقيا ــ القاهرة ١٩٨٤ .

١٧ ـ د . شوقى عطا الله الجمل :
سياسة مصر فى البحر الاحمر ـ القاهرة ١٩٧٤ .

١٨ ـ د شوقى عطا الله الجمل :
تاريخ كشف القاهرة ـ القاهرة ١٩٨٠ .

١٩ ـ د . شوقى عطا الله الجمل :
تاريخ سودان وادى النيل الجزء الثانى .

٢٠ ـ عثمان صالح سبى :
تاريخ ارتيريا (١٩٧٧)

٢١ ـ على أحمد نور :
النزاع الصومالى الاثيوبى القاهرة ١٩٧٨ .

٢٢ ـ د . محمد فؤاد شكرى :
مصر والسودان تاريخ وحدة النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٢٣ ـ د . محمد المعتصم سيد :
سيدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار (بدون) .

سادسا ـ الدورة الاجنبية :

1 — Marcus, Herold. Ethio-British Negotiations concerning the Western border with suden, 1896- Journal of African History IV, I, (1963).

2 — Robinson, Sven : The protectorate parargarph of withele Treaty. Journal of African History, 5, 1964.

3 — Sanderson G.N. The Foreign policy of the Negus Menelik, Journal of African History, Vol. V, 1 (1964).

سابعا المراجع الاجنبية :

1 — Aitchison, C.M. : Acollection of treaties India 1892, Vol. XI.

2— Carle Rossitti storia Diplomatic dell Etiopia durante regno di Menelek 11 (Turino 1910).

3 — Davidson, Bassil : Morern Africa (London 1963).

4 — Endre, Şik : The History of Black Africe, Vol. London 1966.

5 — Gann, L. Hand peter, Duingan, Colonistaion in Africa 1970 1960, Vol. 1, London 1969.

6 — Hamilton Angus : Somaliland, London 1911.

7 — Hertslet, M : Map of Africa by Treaty Vol. 11. London 1906.

8 — Langer, William : The Diplomacy of Imperialism New York 1951.

9 — Lewis, J.M. : The Morern History of Somaliland London 1965.

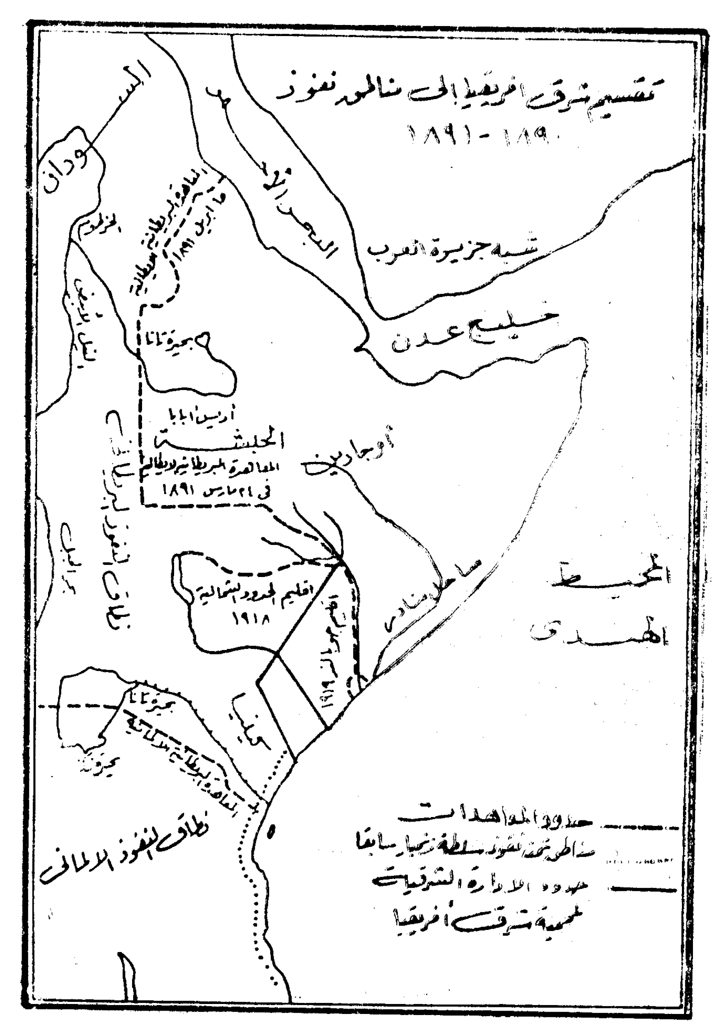
10 — Creste Baratieri : Memoires D. Afrique 1822-1896 (Paris 1899).

11 — Races, A.: History of the Colonisatisn of Africa (Cambridge 1913)

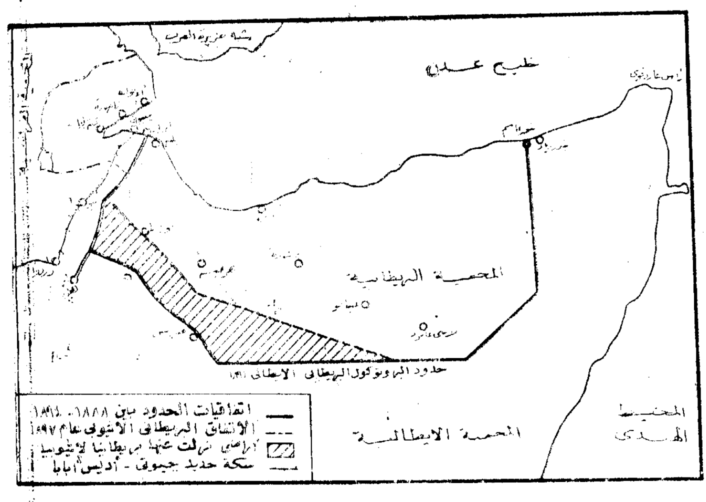
12 — Robinson, R, and Others Africa and the Victorians (New York 1869).

13 — Richard, Greenfield : An Introtuction to Refugee Problems, in Somalia Democratic Republic Somelia and the World. Vol. 11.

14 — Wolf, L : Empire and Commerce in Africa (New York 1920).

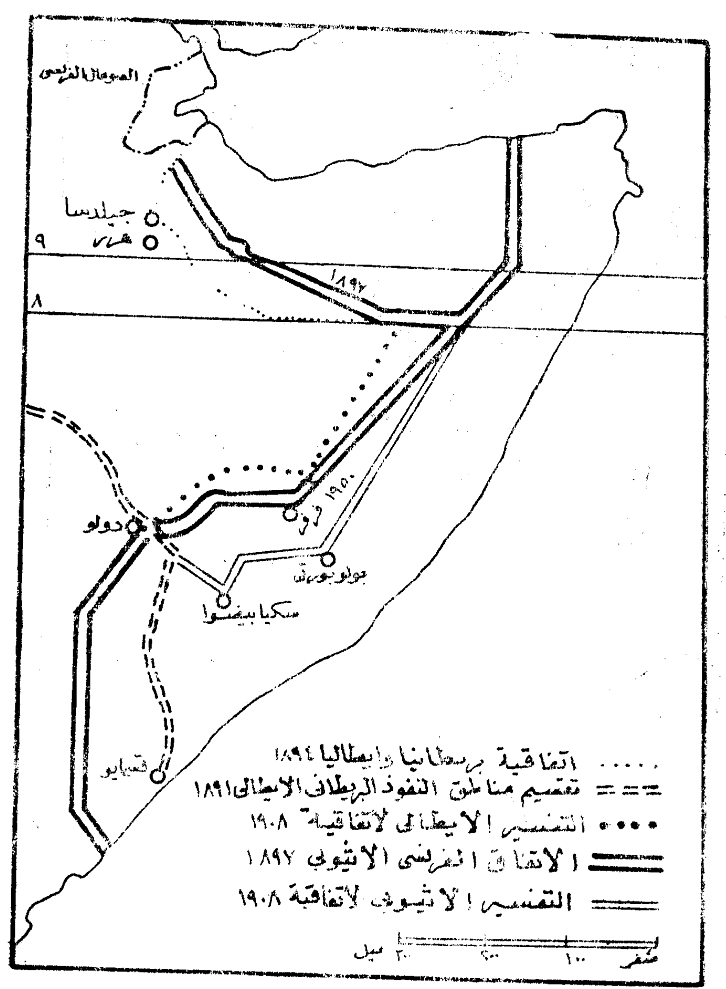

تقسيم شرق أفريقيا إلى مناطق نفوذ
١٨٩٠ - ١٨٩١
السودان
البحر الأحمر
شبه جزيرة العرب
خليج عدن
بحيرة تانا
أديس أبابا
الحبشة
المعاهدة البريطانية الإيطالية
في ٢٤ مارس ١٨٩١
أوجادين
إقليم الحدود الشمالية
١٩١٨
ساحل بنادر
المحيط
الهندي
نطاق النفوذ الألماني
حدود المعاهدات
حدود الإدارة الشرقية
محمية شرق أفريقيا

خريطة رقم (١)

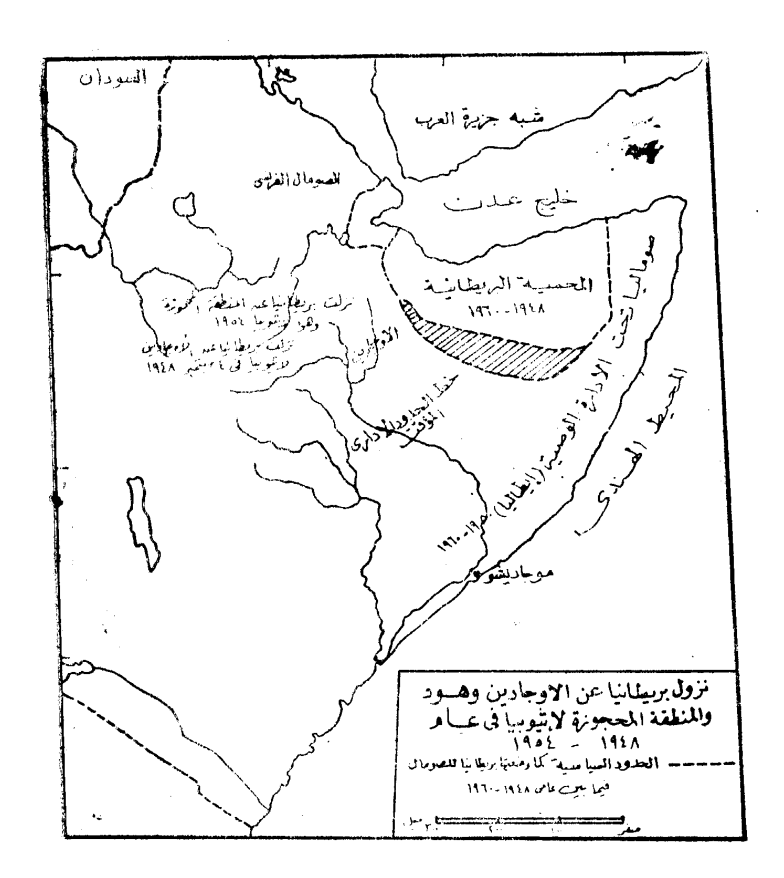


شبه جزيرة العرب
خليج عدن
المحمية البريطانية
المحمية الايطالية
المحيط الهندي
اتفاقيات الحدود بين ١٨٨٨-١٨٩٤
الاتفاق البريطاني الأثيوبي عام ١٨٩٧
أراضي نزلت عنها بريطانيا لأثيوبيا
سكة حديد جيبوتي - أديس أبابا

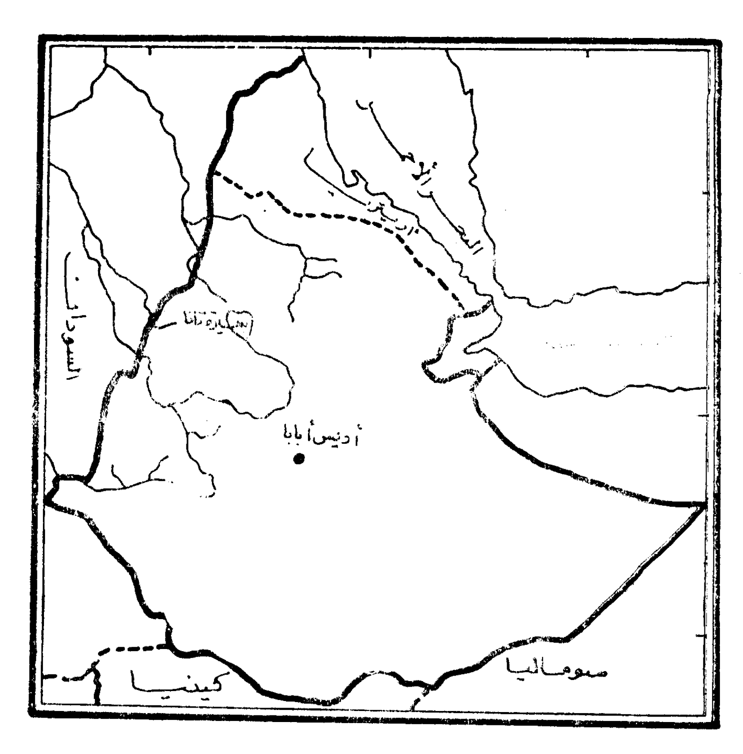
خريطة رقم (٢)


الصومال الفرنسي
جيلدسا
هرر
٩
٨
١٨٩٧
١٩٥٠
دولو
قسمايو
اتفاقية بريطانيا وايطاليا ١٨٩٤
تقسيم مناطق النفوذ البريطاني الايطالي ١٨٩١
التفسير الايطالي لاتفاقية ١٩٠٨
الاتفاق الفرنسي الاثيوبي ١٨٩٧
التفسير الاثيوبي لاتفاقية ١٩٠٨
صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ميل

خريطة رقم (٣)


السودان
شبه جزيرة العرب
خليج عدن
الصومال الفرنسى
المحمية البريطانية
١٩٤٨-١٩٦٠
الاوجادين
موجاديشو
نزول بريطانيا عن الاوجادين وهود
والمنطقة المحجوزة لاثيوبيا فى عام
١٩٤٨ - ١٩٥٤
الحدود السياسية كما وضعتها بريطانيا للصومال
فيما بين عامى ١٩٤٨-١٩٦٠

خريطة رقم (٤)



خريطة رقم (٥)

الملاحة فى الحوض الجنوبى للبحر الأحمر
وأثرها فى التاريخ السياسى للمنطقة
من القرن التاسع ق.م الى القرن السابع الميــلادى

الدكتور / فوزى مكاوى
كلية الاداب ـ جامعة طنطا

ان القول بأن البداية الأولى للتاريخ الاثيوبى القديم يجب أن يبحث عنها فى جنوب الجزيرة العربية أمر غير مغرق فى الخيال فاتصـــال سكان الشاطئين عبر العصور أمر ثابت وقد اعتمد الاتصال بين الشاطئين على الملاحة وساعدت الظروف الطبيعية على هذا الاتصال فالبحر صالح للملاحة فى كل المنطقة اذا لا توجد به مناطق ضحلة (١) وقد أدى ذلك الى امكان البحارة بالســير فى البحر ليلا ونهارا على غير ما اعتـاد البحارة خلال الفترات المبكرة (الألف الثانى والألف الأول) فى البحــر المتوسط حيث اعتمدت الملاحة هناك نظام المساحلة ، وكان الملاحـون يبيتون الليل على الشاطىء (٢) ولو فرضت ظروف جنوب البحر الأحمر مثل تلك الظروف لتأخر اتصال الشاطئين قرونا أخرى .

عبر البحارة الحوض الجنوبى للبحر الأحمر غدوة ورواحا، والواضح ان ســكان الشاطىء الشرقى كانوا أسبق الى ركوب البحر وبقى لهــم قصب السبق فى هذا المجال الى قيام مملكة أكسوم فى القرن الأول ق .م بدأ تجــار أكسوم منذ ذلك الوقت يشاركون فى الرحلات البحرية التجارية

---

(١) Procopius of Caesaria, History of the Wars, Loeb classical Liberary, I, 19.

(٢) Moscati, The World of the Phoenicians, London, 1988, p. 1.

بين الشاطئين ثم بدأ استخدام الحوض الجنوبى للبحر الأحمر لأغراض عسكرية كانت فى الغالب تبدأ من أكسوم فى الغرب لفرض نفوذها على مناطق فى جنوب الجزيرة العربية فى الشرق ، وشهد هذا الجزء من البحر الأحمر نقل جيوش بأكملها لهذا الغرض ، واستمر هذا المد الأكسومى حوالى خمسة قرون من القرن الثانى الميلادى الى القرن السادس، كما شهدت هذه المنطقة سفارات دبلوماسية بين الطرفين كانت فى الأغلب الأعم مرسلة من الطرف العربى الى الطرف الأكسومى تخطب وده أو تحرضه ضد طرف عربى أخر فى نفس المنطقة .

وكانت السفن فى هذا البحر لا تصنع بنفس الطريقة التى تصنع بها السفن فى المناطق الأخرى فهى لا تطلى بالقار أو بأى شىء آخر ولا تثبت الواحها بالمسامير الحديدية من أولها لآخراها ، ولكنهم يربطون الأجزاء الى بعضها بنوع من الجبال ، والسبب فى ذلك ليس كما يفترض البعض أن هناك صخورا معينة تجذب اليها الحديد والشهادة، فالحقيقة ان السفن الرومانية عندما كانت تبحر من أيلة فى هذا البحر على الرغم من تجهيزها بكثير من الحديد لم يحدث لها أى شىء ولكنهم لم يكونوا يملكون شيئا مناسبا لمثل هذه الاغراض فضلا عن أنهم ليسوا قادرين على شراء أى من هذه المواد من الرومان ، حيث أن ذلك ممنوع بالنسبة للجميع بحكم القانون ولأن الموت عقوبة من يقبض عليه بهذه الجريمة (١) .

ملك العرب الجنوبييون السفن كما ملكها الأكسوميون ولدينا بعض التقارير التى تتحدث عن مئات من السفن الأكسومية استخدمت فى نقل الجيش الأكسومى أكثر من مرة عبر تلك القرون (٢) .

كانت المرحلة تستغرق خلال القرن السادس الميلادى من شاطىء

---

(١) Procopous, Op. Cit., I, 19.

(٢) فوزى مكاوى ، مملكة اكسوم ، رسالة دكتوراه ص ص ١١٤ — ١١٨ .

الى الشاطىء الآخر فى جنوب الجـزيرة العربية خمسة أيام بلياليهـا « فاتساع البحر الذى يفصل بين بلاد الحميريين والأثيوبيين الذين يقال لهم الأكسوميين كما ذكر بروكوبيوس » يستغرق عبوره خمسة أيـام بلياليها عندما تهب ريح معتدلة لطيفة اذ كانت الملاحة فى تلك المنطقـة تتم ليلا ونهارا اذا لا توجد مناطق ضحلة فى المنطقة » (٣) •

ولكن يبدو أن التطور الذى شهدته صناعة السفن فى الفترة من القرن السادس الى القرن التاسع أدت الى اختصار مدة العبور فيذكر المسعودى ان « بين ساحل الحبشة عند مدينة غلافقة على خط الطـول ١٤ — ١٥ وسيناء زايد على الساحل المقابل تدوم الرحلة البحرية ثلاثة أيام فى عرض البحر •• وقد عبر الأحباش البحر من ذلك المـكان عندما احتلوا اليمن فى أيام ذو نواس •• وهذا المـكان يقع فى أقرب مـكان بين السـاحل اليمنى وساحل الحبشة على هذا البحر » (٤) •

والواضح ان حركة الملاحة بين الشاطئين كانت كثيفة الى درجـة تجاوزت الآثار السياسية الى كل ناحية أو نشاط من نواحى الحيـاة ، فظهر تأثر كل جانب بما عند الجانب الأخر من زراعة وصناعة وفنـون وعقائد بل وطرق الحياة — نفسـها • واعتبر كل من الجانبين الجانب الأخر مجال التوسـع الطبيعى أمامه عندما سنحت له الظروف لتحقيق هذا التوسع •

ظهرت الآثار الحضارية لهذا الاتصال منذ فترات مبكرة خلال الألف الأول ق•م ، والمؤكد أن هجرات بشرية عرفت طريقها من جنوب الجزيرة العربية الى الشاطىء الغربى للبحر الأمر • واستطاعت هذه الهجرات ان تعطى دفعة حضارية للحياة البدائية على ذلك الشاطىء فظهـرت المراكز الحضارية المختلفة فى يحا Yehq ومطرا Matara وغيرهما • والمـؤكد ان هذه المراكز الحضارية كانت امتدادا لحضـارة

---

(١) Procopous, Op. Cit., I, 19.

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ص ٣٤ ، ٣٥ •

جنوب شبه الجزيرة العربية فى القرون السابقة على ميلاد المسيح ويكفى ان تعرف ان يحا تضم بقايا أفضل امثلة المعابد السبئية وهو معبد مربع التصميم واجهته تضم بابا ونافذتين ، كما أن سهل كوهايتو ما تزال بقايا شاهدة على استخدام أسلوب جنوب الجـزيرة العربية فى بناء السدود لحفظ المياه والتحكم فى الرى،فضلا عن العقائد واللغة ونظم الحكم ، وهناك اسماء الأماكن فى شبه جزيرة العرب انتقلت مع اصحابها الى اثيوبيا مثل نهر مأرب وصحرت هوزن (١) .

هذه الظواهر الحضارية المتشابهة دفعت بعض المؤرخين الرواد أمثال جلازر وكونتى روسينى الى القول بهجرة قبائل عربية بأكملها أو اجزاء منها مثل قبيلة الحبشت Habashat وقبيلة Agazian والأولى عرفت البلاد باسمها فيما بعد والثانية عرفت لغة البلاد باسمها واعتقد هؤلاء الباحثون بأن دافع العرب الى الهجرة كان تسبب ضيق اقتصادى تعرضت له بلادهم (٢) .

ولكن صار هذا الرأى غير مقبول الآن حيث لا توجد أدلة تاريخية تشير الى حدوث انفجار سكانى فى جنوب الجزيرة يدعو الى هجرة قبائل بأكملها من مواطنها الى مواطن جديدة ، كما أن وجود تشابه اسماء فى المناطق المختلفة فى جنوب الجزيرة العربية واثيوبيا يثبت وجود الصلات الحضارية بين المنطقتين دون ان يكون دليلا لصالح هجرة القبائل .

والمرجح فى نظر الباحثين الآن ان التجار العرب كان لهم دورهم فى البحر الأحمر فى تلك الحقبه المبكرة ، ولذلك فمن المنطقى أنهم تحركـوا بين الشاطئين لأغراض التجارة، ويمكن تصور هذا الاتصال المتقطع بداية الاستقرار العربى الذى قام على الساحل الافريقى للمنطقة فاستقر بعض التجار وتزايدت اعدادهم بمضى الوقت كما تزايد توغلهم فى البلاد

---

(١) Sergew Halle Sellassie, Ancient and Medieval Ethopian History to 1270, Addis Ababa 1979 P. p. 26-34.

(٢) Idem.

الأثيوبية نحو الغرب ، وقد نتج عن هذه الظاهرة قيام محطات تجارية عربية فى مناطق متفرقة من شمال اثيوبيا تضم ارستقراطية عربية تتولى الحكم والادارة بفضل تفوقها الحضارى ، والمعتقد ان هذه الارستقراطية فقدت نقاء عنصرها بالتدريج عن طريق الزواج من نساء العناصر الحامية ، وقد أدى هذا الزواج الحضارى الى قيام سمات حضارية خاصة للدولة فى القرون التالية شملت لغة خاصة وسمات حضارية متميزة (١) •

أما عن تاريخ بداية هذا الاستقرار فالمؤكد انه كان تاليا فى الزمن لرحلة حتشبسوت الى بلاد بونت (القرن ١٥ ق • م) اذ لم يقابل جنودها أصحاب الحضارة الأثيوبية المبكرة وهى حضارة متقدمة لأصحابها خبرة فى انشاء المبانى الحجرية ونحت التماثيل وبناء السدود ، وكانت لديهم الخبرة التجارية والزراعية كما كانت لهم لغة خلدوها فى نقوش بالحروف السبائية ومن المؤكد ان هذه الحضارة لو وجدت للفتت انظار مبعوثى الملكة الذين ابحروا مساحلين بالقرب من الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ولم يتركوا شيئا رأوه دون ان يذكروه فى نقوشهم ورسموهم حتى السمات البشرية لمن قابلوهم على شواطىء الصومال • والمؤكد ايضا ان هذا الاستقرار العربى فى اثيوبية سبق قيام مملكة أكسوم بعدة قرون (القرن الأول) ومن المحتمل ان يكون الاستقرار العربى قد عرف طريقة الى ساحل اثيوبيا ابتداء من القرنين السابع والسادس ق • م ثم اشتد عودة خلال القرن الخامس حيث يؤرخ ليتمان أقدم النقوش السبئية على الارض الاثيوبية من القرن الخامس ق • م (٢) •

واغلب الظن ان الاستقرار العربى اتخذ شكل الاستقرار اليونانى على الشواطىء المختلفة فقامت مدن دول ويبدو أنها اتبعت أساليب الحكم

---

(١) فوزى مكاوى : المرجع السابق ص ١٠ •

(٢) Sergew, Op. Cit., P. 60.

(٣) R. Schneider, Remarques sur les inscriptions d'Enda Cerqos AE 6, 1965, p. 22.

الذى عرفتها أوطانها الأصلية فى جنوب الجزيرة العربية حيث عثر على نقش فى تجرى ذكر عليه لقب (مكرب) الذى كان لقبا ملكيا فى جنوب الجزيرة العربية ولكن انهارت هذه المراكز الحضارية فى وقت مقارب لانهيار المراكز الحضارية فى شبه الجزيرة العربية ، ويؤرخ ذلك من القرن الثانى الميلادى تقريبا وقد أدى هذا الانهيار الى دخول منطقة جنوب البحر الأحمر فى الشرق والغرب فى حالة من الفوضى استمرت حتى قيام مملكة أكسوم على الساحل الغربى وقيام ممالك جديدة على الساحل الشرقى • ولم تكن مملكة أكسوم مجرد وريث للحضارة الاثيوبية القديمة عربية الطابع بل ظهر فيها تأثير السكان الأصليين السابقين على الساميين بصورة واضحة •

واستمرت الصلات بين شاطىء جنوب الجزيرة العربية بعد قيام مملكة أكسوم وان اختلفت الأدوار فاكتسبت أكسوم اتساعا وقوة متزايدة باستمرار فى نفس الوقت الذى كانت ممالك جنوب الجزيرة العربية لا تتوقف عن الاقتتال ، وقد أدى هذا الى أن تسنح الفرصة غير مرة لملكة أكسوم بأن تتدخل فى شئون جنوب الجزيرة العربية بل ووصل الأمر الى حد استعمار اجزاء من هذه الأرض •

ويمكن ان نلمس تزايد هذا الوجود الأكسومى على الأرض العربية منذ القرن الثانى الميلادى •

فنجد الملك صاحب نقش عدول يدخل حربا ضد العربيتا والكنيدو كولبتاى على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر بهدف ضمان سيطرة الملك الأكسومى على الطريق التجارى البرى الذى يبدأ من أرض السبأين نحو الشام والقضاء على القرصنة البحرية التى امتهنها كثيرون من العرب فى تلك الأونة ولذلك يبدو ان الملك اكتفى باخضاع هذه الممالك وفرض عليهم ضرائب دون ان يفرض عليهم حكاما أكسوميين وان كان من المحتمل انه ترك بعض جنوده هناك [1] •

---

(١) فوزى مكاوى ، المرجع السابق ص ٣٥ وما تلاها .

وقد اتاح الوجود الاكسومى على الارض العربية فرصة للتدخل فى شئون الممالك العربية هناك فتم التحالف بين الملك جدر ملك أكسوم ومغتصب العرش فى سبأ علهان نبهفان « على ان يشنا الحرب ويقيما السلام معا ضد كل من يعلن نفسه عدوا لهما وانهما سوف يصبحان أخوين بصدق وأمانة » (١) ..

ومن المؤكد ان هذا الحلف قد حقق لكل من الملكين اهدافه فسمح لعلهان نهفان أن يحتفظ بالملك الذى اغتصبه كما منح الوجود الأكسومى فى العربيتان والكنيدو كولبتاى فرصة الاستمرار دون مضايقات .

ولكن دب الشقاق بين الحليفين بمجرد موت الملك علهان نهفان واعتلاء ابنه اوتر للعرش ، وتعرف أخبار الصراع بين جدر وشعار اوتر من نقش تركه أحد قواد جيشه الذى أرسله سيده الى أرض الأحباش ضد (جدرت) ملك الأحباش والاكسوميين (٢) ويبدو ان الصراع الأكسومى السبئى على عهد شعار اوتر استمر عدة سنوات فقد عثر على نص لقائد آخر من قواد شعار أوتر يدعى وافى اذرح كلفه سيده بعد عدة سنوات من تاريخ النص الأول بصد هجوم للأكسوميين وردعهم هم ومن عاونهم من العرب(٣) ويبدو ان الصراع بين شعار اوتر والأكسوميين قد أدى الى انكماش الوجود الأكسومى داخل حدود مستعمرتهم القديمة فى شمال الأرض السبئية دون ان يؤدى الى اقتلاعهم من الجزيرة العربية .

واستمر الوجود الأكسومى على الأرض العربية خلال القرن الثالث وقد اشار الملكان السبئيان الشرح يحضب وبازل بيين فى عدد من النصوص

---

(١) S. Pankhurst Ethiopia a cultural History London, 1955.

(٢) Jamme, A. Sabaean Inseriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore 1962 PP. 132-133.

(٣) فوزى مكاوى ، اضواء جديدة على العلاقات بين مملكة اكسوم وممالك جنوب الجزيرة العربية خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين دراسات الخليج والجزيرة — ١٢ .

الى تفاصيل هذا الصراع • ورغم ان الملك الشرح يحضب يؤكد ان قواته هى التى بدأت بالهجوم الا ان انتشار القوات الأكسومية فى مناطق بعيدة عن حدودها القديمة شمال مملكة سبأ يشير الى ان الأكسومية سبقـوا هجوم الشرح يحضب بالاستيلاء على هذه المناطق، وان حملته كانت بهدف طردهم من أملاكه • ويبدو ان الجولة انتهت لصالح الشرح يحضـب فانسحب الأكسوميون الى مستعمرتهم القديمة فى شمال سبأ وعقـدت اتفاقية سلام بين الطرفين لم تعمر طويلا حيث استغلت أكسوم ظروف قيام حرب بين الشرح يحضب ملك سبأ وشامير ملك حمير فاستقبلت سفراء الأخير عندما لجأ اليها طالبا مساعدتها ضد الملك العربى الآخر الشرح يحضب ، واستجاب الملك الأكسومى ادباه لطلب مليكهم•والطريف ان الشرح يحضب أسرع هو الآخر يخطب ود الملك الاكسومى حالما علم بما أقدم عليه ملك حمير • وأرسل الشرح يحضب سفراءه الى أكسـوم يرجو الملك الأكسومى ان يمتنع عن التدخل فى الحرب لصالح عـدوه والصـورة تبين تهافت الملكين العربيين على اعتاب اكسوم التى رأى ملكها الفرصة مواتية أمامه للانتقام من الشرح يحضب ولذلك دخلت أكسوم الصراع الجديد الى جانب شامير الحميرى رغم الوعود التى قطعتها لسفراء الشرح يخضب والتى يـمكن ان ندخلها فى اطار الخداع العسـكرى •

وأرسل الملك الأكسومى جيشه تحت قيادة ابنه جارامات وانضم هذا الجيش القادم من افريقيا الى القوات الأكسومية فى جنوب الجزيرة والتى كانت تحت قيادة Sabqalum نائب الملك الأكسـومى على المستعمـرة •

واستطاع شامير الحميرى وحلفاؤه الأكسوميين ان يكبدوا الشرح يحضب خسائر كبيرة واحتلوا أجزاء من مملكته • ولكن هذا استطـاع ان يتدارك الأمر وقام بحملات مضادة بعد ما يقرب من عامين ونصـف

أدت الحملات الجديدة الى هزيمة الحميريين والأكسوميين • وقـد رأى فيزمان أن هزيمة الاكسوميين فى تلك المعركة كانت ساحقة حتى أنها أدت الى رحيلهم تماما من الارض العربية • حدث ذلك من وجهة نظر حوالى عام ٢٦٥ م (١) •

ولكن اتضح ان الوجود الأكسومى استمر رغم النصر الذى حققه السبئيون . فقد نشر مؤخرا نص يعود الى عصر نشأ كرب من الشرح يحضب يتحدث عن استمرار الصراع بين الأكسوميين والسبئيين بعـد وفاة الشرح يحضب وبعد وفاة ابنه وخليفته Watarum yuhamin ثم اعتلاء الأبن الثانى نشاكرب يأمن العرش أمر بنقش هذا النص معان أحد قادة جيش نشاكرب يأمن يتحدث فيه عن حربه ضد الأكسوميين لصالح سيده نشاكرب — ويثبت هذا النص استمرار الصراع بين السبئيين والأكسوميين بعد الفترة التى حددها الباحثون موعدا للانهيار النهائى للوجود الأكسومى فى الجزيرة العربية فى القرن الثالث الميـلادى وهو الأمر الذى يفرض تاريخا جديدا متأخرا عن التاريخ المحدد من قبـل لذلك الانهيار ربما يناسب اسـتمرار الصراع عـلى عهد نشاكرب يأمن يهرحب (٢) •

استمرت الصلات التجارية بين جنوب الجزيرة العربية وأكسوم بعد هزيمة الوجود الأكسومى وان لم تقم أدلة على وجود اتصالات سياسية أو عسكرية ، هذا على الرغم من ادعاء الملك عيزانا الأكسومى بأنه ملك حمير وريد ان وسبأ وصالحين ، والدليل على ذلك ان الصراعات التى قامت بين الممالك العربية الجنوبية فى الفترة التالية لم تشر الى أى وجود أكسومى ، كما ان عيزانا نفسه لم يدع قيامه بأية حملات عسكرية فى جنوب الجزيرة العربية رغم حرصه على ذكر كل نشاطات قام بها مهما كانت أهميتها (٣) •

---

(١) فوزى مكاوى مملكة اكسوم . . المرجع السابق ص ص ٥٧ — ٥٩ .
(٢) فوزى مكاوى ، اضواء . . المرجع السابق ص ٧٤ .
(٣) فوزى مكاوى ، مملكة أكسوم الفصل الثالث ه ص ص ٦٤ — ٩٠ .

عادت أكسوم مؤثرة فى شئون منطقة جنوب البحر الأحمر على عهد الملك كالب الذى جعل من القابه أنه ملك حمير وذى ريدان وسبأ وصالحين والبلاد العليا واليمن والسهل الساحلى وحضر موت وكل اعرابها • ورغم ان ترتيب هذه البلاد مخالف لما اعتاد ملوك جنوب الجزيرة العربية أن يذكروه — الا ان هناك اجماع فى المصادر البيزنطية والسريانية والعربية بوقوع تدخل أكسومى فى جنوب الجزيرة العربية فى تلك الفترة ويبدو أن التدخل الجديد بدأ على عصر تازينا والد كالب •

وقد تعددت الروايات حول الصراع الذى قام بين أحد ملوك حمير المدعو ذو نواس ونصارى نجران الذين كانوا فيما يبدو متعاطفين مع الاكسوميين ، ومعظم الروايات تتبنى وجهة نظر المسيحين القائلة بأن نصارى نجران عانوا الكثير من ذى نواس بسبب اعتناقهم المسيحية • وتتفق كل الراويات بأن ملك اكسوم تدخل لصالح المسيحيين • والروايات الاسلامية حول هذا الصراع تتفق مع الرواية المسيحية وان اختلفت فى بعض التفاصيل • فيرى بعض المؤرخين ان الاكسوميين احتلوا اليمن بعد حملة واحدة وآخرون يذكرون حملتين ، ويزعم البعض ان الصراع بين الطرفين كان عنيفا،بينما يؤكد اخرون بأن هذا الصراع كان مجردمناوشات• وتضاربت الاقوال حول مصير الملك الحميرى (ذو نواس) فبعض الروايات تقول بغرقه فى البحر بينما تقول الاخرى بقتله على ايدى الاكسوميين •

ونعرف من مخطوطة شرح القصيدة الحميرية ان الشعب الحميرى استمر فى النضال بعد موت ذى نواس بقيادة اخيه (1) •

واستمر الوجود الاكسومى فى اليمن وامتد عندما حاول نائب الملك الاكسوم على اليمن (ابرهة)ان يهدم الكعبة ولكنه فشل فى ذلك • وان استمر الاستعمار الاكسومى لليمن حتى حررها بنوها بمساعدة الفرس حوالى عام ٥٧٠م •

---

(1) Fauzi Mikawy, Further Readinges on the Aksumite History African Studies Review, Vol. VII 1978 PP. 17-12.

والصفحة الأخيرة من التاريخ الاكسومي شاهد صدق على استمرار الاتصال الحضارى بين شاطىء جنوب البحر الاحمر ، وان مثل الطرف العربى فيه هذه المرة المسلمون الذين كانوا يقيمون بمكة بعيدا الى شمال من جنوب الجزيرة • والواضح ان اختيار النبى صلى الله عليه وسلم لاكسوم موطنا لهجرة اصحابه كانت بسبب المعرفة الوثيقة لقريش بتلك البلاد ،فقد كانت ذكر الطبرى متجرا لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفافا من الرزق وامنا ومتجرا حسنا (١) • والواضح من الدراسة ان الهجرتين الاسلاميتين للحبشة كانت اولهما استطلاعية ولذلك ضمت عددا قليلا من المهاجرين (احد عشر رجلا واربعة نسوة) وعندما عادت بأخبار قبول النجاشى استضافة المهاجرين خرج ما يزيد على الثمانين من المهاجرين حيث استقروا هناك سنوات • والواضح من اخبار التعثتين ان الصلات بين اكسوم والجزيرة العربية كانت مستمرة حتى ان ما قيل عن اسلام قريش وصل فى ايام الى المهاجرين الاول هناك اذ ان الوفد لم يقض فى الذهاب والاقامة والعودة أكثر من شهرين ونصف(٢) كما ان الحديث عن اختيار عبد الله بن أبى ربيعة باعتباره عالما باكسوم واحوالها لدليل على عمق الاتصال بين الطرفين واستمراره • لقد ادى موقف النجاشى من المهاجرين المسلمين الى بلاده وحمايته اياهم الى قيام علاقة ودية بين اكسوم والمسلمين امتدت حتى وفاة النجاشى وتبادل الطرفان اثناء هذه المدة الهدايا(٣) •

ولكن كانت اكسوم تدخل دائرة الظل بسرعة وتفقد مكان الريادة فى المنطقة ومن ثم ضعفت قبضتها على البحر وازداد نشاط القرصنة التى جعلت من الموانى الاكسومية مرفأ لها • فحدثت مناوشات بين الطرفين فى الفترة من ٦٣٠الى ٦٤٠ورد المسلمون بحملة بحرية صغيرة أيام خلافة

(١) الطبرى : جـ ٢ ص ٣٢٨ .
(٢) الطبرى : جـ ٢ ص ٣٤٠ .
(٣) ابراهيم طرخان ، الاسلام والممالیك الاسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى مجلة الدراسات التاريخية القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٨ .

عمر بن الخطاب ٦٣٤م(١) ولكن لم يقدر لها النجاح .

واضمحلت اكسوم وتقوقعت على نفسها فوق المرتفعات وفقدت سيطرتها على الشواطىء الى ان سقطت فى النهاية وانتقلت السيادة فى الاتصالات من جديد الى الجانب العربى كما كان الامر قبل قيام مملكة اسكوم واستطاعت جهود المسلمين فى القرون التالية أن تسيطر على مصوع وجزر دهلك وخربت عدول بالتدريج وبدأ الاسلام يعرف طريقه الى السهول الحبشية .

---

(١) ابراهيم طرخان : نفس المرجع ص ٣٠ .

خاتمـة

تبين هذه الدراسة أن البحر يعتبر فى مناطق متعددة حاجزا طبيعيا بين البشر والحضارات لكنه مثل فى هذه المنطقة صلة وصل هامة فاستطاع سكان الشاطئين أن يؤثروا ويتأثروا بما يجرى عند الطرف الآخر ، وقد امتدت هذه الصلات لتشمل كل النشاطات الانسانية من الحرب الى البناء •

ويمكننا أن نرصد تغييرا فى مكان الريادة على الشاطئين فبينما كانت تلك الريادة من نصيب العرب فى أول الامر انتقلت الى اكسوم بعد ذلك بعدة قرون ، وعندما دخلت اكسوم دائرة الظل انتقلت الريادة من جديد للجانب العربى خاصة أن العرب كانوا يعيشون بداية عصر زاهر بقيام الدولة الاسلامية •

وأدى البحر هذا الدور الحضارى الهام بسبب ميزاته الطبيعية فى تلك المنطقة فهو خال من معوقات الملاحة بالاضافة الى اقتراب الشاطئين مما سمح للبحارة أن يعبروه فى أيام معدودة ، وقد تضاءل عدد هذه الايام بالتدريج مع تقدم صناعة السفن •

وقد رصدت هذه الدراسة ظاهرة الاتصال بين الشاطئين وطبيعة الاتصال فى كل مرحلة • والملاحظ أن هذا الاتصال أدى فى بدايته (الالف الاول ق•م) الى دخول الشاطئ الغربى للمنطقة فى التاريخ العام للتاريخ بعد أن كانت خارجة عن هذا المسار وقامت مراكز حضارية فى اثيوبيا ذات طابع عرتى •

وعندما قامت مملكة اكسوم كوريث حضارى لهذه المراكز ، وقويت شوكتها وجدنا البحر يحمل اطماعها فى التوسع شرقا ونجحت هذه الدولة فى احتلال أجزاء من الشاطئ الشرقى للمنطقة لفترات طويلة •

وأخيرا عندما عادت الريادة للعرب مع قيام الاسلام واضمحلال أكسوم حملت مياه هذه البحر دعوة الاسلام الى الشواطئ الغربية •

علماء زيلع ودورهم فى الحيــاة
الثقافية فى مصر فى العصــور الوسطى

أ . د . محمد محمد أمين
كلية الاداب ـ جامعة القاهرة

ساهم علماء افريقيا فى العصور الوسطى بسهم وافر فى النهضة الحضارية التى شهدها العالم الاسلامى وبخاصة فى القرنين ٨ ، ٩هـ / ١٤ ، ١٥م ، ورغم ذلك لم تنل مساهمة العلماء الافارقة حظها من البحث والدراسة ، ذلك ان اهتمام الباحثين والدارسين انصب على مساهمــة الشعوب الاسلامية التى لعبت دورا بارزا فى بناء الحضارة الاسلامية فى عصورها الاولى ، وبخاصة فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى الوقت الذى لم يكن فيه الاسلام قد توغل فى القارة الافريقية ، واقتصرت المساهمة الافريقية فى الحضارة الاسلامية على شعوب شمال القارة فى مصر والمغرب العربى .

وفى محاولة لالقاء الضوء ولفت الانظار الى مساهمة علماء افريقيا فى الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى المتأخرة ، رأيت فى النــدوة الدولية للقرن الافريقى فرصة سانحة للكلام عن دور علماء زيلع فى أحد جوانب الحضارة الاسلامية ، وهو الجانب الثقافى ، وفى منطقة واحدة من العالم الاسلامى وهى مصر ، موضحا المقصود ببلاد الزيلع والعوامل التى جذبت علماء الزيلع الى القاهرة فى هذه الفترة الزمنية بالذات ، ودور هؤلاء العلماء فى الثقافة الاسلامية فى مصر فى العصور الوسطى المتأخرة، وهذا لايعنى أن دور علماء زيلع الثقافى تركز فى القاهرة فقط ، بل امتــد الى اليمن والى الحجاز ، ولكن هذه الدراسة سوف تقتصر على مصر .

ففى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى تطورت المحطات والمراكز التجارية التى انتشر فيها الاسلام فى ساحل الصومال الشمالى، وأصبحت سبع امارات اسلامية ظهرت فى ساحل الصومال الشمالى وما يليه جنوبا أى فى « الاراضى المقابلة لبر اليمن على أعالى البحر الاحمر وما يتصل به من بحر الهند » ، والتى أطلق عليها المؤرخون مصطلح « الطراز الاسلامى » لأنها على جانب البحر كالطراز له[1] ، أى أنها تمتد على طول ساحل البحر دون أن تتسع كثيرا فى الداخل ، وهى البلاد التى كان يقال لها — فى ذلك العصر — فى مصر والشام « بلاد الزيلع »[2].

شغلت هذه الدول سهل زيلع شمالا وأرض هرر جنوبا ، وتوغلت فى الاراضى الخاضعة — حاليا — للحبشة ، وكان يطلق على ملوك هذه الدول اسم : ملوك عدل ، أو ملوك زيلع .

ويعتبر المقريزى أول كاتب عربى يفصل الحديث عن هـذه الامارات السبع وذلك فى كتابه « الالمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام »[3] ويذكر أن اقليم الطرز الاسلامى يضم سبع امارات يحكم كلا منها ملك مسلم[4] ، وهذه الامارات السبع هى :

١ — ايفات (وفات) : والعامة تسميها « أوفات » ، ويقال لها أيضا « جبرة »[5] ويمكن من الوصف الذى ذكره المقريزى أن نضع امارة ايفات على الخرائط الحالية ممتدة من شرق شو الى شمال أديس أبابا الى وادى هواشى الى خليج عدن[6] .

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٤ .
(٢) العمرى : مسالك الابصار (المخطوط) جـ ٢ ورقة ١٨٤ .
(٣) طبع فى القاهرة ١٨٩٥م ، والمعروف أن كتاب العصور الوسطى كانوا يطلقون على المنطقة كلها اسم « الحبشة » ، وهم لا يعنون بذلك حدودا سياسية أو اقليمية ، ولكن من قبيل اطلاق اسم الجزء على الكل نظرا لشهرة الحبشة عند العرب .
(٤) نفس المصدر ص ٦ .
(٥) عن هذه التسميات : أنظر المقريزى : الالمام ص ص ٦ — ٨ ، القلقشندى صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٥ .
(٦) محمد محمود الصياد : جبرة وجبرت (مقال بكتاب : عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث) ص ٥٨٧ .

ويذكر المقريزى أن أول من أقام فى هذه الدولة هم قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، قدم أولهم من بلاد الحجاز ، وعرفت جماعة منهم بالخير واشتهروا بالصلاح، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب « ولشمع » ، حكم مدينة أوفات وأعمالها .

أورث عمر هذه الامارة لاولاده الاربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحدا بعد آخر ، وكان أول من خرج على طاعة ملك الحبشة هو على حفيد عمر ولشمع ، أما أول من استبد بالامور وحارب ملك الحبشة فعلا وأسر الكثير من عساكره ، وغنم أمواله فهو « حق الدين » الذى استطاع أن يجمع حوله الناس ، وان يهزم جيوش الملك الحبشى « سيف أرعد » (١٣٤٤ — ١٣٧٢)(١) .

وفى وصف لهذه الامارة يرجع الى القرن ٨هـ / ١٤م ، نقلا عن الشيخ عبد الله الزيلعى : « وطول مملكتها خمسة عشر يوما وعرضها عشرون يوما بالسير المعتاد . قال : وكلها عامرة ، أهلة بقرى متصلة ، وهى أقرب أخواتها الى الديار المصرية والى السواحل الملاصقة لليمن ، وهى أوسع الممالك السبع أرضا ، والاجلاب اليها أكثر لقربها من البلاد ، وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ، ويتبعهم عشرون الفا فأكثر من الرجالة »(٢) .

ويذكر المقريزى أن ملك أوفات يحكم على الزيلع ، وغالب أهلها شافعية ، وكثر فيهم لعهدنا الحنفية ، وكلام أهلها باللغة الحبشية ويتكلمون أيضا بالعربية(٣) .

---

(١) المقريزى : الالمام ص ٩ — ١١ ، ويذكر الجبرتى فى كتابه عجائب الاثار أنهم ينسبون الى أسلم بن عقيل بن أبى طالب (ط بيروت) جـ ١ ص ٤٤١ .

(٢) العمرى : مسالك الابصار (المخطوط) جـ ٢ ورقة ٤٧٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٥ ، المقريزى : الالمام ص ٦ .

(٣) الالمام ص ٦ ، ٧ .

٢ — دوارو : وتقع الى الجنوب من امارة ايفات ويبلغ طولها خمسة أيام وعرضها يومان ، ورغم صغر حجمها الا أن عسكرها يعادل عسكر ايفات ، ويمكن وضعها على الخرائط الحالية فيما بين نهر هواش وأعالى نهر وبيى شبيلى ، وهى المنطقة التى تعرف حاليا باسم آتو(١) ، وأهلها حنفية المذهب(٢) .

٣ — أرابينى : وتقع شمال شرقى بحيرة تانا ، وهى امارة صغيرة مربعة طولها أربعة أيام وعرضها كذلك(٣) ، وأهلها حنفية(٤) .

٤ — هــدية : وتقع جنوبى ايفات ، وطولها ثمانية أيام وعرضهــا تسعة أيام(٥) ، ورغم أنها أصغر من ايفات مساحة ، الا أنها أقوى الممالك السبع ، وأكثرها خيلا ورجالا ، وهى تقع فى أعالى نهر ادمو الذى يصب فى بحيرة رودلف وهى المنطقة التى تعرف اليوم باسم بوران وانتدى(٦)

٥ — شرحا : بفتح الشين المعجمة ، وسكون الراء المهملة ، وحاء ثم ألف ، وطولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام ، وعسكرها قليل ، وتقــع غرب ايفات بين هدية ودوارو(٧) وأهلها حنفية(٨) .

٦ — بــالى : بفتح الباء الموحدة وألف ثم لام وياء آخر الحروف، وتلى شرحا ، غير أنها أكثر خصوبة ، وأبرد هواء ، ويحدها شــمالا نهر وبى شبيللى ومن الجنوب نهر جرانا ، وبهذا الوضع الجغرافى فانها تتحكم

---

(١) محمد محمود الصايد : مرجع سابق ص ٥٨٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

(٢) محمد محمود الصياد : مرجع سابق ٥٨٧ ، القلقشندى : مصدر سابق جـ ٥ ص ٣٢٧ .

(٣) المقريزى : الالمام ص ٧ .

(٤) المقريزى : الالمام ص ٧ .

(٥) العمرى : مسالك الابصار (المخطوط) جـ ٢ ورقة ٤٨٢ — ٤٨٣ ، المقريزى : الالمام ص ٧ — ٨ ، القلقشــندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ، محمد محمود الصياد : مرجع سابق ص ٥٨٧ .

(٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٢٨ ، محمود الصياد : مرجع سابق ص ٥٨٨ .

(٧) المقريزى : الالمام ص ٨ .

فى وادى الصومال والعنصر الغالب على سكانها عنصر السيداما ، ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا • وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة[1] ، وأهلها حنفية[2] •

٧ ــ دارة : بفتح الدال المهملة ، وألف بعدها راء ثم هاء ، وهى تلى امارة بالى ، وطولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك ، وهى أضعف الامارات السبع وأقلها خيلا ورجالا[3] •

ونستطيع أن نخرج من هذا العرض للدول أو الامارات السبع ، أن معظم أراضى مملكة ايفات تقع فى الصومال الحالى ، وأنها كانت تمتد لتشمل أراضى من جنوب الحبشة بحدودها الحالية ، ولما كانت ايفات أو جبره هى أوسع الممالك السبع أرضا ، والاجلاب اليها أكثر لقربها من البلاد[4] ، ولذا فانه لم يلبث أن طغى اسمها على اسماء الممالك الاخرى، وأصبح يطلق على جميع الامارات الاسلامية فى شرق الحبشة وجنوبها أى فى شمال الصومال وغربها ، بل ان اسمها اصبح يطلق على جميع المسلمين فى الحبشة ، بل ويتعدى هذا النطاق فيطلق الاحباش المسيحيون اسم « جبرت » على المسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، أى أن كلمة « جبرت » أصبحت مرادفة لكلمة « مسلم » بصفة عامة فى شمال الصومال وغربه ، وفى الحبشة أيضا[5] •

ويقرر الجبرتى ذلك صراحة بقوله : « وبلاد الجبرت هى بلاد الزيلع بأراضى الحبشة ••• وهم عدة بلاد معروفة تسكنها هذه الطائفة ، وهم

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٩ ، المقريزى : الالمام ص ٨ .
(٢) المقريزى : الالمام ص ٨ .
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٢٩ ، المقريزى : الالمام ص ٨ .
وعن الخلافات بين المؤرخين فى رسم خرائط هذه المنطقة ، انظر : عبد الغفار محمد حسين : الامارات الاسلامية العربية فى الحبشة فى القرنين ١٣ ، ١٤ ــ الخرائط ، الاشكال ١ ــ ٤ .
(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٥ .
(٥) Ullendorff, E., the Ethiopians, pp. 113-114.

المسلمون بذلك الاقليم ، ويتمذهبون بمذهب الحنفى والشافعى لاغير»(1)

وكان سكان ايفات خليطا من العرب ، والصوماليين ، والدناقل ، وبعض العناصر الاسيوية ، وكانت « زيلع » التى ذكر اسمها لاول مرة ابن خرداذبة احد الجغرافيين العرب — فى القرن ٣هـ / ٩م(٢) ، والتى تعتبر فى الاصل مركز لامارة « عدل » ، هى المحور السياسى للمستوطنين المسلمين فى ساحل الصومال ، والحبشة ومحصولات اليمن •

ومن زيلع قام مسلمو الامارات السبع بدور بارز فى نقل المتاجــر وخاصة بالنسبة لطريقين :

(أ) المتاجر التى ينقلها العرب بحرا من عدن الى زيلع وعدل ، كانت تحمل برا الى الشمال الى عيذاب حيث ينظرها التجار لنقلها الى قوص فالقـــاهرة •

(ب) بعض التجار كانوا يسيرون مع الطريق السابق الى سواكن فقط، ومنها يخترقون السهل السودانى الى النيل النوبى حيث يصعدون بها برا الى القاهرة ، أو يحملونها برا أيضا الى حوض النيجر وساحل غـــانة أو الى مملكة مالى فى الغرب •

فكانت تنقل الى زيلع منتجات الحبشة من اللبان والبخور وســن الفيل ، حيث تتجمع لتحمل مع التجارة الهندية الى عيذاب ، سواء برا أو بحرا ، لتصل الى أوروبا ، أو الى عدن لتحمل الى الهند وموانى شرق أفريقيا ، والواقع أن احتكار مسلمى شمال الصومال للنشاط التجـــارى فى العصور الوسطى كان من العوامل المشجعة لزيادة الروابط الاقتصادية بين هذه البلاد من جهة وكثير من جهات العالم الاسلامى ، وعلى رأسها مصر ، ويكفى فى هذا المجال أن نشير الى ما يذكره القلقشندى من أن أهل أوفات وأعمالها « معاملتهم بدنانير مصر ودراهمها الواصلة اليها صحبة

---

(١) عجائب الاثار (ط . بيروت) جـ ١ ص ٤٤١ .
(٢) حمدى السيد : الصومال قديما وحديثا جـ ١ ص ٣٠٢ .

التجار »(١) .

ولكن علاقة مسلمى بلاد الزيلع بمصر فى العصور الوسطى لم تقتصر على العلاقات التجارية ، ولكنها امتدت الى النواحى السياسية والدينية والثقافية فقد واكب قيام الامارات الاسلامية فى زيلع قيام دولة المماليك فى مصر ، وما صاحب قيام هذه الدولة من ظروف مختلفة جعلت مصر تتبوأ مركز الزعامة فى العالم الاسلامى .

فقد انتصر المماليك على المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وحموا بذلك الحضارة الاسلامية ، وأثبتت موقعة عين جالوت أن مصر بثقلها البشرى والحضارى وموقعها الجغرافى الاستراتيجى هى الوطن الام التى تزود عن الاسلام والمسلمين حينما يعجز الجميع(٢) .

كما حرص سلاطين المماليك على احياء الخلافة العباسية ببغداد بعد أن قضى عليها المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، ولكن محاولات احياء الخلافة فى بغداد باءت بالفشل ، فاستقر الرأى على احياء الخلافة العباسية بالقاهرة، وتم ذلك على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م(٣) الاسلامى ، وتحرص كافة الدول الاسلامية على أن ترتبط به بعلاقـات الصداقة والود(٤) .

وزاد من مكانة القاهرة فى نظر العالم الاسلامى نجاح المماليك فى طرد بقايا الصليبيين من الشام بعد أن تمكن السلطان الاشرف خليل من استرداد عكا آخر المعاقل الصليبية بالشام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م(٥) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١ ، د . سعيد عاشور ، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى — المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٤ سنة ١٩٦٨ ص ٦ .
(٢) جمال حمدان : شخصية مصر — دراسة فى عبقرية المكـان ص ١٧٤ — ١٧٥ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٩ — ١١٣ .
(٤) ابن تغرى بردى : مصدر سابق ج ٧ ص ١٣٩ .
(٥) ابن حبيب : تذكرة النبيه ج ١ ص ١٣٧ وما بعدها .

وهكذا أصبحت سلطنة المماليك فى مصر فى نظر المعاصرين حامية الاسلام والمسلمين ، فتوافدت على القاهرة وفود الدول الاسلامية لطلب المعونة أو المساعدة .

ولما كانت امارة « ايفات » مركزا من مراكز الدعوة الاسلامية فى بلاد الزيلع ، فقد تزعمت الحركة الاسلامية فى هذه المنطقة ، وبخاصة فى مواجهة مسيحى الحبشة ، فعملت على توحيد المسلمين فى جبهة وقفت طويلا أمام أطماع الحبشة المسيحة ، وخلت معها فى حروب طويلة اتخذت سمة الجهاد الدينى الاسلامى[1] .

وفى ظل هذه الظروف التى أصبحت فيها مصر زعيمة للعالم الاسلامى من ناحية ، كما أصبحت ايفات زعيمة الحركة الاسلامية فى بلاد الزيلع من ناحية أخرى ، أرسل أهل ايفات وفدا الى سلطان المماليك بمصر الملك الناصر محمد ليجعل بطريرك مصر يتوسط لهم لدى النجاشى الحبشة ليكف اذاهم ، وكان هذا الوفد برئاسة فقيه يدعى عبد الله الزيلعى الذى زار مصر فى الفترة من ٧٣٣ — ٧٣٩هـ / ١٣٣٢ — ١٣٣٨م ، واتصل هذا الفقيه بأبن فضل الله العمرى صاحب ديون الانشاء فى مصر ، وأخذ ابن فضل الله العمرى عن الفقيه عبد الله الزيلعى معلوماته التى دونها فى كتابه مسالك الابصار عن امارات الزيلع[2] .

ومنذ ذلك الوقت واعداد الوافدين على مصر من بلاد الزيلع فى تزايد مستمر ، فتوافد على مصر اساتذة العلم وطلابه من مسلمى بلاد الزيلع لتلقى دروس العلم بالجامع الازهر — الذى بلغت فيه الحركة العلمية أوج ازدهارها فى عصر المماليك — وبلغ من كثرة عددهم أن خصص لهم رواق مستقل عرف برواق الجبرتية[3] ، وكانت مشيخة هذا الرواق لاحد

---

(١) للدراسة التفصيلية عن هذه الحروب أنظر : ابراهيم على طرخان الاسلام العدد الثامن ١٩٥٩ م ص ٤٩ وما بعدها ، حمدى السيد : مرجع سابق ص ٣٦ وما بعدها ، المقريزى : الالمام ص ١١ وما بعدها .

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار (مخطوط) جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧ القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .

(٣) الجبرتى : مصدر سابق جـ ١ (ط . بيروت) ص ٤٤٥ .

كبار مشايخ بلاد الزيلع واشهر المعروفين لنا من هؤلاء المشايخ أجداد الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، فهو يحدثنا فى كتابه عجائب الاثار فى التراجم والاخبار عن جده السابق الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى رتحل من بلاده لى جدة ، وانتقل الى مكة فجاور بها ، وحج مرارا، وذهب الى المدينة المنورة فجاور بها سنين ، ثم رجع الى جدة ، وحضر الى مصر فدخل الى الجامع الازهر فى أوائل القرن العاشر الهجرى / علا اسمه فاختير شيخا للرواق ، فلما مات خلفه فى مشيخة الرواق ابنه شمس الدين محمد ، وظل أحفاد الجبرتى الكبير يتوارثون مشيخة الرواق حتى الجبرتى المؤرخ ، الذى كان آخر من تولى هذه المشيخة ، وذلك فى النصف الاول من القرن ١٣هـ /١٩م ، وبذلك تكون مشيخة رواق الزيلع انحصرت فى أسرة الجبرتى زهاء ثلاثة قرون(١) .

ولم يقتصر دور علماء بلاد الزيلع على تلقى العلم ، بل تعدوا هذه المرحلة الى القاء الدروس ، بالجامع الازهر وغيره من المدارس ، والفتيا والتأليف ، فساهموا بنصيب وافر فى الحياة الثقافية فى مصر فى العصور الوسطى ، وتحوى كتب التراجم الخاصة بالقرنين ٨ ، ٩هـ / ١٤ ، ١٥م(٢) العديد من تراجم علماء بلاد الزيلع الذين اسهموا فى الثقافة الاسلامية بسهم وافر ، وسوف نعرض فيما يلى لبعض هذه الشخصيات .

فمن أبرز علماء بلاد الزيلع الذين وفدوا الى مصر فى القرن الثامن يحيى بن يونس ، الزيلعى ، الحنفى ، الذى قدم الى القاهرة سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م كما توفى بها سنة ٧٤٣هـ: ١٣٤٢م، ويقول عنه ابن حجر أنه كان فاضلا فى مذهبه، شغل الناس فيه مدة، وولى مشيخة الخانقاه الطقزدمرية بالقرافة ودرس وأفتى ، وكان خيرا صالحا(٣) .

---

(١) عجائب الآثار جـ ١ ص ٤٤ .

(٢) مثال ذلك : ابن حجر : الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ٥ اجزاء السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ١٢ جـزء ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (مخطوط) ٦ مجلدات .. الخ .

(٣) ابن حجر : الدور الكامنة جـ ص ٦١ ترجمة رقم ٢٥٩٦ .

وشارك الامام فخر الدين الزيلعى بنصيب وافر فى تأليف المصنفات الاسلامية والفقه الحنفى ، والتى كان على رأسها كتاب « تبيين الحقائق فى شرح كنز الدقائق » ، وكتاب بركة الكلام على أحاديث الاحكام الواقعة فى الهداية ، وسائر الكتب الحنفية ، وشرح الجامع الكبير للشيبانى فى الفروع ، وشرح المختار للموصلى فى الفروع أيضا[1] ، وتلغ من شهرة كتابه تبيين الحقائق فى شرح كنز الدقائق أن صار الامام فخر الدين الزيلعى يعرف بشارح الكنز[2] .

ومن علماء بلاد الزيلع عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعى ، جمال الدين الحنفى ، الذى قدم الى القاهرة ، واهتم بدراسة الحديث ، وسمع من أصحاب النجيب ، وأخذ عن الفخر الزيلعى شارح الكنز . ومن مؤلفاته : نصب الراية فى تخريج احاديث الهداية ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م[3] .

ومن علماء الزيلع الذين استقروا بالقاهرة ، وأجازوا للعديد من طلبة العلم بها ، أحمد بن أويس بن عبد الله الجبرتى الشافعى المتوفى سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م[4] ، وأحمد بن أبى بكر أبو العباس الزيلعى ، الذى برع فى الفرائض والحساب ، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٣٧هـ : ١٤٣٣[5] ، واسماعيل بن محمد بن أحمد الهاشمى العقيلى الشافعى ، المتوفى بالقاهرة سنة ٨٣٣هـ : ١٤٢٩م[6] ، وأيوب بن ابراهيم الجبرتى الذى تردد على القاهرة مرارا ، وسمع من ابن حجر[7] .

ومن علماء بلاد الزيلع الذين لعبوا دورا هاما فى الحياة الثقافية

---

(١) ابن حجر : الدور الكامنة جـ ٣ ص ٦١

(١) ابن حجر : الدور جـ ٣ ص ٤١٧ ترجمة رقم ٢٢٥٠ .

(٢) السخاوى :الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٤٥ ، ابن حجر : ابناء الغمر جـ ٢ ص ١١٣ رقم ٨ .

(٣) السخاوى : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٤) نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٠٦ رقم ٩٤٨ .

(٥) نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٣٠ رقم ١٠٨٨ .

(٦) نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٥٣ رقم ١٤٧ يوسف أحمد : الأسلام فى الحبشه ص ٦٨ .

(٧) الجبرتى : مصدر سابق جـ ١ ص ٤٤١ .

والدينية بمصر الشيخ على بن يوسف بن صبر الدين بن موسى الجبرتى، ثم الازهرى، ثم الشافعى، والذى قدم الى القاهرة سنة ٨٥٠هـ : ١٤٤٦م ثم رحل الى دمشق، وبغداد، ثم حلب، ثم عاد الى القاهرة فظل بهـا من سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م، وحتى وفاته سنة ٨٩٩هـ : ١٤٩٣م، وجلس فى خلوة بسطح الازهر، وتردد اليه غير واحد، وكان يعتقد فيه السلطان قايتباى، وأخذ عنه بعض الطلبة القراءات(١) .

ولم يكتف الشيخ على الجبراتى بالتدريس بالازهر بل ارتحل الى بحيرة ادكو، وبنى هناك مسجدا عظيما ووقف عليه عدة أماكن، وقوعات، وأنوال حياكة، وبساتين نخل، كما بنى أيضا مسجدا آخر شرقى عمارة السلطان قايتباى بالصحراء، ودفن به، وقبره ظاهر مكشوف يـزار فللناس فيه اعتقاد كبير .

ولم يقتصر الامر على علماء بلاد الزيلع من الرجال، فيذكر لنـا السخاوى طرفا من ترجمة خديخة ابنة فرج الزيلعية الاصل، ويقول سمعت من الجمال الحنبلى، وأجاز لها آخرون، ثم يقول السخاوى « وأجازت لنا، وكانت صالحة »(٢) .

ولم يقتصر ميدان التبادل الثقافى بين علماء بلاد الزيلع وعلماء مصر على أورقة الجامع الازهر، أو مدارس القاهرة، بل تعددت ميادين اللقاء تينهما فى خارج مصر أيضا(٣) .

ففى مكة سمع العديد من علماء بلاد الزيلع على السخاوى، وأخذوا عنه . ومن هؤلاء : آدم بن سعيد بن أبى بكر الجبرتى، المتوفى سـنة

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٣، رقم ١٤٧ يوسف احمد : الاسلامى فى الحبشة ص ٦٨ .
(٢) الجبرتى : مصدر سابق ج ١ ص ٤٤١ .
(٣) الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٠ رقم ١٦٩ . وعن والدها انظر نفس المصدر ج ٦، ص ١٧٠ رقم ٥٧٥ .

٨٨٧هـ : ١٤٨٢م[١] ، وربحان الحبشى[٢] ، ومفلح الحبشى[٣] ، ومفلح الحبشى[٤] الكمالى[٥] ومفلح فتى محمد[٦] : ..... الخ .

وفى المدينة المنورة سمع من علماء بلاد الزيلع على السخاوى حامد ابن أبى بكر على الجبرتى[٧] ، وعلى بن سليمان بن عثمان الجبرتى[٨] ، وأبو بكر بن أحمد بن عثمان الجبرتى[٩] .... الخ .

كما راسل السخاوى وهو بمكة يطلب منه الاجازة أحمد بن عبد الله ابن أحمد العقيلى الزيلعى اليمانى ، فكتب له بها [١٠] .

كما أخذ عن ابن حجر بمكة ابراهيم بن أحمد الجبرتى [١١] ، وابنه عبد الكريم الجبرتى [١٢] .

وفى زبيد أخذ عن ابن حجر اسماعيل بن ابراهيم بن عبد الصمد الهاشمى الجبرتى ، والذى قال ابن حجر عنه : « شيخ الاسلام هادى الانام » وأطنب من الثناء عليه .

وهكذا أثمرت العلاقات الثقافية المصرية الصومالية ، فى العصور الوسطى ، فى رحاب الأزهر ، العديد من مؤلفات علماء الصومال ، وبخاصة مطقة زيلع ، والتى احتلت مكانها بين التراث ، وساهمت بنصيب وافر فى النهضة الحضارية التى شهدها العالم الاسلامى فى أواخر العصور الوسطى .

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٧ .
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٣١ رقم ٨٧٦ .
(٣) نفس المصدر ج ١٠ ص ١٦٧ رقم ٦٨٩ .
(٤) نفس المصدر .
(٥) نفس المصدر .
(٦) نفس المصدر ج ١١ ص ٢٠ رقم ٥٣ .
(٧) نفس المصدر ج ١ ص ٠ .
(٨) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠ .
(٩) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٠٦ رقم ٨٢٤ .
(١٠) السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٨٤ رقم ٨٩٣ .
(١١) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠ .
(١٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٠٦ رقم ٨٢٤

المصادر والمراجع

١ ــ ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى مجلة الجمعية المصرية ــ للدراسات التاريخية ــ العدد الثامن ١٩٥٩ م .

٢ ــ ابن تغرى بردى : (جمال الدين ابو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م)

ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزء ، القاهرة .

٣ ــ ابن حبيب : (الحسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ : ١٣٧٧ م) :

ــ تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ــ جزءان ــ تحقيق د . محمد محمد أمين ــ القاهرة ١٩٧٦ ــ ١٩٨٢ م .

٤ ــ ابن حجر : (أحمد بن على ت ٨٥٢ هـ ١٤٤٨ م) :

ــ الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة ــ ٥ اجزا القاهرة ١٩٦٦ م.

٥ ــ جامع عمر عيسى الصومالى : تاريخ الصومال فى العصور الوسطى والحديثة ــ القاهرة ١٩٦٥ م .

٦ ــ جمال حمدان : شخصية مصر ــ دراسة فى عبقرية المكان ــ القاهرة ١٩٧٠ م .

٧ ــ جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية ــ ترجمة يوسف كمال ــ القاهرة ١٩٢٧ م .

٨ ــ حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا .
جزءان ــ مقدشوه ١٩٦٥ م .

٩ ــ السخاوى : (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ : ١٤٩٧ م) :

ــ الضوء اللامع فى اعيان القرن التاسع ــ ١٢ جزء ــ القاهرة ١٣٥٢.

١٠ ــ سعيد عبد الفتاح عاشور : بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ــ المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٤ ــ سنة ١٩٦٨ م .

١١ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الاثار فى التراجم والاخبار ـ ٣ اجزاء ـ بيروت .

١٢ ـ عبد الغفار محمد حسين : الامارات الاسلامية العربية فى الحبشة فى القرنين ١ ، ١٤ م ـ القاهرة ١٩٧٧ .

١٣ ـ العمرى (احمد بن يحيى ت ٧٤٩ هـ : ١٣٤٨ م) :

ـ مسالك الابصار فى ممالك الامصار . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة .

١٤ ـ القلقشندى (احمد بن على ت ٨٢١ هـ : ١٤١٨ م) :

ـ صبح الاعشى فى صناعة الانشا ـ ١٤ جزء ـ القاهرة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ .

١ ـ محمد محمود الصياد : جبرة وجبرت .

مقال فى : عبد الرحمن الجبرتى ـ دراسات وبحوث ـ القاهرة ١٩٧٦ م .

١٦ ـ المقريزى (احمد بن على ت ٨٤٥ هـ : ١٤٤٢ م) :

ـ الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ـ القاهرة ١٨٩٥ م .

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ٤ اجزاء (١٢ قسم) القاهرة ٤ ١٩ ـ ١٩٧٢ م .

١٧ ـ ياقوت (بن عبد الله الحموى الرومى) .
معجم البلدان ـ ٥ مجلدات ـ بيروت .

التنـــافس الدولى فى منطقة القرن الافريقى حتى ظهور الاسلام

دكتور / محمد بركات البيلى
كلية الأداب ــ جامعة القاهرة

تتحكم منطقة القرن الافريقى ــ بحكم موقعها ــ فى طـريق الملاحة عبر المحيط الهندى ــ البحر الأحمر الذى كان ــ ولا يزال ــ حيوى للتجارة العالمية كما أنها لا يفصلها عن الجنوب الغربى لشـــبه الجزيرة العربية الا مضيق باب المندب الذى يضيق فى بعض المواضع الى حوالى ثلاثة ميلا (١) كانت تقطع فى العصر الاسلامى فى ثلاثة أيـــام على حد تقدير المسعودى (٢) .

ونظرا للأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لمنطقة القرن الافريقى ، فقد كانت دوما محط اهتمام القوى العالمية بغية السيطرة عليها واستغلال امكانياتها باعتبارها مستودعا لعديد من البضائع التى كانت عصب تجارة العالم القديم كالبخور والتوابل واللبان والمر والعاج والذهب وغير ذلك . وجدير بالذكر أن طريق المحيط الهندى البحر الأحمر هو الذى حمل أول مبادىء الاتصال العالمى التجارى والثقافى فى العالم القديم (٣) وتزايدت أهميته فى العصور اللاحقة وصولا الى العصر الاسلامى حتى أن ابن ماجد كتب عن بحر القلزم ــ وهو جزء من هذا الطريق ــ أن الناس سلكوه أكثر من بحور جميع الدنيا (٤) .

---

(١) اجيه يونان : البحر الأحمر ومضايقه ، ص ١٧ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ .
(٣) احمد فخرى : اليمن ،ماضيها وحاضرها ، ص ٦٠ .
(٤) ابن ماجد : كتاب الفوايد فى اصول البحر والقواعد ، ص ٨٦ .

كان العرب — فيما يبدو — أول من تعرف على منطقة القــرن الافريقى ، فقد كان من اليسير عليهم بحكم موقعهم ومعرفتهم بالملاحة أن يعبروا الى شرق افريقيا ، تعينهم على ذلك الرياح الموسمية التى ملكوا أسرارها (١) ولعلهم سبقوا الفراعنه فى تعريفهم على المنطقة ، اذ كانت الملاحة فى البحر الأحمر شاقة وعسيرة بسبب ارتفاع حرارته شهور طويلة (٢) كما تهب عليه رياح عاصفة تعوق السير الى الشمال ، فضلا عن كثرة الشطوط المرجانية (٣) ، مما يجعل من العسير على الســفن أن تقطعه كله (٤) وقد ظل الوضع قائما عصورا طويلة حتى أن السفن القادمة من الجنوب كان يصعب عليها حتى العصر الاسلامى أن تتجاوز جدة شمالا ، اذ يذكر أبو زيد حسن فى الذيل الذى كتبه لرحلة سليمان السيرافى أن السفن القادمة من سيراف متجهة الى البحــر الأحمــر كانت اذا وصلت جدة أقامت بها ونقل مافيها من السلع الى مــراكب خاصة تحمله الى مصر تسمى مراكب القلزم لأن المراكب الجنوبية كانت لا تستطيع الملاحة شمالا (٥) . ويبدو أن قدامى المصريين تعلمــوا كيفية الابحار جنوبا على أيدى ملاحين وفدوا من الجنوب حوالى الألف الرابع قبل الميلاد قبل عصر الاسرات المصرية (٦) ثم كانت الرحــلات التى وصل الينا عنها أقدم نص عن اتصال المصريين ببلاد بونت فى عصر

---

(١) حورانى : العرب والمــلاحة فى المحيط الهنــدى ، ص ٣٣ — ٣٤

(٢) يعتبر البحر الأحمر اعلى بحار العالم فى درجات الحرارة .

(اجيه يونان : المرجع السابق ، ص ١٩) .

(٣) تمتد هذه الشطوط المرجانية احيانا الى نحو ١٠ كم فى داخل البحــر .

(اجيه يونان : المرجع السابق ، ص ١٢) .

(٤) ابراهيم نصحى : دراسات فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ص ٢٥ .

(٥) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصــور الوسطى ، ص ٢٥ .

(٦) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٦٠ .

ساحورع ثانى فراعنة الأسرة الخامسة (١) يبدو أن رحلات المصريين الى بلاد بونت لم تكن للحصول على منتجاتها لتصريفها فى مصر ، بل كانت هذه الرحلات جزءا من دور الوساطة التجارية الذى أخذت مصر تقوم به بين الجنوب والشمال فقد كان لمصر فى الوقت علاقات تجارية مع فينيقيا ، وكان الملاحون الذى يبحرون الى بلاد بونت هم أنفسهم الذين يبحرون الى فينيقيا ، اذ سجل ملاح مصرى يدعى خنوم حويتب من عهد الأسرة السادسة أنه تردد بمركبه مع رئيسه نثى على ميناء جبيل من ناحية ومع رئيسه خوى على سواحل بونت من ناحية أخرى احدى عشر مرة واستمتع بما شاهده هنا وهناك (٢) .

ويبدو أن المصريين اتخذوا لأنفسهم محطات تجارية عند مدخل البحر الأحمر جنوبا ، فهذا ابن المجاور يتحدث عن وجود للفراعنة فى الموضع الذى نشأ فيه ميناء عدن وأنه لما انقطعت دولة الفراعنة خرب المكان بزوال دولتهم وسكن المكان قوم صايدون (٣) لكننا نشك فى أن المصريين تجاوزا باب المندب كثيرا الا بمعونة العرب اذ كانت تنقصهم معرفة طرق الافادة من الرياح الموسمية التى ظلت حكرا على الملاحين العرب حتى أواخر العصر البطلمى وكان بوغاز باب المندب تحت السيطرة التامة للعرب فلا يسمحون لسفينة أجنبية باجتيازه الا تحت سيطرتهم (٤) ويصور ابن المجاور هذا — على حد فهمه — بأن بعض العرب بنى حصنا على جبل المندب ومد سلسلة من بر العرب الى بر الحبشة فكل مركب وصل يمر تحت السلسلة (٥) .

واذا كان وصول الفراعنة الى بلاد بونت يعد أول تدخل للقوى

---

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ، جـ ١ ، ص ١٢٨ احمد فخرى : مصر الفرعونية ، ص ١٣٣ .

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق جـ ١ ص ١٤ .

(٣) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص ١١٦ .

(٤) ابراهيم نصحى : المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

العالمية فى منطقة القرن الافريقى ، فان انشغـال المصريين بالأخطـار التى أحدقت بهم من الشرق ، على النحو الذى جعـلهم يصبون جـل اهتمامهم على سوريا فى عصر الدولة الحديثة ، أدى الى انفراد العرب بدور الوسيط التجارى بين الجنوب والشمال وأدى هذا بدوره الى تبلور الكيانات السياسية للعرب الجنوبيين ، فلم تلبث الدولة المعينية أن ظهرت قبل الميلاد بنحو ثلاثة عشر قرنا ، وكان النشاط التجارى عصـب حياتها ، فاتخذت لنفسها مراكز تجارية فى الحجاز وجنوب الشام فى العلا ومعان وغيرها لتوفير الراحة والأمن للقوافل(١) وكان لمعين علاقات تجارية مع أشور وفينيقية ومصر ، بل وتدل الكتابات المعينية التى عثر على بعض منها فى جزيرة ديلوس على وجود صـلات للمعينيين ببلاد اليونان .
وخلفت سبأ معين فى أملاكها فى اليمن وهيمنتها على طريق التجارة وعلى المحطات التجارية التى كانت لها وكانت تقوم عند نهاية الطريق البرى جماعات تفيد منه وتتنافس عليه ، فقد قامت مملكة أدوم فى المنطقـة الواقعة جنوب البحر الميت الى خليج العقبة قبل مملكة اسرائيل بزمن طويل (٢) ولكن داود ملك اسرائيل تمكن من هزيمة ادوم وتخريبها فى مطلع الألف الأول ق . م ثم أكمل ابنه سليمان السيطرة عليها واتجـه للتحالف مع فينيقى صور للسيطرة على تجارة البحر الأحمر ، ويستقى من التوراة فى سفر الملوك أنه أنشأ اسطولا بالتعاون مع حيرام ملك صور (٣) وأنه أتى بالذهب من أوفير التى يعتقد جيان أنها زفر من موزمبيق الحالية (٤) ومع أننا نشك فى امكانية تحقيق ذلك ، الا أنه ليس من المستبعد أن تكون لملكة سليمان صلات مع مملكة سبأ ، فقد تحدثت الكتب السماوية عن زيارة ملكة سبأ لسليمان مما جعل حدوثها

---

(١) نلسـن : التاريخ العربى القديم .
الفصل الأول ، ص ٤٢ .
(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام : جـ ٢ ص ٣٥٧ .
(٣) حورانى : المرجع السابق . ص ٣٣ — ٣٤ .
(٤) جيـان : وثائق تاريخية وجغرافية عن افريقية الشرقية ص ١٣ .

حقيقة مؤكدة ، لكن خلافا لا يزال قائما فى أمر هذه الزيارة ، من هى الملكة التى قامت بها والى أى الجهـات تنتمى ، وكيف تمت هـذه الزيارة ؟ •

فعلى الرغم من أن الكتب السماوية لم تسم الملكة الزائرة فان الاخباريين العرب يسمونها بلقيس ويجعلونها ملكة على اليمن (1) بينما الأحباش ينسبون هذه الملكة الى بلادهم وينسجون حولها الأساطير ، ويسمونها حينا ماكيدا كما جاء فى كتابهم سير الملوك المعروف بكبرا نجست وحينا تسميها الأساطير الشعبية أتيجى أزب بمعنى ملكة الجنوب (2) ويبدو أن الرواية العربية هى الأرجح ، فقد اتفق ما جاء فى القرآن (3) مع ما ذكرته التوراه (4) على أن الملكة الزائرة لسليمان ملكة سبأ ، بينما ذكرها العهد الجديد مرة باسم ملكة الجنوب (5) ومرة أخرى باسم ملكة التيمن وأنها جاءت من أقاصى الأرض (6) ويستقى من هذا كله أنها ملكة سبأ من بلاد اليمن وليست ملكة لاحدى المستوطنات السبأية الشمالية كما تخيل البعض ، وفضلا عن هذا ، فالقراءة المتأنية للرواية الحبشية الرسمية توحى بأن الملكة ماكيدا يمنية أكثر منها حبشية ، فرحلتها البرية والتاجر تمر الدين الذى أوكلت اليه أمر اعداد الرحلة تجعل المرء يستشعر ذلك ، ويبدو أن الرواية الحبشية قد فطنت لهذا فجعلت ماكيدا تحكم الحبشة واليمن معا على الرغم من أن الأحباش لم يحكموا اليمن فى هذا الزمن المبكر ، بل الثابت تاريخيا هو العكس تماما وأن الهجرات العربية كانت تعبر الى الساحل الافريقى لتستوطنه وتتخذ عليه مراكزا للتجارة •

---

(1) وهب بن منبه : التيمان ص 161 ، وعبيد بن شرية : أخباره ص 411 .

(2) زاهر رياض : قصة ملكة سبأ . ص 6 — 34 .
والأصمعى : تاريخ ملوك العرب الأولين ص 8 .

(3) سورة النمل : آيات 20 — 42 .

(4) سفر الملوك : الاصحاح العاشر .

(5) انجيل متى : الاصحاح الثانى عشر آية 42 .

(6) انجيل لوقا : الاصحاح الحادى عشر ، آية 31 .

وجدير بالاشارة أننا نلاحظ تشابها بين الأساطير العربية والأساطير الحبشية بين رجل بلقيس ورجل أتيجى أزب ورغم اختلاف الرواتيين فى فى تعليل حدوث ذلك ، فمن الممكن القول بأن الاسطورة انتقلت مع الهجرات العربية الى الساحل الافريقى .

فقد اتفق أغلب العلماء على أن الهجرات البشرية المبكرة فى هذه المنطقة كانت فى اتجاه واحد من جنوب غرب الجزيرة العربية الى شرق افريقيا (١) وكانت هذه الهجرات تشمل أحيانا قبائل عربية بأكملها كانت تقطن قبل هجرتها على الساحل اليمنى أو قريبا منه . مثل قبيلة سهرت وقبيلة حبشت التى سميت الحبشة باسمها وقبيلة الجعز التى قيل أنها أول القبائل المهاجرة واليها تنسب اللغة الجعزية أقدم اللغات الأثيوبية (٢) .

ومنذ تلك العهود السحيقة وهذه القبائل المهاجرة تسيطر على النشاط التجارى ، وتزايد النفوذ العربى فى الوقت الذى تضاءل فيه النفوذ الفرعونى ، واختلط العرب المهاجرون بأهالى البلاد الاصليين ونقلوا اليهم أنظمتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية(٣) ولعل النقوش العربية التى وجدت فى منطقة أكسوم والى الشرق منها خير دليل على سعة انتشار النفوذ العربى فى أثيوبيا قبل القرن السادس قبل الميلاد(٤) ويبدو أن السبئيين قد سيطروا تماما على طريق التجارة عبر المحيط الهندى والبحر الاحمر خصوصا بعد انقسام مملكة سليمان عقب وفاته وتعرضها للغزو من جانب المصريين(٥)وقد أدى ضعف مملكة اسرائيل الى تمكن

---

(١) نلسن : المرجع السابق ص ٣١ ، وفوزى مكاوى : مملكة اكسوم ص ٩ .
وزاهر رياض : الاسـلام فى اثيوبيا ص ٢٦ .
(٢) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٢ — ١٣ .
(٣) فتحى غيث : الاسلام والحبشة ص ٣٠ .
(٤) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ٢١٣ .
(٥) احمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٣٩٨ ، وعبد العزيز صالح : المرجع السابق جـ ١ . ص ٢٦٤ .

العرب الجنوبيين ــ أو العرب الذين بجانب الكوشيين كما تسميهم التوراة ــ الى مهاجمة مملكة يهوذا بمساعدة الأدميين واحياء المملكة الادومية ليقطعوا على يهوذا الاتصال بالبحر وابعادهم عن تجارة الجنوب(١) التى أصبحت حكرا للسبئيين وكسبوا منها أموالا طائلة وغنى فاحش(٢) .

الا أن المسرح الدولى أخذ يشهد تغييرات خطيرة كان لها صدى عميق فى منطقة القرن الافريقى ، فقد هيمن البطالمة على مصر بعد وفاة الاسكندر ، وأرادوا احياء مجد الفراعنة فى البحر الاحمر والانفراد بتجارة الجنوب خصوصا بعد فشل جهودهم فى الهيمنة على العالم الهلينى وفقدانهم لمنافذهم التجارية فى آسيا الصغرى وسوريا(٣) . وتحرش البطالمة بالانباط الذين كانوا قد ورثوا النشاط التجارى للادوميين وكانت لعاصمتهم بطرا شأن كبير لتحكمها فى مصبات الطرق التجارية عبر الجزيرة العربية(٤) . ويبدو أن البطالمة قد حققوا بعض النجاح ، ساعدهم على ذلك عدة عوامل منها : ــ

أولا : تكريس البطالمة جهودهم للسيطرة على تجارة البحر الاحمر حتى أنهم أنشأوا ادارة خاصة مسئولة عن البحر الأحمر والمحيط الهندى(٥) .

ثانيا : تعرف هيبالوس السكندرى على كيفية الافادة من الرياح الموسمية فى نهاية القرن الثانى ق.م فكسر احتكار العرب لاسرار هذه الرياح وفتح الطريق لمنافستهم فى جنوب البحر الاحمر والمحيط الهندى .

ثالثا : انهيار مملكة سبأ فى عام ١١٥ ق.م نتيجة للازمات الاقتصادية والصراع السياسى بينها وبين جيرانها من الهمدانيين والريدانيين

(١) جواد على : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٢) حورانى : المرجع السابق ص ٥٩ .
(٣) ابراهيم نحصى : المرجة السابق ص ١٢٠ .
(٤) جواد على : المرجع السابق ص ٦٥ .
(٥) حورانى : المرجع السابق ص ٦٥ .

والحميريين ، هذا الصراع الذى وان كان قد انتهى بتغلب الحميريين واقامتهم لدولة فتية تمكنت من توحيد اليمن كله لاول مرة فى تاريخه، الا أنه يعد مسئولا بالدرجة الاولى عن تغلغل البطالمة الى الجنوب منتهزين فرصة انشغال العرب الجنوبيين بصراعاتهم المحلية ، ولم يحد من هذا التغلغل الا قيام مملكة حمير من جهة ووجود مملكة النبط من جهة أخرى ، ثم انشغال البطالمة أنفسهم بالخطر الرومانى ، فتأخرت الافادة من اكتشاف هيبالوس لاسرار الرياح الموسمية ، وظل الحال على ذلك حتى قضى الرومان على البطالمة وخلفوهم على مصر ومن ثم ورثوا عنهم الاهتمام بتجارة الجنوب التى كان العرب قد أعادوا سيطرتهم عليها وزادوا مكاسبهم منها حتى جأر المواطنون الرومان بالشكوى من غلو الاسعار ، يقول بلينوس أن بلاد العرب وصفت بالسعيدة لكن بحر العرب أحرى بهذه الكنية ، فهو مصدر اللؤلؤ ، وتبتز الهند وقبائل سارا وعرب الجزيرة من أموال الامبراطورية الرومانية مبلغ مائة مليون سترستا كل عام على أقل حساب[1] • ويبدو أن هذه المكاسب الطائلة من التجارة الشرقية دفعت الرومان الى السير على نهج البطالمة فى العمل على السيطرة على تجارة الجنوب ، فلم يلبث أغسطس أو وجده الى بلاد العرب الجنوبية حملة بقيادة ايليوس جالوس للاستحواذ على بعض الهامة هناك[2] ومع أن الحملة أصابت فشلا ذريعا الا أنها لم تمر بلا أثر ، اذ فتحت عيون العرب الجنوبيين على قوة روما وأطماعها ومن ثم سعوا الى مصادقتها اتقاء شرها[3] ، لكن الرومان لم يتخلوا عن أطماعهم فى السيطرة على تجارة الجنوب خصوصا بعد أن أصبح الطريق القديم الممتد بين الخليج العربى وتدمر (بلميرا) غير آمن لسوء العلاقات بين روما وبارثيا[4] • واتخذ الرومان من بعض الموانى التى استولوا عليها

(١) حتى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .
(٢) روستفتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية ، ص ١٠٧ .
حورانى : المرجع السابق ص ٧٧ .
(٣) كاناكيس : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية ، ص ١١٩ .
(٤) روستفتزف : المرجع السابق ص ١٤٥ .

فى بلاد العرب الجنوبية متطلبات لسفنهم ، مثل عدن التى استولو عليها فى عصر كلاديوس وبحالته مع بعض الامراء المحليين كأمه ظفــار(١) ،

الروماني من المنافسة النبطية نهائيا فى عهد تراجان الذى اسقط مملكة النبط فى سنة ١٠٦م ، وجعل منها ولاية رومانية(٢) ، وبذلك سيطروا على المنافذ الشمالية للطريق البرى (٣) ، ليتموا سيطرتهم على تجــارة الجنوب • وليس أدل على تلك السيطرة مما كتبه صاحب كتاب الطواف فى البحر الارتيرى الذى يدل وصفه لمنطقة القرن الافريقى على دراية واسعة بالمنطقة من ناحية وعلى توغل الرومان فى تلك النواحى واعتيادهم على ارتيادها من ناحية أخرى • لكن التدخل الرومانى فى الملاحة والتجارة فى الجنوب لم يقض تماما على النشاط العربى هناك اذ يذكر صــاحب كتاب الطواف نفسه أن موزا (مخا الحالية) مزدحمة بأصحاب السفن والملاحين العرب الذين يتجرون مع الساحل البعيد (ارتريا والصومال)، والى الشرق من عدن تقوم كانى ، وهى سوق لكل اللبان الذى يزرع فى البلاد ولها أيضا تجارة مع الساحل البعيد والهند وعمان وفارس المجاورة لها ، وعلى ساحل افريقية الشرقى كان التجار العرب يشاهدون فى كل مكان حتى رهابتا (بالقرب من زنجبار) التى يحكمها أهل موزا باسم أمير معافر ، ويبعثون اليها بسفن يستخدمون فيها ربابنة ووكلاء عرب يألفون أهل البلاد ويتزاوجون معهم ويعرفون الساحت واللغة (٤) •

واستكمالا للسيطرة الرومانية على تجارة الجنوب ، تحالف الرومان مع مملكة أكسوم على الساحل الافريقى •

كانت مملكة أكسوم قد ظهرت ــ فيما يبدو ــ حوالى منتصف القرن الاول الميلادى (٥) على أيدى جماعات من أصول عربية كانت قد هاجرت

---

(١) حورانى : المرجع السابق ص ٧٩ ــ ٨٢ •
(٢) جواد على : المرجع السابق ج ٣ ص ٤٧ •
(٣) كاناكيس : المرجع السابق ص ١٢٠ •
(٤) حورانى : المرجع السابق ص ٨٢ ــ ٨٤ •
(٥) فوزى مكاوى : مملكة اكسوم ، ص ٢٦ •

من زمان سابق من جنوب الجزيرة العربية وكانت هذه الجماعات قد استقلت تدريجيا — فيما يبدو — عن الوطن والام ، اذ عثر على نقش عربى فى اقليم تجرى فيه ذكر مكرب محلى — على الارجح — مما يدل على وجود دولة محلية (١) • وبمرور الوقت زاد تأفرق هذه الجماعات ثم أقامت مملكة اكسوم فى بواية العصر المسيحى • ويبدو أن صداقة مبكرة ربطت أكسوم بروما ، اذ نعت صاحب كتاب الطواف زوسكاليس من ملوك اكسوم الاوائل بلقب ملك دون غيره من حكام المنطقة الذين يصفهم بأنهم طغاة ، ولا ريب أن هذه الصداقة كانت وليدة المصالح المشتركة ، فقد أرادت روما استخدام اكسوم فى قمع البليميين والنوبا الذين يغيرون على حدود مصر الجنوبية (٢) ، فضلاعن سياسة الرومان فى البحر الاحمر كانت تختلف نوعا ما عن سياسة البطالمة ، فقد كان الرومان أكثر اهتماما بتجارة الهند (٣) وأفسحوا المجال أمام اكسوم لتسهم بدورها فى النشاط التجارى ، وشجعت روما اكسوم على التدخل فى بلاد العرب الجنوبية لتخلق منها قوة تستطيع التصدى للاطماع الفارسية فى المنطقة ، بعد أن عنى الساسانيون بالملاحة وعقدوا صلات مع « زند أفريك شاه » أو ملك شعب لزنج فى شرق الصومال (٤) •

وفى وقت غير متفق عليه لكنه لا يتأخر عن القرن الثالث الميلادى ، ظهر التدخل الاكسومى على أشده فى بلاد العرب الجنوبية ، وعلى الرغم من أن اليمنيين قد هيأوا بلادهم بأنفسهم لهذا التدخل نتيجة صراعاتهم المحلية مما جعل بعضهم يتحالف مع الاكسوميين ضد البعض الآخر(٥) الا أنه لايمكن التغاضى عن الدوافع الذاتية للتدخل الاكسومى الذى كان

---

(١) موسكاتى : المرجع السابق ص ٢٠٤ .
(٢) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة ، ص ٣٣ .
(٣) على عبد الله الخاتم : اثيوبيا والاثيوبيين ، ص ١٤٩ .
(٤) حورانى : المرجع السابق ص ٩١ .
(٥) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٤ .
وفوزى مكاوى : المرجع السابق ص ٤٧ — ٤٨ .

يرمى الى السيطرة على تجارة الجنوب (١) • وليس من المستبعد وجود تنسيق بين هذا التدخل الاكسومى فى بلاد العرب الجنوبية واجتياح الرومان لتدمر سنة ٢٧٤م بغية القضاء على التجارة العربية ، لكن اليمنيين مالبثوا أن استردوا استقلالهم فى مستهل القرن الرابع الميلادى تقريبا وحافظوا عليه حوالى قرنين من الزمان عادت فيهما التجارة العربية لتطل على العالم من جديد ولكنها اقتصرت هذه المرة على الطرق البرية ، اذ حملت الملاحة العربية فى هذه الفترة بينما كانت التجارة فى المحيط الهندى فى أيدى الفرس والاكسوميين (٢) ولعل هذا التنافس التجارى بين فارس واكسوم كان وراء موقف الفرس ضد التدخل الاكسومى فى اليمن ، فالملاحظ أن الفرس كان لهم نشاط ملحوظ فى الملاحة خلال القرن السادس الميلادى ووصلت سفنهم الى جنوب الجزيرة العربية والى عدول على الساحل الافريقى (٣) ويبدو أن اهتمامهم بالمنطقة قد تزايد فى عهد بهرام جور (٤) مما يدل على أن اهتمام الفرس بتلك النواحى لم يكن رد فعل للغزو الاكسومى لبلاد العرب الجنوبية — كما قد يتصور البعض — ولكنه يسبقه ، وكان الباعث لهذا الاهتمام هو الاتنافس الاقتصادى والرغبة فى الاستئثار بالتجارة الشرقية ، لكن التنافس العالمى فى المنطقة مالبث أن طرأ عليه تطور خطير ، اذ تدخلت فيه البواعث الدينية مع الدوافع الاقتصادية • فقد وصلت المنطقة بعثات تبشيرية بتوجيه من الروم البيزنطيين تارة وتوجيه من الفرس تارة أخرى لاقامة الكنائس واجتذاب الاهالى لاحد المعسكرين فكان للروم كنائس فى عدن (٥) وكان للفرس كنائس فى سوقطرة (٦) بل ربما يفهم مما كتبه الهمدانى والمسعودى أن

---

(١) كاناكيس : المرجع السابق . ص ١٢٠ •

(٢) حورانى : المرجع السابق ص ٩٦ •

(٣) جيان : المرجع السابق ص ٧٠ •

(٤) الطبرى : تاريخه ج ٢ ص ٨٠ •

(٥) حورانى : المرجع السابق ص ٩٤ •
وحتى : المرجع السابق ص ٨٠ •

(٦) حورانى : المرجع السابق ص ٩٨ •

سوقطرة كانت ساحة لهذا التنافس التبشيرى الذى يصعب تنقيته من البواعث الاقتصادية (١) .

بدأ تسرب المسيحية الى الجنوب منذ القرن الثالث الميلادى ، الا أن الخلاف المذهبى الذى طالما عانت منه الجزيرة وجد طريقة الى المنطقة منذ البداية على ضفتى باب المندب ، فبينما اعتنق الاحباش مذهب أثناسيوس على يد فرومنتيوس الذى نصبه اثناسيوس أسقفا لاكسوم وارتبطت الكنيسة الحبشية بالكنيسة القبطية المصرية برباط التبعية (٢) فان مذهب أريوس المناهض وجد طريقه الى بلاد العرب الجنوبية حينما أرسل الامبراطور البيزنطى قنسطنطينوس بعثة تبشيرية برئاسة ثيوفيلوس اندس الاريوسى حوالى منتصف هذا القرن (٣) وحينما نشب الخلاف حول طبيعة المسيح فى القرن الخامس الميلادى بين أنصار الطبيعة الواحدة (المونوفيزيين) وأنصار الطبيعتين (النسطوريين والملكانين) آخذت الكنيسة الحبشية بالمذهب المونوفيزيين بحكم تعيينها للكنيسة المصرية (٤) بينما اهتم الفرس بالتبشير للمذهب النسطرى المناهض للمونوفيزيتية من جهة والمضطهد من قبل الامبراطورية البيزنطية من جهة أخرى ، ويلقى هذا مزيدا من الضوء على طبيعة التنافس الفارسى البيزنطى فى منطقة القرن الافريقى .

وبينما كان الاحباش قد اجتمعوا على المونوفيزيتية ، كانت اليمن تعانى صراعا دينيا بين الوثنية واليهودية والمسيحية ، فاليهودية ، وان كان من المحتمل أنها عرفت طريقها الى اليمن قبل ذلك ، الا أنها لم تأخذ فى الانتشار الا فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، اذ يجمع الاخباريون العرب

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٥٢ .
والمسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٣٥ .
(٢) القتائى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ٩ .
ومصطفى محمد سعد : المرجع السابق ص ٣٤ .
(٣) حتى : المرجع السابق ص ٨٠ .
وحورانى : المرجع السابق ص ٩٤ .
(٤) القتائى : المرجة السابق ص ١٠ .

على أنها فشت فى اليمن على عهد تبع أبى كــرب أسعد الذى اعتنــق اليهودية (١) وتؤكة ذلك النقوش التى عثر عليها والتى ترجع الى عهده ، فقد اختفى ذكر الالهة الوثنية ويظهر اسم ذو سماوى أو رب السموات(٢) لكن الوثنية لم تستسلم بسهولة اذ يذكر عبيد بن شريه أن حمير قتلت أبا كرب أسعد رفضا منها لتهوده(٣) الا أن اليهودية ظلت فى تزايد حتى بلغت أوجها فى اليمن على عهد يوسف ذى نواس آخر ملوك حمير الذى ظهر اسمه هو الاخر فى نقش يدل على اعتناقه اليهودية (٤) ويرى بعض المؤرخين أن ذا نواس اعتنق اليهودية كسلاح لمقاومة الاكسوميين الذين كانوا يحتلون بعض جهات اليمن (٥) ولعله شك فى اخلاص أهالى نجران الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية فى القرن الخامس الميلادى على المذهب المونوفيزيتى ، نفس مذهب الاكسوميين ، خصوصا بعد نشوب فتنــة طائفية ــ فيما يبدو ــ بين أهلها من المسيحيين وبعض اليهود المقيمين بها فأتى أحد اليهود الى ذى نواس يخبره بأن نصارى نجران قتلوا ابنين له ظلما واستنصره عليهم (٦) فتوجه اليهم ذو نواس وأوقع بهم مذبحــة نجران الشهيرة سنة ٥٢٣ م (٧) .

اختلف المؤرخون حول مذبحة نجران ، أهى مذبحة الاخدود التى ذكرها القرآن الكريم (٨) أم لا ؟ . وواقع الامر أن الاخباريين العرب لم

---

(١) وهب بن منبه : التيجان ، ص ٢٤٦ ــ ٢٩٧ .
والطبرى : تاريخه ، ج ٢ ص ١٠٨ ــ ١٠٩ .
(٢) هومل : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ص ١٠٨ .
(٣) عبيد بن شريه : اخباره ص ٤٥٣ ، وابن خلدون : تاريخه ، ج ٢ ص ١٠٩ .
(٤) هومل : المرجع السابق ، ص ١٠٨ .
(٥) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ، ص ٤٥ .
وفوزى مكاوى : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٦) الطبــرى : تاريخه ، ج ٢ ص ١٢٣ .
وابن خلدون : تاريخه ، ج ٣ ، ص ١١٤ .
(٧) حتى : المرجع السابق ، ص ٨٢ .
(٨) سورة البروج : آيات ٤ ــ ٨ .

يتفقوا فى ذلك ، ويكفى أن نعرض لما أوجزه ابن كثير فى ذلك القول « رغم محمد بن اسحاق انهم — أصحاب الاخدود — كانوا بعد مبعث المسيح وخالفه غيره فزعموا انهم كانوا قبله ، وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر فى العالم فى صور المؤمنين من الجبارين الكافرين (١) .

على أى حال ، استنجد أهل نجران بملك أكسوم (٢) الذى استغل الفرصة للتدخل فى شئون اليمن ، لكنه أدرك خطورة هذا التدخل وأن الفرس لن يسكتوا على عمل يهدد نفوذهم التجارى ، لذلك اتجه ملك أكسوم الى الامبراطورية البيزنطية طالبا عونها فلم تتوان عن اعانته. اذ كان يعتلى عرشها حينذاك امبراطور يعتبر نفسه حامى ذمار النصرانية فى كل بقاع الارض بغض النظر عن الخلافات المذهبية ، هو الامبراطور جستين الاول (٦) الذى أمد ملك أكسوم بعدة سفن كان لها أثر معنوى عظيم ، اذ كانت تعنى تأييد بيزنطة للتدخل الاكسومى فى اليمن .

وحوالى سنة ٥٢٥م ، أرسل الـ أصبحا — أو كالب كما تسميه الرواية الحبشية — حملة كبيرة عبرت باب المندب عند أضيق بقعة فيه ورست على ساحل زبيد (٤) ، ونجحت القوات الاكسومية فى الاجهاز على ذى نواس الذى لم يكن يملك أسطولا بحريا يدفع به العدو فى البحر (٥) ، كما أن الخلافات المحلية قد تفجرت بين اليمنيين فى لحظة حاسمة (٦) كما أن الفرس لم يروا مصلحتهم فى التدخل لصالح اليمنيين حينذاك ، اذ كانوا فى غنى عن طريق البحر الاحمر لسيطرتهم على طريق

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ص ١٢٩ .
(٢) الطبرى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ .
(٣) حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٥٧ .
وحتى : المرجع السابق ، ص ٨٢ .
(٤) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ .
(٥) حورانى : المرجع السابق ، ص ١٠١ .
(٦) الطبرى : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ .
وابن خلدون : تاريخه ، جـ ٣ ، ص ١١٤ .

حلت بها فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلاديين التجارة الاخرى عبر الخليج العربى وآسيا الوسطى ، كما أن بلاد اليمن كانت قد فقدت أهميتها التجارية بسبب كثرة الاضطرابات التى وانتقلت الوساطة التجارية الى مكة حيث تسكن قريش ، أكثر القبائل الحجازية تنظيما منذ عهد زعيمها قصى بن كلاب ، والذى تمكن أحفاده من عقد المعاهدات التجارية مع البلدان المجاورة ، فقد أخذ هاشم بن عبد مناف واخوته عبد شمس ونوفل والمطلب العصم أو العهود مع بلدان الشام والحبشة والعراق وفارس واليمن (١) فسنوا رحلتى الشتا والصيف(٢) الاولى اليمن والحبشة والعراق والاخرى الى الشام (٣) .

وبعد أن أخضع الاحباش اليمن لسلطانهم حاول البيزنطيون النفوذ عن طريقهم الى اليمن ، فجاءت السفارات البيزنطية الى أكسوم للتباحث فى ذلك (٤) الا أن أبرهة الاشرم تمكن من أن يستقل باليمن استقلالاذاتيا فى ظل سيادة اسمية لاكسوم ، ومن ثم توجهت السفارات البيزنطية الى أبرهة الذى أظهر رغبته فى التعاون مع الامبراطور جستنيان لتكوين جبهة مناوئة للفرس فى الجزيرة العربية (٥) التى أعد للسيطرة عليها مشروعا ذا أهداف دينية وسياسية واقتصادية خطيرة ، وكانت نقطة البدء عنده هى الاستيلاء على مكة معقل الوثنية العربية ومركز التجارة القرشية ليتسنى له بعد ذلك جذب العرب الى النصرانية والسيطرة على طريق التجارة البرية عبر الحجاز وتحقيق سلطة سياسية على القبائل العربية، وعلى الرغم من أن حملته على مكة المعروفة بغزوة الفيل فشلت فشلا ذريعا (٦) ، الا أنها وجهت أنظار الفرس الى خطورة الاحتلال الحبشى لليمن

---

(١) الطبرى : تاريخه ، ج ٢ ص ٢٥٤ .
والبلاذرى : أنساب الاشراف ج ١ ص ٥٩ .
(٢) سورة قريش : الآيات : ١ — ٤ .
(٣) البلاذرى : المصدر السابق ج ١ ص ٥٩ .
(٤) نورى مكاوى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .
(٥) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٦٣ .
(٦) سورة الفيل : آيات ١ — ٥ .

وردا على تدخل جستين الثانى فى أمور أرمنية الفارسية سنة ٥٧٠م قام كسرى أنوشروان بتدخل مماثل فى اليمن لاخراج الاحباش منها (١) بعد أن كان كسرى قد أهمل لوقت طويل طلب اليمنيين اليه أن يعينهم على الخلاص من عدوهم (٢) ويبدو أن كسرى كان يهدف الى مناوشة البيزنطيين وشغلهم عن التدخل فى شئون دولته ، لذلك أرسل حملة صغيرة قوامها ثمانمائة من شرار الفرس ، لكن الاثر المعنوى لهذه القوة الفارسية كان أكبر من حجمها بكثير ، اذ تجمعت حولها المقاومة اليمنية وألهبت حماسها ، فتمكنت من قتل مسروق بن أبرهة وهزمت الاحباش شر هزيمة وأوقعت بهم مقتلة عظيمة (٣) ، لكن اليمن لم ينل حريته ، اذ خلف الفرس الاحباش فى حكم اليمن الذى ظل خاضعا لفارس حتى ظهور الاسلام .

بدأت الدعوة الاسلامية فى مستهل العقد الثانى من القرن السابع الميلادى فى مكة معقل الوثنية العربية التى كانت معركة الاسلام الاولى للقضاء عليها ، وتطلع المسلمون الى تكاتف أهل الكتاب مع الاسلام ضد الوثنية ، لذلك أظهروا فى العام الرابع من البعثة النبوية تعاطفا مع الروم ضد الفرس المجوسيين (٤) وفى العام التالى — الخامس من البعثة النبوية — اختار الرسول (ص) بلاد الحبشة لتكون أول مهجر للمسلمين يتقون فيه الايذان القرشى (٥) ويعتقد بعض المؤرخين أن مفاوضات جرت بهذا الشأن بين المسلمين ونجاشى الحبشة وأن الوفد الاول من مهاجرة المسلمين كانت مهمته التفاوض واستطلاع الاحوال ، وقد أرسل النجاشى من جانبه وفد الى الرسول (ص) وهو لا يزال بمكة لاستكمال المفاوضات (٦) . ويبدو أن قريشا خافت من عقد تحالف بين المسلمين وأهل الكتاب من الاحباش ،

---

(١) اسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٩٩ .
(٢) الطبــرى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .
(٣) الطبــرى : تاريخه ، ج ٢ ص ١٤٤ — ١٤٧ .
(٤) سورة الروم : الآيــات ١ — ٨ .
والطبرى : تاريخه ، ج٢ ، ص ١٨٤ .
(٥) محمد البيلى : فى تاريخ الدولة العربية الاسلامية ، ص ١٦ .
(٦) عون الشريف قاسم : شأة الدولة الاسلامية ، ٩١ .

ليس فقط على تجارتها التى كانت لها فى الحبشة ولكن أيضا على الوثنية التى تتزعمها قريش وتفيد منها أجل الفائدة ، فأسرعت بايفاد سفارة الى النجاشى لعرقلة هذا التحالف لكنها فشلت فى ذلك ، اذ أحسن النجاشى استقبال المسلمين وامتهم (١) لكنه لم يستطيع لهم أكثر من ذلك لانه سرعان ما انشغل فى مواجهة بعض المتاعب الداخلية (٢) •

أصبح من المؤكد تاريخيا أن الرسول (ص) كاتب النجاشى بعد صلح الحديبية كغيره من الملوك الذين كتب اليهم فى العام التاسع من الهجرة يدعوهم الى الاسلام ، وبغض النظر عن الخلاف القائم حول شخصية النجاشى ، فانه من المؤكد أن اتصال المسلمين بالحبشة أدخلهم فى سلك المهتمين بمنطقة القرن الافريقى ، خصوصا بعد دخول الاسلام اليمن فى العام العاشر من الهجرة(٣) فلم يعد يفصله عن الساحل الافريقى الا مضيق باب المندب •

ويبدو أن ظهور المسلمين على ساحل باب المندب ، أوجد توترا فى العلاقات بين المسلمين والاحباش خصوصا بعد وفاة النجاشى الذى كاتبه الرسول (ص) فى العام التاسع من الهجرة ، وعلى الرغم من غموض تاريخ أكسم فى هذه الفترة (٤) فاننا نستطيع التقاط بعض الاشارات التى تدل على هذا التوتر ، فقد ذكر الطبرى أنه فى سنة عشرين من الهجرة بعث عمر بن الخطاب علقمة بن مجزز المدلجى الى الحبشة فى البحر ، وذلك لان الحبشة كانت قد تطرفت طرفا من أطراف الاسلام فأصيبوا فجعل عمر نفسه ألا يحمل فى البحر أحد أبدا (٥) • ويبدو من ذلك أن الاحباش تحركوا ضد المسلمين فى الجنوب تضامنا مع الدولة البيزنطية التى كانت تتعرض

---

(١) الجوزى : تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش ، ص ٧٣ •
(٢) نفس المصدر : ص ٨٠ •
وتهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٧٨ •
(٣) الطبرى : تاريخه ، ج ٣ ، ص ١٣١ وما يليها •
(٤) عون الشريف قاسم : المرجع السابق ، ص ٩٢ •
(٥) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ١١٢ •

لهجمات المسلمين ، وكان المسلمون يفطنون لذلك ويحذرونه ، فهذا على ابن أبى طالب يحذر الخليفة عمر من ارسال مقاتلة الشام أو اليمن الى العراق لمحاربة الفرس وترك تلك الجهات بلا حماية فيقول للخليفة « أن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم وان أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم » (1) •

ويرى موسكاتى أن الاسلام بسيطرته على الساحل الغربى للجزيرة العربية وعلى جزر البحر الاحمر سد فى وجه الاحباش الطريق الى الجزيرة العربية ، كما أن فتح المسلمين لمصر وشمال افريقية بعد ذلك أقام حاجزا يفصل بين الحبشة وحلفائها البيزنطيين (2) •

ويبقى أن نشير الى أن المسلمين انشغلوا بحرب الفرس والروم عن تجريد الحملات الى منطقة القرن الافريقى ، لكن ذلك لم يمنع انتشار الاسلام فى تلك المنطقة بالطرق السلمية خصوصا على أيدى التجار المسلمين الذين كانوا يعبرون الى الساحل الافريقى للتجارة والاستيطان ، وأقاموا المدن ، وصبغوا معظم منطقة القرن الافريقى بصيغة اسلامية (3) •

---

(1) الطبرى : المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٢٤ .
(2) موسكاتى : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .
(3) ترمنجهام : الاسلام فى شرق افريقيا ، ص ٣٧ .

المراجـــع

« أ » المصــادر :

١ ـ **الأصمعي** : عبد الملك بن قريب .
تاريخ ملوك العرب الأولين .
تحقيق : الشيخ محمد حسين آل ياسين بغداد / ١٩٥٩

٢ ـ **البــلاذرى** : أحمد بن يحى .
أنساب الأشراف .
جـ ١ : تحقيق محمد حميد الله . . القاهرة / ذخائر العرب / ٢٧

٣ ـ **الجوزى** : جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على .
تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش .
تحقيق عبد الرحمن العبيد الماجد .
رسالة ماجستير ـ آداب القاهرة / ١٩٧٦

٤ ـ **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر بيروت / ١٩٨١

٥ ـ **الطبرى** : أبو جعفر محمد بن جرير .
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم
القاهر / ذخائر العرب / ٣٠

٦ ـ **عبيد بن شريه الجرهمى** :
أخبار عبيد بن شريه فى أخبار اليمن وأشعارها وانسابها .
ملحق بكتاب التيجان حيدر آباد / ١٣٤٧ هـ

٧ ـ **العهد الجديد** :
ـ انجيل لوقـــا .
ـ انجيل متى .

٨ ـ **العهــد القديم** :
ســـفر الملوك .

٩ ـ **القرآن الكريم** :
ـ سورة الروم رقم ٣٠ .
ـ سورة الفيل رقم ١٠٥ .
ـ سورة قريش رقم ١٠٦ .

١٠ ــ **الدنـسائى** : احمد الحفنى الأزهرى .
الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان — بولاق / ١٣٢١ هـ

١١ ــ **ابن كثـير** : الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشى
البداية والنهاية . — القاهرة /١٣٤٨ هـ

١٢ ــ **ابن ماجد** : شهاب الدين احمد بن ماجد السعدى
آداب الفوايد فى أصول البحر والقواعد
نشرة جبريل فران — باريس / ١٩٢١

١٣ ــ **ابن المجـاور** : جمال الدين أبى الفتح يوسف بن يعقوب الشيبانى
الدمشقى تاريخ المستبصر .
صفة بلاد اليمن وبعض الحجاز
تحقيق : اوسكار لوفجرين — ليدن / ١٩٥٤

١٤ ــ **المسعودى** :
مروج الذهب ومعان الجوهر .
ج ١ : محمد محيى الدين عبد الحميد — القاهرة / ١٩٣٨

١٥ ــ **ابن هشـام** :
تهذيب سيرة ابن هشام
لعبد السلام هارون — القاهرة / ١٩٦٤

١٦ ــ **الهمدانى** : ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب
كتاب صفة جزيرة العرب — ليدن /١٩٦٨

١٧ ــ **وهب بن منبـه** :
كتاب التيجان فى ملوك حمير — حيدر آباد الدكن /١٣٤٧ هـ

(ب) المراجـع :

١ ــ **ابراهيم نصحى** :
دراسات فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة — القاهرة / ١٩٥٩

٢ ــ **أجيه يونـان** :
البحر الأحمر ومضايقه — القاهرة / بـدون

٣ ــ **أحمد فخرى** :
ــ مصر الفرعونية
ــ اليمن : ماضيها وحاضرها — القاهرة / ١٩٥٧

٤ ـ **أسد رستم :**
الروم : فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب
بيروت / ١٩٥٦

٥ ـ **ترمنجهام :** سبنسر —
الاسلام فى شرق افريقية
ترجمة محمد عاطف النواوى القاهرة / ١٩٧٣

٦ ـ **جواد اليلى :**
جـ ٢ بغداد / ١٩٥٢
جـ ٤ بغداد / ١٩٥٣

٧ ـ **جيان :** ربان سفينة
وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية
ترجمة : يوسف كمال بتصرف القاهرة / ١٩٢٧

٨ ـ **حتى :** فيليب
تاريخ العرب .
ترجمة : أدورد جرجس وجبرائيل جبدر بيروت / ١٩٤٩

٩ ـ **حسنين ربيع :**
دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية القاهرة / ١٩٨٣

١٠ ـ **حورانى :** جورج فضلو
العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور الالقديمة واوائل العصور الوسطى .
ترجمة : السيد يعقوب بكر القاهرة / ١٩٥٨

١١ ـ **روستفتزف :**
تاريخ الامبراطوية الرومانية الاقتصادية .
ترجمة : زكى على ومحمد سالم القاهرة / ١٩٦٠

١٢ ـ **زاهر رياض :**
قصة ملكة سبأ بين الاسطورة والتاريخ القاهرة / ١٩٦٠
ـ الاسلام فى اثيوبيا القاهرة / ١٩٤٧

١٣ ـ **زكى محمد حسن :**
الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى القاهرة / ١٩٤٥

١٤ ــ **عبد العزيز صالح :**
الشرق الأدنى القديم
جـ ١ **القاهرة / ١٩٦٧**

١٥ ــ **عبد المجيد عابدين :**
بين الحبشة والعرب القاهرة / بدون

١٦ ــ **على عبد الله الخاتم :**
اثيوبيا والأثيوبيين بين المصادر الاغريقية والرومانية
رسالة ماجستير آداب القاهرة / ١٩٧٦

١٧ ــ **عون الشريف قاسم :**
نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله صلى الله عليهم وسلم ٩
دراسة فى وثائق العهد النبوى **القاهرة / ١٩٨١**

١٨ ــ **فتحى غيث :**
الاسلام والحبشة عبر التاريخ **القاهرة /**

١٩ ــ **فوزى مـكاوى :**
مملكة كسوم
رسالة دكتوراه : **معهد البحوث والدراسات الافريقية / ١٩٧٤**

٢٠ ــ **كاناكيس** : لينكولوس رود :
الحياة العامة للدول العربية الجنوبية
الفصل الثالث من كتاب التاريخ العربى القديم
ترجمة : فؤاد حسنين على **القاهرة / ١٩٥٨**

٢١ ــ **محمد بركات البيلى :**
فى تاريخ الدولة العربية الاسلامية
محاضرات لطلاب كلية الآداب القاهرة / بدون

٢٢ ــ **مصطفى محمد مسعد :**
الاســلام والنوبة فى العصور الوسطى القاهرة / ١٩٦٠

٢٣ ــ **موســكاتى :**
الحضارات السامية القديمة
ترجمة : السيد يعقوب بكر **القاهرة / بدون**

٢٤ ــ **نلسن** : دتيلف .

التاريخ العربى القديم

الفصل الاول : تاريخ العلم ونظرة حول المادة

ترجمة : فؤاد حسنين على — القاهرة / ١٩٥٨

٢٥ ــ **هومل** : فرتز

التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية

الفصل الثانى : من كتاب التاريخ العربى القديم

ترجمة : فؤاد حسنين على — القاهرة / ١٩٥٨

نظام مقترح للملامح المميزة
مطبقا على لغات القرن الافريقى

د. تغريد السيد عنبر

اتفق اللغويون على اختلاف مدارسهم ومناهج بحثهم على أن الفونيم هو حجر الأساس فى دراسة النظم الصوتية للغات رغم تباين فهمهم وتعريفهم له كاصطلاح . وهم يتفقون الآن على أن الفونيم ليس أصغر وحدة صوتية : يعتبرونه وحدة مركبة تمكن تحليلها إلى وحدات أصغر يسمى كل منها « الملامح » . يتكون كل فونيم من عدد غير قليل من الملامح المختلفة من حيث الأهمية : بعضها وهو محدود فى عدده يحدد معالم الفونيم ويعطيه شخصيته وبعضها يصاحب هذه الملامح المميزة وبعضها يتغير وفقاً للسياق . . . وهكذا. على أن أهم هذه الملامح جميعا — فى نظر علماء النظم الصوتية — هى الملامح المميزة المسئولة عن تشخيص الفونيم ، لأنه إذا نقص أو أبدل ملمح منها يتحول الصوت من فونيم لآخر . فاذا نقص الملمح الدال على الاطباق من صوت « الصاد » العربية تحولت إلى « سين » وبذلك تتحول كلمة مثل « صام » إلى « سام » ويحدث نفس الشيء إذا أبدل الملمح الدال على الوقف فى الصوت «ت» بالملمح الدال على الاحتكاك ؛ إذ يتحول الصوت إلى «ث» وبالتالى تتحول الكلمة «تاب» إلى « ثاب » .

يرى الباحثون على اختلاف مدارسهم أن كل لغة يسيطر فيها عدد محدود من الملامح له القدرة على التمييز بين أصواتها ، وهم متفقون على أن بعض هذه الملامح مشترك بين اللغات المختلفة . بالاضافة إلى ذلك تستخدم كل لغة ملامح خاصة بها قادرة على التمييز بين بعض أصواتها ولكنها لا تميز بين أصوات لغة أخرى ؛ فالملمح الدال على الاطباق يميز بين أربعة أزواج من الصوامت العربية ولكنه لا يميز بين أية أصوات فى الأنجليزية أو الفرنسية مثلا . مما يسمح بالادعاء بأن كل لغة لها نظام من الملامح المميزة ليس من

الضرورى أن يطابق نظام لغة أخرى . وفى نفس الوقت تختلف — داخل اللغة نفسها — الملامح المميزة لكل صوت فيها ، فالملمح الدال على الاطباق مميز للأصوات ص ، ض ، ط ، ظ عن الأصوات س ، د ، ت ، ذ على التوالى ولكنه غير مميز لصوت اللام المفخمة لأن العلاقة بين اللام المفخمة والمرققة ليست علاقة بين صوتين مختلفين كما هى بين السين والصاد .

وعلى ذلك فإن صفة الأطباق مميزة بالنسبة للصاد ولكنها مصاحبة أو « فائضة » بالنسبة للام المفخمة . ومع ذلك فإن هذه الحقائق لا تنفى حقيقة أخرى هى أن الملامح المميزة بين الأصوات المختلفة فى اللغات المختلفة محدودة مع ذلك فى عددها وهى تميز بين الفونيات بواسطة تجمعها بطريقة مختلفة وبأعداد مختلفة . مما يطرح دائماً عدداً من الأسئلة الملحة :

ما هى الملامح ؟ ما عددها ؟ كيف تصنف ؟ وكيف تطبق ؟

إجابة هذه الأسئلة عند رومان ياكوبسون (١) صاحب فكرة الملامح تتلخص فى إثنى عشر ملمحا أكوستيكيا ، كل منها ثنائى القيمة (٢) . أما تشومسكى وهالة (٣) فقد ارتفعا بهذه الملامح إلى ثمانية عشر ملمحا . كل منها ثنائى القيمة ، ومعظمها مبنى على المعيار الفزيولوجى إلا أن بعضها أكوستيكى أو انطباعى (٤) .

أما بيتر لادافوجد (٥) فقد عدلها تعديلا جوهريا فارتفع بها إلى عشرين ملمحا بعضها ثنائى القيمة وبعضها متعدد القيمة مما يرتفع بها فعلياً إلى ثلاثة وأربعين ملمحا تفرق بين الفونيات فى اللغات المختلفة . نصفها مبنى على المعيار الفزيولوجى ونصفها الآخر مبنى على المعيار الأكوستيكى مما يسمح

---

(١) Jakobson, 1959

(٢) بمعنى أن كل ملمح له إحدى صفتين : الوجود أو عدم الوجود .

(٣) chomsky and Halle, 1968

(٤) مثل المصطلح sonorant, strident

(٥) Ladefoged, 1975 P. 255—287

بالقول بأن ملامح لادافوجد جمعت بين معيارين « الأكوستيكى والفزيولوجى » وبين منهجين « ثنائى القيمة ومتعدد القيمة » فى آن واحد .

ثم أعاد هالة (١) بالتعاون مع كليمنتس النظر فى نظام الملامح مرة أخرى.

الواقع أن نظام الملامح غير مستقر حتى الآن ، وهو يتعرض دائماً لتعديلات جذرية سببها اقتناع بعض الباحثين بعدم ملائمة التصنيفات القائمة لطرز لغوية معينة أو اعتقاد بعضهم بأنها معقدة أو غير منطقية . يرفض البعض — وأنا معهم — فكرة الجمع بين أكثر من معيار أو أكثر من قيمة داخل تصنيف واحد ويعتبر ذلك نوعاً من الخلط بين المناهج ، يرفض البعض كذلك جعل المعيار الأكوستيكى أساساً للتصنيف لصعوبة تطبيق مثل هذا المنهج بعيداً عن معامل الصوتيات التى لا تتوفر دائماً وفى نفس الوقت يرفضون الملامح الانطباعية غير المبنية على أساس مادى متميز . كذلك يشترط بعض اللغويين أن يكون لتصنيف الملامح أساس منطقى يبعد عن الاعتباطية والتحكم ولذلك يتساءلون : لماذا يعتبر أماميا(٢) كل مالم يتعد مخرجه اللثة الأمامية ، بينما لايعتبر امامياً ماكان مخرجه اللثه الخلفيه مع العلم بأن المنطقه واحده وضيقة. إن سبب مثل هذا التقسيم التحكمى البحت هو إيجاد وسيلة للتفريق بين السين والشين .

ترتب على مثل هذه التعديلات كثرة المصطلحات وعدم ثبوتها ، حتى إن المصطلح الواحد قد يعنى شيئين مختلفين وربما متناقضين فى تصنيفين مختلفين (٣) .

وعلى كل فإن هذا البحث لا يهدف إلى مناقشة النظم المختلفة للملامح المميزة كما قدمها الباحثون ، وهم كثيرون ، لأن هناك من المراجع فى هذا المجال ما فيه الكفاية ، هدفنا هو تقديم نظام معدل للملامح المميزة مبنى على الأسس التالية :

---

(١) Hall and clements, 1983 P. 6—8

(٢) chomsky and Halle 1968, P. 304

(٣) راجع تعريف كل من chomsky, 1968 P. 304 و Halle 1983 P. 6 للمصطلح coronal مما يترتب عليه اعتبار الياء عند الأول [coronal] وعند الثانى [—coronal]

١ – يأخذ فى الاعتبار الأنظمة الصوتية للغات الأفريقية المختلفة محاولا سد العجز الموجود فى معظم الأنظمة الحالية عن التفريق بين بعض الفونيمات الأفريقية .

٢ – مراعاة أن تكون الملامح قادرة على التفريق بين الفونيمات فى الأنظمة المختلفة وأن تكون فى نفس الوقت مختصرة ومحدودة فى عددها .

٣ – جعل الملامح كلها مبنية على معيار واحد فقط هو المعيار الفزيولوجى. كل معيار منها ثنائى القيمة . معنى ذلك عدم الجمع بين أكثر من معيار وأكثر من قيمة .

٤ – يتوخى هذا النظام عناصر البساطة والمنطقية والطبيعية بقدر الإمكان بحيث يسمح بتصنيف الفونيمات إلى مجموعات وفقاً للخصائص المشتركة بينها وفى نفس الوقت يبين بوضوح ما بينها من اختلافات .

من إمكانيات ميكانزم الهواء المتاحة فزيولوجيا تستخدم أربع إمكانات فقط فى العملية الكلامية تنتج الأنواع التالية من الفونيمات .:

– الرئوى الخارج .

– الحنجرى الخارج (الدفعى) .

– الحنجرى الداخل (الشفطى) .

– الحنكى الداخل (الطقطقى) .

يفرق بين هذه الأنواع الملمحان : –

١ – « حنجرى » ويقصد به أن يكون مصدر الهواء المنطقة فوق الحنجرية .

٢ – « داخل » وذلك حين يكون اتجاه تيار الهواء إلى الداخل .

طقطقى	شفطى	دفعى	رئوى	
–	+	+	–	حنجرى
+	+	–	–	داخل

أما مرحلة التصويت فتسمح بتكوين أنواع من الفونيات المتقابلة :
المجهور — المحنجر — النفسي — المهموس — الهائي(٤)

تتقابل بعض الصوامت من حيث الجهر والهمس في جميع اللغات ، وتقابل بعض اللغات بين المجهور والمحنجر (الهوسا) b / b كما تقابل لغات أخرى بين المجهور والنفسي (الأردية d / b[h] وبين المهموس والهائي . t / t[h]

إن هذه الأنواع الخمسة من الأصوات تتجمع أساساً في مجموعتين :

— مجموعة الأصوات التي يصحب انتاجها اهتزاز بشكل ما للطيات الصوتية .

— مجموعة الأصوات التي لا تهتز الطيات عند انتاجها .

إذا كان الاهتزاز كاملا وممتداً على طول الطيات الصوتية بحيث تغلق فتحة المزمار كلها في مرحلة الغلق وتفتح في مرحلة الفتح كان الصوت مجهوراً ، فإذا كان الاهتزاز محصوراً في المنطقة الوسطى فقط (نتيجة غلق المنطقة بين الغضروفية أثناء انتاج هذا الفونيم) فإن الصوت يسمى محنجرا .

فإذا حدث العكس وظلت المنطقة بين الغضروفية مفتوحة وانحصر الغلق والفتح في المنطقة بين الغشائية سمي الصوت « نفسيا » لأن النغمة الناتجة عن الاهتزاز تحدث مصحوبة بضوضاء هوائية .

أما الأصوات التي لا تهتز الطيات الصوتية عند انتاجها فهي إما أن تكون مهموسة — وذلك عندما تكون فتحة المزمار مفتوحة على طول امتدادها بقدر يسمح بمرور الهواء خلالها دون إعاقة تسبب اضطرابه وبالتالي عدم صدور

---

(١) تغريد عنبر سنة ١٩٨٠ (الفصل الثالث) .

أى نوع من الضوضاء من هذه المنطقة — وإما أن تكون هائية وذلك حينما يلى وضع الهمس تضييق فتحة المزمار بصورة تسبب اضطراب الهواء المستمر فى الخروج من الرئتين بحيث تحدث ضوضاء احتكاكية .

من هذا العرض يتضح أن التقابل « مهموس » — « مجهور » كتقابل بين اهتزاز أو عدم اهتزاز للطيات الصوتية لا يكفى وحده للتفريق بين أنواع أخرى من الفونيات ولذلك ينبغى أن تؤخذ طريقة الاهتزاز وشكل فتحة المزمار فى الاعتبار .

ثلاثة ملامح قد تفرق بين هذه الأنواع من الأصوات :

٣ — مهتز : ويقصد به الصوت الذى يصاحب إنتاجه اهتزاز الطيات أياً كانت طريقة هذا الاهتزاز .

٤ — مجهور : وتطلق على الاهتزاز الممتد على طول الطيات والمصحوب بغلق كامل على امتداد فتحة المزمار فى مرحلة الغلق . وفتحها فى مرحلة الفتح .

٥ — هوائى : تطلق على الصوت عندما تسرب فتحة المزمار هواء من المنطقة بين الغضروفية سواء صحب ذلك اهتزاز الطيات أو سكونها .

مهموس	هائى	نفسى	محنجر	مجهور	
—	—	+	+	+	مهتز
—	—	—	—	+	مجهور
—	+	+	—	—	هوائى

(جدول ٢)

من حيث المخرج تفرق اللغات فى أنظمتها المختلفة بين عدة مناطق :
— الشفوى البينى ، حيث تنتج الصوامت بين الشفتين .

- الشفوى السنى ، حيث يتكون الصوت بين الأسنان العليا والشفة السفلى .
- الشفوى الطرفى (١) حيث يتكون الصامت بين طرف اللسان والشفة العليا .
- السنى ، وهو إما أن يكون بين طرف اللسان والأسنان العليا أو بين نصل اللسان وفكى الأسنان .
- اللثوى الذى يتكون بين طرف اللسان واللثة الأمامية .
- اللثوى الغارى (الخلفى) حيث يتكون الصوت بين طرف اللسان وبين اللثة الخلفية مع الجزء المتصل بها من غار الحنك .
- الغارى المتكون بين جسم اللسان فيما يلى نصله وبين ما يقابله من غار الحنك
- الطبقى (القصى) حيث يتكون الصامت بين جسم اللسان من الخلف مع ما يقابله من سقف الحنك اللين أو آخر سقف الحنك الجامد .
- اللهوى المتكون بين اللهاة مع ما يقابلها من آخر جسم اللسان .
- الحلقى حيث تتقلص عضلات الحلق ويقترب جذر اللسان من جداره الحلقى .
- المزمارى حيث يتكون الصوت فى فتحة المزمار .

عند تحديد هذه المخارج يؤخذ فى الاعتبار العضوان المسئولان عن تكوين العقبة ، أحدهما عادة سلبى والآخر إيجابى . إن العضو الإيجابى هو اللسان غالباً ولا يكاد يستثنى من ذلك غير الشفوى والمزمارى ، مما يعطى اللسان أهمية خاصة كعضو رئيسى فى عملية تشكيل الأصوات ، ويستدعى الاهتمام بدراسة أوضاعه أثناء عملية الإنتاج :

---

(١) من المخارج الخاصة بلغات الفرع النيلى – الشارى من المجموعة النيلية الصحراوية وقد اختلف فيه اللغويون ، فاعتبره بعضهم هوائياً واعتبره بعضهم الآخر مركباً ولكننا نعتقد غير هذا ونراه مخرجاً خاصاً بهذه اللغات .

لعله من الضرورى أن نميز الوضع الحيادى للسان ، ونعنى به الوضع الذى يكون عليه عند النطق بالصوامت الشفوية البينية .

على المستوى الأفقى يتخذ اللسان عدة أوضاع :

(أ) وضعاً يكون فيه طرف اللسان أو نصله هو الجزء الفعال أى المسئول عن تكوين المخرج ، إذ يرتفع نحو العضو السلبى لتكوين عقبة الصوت .

(ب) وضعاً يكون فيه الجزء الأمامى من جسم اللسان مسئولا عن تكوين المخرج مع ما يقابله من مقدم أو وسط سقف الحنك الجامد .

(ج) وضعاً يتقهقر فيه جسم اللسان إلى الخلف ليكون مع سقف الحنك اللين أو مع اللهاة مخرج الصوت . وقد يمتد التقهقر إلى جذر اللسان الذى يقترب من جدار الحلق ليكونا معاً المخرج الحلقى .

على المستوى الرأسى يمكن التفريق بين ثلاثة أوضاع :

(أ) الوضع الحيادى الذى يكون عليه اللسان عند نطق الصوامت الشفوية وهو قريب أيضاً من وضعه عند نطق اا / ٤ / الألمانية (١) . ويلزم جسم اللسان هذا الوضع أيضاً عند نطق الصوامت الطرفية والاهوية .

(ب) وضع الارتفاع وذلك عندما يعلو عن وضعه فى حالة الحياد كما يحدث عند إنتاج اللثوى الغارى والغارى والطبقى .

(ج) وضع الانخفاض وذلك عندما ينخفض عن وضعه فى حالة الحياد كما يحدث عند إنتاج الحلقى أو المزمارى .

إن مراجعة مخارج الأصوات فى الأنظمة اللغوية المختلفة مع أخذ أوضاع اللسان فى الاعتبار يمكن أن تسفر عن الملامح التالية :

٦ — طرفى ويطلق على الصوت إذا كان طرف اللسان أو نصله مسئولاً عن تشكيله .

---

(١) Wängler, 1968

٧ ـ خلفى إذا تقهقر جسم اللسان عن وضعه فى حالة الحياد .
٨ ـ مرتفع وذلك عندما يرتفع جسم اللسان عن الوضع الحيادى .
٩ ـ منخفض إذا انخفض جسم اللسان عن وضعه الحيادى .
١٠ ـ سنى وذلك عندما تشترك فى تكوين المخرج الأسنان سواء العليا أم السفلى
١١ ـ شفوى إذا اشترك فى تكوين المخرج إحدى الشفتين أو كلاهما معاً .

يمكن بهذه الملامح التفريق بين مخارج الصوامت المختلفة على النحو التالى :

	بيني	شفوي سني	شفوي طرفي	سني	لثوي	لثوي غاري	غاري	طبقي	لهوي	حلقي	مزماري
طرفي	–	–	+	+	+	+	–	–	–	–	–
خلفي	–	–	–	–	–	–	–	+	+	+	–
مرتفع	–	–	–	–	–	+	+	+	–	–	–
منخفض	–	–							-	+	+
سني	–	+	–	+	–						
شفوي			+		–						

جدول (٣)

إن طريقة تكوين عقبة الأصوات وبالتالى نطقها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنوع الضغط الحادث داخل الممر الصوتى بصفة عامة وتجويف الفم بصفة خاصة .

من الممكن أن نميز بوضوح بين ثلاث درجات من الضغط داخل تجويف الفم عند إنتاج الأصوات اللغوية :

(أ) يحدث أحياناً أن يتساوى الضغط داخل تجويف الفم مع الضغط خارجه ويتحقق ذلك عندما يكون البعد بين العضوين المسئولين عن عملية التشكيل من السعة بحيث يسمح للهواء بالمرور بينهما دون اضطراب . هذا الوضع يصاحب إنتاج الصوائت .

(ب) أحياناً يزيد الضغط داخل تجويف الفم بشكل ملحوظ عنه خارجه. يحدث هذا بسبب الاقتراب الشديد بين عضوين أو التصاقهما معاً ، مما يعوق تيار الهواء الخارج من الرئتين عن مواصلة سيره بدون اضطراب شديد أو توقف كامل لفترة زمنية معينة . ويتحقق ذلك أثناء إنتاج الصوامت الوقفية والاحتكاكية .

(ج) قد يزيد الضغط داخل تجويف الفم زيادة طفيفة عنه خارجه . وذلك عندما يقترب عضوان اقتراباً أكبر من اقترابهما عند إنتاج الصوائت ولكنه فى نفس الوقت أوسع بكثير من اقترابهما عند إنتاج الصوت الاحتكاكى .

يمكن أن يحدث هذا الوضع أيضاً إذا التصق عضوان بشرط أن توجد فتحة فى مكان آخر تسمح بتسرب الهواء ، ولها من السعة مالا يسبب تراكمه داخل تجويف الفم. يصادف هذا الوضع عند إنتاج الأصوات المتقاربة « و / ى »مثلا وعند إنتاج الأصوات الأنفية والجانبية والمكررة والخبطية .

هذه الأنواع المختلفة من الأصوات يمكن التفريق بينها بواسطة خمسة ملامح على النحو التالى :

١٢ — معاق : يطلق على الصوت الذى يزيد ضغط الهواء فى تجويف الفم — أثناء إنتاجه — بشكل ملحوظ عنه خارجه . وينطبق هذا على الوقفى والاحتكاكى .

١٣ — صائت : وهو ما تساوى الضغط داخل تجويف الفم أثناء إنتاجه مع الضغط خارج هذا التجويف .

١٤ — استمرارى : يستمر تيار الهواء — أثناء إنتاج الصوت — فى الخروج من أية فتحة فى الممر الصوتى سواء كانت فى الفم أو فى الأنف .

١٥ — أنفى : ما صاحب إنتاجه تسرب الهواء عبر تجويف الأنف .

١٦ — جانبى : ما صاحب إنتاجه تسرب الهواء من جانبى الفم أو من أحدهما .

هذه الملامح تميز بين الأصوات اللغوية على النحو التالى :

	صائت	خبطى	أنفى	جانبى	مكرر	مضيق	وقفى	احتكاكى
معاق	—	—	—	—	—	—	+	+
صائت	+	—	—	—	—	—		
استمرارى		—	+	+	+	+	—	+
أنفى			+	—	—	—		
جانبى				+	—	—		
طرفى					+	—		

جدول (٤)

تتفق التحويرات المضافة فى أن طابعها العام هو تعديل شكل صندوق الرنين أثناء تشكيل صوت بعينه لينتج نوعية صوتية تختلف عنها قبل تغيير

شكل وحجم هذا الصندوق وتتم هذه التحويرات بشكل عام عن طريق تكوين ما يشبه مخرجاً آخر بالإضافة إلى المخرج المستخدم وحده لإنتاج بعض الفونيات فى نفس اللغة . هذا المخرج المضاف يفك إما متزامناً مع فك المخرج الأصلى وبالتالى ينتج صوت له نوعية واحدة مميزة وإما تالياً لفك المخرج الأصلى فينتج صوت له نوعيتان أو بتعبير آخر ينتج صوت مكون من عنصرين طابع العنصر الأول هو المخرج الأساسى وطابع العنصر الثانى هو المخرج المصاحب . وفى الغالب تستخدم نفس اللغة كلا من العنصرين منفرداً كفونيم مستقل .

الفونيم المركب / dj / يتقابل مع الفونيمين d / و / j / فى اللغة الانجليزية وكذلك الفونيم / kw / يتقابل مع الفونيمين / k / و / w / فى لغة الهوسا .

وهكذا فإن التحويرات المضافة تعنى تجمع ملمحين معاً أثناء إنتاج الصوت ، ملمحين لا يجتمعان معاً عند إنتاج الفونيم المقابل بدون تحويرات . هذان الملمحان يتزامنان إذا كان الصوت ذا نوعية واحدة ويتواليان إذا كان الصوت ذا نوعيتين . ولذلك فإننا نعتقد أن التعبير عن التحويرات المضافة لا يحتاج إلى ملامح خاصة به وإنما يكفى للتعبير عنه تجمع الملمحين المعبرين عن المخرجين الأساسى والمضاف . يتزامن هذان الملمحان فى الفونيم ذى العنصر الواحد ويتغيران فى الفونيم ذى العنصرين . عن هذا التغير عبرنا باستخدام العلامتين « + » و « — » معاً مرتبتين وفقاً لتتابعهما الزمنى .

وفيما يلى نقدم بعض الأمثلة :

فى العربية تتقابل الأصوات المطبقة « ط — ض — ص — ظ » مع غير المطبقة « ت — د — س — ذ » .

	مطبق	غير مطبق
طرفي	+	+
خلفي	+	—

في الانجليزية يتقابل المركبان /dj/ و /tsh/ مع **الفونيات** /t/ و /d/ الوقفيتين و /sh/ و /j/ الاحتكاكيتين :

	مركب	احتكاكي	وقفي
استمراري	±	+	—

في عدد من اللغات الأفريقية يتقابل الوقفي المزدوج مع عنصريه :

	KP	K	P
استمراري	—	—	—
خلفي	±	+	—

في لغة الزولو يتقابل المزدوج الوقفي الجانبي مع عنصريه :

	tL	t	L
جانبي	±	—	+

في كثير من اللغات البنتوية يتقابل المزدوج الأنغموي مع عنصريه :

	mb	m	b
أنفي	±	+	—

في كثير من اللغات الأفرو أسيوية يتقابل كل من المغور والمشفة مع عنصريهما :

	Kw	Ky	K	w	y
معـــاق	±	±	+	—	—
خلفي	+	±	+	+	—

إذا فحصنا أنظمة الصوائت في اللغات المختلفة سنلاحظ أنها جميعها تعتمد أساساً على اللسان في اكتساب شخصيتها المميزة . يتخذ اللسان عند تشكيلها أوضاعاً مختلفة على المستويين الأفقي والرأسي .

(أ) يحدد المخرج أحياناً الجزء الأمامى من جسم اللسان مع الجزء الأمامى من سقف الحنك الجامد .

(ب) ويحدده أحياناً الجزء الأوسط من جسم اللسان مع ما يقابله من سقف الحنك الجامد .

(جـ) وقد يحدده الجزء الخلفى من جسم اللسان مع ما يقابله من سقف الحنك اللين .

على المستوى الرأسى :

(أ) قد يظل اللسان فى وضعه الحيادى (وهو الوضع الذى يلزمه عند إنتاج الصوامت الشفوية البينية (ويعمل الفم كصندوق رنين يقوى النغمة الصادرة من الحنجرة فينتج صائت قريب من اا (٤) .

(ب) قد يرتفع اللسان عن هذا الوضع الحيادى لينتج صوائت مرتفعة .

(جـ) وقد ينخفض عن الوضع الحيادى فينتج الصوائت المنخفضة .

اللغات التى تقابل بين الصوائت المرتفعة تفرق عادة بين درجتى ارتفاع وكذلك تفعل اللغات التى تقابل بين الصوائت المنخفضة ولعل ذلك يسمح لنا بتقسيم حركة اللسان على المستوى الرأسى إلى ثلاث مناطق : المنطقة العليا التى يقع فيها الصائتان / i /و / u / (صوائت مرتفعة) المنطقة المنخفضة التى يقع فيها الصائتان /A /و / a / (صوائت منخفضة) . المنطقة المتوسطة التى يقع فى منتصفها تقريباً الوضع الحيادى للسان . ما فوقه من صوائت متوسطة الارتفاع أى أن اللسان يرتفع عند تشكيلها عن الوضع الحيادى ولكن ارتفاعه محدود لا يصل إلى المنطقة العليا . ونفس الشىء بالنسبة لما تحته من صوائت .

بالإضافة إلى ذلك تعرف الصوائت أربعة أنواع من التحويرات المضافة :

(أ) انخفاض سقف الحنك اللين الذى ينتج صوائت أنفية تتقابل مع مثيلاتها اللثوية فى لغة مثل الفرنسية

(ب) تدوير الشفتين عند إنتاج الصوائت الأمامية أو فردها عند إنتاج الصوائت الخلفية مما يقابل بين خلفى مدور و خلفى غير مدور وبين أمامى مدور وأمامى غير مدور .

(ج) تقهقر جذر اللسان تقهقراً شديداً نحو جدار الحلق مما ينتج صائتاً له طابع خاص يتميز بالتوتر والجفاف . هذا التحوير نطاق عليه الاصطلاح «جذرى ». تقابل اللغات النيلية (من الأسرة النيلية الصحراوية) بين الصوائت الجذرية والصوائت غير الجذرية ، فيتقابل الأمامى الضيق الجذرى مع الأمامى الضيق غير الجذرى ونفس الشيء بالنسبة للصوائت الأخرى .

(ء) كذلك تفرق بعض اللغات عن طريق الزمن الذى يستغرقه إنتاج الصائت بين درجات من الطول ، معظم هذه اللغات تفرق بين درجتى طول : قصير وطويل ولكن بعض اللغات تميز بين ثلاث درجات من الطول : قصير وطويل وطويل جداً .

هذه العناصر المفرقة بين الصوائت المختلفة يمكن التعبير عنها بعدة ملامح :

على المستوى الأفقى يستخدم الملمحان : خلفى (سبق تعريفه واستخدامه للتفريق بين الصوامت

١٧ — وسطى : للصوائت التى تنتج فى منطقة وسط سقف الحنك الجامد .
أما على المستوى الرأسى فيمكن استخدام الملامح :
مرتفع (سبق استخدامه وتوضيح المقصود منه) .
منخفض (سبق استخدامه وتوضيح المقصود منه) .

١٨ — متوسط : لما يقع فى المنطقة المتوسطة حول مستوى الحيادية . ولما كانت الصفتان « مرتفع » و « منخفض » لا تجتمعان معاً عند إنتاج الصائت فإنه من البديهى أن وجود الصفة

« + مرتفع » يعنى آلياً أنه « ــ منخفض » والعكس بالعكس فإذا وجد الملمح « متوسط » فإنه يعنى تشكيل الصائت فى المنطقة المتوسطة كما يعنى فى نفس الوقت قربه من درجة ارتفاع الصفة الموجبة إذا وجدت .

الملامح المميزة للتحويرات المضافة هى :

أنفى : (سبق استخدامه وتوضيح المقصود منه) .

شفوى : لما تشترك الشفتان فى تمييزه على المستوى الفونيمى (سبق استخدامه) .

١٩ ــ طويل : لما زاد كمه عما يعتبر قصيراً على مستوى الاستخدام اللغوى فى اللغة موضوع الدراسة .

٢٠ ــ جذرى : لما يقترب جذر اللسان إلى حد كبير من جدار الحلق أثناء إنتاجه .

هذه الملامح التسعة تفرق بين مختلف الصوائت فى اللغات المختلفة ، وفيما يلى نقدم نموذجاً لذلك .

	y	ɪ	i	e	ɛ	æ	a	ɑ	ɔ	o	ʊ	u	ū	ü	ɨ	ə	ɐ
وسطى	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	+	+	+
خلفى	−	−		−	−	−	−	+	+	+	+	+	+	+			
مرتفع	+	+	+	+	−	−	−	−	−	−	+	+	+	+	+	−	−
منخفض					−	+	+	+	+	−						−	+
متوسط	−	−	−	+		+	−	−	+								
شفوى	+	−	−														
جذرى		+	−								−	−	−	+			
أنفى											−	−	+				
طويل											−	+					

جدول (٥)

وهكذا يمكن التفريق بين مختلف الفونيمات بواسطة عشرين ملمحاً :

١ – حنجرى	٢ – داخل	٣ – مهتز	٤ – مجهور
٥ – هوائى	٦ – طرفى	٧ – خلفى	٨ – مرتفع
٩ – منخفض	١٠ – سنى	١١ – شفوى	١٢ – معاق
١٣ – صائت	١٤ – استمرارى	١٥ – أنفى	١٦ – جانبى
١٧ – وسطى	١٨ – متوسط	١٩ – طويل	٢٠ – جذرى

تستخدم كل لغة عدداً محدوداً من هذه الملامح لا يزيد عادة عن عشرة . فى القرن الأفريقى يسود استخدام بعض لغات الأسرتين الأفرو أسيوية والنيلية الصحراوية .

أكثر الفروع الأفروأسيوية انتشاراً هما الفرعان السامى والكوشى أما الفرع شبه الوحيد النيلى الصحراوى المتحدث به فى منطقة القرن الأفريقى فهو الفرع الشارى النيلى .

فيما يلى نطبق هذه الملامح على المخزون الفونيمى للغات هذه المنطقة لنتعرف على مدى قدرة هذه الملامح على إظهار ما بين فونيمات النظام من تشابه من ناحية وتقسيمها إلى مجموعات طبيعية من ناحية ثانية وكذلك إبراز ما يميز كلا منها ويفرق بينه وبين الفونيمات الأخرى الأعضاء فى نفس النظام اللغوى من ناحية ثالثة .

حرصاً على الاختصار جمعت فونيمات اللغات المنتمية لفرع لغوى واحد فى جدول واحد .

أهم اللغات السامية فى منطقة القرن الأفريقى وأكثرها انتشاراً العربية والأمهرية والتجرية والتجرينيا والأرجوبا والجافات والهررية والجوراجية بأقسامها المختلفة . يتجمع المخزون الفونيمى لهذه اللغات معاً فى الجدول (٦) معنى ذلك أن كل لغة منها تتكون فى الواقع من فونيمات أقل بكثير فى عددها من الفونيمات الواردة فى الجدول المذكور ولكنها لا تخرج عن محتواه ، مما

يخفض بالتالى عدد الملامح عن الواردة فى هذا الجدول ، ويجعل التمييز بينها أقل صعوبة وأكثر بساطة ولكن الرغبة فى عدم التكرار والإطالة جعلتنا نجمع هذه الفونيات فى جدول واحد .

بمساعدة الملامح المبينة فى هذا الجدول يمكن تقسيم الفونيات إلى ثلاث مجموعات : المعاقة واللامعاقة والمزدوجة التى جزوٴها الأول معاق والثانى غير معاق أى أنها إما مشفهة وإما مغورة . ملمح « الاستمرارية » يقسم المعاق بدوره إلى ثلاثة أقسام : معاق مزدوج (المركب) (استمرارى) أى احتكاكى . غير — أى استمرارى (أى وقفى) . تمايز فونيات كل قسم منها عن بعضها البعض بملامح الحنجرية والجهر — بالإضافة إلى الملامح المحددة للمخرج : خلفى — مرتفع — طرفى — سنى .

المزدوج « المعاق / اللامعاق » تسود فيه الفونيات المشفهة حيث يكون العنصر الثانى خلفياً بعكس المغور .

أما مجموعة اللامعاق فهى إما صائتية وإما غير صائتية . تمايز الصوائت بملامح الطول والانخفاض والارتفاع والخلفية والوسطية . غير الصائتية تمايز بالأنفية والجانبية والخلفية والارتفاع .

حنجري / مجهور	p' p b	t' t d	ɗ	ṭ đ	k' k g	q	f	θ ð	s' s z	š' š ž	ṣ ẓ	x ɣ	ħ ʕ	č' č ǯ	ʔ	m	n	ɲ	m̃w	l	r	h	ḥj	h̃w	f̃w	b̃w	k̃j k̃j g̃j	k̃w k̃w g̃w	w	j	a a:	i i:	e e:	o o:	u u:	ɨ ɨ:	ə ə:
معاق	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	±	±	±	±	−	−	−	−	−	−	−	−	−
صات															−	−	−	−	−	−	−	−	−	−					−	−	+	+	+	+	+	+	+
استمراري	−	−	−	−	−	−	+	+	+	+	+	+	+	±	−	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	∓	∓	∓	+	+							
أنفي																+	+	+	∓	−	−	−	−	−					−	−							
جانبي																				+	−	−	−	−					−	−							
منخفض																					−	+	±	±					−	−	+	−	−	−	−	−	−
وسطي																																−	−	−	−	+	+
خلفي	−	−	−	+	+	+	−	−	−	−	+	+	+										−	∓		∓	±	+	+	−		−	−	+	+		
مرتفع				+	+	−	−	−	−	+	+	+	−			−	−	+			−									+		+	−	−	+	+	−
طرفي	−	+	+	+	−		−	+	+		+	−				−	+																				
سني								+	−				−																								
داخل		−	+																																		

جدول (٧)

الملامح المميزة لفونيمات اللغات الســـامية في القرن الأفريقي

تتعدد لغات الفرع الكوشى فى منطقة القرن الأفريقى ، الذى يكاد مع ما جاوره من مناطق أن يكون البقعة الوحيدة فى أفريقيا ، التى تستخدم فيها اللغات الكوشية ، الصومالية — البجا — أجيو — لغات سيدامو وأهمها هديا وكمباتا — عفر بلهجاتها — الجالا — كونسو — أربورية — بالإضافة إلى المجموعة الأوموية بلغاتها المتعددة . بالرغم من كثرة لغات هذا الفرع فإن فونياتها أكثر تجانساً وأقل عدداً من مجموع فونيات لغات الفرع السامى ، فبينما ترفع الفونيات فيه إلى حوالى خمسة وستين فونيات نجدها تنخفض فى اللغات الكوشية إلى أقل من أربعين فونيا . ولعل السبب فى ذلك هو عدم سيادة الفونيات المزدوجة فى هذه اللغات التى لا تكاد تستخدمها باستثناء واحد هو المركب اللثوى الغارى ، مما يجعل الفونيات فيها تنقسم إلى مجموعتين أساسيتين معاقة ولا معاقة . تجمع المعاقة كلا من الاحتكاكى والوقفى أما اللامعاقة فتجمع الصوائت والأصوات المضيقة .

كذلك لا تعرف هذه اللغات الصوائت الوسطية ولذلك يفقد من مخزون ملامحها الملمح « وسطى » . تتجمع الملامح المميزة لهذه اللغات فى الجدول . (٧)

الملمح	
حنجرى +	p' t' d' k' ʔ
مجمور ±	b d g ɲ ɟ c f s ʃ x ħ ʕ ʔ m n ɲ l r h j w a i e o u / a: i: e: o: u:
طويل	
معاق	+ + + + + + + + + + + — — — — — — — — — — — — — —
صائت	— — — — — — — — — — + + + + +
استمرارى	— — — — — — ± + + + + + — + + + + + + + + +
أنفى	+ + + — — — — —
جانبى	+ — — — —
منخفض	— + — — + — — — —
خلفى	— — — + + — — — + + — — + — — + +
مرتفع	+ — — — + + — — — + — + + — — +
طرفى	— + + — + — +
داخل	— +

يسود فى منطقة القرن الأفريقى فرعان أساسيان من فروع المجموعة النيلية الصحراوية هما الشارى النيلى ، بأقسامه السودانية الشرقية والنيلى وبرتا وكوناما وفرع الكومان . أهم اللغات فى هذه المنطقة هى ميكتان مورلية — مورسى — نادا — تركانا — المابان — الأنوواك .

إن نظرة نلقيها على الجدولين (٨) و(٩) تبين ارتفاع عدد الفونيمات إلى حوالى ستين فونيما مرة أخرى . ومع ذلك فهناك فرق جوهرى بينها وبين اللغات السامية التى تتميز بارتفاع عدد فونيماتها ، فالصوامت النيلية الصحراوية محدودة فى عددها (حوالى ٣١ صامتا) على عكس ما عليه الحال فى اللغات السامية . وقريباً مما عليه الوضع فى اللغات الكوشية) . إن مصدر ارتفاع عدد الفونيمات فى اللغات النيلية الصحراوية هو الصوائت . وتلك سمة خاصة بلغات هذه المجموعة اللغوية . يرتفع مجموع المخزون الفونيمى للصوائت إلى حوالى ثلاثين فونيما . نصفها جذرى ونصفها الآخر غير جذرى ، وينقسم كل نصف بدوره إلى نصفين : قصير فى مقابل طويل . للصوائت فى هذه المجموعة اللغوية أربع درجات ارتفاع متقابلة بالإضافة إلى المقابلة بين الأمامى والخلفى فى كل درجة ارتفاع باستثناء الصائت المنخفض . لذلك يلزم التفريق بين صوائت هذه المجموعة بعدد كبير نسبياً من الملامح : طويل — جذرى — مرتفع — منخفض — متوسط — خلفى .

حنجری	+ ɓ σ
	− p ṭ t c k θ s ʃ
مجهور	+ b ḍ d ɟ g β ʒ z ʊ ʔ m ɳ n ɲ ŋ l r j w h ŋ̂
معاق	+ + + + + − + + + + + + − − − − − − − − − − − ∓
استمراری	− − − − − − − + + + + + − + + + + + + + + + +
أنفی	+ + + + + − − − − − ±
جانبی	+ − − − −
خلفی	− − − − − − + − − − − + − − − − + − − + −
مرتفع	− − − − − + − − − + − − − + − + −
طرفی	− − + + + − + + − + + + −
شفوی	+ + + − − + −
سنی	∓ −
داخل	− + − +

جدول (٨)

طويل	±
منخفض	+ + − − − − − − − − − − − −
خلفی	− − − − − − + + + + + +
مرتفع	+ + + + − − − − + + + +
متوسط	− − + + + + − −
جذری	− + − + − + − + − + − + − +

جدول (٩)

1. Bender, M.L and others (Publ.), 1976, language in Ethiopia, London.

2. Chomsky, N. & Halle, M. 1968, The sound pottern of English New–york and London.

3. Halle, m. & clements, G.N. 1983, Problem book in phonology, the M.I. T Press.

4. Jakobson R., 1959, Preliminaries to speech analysis M.I.T Press.

5. Lodefoged, P., 1975, A course in phonetics, New york.

6. Lass, R., 1984 Phonology : An introduction to basic concepts, Cambridge U.K.

7. Tucker, A; N; 1981, Les Langues nilotiques : unités etendue in « les langues dans le monde ancien et moderne" Paris.

8. Turton, D. 1981, le Mun (muris) in "les langues dans le monde ancien et moderne, Paris.

9. Wan gler, H.H., 1968, Atlas Deutscher sprachlaute, Berlin.

تغريد السيد عنبر سنة ١٩٨٠ : دراسات صوتية جـ ١ القاهرة

النظام الصوتى للغة الصومالية

د. تغريد السيد عنبر

إن اللغة الصومالية لغة كوشية من الأسرة الأفروأسيوية ، لذلك فقد كان من الطبيعى أن يسود فى نظامها الصوتى بعض الملامح المميزة للأسرة الأفروأسيوية مثل :

- أستخدام المزمارى الوقفى كوحدة صوتية .
- استخدام عنصر الطول فى الصوامت كصفة مفرقة .
- المقابلة بين درجتى طول فى نظام الصوائت .
- رفض التتابع الصامتى فى بداية المقطع .

- استخدام صفة التدكين كملمح مميز يقابل بين صوامت مدكنة وأخرى غير مدكنة . إلا أن تحقيق هذه الصفة يتم بوسيلة مميزة لفرع اللغات الكوشية ، هى انتاج الوقفى الطرفى شفطيا . وتزيد اللغة الصومالية درجة التدكين باضافة صفة الالتوائية إلى صفة الشفطية فى هذا الصوت .

مثل أخواتها الكوشية لاتستخدم الصومالية اللثوى الاحتكاكى الدفعى / s' / الذى يسود فى اللغات السامية المتحدث بها فى القرن الافريقى . وهى لاتستخدم أيضاً الاحتكاكيات المجهورة على عكس ما هو عليه الوضع فى اللغات السامية بصفة عامة . ولكن الصومالية تستخدم مع ذلك صامتين لهما شيوع واسع فى كثير من لغات الفرع السامى هما الحلقيان / ح /و / ع / . وتكاد الصومالية من لغات الفرع الكوشى أن تنفرد باستخدام هذين الصامتين وفى نفس الوقت تسقط من نظامها ملمحاً سائداً فى معظم اللغات الكوشية هو صفة الدفعية فى الصوامت الوقفية التى تنتج الفونيمات / k' / / c' / / t' / P' /

يتكون المخزون الفونيمى للغة الصومالية من اثنتين وثلاثين وحدة صوتية : يتاثنين وعشرين صامتا وعشرة صوائت ، يجمعها الجدولان (١) و (٢) .

جدير بالذكر أن هذه الدراسة هى محصلة تحليل ٣٣٥٠ مفردة قاموسية بدون لواحق صرفية (مثل لاحقة التعريف أو المصدرية . . . الخ) تمثل المفردات الأساسية وشبه الأساسية وتغطى جميع المجالات الدلالية المستخدمة فى هذه البيئة من أحداث ومجردات وماديات وكيانات طبيعية وما وراء الطبيعة ومصنعة وعلاقات اجتماعية .

جدول (١) صوامت اللغة الصوماليـة

المخرج	وقـفى	مركب	لا معـاق	احتكاكى
شفـوى	— b —		— — m	f
سنى لثوى	t d *d*		r L n	s
ما بعد اللثوى	— — —	ž	j — —	ى̌
طبـقى	k g —		w — —	x
ما بعد الطبقى	q — —			H ؟
مزمـارى	o ?			h

جدول (٢) صوائت اللغـة الصوماليـة

درجة الارتفاع	أمامى		خلفى
مرتفـع	i : i		u : u
نصف مرتفع	e : e	a : a	o : o
مفتـوح			

يسود ميكانزم الهواء الرئوى فى انتاج الواحدات الصوتية باستثناء صوت واحد هو الشفطى الالتوائى / *d* / محققاً التقابل مع الطرفى / d /

/ bad / بحر / ba*d* / نصف / bu*d* / هراوة / bud / قبر

تفرق صفة الجهر بين بعض الصوامت الصومالية ، فتقابل بينها . الصوامت فى اللغة الصومالية — باستثناء المزماريين /ء/و /ه/ إما مهموسة وإما مجهورة . ومع ذلك فإن ملمح الجهر يلعب دورا محدودا فى التفرقة بين الصوامت لأنه لا يقابل إلا بين ثلاثة أزواج منها فقط .

/ d / / t / : / dab / نار / tab / حيلة

/ g / / k / : / go : r / زمن / ko : r / جرس

/ ؟ / / H / : / ؟ab / اشرب / Hab / مخاض

وفيما عدا ذلك فالجهر صفة محيدة مصاحبة لأن باقى الصوامت إما مهموسة بدون مقابل مجهور (الاحتكاكيات) وإما مجهورة بدون مقابل مهموس (الأصوات الأخرى غير الاحتكاكية) ومع ذلك فصفة الجهر — سواء كملمح مميز أو كصفة مصاحبة — تسود فى أكثر من نصف صوامت اللغة الصومالية .

على المستوى الوظيفى تتميز ستة مخارج للصوامت الفونيمات فى الصومالية :

— الأصوات الشفوية : /ب/ /م/ /ف/ (٣ صوامت)

— الأصوات السنية اللثوية : /د/ /د شفطية/ /ت/ /ن/
/ل/ /ر/ /س/ (٧ صوامت)

— الأصوات بعد اللثوية : (لثوية غارية وغارية) :
/ش/ /دج/ /ى/ (٣ صوامت)

— الأصوات الطبقية : /ج/ /ك/ /خ/ /و/ (٤ صوامت)

— الأصوات بعد الطبقية (لهوية وحلقية) : /ق/ /ح/ /ع/ (٣صوامت)

— الأصوات المزمارية : /ء/ /ه/ (٢)

إن الصوامت الصومالية التى تنتشر مخارجها على طول الممر الصوتى تحقق التوازن بين عدد الأصوات فى المنطقتين الأمامية والخلفية إلا أن المنطقة الوسطى تعانى من بعض الخلل : فالمنطقة الأمامية — ممتدة من الشفتين

إلى اللثة — تنتج عشرة صوامت ، والمنطقة الخلفية ابتداء من طبق الحنك — تنتج تسعة صوامت ، أما المنطقة الوسطى ، وهى منطقة سقف الحنك الجامد فلا ينتج منها غير ثلاثة صوامت فقط . مما يسمح لنا باطلاق حكم بأن اللغة الصومالية لاتميل لانتاج صوامت غارية مخالفة فى ذلك أخواتها الكوشية والسامية المتحدث بها فى القرن الافريقى .

من حيث طريقة تكوين العقبة تنقسم الصوامت الصومالية إلى ثلاث مجموعات رئيسية متوازنة من حيث عدد الأصوات فى كل منها :

— الأصوات الوقفية وعددها ثمانية صوامت .

— الأصوات الاحتكاكية وعددها سبعة صوامت .

— الأصوات اللامعاقة غير المزمارية وعددها ستة صوامت .

كذلك تعرف الصومالية نوعين من التحويرات المضافة احداهما ينتج صامتا مزدوجا هو الفونيم المركب / ž / . أما الآخر فهو وضع اللسان لانتاج الصوت الالتوائى / *d* / . هذا الوضع من شأنه أن يشكل — فى رأينا — صفة مصاحبة غير جوهرية لأنها لاتحقق بمفردها تقابلا مع صامت آخر . فالتقابل / d / / *d* / هو أساسا تقابل بين رئوىوشفطىوليس تقابلا بين التوائى وغير التوائى . وعلى ذلك فصفة الالتوائية صفة مصاحبة تزيد أبراز ملمح الدكنة المتحقق أساسا من خلال صفة الشفطية .

يتحقق التقابل بين الصوامت الثمانية الوقفية من خلال ثلاثة ملامح :

(أ) المخرج (ب) التصويت (جـ) ميكانيزم الهواء

يتقابل المخرج بين الشفوية والسنية والطبقية واللهوية والمزمارية .

/ kab / فعل / ṫab / حيلة / *d*ab / حقيقة / dab / نار / r : qa / بعض / r : ga / حاص / r : da / دار / r : ba / ابحث / qar / سفح الجبل / kar / اخبط *d*ar / ثياب / bari / شرق / dari / زير / qari / اخفى / ?ari / غنم

لعلنا نلاحظ أن الأصوات الوقفية إما أمامية (شفوية وسنية) وإما خلفية (طبقية وما بعد الطبقية) وبين المطقتين منطقة واسعة نسبياً خالية من هذا النوع من الصوامت .

عامل الجهر يقابل بين زوجين من الوقفيات :

/ t / / d /   / tab / حيلة   / dab) نار

/ k / / g /   / ko : r / جرس   / go : r / زمن

ويحيد مع باقى الصوامت الأخرى فى هذه المجموعة .

يقابل ميكانزم الهواء بين الصامتين [d] و / d / فقط : / di : g دجاج / g : di / دم . الصامت الطرفى المجهور محيد من حيث طريقة النطق بمعنى أنه ينطبق وقفيا / d / وفى بعض السياقات احتكاكيا [ð] وغالبا ما يحدث هذا المغاير إذا وقع بين صائتين .

الصوامت الوقفية تتمتع بتوزيع تكاملى (أى أن كلا منها يقع فى جميع السياقات الصوتية الممكنة فى اللغة) باستثناء الصوامت المتقابلة من حيث الجهر التى لايقع المهموس منها فى نهاية المقطع :

ب ——— ب

د ——— د #   # ت ———

ج ——— ج #   # ك ———

عـ ——— عـ #   # ق ——— ق

يشذ عن هذه القاعدة عدد محدود من المفردات المقترضة من العربية وغيرها من اللغات المجاورة والأوربية حيث يمكن أن تغلق مقطعا بشرط ألا يكون آخر الكلمة :

b — hilib لحم — ?abti خيال — sinbir طائر — bu : t جيل

d — tegid ذهاب — ʕudbi لوزة القطن — hadal كلام — dogob شجرة عتيقة

g — midig عين dinbi : n انذار daga : l حرب ga : l كافر

q — musuq خيانة baqid baqti خوف qe : han واضح

? — ? go رواء da ?mo سقوط المطر bi ? in إساءة n ? o : n عطش

d — ʕan du : f لعاب bo : d غبــار dalo زجاج

t — fatwo فتوى mathaf متحف ʕutub حزمة toban عشرة

k — Taksi تاكسى ʕaksi ضــد tuke غراب kiro أجرة

الصامتان /ح/ /ع/ ينطقان فى الصومالية احتكاكين شديدى الاحتكاك وهما متقابلان من حيث الجهر . باستثناء هذا الزوج من الصوامت فان صفة الجهر محيدة تماما فى مجموعة الأصوات الاحتكاكية الموزعة على جميع المخارج الوظيفية فى اللغة الصومالية بحيث ينتج كل مخرج منها صوتاً واحداً مهموساً :
الشفوى /ف/ اللثوى /س/ اللثوى الغارى /ش/ الطبقى /خ/
الحلقى /ح/ /ع/ المزمارى /هـ/

الصوامت الاحتكاكية لها توزيع تكاملى باستثناء الصامتين /ش/ ، /خ/ اللذين لايغلقان مقطعا إلا فى عدد قليل من المفردات القاموسية المقترضة من لغات أخرى بما فيها اللغة العربية :

f — ʕandu : f لعاب kaftan مزاح ʔafar أربعة far إصبع

s — da : s دكان gorros هم ma : nso شعر si : go غبــار

H — liH سنة liba : H أسد le : Ho رياح Hil : مسئولية

ʕ — ʕ : qa دخان miliʕ شمس boʕo : l صدف ʕalo : l بطن

h — sa : h شاة da : hi : l جــوع hi : l نجــدة

š — bura : š فرشــة basbas رخــاء his̆o : d حيــاء šа : r قميص

fira : š قرش ki : š كيس

x — bati : x شمام dawax دوار daxal سارية السفينة xa : nad خزانة
buntux بندقية taxtar طبيب madbax مطبخ

الصوت المركب /دج/ ومغايره (تش) هو الصوت الوحيد المزدوج فى اللغة الصومالية وهو يتقابل مع الـ /د/ والـ /ج/ والـ /ش/ :

/ Ži : r / فأر / gi : r / ملون — / Žab كسر / / dab نار

/ Zir لحم / / šir إجتماع

هذا الصوت لايغلق مقطعاً إلا فى عدد محدود من الكلمات المقترضة من العربية مثل :

hižra — lažnad — fa : liž — barna : miž — ta : ž — haž

الأصوات اللامعاقة غير المزمارية كلها مجهورة ، وتتوزع على أربعة مخارج متتالية بدون مناطق تخلخل :

الشفوية /م/ السنية اللثوية /ن/ /ل/ /ر/ الغارية /ى/ الطبقية /و/

من حيث طريقة النطق تنقسم هذه الأصوات إلى ثلاث مجموعات :

- السيالة التى تضم اللام والراء .
- أنصاف الصوائت التى تضم الياء والواو .
- الأنفية التى تضم الميم والنون .

تنطق الراء لثوية مكررة أما اللام فتنطق سنية جانبية إلا أنها تتحول فى بعض السياقات إلى لثوية غارية وذلك إذا جاورها صوت خلفى .

بين اللام والراء علاقة تقابل/ rug مكان / / lug قدم / — / lag قلب / / rag رجال وكل منهما ذات توزيع تكاملى :

l — ba : l ريشة — welwel حزن ʔalo : l بطن — b : la قلب

r — bur دقيق — marti ضيف waran رمح — ro : b مطر

تتقابل الياء والواو كفونيمين : / wa : b شرفة / / ja : b عجيب وكلاهما ذو توزيع تكاملى :

w — law ركبة — dawan جرس waran رمح

j — *d*aj لبن — miji بادية — ja : mbo فأس

عندما يغلق هـذان الصوتان مقطعاً فإنهما يسبقان بواحد من ثلاثة صوائت / a / / e / / o / . وينطقان أحيانا بدرجة ارتفاع أقل تحولهما إلى ما يشبه الصائت بحيث يمكن التعبير عن ذلك بالقاعدة الفونولوجية :

/ و / ——— ← [u]
/ ى / ——— ← [i] ص ——— $\neq$

وبذلك تتحول / aw / إلى au و / aj / إلى ai وهكذا . وفى مثل هذه الأحوال تعتبر كل من u و i مغايرا صوتيا للفونيمين / و / ، /ى/ على التوالى . ولعل هذه الصورة من المغايرات الصوتية كانت وراء اعتقاد بعض اللغويين أن الصومالية تعرف فى نظامها الصوتى الصوائت المزدوجة . ولهذه القضية عودة عند معالجة نظام الصوائت .

الصامتان الأنفيان / m / و / n / بينهما علاقة تقابل : / ma : g / اعتداء / na : g / امرأة . تتمتع النون بعدد من المغايرات الصوتية ، فتتحول إلى / m / إذا تلاها صوت شفوى وقفى ، ولعل هذه الظاهرة هى السبب فى وجود كلمات مثل ja : mbo فاس — gambar منضدة من جذع الشجر — qumbe جوز الهند .

وتتحول إلى / ŋ / إذا تلاها الصوت الغارى / j / ؛ ja : ŋo طماطم
وإلى / ŋ / إذا تلاها صوت طبقى : soŋkor سكر

يتحقق التوزيع التكاملى لصوت النون :

san أنف — šinbir طائر — kaneː ʕo بعوضة — na : g أمرأة

أما الميم فلا تغلق مقطعا كمغاير للنون إلا إذا تلاها الشفوى الوقفى / b / ولذلك لاتقع فى نهاية الكلمة .

فى نفس الوقت فإن كلا من الميم والنون تتقابل مع مماثلها الفموى /b/ و /d/ / dal / وطن / / nal نور — / ba : l / ريشة / / ma : l / مال

(١) $\neq$ ترمز لنهاية مقطع و $\not\neq$ ترمز لنهاية الكلمة .

يمكن التفريق بين الصوامت الفونيمات في اللغة الصومالية، بواسطة تسعة ملامح . (جدول رقم

جدول (٣) الملامح المميزة للصوامت الصومالية

			h					?	H	x	š	s	f	q	k		t		
مجهور	w	j		r	l	n	m		ʕ						g	*d*	d	b	ž
معاق	—	—	—	—	—	—	—	—	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+
استمراري	+	+	+	+	+	+	+	—	+	+	+	+	+	—	—	—	—	—	∓
أنفي	—	—	—	—	—	+	+												
جانبي	—	—	—	—	+														
خلفي	+	—	—	—					+	+	—	—	—	+	+	—	—	—	—
مرتفع		+	—	—					—	+	+	—	—	—	+	—	—	—	+
طرفي	—	—	—	+	+	+	—				+	+	—			+	+	—	+
حنجري																+	—		

نضيف إلى ما سبق ثلاث ملاحظات خاصة بالصوامت الصومالية :

أولا : بعض الصوامت قابلة للتضعيف الذي يعبر عنه صوتيا من ناحية بزيادة الكم الزمني للصامت المضعف عنه في الصامت المفرد ، ومن ناحية أخرى باختلاف التوتر العضلي المبذول خلال نطق الصامت المضعف . هذا الاختلاف في التوتر العضلي يتمثل في الانتقال من درجة توتر ما إلى درجة توتر أعلى أثناء نطق الصامت. نقطة الانتقال هذه تصنع في نظام اللغة حدا مقطعياً بجعل الجزء الأول من الصامت مغلقا لمقطع والجزء التالي بادئا لمقطع جديد . الصوامت الصومالية القابلة للتضعيف هي :

– الوقفيات المجهورة / b / / d / / *d* / / g /

– الأنفيـــان / m / / n

– السيـــالان / l / / r /

وعنها تعبر القواعد الفونولوجية التالية :

م١ ≠ م٢ ——← { + مجهور
– استمرارى
– معـــاق
– مرتفع
– منخفض }

من نماذج الكلمات مضعفة الصامت :

kubbad	habbad	badda	Hiddig
ha*dd*aj	gabadda	togga	Hagga
*d*e : mman	? amma : n	banna : n	ta : llo
galley	gorraH	؟ arro	؟ arrab

ثانياً : يمكن لأى صامت أن يبدأ مقطعاً بصرف النظر عن موقع المقطع فى الكلمة . أما موقف الصوامت من إغلاق المقطع فيمكن تلخيصه فى أربعة اتجاهات :

– صوامت لا تأتى فى آخر الكلمة فقط أى أنها لاتغلق المقطع الاخير من الكلمة ولكنها قد تغلق ماعداه من المقاطع فى عدد محدود من الكلمات المقترضة وهى : m t k

≠ ——← { [+ أنفى
– طرفى]
[– مجهور
– استمزارى
+ طرفى
+ مرتفع] }

– صوامت تغلق المقطع فى أى موضع من الكلمة ويكاد ينحصر وجودها فى هذا الموقع فى الكلمات المقترضة فقط وهى : X š ž

+ معــاق
+ مرتفع
∓/+ استمراری

– صوامت تغلق المقطع فی أی موضع من الكلمة سواء كانت مقترضة أم صومالية ولكنها محدودة الدوران :

h ? w j = { – معاق – طرفی – أنفی }

فی مادة البحث وردت الهاء فی ۰٫۲٪ من المفردات بينما ورد كل من الهمزة والياء بنسبة ۰٫٥٪ من المفردات أما الواو فقد وردت بنسبة ۱٫۳٪ وهكذا فان هذه الصوامت جميعها وردت فی ۲٫٥٪ من مجموع مفردات البحث .

– صوامت يكثر ترددها مغلقة للمقطع فی أی مكان من الكلمة الصومالية أو المقترضة . وعددها أثنا عشر صامتا ، أكثرها دورانا اللامعاقة الطرفية : r n l

ثالثاً : إن التتبع المتأنی لكل صوت من المخزون الفونيمی للصومالية – فی ظل عدة اعتبارات أهمها نسبة دوران الفونيم فی المفردات ، والأصول اللغوية لهذه المفردات بالإضافة إلی معانيها وانتماءاتها الدلالية – يقوی اعتقادنا بأن المخزون الصامتی للصومالية مكون أساساً من عشرين فونيما ، وأن فونيمين دخلا اللغة فی مرحلة لاحقة مقترضين من العربية ، هما الـ /د ج/ والـ / خ / . عرفت الصومالية هذين الصوتين منذ اتصالها المبكر بالعربية واقتراضها بعض مفرداتها المحتوية لكليهما ثم كثر دوران هذه المفردات حتی زال الاحساس بغربة ما فيها من أصوات وساعد علی ذلك وجود أماكن

(۱) تذكر أن التطبيق علی المفردات القاموسية الأساسية خالية من اللواحق ، فهذه القواعد قد تتغير إذا أخذت الكلمات فی درج الكلام لأن الفعل المسند إلی ضمير المتكلم والمخاطب والغائب المفرد ينتهی بـ / aj / و / taj / مما يرفع نسبة دوران الياء وهكذا . . .

شاغرة فى النظام الصوتى للصومالية مما سمح لهذين الصوت بالتسلل إلى الفراغات والاستقرار فيها . وبمرور الزمن أصبحا جزءاً من النظام الصوتى وحينما تكونت كلمات صومالية جديدة استخدما كغيرهما من أصوات النظام . ولكن هذه الكلمات كانت دائماً غير أساسية ، لأن الاساسية وجدت قبل مرحلة الاقتراض .

إن نظرة نلقيها على المخزون الفونيمى للصومالية قبل اقتراض هذين الفونيمين تبين أن مخارج الصوامت الوقفية هى الشفوى فالسنى ثم الطبقى فاللهوى فالمزمارى أما مخارج الصوامت الاحتكاكية فهى الشفوى فاللثوى فاللثوى الغارى ثم الحلقى فالمزمارى . صحيح أن هناك توازنا بين المجموعتين من حيث عدد المخارج ولكن كلا منهما تعانى من وجود منطقة واسعة خالية من المخارج : منطقة سقف الحنك الجامد بالنسبة للوقفيات ومنطقة سقف الحنك اللين بالنسبة للاحتكاكيات ولذلك كان من المنطقى حين تحتك هذه اللغة بلغات أخرى فيها صوامت تملا هذين الفواغين ولا تحيد عن ميولها — أن تقترضهما فالـ /دج/ يتمركز مخرجها فى الجزء الأول من سقف الحنك وفى نفس الوقت لايمتد إلى ابعد من ذلك بحيث لايصل إلى الوسط مكونا صوتا غاريا ، لان الصومالية تتجنب — على خلاف أخواتها الكوشية — المخارج الغارية . والـ /خ/ مخرجها من منطقة سقف الحنك اللين الخالية تماما من الأصوات الاحتكاكية ، وبذلك سدت الفراغات دون الاخلال بتوازن النظام الصوتى . وتحقق فى كلا المجموعتين من الصوامت نوع من التجانس :

شفوى — سنى — لثوى غارى — طبقى — مابعد الطبقى — مزمارى

?	q	g/k	ž	d/t	b
h	ʕ/H	x	s	s	f

(١) استحدثت اللغة أحياناً مفردات أساسية تضم أحد هذين الصوتين ولكن هذه لمفردات تستخدم كرادفات لمفردات أخرى سبقتها تاريخياً إلى الوجود.

ومع ذلك يبدو أن اقتراض الفونيمين لم يحدث في وقت واحد وأن اقتراض الـ /دج/ حدث سابقا على اقتراض الـ /خ/ . فعدد الكلمات غير المقترضة التي فيها صوت الخاء محدود جداً بالنسبق لعدد الكلمات المقترضة وعدد الكلمات المحتوية على هذا الصوت قليل بشكل ملحوظ إذا ما قورن بعدد الكلمات التي فيها صوت /دج/ كذلك فان المضامين الدلالية للكلمات ذات الـ / دج / أقدم وأكثر احتياجا من الكلمات ذات الـ /خ/ . وعلى كل فان الكلمات المقترضة هي السائدة في المفردات المحتوية على احد هذين الصوتين :

renži طلاء — ži : r فــأر — že : r فرس النهر — ža : lle رفيق (أ)

ža : nsa : r نعــل — žaʕajl حب — žade : ʕo حصبة

žo : dari مرتبة — žu : da : n جذام — ža : ngo : jo تخطيط

žagu : g غليظ الطبع

žaad قات — ža : hil — ža : ʔir — ža : žu : s — ža : ma q (ب)

ža : mu : s — ža : r — ža : rijad — žaha : d - žahannamo

žahli — žamʕe — žamʕijad — žamhu : rijad — žanno جنة

žasi : rad جزيرة žawa : b — žawa : n جوال — žawr — žaws

— že : b — žejs — žiha : d — žirid جذر — žisjo جزية

Ha : ži — ? ažu : s عجوز — ta : ž — ? ažer أجر žebin هزيمة

žoharad جواهر

?axrina أقرأ — xad مــداد — xal fad نافذة — xo : ri خليج (جـ)

baxa : r مخزن daxal سارية السفينة — xu : ro تشجير

---

(١) مجموعة المفردات أ ، حـ صومالية الأصل ومجموعة المفردات ب ، د مقترضة من العربية .

(د) bu xul — الآخر ? a : xiro — baxi : l — خطبة xudbo — xila : f

خادم xa : ddin — xa : ? in — xal xalqi

خبر xaba : r — xa : tir — xa : s — xa : lis — xafi : f

خنزير xansi : r — قرار xara : r — xamro — xami : s — xami : r

xasa :ro خسارة — dawax دوار

xatar — xajmad — xajr — xaja : li—xija : r — xamro —

تنقسم الصوائت الصومالية إلى مجموعتين من حيث الكم : مجموعة الصوائت القصيرة وتضم خمسة أصوات ومجموعة الصوائت الطويلة وتضم خمسة أصوات مقابلة لأصوات المجموعة الأولى .

الصوائت الخمسة فى كل مجموعة تتقابل من حيث درجة الارتفاع مكونة ثلاثة أقسام :

الصوائت المرتفعة / i / / u / والصوائت نصف المرتفعة / e / / o / والصائت المنخفض / a / . أما من حيث مكان الارتفاع فالتقابل يتم بين أمامى وخلفى بالنسبة للمرتفعة ونصف المرتفعة : / i / / e / فى مقابل / u / / o / ولكن هذا الملمح يحيد بالنسبة للصائت المنخفض / a / . معنى ذلك أن الـ / a / تكون فونيما له مغايران على الأقل أحداهما أمامى والآخر خلفى . من أمثلة التقابل بين صوائت كل مجموعة :

(أ) / bud / تراب / bad / بحر / bed / مساحة / bur / دقيق
/ bir / حديد / rug / مكان / rog / قلب

(ب) / su : n / حزام / so : n / صوم / no : g / غضب / na : g / أمرآة
/ ge : l / بئر / ?i : l / غضب lu:ba:n بخور li:ba:n نجاح
/ bu:d / سفينة ba:d جزية

وفى نفس الوقت يتقابل كل فونيم فى إحدى المجموعتين مع نظيره فى المجموعة الأخرى على أساس اختلاف كم كل منهما . من نماذج هذا التقابل

he :ro طبق خشبي / hero زريبة ga:l كافر / gal ظرف bu:r جبل

/ bur دقيق quo :l هراوة / qol حجرة ti : r / عمود / tir ا مسح

هذه الصوائت تمايز من خلال أربعة ملامح كما هو مبين فى جدول (٤)

جدول (٤) ملامح الصوائت الصوماليــة

طويل <	+	a :	u :	i :	e :	o :
	—	a	u	i	e	o
منخفض		+	—	—	—	—
مرتفع			+	+	—	—
خلفى			+	—	—	+

يزعم بعض اللغويين أن اللغة الصومالية تعرف خمسة صوائت مزدوجة هى : — / ai / / ou / / ni / / ou / / ei / وقـد يكون هـذا صحيحـاً على المستوى الصوتى الصرف فى بعض اللهجات الصومالية ، ولكن مثل هذ الرأى يتطلب شيئا من التوقف على المستوى الفونولوجى . إ الصائت المزدوج صائت يسمع الجزء الأول منه مختلفا من حيث النوع عن جزئه الثانى . أو بتعبير آخر هو صائت لايثبت اللسان أثناء انتاجه على وضع واحد وإنما يتخذ وضعين مختلفين ، وبالتالى فهو فونولوجيا عبارة عن فونيم واحد مكون من عنصرين صوتيين يتلو أحدها الآخر . فهل كل من الصوائت الخمسة المزدوجة السابق ذكرها يكون فونيا واحداً ؟

كلمة مثل odai ؟ ومعناها « كهل » تتكون من مقطعين الثانى منهما وفقاً للرأى السابق يتكون من فونيمين أولهما صامت والثانى صائت مرذوج .
إذا جمعت هذه الكلمة نطقت odajo ؟ بدون صائت مزدوج ومثلها gabai « شعر » مما يثير عدة تساؤلات :

— لماذا أسقط العنصر الثانى من الصائت المزدوج ؟

— لماذا لم تضف إليه علامة الجمع "jo" ليصبح podaijo ، gabaijo , كما

يحدث مع كلمات منتهية بإصائت مثل dibi – dibiyo, kursi – kursiyo ولن نجد لهذه الأسئلة إجابة إلا إذا افترضنا أن البناء الفونولوجى للمقطع "dai" هو "daj" أى أن المقطع يتكون من صامت فصائت فنصف صائت وبالتالى حين جمع أضيفت اليه اللاحقة "O" فأصبح odajo

يؤكد هذا التصور التعرف على التوزيع الصوتى للواو والياء . وأهم ملامحه أن كلا هذين الصوتين حين يغلق مقطعا لايسبقه سوى واحد من ثلاثة صوائت "a, e, o" أى واحد من الصوائت غير المرتفعة . وهذا هو نفسه بناء مايسمى الصوائت المزدوجة : العنصر الأول صائت غير مرتفع والعنصر الثانى صائت مرتفع . فالواو والياء التاليين للصائت غير المرتفع تحولا فى هذا السياق للصائت المقابل لهما وهو [i] بالنسبة للياء [u] بالنسبة للواو . وهكذا نحكم بأن الـ [i] والـ [u] المنطوقتين ماهما إلا مغايرات صوتية للفونيمين / j / و /w/ على التوالى . ولذلك فكل منهما وان نطق مع الصائت قبله كصائت مزدوج إلا أنه فونولوجيا عبارة عن وحدة صوتية مستقلة عن وحدة الصائت السابق . وقد يؤكد هذا التفسير تعذر وجود تكوينات لمـــا يدعى صوائت مزدوجة غير التى عنصرها الأول غير مرتفع وعنصرها الثانى مرتفع (لايوجد مثلا iu أو uo أو ua الخ) .

وعلى ذلك فان : ei ou oi au ai أبنيـــة سطحية للأبنية العميقة / aj / aw / oj / / ow / ej / على التوالى .

ويمكن وضعها قاعديا على النحو التالى :

قاعدة ١ : ص ———← [+ صائت ، – صائت] – [– صائت ، – معـــاق ، + مرتفع]

قاعدة ٢ : [– صائت ، – معـــاق ، + مرتفع] ———← [+ صائت] / ——— ≠#

تتحدد العلاقة بين الصوامت والصوائت على النحو التالى :

— لايبدأ الصائت مقطعا ولكنه قد يغلقه .

— لابد من وجود الصامت فى بداية المقطع ، وهو قد يغلقه .

— الصائت هو نواة المقطع .

— لايتوالى صامتان فى بداية المقطع ولكنهما قد يتواليان فى نهاية بشروط .

معنى ذلك أن اللغة الصومالية شأنها شأن أخواتها الأفروا أسيوية — تجعل البناء الاساسى للمقطع الصامت فالصائت . هذا البناء الأساسى يمكن توسيعه بما لايخالف القواعد السابقة ليكون خمسة قوالب مقطعية :

م ص   م ص م   م ص :   م ص : م   م ص م م

البناء الرابع — خلافا لنظام اللغة العربية — يمكن أن يقع فى أى مكان من الكلمة بدون شروط . أما البناء الخامس فيكثر تردده فى نهاية الكلمة فى الكلمة فى ظل شروط ثابته : الصامت التالى للصائت إما واو واما ياء .

— وبالتالى فان هذا الصائت لابد أن يكون صائتا غير مرتفع .

— أما الصامت الأخير فى المقطع فيتردد بين واحد من سبعة صوامت هى :

/ب/ /د/ /ج/ /ن/ /ر/ /ل/ /س/

يعبر الشكل التالى عن امكانيات التتابع فى هذا القالب المقطعى

		b
e	w	d
a	j	g
o		n
		l
		r
		s

وتعبر عنها القاعدة :

م ص مم ← [– صائت] { + صائت ، – مرتفع } { – صائت ، + مرتفع ، – معاق } { { – استمرارى ، + مجهور } { + استمرارى ، + طرفى ، – مرتفع } }

أكثر المفردات القاموسية دورانا ثنائية المقاطع تليها الأحادية فالثلاثية . بداخلها تتمتع المقاطع المفتوحة بنسبة تردد عالية تصل إلى حوالى ضعف المقاطع المغلقة . كذلك يميل المقطع الأول فى الكلمة إلى أن يكون مفتوحا قصيرا .

خلاصة البحث

١ — تتكون الصومالية المعاصرة مع اثنين وثلاثين فونيا : اثنين وعشروين صامتا وعشرة صوائت .

٢ — نعتقد أن فونيمين من المخزون الصامتى وهما الـ /ž/ والـ /X/ افترضتهما الصومالية فى مرحلة تالية من اللغة العربية ، وأنهما سدا محوتين كانتا قائمتين فى النظام الصوتى للغة الصومالية .

٣ — توزيع الصوامت على المخارج فيه قدر كبير من التجانس كما أن المخارج تتناثر على طول الممر الصوتى فى شبه توازن :

شفوى	سنى لثوى	مابعد اللثوى	طبقى	مابعد الطبقى	مزمارى
b	*d*/b/t	ž	g/k	q	?
f	s	š	X	؟ / H	h
m	r / l / n	j	w		

٤ — ملمح الدكنة يعمل كصفة مفرقة فى الصومالية ، تقابل بين فونيمين وتتحقق عن طريق استخدام ميكانزم الهواء الحنجرى .

٥ — يستخدم ملمح الجهر كصفة مفرقة ، تقابل بين ثلاثة أزواج من الصوامت فقط وفيما عدا ذلك فهو صفة مصاحبة .

٦ — سبعة صوامت فقط يمكن تضعيفها مكونة حدا مقطعياً داخل هذا التضعيف مما يجعل الجزء الأول من الصامت مغلقاً مقطعا والجزء الثانى منه بادئا مقطعا جديدا . هذه الصوامت هى : r l n g *d* d b

٧ — بعض الصوامت لاتغلق مقطعا إلا إذا كانت الكلمة مقترضة غاليا من لغة أخرى ، وهى š x ž k t m . وعدد مثل هذه الكلمات محدود جداً نسبياً .

(١) الـ / m / فى مثل qumbe تعتبر مغايراً للفونيم / n / وليس الفونيم / m / .

٨ – بعض الصوامت تغلق المقطع ولكن دورانها محدود جداً وهى :
? h j w

٩ – أكثر الصوامت استخداما فى غلق المقاطع هى : r l n

١٠ – إذا اغلقت الواو والياء مقطعا فلا بد أن يكون قبلها صائت غير مرتفع : o e a

١١ – فى بعض اللهجات تتحول الواو أو الياء إلى الصائت المقابل لها – وذلك عندما تغلق المقطع ، بحيث يمكن أن نحكم بان [i] و [u] فى مثل هذا الموقع مغايران لنصف الصائت / w / و / j /

١٢ – يترتب على ذلك رفض الرأى القائل بأن الصومالية تعرف الصائت المزدوج وكل ماينطق كذلك إنما هو صائت يليه صائت آخر عبارة عن مغاير لنصف الصائت / w / و / j /

١٣ – الأبنية المقطعية فى الصومالية هى :

م ص – م ص : – م ص م – م ص : م – م ص مم

١٤ – عندما يحدث البناء المقطعى م ص م فان الصائت يكون متلوا بنصف صائت كذلك فان الصامت الأخير لابد أن يكون واحدا من الاصوات التالية : b d g n l r s

١٥ – تميل اللغة لاستخدام المقاطع المفتوحة وبالذات القصيرة .

أفرو أسيوى	Afro-asiatic
احتكاكى	Fricaiive
استمرارى	Continuant
أطباق	Velarizat'on
التوائى	retroflex
أمامى	front
انزلاقى	gl'de
أنفـى	Nasal
تتابع صامتى	cluster
تحييد	neutralization
تحوير مضاف	additional modification
تدكين	darkening
تضعيف	gemination
تقابل	opposition
توزيع تكاملى	complementary distribution
جانبى	lateral
حد مقطعى	syllabic boundary
حلقى	pharyngeal
حنجرى	glottalic
خلفى	back
دفعى	ejective
رئوى	pulmonic
سامى	semitic
سنى	dental
سنى بينى	interdental
سنى طرفى	apico-dental
سيال	liquid
شفطى	implosive
شفوى	labial
صائت	vowel
– قصير	short
– طويل	long
– مزدوج	diphthong
صامت	consonant
طبقى	velar
– طرفى (نصلى)	coronal
– غارى	palatal
كوشى	cushitic
لثوى	alveola r
لثوى – غارى	Palato-alveolar
لهوى	uvular
متقارب	approximant
مجهور	Voiced
محنجر	Laryngealized
مخرج	point of articulation
مخزون فونيمى	phonemic inventory
مرتفع	high
– نصف مرتفع	mid-high
مركب	Affricate
مزدوج	compound
مزمارى	glottal
معاق	obstruent
مقطع مغلق	closed syllable
مقطع مفتوح	open syllable
مكرر	Trill
ملمح مميز	distinctive fedture
منخفض	low
مهموس	Voiceless
نصف صائت	semi vowel
نصلى	coronal
وحدة صوتية	phoneme
وقفى	Stop

المراجع

1. Armstrong, L. 1964, the phonetic structure of Somali, England.

2. Keenadiid, y. 1976, qaamuuska of soomaaliga, somalia

3. Lodefoged, P. 1971, preliminaries to linguistic phonetics, chicogo and London.

4. Lass, R. 1784, Phonology : an intoduction to basic concepts, cam-bridge.

5. Sommerstein, A. 1977, Modern phonalogy England.

6. Vogt, H. 1954, Language contacts, word: 10: 365—374.

7. Weinreich, U. 1953, Languages in contact, New york.

دراسة صوتية لظاهرة الافتراض من العربية في الصومالية

د. تغريد السيد عنبر

لايكاد يوجد ذلك المجتمع الذى يعيش منفصلا عن غيره من المجتمعات ، لأن الاختلاط ضرورة يحتمها البحث عن حياة أفضل . أضف إلى ذلك عوامل أخرى متعددة تفرض على المجتمع أن يختلط بغيره . ولعل من أهمها وأكثرها طبيعية الموقع الجغرافى : فالمجتمعات المقيمة على شواطىء البحار أو مجارى الأنهار أو على امتداد وسائل الاتصال الصناعية مثل السكك الحديدية ، هذه المجتمعات تكون أكثر من غيرها عرضة للاحتكاك بمجتمعات أخرى . كذلك فان المجتمعات التى تعرضت لغزوات استعمارية عسكرية أو ثقافية يفرض عليها بالقوة مثل هذا الاحتكاك .

ومما لاشك فيه أن الاحتكاك بين مجتمعين يترك بصماته على كليهما وإن اختلف عددها ومقدار عمقها من مجتمع لآخر . إن الاحتكاك بين مجتمعين يتضمن بالضرورة الاحتكاك بين لغتين . وقلما يحدث هذا الاحتكاك الأخير على وجه محايد ، لأن إحدى اللغتين تعتبر أكثر تفوقا من الأخرى . منبع هذا الاعتبار هو شعور أصحاب كلا اللغتين . وهو ينتج عن وقائع مادية تنحصر فى تفوق ثقافى أو اجتماعى أو عسكرى أو اقتصادى لأصحاب إحدى اللغتين . والنتيجة دائماً هى تردد مفردات من اللغة المتفوقة فى استخدام اللغة الاخرى ، وبمقدار عمق الاحتكاك يكون حجم المفردات الواردة .

أما أسباب ترديد مثل هذه المفردات فيرجع أحيانا إلى رغبة المتحدث فى اظهار تفوقه الاجتماعى باستخدام مفردات من اللغة المتفوقة قد يوجد لبعضها مرادف فى لغته الأم وقد لايوجد لبعضها الآخر مرادفات . ويرجع أحيانا إلى واقع الاحتياج الفعلى لاستخدام مفردات تشير إلى أشياء أومضامين أو أفكار غير معروفة فى البيئة وبالتالى تخلو اللغة مما يعبر عنها . وهنا يجد المتحدث نفسه مضطرا لاستخدام الكلمات فى لغتها الأصلية .

أما كيف تؤدى هذه المفردات الواردة فان مراجعة ما يحدث فى الواقع ينبىء بأنها ستؤدى أقرب ما يكون لصورتها الصوتية فى لغتها إذا كان المتحدث متقنا للغة المانحة حريصاً على إظهار ثقافته العالية . ولكن إذا قدر لبعض هذه المفردات أن تتناوله الألسنة وأن يتردد بين فئات مختلفة من المجتمع فان التغير يعرف طريقة تدريجيا إليها ، فى البداية تتغير الأصوات غير الموجودة فى اللغة الآخذة بسبب القصور الفزيولوجى للناطقين بهذه الأصوات كنتيجة للعادات النطقية التى اكتسبوها من نظام لغتهم . ويكون الاتجاه دائما نحو أقرب الأصوات الموجودة فى لغتهم الأم .

فاذا زاد تداول هذه المفردات بحيث أصبح يرددها معظم افراد المجتمع أو المستخدمون لمجال معين فانهم يتجهون تلقائيا إلى مزيد من التعديل فى هذه المفردات الواردة بحيث تخضع تماماً لنظام لغتهم الأم ليس فقط على مستوى الفونيمات وإنما على مستوى بناء المقاطع ونظام التتابعات الفونيمية والمقطعية ونظام النبر أيضاً بالاضافة إلى النظامين الصرفى والدلالى . وهنا يزول الاحساس بغربه هذه الكلمات التى يصل بها الأمر إلى حد أن تصبح جزءا من مخزون المفردات فى هذه اللغة . وهكذا فان منبع مثل هذه الكلمات يكون لغة أخرى ولكن شكلها الخارجى يتغير بحيث يخضع لنظام اللغة الجديدة . وقد يبلغ هذا التغير حدا يجعل من العسير على كثير من الباحثين التعرف على أصلها الأول . هذا النوع من المفردات هو مايسمى «المقترض» .

أحيانا يعمق تأثير اللغة المتفوقة حتى إنه لا يقف عند حد إقراض المفردات بل يقرض أحيانا بعض التعبيرات وبعض الفونيمات . لكن اقتراض الفونيمات لايحدث إلا إذا كان فى النظام الصوتى للغة الآخذة فجوات فارغة تملأها الفونيمات المقترضة .

فى نفس الوقت قد يحدث تأثير فى الاتجاه العكسى ، بمعنى أن تتأثر اللغة المتفوقة باللغة الأخرى . ولكن مثل هذا التأثير يكون ضعيفاً ومحدداً

إذا حدث . إلا أن قيمته تنضوى على ما يؤكده من أن اللغات المحتكة ببعضها البعض تتبادل التأثير .

الواقع أن ظاهرة الاقتراض ظاهرة قديمة قدم اللغات ذاتها ، ولا يكاد يخلو منها أى نظام لغوى سواء كان مجتمعه متقدماً أو ناميا . حتى اللغة العربية قبل ظهور الاسلام عرفت الاقتراض وقبلت مفردات من لغات أخرى . وفى هذا المجال انحصرت دراسة الكلمات المقترضة فى التراث اللغوى العربى وشملت الدراسة تحديد المفردات ذات الأصل غير العربى فى النص القرآنى الكريم .

أما تأثير العربية على غيرها من اللغات فلم يحظ باهتمام اللغويين العرب فى أبحاث التراث ، ولكن هذا الاهتمام تبلور فى العصر الحديث منحصراً فى البداية فى اللغات الاسلامية الشرقية مثل التركية والفارسية والأردية ثم بدأ يتجه فى الآونة الأخيرة إلى اللغات الاسلامية فى أفريقيا .

بين هذه الدراسات كلها تجمع سمة واحدة هى الوقوف عند حد رصد الكلمات ذات الأصل العربى فى هذه اللغات . وإن تعدت ذلك فلا تجاوز مجرد الاشارة إلى بعض أنواع التعديلات الطارئة عليها . صحيح أن البحث اللغوى يبدأ بمرحلة الرصد ولكنه لا يكتفى بها وإنما يتبع ذلك بتحليل منهجى لمـــا رصد بهدف تفسير أسباب التعديلات الطارئة ووضع قواعدها فى ضوء عدة اعتبارات أهمها نظام اللغة المقترضة . أى أن البحث يعالج المفردات المرصودة من وجهة نظر تركيبية لاتقف عند حدود الجزئيات آخذة فى الاعتبار ما يترتب على الاحتكاك بين لغتين من تأثير تحدده إلى جانب العوامل اللغوية بعض العوامل غير اللغوية التى تترك بصماتها على الاستقبال اللغوى خاضعة لقوانين الانتخاب التى لاصلة بينها وبين العشوائية . فالاقتراض ليس بابا مفتوحا على مصراعية حتى فى مجال المفردات وإنما تحكمه علاقة عضوية مع اللغة الآخذة . ولايخفى ما تتطلبه مثل هذه الدراسات فى ظل هذه الاعتبارات من مجهود يزداد حجمه إذا انتمت اللغتان الآخذة والمانحة إلى

أسرة لغوية واحدة . لأن التشابه فيهما لن يكون الاقتراض مصدره الوحيد . إن انتماء اللغتين إلى لغة أصل واحدة من شأنه أن يترك فيهما قدراً من بقاياها يصبح مصدرا للتشابه لاصلة له بالاقتراض ، لأن هذه البقايا قد توجد فى لغتين لم يحدث بينهما أى أتصال وهى مايسمى « المشترك » .

للتفريق بين المشترك وبين « المقترض » اتبعنا منهجا أساسه عنصران : —

(أ) استبعاد المفردات الأساسية فى اللغة ، تلك المفردات التى تنبع من مجتمعها تلبية لظروفه ولاحتياجاته الأساسية ، تنشأ مع النشأة الأولى له ، وتستقر فيه وبالتالى لاتقبل التغيير أو الاستبدال بمفردات أخرى . التشابه فيها مع مفردات اللغة المانحة من قبيل الاشتراك لا الاقتراض .

(ب) مقارنة المفردات الصومالية مع ما توافرت مادته من المفردات فى اللغات الكوشية الأخرى أو باقى اللغات الأفرو أسيوية . وما وجد مشابها للعربية ومتكررا فى أكثر من لغة اعتبر أيضاً مشتركا لا مقترضا ولذلك استبعد من هذه الدراسة .

لقد أنشأ الموقع الجغرافى للصومال صلة قديمة بينها وبين عرب شبه الجزيرة العربية ، صلة ترجع إلى ما قبل ظهور الاسلام وذلك بسبب أعمال التجارة . ثم توطدت هذه الصلة بعد ظهور الاسلام واعتناق معظم سكان الصومال له وحرصهم على فهمه عن طريق تعلم لغته . لقد حظيت اللغة العربية باحترام كبير من جانب الصوماليين ، ولذلك شجعوا انشاء المدارس الدينية التى انتشرت فى جميع ارجاء الصومال لتعلم العربية والتفقه فى أصول الدين . وحفز هذا الوضع كثيراً من المسلمين من شتى البقاع إلى الذهاب إلى الصومال إما للتجارة وإما للعلم وإما للاستيطان . وكان ذلك كله سبباً فى الاحتكاك المستمر بين الصومالية والعربية . كما كان سبباً فى تعدد مصادر الاقتراض ، وهكذا لم يحدث الاقتراض على شكل موجة فى فترة زمنية

مايسمى بالوقف وبالتالى لاتسقط لاحقة التأنيث كما يحدث فى العربية عند الوقف على الكلمات مثل « أمة — مشكلة — رواية . . . الخ » حيث تنتهى الكلمة فعليا بالصائت [ε] .

٣ — يفرض التفريق بين الصوامت الطرفية أخذ العضو السلبى للمخرج فى الاعتبار مما يقسمها فى العربية إلى ثلاث مناطق : —

(أ) صوامت سنية من بينها «ث»

(ب) صوامت لثوية من بينها «س»

(ج) صوامت لثوية حنكية من بينها «ش»

تجمع بين هذه الصوامت جميعها أنها [+ طرفى] ويفرق بين الاحتكاكى منها أن السنى [+ سنى] وأن اللثوى [— سنى / — مرتفع] وأن اللثوى الغارى [+مرتفع]

ويقسمها فى الصومالية إلى منطقتين : —

(أ) صوامت سنية لثوية : من بينها «س»

(ب) صوامت لثوية حنكية من بينها «ش»

تجمع بين هذه الصوامت أنها أيضاً [+ طرفى] ويفرق بين الاحتكاكى منها أن السنى اللثوى [— مرتفع] وأن اللثوى الغارى [+ مرتفع] .

٤ — كل الأصوات الاحتكاكية فى اللغة الصومالية (باستثناء الحلقى) مهموسة بدون مقابل مجهور .

٥ — دخل الصوت [د ج] اللغة الصومالية مع الكلمات المقترضة من العربية وتردد فى كثير من هذه المفردات ، وأدت كثرة تداوله إلى تحوله إلى فونيم داخل النظام الصوتى للغة الصومالية . وهو لايكاد يغلق مقطعا إلا فى عدد محدود من الكلمات كلها مقترضة من العربية ، وكثيرا مايتحول فى هذا الوضع إلى [sh] .

٦ — فى مرحلة تالية زمنيا حدث نفس الشيء بالنسبة للصوت [خ] الذى استقر كجزء من النظام الفونيمى للغة الصومالية .

٧ — يندُر أن يغلق المقطع بواحد من الصوامت : م — ت — ك . وهى أيضاً لاتنهى كلمة .

٨ — إذا انتهى الاسم المؤنث بالصوت [I] فان تعريفه يكون باسقاطه وإضـافة اللاحقـة [sha] . من أمثلـة ذلك ?usha —— ul عصـا hasha —— hal ناقـة .

٩ — الصائت الخلفى المرتفع / u / لاينهى الكلمة فى اللغة الصومالية على عكس ما هو الحال بالنسبة للصائت /0/ الذى يكثر دورانه فى نهاية الكلمة .

على ضوء هذه الحقائق يمكن تفسير معظم التعديلات الطارئة على المفردات العربية المقترضة فى اللغة الصومالية .

الاسم العربى المنتهى بالصائت [a] اعتبر فى الصومالية مؤنثاً ، وسرت عليه قواعد التأنيث فى اللغة الصومالية ، فأضيفت إليه مباشرة اللاحقة [d] أو أسقط صائته الأخير ثم أضيفت اللاحقة [o] :

qaqi:do — qiba:do — hida:jo — fa:dumo — qabi:lad
sija:sad — riwa:jad — za:maqad — darazo — du?o —
zanno — zahannamo — nijo — raqabad — zubad —
rahmad — falsafad — quwad

وقد ترتب على اعتبار الاسم المنتهى بـ (a) مؤنثاً أن أنثت بعض كلمات مذكرة اقترضت من العامية المصرية .

dawa ⟶ dawo   du?a ⟶ duqo   ?awlija ⟶ ?awlijo

ولما كانت الـ [u] لا تنهى كلمة فإن بعض الكلمات التى اقترضت من الفصحى فى حالة الرفع تحولت ضمتها إلى (0) واعتبرت بالتالى مؤنثة حتى لو كانت فى العربية مذكرة :

فهم fahmo — فهرس fahraso — جهنم zahannamo — خمر xamro

كذلك عاملت الصومالية الأسماء المؤنثة تأنيثاً حقيقياً معاملة المؤنث حتى وإن لم تنته بـ [a] : بكر ←— bikrad

نسبة دوران الأسماء المؤنثة باللاحقة (d) أعلى بكثير من نسبة دوران الأسماء المؤنثة باللاحقة (o) . وفي نفس الوقت احتفظت بعض الأسماء لنفسها بصيغتي التأنيث :

فضيحة fade: ho — fade: had

خسارة zasa:ro — zasa:rad

مطبعة madbaqo — madbaad

لغة luqo — Luqad

من واقع مفردات البحث يصعب الادعاء بوجود قاعدة لغوية يتم على أساسها اختيار اللاحقة الدالة على التأنيث . ويبدو أن اختيار اللاحقة مرتبط أساساً بالمجال الدلالي الذي تنتمي إليه الكلمة : فمعظم المفردات المضاف إليها (o) ذات ظلال دينية أو ثقافية : عقيدة — عبادة — هداية — فاطمة (نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء) دعاء — جنة — جهنم — نية — بركة — دواء — فهم — هبة — نصيحة . . .

إن مراجعة صوامت الكلمات المقترضة من العربية تثبت أن الصوامت المشتركة بين اللغتين لم يصبها التغيير إلا نادراً لأسباب مرتبطة بقواعد التتابعات الصامتية في الصومالية أو بالعادات النطقية التي تحددها السياق الصوتي :

(أ) في كلمات مثل su ?a:sa السؤال و baqasa البغلة سقطت اللام تطبيقاً لقواعد تعريف الكلمات المؤنثة المنتهية بلام (رقم ٨) .

(ب) في كلمات مثل Karba:s كرباج و xara:s الخراج تحول الفونيم دج إلى (ش) وفقاً للعادة النطقية المشار إليها سابقاً (رقم ٥) .

(ج) فى الكلمتين tastu:r دستور و santu:q تحولت الدال إلى مقابلها المهموس وهو التاء بسبب سيادة سياق من الصوامت المهموسة ، وذلك حرصاً على التناسق الذى تميل إليه الصومالية سواء بين صوامتها أو صوائتها .

(د) بعض كلمات احتفظت بصورتين صوتيتين وكلها تبدأ بـ « ع » تحولت إلى « ء » وهى ?askari — ?aru:s عرس — ?i:d — عيد . ليس من السهل تفسيرها فى ظل قواعد لغوية لأنه توجد كلمات أخرى مثل — qe:b ?ari:s — qisja:n ويبدو أن الخلاف فى نطقها خلاف لهجى .

وتكاد تنحصر مثل هذه الفروق اللغوية اللهجية فى الصوتين « ع » و « ء »

(هـ) إذا انتهت الكلمة العربية بالتاء فإنها تتحول إلى مقابلها المجهور (د) حينما تقترض فى الصومالية . والسبب واضح وهو رفض النظام الصوتى للغة إغلاق المقطع بـ " t " (رقم ٧) .

وقد كان هذا الرفض هو نفسه سبباً فى تحويل لاحقة التأنيث « t لى « d » .
فى ظل هذا الرفض عدلت كلمات مثل :

qifri:d — qa:d — qu:d — kabri:d — mabsu:d

(و) رفض اللغة إنهاء الكلمة بالصامت الشفوى الأنفى / m / تسبب فى تحولها إلى الصامت الأنفى المقابل [n] qa:dan — qalan — qa:lan

qadi:n — xa:tin — maqdu:n — muslin — ?iala:n — sala:n

(ز) الكاف الواقعة فى آخر الكلمة أو المغلقة مقطعاً تحولت أيضاً لنفس السبب إلى مقابلها المجهور غالباً [g] : higmad حكمة malag ملاك di:g ديك qagsi عكس

فى بعض اللهجات تحولت إلى مقابلها التالى فى المخرج [q] di:q ديك

وفى الاقتراض الحديث تحولت إلى مقابلها الاحتكاكى [x] :
taxtar دكتور فى بعض اللهجات .

معينة وإنما استمر على امتداد حقب زمنية طويلة . كل حقبة لها ميولها واتجاهاتها اللغوية فى كلتا اللغتين .

كذلك كان الاحتكاك بين أجناس مختلفة يتكلم كل منها عربية خاصة . على أن أقوى تأثير كان لعربية شبة الجزيرة والعربية المتحدث بها فى مصر وفى السودان : الفصحى ولهجاتها . ولذلك حدث الاقتراض من العربية الفصحى كما حدث من اللهجات العامية . اقترضت الصومالية مفردات عربية من أجناس مختلفة فى مراحل تاريخية متنوعة .

إن الاقتراض من العربية وإن ضعف كثيرا فى العصر الحديث بسبب احلال اللغتين الايطالية ثم الأنجليزية محل العربية فى هذا المجال — إلا أنه لم يتوقف تماماً . ولعل أهم مصدر للاقتراض فى العصر الحديث هو العربية المستخدمة فى مصر . وكانت أكثر المجالات انتفاعا بالاقتراض المجال التعليمى وسبب ذلك واضح ومعروف .

اعتمدنا فى هذه الدراسة على أداء خمسة من المرشدين اللغويين ثلاثة منهم نشأوا فى العاصمة واثنان فى المنطقة الشمالية من الصومال . وقد أدى ذلك إلى وجود بعض خلافات لهجية أثبتناها ووضعناها فى الاعتبار . ولقد لفت نظرنا أن بعض الكلمات أديت من قبل معظم المرشدين اللغويين وأحيانا من قبلهم جميعاً مخالفة لما جاء فى قاموس الصومالية(١) . عند حدوث مثل هذا الاختلاف عولنا على اداء المرشدين اللغويين .

كذلك لفت نظرنا كثرة الكلمات ذات الأصل العربى فى هذا القاموس . بمراجعتها مع المرشدين اللغويين لاحظنا أن جزءاً غير قليل منها قد اندثر استخدامه وحلت محله كلمات صومالية أو انجليزية ولذلك رأينا أنه من لأجدى الاعتماد على مادة لغوية قوامها أحاديث عفوية متبادلة فى المجالس وتسجيلات من أذاعة مقدشو .

---

(١) Keenadiid, 1976.

بالاضافة إلى مواد صحفية منشورة فى الجريدة الرسمية « نجمة أكتوبر » وكذلك نصوص من بعض الكتب التعليمية وكان هدفنا أن تنصب الدراسة على الكلمات ذات الاستخدام الفعلى فى الصومالية المعاصرة .

تتكون المادة موضوع الدراسة من حوالى خمسة آلاف كلمة ترددت فيها (٩٠٣) كلمة من أصل عربى . أى أن نسبة دوران الكلمات العربية تمثل حوالى ١٨,١٪ من مجموع الكلمات التى استخدمت بالفعل . إلا أن هذه النسبة تختلف باختلاف الموضوع ، فهى ترتفع لتصل إلى حوالى ٢٨,٧٪ إذا كان المجال دينيا بينما تنخفض إلى حوالى ١١,٧٪ إذا كان الموضوع سياسيا وتقل عن ذلك قليلا إذا كان المجال علميا وتتردد فى حدود ١٩٪ إذا كانت الموضوعات اجتماعية أو متصلة بالاستعمال اللغوى فى الحياة اليومية .

إن الكلمات ذات الأصل العربى التى بلغ عددها ٩٠٣ كلمة تمثل فى الواقع ٣٧٠ مفردة عربية يتمتع بعضها بنسبة دوران عالية ، مثل أسماء الأعلام فاطمة وعبد الرحمن وخديجة وحسين وحواء وآدم وزهرة ومحمد وأحمد ومثل بعض المفردات العامة وأخرى ذات الطابع الدينى أو السياسى : الله — رمضان — نبى — وطن — وقت — عيــد — طيارة — دين — سياسة — جمهورية — صلاه — سلام — جامع — حكومة — الدنيا — الأمة — انسان — بركة — دقيق — صحن — عسكرى . . . الخ .

الواقع أن المفردات العربية أقل بكثير فى عددها بالنسبة للمفردات الصومالية الواردة فى النصوص موضوع الدراسة عن عددها فى القاموس بالنسبة للمفردات الصومالية الواردة فيه . والسبب فى ذلك أن عدداً غير قليل من المفردات عربية الأصل الواردة فى القاموس لها وجود نظرى فى المخزون اللغوى ولكن ليس لها استخدام فعلى . يصاحب هذه الظاهرة ويفسرها ظاهرة أخرى هى وجود مرادفات صومالية أو انجليزية أو صومالية وانجليزية لبعض المفردات ذات الأصل العربى .

B n u = Kafe: . armaq = fu:d . da: wa = daro:go

daftar = bu:g = hajsan, qima:mad = Du:b, qara:r = go'a:n,

azu:s = odaj, maqallin = bare, dari:q = zid

mafta:h = fure, qudur = zirro, dembi = ?e:d,

quful = hid, rahmad = nahari:s, raqabad = luqun = qo:r

إن المرادفات الانجليزية دخلت بالتأكيد فى العصر الحديث نتيجة للاستعمار الانجليزى مصدر القوة العسكرية والتفوق الحضارى والثقافى مما جاء به من جديد على البيئة مبهر لها . وكانت النتيجة أن اعتبرت لغته مصدر الالهام فاستعيرت منها بعض المفردات .

أما المفردات الصومالية فقد ذاع استخدامها بعد الاستقلال واتجاه الدولة والأفراد إلى بلورة الشخصية الصومالية بلورة تجسدها صوملة كل جوانب الحياة بما فيها التعليم واللغة . وكانت أهم مظاهر ذلك محاولة التخلص من المفردات غير الصومالية إما باحياء المرادفات الصومالية القديمة التى أوقف الاقتراض استخدامها وإما بنحت كلمات صومالية جديدة . وتكفلت بهذه المهمة المؤسسات الأكاديمية فى الصومال .

ولذلك لم يبق من المفردات المقترضة فى واقع الاستخدام اللغوى إلا ما ذاع وشاع بحيث استقر كجزء أساسى من المخزون القاموسى وأصبح من العسير تغييره ، أو ما يعبر عن مضامين لا وجود لها فى مخزون الصومالية ومن العسير بمكان نحت مرادفات صومالية له . مثل هذه الكلمات ذات الأصل العربى هى الباقية فى اللغة المعاصرة مثل : مركب بمعنى سفينة — تمر بمعنى بلح ، بصل ، حرير ، عنب ، عقيدة ، طيارة ، عفريت ، عرش ، وطن ، بركة . . . . الخ .

لقد بلغت بعض المفردات ذات الأصل العربى من الاستقرار درجة سمحت بأن تتجمع كلمة منها مع مفردة صومالية لتكون تعبيراً أو كلمة جديدة :

ta:f + denbi بمعنى عفو الذنب

qa:daj + kafa:la بمعنى تحمل الكفالة أى « يكفل »

hanag + dab بمعنى سقف الحنك .

فى هذا المجال نلاحظ أن بعض المفردات أجنبية الأصل دخلت الصومالية عن طريق العربية ولذلك اقترضت وفقاً للبنية العربية : ديموقراطى – صهيونية يوليو taxtar بمعنى دكتور .

إن الكلمات المستخدمة بالفعل فى اللغة المعاصرة كانت موضوع دراستنا على المستوى الصوتى . لاحظنا ما نقل مطابقاً لصورتة الصوتية فى العربية ، وما نقل بعد أن أصابه التغيير أيا كان السبب وراء هذا التغيير : صوتى أو صرفى أو صرفصوتى أو دلالى أو عامل غير لغوى . بحيث ينتهى البحث بتقديم الملامح الصوتية لطبيعة الاقتراض فى الصومالية من العربية . ومدى خضوع هذه الملامح للنظام الصوتى للغة الآخذة .

يساعد على توضيح ذلك الحقائق اللغوية التالية عن اللغتين المانحة والآخذة

١ – يتكون المخزون الفونيمى للصومالية المعاصرة من اثنين وعشرين صامتا بالاضافة إلى عشرة صوائت :

م – ف – ب – ن – ل – د – ت – س – ر – ش – ى – ك – ج – d

و – ق – ح – ع – هـ – ء – خ – دج – a – a: – i – i:

u – u: – o – o: – e – e:

٢ – تفرق اللغة الصومالية بين الاسم المذكر والاسم المؤنث . يدل على المؤنث أحد مورفوبين : اللاحقة الصائتية /0/ أو الصامت /t/ ، ذلك الصامت المشترك بين معظم اللغات الأفروأسيوية للتعبير عن المؤنث . ولما كانت « التاء » تلحق بآخر الاسم أى تغلق المقطع الأخير فى الكلمة ، ولما كانت المقاطع لاتغلق بالتاء فى نظام اللغة الصومالية فقد نتج عن ذلك أن تحولت إلى المغاير الصرفصوتى [d] المسبوق غالبا وليس دائماً بالصائت (a) . يلزم هذا المغاير آخر الكلمات المؤنثة بصفة دائمة لأن الصومالية لاتعرف

وبالتالى يمكن أن نجمل التعديلات الطارئة على صوامت الكلمات العربية المقترضة فى الصومالية على النحو الآتى :

١ — الصوامت المشتركة بين اللغتين لم تتغير إلا تحت تأثير الخضوع لقواعد اللغة الصرفصوتية أو لقواعد توزيع الصوامت داخل المقطع .

٢ — الصوامت الخاصة بالعربية تحولت إلى أقرب الأصوات إليها من حيث المخرج والأثر السمعى .

محصلة هذين العاملين تجمعهما القواعد الفونولوجية التالية :

قاعدة ١

[+ صائت ، + منخفض] ← ≠ { [+ صائت ، — منخفض ، — مرتفع ، + خلفى] ، [— استمرارى ، + طرفى ، + مجهور] [١] }

قاعدة ٢

[+ جانبى] ≠ ← [+ مرتفع ، — خلفى ، + نصلى] [+ منخفض ، — صائت]

قاعدة ٣

[+ استمرارى] ≠ ← [+ مرتفع ، — خلفى ، + نصلى]

قاعدة ٤

[+ طرفى ، — استمرارى ، — مجهور] ≠ ← [— مجهور]

قاعدة ٥

[+ انفى ، — طرفى] ≠ ← [+ طرفى]

[− مجهور / + مرتفع / − استمرارى / + حلفى] ←≠ { [+ مجهور] / [− مرتفع] / [+ استمرارى] } قاعدة ٦

[+ معـــاق / + سنى / { + خلفى / + مجهور }] ← [− استمرارى / + طرفى / + مجهور] قاعدة ٧

{ [+ معـــاق / + استمرارى / + طرفى / { [+ سنى / − مجهور] / [− سنى / − مرتفع] }] / [+ طرفى / + خلفى / − سنى] } ← [+ معـــاق / + استمرارى / + طرفى / − مرتفع] قاعدة ٨

[+ معـــاق / + خلفى / − نصلى / + مجهور / + استمرارى / + مرتفع] ← [+ خلفى / − استمرارى / − مرتفع] قاعدة ٩

على مستوى المقاطع عانت بعض الكلمات من عدة أنواع من التعديلات.

(أ) لاتقبل الصومالية تضعيف الصوامت حيث يغلق جزؤها الأول مقطعاً ويبدأ الجزء الثانى مقطعاً جديداً إلا فى عدد محدود منها لا يزيد عن سبعة أصوات : b — d — g — n — l — r — *d*

ولذلك بقيت المفردات ذات الأصل العربى على حالها إذا كان المضعف فيها واحدا من الصوامت السابق ذكرها . وفى غير ذلك أسقط التضعيف وبالتالى تحول بناء المقطع من « م ص م »⟵ م ص ومن « م ص : م » ⟵ م ص م muhim — maqas — ?itiha:d — qitifa:q — tufa:h —

(ب) لاتميل الصومالية إلى إنهاء الكلمة بمقطع بناؤه «م ص : » ولذلك قصر الصائت الأخير فى الكلمات المقترضة من العربية المنتهية بهذا البناء .
mufti mu:si:qa qa:li sa:fi qa:si qa:di saka ⟶ sako fiqi

(ج) لاتميل الصومالية لإنهاء الكلمة بالتتابع "ja(:)" ولذلك أسقطته كاملا من الكلمات المقترضة من العربية أيا كان أصلها اللغوى

?isbitalja ⟶ ?isbital

?addunja: ⟶ ?addun

(د) لما كانت الصومالية لا تنتهى كلمة بالمقطع "ij" من ناحية ، ولما كانت ترفض تضعيف الياء لأنها ليست من الصوامت الثمانية القابلة للتضعيف من ناحية أخرى فقد أسقطت لاحقه ياء النسب ، ولاحقة المصدر الصناعى فى الكلمات قديمة الاقتراض مثل :

?arabi zinni ma:liki mazu:si
masi:hi nasra:ni nebi hanbali weli qazami zundi
buntuq (ijja)

ولكن هذه الميول التى بدأت فى التغير فى العصر الحديث سمحت باستبقاء مثل هذه اللواحق فى الكلمات المقترضة حديثا مع تقصير الصامت المضعف فى كلمات مثل ?istira:kija

(هـ) لمــا كان المقطع « م ص مم » لايأتى إلا فى نهاية الكلمة الصومالية بشرط أن يكون الصامت قبل الاخير واوا أوياء والصامت الاخير واحدا من سبعة صوامت على النحو التالى : —

م — ص — { و / ى } ≠ { ب / د / ج / ن / ل / ر / س }

فأنه لم يبق من الكلمات المقترضة المنتهية بهذا البناء إلا ما اتفق مع القاعدة : kawn zawr zaws xajr xajd

أما ما خالف هذا الشرط فقد عدل بناؤه المقطعى :

١ — فأسقط الصامت الأخير إذا كان همزة أو عينا :

ربع : rubi ⟵ rub — جزء ⟵ zus — شىء ⟵ saj

٢ — فى غير هذه الحالة أضيف صائت إما بين الصامتين الأخيرين وإما إلى نهاية الكلمة والنتيجة دائماً هى تقسيم المقطع إلى مقطعين :

م ص م م ⟵ { م ص — م ص م / م ص م — م ص }

والواقع أنه من العسير العثور على قاعدة لغوية ترجح كفة إحدى الامكانيتين عند تطبيقها على كلمة عربية . أمامنا كلمات متعددة متشابهة لغويا بعضها نقل إلى الصومالية وفقاً للبناء الأول وشبهها نقل وفقاً للبناء الثانى . بل قد نجد للكلمة العربية الواحدة كلا البناء ين معا فى الصومالية . ويبدو أن الأمر متصل بزمن الاقتراض وباللهجة التى أخذ منها :

nafqi	waqdi	lahni	zahli	qabri	hisbi
nafaq	waqad	sahan	?ehel	sabir	xasab

أما لماذا كان التحول إلى الخاء وليس إلى القاف كما حدث فى كلمة "di:q" فتعليله فى اعتقـــادنا أن اقتراض كلمة "di:q" قديم وربما كان سابقاً على استقرار الخاء كفونيم فى داخل النظام الصوتى للصومالية ولذلك كان أقرب مقابل مهموس للكاف هو القاف . ولكن بعد استقرار هذا الفونيم فإنه يصبح الأقرب إلى الكاف ولذلك تحولت إليه فى كلمة taxtar المقترضة حديثاً .

يمكن إجمال هذه التعديلات على النحو التالى :

$a \neq \longrightarrow \left\{ \begin{matrix} 0 \\ ad \end{matrix} \right\}$

$l \neq \longrightarrow sa$

$Z \neq \longrightarrow S$

$t \neq \longrightarrow d$

$m \neq \longrightarrow n$

$k \neq \longrightarrow \left\{ \begin{matrix} g \\ q \\ x \end{matrix} \right\}$

فى العربية ثمانية فونيمات صوامت لا تعرفها الصومالية . وهى المطبقة / ض ط ظ ص / والسنية / ث ذ / واللثوية / ز / والطبيقية / غ / .

لا تعرف الصومالية صفة الاطباق وكذلك لا يستخدم فيها المخرج السنى البينى أما الـ ز والـ غ فلكل منهما مقابل مهموس فى الصومالية وهو الـ س والـ خ التى دخلت النظام الصوتى فى مرحلة تالية . معنى ذلك أن صفة الجهر محيدة فى الاحتكاكيات على عكس الوضع فى العربية ، حيث تقابل بين س ز وبين خ غ . لذلك فمن الطبيعى أن يصيب التغيير هذه الصوامت الثمانية :

(أ) تحولت الضاد إلى لام فى بعض الكلمات — lid (liddi) — mawli
falli — laqi:f

وتحولت إلى دال فى كلمات كثيرة — daru:r — darar — dija:fo
mari:d — xuda:r — fadli — marad

من المعروف أن الضاد العربية القديمة كانت تنطق جانبية ، وبالتالى فإن أقرب صوت لها هو صوت اللام لأنها جانبية أيضاً . ولذلك تحولت الضاد لاما فى بعض اللهجات العربية نفسها .

بناء على ذلك فإننا نعتقد أن الكلمات العربية المقترضة فى الصومالية مما تحولت ضاده لاما قد دخلت فى وقت مبكر عن طريق عرب شبه الجزيرة . وهو إما دخل منطوقاً بالضاد الجانبية التى يصعب أداؤها فتحولت آلياً لأقرب الأصوات إليها وهو اللام وإما دخل منطوقاً لاما عن طريق بعض العرب المنتمين لتلك اللهجات العربية التى قلبت الضاد لاما .

لأن الاقتراض فى الفترات الزمنية التالية أو من مصادر أخرى مثل العربية المنطوقة فى مصر كان لكلمات نطقت فيها الضاد سنية وسطية وقفية فقد كان تحولها إلى أقرب الأصوات إليها وهو الدال :

$$d \longrightarrow \left\{ \begin{matrix} d \\ l \end{matrix} \right\}$$

(ب) تحولت الـ /ط/ إلى /ت/ فى عدد محدود جداً من الكلمات :

xatar — xati:r — tarbu:s

وتحولت إلى /د/ فى أغلب الكلمات :

wadane dab?an daju:rad dalab da:qu:n
da:qo dabqi xad xalad dala:q dati:q sa:qid
dabaq sandad sajda:n da:hir

فى ظل هذه الأمثلة يمكن أن نحكم بأن تحول الطاء إلى دال له حكم القاعدة المطردة وأن تحولها إلى تاء حدث فى الكلمتين الأوليين بسبب الخاء المهموسة أما الكلمة الثالثة فواضح من معناها أنها مقترضة حديثاً . وبالتالى فملامح القاعدة أن $t \longrightarrow d$

(ج) تحولت الـ /ظ/ بدون استثناءات إلى دال :

duru:f munadamad waqdi nada:fo
nadar dulmi nida:m muda:hara:t

(د) تحولت الـ /ص/ إلى /س/ بدون استثناءات :

nasi:b sadaqo raxi:s isja:n xa:s
fursad xa:lis musi:bo rasa:s sahju:nija sa:fi

(هـ) تحولت الـ /ذ/ بدون استثناءات إلى /د/ :

qada:b danbi dulli qa:da:n qadrad
qudur dahab madhab muqaddin

(و) تحولت الـ /ث/ إلى /س/

masal baxsi hadi:s sulus isni:n sala:sa

أما تحولها إلى /ت/ فقد حدث فى عدد محدود من المفردات مثل :

toon tala:da

والواقع أنه ليس تحويلا للـ /ث/ وإنما هو أداء مطابق لكلمات مقترضة من العامية : توم – تلات التى تحولت ثاؤها إلى دال لوقوعها فى آخر الكلمة ثم بكثرة التداول أضيف إليها الصائت (a) خلطاً بينها وبين الكلمة تلاتة .

مما يسمح بالادعاء بأن الكلمة العربية المنطوق فيها صوت الثاء تحول فيها إلى /س/ بدون استثناء عندما اقترضت فى الصومالية .

(ز) تحولت الـ /ز/ إلى سين بدون استثناءات : z ——→ s

qa:zis zasi:rad qazu:s risqi sa fata:n
sari:bad wasa:rad xisbi qasi:s mi:sa:nijad
xasnad sejtu:n mu:s xansi:r sinzibi:l

(ح) تحولت الـ /غ/ إلى /q/ فى معظم الكلمات المقترضة :

baqal luqad maqrib qa:li istiqfa:r saqi:r
suqul qalad qasab

لكل من الكلمتين الأخيرتين صورة أدائية أخرى هى :

xalad xasab

تفسير هذه الظاهرة أن الغين تحولت إلى أقرب مخرج مهموس تالى لها فكان القاف . حدث ذلك فى المرحلة السابقة على دخول الفونيم /خ / كعضو فى النظام الصوتى للصومالية . فلما دخل هذا الفونيم أصبح أكثر قرباً للفونيم /غ / من أى فونيم آخر ولذلك تحولت إليه بعض الكلمات حديثة الاقتراض نسبياً ومع ذلك لم تهمل صورتها الأولى :

(ط) كذلك وردت بعض الكلمات المحتوية على الصوت /خ / محولا إلى /ق / :

qami̇:r   qusu:qid   raqi:s   qədi:ga

جميع هذه الكلمات لها صورة أدائية أخرى تحتفظ بصوت الخاء باستثناء كلمة "qədi:ga" نسبة إلى السيدة خديجة رضى الله عنها . مما يؤكد أن هذه الصورة الأدائية هى الأقدم وأنها استخدمت قبل استقرار الخاء كفونيم . فلما استقرت – وبحكم استمرار الاحتكاك بالعربية أى القرب من منبع الاقتراض – أعيد أداء المفردات على صورتها الأصلية فى العربية .

ويبدو أن ملاحظة أصحاب اللغة للتحول السابق فى الخاء العربية إلى قاف وأن شدة حرصهم على القرب من الأصل أدى إلى تحويل القاف فى بعض الكلمات العربية إلى خاء . ولعل هذا يفسر وجود كلمات محدودة تحمل الصورتين مثل :

qara:r — buntuq — maqa:me — santu:q
xara:r — buntux — maxa:me — santu:x

فى ضوء هذا التحليل يمكن أن نجمل تعديلات الصوامت الخاصة بالعربية فيما يلى :

ض —————— ل
ط
ظ   د
ذ
ص
ث   س
ز
غ —————— ق

لقـــد لاحظنا أن الصائت المضاف إلى آخر الكلمة فى البنـــاء cvc—cv هو الصائت / i / غالباً :

wahji	ra'ji	qaqli	fuhsi	dabqi	faqri	risqi
zinsi	hirsi	miski	waqti	qarsi	xalqi	kufri

ولايشذ عن ذلك إلا حالتان :

إذا اعتبرت الكلمة مؤنثة أبدل صائتها بـ / o / مثل : xamro
إذا انتهت الكلمة بالصـوت / w / أبدل الصائت / i / بـ / e / لان الكلمة لاتنتهى بالتتابع / wi / فى الصومالية ، ولذلك تحولت .

nahwi ⟶ nahwe

الكلمات التى تحول مقطعها الطويل إلى البناء cvc — ci تتردد صوائتها بين a , i , وتخلو تماماً من أحد الصائتين e أو o باستثناء الحالتين السابق الإشارة إليهما .

إذا تحول بناء المقطع إلى م ص — م ص م فإن الصائت المضاف يطابق غالباً الصائت السابق عليه ولا يستثنى من ذلك غير عدد محدود من الكلمات مثـل : zebin لأن الصومالية تعرف بالفعـل الكلمة zibin ومعناها صغر والكلمة sabir حيث تعرف الصومالية كلمة sabar وهكذا . .

أما الصائت الأول فيحدده غالباً صورته فى اللغة المانحة :

quful — qudur — suqul — milix — siqir — sihir
?amar — baqal — qasad — sadar — arah — samaq

وبذلك يمكن تلخيص التغييرات الطارئة على المفردات ذات الأصل العربى وفقاً لقواعد بناء المقاطع وتتابعات الصوامت داخلها فى الصومالية على النحو التالى :

قاعدة رقم ١٠ $cvcc \not\# \longrightarrow \left\{ \begin{matrix} cvc - ci \\ cv_1 - cv_1c \end{matrix} \right\}$

قاعدة رقم ١١ $c_1 - c_1 \longrightarrow - c_1$

قاعدة رقم ١٢ $cv: \not\# \longrightarrow cv \not\#$

قاعدة رقم ١٣ — ja(:) ≠ →

قاعدة رقم ١٤ — + ij (ja) ≠ →

وهكذا يمكن تلخيص موقف الكلمات ذات الأصل العربي المقترضة في الصومالية على النحو التالي من الناحية الصوتية :

١ — استمر الاحتكاك بين العربية والصومالية فترات زمنية طويلة مما نتج عنه تعدد مصادر ومستويات الاقتراض وبالتالي اختلاف الأبنية الأبنية الصوتية للكلمات المقترضة وفقاً لنظام الفصحى ولهجاتها .

٢ — أيا كان البناء الصوتي للكلمة المقترضة فإنه خضع لأربع عشرة قاعدة صوتية تمثل ميولا صوتية للغة الصومالية تحرص على توفرها فيما استقر في مخزونها القاموسي من مفردات .

ما لم يخالف هذه القواعد من المفردات المقترضة دخل اللغة دون تغيير ، وما خالفها عدل وفقا لها .

٣ — بعض هذه القواعد تحددها عوامل صرفية (قاعدة ١ ، ٢)

وبعضها تحددها قوانين توزيع الصوامت داخل المقطع (٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦)

وبعضها يحددها خلو اللغة من أصوات معينة (٧ ، ٨ ، ٩) .

وبعضها يحددها قواعد بناء المقطع (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤)

٤ — حدثت تغييرات أخرى محدودة جداً من حيث الكم يصعب تفسيرها في ظل هذه القواعد المشار إليها ، ويبدو أن سببها اما عامل دلالي كما في الكلمتين sabir, zebin أو عامل خاص باللهجة الصومالية التي تلقت الكلمة لأول مرة . ولكن مثل هذا الشذوذ إن صح التعبير يمثل حالات قليلة جداً .

المراجـــع

1 — Burling, R. (1970). Man's many voices. New Yor .

2 — Chicago Linguistic Society (Publ.). Papers from the parasession on natural phonology. Chica o.

3 — Filipovic, R. (1982). Phonologization and Activation of latent phonemes in linguistic borrowing. J.I.P.A., vol. 12, No. 1.

4 — Keenadiid.y.C. (1976). qaamuuska af — soomaaliga, Mogadishu.

5 — S'aid, M. (1967). Lexical innovation through borrowing in modern standard Arabic, Princeton University.

6 — Sommerstein, A.H. (1977). Modern Phonolog/. U.S.A.

7 — Vogt, H. (1954), Language contacts''. word 10.

8— Weinreich . U. (1953). Languages in Contact, New York.

د. توفيق الحسينى عبــده
معهد البحوث والدراسات الافريقية

البيئة ، الطعام ، الحياة الاجتماعية

(بحث انثروبولوجى فى المجتمع الصومالى)

مقـدمة

اهتمت الدراسات الانثروبولوجية الحديثة بالعلاقة بين لظروف البيئية السائدة فى مجتمع ما ، ومدى ما توفره من موارد طبيعية تصلح كغذاء للسكان • وقد تركز اهتمام الانثربولوجيين الاجتماعيين على اكتشاف النظم الاجتماعية والعــادات والتقاليد التى تساعد الناس على التكييف للظروف والعوامل البيئية المواتية ، وكيفية التغلب على الظروف والاوضاع المناوئة • وقد اصبحت العلاقة بين الانسان والبيئة المحيطة فى أى مجتمع انسانى ـ وهو ما يسمى بالايكولوجيا ـ تتمثل فى توفير مقومات الحياة الاساسية ـ وهى المسكن والملبس والماكل ـ واستخلاصها من البيئة مهما تعددت واختلفت الطرق والوسائل •

وتعد المجتمعات الافريقية من أوضح الامثلة التى تظهر العلاقة بين البيئة والطعام المتوفر فيها والنظم الاجتماعية السائدة فى تلك المجتمعات • وقد اكتشف الانثروبولوجيون المهتمون بمشــكلات الطعام والتغذية فى البيئات الافريقية ، كيف أن الطعام لا يعد العنصر الضرورى للحياة فحسب، بل يدخل ايضا فى الدين والممارسات الشعائرية للقبائل الافريقية كما ان انتاج الطعام لا يعد نشاط فردى من جانب الرجل فقط بل أنه نشــاط جماعى لكل افراد العائلة تبعا لنظام دقيق فى العمل •

ودراستنا للمجتمع الصومالى هى اسهام متواضع لالقاء الضوء على هذه العلاقات المتبادلة بين الانسان وبيئته وطعامه ونظمه الاجتماعية كمثال لأحد شعوب القرن الافريقى •

اولا : الظروف البيئية :

يطلق اصطلاح القرن الافريقى على ذلك الجزء البارز على شكل قرن من أفريقية الشرقية والذى يحده من الشرق الجزء الجنوبى من البحر الاحمر وخليج عدن والمحيط الهندى الى حوالى ٢° جنوبا ••• ومن الناحية السياسية يتألف القرن من اثيوبيا التى تشغل هضبة عالية مع ما يحيطها من اراضى اقل ارتفاعا وشريط ساحلى ضيق ، وجيبوتى التى تضم قبائل العفار والعيسى والتى كانت تعرف من قبل باسم الصومال الفرنسى • واريتريا التى كانت مستعمرة ايطالية واصبحت جزءا من اثيوبيا • كما يضم القرن ايضا جمهورية الصومال التى تكونت نتيجة اتحاد الصومال البريطانى والصومال الايطالى (١) •

وتقع جمهورية الصومال فى أقصى شرق القرن الافريقى وعلى الساحل المطل على المحيط الهندى ، بينما يطل الساحل الشمالى للصومال على خليج عدن ، اما من ناحية الغرب فتقع اثيوبيا ، وعلى امتداد ساحل المحيط الهندى جنوبا تقع كينيا •

ولقد كان لهذه الحدود السياسية مشكلات واضحة على الشعب الصومالى أدت الى تبعثر افراده مكانيا فى عدد من التجمعات القبلية وزاد من تباعدها اجتماعيا خضوع كل منها فى الفترة الاستعمارية الى اكثر من دولة أوروبية ذات ثقافة وسياسة مغايرة ، مما كان له اكبر الاثر على البناء الاجتماعى الصومالى •

وقد اضاف العامل البيئى بعدا أعمق اثرا على شعب الصومال ، وأدت الظروف الطبيعية المواتية حينا ، والمناوئة احيانا كثيرة الى عدم استقرار الغالبية العظمى منهم فى مقرات سكنية او قرى دائمة ، فمعظم الاقليم عبارة عن هضبة متراوحة الارتفاع ، ولا يصلح للزراعة الا الأجزاء الواقعة عند الوديان وعلى ضفاف الانهار •

واهم المجارى المائية ثلاثة انهار هى نوجال فى اقليم ميجورتين فى الشمال ونهر شبيلى فى الوسط ونهر جوبا فى الجنوب ، وتجرى كلها فى مجار متوازية متخذة اتجاها جنوبيا شرقيا نحو المحيط الهندى ، ولا يصب منها فى المحيط الا نهر جوبا وهو غير صالح للملاحة ، ويصب عند ميناء قسمايو • اما نهر شبيلى فلا يصل الى المحيط رغم اتساع حوضه اتساعا

كبيرا ، اذ يمتد بعد ١٢ ميلا من الساحل خط من الكثبان يضطر النهر الى الجريان جنوبا باتجاه هذه الكثبان مسافة ١٧٠ ميلا بموازاة الساحل ، ثم يتلاشى النهر فى مستنقعات بالى قبل بلوغه مصب نهر جوبا ، الذى تجف المياه فيه فترة اربعة اشهر من السنة • هذا وتتوفر المياه الباطنية فى بعض الجهات الداخلية مثل الجهات الغربية من اقليم اوجادين وشمال بورانا •

ويمتاز الاقليم بوجه عام بارتفاع درجة حرارته التى تزيد فى الهضبة عنها فى الاجزاء الساحلية بحوالى عشر درجات • ويلاحظ ان سواحل الصومال المطلة على خليج عدن وكذلك السواحل على المحيط الهندى صحراوية لان امطارها قليلة ، اذ لا تزيد فى المتوسط عن خمس بوصات فى السنة ، اما الهضاب العالية التى تمتد خلف هذه السواحل وتضم مرتفعات منطقة اوجادين فتسقط بها امطار متوسطة قد تصل الى عشرين بوصة نظرا لارتفاعها وعلى هذا لا يمكن اعتبارها منطقة صحراوية • وقد تسقط بعض الامطار الشتوية على السواحل المطلة على خليج عدن وذلك بتأثير الرياح التجارية الشمالية الشرقية التى تتزود ببعض الأبخرة اثناء عبورها خليج عدن •

وسواحل الصومال جافة بصفة عامة لان اتجاهها بين الشمال الشرقى والجنوب الغربى هو نفس الاتجاه الذى تتبعه الرياح الموسمية فى هبوبها الصيفى نحو اسيا والشتوى نحو افريقيا فلا تستطيع ان تسقط على هذه السواحل امطارا تضاريسية • وتساعد امطار الهضبة على وجود بعض المراعى التى ترعاها الماشية والاغنام والماعز والابل • ولا تنتشر الزراعة وحياة الاستقرار الا فى الاجزاء الجنوبية حول مجارى الانهار مثل نهرى جوبا وشبيلى حيث تتوفر المياه •

وتنقسم جمهورية الصومال الى الأقاليم الجغرافية (٢) الآتية :

١ ــ السهول الساحلية :

تقع هذه السهول فى الاقاليم السفلى من البلاد وتمتد الى خليج عدن والمحيط الهندى والسهول الساحلية الشمالية شديدة الحرارة والجفاف وتعرف باسم (جوبان) اى المحروقة بالشمس • وتضيق السهول الساحلية عند نقطة تبعد نحو ١٣٠ كيلو مترا الى الغرب من زيلع ، وترتفع من البحر فتبلغ اطراف سلسلة جبال جوليس على مسافة نحو ٩٠٠ تمر •

وفى محازاة المحيط الهندى يبدأ السهل الساحلى على بعد ١٦٠ كيلو مترا الى الجنوب من مقديشيو وتمتد مسافة ١٦ كيلومتر .

٢ ــ جبال جوليس :

وهى عبارة عن سلسلة جبلية تعرف باسم جوليس أو « اوجو » اى الاراضى المرتفعة وهى امتداد لجبال هرر الشرقية ويقع افقيا فى محازاة عليج عدن وتتلاشى قرب رأس جاردفوى .

٣ ــ منطقة الحوض :

وهى منطقة جرداء جافة تشكل جزءا من البر الصومالى الاكبر ، وكانت تعرف سابقا بارض جوبا وتنحدر هذه المنطقة من الجانب الشمالى لجبال جوليس ومن القسم الجنوبى الشرقى لجبال هرر .

٤ ــ وادى نجال :

وهو واد منخفض يبلغ متوسط ارتفاعه عن سطح البحر نحو ٣٦٠ مترا وبه جبال صغيرة يبلغ ارتفاعها ٩٠٠ متر كجبل عانود (جبل اللبن) الواقع قرب عدن ، والمواجه شرقا لمنطقة الحوض الى الشمال من مدج ويخترق الوادى نهرا دارود ونجال .

٥ ــ منطقة مدج :

وهى منطقة جافة يحدها الى الجنوب من نيجال نهر شبيلى والى الغرب السهل الساحلى .

٦ ــ سهل جوبا :

وهو سهل مترامى الاطراف يقع فى المناطق التى يخترقها نهر شبيلى ، واراضيه تشبه اراضى الحوض حيث تشكل فى الواقع امتدادا جنوبيا لها .

وقد كان لهذه الظروف البيئية اثر واضح على الحياة الاجتماعية لشعب الصومال ، ويبدو اثر البيئة واضحا فى كل الحياة الثقافية للناس وفيما توارثوه من نظم اجتماعية وثقافية تتجلى مظاهرها فى القيم والعادات التى تعارفوا عليها واصبحت جزءا اساسيا من بنائهم الاجتماعى ، وحيث ان تلك البيئة بمواردها المحدودة تعتمد اعتمادا كليا على ما تجود به الطبيعة وبخاصة بهطول الامطار ، فقد اصبح الشغل الشاغل للناس هناك

هو توفير الطعام اللازم لغذاء الانسان والحيوان واى نقص فى كمية المطر أو ندرته يهدد الحياة البشرية والحيوانية والنباتية بالقحط والمجاعة حينا والفناء حينا آخر • واية ذلك ما تمر به منطقة القرن الافريقى الان من ظروف طبيعية واجتماعية غير مواتية واضطرار السكان فى اثيوبيا البلد المجاور الى الهجرة شمالا الى حدود السودان بعد ان استحالت الحياة على ارض جدباء لا يتوفر بها الحد الادنى من الطعام والماء وانعـدمت الامطار لسنوات متعاقبة وادى ذلك الى موت عدد كبير من السكان سواء فى مواطنهم الاصـلية أو خلال هجرتهم الى المواطن الاخرى سـيرا على الاقدام فى مجاعة اهتز لها ضمير العالم وبادر بتقديم المعونات والمساعدات لهذا الاقليم المنكوب •

ثانيا : الحياة الاجتماعية :

يتألف المجتمع الصومالى (٣) من عدة قبائل ذات أصول عرقية متجانسة لا تتحدر من سلف مشترك ويسودها تنظيم اجتماعى يسود فيه الانتماء القبلى بشكل يتصف احيانا بالشدة والتعصب وبخاصة فى المواقف التى تحتاج الى تساند وتعاضد افراد القبيلة فى مواجهة القبائل الأخرى • وقد نشأ هذا التعارض القبلى اساسا بسبب التصارع والتنافس على الاستئثار بالاراضى والمراعى (اتحاد قبلى من القبائل الرئيسية) • عوامل الانتماء ورغم ما يسود القبائل من تنازع للاستئثار بالاراضى والمراعى ، الا أن هناك نوعا من التالف بينهما يظهر بصورة أو باخرى فى المـواقف التى تتطلب هذا التآلف والوفاق وأبرز اشكال هذا التالف تبدو واضحة فى المناسبات القومية المختلفة التى يشارك فيها كل افراد الشعب الصومالى بمختلف طوائفه وقبائله وكذلك ايضا يبدو التآلف والتناغم واضحا فى المواقف السياسية المختلفة عندما يتهدد الوطن خطر خارجى وكذلك يتحد ابناء الوطن جميعا فى مواجهة المستعمر او الغاصـب وآية ذلك وقوف الشعب الصومالى صفا واحدا فى مواجهة اثيوبيا الجارة الملصيقة بسبب التنازع على منطقة اوجادين التى تسكنها غالبية صومالية الأصل والنسب •

وهناك قلة من الاجانب تعيش فى الصومال ويسكنون المدن وبخاصة العاصمة وهم من الايطاليين ونسبة اقل من الاجانب الاخرين مثل الهنود والباكستانيين • هذا ويمكن تقسـيم الصـومال الى خمس مجموعات رئيسية تتفرع كل منها الى عدة فروع وبطون وهى :

١ ــ قبيلة الدارود :

يرجع أصل هذه القبيلة الى الجماعات العربية التى هاجرت من جنوب شبة جزيرة العرب وتتركز أركانها فى منطقة ميجورتين والاجزاء الشمالية من مديرية مدق وتنتشر بعض فروعها فى جوبا السفلى فى الجنوب هـذا عدا بعض العناصر التى تقطن اجزاء من الصومال الكينى ومنطقة اوجادين وبين فروع هذه القبيلة المريحان وبنى عيسى • وتعتبر قبيلة الدارود فى مقدمة القبائل الكثيرة التنقل ، اذ تنتشر فى منطقة اوجادين وفى الجهات الواقعة فيما وراء نهر جوبا وقد اسفر هذا التنقل عن صدام عنيف بين قبيلة الدارود وتلك القبائل التى تحالفت فيما بينها من اجل حماية المراعى والارض الصالحة للزراعة من غارات قبائل الدارود ، كما كانت الاجزاء الجنوبية من مديرية ميجورتين وشمال مديرية مدق مثار نزاع شديد بين قبيلة الدارود وقبيلة الهاوية •

٢ ــ قبيلة الهاوية :

يتركز أفراد هذه القبيلة فى الاجزاء الواقعة بين نهرى شيبلى وشمال مدينة هوبيا على الساحل ، ممتده بعرض الاقليم تقريبا ، وتشمل مديرية هران والاجزاء الجنوبية من مديرية مدق وبعض اجزاء من مديرية بنادر ، ومن فروعها قبائل الابجال وهير جدر •

٣ ــ قبيلة الدر :

وهى عبارة عن جماعات صغيرة تتركز حول مركا على الساحل قرب مقديشيو وتوجد بعض جماعات من الدر حول ميناء قسمايو والجنوب ، كما تنتشر بعض جماعاتها على حدود اقليم اوجادين •

هذا ويبلغ عدد افراد قبيلة الدارود والهاوية والدر حوالى ٥٧٠ر٠٠٠ نسمة وهى جماعات رعوية متنقلة ونصف متنقلة وتشتغل بتربية الابل والاغنام والماعز التى تمدهم باللبن والجلود واللحوم •

ولهذه القبائل الرعوية الثلاث منزلة بين الصـوماليين نظرا لشرف الاصل الذى يدعى بانه يرجع بهم الى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ولانهم ينتسبون اصلا الى القبائل العربية التى قدمت من شبة الجزيرة العربية فى القرن الثانى عشر الميلادى •

٤ ــ قبيلة الرحانوين :

تعيش فى الجهات الخصبية الواقعة بين نهرى شيبلى وجوبا ، ويشتغل افرادها بالزراعة وتربية الماشية ، وقد حدث اختلاط وتزاوج بينهم وبين الجماعات المنتشرة فى الاجزاء الجنوبية . وكانت هذه القبيلة فى الماضى تضم عناصر رعوية متنقلة زحفت بالتدريج الى مواطنها الحالية واشتغلت بالزراعة وتربية الحيوانات . وقد تركت جماعات كثيرة منهم تربية الابل الى رعى الماشية فى وطنهم الجديد ، رغم ما للابل من مكانة ممتازة لدى الصوماليين . ومن فروع هذه القبيلة قبائل دجله ومريفلة .

٥ ــ قبيلة التونى :

تتركز فى الجهات الواقعة حول قسمايو وبراوة ، كما تعيش بعض جماعات منها حول مركا وتشير القصص المأثورة الى انهم نشأوا فى بادىء الامر حول هرر التى اغتصبتها اثيوبيا وقد استقروا فى صوماليا منذ عدة قرون ، وعملهم الرئيسى هو الرعى ولو ان بعضهم يشتغل بالتجارة .

ويقدر عدد افراد قبائل الرحانوين والتونى بحوالى ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة .

ويعيش فى الصومال بجانب القبائل الرئيسية السابقة بعض جماعات مثل الباتتو والساب والباجونى والعرب ، بالاضافة الى بعض الاجانب الذين يسكنون المدن الرئيسية مثل الهنود والباكستانيون والايطاليون وغيرهم .

ويتصف التنظيم الاجتماعى لقبائل الصومال بالبساطة وهو لا يتعدى النمط التقليدى للقرابة الدموية ، اذ تنقسم كل قبيلة الى عدد من العشائر والبطون ، ويرأس كل قبيلة زعيم محلى يلقب بالسلطان ، ويتولى رئاسة العشائر اكبر اعضائها سنا ، وتنقسم كل عشيرة الى عدد من العائلات التى تنقسم بدورها الى عدد كبير من الاسر .

وهناك تناظر واضح بين التنظيم الاجتماعى للقبائل والاقاليم التى تسكنها . اذ تتوزع العشائر على رقعة واسعة من الارض داخل ارض القبيلة نفسها .

ويسود المجتمع الصومالى على عكس كثير من المجتمعات الشرقية نظام الزواج الاغترابى أو الاكسوجامى ، وهو يقضى بان يتزوج الفرد من

خارج قبيلته • حيث لا يفضــل افراد المجتمع الزواج من ابناء أو بنات العمومة كما لا يفضل الزواج من داخل القبيلة أو العشيرة وهو ما يعرف بالزواج الداخــلى أو الاندوجــامى ، ويرى النــاس ان هــذا الزواج الاكسوجامى يحقق عدة وظائف سياسية واقتصادية واجتماعية :

فعلى المستوى السياسى يؤدى التصاهر بين قبيلتين الى تحالفهما ضد اراضى المراعى ، وهذا فى حد ذاته يوفر الحماية والامن لافراد العائلات الاعداء الخارجيين كما يقلل من احتمالات الصراع والتنازع بينهما على أراضى المراعى ، وهذا فى حد ذاته يوفر الحماية والأمن لأفراد العائلات والقبائل خلال غياب اعضائها الرعاة عندما يرحلون بعيدا عن اوطانهم بحثا عن المراعى الخضراء التى يتوفر بها قدر كاف لاطــعام ماشــيتهم • ومن مجموع القبائل المتصاهرة عن طريق الزواج الاكســوجامى تتكون جبهة سياسية متحدة تضم الاف الافراد فى اقليم او منطقة معينة تستطيع ان تقوم بدور فعال فى الضبط الاجتماعى وهو ما لا تســتطيع ان تقوم به عائلة بمفردها أو حتى قبيلة بعينها •

اما على المستوى الاقتصادى فان التصاهر بين قبيلتين يعــد امتدادا للاراضى والمــراعى التى يملكها كل منهما ، وتبدو اهمية هــذه الوظيفة الاجتماعية فى البيئات الرعوية اكثر منها فى اى بيئة اخرى ، ذلك انه اذا حدث جدب او قحط فى منطقة معينة فلابد ان يرحل سكانها خارج هذه المنطقة الى منطقة اخرى • فاذا كان الفرد متزوجا من نفس قبيلته فلن يجد اصهارا يلجأ اليهم ، اما اذا كان متزوجا من قبيلة أخرى فانه يجد أمامه فرص أفضل للنجاة بقطيع ابله ومواشيه خارج أرض قبيلته التى اصابها الجفاف أو قلت بها الامطار • واول الاماكن التى يفكر فى الرحيل اليها هى ارض اصهاره ، وعلى هؤلاء الاصهار ان يستقبلوه وافراد عائلته ، ويكرم وفادتهم والا اعتبر ذلك عارا عليهم •

وعندما يصيب القحط او يقل الطعام أو ينفذ المخزون عند احد الرعاه فكثيرا ما يرسل زوجته الى اهلها لكى يمده بالمساعدة والطعام اللازم ، وهذه عادة متبعة بين افراد القبائل المتصاهرة ، بل ان اصهاره يغضبون منه اذا لجأ الى طلب المعونة أو الطعام من احد غيرهم • وهو بدوره يقوم بنفس الدور عندما يطلب منه تقديم المساعدة التى يحتاجها اصهاره وتعد هذه الوظيفة الاجتماعية فى الزواج الاكسوجامى بمثابة تامين اقتصادى

ضد الكوارث والنكبات التى غالبا ما تصيب هـذه المجتمعات الرعوية وتعرضها للمجاعة والقحط بين الحين والآخر •

وعلى المستوى الاجتماعى فان افراد المجتمع الرعـوى قد نما اليهم الادراك بان الزواج من نفس القبيلة يؤدى الى اضعاف النسل واصابته بكثير من الامراض ، وقد لاحظ الرعوى ذلك بمتابعته المستمرة للقطيع ، ولذلك يختار لناقاته عند تلقيحها جملا قويا من قطيع آخر ومن قبيلة اخرى حتى يضمن نسلا قويا صـحيحا خاليا من الامراض ، وكانه يطبق مبدأ التزاوج الاكسوجامى حتى على الحيوان • وينظر افراد المجتمع الى ابناء وبنات العم على أنهم اخوه وأخوات ولذلك يحرمون التزاوج بينهم ، ويعتقدون ان الزواج من بنات العم لا يضيف شيئا جديدا أو دما جديدا الى العائلة • كما ان الزواج من داخل القبيلة له مخاطره على العـلاقات القرابية القائمة بين اعضائها ، فلو حدث خلاف بين الزوجين وادى ذلك لوقوع الطلاق فقد يحدث تفكك فى محيط القبيلة يؤدى بدوره الى شقاق وخصام بين اعضائها ويضعف من تماسكها ووحدتها فى مواجهة الجماعات الاخرى المواجهة لها ، وهذا ما لا يرضاه افراد العائلة وكذلك كل اعضاء القبيلة •

وحرصا من المجتمع على ابقاء العـلاقات الاجتمـاعية بين القبيلتين المتصاهرتين اكسوجاميا ، قائمة ومستمرة فى تحقيق الوظائف الاساسية من هذا الزواج ، فان هذه العلاقات الصهرية تستمر طوال حياة الزوج وحتى بعد وفاته ، ذلك ان الارملة فى المجتمع الصومالى اذا توفى زوجها فعلى أهل الزوج المتوفى أن يبحثوا عن شخص قريب للزوج لكى يتزوج هذه الاملة ويتكفل بها وباولادها من زوجها الاول • وهناك قاعدة لزواج الارملة حيث يفضل اخوة الزوج غـير المتزوجين أولا فاذا لم يوجد اخوة غـير متزوجين فيختارون اى أخ متزوج بواحدة ، فاذا لم يتوفر فاحد ابناء الاعمام وهكذا • والفكرة الرئيسية فى ابقاء الارملة فى كنف ورعاية أهل الزوج هى انها لو تزوجت من خارج القبيلة فقد يتربى اولادها فى كنف قبيلة معادية وعندما يكبرون قد يشتركون فى حرب أو نزاع ضد قبيلتهم دون أن يدروا ، لذلك يرى المجتمع أن أخوة الزوج المتوفى أحق من غيرهم بهذه الأرملة التى تزوجت أحد رجالهم ودفع فيها مهرا اشتركت معظم القبيلة فى دفعه وجمعه •

ثالثا : الاقتصاد ومصادر الطعام (٤) :

تحدد الظروف الطبيعية والبيئية السائدة فى المجتمع الصومالى كمية ونوعية الطعام المتاح وعلى الثروة الحيوانية والنباتية يعتمد الاقتصـاد الصومالى سواء فى جانبه المعيشى أو النقدى .

لذلك يأتى معظم الطعام بطريقة مباشرة وغـير مباشرة من الارض . وتبلغ مساحة اراضى البلاد نحو ٦٣٧٥٦٠٠٠ هكتارا ويمكن تصنيفها على النحو التالى :

١ ــ الاراضى الصالحة للزراعة : وتبلغ نحو ٨١٥٠٠٠٠ هكتارا (١٣٪)

٢ ــ الاراضى الصالحة للرعى : وتبلغ نحو ٢٨٨٥٠٠٠٠ هكتارا (٤٥٪)

٣ ــ الاراضى القاحلة : وتبلغ نحو ٢٦٧٥٦٠٠٠ هكتارا (٤٢٪)

ورغم ان مساحة الاراضى تعتبر كبيرة بالنسبة لعدد السكان ،الا ان الانتاجية تعد ضعيفة اذا قورنت بالمستويات المعمول بها . ومع ان الاراضى الصالحة للزراعة تبلغ هذا الحد الا ان ما يزرع حاليا لا يتعدى نحـو ٧٠٠٠٠٠ هكتارا ، وتقع معظم تلك الاراضى فى الوديان وحول ضفافه الانهـار .

وهناك عدة اسباب وراء ضآلة الانتاج الزراعى كما وكيفا منها :

(أ) قلة عدد الافراد المقادرين على العمل بالزراعة ، والترفع عن اتخاذ الزراعة مهنة دائمة ، وتفضيل حرفة الرعى عليها .

(ب) الظروف الطبيعية المناوئة التى تهـدد المزارع دائمـا كالآفات الزراعية والجواد والحيوانات الضارة .

(جـ) عدم اتباع الطرق الحديثة فى الرى والصرف وعـدم العنـاية بتسميد الارض وانتقاء البذور الجيدة .

(د) ضآلة روءس الاموال المستثمرة فى الزراعة وبخاصة فى الاراضى المستغلة لانتاج الغلات المغيشية .

واهم المحاصيل الزراعية المعيشية هى القمح والذرة والارز والتمور ، ويعتمد السكان عليها اعتمادا رئيسيا فى طعامهم .

اما الموز فيعد من المحاصيل الزراعية النقدية ولا يستهلك منه محليا الا نحو ٣٠٪ من الانتاج الكلى ، ويصدر الباقى الى الخارج للحصول على العملات الصعبة اللازمة لتغطية مشتريات الصومال من السلع والمواد المستوردة من الخارج ، واهم مناطق زراعة الموز هى الاراضى الخصبة المنشرة على ضفاف نهرى جوبا وشيبلى (٥) •

كما يزرع القطن فى مساحات محدوده عندما تتوفر مياه كافية لزراعته ، ويستفاد من عصر بذرته فى استخراج زيت الطعام واعلاف الماشية •

وتأتى الثروة الحيوانية على رأس قائمة النشاط الاقتصادى بجانبيه المعيشى والنقدى ، اذ تشكل الثروة الحيوانية ومنتجاتها نحو ٧٥٪ من جملة صادرات الصومال الى العالم الخارجى ، وعلى هذا المصدر الغذائى الهام يعيش نحو ٨٠٪ من السكان ، ويحترفون الرعى ويفضلونه عن غيره من المهن مهما صادفهم فى سبيل ذلك من صعاب ، وقد تضطرهم حياة البداوة الى التنقل والترحال بعيدا عن مواطنهم مسافات بعيده بحثا عن الماء والكلاء لقطعانهم ، وبخاصة عندما يقل المطر او يكاد ، وتبلغ الكارثة اقصاها عندما تتكرر فترات الجفاف كما حدث الان •

وتتألف الثروة الحيوانية من الابل والماشية والاغنام والماعز • ويحتل راعى الابل اعلى منزلة اجتماعية فى المجتمع الصومالى ، مثل تلك التى يحتلها راعى الماشية فى مجتمعات شرق افريقيا كالناندى وفى جنوب السودان كالدنكا والشيلوك والنوير ، ومثل تلك المكانة المرموقة التى يحظى بها راعى الاغنام فى المجتمع البدوى الصحراوى فى مصر •

وتعد كلمة ابل (جيل) باللغة الصومالية لها معنى ومدلول غير عادى عند الناس هناك ينزلونها منزلة التقديس والاحترام ولها هيبة ورهبة ويشعر بها كل من يدرك طبيعة الحياة الاجتماعية فى البادية • وليس لقيمتها المادية المتمثلة فى أن الابل تعد اعلى واغلى ثروة ، أو انها مصدر غذائى هام فقط ، بل لان الابل تعد ايضا رمزا للكرامة والشجاعة والرشاقة والجمال ايضا • ويفخر راعى الابل بحرفته نظرا لما تضفيه عليه من صفات حميدة كالشجاعة والصبر والاخلاص والجلد وتحمله الصعاب •

وحيث ان راعى الابل يعتنى بقطيع كبير يتراوح بين ٢٠٠ ــ ٣٠٠ جمل وناقة وفصيل فى وقت واحد ، فلا يستطيع تحمل هذه التبعة الا الرجال

الاقوياء الاشداءالذين تمرسوا علىهذا العمل منذالصغر • لذلك لايسمح للرجال المسنين أو النساء بمرافقة الرعاة أو الخروج معهم ، بل ان هذا الامر يتعلق بالشبان الاقوياء ويقتصر عليهم وتصبح الابل هى شـغلهم الشـاغل ينسـجون حولها الحكايات والقصص ويتغزلون فى ملامحهـا ويتغنون بها فى اشعارهم طوال فترة تجوالهم بها تاركين الاهل والاوطان •

تقسيم العمل بين الجنسين :

يقوم الرجال بالرحلات الاستطلاعية قبل ان تنتقل الاسرة من مقرها القديم الى مقرها الجديد لطلب الكلأ ، وعلى الرجال قيادة موكب الاسرة عند الترحال ، وتحصين المساكن بالاشجار الشـوكية واجراء التعديلات والترميمات المناسبة فى حظائر الحيوانات والمساكن بصفة دورية • وهذا النوع من المساكن منتشر فى البوادى وقد اعتاد الناس الا يحرقوه اذا رحلوا عنه ، فربما انتفع به غيرهم ، ولا يخالف احد هـذا التقليد ومن اختصاص الرجال ايضا تفقد قطعان الضأن والماعز والماشية التى ترعـاها البنات والاولاد اذ ان وظيفة الرجال الأساسية هى رعى الابل والسير بها مسافات بعيدة بحثا عن الماء والكلأ •

اما النساء فيقمن بحلب الماشية مرة فى الصـباح ومرة فى المسـاء ، واعداد طعام الافطار والعشاء وفى بعض الحالات رعى الضـأن والماعز والاهتمام بشئون المساكن وتزويد البنات والابناء بالماء واللبن الرائب ونقل الامتعة على ظهور الجمال فى ايام الرحيل واعـادة بناء الاكواخ من جديد على ما كانت عليه قبل النقل •

وتقوم البنات والاولاد برعى الضأن والماعز وصغار الماشية والتجول بها فى اماكن تتوفر بها نباتات واعشاب خضراء بشرط الا تبعد كثيرا عن المساكن ، وعليهم عند العودة فى المساء التأكد من اعداد الدواب كاملة •

وطعام الفرد الصومالى يحتوى على المواد الغـذائية الضرورية لبناء الجسم واهمها المواد البروتينية مثل لحـوم الحيوانات كالابل والماشـية والغنم والماعز • وتشرب ألبانها طازجة ويستفاد من منتجاتها كاللبن الرائب والجبن والزبد •

اما المواد النشوية كالارز والقمح والشعير والذرة فهى لا تشـكل

نسبة كبيرة فى غذاء الصوماليين وتؤكل مع اللحوم والمواد الاخرى لتوفير الطاقة اللازمة للقيام بالوظائف الحيوية ٠

وتشكل الخضر والفاكهة نسبة أقل فى الغذاء اليومى المألوف ٠ وعادة لا يقبل الرعاه على تناولها لاعتقادهم انها لا تفيد الجسم فلا بديل عن اللحوم ومشتقاتها كغذاء للرجال سواء فى حلهم أو ترحالهم ، اما سكان المدن والزراع فانهم يأكلون الخضر والفاكهة بالاضافة الى مواد الغذاء الاخرى ٠

وبجانب المواد الغذائية الطازجة التى يتناولها الصوماليون فى طعامهم واهمها اللحوم وحرصا منهم على توفرها على مدار السنة أو عند الحاجة اليها فى اوقات الشدة فقد ابتكروا طريقتين للمحافظة عليها لأطول فترة ممكنة :

(أ) التجفيف :

حيث يقسم اللحم الى شرائح ويترك فى الهواء ليجف تحت أشعة الشمس فترة تتراوح بين يومين الى ثلاثة أيام حسب درجة الحرارة ، ثم يخزن فى أوعية ويحفظ لآجال طويلة ٠ ويستعين الرجال بهذا اللحم المجفف ليتزودوا به اثناء رحيلهم فى البوادى ويحفظونه فى قرب مصنوعة من جلد الحيوان ٠

(ب) التقديد :

تقوم النساء بتقيطع اللحم الى قطع صغيرة ، وتنشر على مصاف لتجف تماما تحت أشعة الشمس حتى يصير قديدا ٠ ثم يقلى الدهن الحيوانى ويوضع فى اناء ليضاف اليه اللحم المقدد بحيث يغطى الدهن كل اللحم الموجود بالاناء ، ويقال ان هذه الطريقة فى حفظ الطعام يمكن ان تستمر سنة كاملة اذا لم يفتح الاناء بين الحين والاخر ٠

رابعا : عادات اجتماعية متصلة بالطعام :

لكل شعب من الشعوب عاداته وتقاليده فى الحياه اليومية المعتادة ، ومن هذه العادات والتقاليد ما يتصل منها بالطعام وطرق اعداده وتقديمه ، ولما كان الطعام يشكل جزءا من الحياة الثقافية الكلية فانه فى الواقع

يكشف لنا عن التنظيم الاجتماعى السائد عند جماعة من الناس ، ويحدد لنا المراكز الاجتماعية لافراد الاسرة .

وحيث ان المجتمع الصومالى مجتمع أبوى فلنا أن نتوقـع ان تكون السيادة فيه للذكور دون الاناث . ورغم ان النساء يقمن باعداد الطعام وطهوه ، فيجب عليهن تقديمه للرجال اولا ويأكل معهم الابناء حتى اذا فرغ الرجال من الاكل تأكل النساء ومعهن البنات بعد ذلك . وهـذه قاعدة متبعة فى البيت الصومالى بصفة عامة وبخاصة فى القرى والبوادى .

ومن آداب ترك الطعام للنساء الا تعود الأوانى اليهن وهى فارغـة تماما ، بل لابد ان يبقى الرجال بعض من الطعام للنساء والبنات اذ تقضى العادة الا يأتى الرجال على كل الطعام المقدم لهم ، بل يأخذ فى الحسبان باقى افراد الاسرة .

وتمتد قاعدة التوزيع الطعامى بحسب الجنس والمكـانة الاجتمـاعية لتشمل ليس فقط لحوم الحيوانات بل أيضا تشمل الالبان المستخرجة منها أيضا ، فرعاة الابل وهم من الرجال الاشـداء يأنفون شرب حليب البقر والغنم والماعز ويتركونه لتشربه النساء ، ويفضلون شرب حليب النوق ويعتبرونه غذاء كاملا يعيشون عليه عدة أشهر دون أن يتناولوا طعاما آخر .

وعندما تقوم النساء بطهو الطعام فى الخلاء فلا يسـتحب للرجل ان يعاونهن أو يساعدهن فى أى أمر يتعلق بالطهى ولا أن يقترب من مكان الطهو كلية ، لان ذلك فى الواقع يقلل من مكانته وهيبته .

كما يوزع العمل بين الجنسين فى المناشط الاقتصادية ، فان الطعام يوزع ايضا بين الجنسين تبعا لهذه القاعدة وهنا يرتبط الطعام بالمكـانة الاجتماعية للرجل والمرأة فى المجتمع الصومالى . اذ يأكل الرجل اجزاء معينة من لحم الحيوان المقدم له كطعام وهى الأنواع الممتازة الجيدة ، بينما يترك الاجزاء الاخرى لتأكلها النساء وهى اجزاء اقل نوعية وجودة مثل الرأس والرقبة والكبد والكلاوى والارجل والمخ فهذه الاجزاء تعد كلها من نصيب الاناث ، بالاضافة الى ما يتعمد الرجال تركه فى الاوانى بعد تناولهم للوجبة .

ويدرك افراد المجتمع القيمة الاجتماعية لكل جزء من اجزاء لحـم

الحيوان عندما يقدم له كطعام . ولذلك يتبعون قاعدة التوزيع الطعامى بين الجنسين بكل دقة • وتعد اهانة بالغة للرجل ان يقدم له طعام يحتوى على اجزاء مما تأكله النساء عادة . حتى ولو كان ضيفا يحل على الاسرة •

وتجتمع الاسرة لتناول الطعام مرتين يوميا بصفة رئيسية ، فى الصباح (صوباح) تتكون وجبة الافطار من اللحم المجفف (سولاى) واللبن . اما وجبة العشـاء (هابين) فتتم فى المسـاء ، وتتكون من اللحم واللبن واحيانا يأكل البلح المقلى فى السمن مع اللبن أو الشاى •

وتعد المواسم والاعياد الدينية فرصة سانحة لالتقاء الاهل والاقارب حول وليمة يقيمها شيخ العائلة أو العشيرة حيث تنحر الذبائح لاطعام الضيوف والمدعوين . ويدعى رجال الدين (علما) لتلاوة القرآن وترديد الدعوات والتضرع الى الله ان يديم الخير والبركة والرخـاء على القرية واهلها وان يحميها من خطر الجدب والمجاعة •

وتقام الولائم عادة عند وفاة أحد الاعيان . عند اذن تنحر الذبائح لاعداد وليمة الحداد (أحن) ويقوم القراء بتلاوة آيات من الذكر الحكيم ويدعون للمتوفى بالرحمة . ويقدم الطعام للمعزيين اللذين يأتون من اماكن مختلفة . ثم يشرب الشاى وينصرف المعزون الى قراهم وبلدانهم •

كما يدعى الناس أيضا لتناول الطعام فى مناسبات اجتماعية مختلفة كحلول ضيف عزيز على العائلة او شفاء احد افراد من مرض عضال آلم به • واذا رزق احدهم بمولود ذكر فانه يقيم تكريم له وليمة كبرى يدعى اليها الاهل والجيران •

ويتهادى افراد المجتمع فى ما بينهم بمواد غذائية فى مناسبات مختلفة وأشهر هذه الهـدايا مايسمى حيرو اذ تقدم عائـلة العروس هـدية كبيرة من الطعام فى ليلة الزفاف الى اهل العريس وهذه الهدية عبارة عن شكل مجسم للفتاة نفسها وتمثلها رمزيا ، وتكون على اكمل واجمل زينة . اذ تلف بعدد من الملابس وتربط بحبل طويل وبه عقد كثيرة وعلى اهل العريس ان يجتهدوا فى حل هذه العقد حتى يصلوا الى الطعـام الذى بداخلها ، وهذه العملية تستغرق وقتا طويلا وسط دعابات المدعوين ،فاذانجح

اهل العريس فى فك الحيرو فان لهم الحق فى اخذ العروس نفسها . وبعد ذلك يجتمع المدعوين حول الطعام ويأكلون فى بهجة وفرحة .

وتبين كل هذه العادات والتقاليد كيفية تبادل الطعام والتهادى به من خلال الحياة الاجتماعية العادية ، واصطناع المناسبات والاحتفالات التى يكون الطعام عنصرا فيها . كما يتمكن الافراد والجماعات من تبادل المواد الغذائية كهدايا أو عادة عرفية تختلف باختلاف المناسبات ، بالاضافة الى وظيفتها الاجتماعية الاساسية وهى توطيد اواصر العلاقات المتبادلة بين الجماعات .

الخاتمـة

مما سبق يتبين الى أى حد تلعب الظروف البيئية والطبيعية فى تحديد المقومات الاساسية للحياة فى المجتمـع الصـومالى ، وكيف ان الطبيعة الصحراوية السائدة فى معظم الاقليم ، قد ادت الى حصر مساحات الاراضى التى يمكن ان تستغل فى الزراعة وذلك نتيجة لقلة الامطار الساقطة على الاقليم ، مما لا يسمح بقيام حياة زراعية مستديمة توفر القدر الادنى من الاستقرار للسكان . كما ان خلو الاقليم من الموارد الطبيعية المعدنية ثم يسمح بقيام صناعات استخراجية أو تحويلية تعوض النقص الواضـح فى سبل الحياة الاخرى .

مما حدد مجالات النشاط الاقتصـادى للسكان وقصرها على حرفة الرعى مع القليل من الزراعة ، وعلى هذين العنصرين من النشاط يستخلص السكان مقومات حياتهم من بيئة تجود حينا فيسـعد الناس ويسرحون وتضن حينا آخر فيشقى الناس ويتعرضون للقحط والفاقة .

وهنا تلعب النظم الاجتماعية الدور الهام للمساعدة على تكيف الناس للظروف والاوضاع الطبيعية المتغيرة ، فيما يسود المجتمع من نظم تلائم هذه الظروف مثل نظام الزواج الاكسوجامى الذى يوفر للفرد واسرته الحماية والأمن ، ويلحقه بجماعات سياسية أكبر من القبيلة ، ويمده بموارد اقتصادية اضافية واحتياطية يلجأ اليها عند الحاجة ، كما يؤدى الى ربط الفرد بحلفاء جدد ويوسع دائرة العلاقات القرابية ، وبذلك يجد العون والمساعدة فى حالات القحط أو الازمات .

وتقوم العادات والتقاليد بتنظيم استخدام الطعام وتحدد طرق توزيعه على أفراد الاسرة . وقد تبين ان انتاجه ليس نشاطا فرديا من جانب الرجل بل تشارك النساء والاولاد فى انتاجه ايضا تبعا لنظام دقيق لتقسيم العمل بين الجنسين . وهكذا ترتبط البيئة والطعام والنظم الاجتماعية فى علاقة بنائية متبادلة تلقى الضوء على حياة شعب من شعوبنا العربية فى القطر الصومالى الشقيق واحد اقطار القرن الافريقى .

المراجـع

1. JARRETT. HR. : Africa, Macdonale & Evans Ltd 3 Edition London

٢ ـ محمد عبد المنعم يونس : الصومال
دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٢

٣ ـ سعيد جوليد : يوميات صومالية
مطبعة عدن ـ ١٩٦٩

٤ ـ الصومال الجميلة : مطبوعات حكومة الصومال
مقديشيو ١٩٨٠

٥ ـ التقدم الاقتصادى فى الصومال: مطبوعات حكومة الصومال
مقديشيو ١٩٨٠

البناء الصرفي للغتين العربية والسواحلية ــ دراسة تقابلية (١)

د. جعفر نايف عبابنة

هدف البحث :

ان المتتبع لما كتب فى العربية عن اللغة السواحلية ونحوها .. لا يكاد يظفر الا بشيء هين قليل ، لا يشفى الغليل .. على الرغم من أن صلات تاريخية وثيقة قد قامت فى الماضي بين اللغتين ، وأن اللغة السواحلية هي أهم اللغات الأفريقية الوطنية على الاطلاق ، وأكثرها انتشارا .

ولذلك أردت أن يكون هذا البحث مساهمة متواضعة فى هذا السبيل .

وهو يعرض فكرة موجزة عن التركيب الصرفى لكل من اللغتين ، ويحصر أوجه التشابه والاختلاف بينهما فى هذا الجانب .. مما نرجو أن يكون له قيمة عملية فى تعلم اللغتين وتعليمهما .

الأرومة اللغوية :

تنتمى اللغة العربية ــ كما هو معروف ــ الى مجموعة اللغات السامية ، وتتميز هذه اللغات من الناحية الصرفية بأنها لغات اشتقاقية ، ومعنى ذلك أنه يمكن تحليل الكلمات المشتقة الى جذور (أو مواد أصلية) والى صيغ (أو بنى) محددة .

والجذر هو مجموعة من الصوامت (Consonants) تحمل معنى لغويا عاما يشترك فيه أفراد العائلة الاشتقاقية الواحدة . والصيغة هى امتداد من خانات محددة لحروف الجذر ، وللصوائت (pure vowels) طويلها وقصيرها ، وللزوائد الاشتقاقية ، ان وجدت . واختلاف الصيغ يؤدى الى اختلافات فى أقسام الكلام عامها وخاصها ، وفى المعانى المعجمية التى يمكن أن تؤديها الكلمات (٢) .

---

(١) سأكتفى فى الاشارة الى المراجع المختلفة بذكر اسم المؤلف وذلك حفاظا على رشاقة الاحالات ، وسأقدم اسماء الكتب نفسها مع معلومات النشر كاملة فى نهاية البحث .

(٢) انظر Sabatino Moscati ، ص : ٧١ ــ ٧٥ .

وتنتمى اللغة السواحلية الى مجموعة لغات البانتو الأفريقية (١) ؛ وتتميز هذه اللغات من الناحية الصرفية بأن الأسماء فيها تصنف فى أقسام أو أجناس ((classes) معينة يتميز كل منها بنوع السوابق (prefixes) التى يتضمنها .

وهذه السوابق توجد فى كل الأسماء تقريبا ، مفردة كانت أو مجموعة ، وهى أساس الربط بين أجزاء الجمل وعماد علاقات المطابقة أو الموافقة (agreement) بين أقسامها المختلفة (٢) .

نعم ، لقد تعرضت السواحلية لتأثيرات أجنبية كبيرة فى مفرداتها وأصواتها وتركيب مقاطعها (٣) ولم يعد للنبر فيها أى قوة تمييزية بين المعانى ، ربما بسبب من تلك التأثيرات (٤) لكن السواحلية — من حيث السمات الصرفية البحت — بقيت لغة بانتوية أصلية (٥) .

البناء الصرفى فى العربية :

يمكن تحليل معظم الكلمات العربية الى عنصرين أساسيين هما الجذر والصيغة (٦) .

---

(١) أنظر John Lyons ، ص : ٢٢ ؛ و Wm. E.Welmers, ، ص : ٧ ، H.M. Batibo ، ص : ٣٠ . وانظر فى تفصيلات تصنيف اللغات الأفريقية Pierre Alexandre ، صص : ٦٢ — ٧٢ .

(٢) أنظر Alexandre ، ص : ٣٩ Welmers . صص : ١٥٩ — ١٨٣ .

(٣) انظر Welmers ، صص : ٧ — ٨ ، و Batibo ، صص : ٣١ — ٣٤ .

(٤) انظر Welmers ، ص : ٧ غير أن النبر فى السواحلية له موضع محدد ، فهو يقع دائما على الصائت قبل الأخير (انظر Welmers ، ص : ٢٥) . ومن المعلوم أن من أهم الصفات التى تتميز بها اللغات البانتوية التى تحدرت منها السواحلية — كونها لغات نبرية

(٥) انظر Alexandre ، ص : ٣٩ ، و Batibo . ص : ٣٥ .

(٦) يستحيل أن يقوم أى من هذين العنصرين بنفسه ، فهما متلاحمان لا ينفصمان ولا ينفصلان وعزلنا لهذين العنصرين انما هو عزل تعسفى يجرى لغايات التحليل اللغوى وتبسيط المسائل فحسب .

فالجذر هو هيكل صامتى ذو ترتيب ثابت لا يتغير ، ويفيد معنى لغويا عاما يشترك فيه كل أفراد العائلة الاشتقاقية الواحدة •

وأما الصيغة فهى تتابع من مواقع محددة لكل من حروف الجذر ، وحركات (طويلة أو قصيرة) مخصوصة تختلف من صيغة الى أخرى • وقد تحتوى الصيغة على مواضع محددة لزوائد اشتقاقية معينة • ومن اختلافات مواقع حروف العلة ومواقع الزوائد الاشتقاقية (ان وجدت) تنتج صيغ مختلفة هى ما يسمى أنواع المشتقات •

فلو أخذنا مثلا الجذر √ ك•ت•ب وغيرنا من نوع الحركات وكميتها وفى نوع الزوائد الاشتقاقية لكان لنا من ذلك كله الأمثلة التالية كتب وكتب وأكتب واستكتب وكتابة ومكاتبة واكتاب واستكتاب واكتتاب ومكتبة وكتاب وكتب ومكتب وكتاب ••• الخ •

والتحليل الى جذر وصيغة ينطبق على الأسماء والأفعال على حد سواء •• غير أن الأسماء تختلف عن الأفعال فى كيفية توزيع الصوائت فيها (Vowel configurations) وفى نوع الزوائد التى تتضمنها (من سوابق prefixes ولواحق suffixes وحشو infixes) •

وحتى الكلمات الجامدة (١) فى العربية يمكن أن تحلل هى الأخرى الى جذر وصيغة اذا صغرت أو جمعت جمع تكسير أو اتخذ منها أفعال ؛ لأنها بهذه التصريفات من تصغير وجمع وغيرهما يصبح لها كالكلمات المشتقة أصلا عائلات اشتقاقية ، وان كانت قدرتها على الانتاج (productivity) فى بعض الأحيان محدودة •

ولا تنحصر قدرة اللغة العربية على الاشتقاق واثراء معجمها اللغوى

---

(١) لا نعنى هنا الأدوات (Functors) التى هى قائمة مغلقة (closed list) لا يمكن التغيير فيها أو الاضافة اليها ولا تخرج عن كونها بنى جامدة تستعصى على التحليل الى جذور وصيغ •

فى تغيير تتابعات الصوائت أو كميتها واضافة الزوائد الاشتقاقية (١) •• بل هى قادرة أيضا على اشتقاق الكلمات عن طريق اضافة بعض اللواحق ، كما فى اشتقاق الاسم المؤنث (فى بعض صوره) وفى التثنية والجمع السالم •

ومن وسائل اللغة العربية الأخرى فى اثراء معجمها اللغوى النقل المجازى ، ومن أمثلته فى اللغة العربية كلمة « عين » وما تدل عليه من معان قد تربو على العشرين •

البناء الصرفى فى السواحلية :

تتألف الأسماء فى السواحلية عادة من بنى جامدة (roots) تتصدرها (٢) سوابق ((prefixes)) معينة تدل على قسم أو جنس ينتمى اليه الاسم ((noun class) •

وهذه السوابق الخاصة بكل جنس من الأجناس قد تختلف صورتها فى الاسم المفرد عن صورتها فى الاسم المجموع ، لكن يظل هناك ارتباط وتقابل بين سوابق المفرد وسوابق الجمع فى كل جنس من الأجناس •

وتوجد فى السواحلية ستة أجناس من هذا القبيل على الأقل (١) • لكن اذا اعتبرنا كل سابقة فى نفسها على حدة دون نظر الى افراد أو جمع ، وكذلك وجودها فى الجمع وحده أو فى المفرد وحده قفز العدد الى خمسة عشر (٢) •

---

(١) ثمة نوعان من الزوائد فى العربية : زوائد اشتقاقية وزوائد اعرابية ، أما الزوائد الاعرابية فهى التى لا يخل حذفها بمعنى الكلمة ولا يغير قسم الكلام العام أو الخاص ، وأما الزوائد الاشتقاقية فهى التى يؤدى حذفها الى انطماس معالم الكلمة وانعدام المعنى فيها . ومثال الزائدة الاعرابية تاء التأنيث فى قولنا : معلمة ـ فلو حذفنا تلك التاء لبقيت الكلمة اسما ذا معنى ، ومثال الاشتقاقية هو السابقة م ـ فى قولنا مدرسة ، اذ لو حذفت تلك الزائدة لضاعت هوية الكلمة ، ولم يبق لها معنى معجمى .

(٢) انظر Welmers ، ص : ١٦٠ .

(٣) أنظر Lyons صص : ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٤) أنظر Welmers صص : ١٦٢ ـ ١٦٣ ، وانظر كذلك صص : ٣٩ ـ ٤٠ .

ومن أشهر تلك الأجناس ما تتضمنه الأمثلة التالية :

m-tu	رجل	wa-tu	رجال
m-toto	طفل	wa-toto	أطفال
ki-ti	كرسى	vi-ti	كراسى
ki-bande	كوخ	vi-bande	أكواخ
m-ti	شجرة	mi-ti	أشجار
m-kono	ذراع	mi-kono	أذرع
tofali	(١) آجرة	ma-tofali	آجر
ndizi	(٢) موزة	ndizi	موز
u-bao	لوح خشب	m-bao	(٣) ألواح خشب
u-moja	وحدة		
u-zee	كبر السن		

(١) يلاحظ أنه فى مثل هذه الكلمة لا توجد سابقة ، غير أن السابقة أذ تظهر فى مثل هذا النوع من الكلمات التى تتألف من جـذور وحيدة المقطع ، والسابقة ــ اذ تظهر فى الكلمات التى تبدأ جذورها بصائت (أنظر Welmers ص : ١٦١) .

(٢) يمكن القول ان السابقة فى مثل هذه الكلمات قد حيدت فصارت الكلمة نفسها تدل على الافراد والجمع فى الوقت ذاته . (قارن هذا بكلمة الفلك فى اللغة العربية) . على أن السابقة فى مثل هذه الأحوال ليست ذات صورة ثابتة بل تتغير حسب البيئة الصوتية (انظر Welmers ، ص : ١٦١) .

(٣) ان السابقة هنا ليست ثابتة أيضا ويكون لها هيئات مختلفة بفعل العوامل الصوتية المحيطة (انظر Welmers ، ص : ١٦١) .

وليس مستبعدا الافتراض هنا أن بعض هـذه الأجنـاس مبنى على تقسيمات طبيعية تحاكى ما هو موجود فى الواقع •

فمثلا نجد أن السابقة ــ m فى المفرد التى تطابق ــ wa فى الجمع تشير الى جنس يجمع أفراده عنصر أو ملمح معنوى عام هو شخص «أو» « بشر » ، ونجد أن السابقة ــ u تدل على اسم معنوى (مجرد) •

وسوابق الأجناس تتكرر هى نفسها ، أو ما يتطابق معها فى الصفات وكل العناصر الاسمية (مثل الأعداد (١) وأسماء الاشارة (٢) التى تعتمد على الاسم الظاهر فى الجملة (أى المبتـدأ) ، وكذلك فى الفعـل الذى يخبر به عنه •

غير أن علامات الموافقة فى الفعل قد تختلف من حيث صورتها عـن السوابق التى تحدد الأجناس (٣) •

---

(١) عن الأعداد وكيفية موافقتها أنظر Welmers ، ص : ٢٧١ ، ٢٧٧ •

(٢) أنظر Welmers ، ص‌ص : ٢٨٧ ــ ٢٨٨ ، ١٧٢ ــ ١٧٥ • على أن علامة الموافقة فى أسماء الاشارة قد تكون لاحقة لا سـابقة اذا كانت تلك الأسماء تشير الى ما هو قريب (أنظر Welmers ، ص : ٢٨٧) •

(٣) انظر Lyons ، ص : ٢٨٥ ، Alexandre ، ص ٤١ ، وفى الواقع ان كل السوابق وعلامات الموافقة قد تخضع لتغييرات أو يكون لها بدائل أخرى بتأثير البيئات الصوتية المختلفة (انظر Welmers ص : ٦٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٩ ، ٤١٣ ، وفى صورة خاصة ص‌ص : ١٦٩ ــ ١٧١) •

أمثـلة : m-zuri m-ti الشجرة الجميلة

جميلة شجرة

u-le m-zuri m-ti تلك الشجرة الجميلة

تلك جميلة شجرة

i-le mi-zuri mi-ti تلك الشجرات الجميلة

تلك (جمع) جميلة (جمع)

wa-meanguka wa-le wa-kubwa wa-tu

هؤلاء الرجال الكبار قد وقعوا

قد وقعوا هؤلاء (للبعيد) كبار رجال

hi-vi vi-mevunjika vi-wihi vi-kubwa vi-tu

هذان الشيئان الكبيران قد

تكسرا اثنان كبير (جمع) أشياء تكسرا

هؤلاء (للقريب)

ki-lianguka ki-moja kikubwa ki-kapu سلة كبيرة سقطت

سقطت واحدة كبيرة سلة

a-mefika m-tu الرجل قد وصل

wa-mefika wa-tu الرجال قد وصلوا

ومعلوم أن الصفات والعناصر الوصفية الأخرى من أعداد وأسماء اشارة تتألف صرفيا من بنى جامدة كالأسماء (أى أسماء الذات) ، ولكن لها سوابق تتفق مع جنس الاسم الموصوف (١) .

---

(١) انظر Alexandre ، ص : ٤٠ .

والفرق بين الأسماء والصفات يكمن أن بنى الأسماء مقصورة على سوابق محددة لا تتعداها ، فمثلا الجذر - tu مقصور على السابقة - m ليعنى المفرد (رجل) ، والسابقة -wa ليعنى الجمع (رجال) ، على حين أن بنى الصفات لا تتقيد بسوابق محددة بل تتغير بحسب جنس الاسم الذى تصفه (١) كما تبين لنا فى بعض ما سبق من أمثلة ، بل أن بعض الصفات المقترضة ــ ومعظمها عربية الأصل ــ تظل كما هى دون تغيير ، ولا تقبل السوابق التى تعين الأجناس (٢) •

وقد تأتى فى آخر الاسم لاحقــة تدل على المكــان أو الظرفيــة كما فى nyumbani وتعنى (فى الدار) (قارن بــ nyumba وتعنى : دار) (٣) • وقد يسبق الصفة نفسها عنصر رابط بينها وبين المبتدأ الذى تخبر عنه وذلك كالسابقة ــ j التى تسبق الصفة nzuri (جميل) فى قولنا : nyumba inzuri (الدار جميلة) (٤) •

ويتألف الفعل فى السواحلية من جذر تحيط به الزوائد المختلفة من أمامه وخلفه (٥) •

وأولى السوابق الفعلية هى علامات تقوم مقام الضمائر (٦) • وتوافق الاسم الذى يكون الفعل خبرا له فى الجنس والعدد والشخص • وتتلوها علامات تدل على زمن الفعل من مستقبل (ــ -ta ــ) وحاضر (-na-) وماض ((-li-)) واكتمال الحدث أو انتهائه ((-me-) ـ) وغير ذلك من

---

(١) انظر Welmers ، ص : ٢٧١ ، ١٦١ •

(٢) انظر Welmers ، ص : ٢٧١ •

(٣) انظر Alexandre ، ص : ٤٢ ، Welmers ، ص : ٣٢٧ ، ٤٥٥ •

(٤) انظر Alexandre صص : ٤٢ ــ ٤٣ •

(٥) عن تركيب الفعل فى السواحلية انظر Welmers ، صص : ٤١٢ ــ ٤١٥ وكذلك ص ٣٨٤ •

(٦) انظر Lyons ، ص : ٢٨٥ •

أمور تتصل بالزمن والجهة (١) ثم تتلو علامات الزمن علامات المفعول به (اذا وجد) ، وبعد ذلك يأتى الجذر (٢) .

مثال : wa-uliza tu-ta- سنسألهم
جذراياهم مستقبل نحن

ف ــ tu هى علامة المبتدأ ، و ــ ta ــ هى علامة المستقبل ، و -wa- ــ هىعلامة المفعول به و -uliza هى الجذر : يسأل .

واذا كان الفعل مبنيا للمجهول فان واوا (w)) تقحم قبيل الصائت الذى ينتهى به الفعل (٣) :

kikombe kilivunjwa na mtoto الفنجان كسر على يد
الطفل بواسطة كسر الفنجان (بواسطة) الطفل .

قارن هذا بــ : mtoto alivunja kikombe الطفل كسر الفنجان).
الفنجــان كسر الطفل

وقد يتضمن الفعل زائدة موصولية تأتى قبل الجذر ، بين علامةالمفعول به (أن وجد) وعلامة الزمن (٤) :

---

(١) انظر Welmers ، ص : ٣٥٣ ،٣٦١ ، ٤١٣ .

(٢) انظر Alexandre ، ص‌ص : ٤١ ــ ٤٢ ، و R. W. Langacker ص‌ص : ٧٣ ــ ٧٤ .

(٣) انظر Alexandre ، ص : ١٨٤ . Langacker ، ص : ٤٢ ، و

(٤) انظر Alexandre ، ص ٤٢ و Langacker ص : ١٤٨ ، Batibo ، ص : ٣٥ ، و Welmers ، ص‌ص : ٢٤٢ ــ ٤٤٣ .

الطعام الذى كان كافيا chakula ki- li- cho- tosha

كاف زائدة ماض علامة طعام

موصولية موافقة للاسم

الكتاب الذى قرىء لى kitabu ki -li -cho -ni -somewa

قرىء علامة زائدة ماض علامة موافقة كتاب

مفعول به موصولية للاسم

وقد تعقب الجذر زائدة اشتقاقية (أو زوائد (١)) تحور فى معناه . وتعقب تلك الزائدة لاحقة تدل على حالة الفعل (٢) وتكون فى العادة هى آخر عناصر الفعل ، ومثال ذلك الفعل فى المثال الاخير حيث تلت الزائدة الاشتقاقية -e- التى تفيد التعدية الجذر som . ثم جاءت بعدها اللاحقة a — التى تدل على حالة الفعل (وهى هنا حالة لاخبار) .

غير أن عناصر الفعل هذه ينبغى أن تأتى فى ترتيب صارم ينبغى ألا يختل ، فعلامة المبتدأ تأتى أولا تتبعها علامة الزمن ثم علامة الوصل ثم المفعول به ، ان وجد ، ثم الجذر ثم الزائدة (أو الزوائد الاشتقاقية) ثم علامة البناء للمجهول ثم لعلامة ألتى تدل على حالة الفعل .

وقد تحقق هـذا الترتيب فى المثال الأخير ، الذى يخبر فيه الفعـل ki-li-cho-ni-somewa عن المبتدأ kitabu .

ان كثرة عناصر الفعل من تطابقية وغيرها وترتيبها على هذه الصورة

---

(١) فى تلك الزوائد وتركبها انظر Alexandre ، ص : ٤١ ، و Welmers ، ص‌ص : ٣٣٧ — ٣٤١ .

(٢) اكثر لواحق الفعل شيوعا اللاحقة a — وهى تدل غالبا على حالة الأخبار . ومن اللواحق الأخرى i — التى تدل على أن الفعل منفى غير مثبت ، واللاحقة e — التى تدل على حالة التحضيض أو الطلب الشديد (انظر Welmers ، ص : ٣٥٨ ، ٤١٣) .

ليجعلان الفعل السواحلي جملة مستغنية بنفسها عن المبتدأ ، تدل على معنى تام [1] ، بل ليقربان باللغة السواحلية من اللغات اللصقية (agglutinative) [2] .

على أن الفعل السواحلي تعتريه بعض التغيرات التى قد تخل بالترتيب السابق وذلك فى حالة النفى . ويتم النفى باستعمال السابقة- ha [3] التى تقدم على عنصر الموافقة الضميرى [4] وهو الذى يأتى عادة على رأس الفعل فى حالة الاثبات . وتحذف علامةالزمن أو تغير الى صورة أخرى ملائمة [5] ، ويغير الصائت الذى ينتهى به الفعل من -a- الى -i- فى حالة المضارع ، ولكنه يبقى كما هو فى حالتى المستقبل والماضى [6] .

مثال : tu-nasoma نحن نقرأ

ha-tu-somi نحن لا نقرأ

وفعل الأمر فى السواحلية هو أبسط أشكال الفعل حيث يأتى خلوا من علامة المبتدأ أو علامة الزمن [7] .

soma اقرأ

وحرى بنا اذ وصلنا الى هذه النقطة من حديثنا أن نتناول كيفية الاشتقاق واثراء المعجم اللغوى فى السواحلية .

---

(١) وهذا فرق كبير آخر بين الفعل فى السواحلية والفعل فى العربية (انظر Batibo ، ص : ٣٥) .

(٢) انظر Alexandre ، ص : ٤٢ .

(٣) قد يكون لهذه السابقة صور أخرى وذلك بفعل البيئات الصوتية المختلفة (انظر Welmers ، ص : ٤١٤) .

(٤) وقد تحذف علامة المبتدأ فى بعض الأحوال (انظر Welmers صص : ٤١٣ — ٤١٤) .

(٥) انظر Welmers صص : ٤١٤ — ٤١٥ .

(٦) انظر Welmers ، ص : ٤١٤ ، و Langacker ، ص ٢١٦ .

(٧) انظر Langacker ، ص : ١٨٧ .

ان الاشتقاق فى السواحلية يجرى فى مجمله باضافة الزوائد affixation وترتيبها على صورة معينة ، لا بتغيير ترتيب الصوائت وكميتها ونوع الزوائد الاشتقاقية كما هو الحال فى اللغة العربية .

نعم قد تجرى فى اللغة السواحلية بعض التغييرات فى حروف العلة ولكنها تغييرات مشروطة ببعض البيئات الصوتية ولا يعزى اليها أى تغير فى المعنى .

ومن أمثلة الاشتقاق فى اللغة السواحلية تغيير السابقة الذى قد يقلب المفرد جمعا ، (قارن m-tu رجل بـ wa-tu رجال) ويؤدى معانى التصغير أو التكبير (قارن mfuko حقيبة وجمعها mifuko بـ kifuko حقيبة صغيرة وجمعها vifuko ، وبـ fuko حقيبة كبيرة وجمعها mafuko) (1).

واذا قارنا kiti (كرسى خشب) بـ mti (شجرة) لعرفنا فورا أن لفظة كرسى مأخوذة من لفظة شجرة بتغيير السابقة فحسب .

وبعض الأفعال (2) تشتق من الصفات ، وبعض الصفات تشتق بدورها من الأفعال ،، كما تشتق من الصفات بعض أسماء المعانى ــ وكل ذلك يجرى بتغيير نوع السابقة (3) .

ومن وسائل اللغة السواحلية فى الاشتقاق النقل المجازى وان كان ذلك قليلا جدا ، ومن أمثلته mwitu (غابة) التى يصبح بالنقل المجازى معنى « برى » (4) .

---

(1) انظر Alexandre ، ص ٤٣ .

(2) انظر Welmers ، ص : ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ .

(3) انظر Welmers ، ص : ٢٧٢ .

(4) فى اشتقاق الأفعال فى السواحلية عن طريق المراوحة بين الزوائد الاشتقاقية نفسها أو الجمع بين أكثر من واحد منها ــ انظر Alexandre ص : ٤١ ، و Welmers ، صص : ٣٣٩ ــ ٣٤٠ .

واذا أردنا أن نلخص نواحي التشابه والاختلاف بين العربية والسواحلية من حيث تركيب الكلمات فيهما وطرائقهما الداخلية فى الاشتقاق وتنمية رصيدهما اللغوى واثراء معاجمهما ، أمكننا أن نقول : أن اللغة العربية تعتمد فى اشتقاقها اما على تغيير فى نوع الصوائت ، واما على تغيير فى أنماط ترتيبها وتتابعاتها فى الكلمة ، واما على تغيير فى كميتها ، واما على ذلك مع الزوائد ، واما على الزوائد وحدها :

كتب	(a + a)	(١)
كتب	(i + u)	
كاتب	(a + â)	
كاتب	(i + â)	
كتب	(u + u)	
كتاب	(â + i)	
مكتب م	(a + ـ)	
كتابان	(â + i)	

وتعتمد اللغة السواحلية فى صورة كلية تقريبا على اضافة الزوائد (affixation)

وتوزيعها حول الجذر يمنة ويسرة ، والتشابه الوحيد بين اللغتين هو أن اللغة العربية قد تعتمد أحيانا على الزوائد فى الاشتقاق (أنظر المثالين الأخيرين) ، كما هو الاساس فى اللغة السواحلية .

وثمة تشابه آخر ، وهو أن كلا منهما قد تستخدم النقل المجازى لتنمية ثروتها اللغوية .

---

(١) يمثل ما بين القوسين الصوائت التى تاتى بين حروف الجذر ك ، ت ، ب .

لكن الفرق الكبير هو أن العربية تعتمد بالدرجة الاولى فى اشتقاقاتها على ألوان التغيرات فى الصوائت . وكأننا بقائل يقول : ان ثمة تغييرات فى صوائت السواحلية كذلك . والجواب عن ذلك أن التغير فى الصوائت العربية هو تغير معنوى فى معظم الأحوال لكن التغير فى صوائت السواحلية يجرى فى مجمله بفعل عوامل وأسباب صوتية بحت . ماعدا ذلك ، نجد أن الصوائت التى يحتويها الجذر ثابتة .

زد الى ذلك أن التغير فى صوائت السواحلية يشمل صائتا بعينه لا مجموعة من الصوائت بترتيب محدد كما فى الكلمات العربية التى سبق أن مثلنا بها .

ولا يلعب طول الصائت (أو كميته) أى دور فى الاشتقاق كما هو الحال فى اللغة العربية حيث نجد أن طول الصائت مهم فى الدلالة على بعض التغيرات المعنوية .

والتغير المعنوى الوحيد الذى يمكن نسبته الى الصوائت فى السواحلية هو التغير فى حالات الفعل ، فاللاحقة a- تدل على حالة الاخبار ، واللاحقة i تدل على حالة النفى وعدم الاثبات ، واللاحقة e- **تدل** على التحضيض .

وأمر آخر ينبغى التنبه اليه هو أن كثرة الزوائد فى عناصر الفعل تطيل الكلمة بالمفهوم الاملائى وتجعلها نحويا أقرب ما تكون الى الجملة . وبالفعل توجد فى السواحلية أفعال كثيرة تقوم مقام الجمل التامة .

واننا نجد مثل هذا فى اللغة العربية (سألته ، أعطيته) ولكنه ليس فى كثرة أو تعقيد الأمثلة فى السواحلية .

ومثل هذه الافعال فى حال وجودها فى العربية يشبه الأفعال السواحلية فى أن فيها ترتيبا صارما . وهو يقضى بمجىء الفعل أولا تتبعه لاحقة الفاعل (هى ضمير) ثم لاحقة المفعول به (وهى ضمير أيضا) .

وبقيت كلمة أخيرة تخص الموافقة فى اللغتين العربية والسواحلية ، وهى ان علاقات الموافقة فى لجملة السواحلية تتمثل صرفيا فى تكرار سوابق أو علامات (markers) معينة تحكمها اعتبارات التقسيم الى أجناس (noun classes) وتتأثر فى تحققها الحسى بالبيئات والأضاع الصوتية المختلفة •

لكن علامات الموافقة فى اللغة العربية قد تكون سوابق أو لواحق لها أشكالها الخاصة المنفصلة عن الأسماء ، وقد تكون كلمات مستقلة كالضمائر وأسماء الاشارة وأسماء الموصول •

وثمة أمر آخر هو أن علاقات الموافقة فى اللغة السواحلية أكثر تعقيدا منها فى اللغة العربية اذ تظهر تقريبا فى كل أقسام لجملة حتى الأدوات والحروف التى لا تحمل عادة مثل هذه العلامات فى اللغة العربية كحروف الجــر مثلا •

ونظرا لانعدام بعض الفصائل النحوية فى السواحلية كالتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير والتثنية والحالات الاعرابيــة •• فان الموافقــة فى السواحلية مع تعقيدها لا تتعدى موافقة الجنس (أى جنس الاسم الذى يبتدأ به الكلام) والعدد (مفرد وجمع) ، والشخص ، اذا كان الاسم يدل على انسان ، ومعنى هذا أن الموافقة فى اللغة العربية تمثل أو تعكس فصائل نحوية أكثر من تلك التى تمثلها أو تعكسها فى السواحلية •

هذا •• اذا تناسينا تعدد الأجناس فيها ، وأخذنا فكرة الجنس كفصيلة نحوية واحدة غير قابلة للتجزئة •

مراجع البحث

Alexandre, Pierre,

An Introduction to Languages and Language in Africa, translated by F. A. Leary. (London : Heinemann, 1972).

Batibo, H. M.,

«The Important Contribution of Arabic to the Development of Kiswahili» in **Islam Today**, vol. 2 (1984), no. 2, pp. 29-36.

Langacker, R. W.

Fundamentals of Linguistic Analysis. (New York : Harcourt Brace Jovanovich, Inc., 1972).

Lyons, John,

Introduction to Theortical Linguistics. (Cambridge : University Press, 1968).

Moscati, Sabatino

(ed). **An Introduction to the Comprative Grammer of the Semitic,** Languages. (Amesterdam : Philo Press, 1971).

Welmers, Wm. E.,

African Languages **Structures**. (Berkely : University of California Press. 1973).

مكانة اللغة العربية بين اللغات فى اثيوبيا

د • راجية عفت

المقـــدمة

١ ـ الوضع اللغوى فى اثيوبيا :

اثيوبيا مثلها مثل العديد من الدول الافريقية تتعدد فيها اللغات بسبب الاختلافات العرقية والاجتماعية • وكل لغة من اللغات الموجودة فى المنطقة تخدم هدفا معينا ، فالى جانب اللغات الام ، وهى لغـــات القبائل والمجتمعات المختلفة ، هناك اللغات الرسمية ، واللغات التى تستخدم فى التعامل والتجارة ، واللغات المستخـــدمة فى المـــدارس والجامعات ، واللغات الكلاسيكية القديمة ، واللغـــات التى تســـتخدم كوسيلة للاتصال بالشعوب الاخرى واللغـــات التى تســـتخدم لتأدية الشعائر الدينية •

فيتقن الفرد فى اثيوبيا الى جانب اللغة الأم لغة ثانية ولغة ثالثـــة أو أكثر • وهو اما يكتسب هذه اللغات من خلال تعامله فى مختلف ميادين الحياة اليومية ، أو يتعلم هذه اللغات فى المدارس •

والمعلومات التى سأسوقها عن اللغات فى افريقيا تعتمد عـــلى المعلومات المستقاة من المسح اللغوى لافريقيا (١) •

Languge Survey of Africa (1)

---

(1) Language in Ethiopia : Edited by : M.L. Bender. J.D. Bowen R.L. Cooper, C.A. Ferguson. London, Oxford University Press, 1976.

الذى يعـد المصدر الرئيسى فى هذا الصـدد ثم ان ، كثيرا مـن المعلومات التى أعرضها قد تكون عرضة للتعديل أو التصحيح اذا امكننا أن نحصل على معلومات دقيقة عن الوضع اللغـوى فى اثيوبيا بتقدم الدراسات فى المستقبل •

أولا : هناك خمس لغات رئيسية • هذا بالاضافة الى ١٣ لغة فرعية وثلاث لغـات لها أهمية خاصة •

أما اللغات الرئيسية فهى :

١ ـ الأمهـرية : (سامية) لغة قياسـية ـ رسمية ـ لغـة التعامل والتجارة ـ لغة التعليم •

٢ ـ الانجليزية : (هند وأوربية) لغة قياسية ـ لغة التعامل مع الدول الاخرى ـ لغة التعليم والحضارة الغربية •

٣ ـ التيجرينية : (سامية) لغة قياسية لغـة سلالات مختلفـة ومجتمعات وقبائل معينة تسكن المرتفعات فى ارتريا • وهى تستخدم فى التعامل مع الدول الافريقية الاخرى •

٤ ـ الجـالا : (كوشيه شرقيه) لغـة دارجة ـ لغة قبيـلة وتستخدم فى التعامل مع الدول الافريقية الاخرى •

٥ ـ الصومالية (كوشيه شرقيـه) لغة دارجة خاصـة بالقبـائل الصوماليـة •

أما اللغات الفرعية فهى ثلاث عشرة لغة وهى اللغات الدارجـة للقبائل المختلفة ويستخدمها مالا يقل عن ١٠٠٫٠٠٠ شخص ومعظمهـا لغات لها معالم محدده • وان كانت بعض هذه اللغات يمكن ان نعتبرها لهجات أكثر منها لغات مثل لغة جموز Gumuz وولامو Wellamo .

١ ـ أفـر Afar كوشيه شرقيه •

٢ ــ آنيــوك	Anyuak	نيلية صحراوية
٣ ــ البجــا	Beja	كوشيه شرقيه
٤ ــ جوراجى	Guarage	ساميــة
٥ ــ درســا	Deresa	كوشيه شرقيه
٦ ــ جمــوز	Gumuz	نيلية صحراوية
٧ ــ هــادى	Hadiyya	كوشيه شرقية
٨ ــ جانجيرو	Janjero	أومتيك
٩ ــ كيفــا	Kefa	اومتيــك
١٠ــ كمباتيــا	Kembata	كوشيه شرقيه
١١ــ تيجريــة	Tigre	ساميــة
١٢ــ ولامــو	Wellamo	اومتيــك
١٣ــ سيدامــو	Sidamu	كوشيه شرقية

أما اللغات الثلاثة التى لها استخدامات خاصة فهى :

لغة جعــز : وهى لغــة سامية • لغة جعــز لغة كلاسيكية قديمــة تستخدم فى الكنيسة وكتابة الادب وليســت لها استخدامات أخرى حاليا •

اللغة الايطالية : وهى لغة هندوأوربية وتستخدم فى التعامل •

اللغة العربية : وهى لغة سامية وتستخدم فى عدة أغراض وسنتحدث عنها بالتفصيل فى هذا البحث •

سأعطى فكرة مختصرة عن اللغات الرئيسية ، واللغات الفرعية واللغات التى لها لستخدامات خاصة •

١ ــ الأمهــرية :

بالرغم من تعدد اللغات الأم فى أثيوبيا فاننا نجد ان اللغة الامهرية هى اللغة الاكثر انتشارا فهى التى يتكلمها معظم السكان فى المنطقـــة كلغة أم فحوالى ١٠ ملايين اثيوبى يتكلمون اللغة الامهرية كلغة أم (١) • وهنا نلاحظ أن اللغة الامهرية كلغة أم هى اللغة التى لها مكانة عـــلى عكس الحـــال فى بعض الدول الافريقية مثل الكامـــيرون وزامبيا واللغة الأمهرية ايضا لغة يتكلمها عدد كبير من السكان كلغة ثانية لانها اللغة الرسمية ولغة التعليم فى المدارس الابتدائية الحكومية ، واللغة الرئيسية للتفاهم الشفهى والتحريرى بالنسبة للحكومة والجيش ، وهى اللغـــة الاثيوبية التى تستخدم كوسيلة للتفاهم بين افراد الشـــعب ، وهى اللغة القومية التى تشكل أحد عناصر الوحدة الوطنية وهذا بخلاف العـــديد من الدول جنوب الصحراء حيث نجد ان اللغات الاوربية تقوم بهذا الدور الرئيسى على سبيل المثال اللغة الانجليزية فى نيجريا والفرنسية فى ساحل العاج • ولعل دور اللغة الامهرية يشبه الى حد كبير دور اللغة السواحيلية فى تانزانيا ولكن هناك فرق بين السواحيلية والامهرية فالامهرية فى اثيوبيا لغة محلية أصلية وقد اعلنها الدستور لغـــة رسمية للامبراطـــورية فى سنة ١٩٦٥ • واللغة الامهرية بخلاف اللغة السواحلية لها نظام خاص فى الكتابة فنظام الكتابة فى الامهرية يعتمد على المقاطع والحروف الأمهرية مأخذة من الجنوب القربى للجزيره مع اختلافات بســـيطة والحـــروف مأخذة من الجنوب القربى للجزيرة مع اختلافات بسيطة • وتستخدم الأمهرية نفس نظام الحركات الذى تستخدمه اللغة العربية ، ولكن فى اللغة الأمهرية لا يمكن اسقاط الحركات فى الكتابة •

واللغة الامهرية لها قواعد ثابتة فى الاستخدام الشفهى والتحريرى • ومفردات الامهرية مشتقة غالبا من الاصل السامى مثل كلمة « رأس » « وعين » « ودم » ولكن معظم الكلمات طرأت عليها تغيرات فنولوجية كثيرة حتى أنه فى كثير من الاحيان يصعب التعرف على أصل الكلمـــة •

(١) انظر المرجع السابق صفحة ١٢ .

هذا فضلا عن ان الأمهرية دخل فيها خليط من المفـــردات من اللغـــات الأخرى غير السامية نتيجة للاحتـــكاك بين اللغات بعضها وبعض • وكذلك نلاحظ ان نظام الجذور والاشتقاق الذى يميز اللغات الســـامية الاخرى مثل اللغة العربية غير واضح فى اللغة الامهرية • وللغة الامهرية أدب يرجع الى القرن ١٤ ، وعدد لهجات الامهـــرية قليل والاختـــلافات اللهجية الاقليمية والاجتماعية ضئيلة • وهناك اتجـــاه لان تصـــبح اللغة الامهرية لغة العصر • وقـــد بدأت تظهر اللغة الامهرية فى عـــدد من الدوريات •

٢ ــ اللغة الانجليزية :

هناك عدة أسباب تجعلنا نعتبر اللغة الانجليزية من اللغات الرئيسية فى أفريقيا :

أولا : اللغ الانجليزية هى لغة التعليم فى كل المدارس الحكومية للثانوية، وفى مراحل التعليم العالى فى الجامعة ، خارج نطاق الدراسات الدينية التقليدية •

ثانيـــا : اللغة الانجليزية مهمة كاداة للتفاهم الشفهى والكتابى فى دواوين الحكومة وقد اعترفت بها الحكومة كلغة ثانية للدولة وهى لغة لها أهميـــة اقتصادية واجتماعية وتستخدم كوسيلة للتفاهم مـــع الدول الاخرى • واللغات الاوربية عامة لها أهمية خاصة فى اثيوبيا لانها لغات الحضارة الغربية • وقد كانت اللغة الفرنسية أول لغة أوربيـــة تستخدم فى اثيوبيا الحديثة ولهـــا مكانة خاصة ، ولكن بـــدأت اللغـــة الانجليزية تحل محل اللغـــة الفرنسية وخصوصا فى المجالات التى تتصل بالحياة العصرية •

٣ ــ اللغة التجرينية :

اللغة التجرينية لغة سامية تنتشر فى ارتريا وهى لغة قياسية تستخدم نفس نظام الكتابة الذى تستخدمه اللغة الامهرية ، وهناك بعض المؤلفات

الادبية باللغة التجرينية ، وقد كانت اللغـة التجرينية تسخدم مثـل الامهرية فى كتابة الصحف وقد كانت وسيلة التعليم فى المدارس الابتدائية فى أرتريا فى الماضى قبل ان تحل محلها الامهرية • ولكنها مازالت تستخدم كوسيلة للتفاهم والتعامل التجارى فى منطقة ارتيريا وهى اللغة الام لاكثر من مليون شخص معظهم من اصل حامى •

٤ ــ لغـة الجـالا :

لغة الجالا لغة كوشيه شرقيه • وهى لغة دارجة بها اختلافات لهجيه متعددة ولذلك فهى لغة غير قياسية • وهى لاتكتب عادة ولكن معظم سكان اثيوبيا يستخدمونها كلغة أم فى التخاطب اكثر من أى لغة اخرى فى اثيوبيا وتستخدم كلغة للتعامل التجارى فى بعض جهات اثيوبيا • ويبلغ عدد المتكلمين بلغة الجالا حوالى ٧ مليون نسمة أى عدد المتكلمين بلغة الجالا قريب من عدد المتكلمين باللغة الامهرية •

٥ ــ اللغة الصومالية :

لغة دارجة تستخدم فى منطقة واسعة قليلة الكثافة السكانية ومعظهم من قبائل البدو الرحل • ولها لهجات متعددة ولكن تعدد اللهجات لايقف عقبة امام التفاهم المتبادل بين متكلمى اللهجات المختلفة • وهناك اتجـاه لاختيار لهجة من هذه اللهجات لتصبح اللغة الصومالية القياسية • واللغة الصومالية لها ادب ولكن معظمه ادب شفهى نادرا مايكتب واللغـة الصومالية هى اللغة الام فى الصومال وهى لغة الكلام ، لذلك يستخدم الصوماليون اللغة العربية أو اللغات الاوربية فى الكتابة[1] •

٦ ــ لغـة جعـز :

هى اللغة الاثيوبية القديمة وجماعة جعز جاءت من جنوب غـرب الجزيرة العربية وكونت مملكة اكسوم بمقاطعة التيجر الحالية واعتنقت

(١) انظـر :

Andrezejewski, B.W. (1962). Speech and Writting Dichotomy as the Pattern of Multilingualism in the Somali Republic.

المسيحية فى القرن الرابع قبل الميلاد • وقد استمرت لغة جعز لغة لامبراطورية اكسوم من القرن الرابع الى القرن التاسع ثم بدأت تضعف وفى القرن الثالث عشر لم تعد تستخدم لغة جعز فى الحديث وحلت محلها لغات اخرى كالتيجرنية فى الشمال والامهرية فى الجنوب • ولغة جعز ولن كانت لم تعد تستخدم فى الكلام فى الحياة اليومية فهى مازالت لغة للادب مثلها مثل اللغة اللاتينية فى وسط اوربا • وهناك مخطوطات مكتوبة بلغة جعز يرجع بعضها الى القرن الرابع • وقد ازدهر الادب المكتوب بلغة جعز فيما بين القرن السابع والثالث عشر • ومعظم المخطوطات دينية وتاريخية وقانونية • وهى تستخدم حاليا فى الكنيسة الاروثوذكسية كلغة للعبادة • وقد حلت محلها تدريجيا الامهرية والتجرينية فى كتابة الادب ولكن مازال الشعر الى الان يكتب بلغة جعز • وهى تستخدم نظاما للكتابة مكونا من ٢٥٠ حرفا هجائيا وهونظام الكتابة مقتبس من نظام الكتابة العربية الجنوبية • وقد اثرت لغة جعز على اللغة الامهرية والتيجرنية الى حد بعيد ومعرفة لغة جعز له احترام خاص بالنسبة للمتعلمين فى المجتمع الاثيوبى وحاليا هناك محاولات للاعتماد على لغة جعز لصياغة العبارات الحديثة والتكنولوجية فلغة جعز مصدر كثير من الكلمات الجديدة فى اللغة الامهرية وخصوصا العبارات الفنية والعلمية •

٧ ــ اللغة الايطالية :

ليس لها اى مكانه رسمية معترف بها فى الدولة ولكنها اللغة الام لآلاف من السكان وهناك صحافة ايطالية وهى تستخدم كلغة للتعامل التجارى بين مجموعات كبيرة • من المجتمع خصوصا فى ارتيريا وهناك ايطالية خلاسية تستخدم كوسيلة للتعامل التجارى فى مناطق متفرقة من أثيوبيا • وعموما نلاحظ أن استخدام الايطالية يتضاءل وتتراجع اللغة الايطالية أمام زحف اللغة الامهرية والانجليزية •

(الجزء الثانى)

استخدامات اللغة العربية فى اثيوبيا

(أ) اللغة العربية كلغة أم فى اثيوبيا :

من الصعب تحديد عدد الاثيوبيين الذين يستخدمون اللغة العربية كلغة أم فى اثيوبيا • ولكن من الممكن القول ان عددهم أقل بكثير من عدد الصوماليين الذين يستخدمون اللغة العربية كلغة أم •

ونلاحظ أن هناك مستويات مختلفة للغة العربية وهذا هو نفس التنوع الموجود بالنسبة للغة العربية فى العالم العربى • أى أن هناك من يستخدمون العامية كلغة أم بينما يقتصر استخدامهم للفصحى كلغة للكتابة وفى وسائل الاعلام وفى المناسبات الرسمية والعامية المنتشرة فى أثيوبيا هى غالبا العامية المنتشره فى اليمن وفى السودان • ولكن هناك اشكال أخرى للعامية ومستويات مختلفة لها وقد يرجع ذلك الى أن اللغة العربية دخلت أثيوبيا عبر منافذ متعدده أدت الى هذا التنوع فى الاستخدام اللغوى للغة العربية (1) •

ومعظم الذين يستخدمون العربية كلغة أم يستطيعون أن يميزوا بين استخدامهم للفصحى والعامية ، وأن هناك اختلاف بين العامية والفصحى فى النطق والصرف والمفردات •

الفصحى	العامية اليمينية	العامية السوادانية
ق /q/	ق /q/	ج/q/
ذ /dh/	د ، ذ /d/ , /dh/	د /d/
ق /th/	ت ، ث /th/ /t/	ت /t/

---

(1) كانت هناك علاقة قديمة بين الحبشة واليمن وامتدت الى بلاد الحجاز . وعلاقة مصر بالحبشة قديمة ترجع الى ما قبل ظهور الاسلام ، كما أن هناك حركة اتصال مستمرة بين المسلمين الذين يتكلمون العربية فى السودان وبين سكان الحبشة .

وبالنسبة للصرف نجـــد اللهجة السودانية تستخدم صيغة واحدة للفعل المـــاضى بالنسبة للمفرد المتكلم (أنا) والمخاطب (أنت) ta ت ، بينما تستخدم اليمنية (ت) / تا / ، و ت بالنسبة لصيغة المتكلم و (أنا) و ت بالنسبة لصيغة المخاطب (انت) • وبالنسبة لاســـماء الاشارة ، نجد السودانية تستخدم (ده) بعد الاسم للاشارة ، ونجد اللهجة اليمنية تستخدم « هذا » قبل الاســـم • وهناك اختلاف ايضـــا بالنسبة لاستخدام المفردات (١) •

الفصحى	السودانية	اليمنية	
rijl	rijil	xuff	رجل
rajul	zo:l	rajul	رجل
jalisu. qusudls	gaçad	jalas	جلس
ma:ç	moya مؤنث	moya مذكر	ماء
ma:	shunu	çesh	مـــا

(ب) اللغة العربية كلغـــة للتفاهم :

تنتشر اللغة العربية ولها دور نشط كوسيلة للتفاهم بين أفـــراد الشعب الذين يتكلمون لغـــات مختلفة • وليس هناك شك أن اللغـــة الأمهرية هى أهم وسيلة للتفاهم والتبادل التجارى فى اثيوبيا ، وكذلك اللغات الرئيسية فى المنطقة كالتيجرنية ولغة الجالا ولكن اللغة العربية مهمة كوسيلة للتبادل التجارى والتعامل فى بعض المناطق التى ينتشر فيها الاســـلام ، كوسيلة للتفاهم بين المسلمين الذين يتكلمون لغات مختلفـــة

(١) انظـــر :

— Ferguson, C.A. (1959 a), «Diglossia». Word vol. 15 PP. 24-40.
— Ferguson, C.A. (1959 b), «The Arabic koine» Language Vol. 35. PP. 612-30.
— Ferguson, C.A. (1966) National Sociolinguistic Profile Formulas. in W. Bright (ed. Sociolinguistics, Mouton).
— Ferguson, C.A. (1969), «Myths about Araric», Lauguage and Lingustic», Monogaph seires, vol. 12 PP. 75-82 Georgetown University.
— Ferguson, C.A. «The Role of Arabic in Ethiopia» - A. Sociolingmistic Perspective», Monograph Serics on Language and linguistics, no. 2,3 1976. PP. 255-68.

أم • وقد تبين من الاستبيان الذى أجـرى فى جامعـة هيلاسلاسى فى أكتوبر سنة ١٩٦٩ على ٢٠ طالبا فى الجامعة فى سن الرشد ، يعرفون العربية :

١ — ان ثلاثة فقط منهم يستطيعون فقط قراءة العربية •

٢ — ١٤ طالبا تعلموا العربية فى المدرسة فى فترة تتراوح بين ٢ — ٨ سنوات أى بمتوسط خمس سنوات ويستطيعون تـكلم العربيـة بطلاقه •

٣ — ستة فقط يستطيعون التفاهم بصعوبة •

ولكن لاشك ان معظم المسلمين يستخدمون العربية فى الكلام كوسيلة للتفاهم الشفهى ، بينما عدد الاثيوبيين غـير المسلمين الذين يستطعون استخدام اللغة العربية قليل للغاية واللغة العربية المستخدمة فى الحديث تميل الى اللهجة اليمنية أو السودانية ولكنها تتأثر احيانا كثيرة باللهجات الاقليمية واللغة العربية الفصحى لغة التراث ونلاحظ كذلك أن هنـاك عددا من المسلمين تأثروا بدراستهم للغة الفصحى فى المدارس والجوامع وعن طريق الاذاعة والقراءة فاصبحوا يستخدمون اللغة العربية الفصحى كلغة للحديث والتعامل •

(ج) اللغة العربية كلغة تأدية الشعائر الدينية :

اللغة العربية بالنسبة للمواطن الاثيوبى الذى يعتنق الاسلام لغـة مقدسة لايمكن الاستغناء عنها لدراسة القرآن ومعرفة أصول الحضارة الاسلامية ، وهى بالنسبة له لغة أجنبية باستثناء قلة من المسلمين الذين تعتبر اللغة العربية بالنسبة لهم هى اللغة الام • لذلك كل مسلم مهما كانت لغته الام يستطيع على الاقل أن يقرأ الفاتحة وبعض السور القرآنية ويعرف بعض عبارات التحية مثـل « السلام عليكم » « والحمد لله » « بسم الله الرحمن الرحيم » «لا اله الا الله محمد رسول الله » ، بل وقد يحفظ بعضهم القرآن كله أو بعضه عن ظهر قلب • والافراد يختلفون فى مدى اتقانهم العربية بالنسبة لاختلاف الخليفة الحضارية لسكان المنطقة •

ولكن كل مسلم يجب أن يتعلم اللغة العربية حتى يستطيع تأديةالشعائر الدينيةوحتى يستطيع أن يقرأ القرآن والمؤلفات الدينية المختلفةعن احكام الدين الاسلامي وتعاليم السنة ولكن معظم المسلمين يتعلمون قراءاةوكتابة اللغةالعربيةبطريقةبدائيةلغايةفى الكتاتيب مع مدرس يدرس اللغة بالطريقة التقليدية القديمة • هذه هي اول خطوة لمحو الامية قبل دخول مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة • ولذلك قد نجد ان هناك الالاف من المسلمين فى اثيوبيا الذين لايستطيعون استخدام العربية فى الحياة اليومية ومع ذلك يستطيعون تلاوة القرآن أو لحديث فى موضوعات دينية أو الاستماع الى خطب الوعظ والارشاد باللغة العربية •

(د) اللغة العربية كلغة للتجارة :

للغة العربية أهمية كلغة تعامل فى الاسواق لان معظم الاسواق تقع فى المناطق التى ينتشر فيها المسلمون لان العرب يسيطرون على أسواق التجارة فى اثيوبيا منذ القدم •

فقد هاجر الى أثيوبيا كثير من العرب عبر القرون وكان معظهم من التجار ورجال الاعمال واصحاب المحلات ، وكانت لغة التعامل التى يستعملها هؤلاء العرب هى لغة عربية خلاسية للتفاهم مع العملاء • وهذا الاستخدام للغة العربية ليس مقتصرا على المسلمين كما هو الحال بالنسبة لاستخدام اللغة العربية كوسيلة للتفاهم • ولم تتم الى الان دراسة لهذه النوعية من العربية المبسطة . ولكن هناك بعض الملاحظات الانطباعية مثل استخدام صيغة المفرد للفعل بالنسبة لكل الضمائر • وفى الاستبيان [1] • الذى اجريته فى الجامعة الامريكية بالقاهرة على الطلبة الدارسين من اثيوبيا وارتيريا ظهر ان حوالى خمسة وعشرين من ثلاثين طالبا يستخدمون اللغة العربية عادة فى التعامل التجارى فى المحلات • ونلاحظ أن أهمية اللغة العربية كلغة للتفاهم التجارى أقل من أهمية اللغة العربية للاغراض الدينية •

---

(١) هذا الجزء من البحث يعتمد على معلومات مستقاه من الاستبيان الذى اجريته فى الجامعة الامريكية على ثلاثين طالبا من اثيوبيا وارتريا سنة ١٩٨٠ .

(الجزء الثالث)

« مكانة اللغة العربية فى أثيوبيا »

اللغة العربية هى لغة الدين الاسلامى ووسيلة التعليم فى المدارس الدينية والاسلامية وهى لغة التعامل بين المسلمين فى اثيوبيا المتحـدثين لغات أم مختلفة •

فى كل مجتمع تتعدد فيه اللغات نجد هناك معايير خاصة راسخة تفرض استخدام لغة معينة فى موقف معين من أجل هدف معين • وقد تكون هذه المعـايير احيـانا معـايير اخـلاقية وجمـالية • وفى مثـل هـذه المجتمعات التى تتعدد فيها اللغات ، نجد هناك اتجاهات نحو لغات معينة واعتبارها لغات ذات مكانة ولغات أخرى تعتبر لغات أقل أهمية ونحن نريد أن نعرف ماهو موقف الاثيوبيين بالنسبة للغة العربية • فى الواقع ليست هناك دراسات سابقة عن هذا الموضوع فالدراسات المتوفرة كلها دراسات مبنية على مجتمعات تستخدم فيها اللغة العربية كلغة ام(١) وهناك دراسة للغة العربية كلغة قومية وعلاقتها بلغة أوربية ترتبط بمرحلة الاستعمار (٢) أو بلغة قومية محلية (٣) وهكذا نجد أنه لم يسبق أن كانت هناك دراسة لنظرة السكان بالنسبة للغة العربية فى دولة كأثيوبيا تستخدم فيها اللغة العربية كوسيلة للتعامل وكلغة لتأدية الشعائر الدينية هـذا النوع من الدراسة يحتاج بطبيعة الحال دراسات ميدانية قبل أن تصل

---

(١) انظر المرجع السابع Ferguson C.A.

(٢) — Nader, L. (1962 A note on Attiludes and the Use of Language AL, Vol. 4 Part 6. PP. 25-9.

— Gallagher C.F. (1968) North African Problems and Prospects. Languege and Indentity in J.A. Fishman et al (eds.) Language Problem of Developing Nations, Wiley.

(٣) — Jernudd B. (1958) Linguistic Integration and Nationel Development in J.A. Fishman et al (eds) Lauguage Problems of Developing Nations, Wiley.

الى نتائج يمكن الاعتماد عليها والمتوفر حاليا بعض المعلومات المستقاة من استبيانات جاءت فى شكل الاسئلة التالية •

١ ــ ماهى اللغات التى تحب أن يعرفها أولادك ؟

وقد جاءت الاجابات

٨٢ الانجليزية

٨١ العربيــــة

٦١ الامهــرية

٥٧ اللغة الفرنسية

اما اللغات الاخرى فهى اللغات الام •

وهذه الاجابة توضيح الاهمية التى تعطى لمعرفة اللغة العربية •

٢ ــ اية لغة تعتبرها محببة ومفضلة لك ؟

وقد جاءت معظم الاصوات لتختار العربية أو الانجليزية•

٣ ــ أية لغة تفضل ان تستخدم فى المواقف المختلفة ؟

الاجابة على هذا السؤال اوضحت ان اللغــة العربيــة تفضل فى استخدامات كثيرة عن الانجليزية أو الامهرية أو اللغات الام الاخــرى وخصوصا بالنسبة للاغراض الدينية هذا وقد ذكر بعضهم انه يفضل اللغة الانجليزية لمشاهدة الافلام وقراءة الكتب والسماع للراديو •

ولم تكن اللغة الامهرية دائما هى المفضلة على اللغة الام أو اللغة الانجليزية وان كانت مفضلة بالنسبة للكلام عن الرياضة أو لكتابة الرسائل• وكانت اللغة الام دائما هى المفضلة بالنسبة للاغانى •

(الجزء الرابع)
« اللغة العربية والتعليم »

يتطلب الاسلام من المسلم أن يحفظ قدرا من القرآن الكريم هــو الحد الأدنى الضرورى للصلاة • وحفظ القرآن مرتبط أساسا بقراءة الخط العربى والاطلاع على كتب للفقه الاسلامى والتفسير المكتوب بالعربية والتى يتطلب فهمها والتعمق فيها اتقان اللغة العربية ومعرفة نحــوها وقواعدها وتذوق اساليبها فى التعبير • لذلك اصبحت اللغة العربية من المقومات الاساسية لشخصية المسلم عن طريقها تتم قراءة القرآن ومعرفة معانيه واسراره وهكذا اصبح الطابع المميز لتعليم اللغة العربية هــو الطابع الدينى • بل أن التعليم يقوم به رجال الدين •

(أ) المنهج المتبع فى تدريس اللغة العربية :

فى المرحلة الاولى Tahaji (1) يقوم المدرس بتعليم الحــروف الابجدية بالطريقة البدائية المعروفة فى الكتاتيب فيبدأ فى تعليم الصوامت نطقا وكتابة ، ثم ينتقل الى تعليم نظام النقط ، ثم الصوائت وكيف ينطق الصوامت مستخدما الصوائت الثلاثة القصيرة والطويلة ، ثم المقاطع ، ثم الكلمات وجميع هذه المراحل تتم بالترديد والاداء الجماعى الذى يقوم به الطلاب هذا بالاضافة الى اللوح الخشبى المعروف فى الكتاب • وهذا كخطوة تمهيدية قبل البدء فى تعليم القرآن الذى يبدأ عادة بتعليم التلميذ عبارات بسيطة تستخدم فى الصلاة اليومية • وبعد الانتهاء من الجزء الاول « جزء عم » ينتقل الطالب الى الجزء الثانى وهكذا • واذا كان الطالب من المقتدرين فيمكن شراء القرآن المتوفر فى الاسواق فى المناطق التى ينتشر فيها المسلمون ويطالب من الطالب قراءة القرآن لعدة مرات وان

---

(1) مصطلح «Tahaji» معروف فى منطقة ولو Wello ويافات فى شمال شرق شوا وتعرف مرحلة التعليم هذه فى Harer وجمـا Jimma باسم « Mejilis Quran » وفى عروس Arusi باسم Sheiki وفى المناطق المدارس معروفة باسم مدرسة وأحيانا « «School» »

كله • وعادة ما يتوقف الطالب عن الذهاب الى المدرسة بعد اتمام القرآن ويطلب منه بعد ذلك أن يتلو بعض السور التى يحفظها فى المناسبات المختلفة مثل « المآتم » وغالبا ما ينسى الطالب الحروف الابجدية • لذلك نجد بعض الطلاب فى البادية لا يستطيعون القراءة أو الكتابة أو الحديث فى شئون مختلفة تتعلق بشىء أمور الحياة وان كانوا يستطيعون تلاوة بعض السور من القرآن • ولذلك نجد بعض الطلاب فى البادية لايستطيعون القراءة أو الكتابة • أو الحديث فى شئون مختلفة تتعلق بشىء أمور للحياة وان كانوا يستطيعون تلاوة بعض السو من القرآن •

المرحلة الثانية معرفة باسم علم : بعض الطلاب فى البادية يواصلون دراسة التعاليم الدينية وذلك بعد اتمام القرآن وذلك فى المدارس الاسلامية العليا المعروفة باسم « علم » Elmu وبذلك تتاح لهم الفرصة لدراسة اللغة العربية النصحى وفى هذه المدارس يبدأ الطالب فى دراسة النحو قواعد النحو • وطريقة التعليم بسيطة للغاية وهى الطريقة التقليدية التىتعتمد على ترجمة النصوص Grammar Translation Method وتهتم الدراسة اساسا بقراءة القرآن والفقه •

والطالب الذى يتمكن من العربية الفصحى ، يمكنه بعد ذلك أن يدخل مدرسة للترجمة ، وطبقا لميولة يختار نوع الدراسة الذى سيتخصص فيه ، فقد يتخصص مثلا فى الفقه أو التفسير أو الفقه والتفسير معا وهذا ممكن فى بعض المناطق التى تتبنى مثل هؤلاء الطلاب فى المناطق الحضرية حيث يستقر معظم المسلمين الذين يشتغلون بالتجارة • وغالبا لا يتفرغ الطالبللدراساتالعليا الدينيةوان كان بعضهم يخصص جزءامنوقتفراغه فى المساء فى قراءة التفسير •• واحيانا يذهب الطلاب الى المساجدلسماع خطبة الفقهاء فى الفقه والتفسير وهذا هام جدا لانه بدون تفسير القرآن وتوضيح تعاليمه تصبح هذه السور القرآنية غير مفهومة والهدف الجوهرى من الدين غير محقق • ويستمر هذا التعليم الدينى فترة تتراوح بين ثلاث وست سنوات ويقبل الرجال والنساء على حد سواء على هذا النوع من التعليم الدينى وان كان عدد النساء أقل بكثير من عدد الرجال •

ومعظم المدارس التى تقوم بتدريس اللغة العربية مدارس خاصة صغيرة تسمى مدارس القرآن Quran School وعدد هذه المدارس غير معروف ولا تعترف بها الحكومة لهبوط مستوى التعليم فيها . هذا وقد بدأت بعض المدارس فى ادخال الحساب . ومعظم هذه المدارس تعتمد على مدرس واحد ويحاول المدرسون الان استخدام الورق فى الكتابة بدلا من اللوح وكذلك استخدام السبورة وعادة ما يترك الطالب هذه المدرسة عندما يتعلم للقراءة والكتابة وينضم الى مدرسة حكومية . ومعظم المدرسين فى هذه المدارس تلقوا تعليمهم فى السودان أو فى مصر أو فى المدارس الحكومية وهم على علم بالطرق الحديثة للتدريس وباللغة العربية المعاصرة . والتعليم هنا لا يعتمد كل الاعتماد على الحفظ كما هو الحال فى مدارس البادية بل يشجع المدرس الطلبة على القراءة والكتابة المستقلة .

وهكذا نجد اللغة العربية تدرس فى البادية كأداة لفهم الدين فى المعاهد الاسلامية ولذلك لا تستخدم فى الحديث بل لتأدية الشعائر الدينية وهكذا فان التعليم الفنى الحديث للغة كاداة للتخاطب والتعبير الشفهى والتحريرى فى أمور مختلفة تتعلق بشتى شئون الحياة اليومية غير متوافر أو متوافر بصورة بدائية وكان آثار ارتباط تعليم العربية فى هذه المناطق بالاسلام أن اقتصرت معرفة اللغة العربية على حفظ بعض السور من القرآن وقراءة وكتابة العربية وقد يستطيع البعض قراءة القرآن وان كان يعجز عن الخروج عن دائرة استخدام اللغة العربية فى الاغراض الدينية وهكذا انتجت هذه الطريقة غير المتطورة فى تدريس اللغة العربية الطالب الذى يحفظ القرآن ويكتب الحروف العربية بصورة متقنه ولكن اذا تحدثت معه باللغة العربية وسألته ان يدلك على الطريق لا يستطيع أن يرد عليك وقد لا يفهمك هل تصف هذا الشخص بأنه أمى أم متعلم ؟

هذا فى البندية أما فى مجلا Magala حيث تستخدم اللغـــة العربية كلغةللتجارة والتعامل وفى دير دوا Pir Dawa وفى جيما Jimma وفى المنطقة الساحلية حيث تستخدم اللغة العربية أكثر منها فى المناطق الريفية وحيث يتوفر درسون من البلاد العربية فهناك تعليم عربى اسلامى مكثف يدرس فيه الطالب العلوب الاســلامية والادب والفلك والتــاريخ • وبعض مدارس هذه المنطقة استطاعت ان تساير مبادىء التعليم الحديثة واساليبها وخصوصا فى المناطق التى يكثر فيها عدد المسلمين • ويوجــد ســت مدارس فى سررر وعشرين فى ديردوا وعشرة فى اديس أبابا وبعض المدارس فى أسمره وجما وميتيوا • وهذه المدارس تدرس بالاضافة الى اللغة العربية والقرآن بعض مناهج وزارة التربية والتعليم حتى السنة الرابعة أو السادسة فى بعض الاحيان ويعيب مناهج الدراسة هنا أنهــا مزدحمة اذ أن الطالب عليه أن يدرس بجانب العربية والقرآن الامهرية والانجليزية الى جانب العلوم الاخرى التى تدرس فى المدارس الابتدائية هذا بالاضــافة الى أن طريقة التدريس ما زالت تعتمد على الترديد والحفظ •

وهكذا عجز التعليم الاسلامى بصورته التى وصفناها عن الوفـــاء بمتطلبات العصر الحديث (١) •

وعموما التعليم الدينى سواء كان هذا التعليم اسلاميا أم مسيحيا يسير وفقا للطرق التقليدية فى التعليم • أما التعليم بصورته الحديثه فيتوفر فى المدارس الحكومية والمدارس التى تديرها الارساليات أو عن طريق المدارس الخاصة •

---

(1) — Language in Ethiopia, Edited by M. L. Bender J.D. Bown. R.L. Cooper. C.A. Ferguson. London Oxford University Press 1976.

الجــزء الخــامس

أهميــة نشر اللغة العربيــة

اللغة العربية من أهم لغات الفكر التى يمكن ان تكون وسيلة للتفاهم بين شعوب القارة الافريقية فى محاولة لايجاد لغة تفاهم مشتركة بين شعوب المنطقة كما أنها لاغنى عنها للمسلم فى افريقية لانها لغة القرآن الكريم ، وهو الوسيلة لنقل الافكار والقيم العربية والاسلامية ٠

وقد ظلت اللغة العربية لغة الفكر والثقافة الافريقية لفترات طويلة حتى مطلع القرن العشرين وهى لا تزال لغة مائة مليون من الافريقيين ٠ وهى أكبر مجموعة تتكلم بلغة واحدة فى افريقيا وهى اللغة الرسمية لثمان دول فيها استطاعت أن تفلت من الغزو الثقافى الاجنبى لاسباب روحية وثقافية وموضوعية ٠

لذلك أصبح من الضرورى أن نفكر بطريقة جدية فى أهمية نشر اللغة اللغة العربية فى العالم ككل وفى أفريقيا بصفة خاصة ، وان ندرس الطرق التى تمهد السبل ، وان نعرف ما هى المشاكل التى تقف عقبة فى طريق هذا النشر وتعرقله ٠

مشاكل تتعلق بنشر اللغة العربية :

أولا : مشاكل تتعلق باعداد المدرس المتخصص فى تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها ويحتاج الامر الى اقامة دورات تدريبية للمعلمين الذين يقومون بتعليم اللغة العربية فى الدول الافريقية وذلك لرفع مستواهم فى المهارات اللغوية العربية وتدريبهم على وسائل وطرائق تدريس اللغة العربية كذلك تزويد المدارس التى تعلم اللغة العربية بالمدرسين المتخصصين لسد الاحتياجات الملحة حاليا واعطاء منح للدراسات الميدانية للغة العربية فى افريقية لاعداد مدرس متخصص فى معرفة مشاكل تدريس اللغة فى هذه المنطقة وهذا بطبيعة الامر قد يتطلب

التعاون مع المؤسسات والهيئات والمعاهد العربية وما تقدمه من خبرات ووسائل تعليمية ومكتبات •

ثانيا : أعادة النظر فى تدريس اللغة العربية وبرامج تعليمها ووضعها الحالى من البحوث والدراسات وهذا يتطلب :

(أ) تطوير اسلوب تدريس اللغة العربية وفقا للاساليب الحديثة فى تعليم اللغـــات •

(ب) جعل اللغة العربية تشكل حيزا مقبولا فى مرحلة التعليم الابتدائى والثانوى وتخصيص فصول دراسية لتقوية اللغة العربية فى الجامعات •

(ج) الكتب المتاحة لتعليم اللغة العربية لاتحقق المواصفات اللغوية والتربوية المعاصرة لذلك يجب اعداد المواد التعليمية المتخصصة فى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بكل مستوياتها وفقا للنظريات الحديثـــة فى تعليم اللغات الاجنبية والمواد الثقافية فى كل مجالاتها وتيسير ايصالها بالطرق المختلفة للدراسين كذلك امداد المدارس والجامعات بالاجهـــزة الالكترونية الحديثة والمعينات السمعية والبصرية [1] •

ثالثا : دعم المدارس القرآنية الموجودة وتطويرها وانشاء المزيـــد منها وتقديم الكتب المناسبة للتلاميذ وتدريب المعلمين اثناء الخدمة لتكوين المعلمين القادرين على تعليم اللغة العربية بكفـــاءة والتوســـع فى فتح مؤسسات تعليمية متخصصة فى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بهـــا وخصوصا فى القرى والريف والتوسع فى انشاء أقسام للغـــة العربيـــة فى الجامعـــة •

رابعا : تطوير اللغة العربية لتكون اداه لتقديـــم العلوم الحديثـــة والتكنولوجيا •

---

(١) أنظر : الثقافة العربية فى شرق أفريقيا : رسالة دكتوراه للدكتوره راجية محمد عفت سنة ١٩٨٠

خامسا : تقديم برامج مسموعة ومرئية متطورة لتعليم اللغة العربية عن طريق وسائل الاعلام كالاذاعة والتليفزيون • كذلك انتاج افلام وتسجيلات يمكن الافادة منها فى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها فى المراكز الثقافية والمؤسسات التعليمية المختلفة •

سادسا : تدعيم الروابط الاكاديمية بين الجامعات العربية والافريقية وتقديم المنح للدارسين الذين يريدون القيام بابحاث فى اللغة العربية تقتضى وجودهم فى الجامعات العربية •

سابعا : طرح الثقافة العربية على العقل الافريقى عن طريق ترجمة الاعمال العربية الى اللغات الافريقية وكذلك ترجمة الادب الافريقى الى اللغة العربية •

القسم الرابع

References

1 — Andrezejewski B. A. (1962): Speech and Writing Dichotomy as the Pattern of Multilingualism in the Somali Republic.

2 — Bender, M.L., (1967) : The Languages of Ethiopia : A New Lexicostatistic Classifiication and some Problems of Diffusion. Journal of Anthropological Linguistics, 13-51 : 165-288 (1971).

3 — R. L. Cooper, and Fergnson, C.A. Language in Ethiopia. London Oxford University Press. (1972).

4 — Denison, N. (1971) : Some Observations on Language Variety andPlurilingualism E. Ardender (ed) Social Anthropology and Language.

5 — Eriksson, Olle, (1932) : Education in Abyssinia. Africa, V. 3 — 338-43.

6 — Ferguson C.A. (1959) : Diglossia Word 1/o 115 PP. 325-40.

7 — The Arabic Koine, Language, Vol. 35, PP. 616-30 (1959).
National - Nahmal Socialinguistic Profile Formulas, in W. Bright (ed). Socialinguistics Mouton.

8 — «Myths about Arabic» Language and Linguistics Monagraph Series Vol. 12 PP. 75-82 Georgetown University.

9 — Fishmen J.A. (1968) : «The Relationship between Micro and Macro Sociolinguishcs in the Study of Who Speaks What Languoge Whom and When?

10 — Greenberg, Joseph H. (1966 a) : «The languages of Africa». Indiana. University Press, Bloomington.

11 — Gumperz O.J. (1962) : «Types of Linguistic Communities» A. 1, Vol. 4, part 1, PP. 28-40 Leslau, W. (1957 a).

12 — Gumperz. J.J. (1869) «Communication in Multilingual Societies» th S. Tyler (ed.) Cognitive Anthropology Holt, Rinefart & Winston.

13 — Haile Sellassie I. (1962) : University College, Faculty of Arts, Department of Education, Conference on Secondary Education in Ethiopia 1-3 May 1962.

14 — Heine Bernd, (1970), «Status and Use of African Lsrgua Francas», Weltforum Verlag.

15 — Hymes, Dell (ed.) (1964) «Language in Culture and Society».

16 — Jones, T.J. (1927) «Education in East Afria» London.

17 — Last, Geoffery c.(1970) Ethiopia, in Encyclopaedia Britannica, Vol. 8 Benton Chicage, 780-90.

18 — Leslau W. (1957) a), «Arabic Loan words in Amharic BSOAS Vol. X PP. 221-44.

19 — Million Neqnig et al (1969), «Report of A Conference on Teacher Education System in Ethiopia Addis Ababa.

20 — Million Neqnig et al. (1966) «The Current Operation of the Education, Ministry of Education and Fine Arts, Addis Ababa.

21 — Ministry of Education and Fine Arts, Elementary School Curriculum», Addis Aaba (1947-8).

— «Secondary School Curriculum», Addis Ababa (1948).

22 — Nader, 1, 1962, « A Note on Attitudes and the Use of Language», AL, Vol. 4 Part 6 PP. 25-9.

23 — Spencer (1963), «Language in Africa», Cambridge University Press.

24 — Stwart, W. A. (1968), «A Sociolinguistic Typology for Describing National Multilingualism in J.A.
Fishan (ed.) Readings in the Sociology of Language Moution.

25 — Trimingham J.S. (1952), «Islam in Ethiopia».

26 — Tucker A. N. and M. A. Bryan (1956), «The New Bantu Languages of Northeastern Africa, Oxford University Press.

27 — Ullendorff, Edward (1955), «The Semitic Languages of Ethiopia» Comparative Phonology» Taylors Foreign Press, London.

الرعى وآثاره على تقدم البــلاد

(مثــال من الصــومال)

دراسة أنثروبولوجية

د. سعاد على حسن شعبان

مقــدمة :

تمر معظم شعوب العالم اليوم بحالة من التغير والتبدل السريع فى البناء الاجتماعى والحضارى ولكن ليس بالضرورة أن يتوافق كل افراد الشعب بنفس الدرجة والسرعة مع هذه المتغيرات ، ومن هنا ينشأ الصراع بين الحكومات التى تحاول جاهدة أن تساير التطور وبين بعض فئات من الشعب . يصعب عليها مسايرة هذا التطور ، وخاصة بالنسبة لشعوب افريقيا التى يمارس معظم افرادها مهنة الرعى ، هذه الحرفة التى تجعل اصحابها فى حالة تجول دائم منشغلين بالبحث عن المرعى والماء للماشية : كما تجعلهم منعزلين عن العالم المحيط بهم • فهم بهذا يســببون عبئــا ثقيــلا بالنســبة للتغــير والتطــور الحضــــارى والاجتماعى والاقتصادى فى البلاد ، حيث انه من الصعوبة جمعهــم فى مكان معين وعمل المشروعات اللازمة التى تتفق مع ثقافتهم من أجــل استقرارهم واستقرار البلاد معهم •

من هنا برزت أهمية هذه الدراسة التى تتركز على شعب الصومال ، ذو التاريخ الطويل الفريد فى نوعه والذى يمارس معظم سكانه مهنة الرعى •

وتعتمد الدراسة على المراجع ، العربية منها والاجنبية ، الى جانب دراسة ميدانية استطلاعية فى الصومال (1) •

وستحاول هذه الدراســة التعرف على الانمــاط الاقتصــادية والاجتماعية والحضارية وأسباب اختلافها ، ان وجدت ، هل هى البيئة وحدها ؟ أم العناصر المتداخلة من تجارة واستعمار بالاضافة الى البيئة ؟ وهل هناك عوامل أخرى سببت ذلك وما مدى تجاوب وتأثر الشعب بكل هذه العناصر وهل أثر الشــعب فى احداها وما هى مظاهر هــذا التأثير ؟ ثم آخيرا آثار حرفة الرعى على البلاد ؟ كل هــذه اسئلة تحاول الدراسة البحث عن اجابة عليها •

لمحــة عن الصــومال :

توجد الصومال فى مناطق الصحراء وغابات القرن الشرقى ومرتفعات الصومال — جالا ، وهى تعتبر ثانى مجموعة قبلية هامة للقرن الشرقى الافريقى ، ويسميها الجغرافيون العرب بربرة •

وجميع سكان هذه المنطقة حاميون ، أو على الاقل لهم أصــل حامى • ويتكون هذا القطر من أربع وحدات سياسية من الشمال الى الجنوب (اثيوبيا ، الصومال الفرنسى ، الصومال الانجليزى ، الصومال الايطالى) ولذلك فوصف شعب هذا القطر منفردا من الصعوبة بمكان نتيجة لهذا الخليط السلالى العظيم ولكن جميع الكتابات تؤكد انهــم حاميين ومع ذلك فتاريخهم المبكر مظلم •

ويشتق اسم الصومال من اســم سكان البلاد الاصليين ، فهــم يرجعونه الى اسم اسلافهم ، وهم من سلالة تاجر غنى يدعى « ذومال » وهى فى اللغة العربية بمعنى الثرى أو الغنى ، ولم يتفق بعد على الاصل اللغوى لكلمة صومال ، فبعض التفسيرات ترجعها الى كلمة مكونة من

(1) الرحلة العلمية التى قام بها اعضاء هيئة التدريس بالمعهد عام ١٩٨٠ .

مقطعين « صـــو » بمعنى يذهب أو اذهب « ومـــال » بمعنى اللبن •
وحينما يحل ضيفا على العشيرة الصومالية يأمر المضيف الولد أو البنت باحضار اللبن للضيف ويكون معناها صومال (اذهب لاحضار اللبن) ومن التفسيرات ما يذهب الى انها مشتقة من « سوماح » وهى كلمـة اثيوبية بمعنى غير متحضر • ولكن تسمية الصومال تسمية حديثة نسبيا •

ويصفهم سيلجمان بانهم معتدلون فى حياتهم كما هو معروف بين بدو الصحراء وان لديهم قوة احتمال كبيرة نظرا لخشونة الحياة كما أنهـم يستطيعون ان يعيشوا فترات طويلة على كمية قليلة جدا من الطعـام والمـاء ويوصفون أيضا بأنهم مرحون ذوو شخصية خفيفة ، ولكنهـم متميزون بالغرور الزائد والبخل والجشع •

ونتيجة لهذه القدرات فلديهم ثقة شديدة بالنفس ، وهم عموما ، متعصبون للدين بصورة مدهشة لابعد الحدود (١) ولقد قسمهم ينـزن الى خمس مجمعات كبيرة : دير ، دارود ، هاويا ، راهانوين وديجيل •

ويؤكد ينزن أن الدير والدارود والهاويا من علية القوم ويمثلون أنقى سلالة صومالية وتسمى العشيرة والفخذ غالبا باسم مؤسسها ، ولكل قبيلة رئيس ، والرئاسة محدودة فى أسرة واحدة (٢) • ويصف ينزن حياتهم الاقتصادية وبعض التقاليد فيقول ان نصفهم تقريبا رعـاة والباقى أنصاف رعاة ، وتعنى الحيوانات لدى البدو الثروة • وهـم يربون الابقار ذات الاسنام وفى بعض الاحيان أيضا الابقار ذات القرون الطويلة وتذبح الحيوانات فقط فى المناسبات وفى الأضاحى مما يعطيهم

(١) C.G. Seligman : Races of Africa 1978, London. Fourth Edition. P. 78.

وعبد المنعم عبد الحليم صوماليا ص ١٧٢

(٢) انظر الخريطة ، أحمد صوار : الصومال الكبير ص ٨ — ١١ .

H. Bernatzik : Neue Grosse Volkerkunde, Koln 1968. P. 211, 212.

الفرصة لتذوق اللحوم ، وهم يقطعــون اللحم الى شرائح ثــم يجفف ويحفظ (١) •

بجانب هذا التنوع السلالى والتاريخى هناك أيضا التنوع الكبير فى البيئة الطبيعية فللبلاد ساحل بحر يبلغ طوله ٣٫٢٠٠ كيلو متر وفى الجزء الجنوبى من البلاد يجــرى نهرا جوبا وشــبيلى (٢) ومياهما لا تنقطع طوال العام وهما يستمدانها من الجبال الواقعة الى الجنــوب من هرر وهناك سلسلة جبلية تعرف بمنطقة « أوجــو » باللغة الصومالية أى الأراضى المرتفعة ويبلغ ارتفاعها نحو ١٥٠٠ متر ويوجد أيضا منطقة سافانا عديمة المــوارد المــائية ولكنها خصبة جدا •

من هنا نجد ان البلاد تتــكون غالبا من السافانا والانهــار فى المرتفعات حيث تنبع من الحبشة وتــكون اثناء الحر غالبا عبارة عن وديان جافة فقط مثل نهر شبيلى • وأكثر الاقاليم خصوبة هى الاجزاء الجنوبية التى يخترقها نهرا شبيلى وجوبا فيما عدا ذلك فالاقاليم غير صالح للزراعة ولا يناسب استقرار السكان(٣) •

يتضح مما سبق أهمية الموقع الجغرافى اما اسم الصومال وما ورد بشأنه (صو ، مال) بمعنى أذهب لاحضار اللبن هذا الاسم يرتبط بعملية احضار اللبن للضيف ، وهى عادة كل الشعوب الرعوية حينما يحل الضيف لابد أن يشرب أولا اللبن أو المــاء ، ونظرا لنــدرة المــاء فى كثير من

---

(١) Walter Hirschberg : Volkerkunde Afrikas, Mannheim 1965 & P. 43, 44, 45, Meyers Handbuch uber Afrika, Mannheim 1962 P. 182, 183.

(٢) انظر الخريطة (١) . Bernatzik, 1968 P. 211, 212.

(٣) I. M. Lewis : A Pastoral Democracy, Oxford 1961 P. 31.
والعالم العربى : وزارة الاعلام والارشاد القومى مقديشيو ١٩٧٥ ص١٠٧
صوماليا اليوم : حقائق ومعلومات عامة ، وزارة الاعلام والارشاد القومى مقديشيو ١٩٧٥ ص١ .

الصومال الجميلة : وزارة الاعلام والارشاد القومى ، مقديشيو ١٩٧٨ ص ٧ .

المراعى الرعوية يقدم اللبن بدلا منه لأنه متوفر وفعلا يكون الانسان فى حاجة الى ان يروى ظمأه بعد المشوار الطويل فى الحر .

ونظرا لحياة الصحراء الخشنة ، فقد تأثر هذا الشعب بها لانها حياة تطبع صاحبها بطابع خاص ، فهى مليئة بالمخاطر والمجاعات والقحط ولابد أن يضع الانسان كل هذه الظواهر الطبيعية فى اعتبـاره وهى ظواهر لا يستطيع التحكم فيها .

وقد وصفهم العلماء بالمرح والشخصية الخفيفة الروح ، وهـذا نتيجة للحياة البدوية حيث أنهم يقضون نهارهم كله فى الفضاء وليس لديهم ما يشغلهم طالمـا وجدوا المـاء والمرعى الا أن يتسامروا ويتحاكوا ، ولكنهم وصفوا كذلك بالغرور الزائد والبخل والجشع فالغرور يأتى نتيجة اعتقادهم أن حياة الرعى أرقى فى نظرهم من الزراعة والصناعة أو أى مهنة أخرى ولذلك نجد من تقاليدهم عدم تزويج بناتهم لابناء الريف . وأما البخل والجشع فمما لا شك فيه أنهما حيطة وحذر تجاه العـوامل البيئة القاسية . كما أن العقائد الدينية لديهم أيضا نتيجة التعامل مع البيئة العظيمة والتأمل لمـا فى الكون من ظواهر تجعلهم أكثر تعلقـا بالالة ومخلوقاته .

ومن عاداتهم التى وصفها العلماء ما كتبه ينزن وباومان (١) ، أن تذوق اللحم نادر جدا رغم أنهم رعاة ، وهذا التذوق يـكون فقط فى المناسبات . وهذه عادة منتشرة لدى جميع الشعوب الرعوية (٢) فالماشية لديهم رغم كثرتها لا تقتنى فقط للاقتصاد ولكنها تعنى الكثير من الناحية الاجتماعية ولها معان عميقة فى نفوسهم ولذلك يعـز عليهم ذبحهـا

---

(١) ينزن وباومان من العلماء الذين كتبو كثيرا عن انثروبولوجية امريقا انظـو :

Walter Hirschberg : Volkerkunde Afrika : Mannheim 1965, Bernatzik. P. 211, 212.

(٢) كما شاهدت فى بعض المجتمعات الرعوية فى جمهورية السـودان (بجـا) وبالمملكة العربية السعودية (الصنادق والروقية بجوار الدرعية).

الا للضرورة كعرس أو وفاة أو ضيف عزيز ولذلك فقد تفننوا فى حفظ اللحم لأطول فترة ممكنة ، فهم يقطعونه شرائح رقيقة ثم يتركونه يجف فى الشمس ويطحن بعد ذلك ويخزن فى أوانى خاصة .

لكن هذه الصفات تنطبق فقط على سكان الجبال والصحارى ولذلك نجد أن سكان السواحل يختلفون فى طبائعهم وعاداتهم عن هؤلاء فهم يعيشون فى بيئة مختلفة حيث يتوفر الماء المحروم منه سكان الصحراء ويتناولون أطعمة أخرى تجود بها الطبيعة (الاسماك) ويستعملون أدوات أخرى وهؤلاء يختلفون كذلك عن البعض الذى يعيش بين نهرى شبيلى وجوبا وممارسة مهنة ثالثة ومخالفة تماما لما سبق وهى الزراعة بما فيها من استقرار وتربية الحيوان للاقتصاد والغذاء مع استخدام أدوات مختلفة بالطبع .

يظهر من كل ما تقدم تأثير البيئة الطبيعية على طبائع الناس وغذائهم وأدواتهم . بجانب كل هذه العوامل هناك عامل آخر غاية فى الاهمية الا وهو الطرق والمواصلات . وتعتبر الطرق والمواصلات شريان الحياة بالنسبة لاى بلد بصفة عامة والصومال خاصة نتيجة لهذا الموقع العظيم (١) .

وفيما يخص الطرق يوجد بالصومال عموما حوالى ١٤٣٠ كم طرق منها ٦٠٢ كم طرق مرصوفة و ٨٢٨ كم غير مرصوفة ولا يمكن السير فى الطرق فى شمال الصومال الا وقت الجفاف فقط . ومعظم الطرق المؤدية الى المدن والقرى مرصوف ونجد فى الجنوب المزارع والمراعى على جانبى الطرق .

ويوجد من وسائل المواصلات السيارات التى يركبها الرجال والنساء من مقر اقامتهم الى مكان العمل . وهناك فى الجنوب خط حديدى يمتد من مقديشيو الى فيلا ايروزوى وكان الغرض الرئيسى من انشائه

(١) أحمد صوار : الصومال الكبير ص ٣ ، وعبد المنعم عبد الحليم صوماليا ص ١٧ — ٤٥ .

خدمة الأغراض العسكرية . أما المواصلات المـائية فأهمها نهر جوبا الذي يصب فى المحيط الهندى ويعتبر أحد الشرايين الرئيسية فى البلاد ويفتقـر الاقليم الشمالى الى المواصلات المائية والحديدية (١) .

المـوانى :

بربرة زيلع فى الشمال .

كسمايو الميناء الرئيسى فى الجنوب .

ميركا مينـاء تجارى .

وتعتبر مقديشيو النقطة الرئيسية لتجارة الاقليم الخارجية . وفيما يختص السفر الجوى تعتبر مقديشيو ميناءا جويا عالميا .

ان الطرق هى ايضا من صنع الطبيعة ولكن للانسان القدرة عـلى تغييرها لمصلحته ومنها الطرق التى تربط الجمهورية نفسها بجيرانها ، وهذا له أثره على حركة الانسان من والى البلاد حيث يسهل الاتصـال بين الشعوب وبعضها سواء كان هـذا الاتصال تبادلا تجاريا أو ثقافيا أو اجتماعيا ومنها الطرق التى تربط البلاد ببعضها داخل القطر وهى لا تقل اهمية عن سابقتها اذ انها تساعد على اندماج الشعب بجميع فئاته وهناك الطرق التى بداخل كل مدينة وقرية وكذلك الملاحة النهرية وهى ذات طابع مخالف وتتطلب من الذين يتعاملون معها أن يتقنوا صناعة السفن وحرفة التجوال فى البحـار .

موارد الميـاه (٢) :

ان الامطار قليلة فى الصومال (٣) وبجانب هذا المورد الطبيعى توجد

---

(١) Meyers Handbuch uber Afrika P. 652.
وملاحظات شخصية كذلك .

(٢) وصوماليا اليوم حقائق ومعلومات عامة — ١٩٧٥ ص ١٠١ .
Meyers Handbuch Uber Afrika P. 651.

(٣) من الطريف ان هناك كثير من الشعوب التى يظهر بينها شخص يزعم انه جالب المطر او صانع المطر وقد وصف سليجمان هذه الشخصية =

الانهار ، جوبا وشبيلى ولنهر جوبا ثلاثة فروع تصب مياهها فيه وهى « داوا ، جنانى ، مانا » وتلتقى الفروع الثلاثة بالقرب من مدينة دولو « ليكونوا نهر وبى جنابى » أو جوبا أما نهر شبيلى فله فرعان صغيران يصبان مياههما فيه فى مكان يقع على بعد حوالى مائة وعشرة كيلومترات شمالى قرية « ايمى » ويتلاشى نهر شبيلى فى المستنقعات والكثبان الرملية القريبة من قرية « افى » وفى السنوات التى تكثر فيها الامطار يصب نهر شبيلى مياهه فى نهر جوبا .

وفيما عدا ذلك هناك وديان تشق طريقها خلال الامطار الموسمية وتعرف محليا (بتوج) أو « دوحو » وهى تجف معظم شهور السنة . ويوجد أيضا المجارى التى تمدها الينابيع بالمياه . والمجارى الرئيسية هى «دارود» ، «نوجال» ، توج مجادا«توج»، «دير»، «وجنابى» وتذهب اغلب المياه التى تمر بهذه المجارى عبثا دون ان يستفاد منها فى الرى الصناعى مثلا ، غير ان الوديان التى تمر فيها توفر للمواشى مراعى خصبة وخاصة بعد سقوط الامطار وتتسرب مياه بعض المجارى فى التربة ولا تصب فى البحر .

ويتميز الجزء الاكبر من البلاد بالصرف الداخلى للمياه وببقايا الرواسب الناتجة من عملية تبخر الماء وتؤدى هذه الحالة الى تزايد نسبة الاملاح فى كل من المياه الجوفية والسطحية .

=
بعد ان رآها واجرى عليها دراسة ميدانية لدى النوير وغيرها من الشعوب فيقول بأن هذا الشخص ذكى جدا وخبير بأحوال الجو فى استطاعته ان يؤجل حفل اسقاط المطر مرات ومرات الى ان تحين الفرصة فى الجو لذلك فللمطر علامات يعرفها جيدا وعند ملاحظته لها يدعو الشعب لاقامة الشعائر حيث ان الوقت قد حان لذلك وبعد ان ينتهى منها يسقط المطر فعلا . كما يقول سيلجمان ، هذا بالنسبة للشعوب التي لديها معتقدات خاصة اما هذه الشعوب البدوية التى تدين بالاسلام وتعرف حقا ان الله هو القادر على انزال المطر فتقوم فقط باقامة الصلوات والدعوات ويؤمهم شيخ القبيلة او رجل الدين الموثوق فيه لديهم يدعو الله ان يفك هذه الازمات .

والينابيع الرئيسية الدائمة فى البلاد هى « ايشابيدوه » ، « جيل ودل مادو » فى اسكوشوبن ، « كرن بوصاصو » ، « جلجولو » ، « بيكولولى » ، « أوفين » ، آيل « جساروى » ، « جاحا » ، «توهسين » ، « قنسدلا » « سين » « علولا ، داموج » فى بورمة وغيرها وهناك ايضا ابار كثيرة يستعملها مربو الماشية لسقى مواشيهم فى طول البلاد وعرضها • ويوجد كذلك تجويفات طبيعية تعرف محليا باسماء متعددة مثل » ور « ، « هر » « ديشن » « بللى » « اوبيلك » وتحتفظ هذه التجويفات بمياه لبعض الوقت بعد انتهاء سقوط الامطار • كما ان هناك البرك وهى تعتبر اماكن لتخزين المياه وهى محفورة فى الارض ومبنية بالاسمنت ويمتلك كل منها شخص واحد ، ولقد أصبحت الان محبوبة فى جميع انحاء البلاد وخاصة فى منطقتى « هاود » « نوجال » • فيما يخص الموارد المائية نجد منها ما هو طبيعى ولايمكن التحكم فيه وهى الامطار التى تخضع للعسوامل الطبيعية البحتة • ولقد شاهدت أهمية المطر فى كثير من الاماكن بالصومال حتى انه عندما سقط المطر اثناء تجوالنا وتجمع ماؤه فى بعض الحفر ، رأينا النساء تجمع هذه المياه من الحفر لتخزينها واستخدامها فى أوقات الجفاف فى اعمال المنزل • وهناك كذلك الانهار التى تتكون نتيجة لسقوط الامطار وفيما عدا ذلك توجد الينابيع الطبيعية والابار التى يقوم بحفرها الانسان لاستكمال هذا العامل الحيوى والذى لا يمكن الاستغناء عنه •

اقتصاد البسلاد(١) :

يشتغل معظم الصوماليين بالرعى فى مناطق الاستبس • وهنساك يقومون برعى الماشية أو الاغنام والماعز ويمارس فريق منهم الزراعة على طول الانهار والمجارى المائية وعند البحيرات العذبة أو الينابيع والابار • فمعظم الشعب الصومالى من مربى الماشية الرحل ونسبة ضئيلة منهم اما

(١) Meyers Handbuch uber Afrika P. 652.

مزارعين مستقرين أو صيادى سمك أو يعيشون فى المراكز الحضرية • ومربو الماشية قوم من الرحل الذين يعتمدون اعتمادا كليا على مواشيهم، ولهذا فهم مشغولون دائما فى تنقلاتهم الموسمية بحثا عن الماء والمرعى لها•

وحينما نتحدث عن المراعى لابد ان نذكر الغابات ، فلايمكن الفصل بين الغابات والحيوانات المتوحشة والمراعى ، لان الغابات تأوى هـذه الحيوانات وتوفر المراعى الغنية لهـا وللمواشى التى يربيها الرعـاة الصوماليوم ، كما أن المراعى توفر الغذاء للحيوانات الاكلة للاعشاب سواء كانت اليفة أو متوحشة وفى نفس الوقت فان اشجارها تحمل الثمار ولاتوفر للمواشى والحيوانات الاخرى المأوى والغذاء وحدهما وحسب ، وانما توفر للشعب أيضا نباتات كثيرة •

وترتفع نسبة الرعاة فى شمال الصومال نظرا لشدة الجفاف ولعدم امكانية الزراعة وتتحول البداوة والرحلة الطويلة الى نوع من الهجرة الفصلية ثم الزراعة كلما اتجهنا جنوبا ويمارس معظم السكان الزراعـة وتربية الماشية معا وهذا بفضل زيادة المطر فى جنوب الصومال من ناحية وبفضل نهرى شبيلى وجوبا من ناحية اخرى • ويتبع الرعاة فى حركتهم دورة فصلية معروفة تتفاوت مساحتها استجابة لظروف المطر وليست هناك ملكية للعشيرة فى أرض معينة ، تعتبرها مراعيها ، ولكن حيـازة الارض تتوقف على استغلالها واحتلالها لها فقط(١) •

الحيوانات(٢) :

يربى الرعاة الذين يمثلون ٧٤ ٪ من السكان الابل بصفة خاصة ، فكلما بعدنا عن مقديشيو العاصمة واتجهنا نحو الجنوب تزيد الثروة الحيوانية

---

(١) I. M. Lewis A Pastoral Democracy Oxford 1961 P. 49.

(٢) Mevers Handbuch uber Afrika P. 652.

واحمد صوار : الصومال الكبير ص٣٠ ، عبد المنعـم عبد الحليم : صوماليا ص ٥١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٠ . والصومال الجميلة ص ٤٤ ، ٤٥ ، صوماليا اليوم ص ٩ ، ١١ .

وخاصة الجمال والابقار وأما المعز والاغنام فتكثر فى الشمال • وينتقل الرعاة من الساحل حيث تكثر الابار ، وخاصة فى الجنوب ، الى الداخل ولكنهم يتأثرون الى حد كبير بتوزيع مواقع الكلأ ومواطن الملح التى تلعقها الحيوانات وتوزيع المراعى القبلية • ويقود صاحب القطيع قطيعه الى منبع الماء صباحا ، ويلاحظ على طول الطريق من مقديشو الى الجنوب تجمع الناس بحيواناتهم حول منابع المياه (١) •

وقد لاحظنا ان الماعز هنا من نوع متميز فنجد ان حجمه كبير ويشبه الغزال فى جلده الناعم والوانه جميلة وهم يصدرون جلده للخارج • ويذبح الماعز بواسطة مصنع مخصص لذلك ويأخذ المصنع الجلود بطريقتـه الخاصة • وللابل قيمتها الخاصة فى البوادى ولاصحابها أيضا شهرة عظيمة وتسمى الابل بالصومالية « جيل » ولتلك الكلمة رنين عظيم • ويقوم برعى الابل الشباب من الذكور الاقوياء ، يتأفف رعاة الابل من شرب حليب الضأن والماعز ويكتفون بشرب حليب النوق كلما دعت الحاجـة الى ذلك والملاحظ انهم يشعرون بنوع من الكبرياء والترفع عن رعاة الضأن والماعز • وعندما تصاب الابل بأى مكروه فان الرعاة يصابون بالذهول ويفقدون صوابهم • ويتراوح نصيب الاسرة بين ١٠ — ١٠٠ رأس من الماشية ، وان كان يصل الى ١٠٠٠ رأس احيانا •

والتنقلات الموسمية لدى الرعاة الرحل مرتبطة ارتباطا وثيقا بتوافر الماء فى مراعى « نجد هاود » الشاسعة وانعدامه فى خلال الشهور الجافة

---

(١) ملاحظات شخصية ، عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص ٥٣ ، ٥٨ •

المنبع المائى :

عبارة عن حفرة تملا وقت المطر ويسمى تجمع الناس حولها (توك) باللغة الصومالية ، وهى تقابل الفولة والحفير فى السودان ، والاختلاف بين الفولة والحفير هو أن الاولى طبيعية والثانية صناعية .

التى لاتسقط فيها امطار يرحل الرعاة بقطعان ماشيتهم ويتجمعون فى المناطق التى يتوفر فيها الماء اما من الابار أو من البرك ، وعندما تبتدىء أمطار فصل الربيع والصيف فان المراعى كلها تتفجر حيوية واخضرارا من جديد فى ظرف ايام معدودات ، غير ان الرعاة لايستقرون فى مكان واحد ، بل يستمرون فى حلهم وترحالهم فى سعى جاد ودائم لمناطق رعوية افضل • يوجد فى البلاد ٨ ملايين هكتار من الاراضى الرعوية التى تربى بها الحيوانات •

المحاصيل الزراعية[١] :

نظرا للاختلاف الواضح فى الطقس والتضاريس نجـد أن النباتات تختلف كذلك من منطقة لأخرى • ففى الأجزاء الجنوبية من البلاد تكثر الشجيرات والاعشاب ، وذلك بسبب الامطار الوفيرة التى لاتكاد تنقطع لحوالى سبعة اشهر فى العام تقريبا ، ولكن كلما اتجهنا نحو الشمال كلما اصبح الطقس اكثر جفافا • وتختفى النباتات الخشبية فى البلاد فى سرعة مذهلة والسبب فى ذلك هو الرعى الزائد عن الحد وتكاثر المواشى وحرق النباتات لانتاج الفحم النباتى •

اما الغابات فانها توفر للشعب ايضا اللبان والمر اللذين اشتهرت بهما الصومال منذ قديم الزمان ، بالاضافة الى الصـمغ العربى والعسل والاخشاب ، ومواد التسقيف واللحام والفحم النباتى وغير ذلك ممـا لايمكن الاستغناء عنه ، وهناك ايضا التبغ والموالح والسمسم واللوز وأنواع كثيرة من الخضراوات وقد أدخلت بعض أنواع من الأعشاب حديثا فى الصومال وهى اعشاب (البرسيم الحجازى) والبرسيم والعشـب السودانى لانتاج علف الماشية •

---

(١) Meyers Handbuch Afrika P. 652.
واحمد صوار : الصومال الكبير ص ٣١ ؛ عبد المنعـم عبـد الحليم : صوماليا ص ٤٦ — ٥٠ — ٩٠ — ١٣١ والصومال الجميلة ص ٤٢ — ٤٥ . وصوماليا اليوم ٩ — ١١ .

وتقوم الزراعة على الرى وبخاصة فى الجنوب فى وادى شبيلى وجوبا حيث يزرع الذرة والذرة الرفيعة والموز وقصب السكر والارز والقطـن ويزرع فى الجنوب ايضا شـجر الباباظ وجوز الهنـد وتكثر المراعى والشجيرات القصيرة المتناثرة ذات الأشواك . كما تنمو أيضا أشجـار الصنوبر • وأهم المحاصيل الغذائية البلح والبذور الزيتية والسكر والارز. اما المحاصيل التجارية فاهمها القطن والموز •

انتـاج الموز(١) :

يعتبر الموز من أهم الغلات الزراعية فى الصومال ويزرع فى سهل جوبا. كما يزرع ايضا قصب السكر فى الاجزاء الوسطى من وادى نهر شبيلى ويحتل محصول الموز المرتبة الثانية بعد المنتجات الحيوانية بالنسبة لمواد التصدير وهو مصدر مهم للحصول على العملة الصعبة ، ولقـد بلغت المساحات المزروعة موزا ٥٢٠٠ هكتارا وارتفع الرقم الى ٧٠٠٠ هكتار عام ١٩٧٤ ثم بلغ ٩٨٠٠ هكتار سنة ١٩٧٥ ويصدر القسم الأكبر من محصول الموز الى الاسواق الخارجية ولا يخصص منه للاستهلاك الداخلى سوى ٢٥ ــ ٣٥٪ من النوعية الرديئة •

مجلس الموز الوطنى :

مسئول عن تصدير محصول الموز الى الاسواق الخارجية ، فيشترى الموز وينقله الى ميناء قسمايو ومركا القريبين من المزارع فى الجنوب فى مناطق نهرى شبيلى وجوبا ، وهناك يزرع ايضا الليمون أو الجريب فروت الذرة الشامية والطماطم وغيرها •

القطـن (٢) :

يزرع القطن بالصومال فى المنطقة الواقعة مابين النهرين ، وكانت الصومال من البلاد المصدرة للقطن فى الماضى ، ولكن زراعته بدأت تتدهور

(١) موماليا الجميلة ص ٣٤ .

(٢) صوماليا ص ١٢٠ .

اخيرا • وهناك مناطق الزراعة المطرية ، ومناطق الرى الطبيعى عن طريق فيض الانهار ومناطق الرى الصناعى • وامكانية الرى الصناعى فى البلاد محصورة فى المناطق الواقعة على ضفاف نهرى جوبا وشبيلى وخاصة الاول •

ومن أجل منع الكوارث التى تسببها الفيضانات للاراضى الزراعية بدأت الحكومة مشروعات تهدف الى بناء حواجز منيعة للفيضانات على ضفاف النهرين ، والاساليب الزراعية المستعملة حاليا قديمة ومتخلفة وخاصة بالنسبة لفلاحة الارض واعدادها وتمهيدها لبذر البذور واستعمال الاسمدة والتحكم فى امراض النباتات والافات الزراعية وتسبب هذه الاساليب العتيقة خسائر كثيرة فى المحصولات الزراعية •

صيد السمك (١) :

يمارس أهالى الجهات الساحلية مهنة صيد السمك وذلك على الساحل الشمالى للاستهلاك المحلى والتصدير الى عدن ، وهناك فرص كثيرة لصيد السمك فى كل من جوبا وشبيلى • ويشتغل بعض الاهالى بصيد الاسود والنمور والغزلان والطيور الجميلة من الغابات •

المعـــادن (٢) :

تعتبر الصومال غنية بالمعادن ، فهناك أنواع من الثروات المعدنية مثل الملح والجبس والكبريت والبترول والفحم •

التصنيـــــع :

يخدم التصنيع العديد من القطاعات الاخرى كالزراعة وتربية الحيوانات وصيد الاسماك • وتتركز الصناعة فى صناعة السكر وعصر

---

(١) الصومال الجميلة ص ٣٨ .

(٢) صوماليا اليوم ص ١٥٣ ، احمد صوار : الصومال الكبير ص ٣١ ، عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص ١٢٧ ، الصومال الجميلة ص ٣٦ .

الجلود وصناعة منتجات الالبان وحفظ اللحوم واستخراج الملح وتجفيف الزيوت من السمسم وبذرة القطن وصناعة الصابون وحلج القطن ودبغ السمك وحفظه وعمل الثلج وصناعة الاثاث وتصنيع صناديق الموز •

التجـــارة (١) :

تكثر تجارة الابل فى الشمال عن الجنوب وتكثر تجارة الابقار فى الجنوب عن الشمال ، اما الضأن والماعز فهما فى الشمال والجنوب • ومن بين المنتجات التصديرية ذات الاولوية الغالبة : الملح وللاسماك والاغذية السمكية الاخرى ايضا طلب شديد فى الاسواق الاجنبية • وتشكل الجلود والفرو صادرات تقليدية للصومال ، كما يصدر الموز والقطن والفحم • ويستورد البن ، الشاى ، الكاكاو ، الدقيق ، الفواكه ، الخضروات الارز السكر ، والحلوى وايضا المشروبات الروحية والصابون والورق والاقمشة وخيوط الغزل والسيارات والالات الزراعية والات المصانع والادوات المعدنية والمواد الكيماوية ومواد البناء وزيت التدفئة وكل انواع البضائع الجاهـــزة •

ومن اصناف الفاكهة التى توجد فى الاسواق بكثرة : البابابا ، الموز ، المانجو ، القشطة ، وجوز الهند •

العملـــــة :

فى الصومال عدد من العملات المختلفة التى أدخلت فى البلاد فى أوقات مختلفة وكانت الاسباب الرئيسية لمثل هذه المتغيرات نابعة من تغير الاحوال فى وقت الحرب وتعدد الحكومات الاستعمارية المختلفة التى تقاسمت الصومال فيما بينها • وكانت الليرة الايطاليـــة والروبيـــة الهندية وشلن شرقى افريقيا من بين العملات الرئيسية • ثم انشأ القانون المالى المؤرخ ٦ مايو ١٩٦١ عملة واحدة للبلاد باسم « الشلن الصومالى » وتختصر

---

(١) احمد سوار : الصومال الكبير ص ١٥ — ١٦ ، عبد المنعم عبد الحليم: صوماليــا ص ١٥٠ .

الى (ش.ص) وفى نفس الوقت سمح القانون أصدار عملة ورقية «بنكنوت» ومعدنية قطع النقد بالشلنات الصومالية •

تقســيم العمــل :

فى الحياة البدوية نجد النساء اكثر مهارة ودقة من الرجال متحملين العبء الاكبر ، ويتوقف عصب الحياة فى البوادى على المرأة فتبدأ يومها بحلب الماشية واعداد الطعام والاعتناء بالاطفال ورعى الضأن والماعز وتنظيف حظائر الحيوانات من الروث ، وفى المساء ايضا حلب الماشية واعداد طعام العشاء وتوفير الراحة لزوجها والعناية بالمرضى ودبغ الجلود وتجفيفها وحياكة الثياب وعمل المنتجات اليدوية الخاصة بالنساء ونقــل الاكواخ على ظهور الجمال عند الرحيل واعادة بنائها كما تقوم بصناعة جميع مستلزمات الاكواخ من اعمدة واســقف مــن النباتات وجذوع الاشجار بالاضافة الى صنع القفف والحصير من السعف • وكذلك القدور من الفخار ، والطبول من الجلود ، والزخرفة بالخرز والاهتمام بالملبس • تقوم المرأة ببناء معظم بيوت البادية ،كما ان رعى البقر مشترك بين الرجال والمرأة ، وتهتم المرأة بتصنيع منتجات الالبان وبصفة خاصة الزبد الذى يسمونه « برعد » والسمن « عدعد » وهى تمارس حرفا كثيرة تبعا للمواد المتوفرة فى المنطقة مثل : تصنيع لحاء الشجر الى اشياء كثيرة منها بعض الاوانى وانواع الحصير ، وحتى بعض الملابس فهى تصنعها ايضاً من لحــاء الشجر •

وقبل أن تنتقل الاسرة من مقرها القديم الى مقرها الجديد لطلب الكلأ يقوم الرجال بالرحلات الاستطلاعية وقيادة موكب الاسرة عند الانتقال وتحصين المساكن بالاشجار الشوكية ورعى الابل والاهتمام بها والدفاع عن العشيرة اذا قضت الضرورة ، كما يقومون بصناعة المواد الجلدية كالاحذية والاحزمة ، ومن المواد الخشبية جميع انواع العصى والامشاط والملاعــق •

مما سبق يتضح أن اقتصاد البلاد يعتمد على الرعى[1] ، ويخضع الاقتصاد للتطور والتغير مثل احوال المجتمع كله ، ولكن لابد لهذا التغير من عوامل تساعد على ذلك منها التربة والموارد المائية والانتشار الثقافى الذى يعتبر عاملا مساعدا على تغيير الانسان لسلوكه • وتلى مرحلة الرعى فى تطور المجتمعات الزراعة البدائية ، وطالما لم تتوفر العوامل البيئية المساعدة لمارسة هذا النمط الحضارى « الزراعة » فسيظل الانسان يمارس حرفته الاولى « الرعى » وهذا ماقد حدث بالنسبة لفئات الشعب الصومالى التى مازالت تمارس الرعى •

وتتوقف نوعية الحيوانات على البيئة كذلك ، ففى البيئة التى توجد بها الانهار تكثر الابقار كما هو فى الجنوب ، وفى الشمال حيث الجبال والجفاف، تكثر الابل • ومما يضعف الارض ويمنع انتشار المراعى ويساعد على ضعف الحيوانات كذلك كثرة الاملاح فى كثير من الاراضى حيث تلعق الحيوانات هذه الاملاح • ورغم فقر البلاد فقد لاحظنا ان الماعز من نوع جيد جدا ليس له مثيل من ناحية الوانه واحجامه حيث يستغل جلده فى التصدير ويعود على البلاد كذلك بالنفع • وللابل لديهم معنى اجتماعى خاص فملاكها لهم منزلة خاصة وهى كذلك تدفع مهورا فتعتبر ثروة لان عن طريقها يتم الزواج وتتكون الاسر وتنجب الاولاد والبنات فالاولاد يقومون بتربيتها ورعيها وعن طريق زواج البنات تأتى الابل الى الاسرة •

وماينطبق على الثروة الحيوانية ينطبق كذلك على المحاصيل الزراعية من ناحية ارتباطها بالبيئة الطبيعية •

ويتحكم فى النبات كذلك عوامل كثيرة منها الامطار والجفاف والرعى الدائم واستخدام أخشاب الاشجار لانتاج الفحم النباتى •

وتشتهر الصومال منذ القدم بزراعة بعض النباتات التى تنفرد بها ،

---

(1) احمد صوار : الصومال الكبير ص ١٥ — ١٦ ؛ عبد المنعم عبد الحليم: صوماليا ص ٥٦ .

وقد اشتهرت بتجارة منتجات هذه المحاصيل ومازالت لليوم ومنها اللبان والصمغ والمر ، وقد بدأت البلاد حديثا فى ادخال اعشاب ونباتات جديدة لم تكن موجودة من قبل وذلك لتوفير العلف للمواشى • ومن هنا يظهر التفكير الجدى والعملى لاستقرار البدو • ورغم أن الزراعة هى الشريان الثانى بعد الرعى فى الصومال نجد ان طرقها وأدواتها عتيقة • وقد لوحظ كذلك أثر المرأة فى الحياة الاقتصادية بالنسبة للبدو بصفة خاصة حيث انها تقوم بمعظم الاعمال ولا تهمل فى شىء ولاتكل فقد شاهدناها فى المرعى وهى تحلب الماشية وتجمع الالبان فى أوانيها الخاصة ، وتجلب الماء حتى من الحفر التى امتلات به بعد سقوط الامطار ، وتبنى الكوخ وتفككه ، الى جانب العديد من الحرف التقليدية التى تمارسها بمهارة وبالمواد الموفرة فى المنطقة • هذا الى جانب تربيتها لاطفالها الذين هم رجال المستقبل •

ويقوم الرجال باعمال مكملة لتلك التى تقوم بها المرأة فنجد أن رعى الابل يقوم به الرجال وخاصة الشباب الاقوياء وذلك لما لهـا من مـكانة اجتماعية عالية لديهم ويقومـون ايضا باستكشاف الاماكن الصالحة للرعى وبدونهم لايكون هناك رعى ، والدفاع عن العشيرة مهمة الرجال وهذا يتطلب الشجاعة والمخاطرة والخبرة الطويلة بفن الحروب • ويقوم الرجال بصنع اشياء قد لا تستطيع النساء القيام بها وهى تصنيع الخشب والجلود ولديهم مهارة وفن فى هذا النوع من الحـرف •

ومن الناحية التاريخية (١) نجد ان الشعب الصومالى يعتبر الشعب الوحيد فى افريقيا الذى تعرض لاستعمار اربع دول مختلفة وقسمها الى خمسة اجزاء ، فى حين أنه كان موحدا فى كل شىء قبل تواجد تلك الدول • وقد استقلت الصومال فى عام ١٩٦٠ وتم الاستقلال ونهاية الاستعمـار فى ١٩٦١/٧/١ (٢) •

---

(١) احمد صوار : الصومال الكبير ص ٢٧ ــ ٢٩ ؛ عبد المنعم عبد الحليم: صوماليا ص ١٧٢ ، ٣٢٧ ، وعبد المنعم عبد الحليم صوماليا ص ٣٢٧ .

(٢) العالم العربى : جمهورية الصومال الديمقراطية ــ وزارة الاعـلام والارشاد القومى ــ مقديشيو ١٩٧٥ ص ١٠٥ وعبد المنعم عبد الحليـم : صوماليا ص ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ .

John Drysdale : The Somali Dispute, London 1964.

لو تأملنا تاريخ الصومال لوجدنا ان المستعمر قد حاول دائما تمزيق وحدة البلاد وللشعب حقوق فى المنطقة لابد ان تراعى ، فهناك ما يسمى بحقوق الافراد والتى نصت عليها جميع الدساتير وفيه يحافظ على حقوق الفرد مثل حماية ممتلكاته وحياته وحقوق العبادة وحقوق ابداء الرأى وغيرها .

ان التنظيم الادارى المنصوص عليه قانونا يحاول القضاء على القبلية (١) والالقاب ولكن هذا الاسلوب لا يتناسب مع مثل هذه الجماعات الشديدة التعصب لقبليتها ولعاداتها وتقاليدها الى توارثتها منذ الاف السنين ولا يمكن لاى قانون ان يمحوها لانها ترتبط باسماء اسلافهم ، وربما كان هذا اجراء اساسيا يمس الالقاب والقبائل كتنسيق سياسى ، ولكن العشيرة كنظام قرابى وعائلى لا يمكن ان تمحى ، وخاصة وانها ترتبط بعقائد الأفراد .

ان القوانين يمكن ان تتبدل بين يوم وليلة وكذلك الاشياء المادية . ولكن طبائع الناس وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وأسلوبهم فى الحياة يحتاج لطرق واساليب غير القوانين ، وهذه تتطلب دراسات كافية للوصول الى أعمال ومفاهيم الشعوب . وحينما نصل الى هذه النقطة نبدأ فى وضع القوانين وتنفيذ المشروعات وسنحصل على النتائج المرجوة فى الوقت المطلوب بدون عوائق أو صعوبات .

الحضارة المادية :

المساكن : (٢) كما تختلف النباتات والحيوانات باختلاف البيئة تختلف ايضا المساكن ، ففى الشمال توجد ثلاثة أنواع رئيسية من المساكن هى : كوخ الرعاة المتنقل (أغل أو خيمة) والكوخ الثابت

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص ٢٢٩ : ٢٣٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٢ .

(عـــريش) ثم المنازل الحجرية • وفى الجنوب يزيد على هذه الانواع الثلاثة كوخ الزراع (مندل) •

أولا : كوخ الرعاة المتنقل (أغل أو خيمة) :

يمتاز هذا الكوخ بسهولة حله وتركيبه • ويضع الراعى اجزاء ذلك الكوخ فوق ظهر بعيره عند انتقاله من مكان لآخر ، وهو يشبه فى شكله خلية النحل • ويتركب من جزئين رئيسين هما : الهيكل من أغصان الاشجار المربوطة بعضها الى بعض فى شـــكل نصف كروى (لجة) ، والأغطية من الحصير المسمى (داد) ، وهو نوع من الحصير ضيق المسام لحماية الكوخ من حرارة الشمس وماء المطر • ويربط هذا الحصير فوق هيكل بحبال سميكة تستخدم ايضا فى ربط اجزاء الكوخ فوق ظهور الابل عند الارتحال • وتلف دعامات الهيكل باشرطة من جلد المـــاعز وفى موسم المطر الغزير يضع الرعاة أغطية من الجلد بين الحصير وبين الهيكل لمنع تسرب ماء المطر وعلى باب الكوخ تتدلى ستارة مصنوعة من الحبال الغليظة أو من أشرطة الجلد أو من الحصير • وأحيانا يمد الحصير على أعلى الباب لعمل مظلة صغيرة • ويتراوح ارتفاع الكوخ فى الداخل ما بين ٥ر١ ، ٥ر٢ متر ، وقد يوجد بالداخل حاجز رأسى من الحصير لتقسيم الكوخ الى قسمين •

ولكل من الرجل والمرأة فراش من حصير ، وغالبا ما يكون فراش المرأة فى الناحية اليمنى وفراش الرجل فى الجهة اليسرى • وتوضع على الأرض أوانى اللبن والمـــاء والزبد وتتدلى من دعامات الهيكل الاوعيـــة الصغير مثل أوانى القهوة والشاى • ويوجد الموقد أمام الباب ويسمى (جمرة) اذا كان مصنوعا من الفخار أو (برتشك) اذا كان من الحجر المنحوت ، وله قاعدة ويشبه مدافىء الفحم فى مصر •

وتتجمع اكواخ الاسرة الواحدة داخل سور من الاغصان الشوكية (اردای) وتكون اكواخ المنطقة كلها نصف دائرة فى وسط فناء به حظيرة

حيوانات ويحيط بهذا كله سور • وليس هناك عدد معين أو حجم محدد للاكواخ داخل السور ، وقد تكون اسرة واحدة كبيرة أو عددا من الاسر ترتبط بالنسب المشترك وتتجمع مع بعضها البعض ابتغاء الحماية • وتتولى النساء اقامة هذه الاكواخ وحلها بينما يقوم الرجل بعمل السور واقامة حظائر الحيوان • والاصل فى اسخدام هذه الاكواخ ان تكون مساكن للرعاة فى اثناء ارتحالهم كما سبق ان ذكرنا ، ولكن فى اطراف المـدن والمراكز يتخذ الفقراء منها مساكن ثابتة[1] •

ثانيا : الكوخ الثابت (عريش)[2] :

يكثر هذا النوع من المساكن فى المناطق الشمالية ، ويوجد فى الجنوب ايضا وخاصة فى المراكز التجارية مثل بلدة لوخ ، كما يسكنه الوطنيون فى المدن الساحلية مثل مقديشيو • وهو مستطيل الشكل ويقام اما من افرع الشجر أو من الطوب اللبن ، وله سقف جمالونى الشكل يتراوح ارتفاعه بين ٣ ــ ٤ امتار ولايوجد العريش الا فى المدن والقرى الثابتة ، وتثبت اغصان الاشـــجار راسيا فى الارض واذا كان من الافرع يكسى بخليط من الجير والرمل فى المناطق الشمالية ، أو بالطين وروث البقر فى المناطق الجنوبية وفى المدن الساحلية وخاصة مقديشيو يغطى العريش احيـــانا بالواح من الخشب والصفيح ويسمى فى هذه الحالة (براك) ويستخدم الجير والرمل وروث البقر فى سد ثقوبه • ويغطى سقف العريش بالقش وسعف النخيل • وللعريش باب أو بابان ، ولكن ليس له نوافذ الا فى حالات نادرة • واحيانا يوجد امام المدخل فناء صغير محاط بسور من الاغصان الشوكية • ويسمى العريش باللغة الصومالية (اقل) ويقام فى مكان يتوفر فيه الماء والمرعى ، وينقسم العريش من الداخل الى عـدة حجرات بواسطة حواجز من اغصان الشجر أو الحصير • وفى المناطق الجنوبية تخصص للنساء غرفة واحدة فى مؤخرة العريش ، بينما تخصص

(١) ملاحظات ومقابلات شخصية .

(٢) انظر شكل رقم (٢) ١ ، ٢ .

الغرف الاخرى لرب الاسرة وللمطبخ وتخزين الطعام ، واحيانا تخصص غرفة لصناعة الحصير • اما فى الشمال فلا يزيد عدد حجرات العريش عادة على حجرتين [1] •

ثالثا : المنازل الحجرية الوطنية [2] :

وهذه لاتختلف فى تصميمها العام بين الشمال والجنوب (فيما عدا المدن الكبيرة فى ساحل بنادر) فهى مربعة أو مستطيلة الشكل ، وتتكون من طابق واحد فى الغالب ، ويحيط بالمنزل سور من الحجر به باب يؤدى الى فناء تطل عليه الغرف ودورة المياه والمطبخ • ولايزيد عدد الغرف عادة على اثنين أو ثلاث ، ونوافذ المنازل صغيرة وضيقة •

رابعا : كوخ الزراعة فى الجنوب (مندل)[3] :

هذه المساكن بسيطة وهى فى الريف عبارة عن اكواخ دائرية قليلة المنافذ وتبنى من فروع بعض الاشجار والواح من الصاج أو هى عبارة عن اكواخ من اعمدة واقواس خشبية تغطى بحصير من الاعشاب والحبال الرفيعة المصنوعة من لحاء الشجر • وهذا المسكن شائع عند الزراع الذين يسكنون على ضفاف الانهار ، كما يسكنه الرعاة الذين يتخذون الزراعة حرفة اساسية ، وتسكنه ايضا الجماعات الصوفية المستوطنة على ضفاف الانهار • ويتكون الكوخ من جزئين رئيسيين هما الجدار والسقف ، وتتلخص طريقة بناء الكوخ فى حفر خندق دائرى تثبت فيه عصى مستقيمة من اغصان الاشجار فى وضع رأسى لتكون جدار الكوخ ، ويراعى ترك فراغ للمدخل فى هذا الجدار ويدك التراب والحجارة حول هذه العصى لتثبيتها جيدا • وبعد ذلك تقام العصى على ارتفاع متر تقريبا ، وتشد

---

(١) ملاحظات ومقابلات شخصية .

(٢) ملاحظات ومقابلات شخصية .

(٣) ملاحظات ومقابلات شخصية — أنظر شكل رقم (٢) ٣ .

الى بعضها بعضا بحبال تمتد حول محيط الجدار ثم يدق عامود كبير فى الارض فى مركز الكوخ ويتراوح ارتفاعه بين ٥ر٢ ــ ٣ امتار ويجدل سقف الكوخ على حدة من الاغصان ايضا • ثم يوضع قرص خشبى فى الوسط وتربط الاغصان حوله فيصبح شبيها بالمظلة •

وبعد اتمام السقف يركب فوق الجدار ويشد اليه بالحبال ، ولتقوية السقف وتثبيته تستخدم الحبال فى ربط اطرافه فى العمود المركزى ، وبعد ذلك يغطى السقف بالاعشاب ويدهن سطحه العلوى بالطين والرمل لمنع تسرب ماء المطر • (وتسد الثغرات فى الجدران بمخلوط الطين والرماد وروث البقر)• وأخيرا يثبت الباب الذى يصنع من الخشب ، ويبلغ ارتفاعه حوالى المتر • ويتراوح الارتفاع الكلى للكوخ بين ٥ر٢ ــ ٣ امتار ، ويبلغ نصف قطره ما بين ٣ ــ ٥ أمتار • وينام الرجل فى الجانب المواجه للباب تاركا الغرفة الداخلية لزوجاته • وتتجمع أكواخ الاسرة الواحدة ويحيط بها سور ، وأحيانا توجد بينها أكواخ صغيرة للمتزوجين من الابناء والاقارب ثم أكواخ المخازن والمطابخ •

ويتم توزيع التجمع الاسرى على النحو التالى :

١ ــ يخصص لكل زوجين كوخ مستقل خاص بهما لايشاركهما فى النوم فيه احد •

٢ ــ يخصص للبنات والنساء كوخ خاص بهن للنـــوم ولا يسمح للرجال باستعماله •

٣ ــ يخصص عادة للاولاد والشبان غير المتزوجين مكانا يفــرش بالاعشاب وجلود الابل والبقر •

وهناك اشكال عديدة للبيت الريفى بالنسبة للزراع والبيت البــدوى (جورى) بالنسبة للرعاة • والجورى عبارة عن سكن على شكل قــبو ومجدول بالقش • ويرجع اصل اكواخ الزراع الى اكـــواخ زنـــوج

البانتو سكان الصومال الاوائل وقد نقله الصوماليون عنهم • اما اكواخ الرعاة (اغل) فهو من اصل حامى (كوشى) ويتكون الحى السكنى من مجموعة من البيوت محاطة بسور ومكان للمرحاض وهو عبارة عن حفرة تغطى بالتراب ومغطى بالقش(١) وهذه المجموعة تمثل عائلة كبيرة ولكل عائلة صغيرة مسكن منفرد • ان سكان الاعرشة فى المدن والمراكز ايسر حالا من سكان الاكواخ (اغل) فبدلا من فراش الحصير الذى ينام عليه سكان الاكواخ ينام سكان الاعرشة على اسرة من الخشب أو الحديد وفى بعض الاعرشة توجد المقاعد والمناضد •

والمنازل الحجرية فى المدن الكبيرة الواقعة على ساحل بنادر وبخاصة مقديشيو ومركة لايقل عدد الطوابق بها عن اثنين وكثيرا ماتكون ثلاثة ، وهذه المنازل متلاصقة وغير صحية وتفصل بين واجهاتها ازقة ضيقة تتراكم فيها القاذورات وتتصاعد الروائح الكريهه فتسبب فساد الهواء• وفى هذه المدن ايضا توجد المنازل الحديثة واغلبها من طابق واحد ، ولكن يتكون بعض هذه المنازل وخاصة فى مقديشيو من طابقين اما التى تحتوى على اكثر من طابقين فنادرة • ونادرا مايمتلك موظف الحكومة بيتا فى المدينة فلكل موظف حكومى بدل سكن ولكنه لايتعاطاه . بل يأخذ بدلا منه سكنا من قبل الحكومة مادام موظفا بها ويكون عدد الغرف حسب عدد افراد الاسرة • ويغلب على المنازل فى المدينة بصفة عامة الطابع العربى والفناء الواسع المحاط بالغرف(٢) •

ونجد فى داخل البيت انواعا عديدة من الفرش منها :

١ — حصير مصنوع من نوع خاص من الحشيش يسمى (حصير) وتصنعه النساء •

٢ — (هوهب) نوع من الحصير يصنع من الحبال •

---

(١) أنظر شكل رقم (١) .
(٢) مدينة مقديشيو — ملاحظة شخصية .

٣ ــ (كبد) حصير مصنع من لحاء الشجر المجدول •

٤ ــ (سان) فرش مصنوع من جلد البقر أو الابل ، غالبا البقر •

هذا الاخير يفرش على الارض بعد ان يوضع فوقها الحشيش على ارتفاع نصف متر تقريبا وفى بعض الاحيان يرفع قدر السرير • ويوجد فيما عد ذلك سرير خشبى يشبه الكنبة ولكنه نادر ، والغالب هو الحصير• وحفرة الوقود داخل البيت •

ولقد شاهدنا كذلك أكواخ صغيرة تكفى لاسرة صغيرة وبداخل الكوخ سرير بسيط وكرسى خشبى ، وفى معظم الاكواخ كراسى مربعة صغيرة من الخشب وجلد البقر •

الاوانـــى :

أوانى الطبخ : ــ القصعة أناء كبير من الخشب للاكل ، يوضع بــه الارز أو الذرة (ويسلق الارز فى الماء فقط) • يدق الذرة بآلة تسمى موى[1] • ويصفى من القشر بمصفاة تسمى مسف ثم يوضع بالشمس وبعدها يطحن بالحجر الذى يسمى (طبح ردق) ثم يصفى مرة أخرى ويطبخ فى قدر من الفخار يسمى (طرى) يوضع على ثلاثة احجار بينهما النـــار •

وهناك وعاء لشرب الماء يسمى (لحلح) وأخر لشرب اللبن يشبه الكوب ويسمى (طيل) ويصنع من لحاء الشجر[2] • وأوعية المياه[3] عبارة عن

---

(١) شكل رقم (٣) ٣ .

(٢) شكل رقم (٣) ٥ .

(٣) شكل رقم (٣) ، (٢) .

أوعية كبيرة من الخشب تملأ بالماء من الدلو الاصلى الجلدى لسقى الغنم •

وعـــاء اللبـــن(١) :

عبارة عن قدر كبير مصنوع من لحاء الشـــجر • وتقابلنا الملاعق الخشبية بكثرة لشرب الماء وكذلك الشوك(٢) والامشاط الخشبية • وفيما يخص أوعية الماء المصنوعة من لحاء الشجر توضع قبل الاستعمال فـــوق النار • وعاء الطبخ يصنع من الفخار والصـــحون من الخشب وتسمى حير • « أبحط » عبارة عن حقيبة كبيرة تضع فيها المرأة ادواتها الخاصة•

مما تقدم يتضح ان أدواتهم عبارة عن أوعية من الخشب والفخار والقرع العسلى واوعية مجدولة من لحاء الشجر • الفرش الذى يطلق عليه كبد هو نوع من الفرش من لحاء الشجر وتصنعه المرأة وهى تتفنن فى صنعه بألوان خاصة وتنسيق خاص من الخوص الناعم من أعـــلى ، والجانب السفلى ملون ، وهو يستخدم عند نقل المتاع فوق الجمل ويوضع هذا الكبد فوق الجمل بناحيته الناعمة ثم فوقه باقى الاشياء •

٢ ـ الملبس(٣) :

يمتاز الرداء الصومالى ببساطته ، وهو خفيف عادة ليتناسب مع جو الصومال الحار ويصنع محليا من خيوط القطن ـ ويســـمى النسيج «فوطة بنادر» أو يستورد من الخارج والزى الوطنى عبارة عن قطعة قماش واحدة تشبه السارى وتسمى جرباه يلف بطريقة معينة بحيث يترك الكتف الايسر عارى •

والزى التقليدى للسكان الرحل بسيط اذ ان زى الرجل يتكون من قطعين من القماش الابيض طول كل منها خمس ياردات فيغطى باحداهما

---

(١) شكل رقم (٣) .

(٢) شكل رقم (٣) ٤ .

(٣) عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص ٢٨٢ .

جسده من الوسط الى اسفل (تحت الركبة) ويرمى الاخر حول الكتفين فيغطيهما بصفة تقليدية لان القميص لم يكن معروفا لديهم فى الماضى • ويعرف كل من هذين الثوبين بـ « جؤ » وهذا هو الزى الدينى يلبسه المسلمون لاداء فريضة الحج الى يومنا هذا • ويلبس الرجل الصومالى فى البادية ايضا حذاء محلى الصنع ولا يلبس شيئا على رأسه غالبا • وفى الماضى كان زى الرجل البدوى يتكون من ثوب واحد من القماش قد يصل طوله عشر ياردات تقريبا ويسمى « مرو » معناها ثوب وتحلى اطرافه اهداب متدلية ويلفه الرجل حول جسمه كله مع ترك احد الكتفين عاريا • ومازال هذا الرداء سائدا فى بعض الجهات وخاصة فى الجنوب(١) •

ولقد اصبح « المرو » منذ عدة سنوات يتكون من جزئين ، الاسفل منها عبارة عن مئزر طوله خمس ياردات تقريبا، ويسمى « شنلى هوس » والاعلى طوله خمس ياردات باسم « شنلى كرى » ويلف هذان الجزءان حول الجسد • والزى الرجالى حاليا عبارة عن قطعة قماش — غالبا صناعة صومالية — تلف حول الجزء الاسفل من الجسم ويلبس معها قميص • ويسمى هذا الزى معوز «هوز جندى» هوز بمعنى سفلى وجندى تعنى رباط (الرباط السفلى) ، والعلوى اسمه « جرب سار » جرب تعنى كتف وسار تعنى غطاء (غطاء الكتف) • غير أن الرداء الاكثر شيوعا فى الصومال وخاصة فى المراكز المدن الساحلية يتكون من قطعتين أيضا جزء سفلى يصل الى ما تحت الركبتين وقميص عادى يسمى « شاتى » ويغطى الجزء الاعلى من الجسم • ويلبس الشيوخ وبعض الرجال بالاضافة الى هاتين القطعتين قطعة من القماش الفاتح اللون يلفونها حول رقابهم أو يعلقونها على اكتافهم ويسمونها « عمامة » ، كما يلبسون فوق رؤوسهم طاقية من النسيج المطرز وقد يلفون رؤوسهم بقطعة من القماش ، ويطلق الصوماليون على اردية الرأس هذه كوفية « كفيد » •

---

(١) مقابلات شخصية .

ثانيا : رداء المــرأة :

ينحصر رداء النساء فى طرازين اساسيين هما « جنتينو » ويشـــبه « المرو » عند الرجال • ويتكون من قطعة واحدة من القماش الابيض عادة الذى يبلغ طولها عشر ياردات ، فتربط احدى طرفى هذا القماش المعروف باسم « مرو » فوق كتفها الايمن وتلف باقى القطعة حول جسدها فى لفات تراكمية ليخفى لها شكل بدنها من الخصر الى الكعبين وعليه فان الجزء الاكبر من القماش يكون ملفوفا حول الجزء الاسفل وتستعمل المــرأة جزءا من هذا القماش الملفوف حول اردافها كحقيبة تضع فيها الحبــال الرفيعة التى تصنعها من لحاء الشجر والذى تصنع منه فيما بعد كثيرا من الاشياء الرئيسية التى يتكون منها الكوخ الصومالى المتنقل السهل البناء والفك ليتناسب مع متطلبات حياتهم الدائمة التنقل وغير ذلك من الأدوات المنزليـــة •

ويكثر هذا الرداء فى الجنوب وينتشر بين نساء العامة فى المــدن الساحلية الجنوبية ، وبعض النساء فى الجنوب وخاصة المسنات وكذلك سكان الشمال وتلبس ساكنات المدن فوق الجنتينو « طرحة » « جريسار » يضعنها على رؤسهن واكتافهن • وتلبس نساء الطبقات المتوسطة والغنية الجنتينو داخل المنازل •

وفى المساء عندما يتغير الطقس ، تستعمل المرأة هذا الملفوف من ثوبها فى تغطية رأسها والنصف الاعلى من جسدها اتقاءا للبرد أو المطر ، وتلبس المــرأة مــع هــذا الثــوب قطعــة من القمــاش الحــريرى المتعدد الألــوان حــول خصرهــا ليغطى لفــات ثوبهــا المتراكــم حــول اردافها فى مكــانه ويطلق عليــه اســـم (يقر) أى الملك • وتغطى المرأة الصومالية المتزوجة رأسها عادة بمنديل من القماش الاسود أو المتعدد الالوان ، وذلك لكونها مسلمة شافعية •

الطــراز الثانى :

يتكون من فستان طويل يسمى عبود أو كردد ويصنع من القماش الخفيف واحيانا يكون شفافا من النايلون ونصفه العلوى ضيق يلتصق

بجسدها ، ونصفه السفلى واسع جدا ويصل الى القدمين ، وتلبس تحته رداءا يشبه « الجيبون » يسمى «جرجر » ويصنع من القماش السميك ، وقد يتصل به من أسفل شريط عريض ٠

وينتشر هذا الرداء فى المراكز والمدن الكبيرة وتلبسه نساء الطبقة المتوسطة وترتدى نساء الاغنياء انواعا فاخرة منه ٠

والمرأة التى تلبس هذا الرداء تضع على رأسها واكتافها وشاحا « جريسار » من القماش الشفاف يبلغ طوله مترا ونصف متر تقريبا وتعصب رأسها بمنديل يسمى « مصر »[1] ولا تلبس المرأة الصومالية جوارب فيما عدا زوجات رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية فى الجنوب فهن يرتدين جاكتات وجوارب ملونة ٠ وفى الجنوب تلبس النساء الحوامل احيانا ملابس حمراء ٠ والاحذية الصومالية بسيطة فى مجموعها واكثرها شيوعا هى النعال والصنادل ٠ ويثبت فى النعل شريط من الجلد ليمسك به بين الاصبعين الكبيرين ، وكثيرا مايحلى النعل شريط عريض[2] ٠ ويلبس النعال والصنادل كل من الرجال والنساء على السواء ٠ ولاتختلف ملابس الاطفال عن الكبار الا فى البوادى والريف فيسير الاطفال عراه حتى سن الخامسة أو السادسة ، ثم يلبسون مآزر حول الوسط ليغطى الجزء الاسفل فقط وعندما يصل الطفل الى سن التاسعة أو العاشرة يلبس رداءا مثل رداء الرجل ٠

التزيـن :

لاتهتم المرأة الصومالية بلبس الذهب ، فالذهب ليس له قيمة عندها، ولكنها تحب عادة التزين فى المناسبات التى تتطلب ذلك فتلبس الاقراط

---

(١) تشير هذه الكلمة الى علاقة تجارية قديمة مع مصر وقد اشار ابن بطوطة الى هذه التجارة ، وهناك رأى اخر يقول انها كلمة عربية الاصل من « المصر » بمعنى الرباط وانها مأخوذة من اليمن حيث لازالت نساء اليمن يطلقونها على المنديل .

(٢) يشبه هذا النعل الى حد كبير النعال التى كان المصريون القدماء يلبسونها .

والعقود المشغولة بالخرز الملون ويعرف العقد الخرز « بالعناب » كما تلبس عقودا مصنوعة من الاحجار أو من المعادن تسمى قراطيس مفرد قرطاس وفى ساعديها اساور معدنية تسمى « دجاجة » وخواتم تسمى « فراطى » ولاتعرف المرأة فى البادية الحجاب ولا البراقع المعروفة فى بعض المدن • وتتنوع أدوات الزينة عند النساء وفى مقدمتها الحلى ، فمنها الاقراط « منجــد » والقلائد المصنوعة من الذهب « مريد » أو من الخرز « كول » • وهذه الاخيرة هى الاكثر شيوعا وخاصة فى الجنوب • وتمتاز حبات الخرز بكبر حجمها وبالوانها الزاهية ، وهناك الاســاور المصنوعة من العاج والخيزران أو الخرز « جنجمو » وكذلك الخلاخل « داجاجد » • وتثقب نساء الجنوب انوفهن لوضع حلقات من المعــدن وهذه العادة نادرة بين نساء الشمال • وتختلف طريقة تصفيف شــعر المرأة باختلاف سنها وحالتها الاجتماعية ، فالفتاة التى لم تصل بعد الى سن الزواج يحلق معظم شعرها الا من اطار حول رأسها وعندما تبلغ سن الزواج يترك ليطول ثم يجدل فى ضفائر رفيعة متدلية ، وبعد الزواج تقسم شعرها الى ضفيرتين كبيرتين تثبتهما فى مؤخرة رأسها • أما الرعاة فى الشمال وسكان المدن من الرجال فلا يطيلون شعرهم بل يقصونه • ويسير كثير منهم مكشوفى الرأس ، ولكن يهتم رجال الجنوب بشعرهم اهتماما كبيرا ، ويتركونه يطول حتى يأخذ شكل نصف دائرة ويثبتون فيه بعض الاشواك الطويلة • وتتلخص طريقة اطالة الشعر وتمشيطه عندهم فى حلاقة الرأس تماما ثم دهنها وترك الشعر ينمو الى درجة معينة وعندئذ يمشط يوميا لكى يسير مستقيما • وعندما يصل الشعر الى الشكل المطلوب (على هيئة نصف دائرة) يدهن بالطين لمدة يوم كامل ، وتتكرر هذه العملية مرة كل اسبوع ، وبعد ازالة الطين من الشعر يصير لامعا • ويختال الرجل بشعره ويحافظ على شكله ، ولذلك يستخدم الوسادة الخشبية (بارشى) فى اثناء النوم ، ويحملها معه معلقة فى يده اينما ارتحل ، كما يواصل على دهان شعره بالزبد • ويستخدم الصوماليون فى تمشيط شعورهم امشاطا

خشبية طويلة بعضها محلى برسوم محفورة ، وقد يثبتون هذه الامشاط فى رؤوسهم للزينة •

الاسـلحة :

يستخدم الرجال الاسلحة احيانا كادوات للزينــة ، وخاصــة فى الاحتفالات وأشهر هذه الاسلحة هى الخنجر الطويل « ترى » أو «بلوى» وله نصل ذو حدين • ويصنع مقبضه من العاج أو الخشب أو قرن الحيوان• وللخنجر غمد من الجلد يثبته الرجل فى وسطه على جانبه الايمن • ويعلق الرجال التمائم « حرص » أو « قرطاس » فى عقود يلبسونها حول رقابهم أو يربطونها حول أذرعهم ، وتصنع هذه العقود من اللؤلؤ واللبان «ميدى» والجلد وحبات العنبر والاصداف • ويعلق كثير من الرجال فى اعناقهم محافظ من الجلد أو الصدف بها مصاحف صغيرة وقد يربطونها حــول الرسغ • ويضع رجال الدين والاتقياء مسبحة « تسبه » طويلة حول العنق وتصنع حبات هذه المسابح من الخشب أو اللبان « الميدى » •

الغـذاء(١) :

يتكون الغذاء المألوف فى البوادى من القمح والذرة والارز والتمور والحليب والزبد والسمن • والملاحظ ان الفواكه والخضر ليست مــن الاطعمة المألوفة ، ويستعاض عنها بالحليب الطازج وشربه بكثرة • وتعتنى النساء عناية فائقة بطريقة تحضير واعداد الطعام عندما يراد تقديمه للرجال عموما والغرباء خاصة • ومن آداب الطعام أن يأكل الابناء مع الرجال بينما البنات مع النساء ، ولايجوز للرجال رد أوانى الطعام وهى فارغة تماما ، فلابد وأن يبقوا فيها شيئا من الطعام •

وتخصص الرؤوس والرقاب والاكرع والقلوب والظهور والكبــد والكلاوى للنساء وكذلك الارجل والضلوع وذلك من لحوم الابل وهى الاكلة المفضلة لدى الشعب الصومالى •

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص٢٩٢ .

وجبة الفطور : تتكون عادة من خبز وشاى وزيت ولبن •

وجبة الغذاء : تتكون من الارز أو المكرونة مع اللحم والباباظ والموز•

وجبة العشاء : تتكون من الارز أو المكرونة أو الخبز مع اللحم واللبن الحليب •

لقد لاحظت من الدراسة أن تغيير الاشياء المادية ايضا صعب مثل طبائع الناس ، ولقد سبق ان ذكرت ان تغيير الاشياء المادية يمكن ان يتغير بين يوم وليلة بان نشترى غيرها ونرمى العتيق ، ولكنه وجد ان المهم ليس هو تبديلها ولكن التعود والاقتناع باستعمالها الى جانب انها مرتبطة بعادات وتقاليد معينة يصعب تغييرها • فقد ظهر من الدراسة ان المسكن فى البوادى كما هو لم يتغير منذ الاف السنين وكذلك البيت والادوات والاوانى التى تستخدم والملبس وأدوات الزينة والاسلحة •

الاسرة :

الزواج(١) : نتيجة لقسوة الحياة فى البادية يستعد ابناؤها لذلك ببناء قوام الاسرة ويقوم بتنظيم عملية البناء هذه كل من عشيرتى الفتى والفتاة • ويخضع الزواج فى البوادى لعدة عادات وتقاليد منها ان الابن الاصغر لايصح ان يسبق اخاه الاكبر فى الزواج ، وكذلك البنت واختيار الفتاة المناسبة يكون باحدى الطرق الآتية :

١ ــ اما أن تختار أم العريس خطيبة ابنها •

٢ ــ أو يختار الشاب بنفسه من يريدها زوجة له ، ولكن يجب ان توافق الاسرة على ذلك •

٣ ــ أو هروب الشاب والفتاة بعد حب بينهما فيذهب بها الى اسرته ويتزوجها •

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم ، صوماليا : ص ٢٩٨ .
(٢) مقابلات شخصية .

وغالبا ما يرضى شباب البادية بترك أمر الزواج كلية لاولياء امورهم ويوضع فى الاعتبار مصلحة العشيرة أولا ثم مصلحة الفرد ثانيا • وهكذا تسلم الفتاة غالبا امر زواجها لوالديها أو من هم فى منزلتهما بعد وفاتهما ولكن نظرا لما يتمتعون به من كرم وحسن الضيافة ينتقل الشباب من بيت الى آخر بسهولة ، ويلتقون ببنات الاسر دون تحفظ شديد ، فيحـدث تعارف والشباب فى سن الزواج ، ومن طرق هذا التعارف حلقات الرمص التى يلقى فيها الشعر أو تدور بينهم الاحاديث ، ومن خلال هذا التعارف السليم يتقدم الشاب لاهل الفتاة فتقبله بفرح أو ترفضه موضحة أسباب رفضها ، اما اذا اختلف رأى الفتاة مع رأى والديها فانها غالبا ما تتنازل عن رأيها فتقبل الزواج على مسئوليتهما •

المهـر : يتم الاتفاق على عدد معين من الابل والماشية يعطى لاسرة الفتاة بالنسبة للاختيار الاول والثانى ، ويتم تحديد موعد الفرح وتقام الاحتفالات لمدة اسبوع وكل النفقات على العريس واسرته وفى الليله الاخيرة من هذا الاسبوع يسهر العروسان مع المحتفين حتى مطلع الفجر• ويكون الزواج من نفس العائلة الكبيرة ولكن من خارج الاسرة منعـا للمشاكل ، ويتراوح سن الزواج مابين ١٥ ــ ٢٣ سنة وللمهر شكلان ، فى البادية يدفع ابل وماشية وفى المدينة نقدا • وكان المهر يقدر قديما بحوالى مائة من الابل مع اعطاء والد العروس بندقية وحصانا • ويقدم العريس لعروسه قبل الزواج ثوب يسمى جبات فاذا اخذته يفهـم أنها قبلت الزواج منه وغالبا مايتفق العروسان على الزواج اولا ثم يتعرف العريس على الاهل بعد ذلك • ويتم الزفاف فى محل سكن أهل العروس فتبقى مع اهلها الى أن يبنى لها بيت خاص • وفى خلال هذه الفترة ترشدها امها بعض الارشادات وتسدى عليها بنصائحها ولا يستغرق بقاؤها مع امها عاما كاملا •

ويلاحظ ان هناك حرية فى الحركة بالنسبة للبنت والمرأة الصومالية ومن هنا تنشأ علاقات حب واستلطاف بين الولد والبنت فى سن مبكرة فى المدينة

وفي البادية • أما المدينة فيدفع المهر نقدا بحوالى ١٠٠٠ شلن صومالى ،
ويتفق على المهر مقدما وهناك مؤخر صداق •

وتستعمل المرأة الحناء وهى تتفنن فى زخرفتها ، كما تستعمل زيوت مستخرجة من النباتات لدهن الجسم • والاسرة الصومالية صغيرة نظرا لان أغلبهم يعمل بالرعى منذ زمن بعيد •

الولادة(٣) : يعتبر المولود حدثا عائليا سعيدا فى حياة الاسرة وخاصة لو كان ذكرا وقبل الاحتفال بالمولود الجديد يستدعى أحد علماء الدين لاختيار الاسم ويقرأ هو صفحات احدى الكتب التى فى حوزته بعد أن يعرف اليوم الذى ولد فيه الطفل ثم يختار بعض الاسماء من هـذا الكتاب ويعرضها على الاسرة لتختار واحدا منها للمولود • وتحتل اسماء الانبياء المكانة الاولى ، وتذبح ذبيحة يأكل منها الاقارب والمدعويين • وفى يوم الاربعين تضع الام سكين عادية تحت وسادة الطفل ، وتربط فى يده اليمنى قطعة قماش بداخلها بعض النباتات الطبية •

وينتشر عندهم ختان البنات وهو ختان فرعونى ، ولكنه بدأ يقل وحل محله ختان السنة ، وتقوم بهذه العملية متخصصات لذلك ، ويتم الختان عادة فى سن متأخرة ولكن قبل سن البلوغ • وتحافظ البنت عموما على نفسها الى أن تتزوج وقد جرت العادة ان لاتقام احتفالات خاصـــة بمارسيم الختان ، ولاتوجد أى فئة متخصصة من الناس تقوم بعملية الختان بالنسبة للاولاد وتترك هذه العملية لاى شخص تتوفر فيه الخبرة والممارسة • ويفرط الصوماليون فى الزواج والطلاق مما يؤدى الى تشرد عدد كبير من النساء والاطفال •

الطلاق : نسبة الطلاق مرتفعة وتعدد الزوجـــات منتشر ويندر أن يقتصر الرجل على زوجة واحدة •

---

(١) الشلن = ١٢ قرش مصرى •
(٢) مقابلات شخصية •
(٣) عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص ٣٠٣ •

الوفـــاة[1] : يستقبل نبأ وفاة الشخص بوجوم بالغ مؤثر من قبل الرجال والنساء وبعد الدفن تذبح فورا ذبيحة وفى اليوم الثالث كذلك • وبالنسبة للزوج الذى توفيت زوجته لايحق له الزواج مرة ثانية الا بعد ابلاغ اهل زوجته المتوفاة بذلك ويتوقع منهم مايلى :

تقديم احدى شقيقات الزوجة المتوفاة أو اقرب بنت لها فى نطـــاق الاسرة ليتزوجها • واذ لم يوجد فى الاسرة من تصلح للزواج فله حرية الاختيار من أى اسرة اخرى • اما اذا توفى الزوج فتربط زوجته قطعة من القماش الابيض على رأسها كرمز للحزن بعد ذلك يحق لها الزواج من أهل زوجها المتوفى اذا كانت محبوبة منهم ، اما اذا كانت مشاكسة وعنيدة فيترك لها حرية الزواج من الخارج[2] •

المـــرأة :

ان للمرأة الصومالية دور عظيم فى حياة الشعب الصومالى ، ولـــو استعدنا تاريـــخ المرأة وحياتها فى البادية سنعرف ما فى اعماقهـــا من حب للحرية والاستقلال وميل الى مشاركة الرجل فى تدبير الامور والقيام بجميع الاعمال الممكنة ، وهى شريك حقيقى وكفؤ للرجل وخاصة فى المجتمع الرعوى ، ونظرا لقسوة الحياة هناك فان الفرد ينشأ قويا معتمدا عـــلى نفسه ومتعاونا مع اقرانه • هذا وتتمتع المرأة الصومالية بمركز ومكانة محترمة فى جميع المناطق (فى المدينة وفى البادية)[3] ، فهى تحتل المكانة الاولى ، وهى تلعب دورا كبيرا جدا فى المجتمع • وعندما نريد التحدث عنها نبدأ بالاسرة ، فهى فى اسرتها تقوم بكل الاعمال المنزلية والتربية والتنشئة الاجتماعية الى جانب عملها خارج المنزل ، هذا ونجدها فى المدينة تتولى وظائف كبيرة فى المجتمع[4] •

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٧ •

(٢) مقابلات شخصية •

(٣) فى المدينة كما شاهدناها فى مقديشيو العاصمة ، وفى البادية كمـــا لاحظناها فى الاماكن التى زرناها جنوب مقديشو •

(٤) فقد قابلنا فى مقديشيو وكيلة وزارة الثقافة والتعليم العالى السيدة فاطمة احمد سالم ، ورئيسة اكاديمية البحث العلمى السيدة / ديقاء جامع ابراهيـــم •

ومن احتكاكنا بكثير من السيدات ، اما عن طريق المقابلات الرسمية أو بطريق غير رسمى ، لمست فيها الجرأة والشجاعة والانطلاق فهى تقرر مصيرها بمفردها لقضاء حاجاتها وحاجات الاسرة • وهى تشترك فى جميع الاعمال حتى فى الحرب ويقال ان هناك أمرأة تعمل قائد طائرة وأخرى تعمل قاضى(1) •

وليس هناك حواجز بينها وبين الرجل فالتعليم مختلط فى جميع المراحل من الابتدائى الى الجامعة ، ولا يوجد هناك مدارس خاصة بالبنات فقط •

وتعلم الام ابنتها جميع اعمال البيت ، وعندما تتقن البنت هـذه الاعمال (بناء البيت ، رعاية الحيوان ، اعمال الخياطة ، عمل شنط لحفظ ادوات البيت) تكون مطلوبة للزواج(2) •

وتعتمد طبيعة حياتهم على التجوال ، فتتكون الاسرة فى الغالب من الرجل وزوجته وأولاده ، وشخص أو أثنين من كبار السن فى الاسرة ، ويتولى رب الاسرة الصغيرة أمرها • وشيخ الاسرة هو أكبرها سنا وهو أعلى سلطة فيها وذلك لكبر سنه ورجاحة عقله وتجاربه الطويلة فى الحياة، ومن اختصاصه فض المنازعاتالداخلية بين افراد الاسرة واسداء النصح والتوجيه وعلى افراد الاسرة طاعته والانصياع لاوامره • يتضح من النظام الاسرى فى معظم المجتمعات البدوية ان البنت تحجز وتتحجب من سن العاشرة وتبدأ فى ممارسة اعمالها المنزلية تحت اشراف ورعاية

---

(1) مقابلات شخصية .

وعبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ، ص٢٥ .

(2) لقد نظمت لنا وكيلة وزارة الثقافة زيارة خاصة فى منزلها وكان عندها ثلاث سيدات صوماليات ، واحدة تعمل فى التجارة الخارجية (آمنة) والثانية رئيسة قسم اللغات العربية بكلية التربية (دهب) والثالثة رئيسه اتحاد العمال (آمنة) .

وتطرق الحديث الى موضوعات شتى . ومما لفت نظرى الذوق المتناسق فى الملبس وخفة الروح والمسئولية الكاملة فى البيت .

وعن تعدد الزوجات وجد ان هناك تعدد زوجات . ولكن لكل واحدة منزل بمفردها والطلاق ايضا موجود .

مها ولاتظهر بعد هذه السن فى مكان به رجال • اما فى الصومال فالامــر
غير ذلك حيث أن الاسر مفتوحة ولا تحجب المرأة عن الرجال ، فنجد ان
فرص التعارف بين الشباب كبيرة ويسهل الاختيار ولكن لابد من موافقة
اسرة الفتى والفتاة على هذا الاختيار الا فى حالات نادرة كما هو الحال
فى معظم المجتمعات حيث تشذ بعض الحالات عن هذه القواعد التى يفرضها
المجتمع واحتمال تفتح الاسرة وعدم تحجب المرأة امام الرجال ربما يكون
راجعا الى التأثير الاوروبى بين هذا الشعب مع المحافظة على عادتهم فى
المهر حيث انه كان ومازال من الماشية وخاصة الابل ، ومن هنا كان للابل
مكانة خاصة لديهم لانها تدفع مهورا • فتكوين الاسرة يعتمد كثيرا على
وجودها حتى ان صاحبها يشعر أنه أعلى مرتبة عن الاخرين • هذا ووجود
البنت بين أهلها بعد الزفاف لفترة تقرب من العام يؤكد ان نظامهم لعهد
قريب كان نظاما امويا materiarchal-System ، أى النظام الذى
كانت السلطة فيه فى يد الام ، ومما يؤكد ذلك ما للمرأة الصومالية من مكانة
فى المجتمع ، وكذلك دورها بالنسبة للتربية والتنشئة الاجتماعية ، فكانت
هى التى تقوم بالعبء الاكبر فى هذا المجال قبل انشاء المدارس ومازالت •

وعندما اتيحت الفرصة لتعليمها واصلت هذا الكفاح وتفوقت ووصلت
الى اعلى المراكز فى بلدها بجدارة ولكن دخول الاسلام اثر من ناحيــة
سيطرة الاب حيث اصبحت السلطة فى يده والنظام أبويا Pateriarchal System
وبقيت رواسب القانون الاول فى هــذه الصــورة التى
وجدناها •

ونجد تأثير الدين فى الاسرة كبير لدرجة انه لايمكن تسمية المولود الا
بعد استشارة رجل الدين حيث يقوم ببعض الطقوس والممارسات لاختيار
الاسم • وهناك التزامات اسرية فى حالات الوفاة ، فعلى الاسرة التى
توفيت ابنتها المتزوجة ان تبحث عن اخرى للزوج ، وهو يلتزم بذلك ولا
يقبل الزواج من الخارج الا بعد استشارة اهل الزوجة المتوفاة وعــدم
وجود من تصلح للزواج •

وكذلك بالنسبة للزوج المتوفى فانه يحق لزوجته الزواج من بين اهله اذا كانت مرغوبة لديهم .

التعليـــم :

الاسرة والتربية العلمية والنظرية : لاتوجد فى البوادى الى وقت قريب مراكز للتعليم ، ويقوم كل من الاب والام بدور هذه المراكز وتكتفى الام بتدريب النشىء وعن طريقها يعرف الطفل القبيلة والعشيرة التى ينتمى اليهـــا .

ويتعلم الاولاد فنون القتال والقنص والاعمال اليدوية الخاصـــة بالرجال وطرق معالجة المواشى والابل وكيفية بناء الحظائر والمساكن ، وتتعلم البنات الاعمال اليدوية الخاصة بالنساء واساليب الطبخ والغسل والحياكة والتطريز . ولقد كان التعليم عموما فى الكتاب حيث يتعـــلم الاولاد والبنات القرآن ومازال اليوم فى المناطق النائية عن المدن وفى مناطق اللاجئين حيث يدرس الاولاد والبنات معا القرآن الى أن يبلغوا الثانية عشرة ، بعدها يفصل الاولاد عن البنات وتبقى البنت فى البيت لتتعلم اعمال المنزل(1) . وكان التعليم ومازال دينيا ، حيث يلعب المسجد دورا كبيرا كما كان الازهر وكذلك علوم اللغة العربية .

ولقد تطور التعليم حاليا الى ان أنشئت الجامعة الوطنية بمقديشو عام ١٩٥٥ كمدرسة عليا بعد الثانوية . وفى عام ١٩٦٣ — ١٩٦٤ تحولت المدرسة الى معهد علمى جامعى ، وفى أواخر عام ١٩٧٠ تحول المعهـــد الجامعى الى الجامعة الوطنية وتوالى انشاء الكليات المختلفة بالجامعة(2) .

الصحـــــة :

الصحة العامة والعناية الطبية : لقد تم وضـــع السياسة الصحية للصومال طبقا للمعايير الاساسية التى رسمتها منظمة الصحة العالميـــة

---

(1) مقابلات شخصية .

(2) صوماليا اليوم ٢٨٢ ، ومقابلات شخصية مع المسئولين .

التابعة للامم المتحدة • هناك مستشفيات حديثة متعددة الانواع فى مراكز النواحى والاقاليم • ومن الخطوات الاولى التى اتخذتها الحكومة فى هذا المجال الغاء الرسوم عن التشخيص الطبى وغيره من الفحوص الطبية • وكذلك الغيت الرسوم عن التحاليل المختبرية والاشعات — والاستشفاء • هذا النظام يضمن الرعاية الطبية للجميع سواء كانوا أو لم يكونوا قادرين على دفع ثمنهـــا •

الفنون الشعبية

الرقص والاغانى :

الرقص الشعبى : عبارة عن حركات منظمة بسيطة ولايستخدم فيه أى آلة موسيقية عدا التصفيق الجماعى المنظم المصحوب بالاغانى الجماعية، ويلعب الرجال والنساء معا هذا الرقص بعد أن ينظموا أنفسهم على شكل دائرة كبيرة(١) •

والطبــل الافريقى هو الالة الموسيقية الوحيدة المعروفة بالبوادى وتستعمل فى نطاق ضيق ، ويستخدم الطبل فئة معينة من الناس بعـــد استدعائهم فى مناسبات الزواج والافراح ، اما البوق ويصنع من الخشب فيستخدمه الجميع غالبا لاغراض النداء • والرقص الشعبى يعبر عـــن الفرح والترفيه ولا يمارس لاغراض الطقوس الدينية أو الشفاء مـــن الامراض أو غير ذلك •

والشعر : تحتل الفنون الشعبية مكانـــة بارزة فى المجتمـــع القبلى الصومالى ، وهو شعر وجدانى وان كان لا يخلو من شعر الحكمة وينظم حسب قواعد خاصة وللشاعر تقدير خاص فى المجتمع الصومالى ولا يمل البدو من سماع الشعر • ويمتاز الشعر النسائى بالعذوبة والرقة والتعبير الانسانى الصادق الا انه ينحصر فى الرثاء والشكوى من الزمن ولكنـــه

---

(١) الثقافة والفنون الشعبية فى الصومال ، مقديشيو ١٩٧٤ ، طبع فى انجلترا باسم وزارة الاعلام والارشاد القومى ص ٥٨ •

يفوق الشعر الرجالى من ناحية صدقه فى العاطفة لان الرجال يفضلون الشعر الواقع والحرب والحكم • ومشكلة الشعر انه غير مكتوب ، فاللغة الصومالية لاتكتب وبناء على ذلك فان كثيرا من التراث القديم يتوارى مع موت حامليه • الا ان البوادى غنية بالشعر والشعراء •

النحـــت : تشتهر البوادى بالنحت على الخشب ويقوم به الرجال ويصنعون تماثيل للحيوانات وتزين الملاعق والامشاط ومقابض السكاكين بخطوط هندسية متناسقة •

هذا ويمكن ان يعتبر الصومال احد الشعوب الافريقية التى تمكنت رغم كل ضروب التأثيرات الاجنبية ان تحافظ على نقاء ثقافتها القومية . فمازالت لغتهم وآدابهم ورقصاتهم الشعبية وما اليها نقية الطابع الافريقى الى اليوم كما كان العهد بها على مر الاجيال وربما كانت الرقصات الشعبية الصومالية بالاضافة الى مايرتبط بها من فنون الغناء والموسيقى هى المجال الذى حوفظ فيه على نقاء الثقافة القومية القديمة محافظة كاملة • ولايوجد الا القليل النادر من الالات الموسيقية بين الجماعات الصومالية الرحل . فيبدو ان التصفيق بالايدى ، والدق بالاقدام قد حلا تماما محل وظائف الالات الموسيقية فى اداء الرقصات الشعبية • وهذا ويوجد فى الصومال ثروة عظيمة من الفلكلور والتقاليد الثقافية القديمة على شكل ادب محلى واغنيات واشعار وحكايات وفن وفكر وامثال وحرف يدوية وآثار موروثة من جيل الى جيل • ومن أعمالهم الفنية المشهورة :

الفخـــار(١) : يشتهر الصومال فى افريقيا بجمال فخاره وكذلك أعمال الخشب والعاج فالحرفيون الصوماليون مهرة فى صنع نقوش فى الخشب والعاج • وأيضا **حياكة النسيج** : تؤدى حياكة النسيج باليد الى تصاميم

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص ٣١٧ .

فريدة وجميلة وتحترم النساء لمهارتهن العريقة فى تصميم السلال وصنعها.
ويزدهر الفن المسرحى والرقص فى المسرح الوطنى الذى له فروع فى
مقديشو وهرجيسة .

ان الشعوب الذى تعيش فى تأمل دائم للطبيعة تشتهر بفنها التلقائى
البديع فالطبيعة هى الوعاء الذى ينهل منه الفنان افكاره ومهاراته ، وقد
لمسنا هذا فى مجتمعات الصيد والقنص الافريقية فلقد وجد لدى البشمن
فن النحت الجميل وقد اوحت الطبيعة بهذا الفن نظرا لانهم يعيشـــون
فى كهوف .

اما فى البوادى فيعيش الانسان فى الخلاء وبالمواد المتوفرة لديـــه
فاشتهر بالنحت على الخشب وكذلك تصنيع الجلود . ولم يستطع المستعمر
ان يؤثر على هذا النمط من السلوك الفنى لانه نابع من الطبيعة ومرتبط
بها وهى جزء لايتجزأ منحياةالشعوب ولايستخدمالصوماليون فىرقصاتهم
آلات موسيقية سوى الطبل ، وبدلا من الالات فانهم يستعينون بالتصفيق
بالايدى والدق بالاقدام . ويمثل الفن المسرحى ،كما شاهدناه فى مقديشيو،
الحياة الطبيعية للبدو حيث انهم يمثلون حياة الاسرة بكاملها ووظائفها
الاوانى التى تستخدم من فخار وخشب ولحاء الاشجار .

الديـــن(١) : يعتنق معظم السكان الدين الاسلامى وهم سنيون .
وتوجد نسبة ضئيلة من المسيحية وتتألف هذه النسبة من اليتامى الذين
نشأوا فى الكنائس منذ الصغر ومن اللقطاء ممن جاءوا من علاقات غير
شرعية بين الايطاليين والصوماليات . ولقد دخل الدين الاسلامى الصومال
منذ القرن الاول الهجرى فى عهد الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان
(٦٥ — ٨٦ هـ) .

وتنتشر لديهم طريقتان : القادرية نسبة الى الشيخ عبد القـــادر
الجيلانى (ويوجد قبره فى بغداد بالعراق) والادريسية المعروفة فى
الصومال باسم الاحمدية نسبة الى السيد احمد بن ادريس المدفـــون

(١) عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ص ٣١٧ .

فى اليمن • وتنعكس تعاليم الاسلام على كل المظاهر والسلوك ، فنجدهم فى البوادى يحتفلون بالاعياد الدينية احتفالا كبيرا وخاصة بعيد الاضحى عيد الفطر ، المولد النبوى ، رأس السنة الهجرية[1] وتذبح الذبائح بلا حساب ، ويلبس الناس أغلى ما عندهم من الثياب ، وتزين الاكـواخ بالاغصان الخضراء وتعتبر الاعياد الدينية على اختلافها من اسعد الايام بالبـوادى •

زيارة الاوليـاء : اعتاد اهل البوادى وكذلك اهل المدن على زيارة الاولياء والمواظبة على اقامة الاحتفالات التى تليق بهم • وتنقسم الزيارات الى المجموعات التالية :

١ ــ المجموعة الاولى : **تعمل هذه الزيارات للعلماء العـرب الذين** هاجروا من شبه الجزيرة العربية الى الصومال ودفنوا بها ، وكذلك لغير المدفونين بهامثل الشيخ « عبد القادر الجيلانى » المدفون ببغداد •

٢ ــ المجموعة الثانية : تقام لبعض اجداد القبائل الصومالية •

٣ ــ المجموعة الثالثة عبارة عن زيارات لبعض اجداد من مجموعات من العشائر التى تجمعها بطن واحدة ، وبعض اجداد البطون المنبثقة من تلك العشائر •

مظاهر الاحتفـال :

فى اليوم المخصص للزيارة يذبح القائمون بالاحتفال على مقـربة من مرقد الولى ذبيحة ويغطى قبره بكسوة جديدة من الحـرير الملون والمنقوش عليه آياتقرانيةكريمة وأسماءاللهالحسنى واسم الرسولصلى الله عليه وسلم • وترفع الاعلام الملونة فوق المقام وعلى الاشجار القريبة وتتصاعد روائح البخور والعطور فى كل مكان •

وبعد ان يطوف الشخص حول قبر الولى وقراءة الفاتحة يخرج وينضم الى احد ىحلقات الذكر المنتشرة تحت ظلال الاشجار • واذا حان

(١) المرجع السابق ص ٣١٠ •

وقت الصلاة قام الجميع بما فيهم النساء لاداء الصلاة • ويبدأ الاستعداد للانسحاب فى المساء بعد ان تكون هذه الزيارة قد تركت فى نفوسهم الكثير من الانفعالات الدينية العميقة • يتضح مما تقدم ان الغالبية العظمى تدين بالاسلام الا أقلية قليلة لها ظروف خاصة تحت تأثير الاستعمار ورداسبه من علاقات غير شرعية • ومن مظاهر الاسلام المساجد الواسعة الانتشار ودورها الفعال فى التربية الدينية وفى تحفيظ القرآن فى اعماق البوادى وغيرها وانتشار الطرق والمذاهب الاسلامية وزيارة الاولياء وغيرها من المعتقدات •

التنمية والنهوض بالبلاد لمسايرة التطور العصرى :

يتركز سكان الصومال فى الاراضى الريفية حيث يعتمد بناؤها الاقتصادى غالبا على الماشية والزراعة وهناك اعداد كبيرة من الشعب لم تمارس الحرف التكنولوجية الاخرى • وما يهمنا فى التنمية هو ماذا فعلت الحكومة لقطاع الماشية والزراعة ؟ لقد وضعت الحكومة الخطط الطويلة الاجل والقصيرة لتحسين السلالات والحصول على نوعيات اجود من الماشية ، فهناك التجارب التى تقوم بتربية (الاباعد Cross Breeding) من الماشية لتحسين امكانيات اللحم واللبن ، ومن ضمن هذه الخطة امداد الرعاة بنتائج هذه التجارب مع استمرار البرنامج المكثف للانتاج الحيوانى وتحقيق نظام التسويق واستكشاف طرق ووسائل لتصدير المواشى ومنتجاتها(١) • وللقضاء على امراض الحيوانات انشئت وزارة الثروة الحيوانية والاحراج والمراعى وأدركت هذه ادراكا تاما ان الثروة الحيوانية هى الشريان فى حياة البلاد الاقتصادية فهى تسعى الى المحافظة على أعلى المستويات الصحية بالتخطيط الواعى • وهذه الوزارة هى المسئولة عن استيراد العقاقير البيطرية اللازمة وتوزيعها ، كما أنشأت الحكومة كليات بيطرية لتخريج الاطباء البيطرين ذوى الكفاءة العالية •

هذا وتعطى الادوية والعقاقير بصورة دائمة لاصحاب المواشى

(١) UNCTD NATIONAL PAPER 1979, Somalia P. 2.

مجانا • ولقد ساهمت كل هذه الاجراءات فى تحسين الصحة الحيوانية وفى القضاء على طاعون الماشية الذى كان يسبب هلاك المواشى بنسبة عالية فى الماضى وقد حافظت الوزارة ايضا على مستوى عال من الوقاية من امراض الحيوانات وعلى الاخص بالتلقيح الاجبارى • وتتضمن هذه الخطة تجهيز فرق متنقلة فى المناطق الخالية من الامراض لاجراء الفحوص على نوعية الحيوانات • وهناك حملات لمكافحة طاعون البقر ومراكز لمعالجة الطفيليات • وقد انشئت مزارع عديدة لتربية المواشى •

وهذا ويرتكز الامل الاكبر فى تقدم الصومال اقتصاديا على التنمية الزراعية ولذلك فان القطاع الزراعى نال النصيب الاكبر من مجموع اعتمادات خطة التنمية• ومما يسترعى الانتباه فى البلاد ٨٫١٥٠٠٠ هكتار من الاراضى الصالحة للزراعة بالرى وبمياه الامطار ، فى حين ان الصومال يستورد المواد الغذائية التى يمكن انتاجها محليا وينفق فى شراء هذه المواد الغذائية مبالغ كبيرة من النقد الاجنبى الذى يحصل عليه من قطاع الثروة الحيوانية • واذا اعطيت الزراعة الاهمية التى تستحقها ، فمن المؤكد ان يتوصل الصومال الى الاكتفاء الذاتى فى حقل المواد الغذائية • وتهدف سياسة الحكومة كذلك فى هذا الشأن الى ايجاد اساليب حديثة يمكن بها زيادة الانتاج الزراعى وتدريب المزارعين على الاساليب العلمية الحديثة فى الزراعة كما تهدف ايضا الى استبدال « البامبو » أو الفأس التقليدية المستعملة فى فلاحة الارض فى جنوبى البلاد بالمحاريث التى تجرها الحيوانات أو بالمحاريث الالية • ولحماية المحاصيل الزراعية من الحشرات انشئت مصلحة النباتات ومكافحة الافات الزراعية وهى المسئولة عن حمايتها من الامراض والطيور وخاصة الامراض المعدية التى يحتمل جلبها من البلدان الاخرى عن طريق النباتات الناقلة لعدوى تلك الامراض• اما موارد المياه فان الحكومة قد بدأت فى تنمية الموارد المائية ومدها لكل من المراكز الحضرية والمناطق الريفية فى البلاد بعد ان انشأت وكالة المياه الوطنية ، وعلى هذا لا يحق لاى شخص كان أن يحفر بئرا عميقة فى أى مكان فى البلاد دون أن تكون فى حوزته رخصة من الوكالة (وكالة

تنمية مصادر المياه) • غير ان هذا لايحظر حفر آبار ضحلة فى باديـــة البلاد بقصد استعمال مائها للاغراض المنزلية أو الرعوية كما يريدون • الهدف من وراء ذلك هو تنظيم احتياجات السكان الرحل من الماء مـــع احتياجاتهم للمراعى الصالحة فى نفس الوقت ، وذلك تفاديا للاوضاع الخطيرة التى نجمت فى الماضى عن بناء البرك فى اماكن معينة من منطقة (هاود) مثلا والتى ادت الى تجمع المواشى فى بعض الاماكن اثناء فصل الجفاف — الشتاء — وبالتالى تدهور المراعى أو تلاشيها تماما مما أدى بدوره الى تعرض مناطق رعوية شاسعة لعوامل انجراف التربة أو التعرية• وقد كان ذلك احد الاسباب الرئيسية التى جعلت فترة الجفاف الطويلة فى عام ٧٤ — ١٩٧٥ والتى تزال البلاد تعانى من آثارها السيئة حتى الان أكثر خطورة ووقعا على السكان الرحل ، مربو الماشية والذين يعتمـــد على وجودهم اقتصاد البلاد اعتمادا يكاد يكون كليا وخاصة فى الحصول على النقد الاجنبى اللازم لتنميتها وتطورها • ومن الجوانب الهـــامة ايضا فى التنمية تحسين مستوى الحرف اليدوية والصناعات الصغيرة انتاج السلع التى تسد حاجة السوق المحلية لتثبيت دعائم الصـــناعة المحلية ، والاهتمام بالصناعة التى تجد فى داخل البلاد ذاتها معظم المواد الاولية اللازمة لها والتى يمكن ان تباع بأسعار مناسبة لمستوى الدخل •

ومن الصناعات التى تتوفر فيها هذه المواصفات :

١ — غزل ونسج القطن ، وصناعة النسيج على الانوال اليدوية •

٢ — غزل ونسج الصوف •

٣ — دبـــغ الجلود •

٤ — صـــنع الاحذية •

ويدخل فى ذلك حفظ الفاكهة وتعبئتها واللحوم المحفوظة وبخاصة بعد العناية بتربية الانواع المحسنة من الماشية والاغنام التى تمتاز بكثرة اللحم وعمل منتجات الالبان •

دور المرأة فى التنمية الاقتصادية :

انها تشترك حاليا فى جميع المجالات والاعمال وهى تتسم بالمسئولية فهى جادة ومنظمة بشكل يسمح لها باداء واجباتها فى البيت والعمل ، وهى اليوم مفتاح النشاط الاجتماعى فىالحى حيث عرف عنها دقة التنظيم والجرأة فى تنفيذ البرامج • وليس هناك عائق ما يقف امام المــرأة فى المشاركة فىمختلف نشاطات الحى الذىتسكن فيه• وتشمل هذه النشاطات مجالات التعليم والعمل والصحة والرياضة والفنون ••• الخ •

ومن أعمالها فى داخل الحى بناء المستوصفات وروضات الاطفـــال وتشييد المدارس والطرق والاشراف على جميع التبرعات كما تتناوب حراسة الامن ليلا بالمشاركة مع زميلها الرجل •

ولقد بذلت الحكومة جهدا كبيرا لاعطاء النساء حقهــن فى التعليم والتحرر الاجتماعى ، ولم تلبث المرأة لدى استعادة هذا الحق ان اظهرت قدرتها وكفائتها وضرورة وجودها فى الحياة الوطنية • وقد ساهمت المرأة الصومالية مساهمة فعالة فى مختلف الحملات التى اطلقتها حكومة الثورة فى البلاد فاثبتت انها قوة منظمة واعية تدرك تطلعاتها الوطنية فى هــذه المرحلة الانتقالية •

وأثبتت حكومة الثورة ان المرأة تقف على قدم المساواة مع سائر اعضاء المجتمع فى مهمة تعمير البلاد لانها هى الام والبانية والطليعة فى العائلة التى ينبثق منها المجتمع كله • ومنذ قيام الثورة اتيح للمــرأة الصومالية ان تثبت انها تستطيع المساهمة كالرجل فى النشاطات العديدة التى يتطلبها تعمير البلاد • ولقد لعبت المرأة دورا مهمــا فى الكفاح من أجل الاستقلال الوطنى •

وتتمتع المرأة الصومالية باحترام ادبى كبير فى المجتمع • وكان من نتائج نضالها واشتراكها بفاعلية فى بناء صرح المجتمع الجديد :

(أ) اعلان مجلس الثورة والسكرتيرين عن مساواة المرأة بالرجل •

(ب) صدور اول قانون للاحوال الشخصية محققا لقرار المساواة .
عام ١٩٧٥ الذى ينص على مســاوة المرأة والرجل الكاملة فى الحقوق والواجبات وذلك تحقيقا لما جاء فى ميثاق الثورة وفى منع تعدد الزوجات تقول المادة الثانية عشر « لايجوز للزواج بزوجة ثانية دون تصريح كتابى بذلك من محكمة الناحية المختصة ، ولا تصدر المحكمة مثل هذا التصريح مالم تتحقق من توافر احد الشروط التالية :

١ — ثبوت عقم الزوجة باقرار لجنة الاطباء المتخصصين بشرط عدم علم الزوج بهذا العقم قبل الزواج .

٢ — وجود شهادة طبية بان الزوجة مريضة بمرض مزمن أو معــد لايمكن البرء منــه .

٣ — صدور الحكم بالسجن على الزوجة لمدة تزيد على سنتين .

٤ — تغيب الزوجة بلا سبب معقول عن بيت الزوجية لمدة تزيد على ســنة .

٥ — ما تمليه الظروف .

أما المادة الثامنة والعشرين فتتحدث عن نفقات الزواج اذ تقول :

يساهم كل من الزوج والزوجة فى نفقات ومتطلبات الزوجية حسب الامكانيات المالية لكل منهما . كما تعزز المادة التاسعة والعشرين ذلك بالنص (١ — أثاث المنزل ملك مشترك للزوج والزوجة، ٢ — وحالة ابطال العقد تقسم هذه الملكية بالتساوى بين الزوجين) وجاء موضوع الطلاق فى عدة مواد ابتداء من المادة ٣٨ وبالرغم من وضع قدرة الطلاق فى يد الزوج الا ان القانون يحرص على عدم حدوث الطلاق الا بسبب مقنع ، أوجب على الزوج استصدار امر الطلاق من المحكمة التى بالتالى تعتمد على محضر تكتبه لجنة مصالحة بعد ان تكون قد فشلت فى اقناع الزوجين ببقاء صرح الاسرة الذى تحرص الثورة على ابقائه قويا سليما . وفى

مجال التعليم نجد انه قد حدث تغيير جذرى سواء من حيث توسيعه أو تحديث مناهجه على خطط العصر الجديد ، وتنهج البلاد طريق التقدم الاقتصادى الحقيقى • مما تقدم يتضح ان الحكومة قد اولت قطاع الثروة الحيوانية والزراعة اهتماما كبيرا وذلك بنشر الوعى بأساليب تربية الانواع المحسنة من الحيوانات وكذلك الزراعة الحديثة ومقاومة الامراض والافات وتحصين الحيوانات ضد الامراض الوبائية مجـــانا وقد وضعت الدولة كذلك ضمن خطتها تنمية الموارد المائية ومدها لكل من المناطق الحضرية والريفية فى البلاد لتوفير الميـــاه الصـــالحة للشرب للمواطنين •

خاتمــة :

ان طبيعة الارض وكمية الامطار الساقطة عليها بالاضافة الى توزيعها زمانا ومكانا تحدد الطرق والاساليب التى يستطيع بها المرء الاستفادة من بيئته وثرواته الحيوانية والزراعية • وتشكل المواشى اكثر الموارد الطبيعية أهمية للصومال فى الوقت الحاضر ، ويشتهر الصوماليون الرحل فى افريقيا باسرها بخبرتهم العظيمة فى تربية المواشى • وكان للرخاء والقحط تأثير كبير على حياة المجتمع القبلى الصومالى ، فى ايام الرخاء تقل الرحـــلات الاستطلاعية ويعم الاستقرار • وكتعبير بقـــدوم الرخاء تعم الفرحة بين الجميع وترقص الرقصات الشعبية فى كل مكان الى وقت متأخر من الليل وتكثر زيارات المجاملة بين الاهل والاقارب كما تزداد نســـبة الزواج والافراح • ويقل استعمال المواد النشوية مثل الارز والذرة والقمـــح بسبب وفرة الحليب ، ويطوف علماء الدين المتجولين وتلاميذهم فى أرجاء البوادى للوعظ والنصح واقامة الحفلات التقليدية •

هذه الصورة المشرقة تختفى بزوال ايام النهار السعيدة وبالتدريج تبلغ مأساة ابناء البوادى ذورتها فى ايام الجفاف والقحط فى بعض المناطق المتفرقة حيث ينتقلون من مكان لاخر ويرفعون أيديهم للسماء ويصلون صلاة الاستسقاء وكلما تأخر هطول الامطار ازداد خوفهم لان الكثير من ماشيتهم وحيواناتهم تموت ، وبعد هطول اول قطرة من المطر على الارض تدب الفرحة فى قلوبهم • وحياة البداوة عموما تشكل عقبة فى سبيل زيادة الثورة الحيوانية التى تعانى كثيرا من القحط وشح المياه وقلة المراعى وأساليب التربية العلمية والتصدير الواسع النطاق الىالاسواق الخارجية•

وقد كان من الصعب وضع هذه الناحية فى اطار علمى لان معظـــم القائمين بتربية الماشية هم من البدو الرحل المتنقلين من مكان لاخر ، الا أن هذا لايعنى ان موضوع تربية المواشى قد اهمل •

اما مساهمة الدولة فى هذا القطاع فقد كانت متدرجة بالقليل مـــن التغييرات الاساسية ، والنتيجة ان نمو هذا القطاع وبروزه لا يزالان فى

ايدى البدو الرحل • وغنى عن البيان ان التنمية اللازمة لقطاع الثروة الحيوانية تقتضى توطين البدو فالبداوة والتخطيط العلمى لايمكن ان يجتمعان ومن الواضح علاوة على ذلك ان لحياة البداوة مساوىء خطيرة يجب القضاء عليها •

تحسين المراعى :

من بين الاسباب الكثيرة التى ادت الى تدهور المراعى فى الصومال الرعى المتواصل المكثف والزيادة الكبيرة فى اعداد المواشى بالاضافة الى التدمير الذى يقوم به الرعاة للمراعى دون اعطاء فرصة كافية أو راحة لنمو الاعشاب والشجيرات حتى تستطيع النباتات القاء بذورها على الارض من استرداد حيويتها بعد الرعى المتواصل •

ومن اجل تغذية القطعان فهناك الاراضى التى لها الاولوية فى المستقبل والتى تحتاج الى استخدام العلم والتكنولوجيا •

أولا : لابد منتكوين وتدعيم التعاونيات الرعوية وخلق مراعى احتياطية لتأمين عدم حدوث المجاعات •

ثانيا : الاهتمام المستمر بالاساليب الوقائية والعلاجية للامراض الشائعة كالافات والامراض الطفيلية •

ثالثا : الاهتمام بمشاريع الانتاج الحيوانى مثل انتاج اللبن وانتاج اللحم وتنمية الثروة الداجنة • ولابد ان تعطى لهذه المشروعات الثقل الاكبر فى الاعتمادات المالية والقوى البشرية •

رابعا : تطوير كل من التسهيلات التسويقية (المحلية والخارجية) فهى تستحق الانتباه الدائم •

وطالما امكن التحكم فى الامراض تتحسن المراعى وتتحسن انتاجية السلالات عالية انتاج اللبن واللحم ، ولابد أن يقابل هذه الزيادة توسعا فى

التسهيلات التسويقية • ويجب ان نعلم ان قطاع الثروة الحيوانية هو اهم نشاط اقتصادى فى البلاد ، فهو مصدر العيش لنحو ٧٠٪ من السكان. هذا القطاع ينتج ٧٠٪ من العملات الاجنبية ويقع كليـــة تحت أدارة الصوماليين واشرافهم • وتعتبر الان ان ٥٥٪ من الاراضى صالحة للرعى غير فترات الجفاف المتكررة التى ترغم البدو الى التنقل الدائم بحثـــا عن الماء والمرعى •

وقد ادركت حكومة الثورة ادراكا تاما المقام الهام الذى تحتله الثروة الحيوانية فى حياة البلاد الاقتصادية فاولتها الافضلية الاولى فى جميع برامج التنمية ، وهذا يتطلب رفع مستوى حرفة الرعى بتوفير العلف على مدار السنة وادخال سلالات جديدة •

ويرتكز الامل الاكبر فى تقدم الصومال اقتصاديا على التنمية الزراعية ولذلك فان القطاع الزراعى قد نال النصيب الاوفر من مجموع اعتمادات خطـــة التنمية •

والاساليب الزراعية المستعملة حاليا قديمة ومتخلفة وخاصة بالنسبة لفلاحة الارض وتجهيزها لزراعة التقاوى واستعمال الاسمدة والتحكم فى امراض النباتات والافات الزراعية ، وتسبب هذه الاساليب العتيقة خسائر كبيرة فى المحصولات الزراعية •

ومشروعات التنمية الزراعية تتطلب « توسيع الرقعة الزراعيـــة استخدام الات حديثة ، زراعة المحاصيل النقدية للتصدير » •

وايضا القيام بالدراسات اللازمة للكشف عن الثروة المعدنية والتنقيب عن البترول •

المراجع العربية والاجنبية :

أولا : المراجع العربية :

١ ــ احمد صوار : الصومال الكبير

٢ ــ صوماليا اليوم : حقائق ومعلومات . نشرة وزارة الاعلام والارشـــاد القومى ، جمهورية الصومال الديمقراطية ، مقديشو ١٩٧٥ .

٣ ــ عبد المنعم عبد الحليم : صوماليا ، دراسة لبيئتها الطبيعية وامكانياتها الاقتصادية ونظم الصوماليين الاجتماعية وعاداتهم وعلاقتهم باقليم مصر فى مختلف العصور .

٤ ــ الصومال الجميلة : نشر لحساب وزارة الاعلام والارشاد القومى ، مقديشيو ــ الصومال ١٩٧٨ من تصميم « ديزاين فوربرنت ليمتد » ، وانتاج ديفد جامسيون اند اسوشتيس ليمتد سافرون والدن ــ اسيكس ــ انجلترا .

٥ ــ العالم العربى : الناس وزارة الاعلام والارشاد القومى لجمهوريـــة الصومال الديمقراطية مقديشيو ، اكتوبر ١٩٧٥م .

٦ ــ الثقافة والفنون الشعبية فى الصومال ، مقديشيو ١٩٧٤ . طبـــع فى انجلترا باسم وزارة الاعلام والارشاد القومى ص ٨٥ .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

٧ ــ Drysdale John Gardon Stewart : The Somali dispute 1964.

٨ ــ Encyclopedia Brittanica : Art. Somalia.

٩ ــ Hugo A. Bernatzik : Neue Grosse Volkerkunde. Koln 1968, P. 211-212.

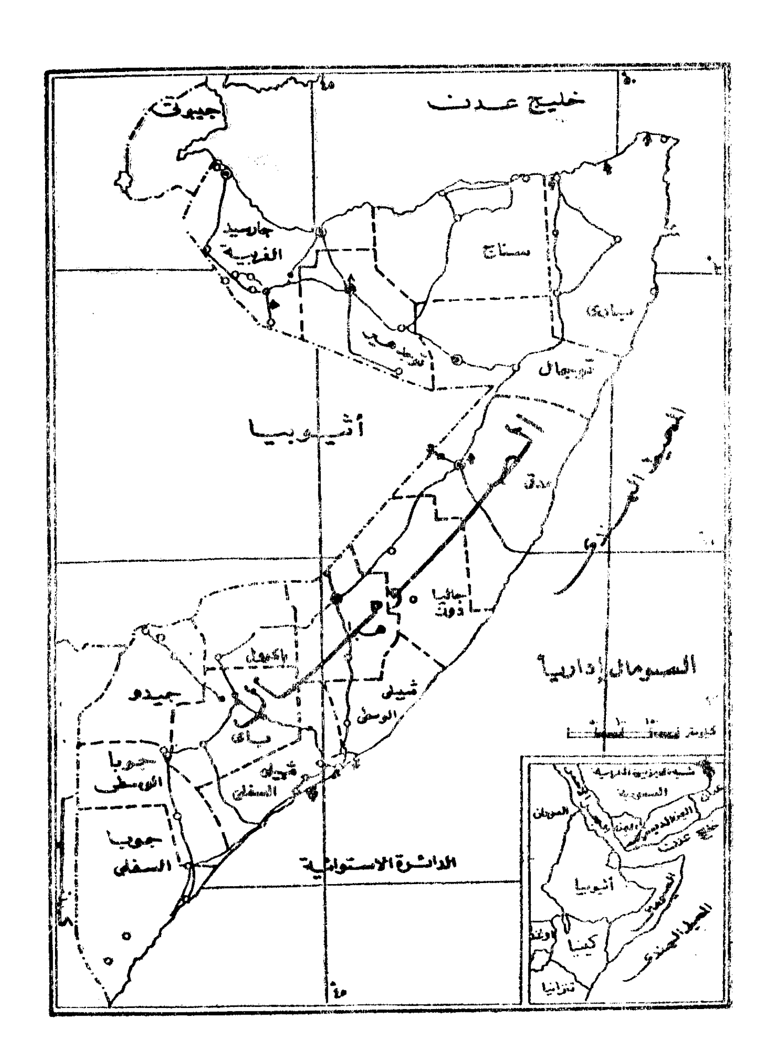
١٠ ــ Lewis I.M. : A pastoral democracy, a study of pastoralism and politics among the northern Somali of the Horn of Africa. Oxford University Press 196.

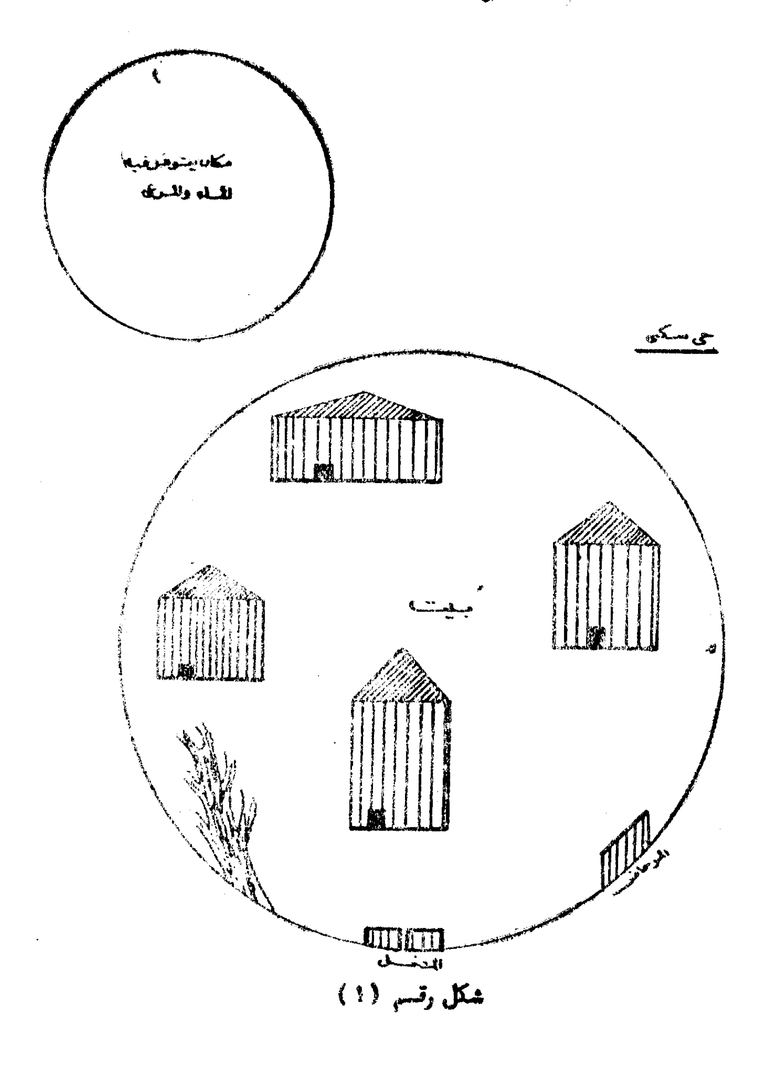
١١ ــ Meyers Handbuch uber Afrika Mannheim 1962. P. 182, 183.

١٢ ــ Seligman C.C. : Races of Africa. London Fourth Edition. 1978.

١٣ ــ Walter Hirschberg : Volkerkunde Afrikas B.I. Hochschulen-bucher 333/333a/333b. Mannheim. 1965, P. 43, 44, 45.

١٤ ــ UNCTD NATIONAL PAPER. Somalia, 1979, P. 2.

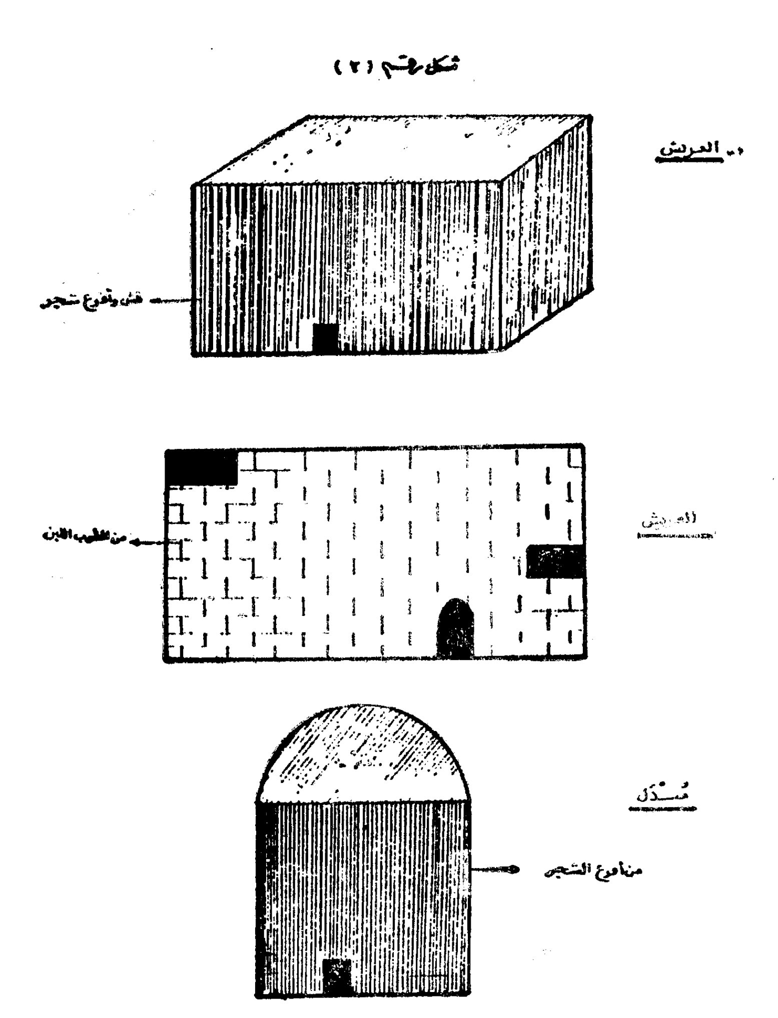

خليج عدن
جيبوتي
جاربيد
الغربية
سناج
توجدير
نوجال
أثيوبيا
مدق
جالجا
دوت
باكول
جيدو
باي
شبلي
الوسطى
شبيلي
السفلى
جوبا
الوسطى
جوبا
السفلى
الدائرة الاستوائية
الصومال إداريا
السودان
أثيوبيا
كينيا
تنزانيا
خليج عدن
المحيط الهندي



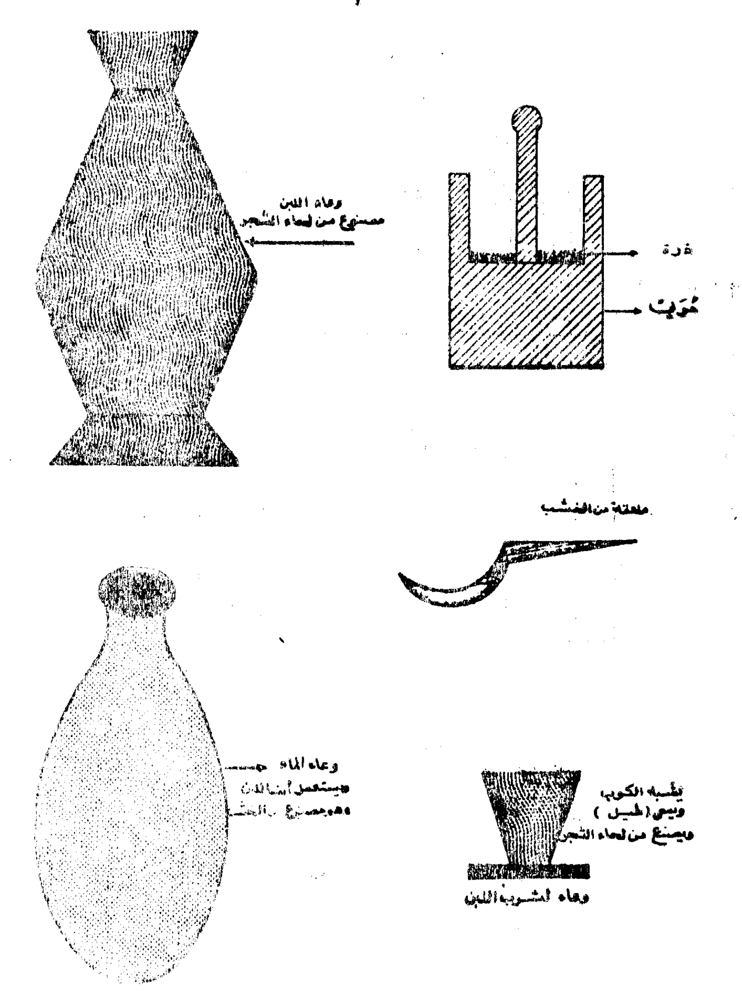
رسم يوضح الحي السكني ولابد أن يكون بجوار منبع مياه ومرعى
مكان يتوفر فيه
الماء والمرعى
حي سكني
بيت
المدخل

شكل رقم (١)

شكل رقم (٢)



شكل رقم (٣)


وعاء اللبن
مصنوع من لحاء الشجر
ملعقة من الخشب
وعاء الماء
يشبه الكوب
ويصنع من لحاء الشجر
وعاء لشرب اللبن

الصراع الثقافى فى القرن الافريقى

دكتور / عبد الله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهرة

تقـديم

الثقافة التى أعنيها هنا ، هى على سبيل الاجمال ، طريقة الحياة والتفكير المؤدى الى سلوك وتصرف وعمل ، يتخذ نمطا معينا خاصا ، ليس عشوائيا أو اعتباطيا بل يمكن تفسيره ، غير أن ذلك لا يعنى نمطية صارمة السلوك ، بل نمطية تأخذ فى اعتبارها عوامل الحركة والدفع والتغير •

وفى ضوء هذا التعريف يمكن القول ، أن طريقة الحياة والتفكير ، وصياغة السلوك على أساسها يشمل اللغة التى هى وسيلة الفكر وأداته ، ويشمل العقائد والعرف والتقاليد والموروثات التى ينبثق منها التفكير والتعبير والعمل ، ويشمل أيضا الفنون التى تعبر عن التكوين النفسى والفكرى ، بل هى النشاط العملى المعبر عن المؤثرات الثقافية المختلفة •

وليس من شك أن الثقافة تختلف من جماعة لأخرى ، ومن عهد لآخر ، نتيجة لتفاعل عوامل مختلفة ، على رأسها التعليم واكتساب الخبرة فى مجالات مختلفة ولما كانت متغيرة متحركة فلا بد من دراستها فى أبعادها التاريخية وعلاقاتها التركيبية ، وتتبع عناصر الثبات والحركة فى العصور المختلفة ، ولعل معنى الصراع المقصود هنا ، هو « التغير » ودراسة العوامل المؤدية اليه ، والتى تشكل الثقافة الحالية فى حالة من الحالات التى نزعم أنها ثابته ، لأن الثقافة كاللغة ثابتة ومتغيرة فى أن واحد وعديدة وواحدة فى ذات الوقت •

ومنطقة القرن الافريقى المعنية بالدراسة هنا ، هى بالفعل منطقة ذات أوضاع خاصة ومقومات أساسية قد تميزها عن غيرها من المناطق ، فهى أولا ، منطقة جغرافية لها مميزات خاصة ، ومنطقة اختلاط وامتزاج بشرى

قلت نظائره فى العالم ، وهى من جهة ثالثة ، اقليم له طابع ثقافى متميز من أوجه عديدة .

وسوف نحاول فى هذه العجالة أن نتلمس التكوين الثقافى للمنطقة ، وعوامل الصراع المؤدى الى التغير ، والتفـاعل المؤدى الى الائتلاف أو الاختلاف والتنافر وقد قسمت بحثى هذا الى أربعة فصول راعيت فيها البعد التاريخى .

والله أسأل التوفيق والمعوانة

الفصل الاول
عصر الوحدة الثقافية

هذا العصر يمتد الى حوالى القرن السادس الميلادى ، وفيه تمتعت المنطقة بوحدة ثقافية ، وهى وحدة بالمفهوم العام لا الخاص ، وكما سبق القول فأن منطقة القرن الافريقى منطقة لها أوضاعها ومقوماتها الجغرافية الخاصة فالهضاب بها ، تمتد من شمالها الى جنوبها ، تاركة بينها وبين ساحل البحر سهولا فسيحة تغلب عليها الطبيعة الصحراوية ، فى هذه السهول تنزل طائفة من الشعوب البدوية المترحلة التى تشتغل بالرعى « البجة » والأعفار (الدناقل) والصومال والقالة (الجالا)[1]، بينما تعتصم بالهضاب شعوب أخرى تشتغل بالزراعة ، ولها مستقرات ثابتة فى الاودية ومناطق الخصب والوفرة بها .

هذه الشعوب جميعا ، كانت فى الأصل تتكون من عناصر حامية أو (كوشية) ثم وفدت الى المنطقة هجرات سامية عبر للضيق باب المندب ، اختلطت بالسكان وامتزجت بهم ، حتى أصبحت منطقة القرن الافريقى بعامة ، مزيج بشرى من عناصر متعددة .

وقد عملت الظروف الطبيعية على توجيه الاقليم نحو عالم المحيط الهندى ، وخاصة نحو جنوب شبه الجزيرة العربية فأزدهرت التجارة ، وكثرت الاموال ، وارتقت الحضارة ونهضت البلاد ، وأصبحت المسالك البرية والبحرية فى المنطقة هى الطريق العالمى للتجارة ، بل لقد عملت الظروف نفسها على تكوين مجتمعات ذات ثقافة واحدة ، وحضارة واحدة منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة ق . م .

هذه الوحدة الثقافية دلتنا عليها الدراسات الاثرية التى حظيت بعناية فائقة قبل الحرب العالمية الاولى ، حيث تعددت رحلات الاستكشاف والبعثات العلمية الى القرن الافريقى واليمن وزودتنا بآلاف النقوش المكتوبة بحروف عربية جنوبية ، فالابجدية العربية الجنوبية هى أصل

---

(١) يسمون انفسهم الاورومو .

الابجدية الحبشية ، والساميون هم الذين خلفوا لنا فى المنطقة آثارا وادابا عظيمة ، وكانت لغتهم عربية جنوبية ، وما زالت لغاتهم الى اليوم فرع من فروع أسرة لغوية واحدة .

من هذه النقوش يتضح لنا ، أننا نقف أمام ثقافة سامية موحدة ، يمتد أثرها من أقصى جنوب بلاد العرب وعبر البحر الأحمر حتى أعماق الهضبة الحبشية وقد قامت هذه الثقافة على أسس وعناصر متشابهة الى حد كبير ، ونلمس فيها تلك الوحدة العامة القائمة فى كل المنطقة منذ أقدم العصور ممثلة فى العناصر الآتية :

أولا : وحدة الاديان والعقائد :

وهى فى الجملة أديان تنتمى الى الساميين القدماء ، حيث كان السكان يؤمنون بآلهة الساميين مثل « ذات بعدن » السبأية وعشتر «أوعثتر» العربية، والاله «سين» و«المقة» و«نرو» و«حريمى»(وهومحرم Mahrem عند الاثيوبيين) . و « ود » و « نكرح » و « آل » (أو اله أو الهه) و « سميع » و « نسر » و « مناه » وغيرها (١) .

وفى الجملة آمن الناس جميعا فى المنطقة بآلهة واحدة ، وتعبر النقوش جميعا عن صيغ دينية واحدة تختم عادة برجاء الاله أن يحقق المراد ، وأن يقبل ما قدم من قرابين ، كذلك اعتقدوا فى البعث ، وآمنوا أيضا بالقيم الخلقية النبيلة ، وهى افكار عامة مشركة بين الساميين وأقربائهم الحاميين أو الكوشيين فى القرن الافريقى .

والواقع أن النقوش المختلفة التى وصلتنا من اليمن وأثيوبيا ـ بالرغم من وجود بعض الفوارق الزمنية والمكانية تتبع جميعا دائرة ثقافية واحدة ، وتجمع بينها لغة واحدة وخط واحد وعناصر ثقافية واحدة ، سواء من ناحية الفن أو المعمار أو الدين .

---

(١) أكثر الاسماء ورودا فى النقوش العربية الجنوبية والحبشية فى أسماء الاعلام « اله » « آل » أو آلهة « والات » ، وهما يقومان بدور كبير فى الحياة الدينية والاجتماعية فى القرن الافريقى والساحل المقابل آنذاك ، ثم تطور أسم المعبود « اله أو آل ـ آلهة « الى » هـ ال هـ » أى الله .

ثانيا : الوحدة اللغوية :

لغات المنطقة على أختلافا ، هى فروع من دوحة واحدة ، فهى تنتمى الى عائلة اللغات الافرو اسيوسة ، وكثير من لغات القرن الافريقى لغات مهاجرة من شبه الجزيرة العربية ، وقد وصلتنا نقوش (٢) تدل على أن أصل الابجديات الاثيوبية هى العربية الجنوبية وكانت تكتب جميعا بالحروف دون الحركات الا فيما تدر ، وكانت الحروف فى العصور الأقوم أكثر أناقة واستقامة ، ولكنها مع الزمن التوت واعوجت وأختلفت صورها باختلاف المناطق الى حد ما .

ويلاحظ أن هناك تقاربا بين العربية الجنوبية « والجعز » ، و هى اللغة القديمة فى اثيوبيا وبين اللغة العبرية ، بل أنها شديدة القرب من العربية الشمالية مما يدل على الوحدة الثقافية العامة فى المنطقة ، ليس ذلك فحسب بل أن العلاقة وثيقة بين تلك اللغات واللغات الشعبية الأخرى التى انحدرت الينا فى اللجهات الحديثة فى القرن الافريقى وعلى رأسها الصومالية ، التى أصبحت لغة الصومال الحديث .

ثالثا : الوحدة الفنية :

كذلك تدل حفائر البعثات التى اكتشفت بقايا الابنية الأثرية فى القرن الافريقى على وجود نوع من الوحدة الفنية ، ممثلة فى التشابه المعمارى فى تخطيط المعابد وطرق البناء والزخرفة ، ومن أهم المبانى الابراج المبنية من طوابق متعددة ، وخاصة تلك التى وجدت فى « أكسوم » وقد وجد العديد منها فى بلاد اليمن ، ويستدل أيضا من بعض النقوش ومما ذكره الهمدانى فى الاكليل (١) أن بلاد العرب الجنوبية عرفت نظام البناء بالخشب وهذا النظام وجد أيضا فى أثيوبيا القديمة ، كما تشير المصادر

---

(٢) وجدت عدة نقوش على قمة جبل الأنبا « بنتليون » بالقرب من أكسوم » وعلى بعض الاعمدة فى « يح » شمال شرقى « عدوة » وهى تدل دلالة واضحة على الاصل العربى للابجدية الاثيوبية التى تطورت قليلا بعد ذلك .

(1) N. Rhodokanakis Studien.

راجع أيضا « التاريخ العربى القديم » ديتلف نيلسون ، وفرتز هومل وآخرون وهو ترجمة د . فؤاد حسين على . ص ١٥١ ط ١٩٥٨ .

ذاتها الى استخدام الحجر فى العمارة ووجود المصاطب فى رءوس الاعمدة والسطوح ، وكذلك الصخور الرخامية المنحوتة نحتا منتظما ، وزخرفة الاسقف والحيطان والابواب بأسلوب واحد وعناصر متشابهة ، وكانوا يستخدمون فى الزخرفة السن والذهب والفضة والاحجار الكريمة ، أما الاعمدة فكانت تزخرف بصفائح الذهب والفضة مثلما وجد فى عمايد وحرم بلقيس ، وكساسى فى أثيوبيا وكذلك فى عدولية وأكسوم (كولوى) ، ومن بين العناصر الزخرفية فى المنطقة استخدام الكتابة السبائية والزهور وخاصة زهرة الزئبق • وكل ذلك يشير الى تلك الوحدة الفنية العامة فى المنطقة •

رابعا : الوحدة السياسية ووحدة المصالح :

اتصلت المنطقة منذ القدم بالتجارة العالمية ، وشاركت فيها ، وأثرت فيها أزمانا متعاقبة ، وازدهرت الموانى وكثرت الرحلات ، ونشأت المدن التجارية ، وقامت الدول الغنية التى اعتمدت فى الأساس على التجارة والتصدير ، وكثيرا بل غالبا ما كانت تتم الوحدة بين جميع أقاليم القرن الافريقى تحت قيادة ملك أفريقى أو عربى ، وكان لدى سكان المنطقة احساس بهذه الوحدة ، وخاصة فى عهد الاكسوسين الذين حرصوا على هذه الوحدة وعملوا على تدعيمها وتقويتها وتبين هذا من العديد من النقوش التى وجدت فى عاصمة دولتهم القديمة • والتى تدل على اشرافها على الطريق الممتد بين المحيط الهندى والبلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت بلاد العرب واثيوبيا هى القنطرة الموصلة بينهما ومن المعروف أن بلاد العرب كانت ترد اليها بضائع من الابنوس والسن والبخور من الاقطار المقابلة لها على الشاطىء الافريقى لذلك رأينا دولة السبائين الحميريين تتوسع تجاه البحر الأحمر والجنوب ، وشرق أفريقيا، واستوطنت قبائل وعشائر يمنية فى كثير من تلك الجهات ، ثم أصبحت صاحبة السيادة فى المنطقة وتمكنت من بسط سلطانهما على وطنها الاصلى أى بلاد اليمن ، وفى عصر لاحق ظهر همدانى على رأس أسرة جديدة وجلس على عرش سبا وعقد حلفا مع دولة الأحباش التى كانت نواة لدولة آكسوم •

وهذه الدولة الافريقية التى نشأت أصلا من جاليات يمنية نجحت بمرور الزمن فى تأسيس هذه الدولة الافريقية التى اضطرت الى اقامة حاميات عسكرية على الشاطىء العربى المطل على البحر الأحمر للدفاع عن أملاكها الخارجية ، لذلك كانت بحكم مركزها نستطيع التدخل فى شئون بلاد العرب الجنوبية ، وأن تؤثر وتتحكم فى طريق العرب التجارى الثانى ، الذى كان يبدأ من الموانى الجنوبية للبحر الأحمر محاذيا للشاطىء العربى متجها شمالا حتى بطره أو بحرا على قوارب صغيرة تمخر البحر بحذاء الشاطىء حتى الموانى الشمالية .

الحياة الثقافية :

أطلعتنا النقوش الاثيوبية على قلتها على كثير من النظم التشريعية والادارية والمعلومات العامة ، وهناك نقوش تتصل بالاهداء والبناء والعمل كما وصلتنا أيضا وثائق أخرى تتصل بالزراعة وجباية الأموال ، وتحدثنا غير مباشر عن التشريع والأنظمة التى كانت سائدة فى تلك البــلاد ، ومنها يتبين لنا أن الزراعة والتجارة كانت هى العمود الفقرى للحياتين الاقتصادية والسياسية للدولة ، وأن تنظيم الشعوب كان طبقا للحياة الاقتصادية ، وتجد فى هذه النقوش أيضا أخبارا تتصل بالحاجة الى العناية بالمسائل العسكرية ، كما نقرأ أشياء عن اللاهوت وأثر الآراء الدينية على الحياة العامة فى الدولة .

والى جانب ذلك تجد بعض النقوش التى توضح فكرة الاعتماد على الله والتوكل عليه ، وهى فكرة كانت منتشرة بين طبقة الفلاحين خاصة ، كما تجد نقوش لها أغرض أخرى تسثل الرابطة الاقتصادية لمن يقدمون القرابين والنذور ولأصحاب الاملاك ورجال الدولة .

وتكتفى النقوش عادة بذكر الخطوط الرئيسية للأعمال الاجتماعية والاقتصادية والأنظمة السياسية والادارية . ويفهم منها جميعا أن العوامل السابق ذكرها قد عملت عملها فى الربط بين الاقوام من الناحية الدينية والاقتصادية وأنها جمعتهم على أخلاق ومبادىء واحدة ، وأشاعت بينهم ثقافة عامة مشتركة الأهداف والمصير .

الفصل الثانى
عوامل الفرقة والصراع

أستمرت الوحدة الثقافية زاهرة قرونا عديدة ، ولكن يبدو أن أحداثا جديد قد عملت على فصم عرى الوحدة ، بل عملت على أضمحلال الثقافة السامية والتقليل من أهمية الساميين السياسية فى أواخر العصر القديم ، ومر عصر طويل شاعت فيه الفوضى فى منطقة القرن الافريقى بخاصة وعمت الحروب ، وقلت الثروات ، ويمكن أن نجمل أهم العوامل التى أدت الى هذه الفوضى فى الأمور الآتية :

١ ـ ظهور الهند وأوربيين كمافسين للساميين فى محاولة السيطرة على العالم القديم •

٢ ـ ظهور أفكار دينية جديدة أدت الى زعزعة الاستقرار الثقافى القديم •

٣ ـ تطور الطرق التجارية ، وظهور طرق أخرى جديدة •

ضعف الساميون فى أخريات العصر القديم ، وتخلوا عن مكان الصدارة فى العالم القديم للهند وأوربيين الفرس ثم الاغريق ثم الرومان ، ففى أخريات هذا العصر بدأت المطامع الاستعمارية فى المنطقة بسبب التجارة ، وسار « اليوس جللوس » الرومانى الى اليمن وحاصر العاصمة السبائية عام ٢٥ ، مما أضطر السبائيين والحميريين الى مصادقة الرومان ، ثم تحولت المواصلات البرية التى كانت فى يد « النبط » الى أيدى الرومان باستيلائهم على « بطرة » وضعف اليمنيون بسبب الاضطرابات والحروب الداخلية وأخذت العلاقات تسوء تدريجيا بين بلاد العرب الجنوبية وبين أثيوبيا ، وحاول الاثيوبيون السيطرة على الطريق البرى المربمكه ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، ثم سقطت أثيوبيا نفسها فريسة للحروب الداخلية، وسقطت اليمن فريسة للفرس وضاعت أهم مصادر الثروة قربانا لهذا الصراع •

كذلك انتهى العصر القديم بأنتصار الفكرات الدينية الجـديدة ، ممثلة فى اليهودية ثم المسيحية ، وأستمرت الديانة المسيحية تصـارع الوثنية السامية القديمة فى حين عجزت اليهودية عن ذلك ، بل كانت سببا فى مزيد من الصراع فى منطقة القرن الافريقى فمن نقوش مملكة «أكسوم» والتى ترجع الى منتصف القرن الرابع الميلادى نعلم أن الملك « الاميدا» (حوالى ٢٤٠ ــ ٣٤٨) والذين جاءوا بعده ، يتمكنون من فتح سائر جنوب بلاد العرب ، ولكن لم يمضى زمن بعيد حتى يتحرر السبأيون ، ونعلم أيضا أن تغييرا من نوع دينى يظهر فى تلك الفترة ، هذا التغيير يتجلى فى اختفاء الآلهة الوثنية أمام رب السموات (ذو سماوى ــ وكذلك الله والرحمن) يظهر هذا فى النقش الذى جاء فيه ذكر « ذونواس » وآلهة اسرائيل الأخرى بمعنى أن اليهودية قد أخذت طريقها نحو بلاد العرب بل انهم تقـلدوا مقاليد الحـكم بعد الاثيوبيين الذين لم يدم ملكهم طويلا .

وفى عام ٥٢٥ قتل الملك اليهودى السبأئى « ذونواس » وحل محله آخر مسيحى أقامة الاكسوميون (وأسمه سوميبع وهو مركب من سمو هو يبع) وكان ملك أكسوم فى ذلك الوقت يدعى « أيلا أصبحا » وتشير النقوش التى وجدت فى عصره الى روابط وثيقة بين أثيوبيا وبيزنطة » .

انتشرت المسيحية فى أثيوبيا منذ ذلك الوقت ، وكانت قد أنتشرت فى مصر والشام ثم تبنتها الدولة الرومانية فى أوائل القرن الثالث الميلادى، ثم تدفقت على أثيوبيا منذ القرن الرابع الميلادى بسبب الصلات التجارية وغيرها .

ولكن الشعوب البدوية المتاخمة للســاحل ظلت على الوثنية ، ثم اتخذت المسيحية ــ فى عصور لاحقة ــ بعض المستقرات الصغيرة فى أرتيريا وأطراف الجزيرة العربية .

استطاعت أثيوبيا فى العصور المسيحية الأولى أن تبنى عددا من المراكز الثقافية والمدن الهامة ونهض الملوك بالزراعة ، فأنتشرت القرى فى وديان الانهار ، وأستقر بها كثير من السكان الذين أصبحوا يمثلون

حوالى ٨٠٪ من سكان الهضبة ، وقد ساعدت الطبيعة بدورها على أن تجعل من سكان الهضبة زراعا مستقرين ، فى حين زاد الجفاف فى المناطق الساحلية لأسباب عديدة ، فأسـهم فى زيادة البداوة وضـعف مراكز الاستقرار فى المناطق الساحلية وقد خلق هذا الاختلاف بين سـكان السواحل وسكان الهضبة تناقضا حضاريا ، فالمستقرون أصبحت حضارتهم ترتكز على الزراعة ، والخلية الاجتماعية الأساسية فى المجتمع الزراعى هى العائلة الكبيرة ثم المجموعة التى تعيش فى القرية وتقوم حياتها على الزراعة المرتبطة بالفصـول المتوالية ثم بالطبيعة والأرض والأحسـاس المكانى المحدد بالمنزل الثابت وموقع القرية ، أما أساس حضارة البدو فهو الحيوان ، والخلية الاجتماعية الأساسـية لديهم هى العشـيرة ، والاحساس المكانى المتفسح الذى يتسع بأتساع نطاق المراعى والتنقل والرحلة المستمرة وراء مصادر العشب والماء ، والبدوى يعيش تحت خيمة يحملها اينما سار ، وحياته ليست سلاما مع الطبيعة والجيران بل هى صراع مستمر بين القبائل ، وحاجاته محدودة ، وكل ما يملكه بسيط وأسلحته أيضا بسيطة ولا تتعدى أغراضها ولك نجد أعماله الفنيـة جادة محددة الهدف والتكوين .

كان هذا عاملا هـاما فى التفريق بين ثقافتين فى المنطقة الواحدة ، وأهم من ذلك ظهور طرق برية تجارية جديدة عبر ايران والعراق وآسيا الصغرى فحلت محل الطريق الوحيد المار ببلاد اليمن فالحجاز فالشـام ومصر ، علاوه على تطور وسائل النقل البحرى ، وكان ذلك سـببا فى التقليل من شـأن اليمنيين فى حمل تجـارة العالم القديم ، وهـذا بدوره أثر على أهل الساحل المقابل المرتبطين بالثقافة اليمنية والنشـاط التجارى ، مما زاد الهوة بينهم وبين جيرانهم المستقرين فى هضبة الحبشة فلما نفذت المسيحية الى هضبة الحبشة ، أضيف أهم العوامل للتمييز بين سكان الساحل وسكان الهضبة ، حيث بقيت أغلب الشعوب البدوية على الوثنية مما أدى فى النهاية الى زعزعة الاستقرار القديم .

كان جديرا بسكان الساحل أن يعتنقوا المسيحية ويلقنوها لجيرانهم منزراع الحبشةولكن ذلك لميحدث،لان البدو أقل تقبلاللتأثيراتالجديدة

من المستقرين ولانهم كانوا أكثر أرتباطا بالثقافة اليمنية القديمة ، كذلك لم يستطع مسيحيوا الحبشة نشر ثقافتهم الجديدة بين جيرانهم البدو ، وكان خليقا بهم أن يفعلوا ، وقد حاولوا ذلك مرارا ، بل حاولوا أيضا نشر المسيحية بين العرب الوثنيين فى الساحل المقابل عندما استولوا على بلادهم بعض الوقت ، وباءت محاولات « أبرهة » ومن سبقه فى تحويل العرب الى المسيحية ويرجع السبب فى هذا الفشل الى عوامل أهمها :

● تمكن الثقافة الوثنية العربية من البدو .

● اعتزاز البدو بتراثهم الثقافى وعدم قدرتهم على تقبل الجديد بسهولة .

● ضعف ثقافة الاثيوبين المسيحية .

● قلة وسائل التبشير والمبشرين ووسائل التعليم والتعلم آنذاك

● استمرار الصراع الداخلى بين الاثيوبين أنفسهم وقد قامت الادلة العديدة على ذلك .

ما كادت أثيوبيا تستقر على المسيحية حتى كان الاسلام قد ظهر فى جزيرة العرب ، وبسرعة مذهلة دخلت مصر والشام وشمال أفريقية فى حوزة المسلمين ، وأهم من ذلك قبول البدو للاسلام ، بل وحملهم له كدعاة ومجاهدين ، وعن الطريق البرى الذى ينحدر من مصر على طول ساحل البحر الأحمر مخترقا ديار « البجة » ومتجها الى ساحل أرتيريا ، ثم الطريق البحرى المتصل بجزيرة العرب ، بدأت المؤثرات الاسلامية تتدفق بشدة على بدو ساحل شرق أفريقية ، فدخل البجة فى الاسلام كما ازدادت الهجرات العربية الى بلادهم والى ارتيريا والصومال ، وتقبل البدو الاسلام وزاد انشاره ، وهنا نلاحظ ملاحظة هامة وهى سرعة تقبل البدو للتغير ، وهذه ظاهرة تلفت النظر ، وتدهش الدارس الغربى ولكنها لا تدهشنا نحن الافريقين ، وأسباب ذلك فى نظرنا ترجع :

أولا :

الى أن الاسلام دين فطرى يتلائم مع طبيعة البدوى البسيط ، كما أنه لا يحدث تغييرا جذريا فى نفس الفرد أو الجماعة ، لأنه يأخذهم بالرفق واللين والحلم والتدريج وهذه ظاهرة عامة فى كل أفريقيا « ظاهرة التوفيق التدريجى بين الثقافة الاسلامية والثقافات الافريقية المحلية » .

ثانيا :

كان لوحدة الثقافة بين العرب وأهل الساحل المقابل ، والارتباط الشديد فى المصالح أكبر الأثر فى مشاركة الافريقين البدو للعرب ثقافتهم الجديدة .

ثالثا :

أدت الهجرات المستمرة للعرب الى بلاد الساحل الافريقى وحرية التزاوج وكثرة الانسال الى دعم الروابط العرقية والثقافية وانتشار الاسلام .

* * *

بأنتشار الاسلام تميز البدو عن جيرانهم المستقرين فى أهم عنصر من عناصر الثقافة وهو الدين ، وبدأت أهم عناصر ظهور قومية مختلفة عن تلك التى استقرت فى الهضبة وهنا تبدأ جذور المشكلة أو المشاكل القائمة حتى الآن فى القرن الافريقى ، لأنه لم يعد فى الامكان قيام قومية واحدة، بل تكونت بالفعل قوميتان مختلفتا الثقافة ،وما يتبع ذلك من تمايز وأختلاف ، وأصبح الصراع ليس صراعا تحكمه المصلحة فحسب ، بل صراع توجهه وتدعمه عوامل ثقافية شديدة التأثير .

القومية الاثيوبية الشاملة هى الاصل فى منطقة القرن الافريقى ، ولكنها لم تلبث حتى انقسمت الى قوميتين مختلفتين ، فالمسلمون أصبح جلهم من البدو المترحلين ، فى حين أصبح المسيحيون جلهم زراعامستقرين، وهذا الاختلاف فى النمط المعيشى الاقتصادى يؤدى الى اختلاف فى طريقة التفكير وبالتالى فى السلوك .

وقد أدى الانتشار السريع للاسلام الى عزله الاحباش ، وقطع صلاتهم التجارية القديمة بمصر وبيزنطه ولم تعد سيطرتهم كاملة على سواحلهم ، ومن سوء حظهم أيضا أن أخطارا داخلية قد هددت كيانهم فى تلك الفترة، من ذلك هجرات اليهود اليها عام ٦٤٠ م وثورات بعض طوائف من الوثنيين من سكان الهضبة ، ثم محاولات المسلمين المستمرة لكسب أرض جديدة حول الهضبة وقد تعرضت الحبشة أيضا لغارات اليجة الذين عاشوا فى السهول الشمالية وقطعوا الطرق واغاروا على المدن وعطلوا الحياة الاقتصادية .

وفى فترة أخرى استطاع الاسلام أن ينتشر بين البدو المحيطين بالهضبة ، وقامت امارات اسلامية مستقلة فى ارتيريا والصومال ، وشملت المنطقة ابتداء من الشواطىء الارتيرية وحتى نهاية الشواطىء الصومالية على المحيط الهندى ، وحاولت هذه الشعوب البدوية حمل الاثيوبيون على اعتناق الدين الاسلامى ، وعند ذلك فقط تنبه الاثيوبيون ووقفوا يزودون عن ثقافتهم المسيحية وقوميتهم . وفشلت جميع الجهود لحمل الاثيوبيين على اعتناق الثقافة الاسلامية والدخول فى القومية الجديدة ، وزادت هوة الخلاف والصراع الذى أدى الى الاختلاف والتنافر والتمايز القومى والثقافى .

ثم دخل هذا الصراع ضمن صراع أكبر ، لأنه فيما تلى ذلك من عهود كما نعرف ، انقسم العالم المتحضر أو كاد الى ثقافتين رئيسيتين : مسيحية تتركز فى الغرب وأسلام يتركز فى الشرق .

أتساع نطاق الصراع :

كانت المسيحية فى صراعها الطويل ضد الوثنية قد أنتشرت فى بلاد الدولة الرومانية وتركزت فى أوروبا واتخذت لها مستقرات عديدة فى بلاد الشرق وفى أفريقيا ، كذلك زاد انتشار الاسلام ليصبح دينا عالميا ، فقد فتح العرب بلاد الامبراطورية الفارسية الساسانية ، ثم أستولوا على أهم أقاليم الدولة البيزنطية وهى الشام ومصر وشمال أفريقية ، ثم حملت

شعوب جديدة غير عربية عبء الدعوة الى الاسلام ، فدخل الاتراك فى الاسلام ، كما دخل المغول بعد استيلائهم على بعض بلاد المسلمين كذلك دخل كثير من سكان الهند فى الاسلام بجهود تركية مغولية فى الجملة ، ونفذ الاسلام الى الصين وجزر الهند الشرقية وشواطىء افريقية الشرقية والغربية ، كذلك استطاع الاتراك قهر الامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى وحلوا محلها ،وهكذا تميزت العصور الوسطى بهذا الصراع العنيف بين المسلمين والمسيحيين ، وظل الاتراك المسلمين فى صراع مع القوى المسيحية الكامنة فى أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر تقريبا ، ولم يستطيعوا قهرها ، كما لم يستطيع العرب والبربر الاستقرار فى بلاد الاندلس بل أشتد الصراع واحتدم أواره ، واستجمع الاوربيون قواهم ووقفوا بعناد ضد القوى الاسلامية وأوقفوا زحفها التاريخى •

وخلال الحروب الصليبية ، وهى مرحلة من مراحل هذا الصراع وقف الاثيوبيون الى جانب الصليبيين وكانوا على اتصال بالحركة الصليبية الدائرة الرحى فى بلاد الشام (١) قبل القرن الثالث عشر ، ولم تمكنهم أحوالهم الداخلية من المشاركة الفعلية فيها ، فلما أفاقوا من متاعبهم الداخلية كانت الامارات الصليبية قد تلاشت بوقوع عكا آخر معاقلهم فى يد السلطان خليل فى مايو ١٢٩١ (٢) • ولكن الصليبيين لم ييأسوا وعملوا على الاتصال بالحبشة والدولة البيزنطية وارتيريا لعمل حلف من القوى المسيحية فى الشرق (٣) • واستجابت الحبشة لهذه التيارات وكان الهدف هو أغلاق طرق التجارة التى يسيطر عليها المسلمون فى البحر الاحمر ، ثم ظهر البرتغاليون فى شرق أفريقية وتعرضت امارات المسلمين لاخطار جسيمة ولم تفلح فى مدافعة هذا الخطر وانتهزت هيلانه ملكة

---

(١) كانت حركة الاتصال تتم عن طريق دير اقامة الحجاج الأحباش فى بيت المقدس ابقاه صلاح الدين الأيوبى ، وكان الاحباش يعينون رئيس الدير وينفقون على الرهبان — مصر والحروب الصليبية ص ١١٩ محمد مصطفى زياده .

(٢) Lane Poole. Egypt in the middle ages p. 295.

(٣) حامد عمار ص ١٠٦ علاقات الدولة المملوكية بالدول الافريقية .

الحبشة هذه الفرصة واتصلت بالبرتغاليين ــ وحاول المماليك فى مصر بوسائل شتى الضغط على الاثيوبيين ، كذلك حاول الاتراك العثمانيون وساعدوا الامارات الاسلامية المحلية ولكنهم فشلوا جميعا أمام الاثيوبيين ، ثم حاولت مصر أيضا خلال القرن التاسع عشر مساعدة المسلمين ، وأستطاعت تطويق أثيوبيا ومهاجمتها ، ولكن اثيوبيا نجت من هذا الهجوم ، وخرجت ظافرة ممسكة بزمام المسلمين •

ثم حدث تطور عالمى جديد فى صالح المسيحيين ، فقد تغلب الغرب المسيحى على الشرق ، وسيطر على بلاد المسلمين ، ورجحت كفة المسيحيين على المسلمين فى كل المجالات وأصبح الأخيرون فى موقع الدفاع عن النفس ، وكان طبيعيا أن تستفيد اثيوبيا المسيحية من رجحان كفة الغرب •

وأنقسم العالم فى بداية القرن التاسع عشر الى عالم متحضر فى الغرب ، ومتخلف فى الاقطار الاسيوية والافريقية ، وكان المسلمون ممن تخلفوا عن ركب الحضارة فى الصناعات والعلوم وأصيبت مرافقهم فى الزراعة والتجارة وغيرها بالضعف ، ولما تقدمت الصناعة والتجارة فى الغرب ، تقدمت معها وسائل التنظيم والادارة ، وتعرض العالم الاسلامى لحملات الغرب المختلفة •

الحالة الثقافية خلال تلك الفترة :

كان رد الفعل الذى أعقب الهزائم امام الغرب ، وأمساكه بزمام المسلمين متنوعا الى حد كبير ، فكانت هناك دعوات مغالية تدعو الى معاودة القديم على قدمه ، وهؤلاء هم السلفيون ، وكانت هناك دعوات عكس هذه السلفية ، وهؤلاء هم دعاه التغريب الكامل ، ثم كانت دعوات وسطية تدعو الى حفظ الأصول واقتباس الجديد على توافق وتدرج ، وهؤلاء هم المجددون المعتدلون •

ومن أهم الظواهر خلال تلك الفترة أيضا تدعيم فكرة القومية

وتغليبها على فكرة « الأمة » وكانت القوميات فى أوروبا قد تكونت وتبلورت ، وتحقق لها هذا الهدف بعيدا عن تدخل قوى خارجية (تقريبا) • أما الشرق الاسلامى ، فبعد القضاء على نظام الخلافة — ظل مفكروه فى صراع فكرى بين تغليب فكرة القومية وفكرة الامة الاسلامية الشاملة ، ولما أنتصر دعاه القومية ، وبدأت القوميات الرئيسية فى العالم الاسلامى تحدد شخصيتها ، لم يتم لها ذلك بسهولة ، لتدخل القوى الأجنبية الغربية ، ومحاولاتها المستمرة الاستفادة من صراع أو أختلاف القوميات الاسلامية بل وقف الغرب حائلا دون تكوين وتحديد شخصية بعض القوميات •

تعرضت منطقة القرن الافريقى لهذا النوع من التدخل ووقف الغرب يساند الحبشة فى اعادة احياء أثيوبيا الكبرى ، وكانت الحبشة فيما مضى ، وخاصة فى عصر الأسرة السليمانية قد قامت بجهود ضخمة لصبغ البلاد بالصبغة المسيحية ، وقامت بجهد واضح لنشر المسيحية بين الوثنيين من أهل البلاد (١) وفى المقابل كان المسلمون قد بدأوا فى التوسع صوب المناطق الداخلية فى أثيوبيا وأرتحلوا كثيرا صوب الغرب (٢) وتولت سلطنة « أوقات » فى النهاية زعامة المسلمين ، وكان ظهورها متفقا مع ظهور الأسرة السليمانية ، ولم تفلح هذه الامارة فى الوقوف أمام الاثيوبيين كما لم تفلح غير هامن الامارات (٣) وخرجت اثيوبيا ظافرة منتصره وهى على أبواب القرن التاسع عشر •

---

(١) تزعم هذه الحركة القديس الحبشى أو سيطا طيواس وركز حملته التبشيرية فى غرب شوة وبلاد وأمرت ، واقترن ذلك ببناء الاديرة واصلاح الحياة الاجتماعية والدينية فى البلاد .

(٢) يدل على ذلك نشؤ امارة هدية بين حواش وجيبى وامارة دوارو جنوب شوه وامارة بالى بين نهر الويبى فى الشمال وجبال دوروبا فى الجنوب .

(٣) قام بالجهاد بعد أوقات « سلاطين عدل » « ١٥١٧ — ١٥٥٠ » لكن الاحباش تغلبوا عليهم واستطاعوا بعد ذلك تكوين امبراطورية عظيمة امتدت شمالا حتى مصوع وسهول السودان ثم بدأت مدينة هرر دورا آخر فى الجهاد ، ثم قام الامام أحمد بن ابراهيم القرين أو الاشول بأعظم الجهود ، وكاد ينجح فى التغلب على الاحباش بمساعدة العثمانيين ، ولكن الاحباش تغلبوا فى النهاية بمساعدة البرتغاليين .

ولم تترك الصراعات العسكرية العنيفة لسكان القرن الافريقى الوقت لبناء ثقافة واضحة ، بل كان جل اهتمامهم هو نشر احـدى الثقافتين الأساسيتين : المسـيحية أو الاسلامية وقد تأثرت الثقـافة المسـيحية والاسلامية فى هذه الفترة بعوامل ثلاث هى :

١ ـ الصلات بالعالم الخارجى .

٢ ـ الصراع العسكرى .

٣ ـ الهجرات الخارجية والداخلية .

ولم يتمكن الاثيوبيون من استكمال البناء الضـخم الذى بدأه « بندكت أثيوبيا » « أو سيطا طيواس » وأنصرفت أغلب الحكام الى الاهتمام بالنواحى العسكرية ، واستعان بعضهم فى ذلك الوقت ببعض المصريين ممن لم تتهيأ لهم الاقامة بمصر ، كما أستعانوا بهم فى تنظيم الدواوين وجباية الأموال .

وقد تأثرت الثقافة المسيحية أيضا بمصر ، حيث كانت تتبع المذهب المونوفيزيتى مما جعلها وثيقة الصلة بكنيسة الاسكندرية ، بل جعلهـا تابعة لها ، كذلك تأثرت الثقافة المسيحية أيضا بأتصالها ببيزنطة ، وقـد رأينا كيف اشتركت « أثيوبيا » مع الصليبيين فى اهدافهم بعض الوقت ، وقد جعلها هذا تتأثر بشدة بهذه الصلات .

نلمس التأثير البيزنطى واضحا فى الفنون الاثيوبية ، وفى تقاليدها الفنية وخاصة فى الرسم والصوير ، وفى الفنون الكنسية الأخرى مما نلاحظه فى كنائس « أكسوم و yeha » ، وكذلك فى الاديرة المنتشرة فى البلاد وخاصة حـول بحيرة « تانا » وفى الأعمـدة والآثار والوثائق المسيحية الأخرى كالمخطوطات والجلود وغيرها ، مما يعكس أثر هذه الصلات بالعالم الخارجى .

ويبدو أيضا فى مظاهر الثقافة الاثيوبية بوجه عام أصـالة طبـاع الاثيوبيين ودمائه خلقهم واعتزازهم بأنفسهم وثقتهم بماضـيهم ، ممـا ينعكس أيضا فى مأثوراتهم وأدبهم بصفة عامة .

كذلك ترك الاتصال المستمر بالعالم الاسلامى أثرا واضحا فى الحياة الاسلامية الثقافية فى البلاد ، فقد نزحت اليهـا جميع الفرق والمذاهب التى عرفتها الحياة الاسلامية مثل لزيدية والاباضية وغيرها ، كما وفد كثير من أهل البلاد على مصر والحجاز ، بقصد الاستزادة من العلم ، وكان بالأزهر الشريف رواق خاص بأهل زيلع والجبرتية ، ونبغ منهم كثير من المحدثين والفقهاء ، وعلى رأسهم الامام الزيلعى « فخر الدين عثمان بن على » (شارح الكنز المتوفى سنة ٧٤٣ ـ ١٣٤٢ والمحـدث الزيلعى « جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد » (المتوفى سنة ٧٦٢) والعارف بالله الشيخ » على الجبرتى « (المتوفى سنة ٨٩٩) كذلك رحل بعض فقهاء الحجاز ومصر واليمن الى مدن شرق أفريقيا وأقاموا بهـا .

وتأثرت حياة المسلمين فى القرن الافريقى أيضا بعلاقة سلاطين المماليك والعثمانيين بهم ، حيث دافعوا عنهم وضـغطوا على الاثيوبيين حتى يتوقفوا عن أذيتهم فى كثير من الأحوال ، بل وساعدوهم أحيانا بالمال والسـلاح .

وكان الطابع الغالب على الثقافة الاسلامية فى مراحلهـا الأولى ، التمسك والتزمت الى حد المغالاة ، حيث سيطر الفقهاء ورجال الدين على حياة المسلمين حكاما ومحكومين ، وقد أشار المقريزى الى هـذا الطابع المتزمت فى قوله « وهم يتشـددون فى دياناتهم تشـددا زائدا ، ويعادون من خالفهم من ساير الملوك أشد عداوة » (١) .

ويبدو أن انتشار الاسلام كان مصحوبا بحركة تعليمية واضـحة ، وقد نقل السيد « توماس أرنولد » عن « ربيـل » أنه كثيرا مالاحظ أثنـاء تنقله فى بلاد أثيوبيا أن الوظائف التى تتطـلب خبرة خاصـة ومستوى ثقافيا معينا لا يشغلها الا المسلمين ويبدو أن ذلك راجع الى التزام كل مسلم بتعلم القراءة والكتابة .

وعندما دب الضعف الى المسلمين بدأت الطرق الصوفية تتسرب الى البلاد حيث تسربت القادرية مع اليمنيين المهاجرين أو الحضارمة ، وأنتشرت فى مصوع وزيلع ومقديشيو وهرر ، وأضطلع رجالها بنشر الاسلام بين قبائل الجالا ، ثم استأنفت نشاطها فى براوة وأرتيريا وأسمرة وأغلب المدن الكبرى حتى اليوم ، ثم تسربت الطريقة الاحمدية ، التى اسهمت فى حركات الاحياء التى شهدها القرن التاسع عشر ، كذلك أنتشرت « الختمية » فى أرتيريا وجنوب غرب الهضبة الاثيوبية وأنتقلت التيجانية « السمانية » التى نفذت الى جنوب غرب أثيوبيا ، بينما انتشرت الطريقة « الصالحية » فى الصومال ، وتبعتها الطريقة « السنوسية » أيضا .

ولم تترك الصراعات العنيفة الوقت الكافى للمسلمين أيضا لبناء ثقافة اقليمية محددة ، بل كان جل اهتمامهم منصرف الى الحرب والاستعداد لها ، ولذلك نجد الاشكال الفنية التى انتجت فى المناطق الاسلامية ضئيلة الى حد كبير ، ومع ذلك نجد القوم يعبرون عن أنفسهم بكثير من الفنون البسيطة مثل صنع الحرز والضفائر وخواتم النحاس الاصفر والحلل والدروع المزخرفة والرماح المصنوعة من الحديد أو الخشب بل نراهم يجدون مجالا للنشاط الفنى ومصدرا للاستمتاع الجمالى بتزيين منازلهم بالجلود والحصر والاوانى الخزفية وغيرها .

وقد وجد القوم أيضا فى فنون القول من قصص وحكايات وأمثال وأحاجى وأشعار خير ما يعبر عن عواطفهم وأحاسيسهم وأفكارهم ، ومن سوء الحظ أن كثيرا من فنونهم تلك لم تدون حقبة طويلة من الزمن ، ومع ذلك فالموجود المتداول والمكتوب القليل يعبر بصدق عن أفكار الناس ومعتقداتهم وأذواقهم ومشاربهم .

وفى الصومال عادات قديمة متوارثة تدل على الاصالة والحكمة والتواضع ، والرغبة فى العيش فى سلام ووئام ، والحرص على القيم والمبادىء ، والتمسك بأهداب الدين مما لا يزال أثره قائما حتى الآن فى جميع المدن الاسلامية فى المنطقة .

الفصـــــل الثالـــــث

الصراع فى عالمنا المعاصـــــــر

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، شهدت أوروبا والأمريكتين عالمين يأخذان أنفسهما بقيم وعلاقات الحضارة الصناعية ، ومع ذلك فهما مختلفان الى حد بعيد أولهما عالم غربى يقوم على أساس قيم ومبادىء الديمقراطية الرأسمالية وميراث المسيحية الغربية ، وثانيهما عالم شرقى يقوم على أساس قيم ومبادىء الديمقراطية الماركسية وميراث المسيحية الشرقية •

وهنا تظهر عوامل جديدة فى الصراع العالمى أهمها :

أولا :

تخلى العالم الغربى الرأسمالى والماركسى — الى حد بعيد — عن الاعتماد على الدين كأهم عنصر من عناصر التميز الثقافى ، ولجأوا الى عناصر ثقافية اقتصادية الطابع بالدرجة الأولى •

ثانيا :

لم يعد الهدف الأسمى للعالم الغربى الرأسمالى والماركسى هو التفوق الدينى أو بعبارة أصح نشر المسيحية فى العالم ومصارعة الاديان الأخرى عليها بل تغيرت الأهداف وأصبح فى مقدمتها السيطرة الاقتصادية أو بناء الاشتراكية العالمية وخلق ثقافة عالمية واحدة اشتراكية أو رأسمالية يقودها الغرب وتصبح شعوب الشرق تابعة له أو خاضعة •

ثالثا :

مشاركة شعوب العالم أجمع — ومنها شعوب غير أوربية — وعلى رأسها اليابان والصين التى تتمتع بشىء من القوة فى عالم اليوم — فى أحداث العالم وتوجيهه ، بمعنى أن العالم كله يشارك فى أحداث عالمنا

المعاصر ، ولم يعد ممكنا اغفال أى جزء من أجزاء العالم فى نطاق الصراع العالمى .

رابعا :

عودة اليهود الصهاينة الى ساحة التأثير العالمى ، ومشاركتهم فى النزاع العالمى بهدف الوصول الى سيطرة الشعب اليهودى على مقدرات العالم ، وهم فى ذلك يوجهون السياسة فى كثير من دول العالم الرأسمالى والاشتراكى من وراء ستر ، وهم فى ذلك يتعاونون مع بقايا الاستعمار والنظم العنصرية ، ولهم فى ذلك وسائل قوية وفعالة .

خامسا :

قوة انتشار التيار الالحادى فى العالم وسيطرة الفكر المادى وقيم المنفعة الشخصية على قيم الحق والعدل وما يترتب على ذلك من أخطار .

هذا فى الوت الذى لا زالت العوامل السالفة الذكر تعمل عملها فى العالم الاسلامى وتصيبه بمزيد من الضعف وعدم الاستقرار ، وتؤجل البلورة النهائية لفكر اسلامى مستقر ، والمدهش حقا أن المسيحية نفسها أصبحت تواجه اخطارا جسيمة فى مستقراتها الاصلية ممثلة فى انتشار التيار الالحادى ، وتخلى الغرب عنها كأهم عنصر من عناصر تميزه الثقافى ، وهنا نلاحظ أمرين :

ولهما :

أن المسيحية تحاول فك ارتباطها بالاستعمار والمذاهب الجديدة ، وتواجه فى ذلك صعوبات شتى .

ثانيهما :

أن المسيحيين الشرقين يتمسكون بالمسيحية كأساس ثقافى متين يعصمهم من الذوبان فى اتجاه من الاتجاهات المعاصرة ، ولأول مرة فى التاريخ البشرى ، يجد المسيحيون المؤمنون فى الشرق والغرب هدفا

مشتركا يجمع بينهم وبين المسلمين . وهو الدفاع عن مبادىء الاديان فى مواجهة التيار الالحادى .

هنا يظهر اتجاه عالمى ثالث يضم الشعوب الاسلامية والمسيحية الشرقية (الأفرو أسيوية) والمسيحيون الغربيون المتمسكون بالمسيحية وهـذا الاتجاه يقوم على أساس ميراث حضارى ودينى ينبع من حضارات قديمة ومن قيم نابعة من الاسلام والمسيحية .

يرى الغرب أن على شعوب ودول هذا العالم أن تختار بين الراسمالية أو الماركسية ولكن العالم الاسلامى بصفة خاصة يواجهه بهذا الاتجاه الذى ذكرنا ويرى فى ميراثه الحضارى والتاريخى العريق وفى قيم ومبادىء الدين الاسلامى والاديان السماوية الأخرى وهى قيم سياسية واقتصادية واجتماعية ، يرى فى ذلك أساسا صالحا لاتجاه جديد يختلف عن الاتجاهين السابقين بل قد لا يسمح لها هذا الميراث وهذه العقيدة أن تنطوى تحت لواء أحد الاتجاهين ، ومن ثم تقف الشعوب الاسلامية بعناد ضد هذين الاتجاهين ، ولكن عددا من حكام المسلمين يريدون شعوبهم على الرأسمالية أو الاشتراكية ، ويقفون ضد آمال شعوبهم وتراثها ويتحاربون على مذهبين غريبين ، وبعضهم يظن أنه بالرأسمالية أو الاشتراكية يحقق لشعبه القوة والمنعة ، والقوة هى أهم ما يشغل بال المسلمين الآن،واهم ما يسعون اليه هو استعادة مجدهم وقوتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية وهذا أمر أولته الشعوب الاسلامية كل الاهمية وهى على استعداد للتحالف مع من يساعدها على تحقيق هذ الهدف سواء جاءت المساعدة من الشرق الماركسى أو الغرب الرأسمالى ، ونسيت هذه الشعوب و تناست أن هذا الهدف لا يسعى اليه الغرب ولا يرجوه بل لا يرغب فى تحقيقه ، بل هو على استعداد لأن يحارب لمنع تحقيقه .

نخرج الان من النطاق العالمى الى النطاق المحلى ، أعنى الى منطقة القرن لافريقى لنرى انعكاسات هذا الصراع على المنطقة .

قلنا من قبل أنه لم يعد فى الامكان الآن ــ وقد فات الآوان ــ تحقيق

الوحدة القومية فى منطقة القرن الافريقى ، لأن العوامل التى سبق ذكرها قد عملت على فصم عرى الوحدة بين الشعب الواحد ، وجعلت منه قوميتين احداهما قومية مسيحية زراعية فى الأساس وقومية اسلامية بدوية فى الأساس •

استفاد مسلموا القرن فى عهود القوة الاسلامية وتكونت عدة دويلات اسلامية هى الاساس لدولة الصومال الحديثه ، فلما تفوق الغرب المسيحى، عمل الاحباش على الاستفادة من هذا التفوق ، وعملوا على تكوين أثيوبيا الكبرى ، وضموا الى الهضبة مناطق اسلامية ترغب فى تكوين دولة مستقلة أو فى الانضمام الى الصومال . والقومية كما سبق القول أساسها الارادة فى الحياة المشتركة •

ساعد الغرب بقيادة الولايات المتحدة زعيمة الرأسمالية الحبشة ووقفت الى جانبيها وكان عى الصومال لكى تحقق لنفسها القوة أن تبحث عن صديق يقدم لها العون ، فمد لها الاتحاد السوفيتى يد المســاعدة فقبلتها الصومال بلا تردد •

لا عبرة هنا للمدخولات الثقافية الجديدة ماركسية أو رأســمالية ، فاليون بعيد بعيد عن التأثر الشعبى الحقيقى بهذه المدخولات لأن هاتين القوميتين لا زالتا تصارعان من أجل استكمال البناء القومى لكل منهما •

لم تقدم الولايات المتحدة ولا الغرب لا ثيوبيا عونا حقيقيا يساعدهاعلى التخلص مما تعانيه من فقر وجهل ومرض ، فى حين استطاع الصومال بما قدمه له الاتحاد السوفيتى أن يسترد ما يطالب به من أرض • فقامت الثورة فى أثيوبيا ، واتجهت الثورة بأسرع من البرق الى الاتحاد الســوفيتى ، واستجاب الاتحاد السوفيتى للثورة بنفس السرعة وتخلى عن الصومال ، وهذا التخلى المفاجىء يمكن تفسيره فى ضوء الآتى :

أولا :

ـــ ان الاتحاد السوفيتى رأى أثيوبيا أشد منعة وقوة من الصومال ، ورآها ركيزه قوية له فى المنطقة كلها كفيلة بجرما حولها الى حظيرة الماركسية، ولم تكن الصومال بقادرة أو مهيأة لذلك لما تعانيه من مشكلات شتى •

ثانيا :

أن الاتحاد السوفيتى لا يهمه ، بل لا تعنيه قومية الصومال وآمال الصوماليين وتطلعاتهم فهذا ضد مبادئه فى حرب القوميات ، ونسى الاتحاد السوفيتى أن القومية احساس خطير لدى هذه الشعوب لا يمكنها أن تنساه أو تضحى به فى سبيل « عالمية » مجهولة ، والانسان يجب أن يجد نفسه أولا فى اطار قوميته (بما تعنيه من تميز ثقافى تاريخى اجتماعى) حتى يستطيع بعد ذلك أن يرى العالم من حوله ويقيم أفكاره ومناهجه على الاساس الجديد ، وهذا الموقف يشبه تماما محاولة أن تجىء برجل فقير جائع مبتور الصلة بأهله ، ثم تعرض عليه أن يدلى برأيه فى ميثاق الامم المتحدة هذه الحقيقة بالذات ، لم يدركها دعاة العالمية ، الذين يحاربون لبناء العالمية والصحيح هو العكس ، مساعدة القوميات كأساس لبناء العالمية .

هذا الموقف من الاتحاد السوفيتى يذكرنا بموقفه من آمال المصرين فى استرداد أرضهم المغتصبة .

ثالثا :

يبدو أن الاتحاد السوفيتى قد رأى ان وقوفه الى جانب الصومال سيترتب عليه تضحيات سياسية واقتصادية كثيرة ، فلما أتيح له البديل قليل التكلفه ارتد متخليا عن صديقه ، وما دامت الأخلاق ليست مبدأ أصيلا فى السياسة فلتكن المصلحة هى المعيار .

رابعا :

يبدو لى أن مفكرى الاتحاد السوفيتى يعتقدون أن الاثيوبين المسيحين أكثر تقبلا لأفكار الماركسية ونظرياتها من الصومالين المسلمين المتمسكين بالدين وهذا صحيح لو لم يكن الاثيوبيون مسيحيون آفرو آسيوين ، اذ أننى أميل الى الاعتقاد بأن المسيحين الاثيوبين ليسوا أقل حرصا على على ثقافتهم المسيحية الأفرو آسيوية من المسلمين .

نحن نتوقع انتقالات مختلفة ـ رغم ما حدث من اليمين الى اليسار فى منطقة القرن الافريقى دون أن يصيب ذلك الاساس الثقافى الشعبى الذى يتطلب فى المرحلة الراهنة بناء القومية .

ويجب أن نقول هنا أن السلام الذى دعا اليـه رب الاسـلام ورب المسيحية ، هو أساس هذا البناء ، وأن الحرب وفرض التجزئة عوامل تزيد الصراع لهيبا ، وتضعف الفرقاء وتهيء الجو للمدخرات الجديدة ومايتبعها من الحاد لا يقبله المسلمون ولا المسيحيون ، وما يؤدى اليه أيضا مـن سيطرة أجنبية ومزيد من الضعف لكلا الطرفين .

يجب أن يعترف كل طرف للاخر بحقوقه حسب شريعة الله المبنية على العدل والحق والمساواة ، وأرى مجرد رأى أن على الجميع أن ينصرفوا عن الحرب ، وأن يجتهدوا فى تنمية مجتمعاتهم اقتصاديا وثقافيا ، وأن يلزموا حكوماتهم باحترام ثقافاتهم ، والاسـلام يحض المسـلمين على المسالة ، لأن الاسلام عالمى أولا وليس قوميا ، على أنه لا يحارب القوميات أولا يتعارض معها ، واذا تعارض الاثنان يجب تغليب مصلحة الاسلام ، ومـن مصـلحة المسـلمين أن يعيش الجميع فى سـلام ولا بأس مـن وجود مسلمين فى قومية أثيوبية أو غير أثيوبية ، أولا لأن الوقت والظروف لم تتهيأ بعد لتحقيق الارادة ، ثانيا لماذا نحرم القوميات الاخرى من وجود مسلمين بها ؟ أن وجودهم فى صالح المسلمين ، فهم ممثلين لقيم الاسلام ومبادئه ولنترك الامر للمستقبل بتفاعلاته وتغيراته فيتولد ما يتولد عن ذلك بالاقتناع العقلى والتفاهم المنطقى والمحبة والمعاشرة الحسنة والمجاملة ، وهى جميعا قيم اسلامية مسيحية آفرو آسـيوية ، لم تلتفت الثقافتـان الاسلامية والمسيحية فى الماضى الى عوامل الوحدة والارتباط بينهما ، بل شغلهما الصراع عن حقيقة الثقافتين ، فكلاهما من منبع واحد .

يلتقيان فى أكثر العناصر ، ويجب أن يتخلى رجال السياسة عن قيادة الامور فى المستقبل الثقافى فى المنطقة ، لأن السياسة تحكمها المصلحة ، والثقافة تتبنى على الحكمة والعدل .

وفى رأيى أنه قد آن الأوان لكى يكف مفكروا الغرب باتجاهيه الرأسمالى والماركسى عن الاعتقاد بأن ما لديهم من ثقافة أفضل مما لدى غيرهم ، أو أن مالديهم لا يوجد غيره .

الفصل الرابع

مظاهر الصراع فى القرن الافريقى واتجاهاته

يكثر المفكرون فى القرن الافريقى من الحديث عن الاصالة والشخصية الثقافية للامة الصومالية أو غيرها . ويجب أن نذكر هنا أن الاصالة المعنية لا تعنى شيئا موازيا للتجديد ، بل هى تعنى فيما تعنيه أصالة قادرة على معالجة المشكلات والابداع ، ومنطقة القرن الافريقى اليوم تمثل أحدى المناطق الثقافية المتغيرة الملتهبة فى العالم ، ففى أرضها بدءا من حدود كينيا وانتهاء بحدود السودان يجرى صراع عنيف يعكس التمايز الحضارى والثقافى لشعوب المنطقة ، وفشلت حتى الآن جميع الجهود لعلاج المشكلات بروح الاخاء والحوار بدلا من روح العداء والحرب والصراع .

واذا ما نظرنا الى الاسباب الكامنة وراء صراعات القرن الافريقى نجدها تكمن فى الرفض الأثيوبى العنيف للثقافة العربية الاسلامية وهو رفض تأخر موعده فى الحقيقة أحقابا مديدة فالثقافة العربية الاسلامية قد عم انتشارها فى كافة السهول المحيطة بالهضبة الاثيوبية الرئيسية ولم يعد فى الامكان التخلص منها ، ولقد اعتبر ملوك أثيوبيا القدماء «المسيحية» أساس ثقافتهم ، كذلك سار على نفس النهج المحدثون منهم وهم فى سبيل ذلك يرفضون ثقافة الاسلام ، ويحاربون المسلمين ، ويدعوهم الى ذلك رفض المسلمين الدخول فى القومية الاثيوبية الشاملة ، وهذا الصراع المستمر لن يؤدى فى النهاية الى القضاء على الثقافة الاسلامية بل ربما أدى الى العكس والى مزيد من التمسك بالاسلام والمغالاه فيه ، واللجوء الى القوى الاسلامية الخارجية التماسا لمعونتها ، مما يؤدى الى مزيد من التدخل الخارجى الشرقى والغربى ، وهذا فى الجملة ليس فى صالح الاثيوبيين مسيحيين ومسلمين على المدى البعيد .

ومن مظاهر الصراع الثقافى العنيف أيضا محاولات الاثيوبيين المسيحيين — فى وقت لم يعد مناسبا — تمهير الشعوب الاثيوبية واذابتها فى كيان

واحد ، وسوف يؤدى هذا الى عكس هذه المحـاولات ، وهو مزيد من الاستمساك القومى ، وأحياء للنعرات العرقية المختلفة التى لا ترغب فى هذا الاندماج والتوحد بهذه الصورة العنيفة ، وكان من الاجدى أن يترك لعوامل التغير والتفاعل الهادىء الموجه أن يؤتى ثماره ، قد يطول بذلك الزمن ، ولكن الثمار المرجوه أكيدة أما فى الحالة الراهنة فلن يتم ذلك دون تضحيات كبيرة وربما استعصى تماما ، أو يتم فى الظاهر دون المضمون ، وهذا أيضا ليس فى صالح القومية الاثيوبية أو غيرها من وجهة نظرنا •

واللغة هى أهم الوان الثقافة ذات الصبغة ذات الصبغة القومية ألغالية، وهى عامل الاستمرار من الماضى الى الحاضر والمستقبل ، هى الوعاء الفكرى للماضى والحاضر والمستقبل ، وحياتها وحركتها انما هى انعكاس لاصحابها المتكلمين بها فى تفكيرهم وسلوكهم ومهاراتهم ، ولذلك تتمسك الشعوب بلغاتها استمساكا شديدا ، وهذا هو عين ما يحدث الآن فى القرن الافريقى •

يحاول حكام أثيوبيا تمهير اللغات الاثيوبية جميعا بمعنى القضاء على اللغات الأخرى وتحويل الثقافة اليها وبها ، ويعكس هذا الاتجاه ، برنامج محو الامية الذى يفرض على جميع الشعوب الاثيوبية تعلم اللغة الامهرية التى تمثل نسبة المتكلمين بها حوالى ٣٠٪ من مجموع سكان الامة ، وقد بدأت هذه المحاولات بشكل خاص منذ ثلاث سنوات وبمساعدة الالمان الشرقيين الذين وضعوا خطة فى هذا الشأن ، ويشكل الاوروموا (الجالا) أكبر القوميات الاثيوبية التى تتكلم الاورومية ، كذلك يتحدث سكان اقليم التجراى « التجـرينية » « وسـكان اقليـم » « ولامو » لغـة « الولامـو » وبنى شـنقل اللغـة العربيـة وسـكان هـرر اللغـة « الهررية » •

وفى أرتيريا الغى الامبرطور « هيلاسلاسى » سنة ١٩٥٨ من مناهج التعليم بجميع المدارس الارتيرية تعليم اللغة العربية واللغة التجرينية ، وفرض اللغة الامهرية وحدها ، ومع أن العربية والتجرينية هما اللغتان

الرسميتان اللتان يتحدث بهما الارتيريون وقد نص قرار الامم المتحدة الفيدرالى رقم ٢٩٠ ــ ٥ على ضرورة احترامهما واستمرارهما كلغتين رسميتين فى ارتيريا •

فى مقابل رغبة الاثيوبيين فى دمج الثقافات القومية فى ثقافة واحدة ، يتمسك الصوماليون بثقافتهم العربية الاسلامية ، وكان الصومال قد أعلن فى عام ١٩٧٤ استعمال اللغة العربية كلغة رسمية فى الدوائر الحكومية الا أن هذا القرار تعثر لعدم وجود كوادر كافية على معرفة بالعربية ، مع وجود اتجاه قوى فى ذلك الوقت نحو الصوملة ، ثم أعلن الرئيس الصومالى « محمد زياد برى » ضرورة نشر اللغة العربية فى جميع المراكز التعليمية فى الصومال ، وأشار الى أن الشعب الصومالى كان دائما جزءا من الامة العربية ، وحث الصوماليين على كسر حاجز اللغة بين العرب والشعب الصومالى العربى ، وفى المقابل أيضا أنشأ الارتيريون جهازا للتعليم استطاع فى فترة وجيزة أن ينشىء ٢٢ مدرسة تضم حوالى ٨٠٠٠ طالب و ٥١٣ معلم وأدارى ، وكان الهدف الاول من انشاء جهاز التعليم هو تدعيم الثقافة العربية الاسلامية •

الجميع ينظر الى اللغة فى مضمونها القومى بما أنها هى الذاكرة والذكرى الجماعية للامة التى حفظت تجاربها وحضارتها وخبرتها وأساليبها فى الفكر والنظر والسلوك ، وهى فى مضمونها الحالى ، المعبرة عن الشخصية القومية برغباتها وأهدافها وتطلعاتها فى البناء والتربية السلوكية الفردية والجماعية ، فهى بذلك تمثل السيادة الوطنية القومية فى الماضى والحاضر ، والتنازل عنها أو أهمالها تنازل عن مقومات الشخصية الوطنية ذاتها •

بهذا المنطق يجب أن ننظر الى ما تحاوله الشعوب فى القرن الافريقى ، من تدعيم للغاتها ، أو محاولة فرض لغاتها على الأخرين ، والشعوب الاسلامية ترتبط لغاتها بأوثق الروابط باللغة العربية ، التى تمثل شخصية الامة الاسلامية العالمية •

وقد واجهت اللغة العربية ضروبا من الصراع مع لغات أخرى ، وحاول

الاستعمار التخلص منها فى القرن الافريقى ، فعمل على أحلال لغاته محلها ، بل عمل على أحياء اللغات الوطنية وكتابتها بحروف لا تينية لتصارع العربية أو لتنفصل عنها ، وقد أدى هذا الموقف الى تدعيم الروح القومية الوطنية ، ولكنه لم يقطع الطريق نهائيا على العربية ، فالعربية حسبها أن تكــون اللغة القومية الاسلامية تمد الجميع بزاد لا ينفذ من ثروتها ومضامينها الحضارية والثقافية القديمة والحديثة ، والمسلمون فى جميع انحاء العالم يعترفون لها بهذه المنزلة ، ويعملون على رفعتها والزود عنها وحمايتها ، وما يدور من محاولات لفرض لغة بعينها على شعب أسلامى هو محور من محاور الصراع فى القرن الافريقى ، وفى رأيى أنه أهم هــذه المحاور وأبلغها فى ابراز النتائج والاهداف ، وليس لنا أن نتوقع النتائج الآن ولكن يهمنا أن نقول أن على شعوب المنطقة أن تولى هذه المسألة أكبر الاهمية ، اذا كانت تريد الاحتفاظ بقوميتها فعليها أن تجتهد كل الاجتهاد فى الاحتفاظ بلغاتها وتطويرها وتدعيمها بكل الوسائل الممكنة منعا للسيطرة الثقافية ويجب هنا التفرقة بين العلم واللغة لأن التقدم بالعلم لا يعنى الوقوع تحت سيطرة ثقافة أخرى بل العكس هو الصحيح فقد تتغلب الامة بعلمها على السيطرة الثقافية •

وفى غمرة هذا الصراع يتعرض الجميع فى القرن الافريقى لقدر كبير من الغزو الثقافى الغربى فالظروف الاقتصادية غير الملائمة تدفع الجميع الى الاعتماد على الغرب فى الأخذ من ثقافته التكنولوجية العلمية ، وهو أخذ دون عطاء ورغم ما فى ذلك من فوائد علمية ، الا أنه مع أستمراره يؤدى الى الشعور بالدونية على المستوى القومى ويربط المجتمعات فى القرن الافريقى بثقافات أجنبية بصورة تدريجية ولكنها مستمرة كذلك نلاحظ استمرار الاعتماد على الغرب فى العلوم الانسانية كعلم السياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا ، وهو أعتماد يجعل الجميع أيضــا ظلا للمفكرين الغــربيين ولا يأخــذ فى اعتباره الخصوصات فى مجتمعات القرن الافريقى •

ويتدخل « التاريخ » كلون من ألوان الصراع فى أكثر الظــواهر

الثقافية فى القرن الافريقى على نحو مباشر وغير مباشر فالتاريخ هو حركة الفعل الانسانى المرتبطة بالزمان والمكان ولقد أرتبط تاريخ المنطقة منذ البداية بصراعات مختلفة مذهبية وقومية وطائفية ، ومما زاد الامر تعقيدا اختلاف المنظور التاريخى لدى شعوب المنطقة ، والقاء ظل الايدلوجيات المعاصرة عليه لفهمه أو تفسيره ، بحيث أصبح من الصعب معالجة القضايا مرتهنة بأسبابها (لأنه لا توجد حقائق قاطعة) بل ينظر الجميع الى التاريخ بعاطفية شديدة وأستغل القوم ذكاءهم فى تزويره وليه ، وهذه ظاهرة تتمشى مع الغلو فى النظرة القومية ، ولقد قال أبن خلدون : أن نشؤ الدول انما يتم بقوة العصبية ولا يجيء الدين الا عاملا مساعدا للعصبية ، وأكاد أظن أن ما حدث فى القرن الافريقى كان هو العكس ، أى نشأة الدول على أساس دينى بالدرجة الاولى .

وتدل مجموعات القصص الشعبى الصومالى وأغانى « الـ جيرار Geerraar » والاساطير المتداولة فى حاضر القرن العشرين على اتجاه قوى نحو الارتباط بالثقافة الاسلامية ، ورغبة ملحة فى التحرر من الاسار ، والاسر هنا رمز لكل أنواع العبودية من فقر وجهل وبخل وخوف وغير ذلك ، كذلك يعبر هذا الادب الشعبى بشـــكل عنيف عن الخـــوف من المجهول ، والمجهول دائما حروب طاحنة أو جفاف يقضى على حشائش الديهى والمآجين والدؤور ويفيض الآبار وينفق الحيوانات ، كما تعبر عن الامل فى المستقبل ، وهو أمل فى السلام والمطر الدرير والاعراس والأكواخ الجيدة البناء المفروشة بالحصر ، المزينة بالمباخر وبعض الادوات .

أما الأدب الشعبى الأثيوبى ، ففيه أتجاه قوى نحو الارتباط بالثقافة المسيحية والتمسك بالقيم الخلقية والرغبة فى السلام والمحبة ويتحدث كثيرا عن الأمل فى الربح والصبر والتسامح . ولا تجد لدى القوم جميعا مسلمين ومسيحين ما كنا نتوقع من تعبير قـــوى عن الرغبـــة فى العنف والكراهية والعنصرية والحقد الاجتماعى أو القومى بل العكس ربما كان كان صحيحا ، لأن الأغلب الأعم حديث عن السلام والتسامح والامل . أى أن الصراع من وجهة نظر الشعبين مجرد خلاف وهو أيسر أنواع

الصراع ، وأن تحويل هذا الخلاف الى نزاع أو اشتباك لا يلقى تحريضا شعبيا أو اتجاها جماهيريا .

لا نريد فى النهاية أن نفصل بين النموذج العربى الاسلامى فى التفكير، وبين النموذج الاثيوبى المسيحى الذى نعتقد أنه لا يختلف عن النموذج الاسلامى ، كلاهما يتمسك بالمبادىء السامية ، مبادىء العدالة الاجتماعية والحرية والسلام فى اطار الكرامة ، كلاهما بالأمس واليوم والغد رسالة سلام ، تفرض مراعاة حقوق الانسان والعمل من أجلها .

وقد ظلت المؤسسات المسيحية متضامنة مع الاستعمار فترة طويلة . ولكن يبدو جليا الآن أن محاولات جادة تبذل من مسيحيين مخلصين لفك هذا التضامن ، وكثيرا ما نسمع شكواهم من الظلم والحيف الذى يقع على مجتمعات غير مسيحية ، وننوه هنا بدراسات « دانيـال نورمان » الاسلام والغرب والسلام والامبريالية . وأنوه أيضا بالكتيب الذى صدر عن الفاتيكان « ارشاد للحوار بين المسيحين والمسلمين » وهو حصيلة مجهود ساهم فيه الأب يوسف ولويس فاردى .

ان المسيحيين يشعرون الآن أن المسيحية تواجه اللادينية ، وأنها أصبحت فى نفس الخندق مع الاسلام .

هذه الافكار نفسها نقدمها لمسيحيى القرن الافريقى فليس ربهم رب المسيحين فحسب بل رب المسلمين ودعواه سلام ورحمة للعالمين . والبلاد الافريقية وبخاصة تلك التى كانت مستعمرة ، تدرك ادراكا قويا حاجتها الى توطيد الذاتية القومية وتأكيدها فى نظرها وفى آنظار العالم ، وهى تعبر عن هذه الحاجة بالاهتمام بثقافتها تستلهمها وتسترشد بها فى بناء مجتمعاتها حسب قيمها الخاصة وتراثها الثقافى وتحاول أن تجعلها تلائم أحوالها الراهنة . وهذا حق مؤكد للجميع .

والله ولى التوفيق .

شعوب القرن الافريقى

الأستاذ الدكتور / محمد السيد غلاب

يكون القرن الأفريقى وحدة متميزة فى أفريقيا ، بسهوله الساحليه المنبسطة التى تطل على البحر الأحمر والمحيط الهندى ، والتى تتراوح بين الصحراء القاحلة وبين الحشائش المتدرجة ، وبهضبته المرتفعة والتى تمتد من البحر الأحمر شمالا الى مشارف بحيرة توركانا جنوبا ، فهذه السهول المتموجة التى لا يزيد ارتفاعها على ٥٠٠ متر ، وتعلو بعض تلالهـا على ٨٠٠ متر ، وهذه الهضبة التى يبلغ متوسط ارتفاعها ٢٥٠٠ مترا فـوق سطح البحر ، بأخدودها الذى يشقها الى شقين تقريبا ، وخوانقها العميقة التى تنصرف معظم مياهها فى الشمال الغربى تكون فاصلا جغرافيا منيعا بين القرن الافريقى وبقية القارة .

ويحتل هذا القرن موقعا جغرافيا متميزا ، كان له مع تضاريسه الأثر الأكبر فى تأريخه العام وفى تعميره بعناصر السكان ، وتطوره الثقافى . فهو قرن ضارب فى المحيط الهندى ، ويمتد من رأس جرد فوى شرقا عرض ١٢° شمالا وطول ٥١ شرقا) حتى بطائح السوباط غربا (خط طول ٣٤° شرقا) ، وهو يحرس مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وتقترب شواطئه من الشاطىء الأسيوى اقترابا شديدا عند مضيق باب المندب ، وبينما تكون سواحله الشرقية جزءا من حوض المحيط الهندى ، ويتلقى مؤثرات ثقافية واثنيه من هذا المحيط ويسهم فى تشكيل ثقافاته ، نجد أن سواحله الشمالية تتلقى مؤثرات أسيوية أخرى ، هى المؤثرات العربية ، وتساهم بدورها فى تشكيل ثقافة جنوب غرب آسيا ، بل وتدخل فى النسيج الحضارى لجنوب شبه الجزيرة العربية وتؤثر فى تاريخها العام وتتأثر به . ولا يقتصر التأثير الحضارى على حضرموت واليمن ، بل أن القرن الأفريقى وآثيوبيا كلها

تأثرت أيضا بالمراكز الحضارية الكبرى فى جنوب غرب آسيا وشرقى البحر المتوسط ومصر • وكان هذا التأثر الحضارى دائما متبادلا •

وتبدو أقسام القرن الأفريقى التضاريسية سهلة لأول وهلة ، فهى سهل لأول وهلة ، فهى سهل ساحلى يتكون اقليم الطراز يطل على البحر الأحمر ، ضيقا فى الشمال ، ثم يتسع فى مقابل مضيق باب المندب ، مكونا سهول الدناقل ، وراء مرتفعات عفر ، ويتسع السهل الساحلى مرة أخرى فى سهول الصومال الشمالية والشرقية • أما القسم التضاريسى الثانى فهو هضبة الحبشة ، وهى هضبة مكونة من الصخور القديمة تجللها رواسب الحجر الجيرى والرملى . وتغطى أجزاء منها صخور اللابه السميكة•وقد تعرضت الهضبة للتصدع الشديد ، فشقها الأخدود الأفريقى الكبير الى قسمين كبيرين ، هما الهضبة الشرقية وتصرف مياهها الى المحيط الهندى والهضبة الغربية وتصرف مياهها فى البحر المتوسط • وتنهض فوق مستوى الهضبة كتل صخرية مرتفعة ، كما تشق روافد النيل العظمى وديانها عميقة فى الهضبة ، واعظمها خانق نهر آباى أو النيل الأزرق • — فالهضبة الحبشية شديدة التقطع والتمزق ، تكون بقممها المرتفعة ، وخوانقها السحيقة عدة أوطان لممالك متناثرة ينعزل بعضها عن بعض صعبة التواصل • فوق أنها بأكملها منطقة عزلة كبيرة ، يعتصم أهلها بمميزاتهم الجسمية والثقافية الخاصة ، يشرفون على أهل السهول المحيطة بهم ، ويناوئونهم ويناصبونهم العداء ، ومن ثم كانت شعوب الهضبة على اتصال حذر بشعوب السهول ، وفى معزل عنهم فى نفس الوقت ، ولذلك أيضا لم يكن سكان الهضبة شعبا واحدا بل عدة شعوب ، وكان سلطانهم الأعلى ملكا للملوك ، أو امبراطورا ولم يكن ملكا لمملكة واحدة • فالتقطع التضاريس أدى الى تعدد الأوطان ، والى التعدد اللغوى ، أو الاثنى ، والتعدد السياسى •

ويقسم الاثيوبيون بلادهم تقسيما مناخيا نباتيا الى ثلاثة أقسام : الوديان السحيقة والسهول المنخفضة ، وهى مدارية حارة تتراوح درجة الحرارة فيها بين ٢٠ — ٣٠ درجة مئوية واسمه اقليم القلة • والاقليم المعتدل ، ويشمل الهضاب المستوية ، ويتراوح ارتفاعها بين ١٧٠٠ — ٢٤٠٠

مترا ، وحرارتها فى المتوسط بين ١٦ — ١٧ درجه مئوية واسمه اقليم الكروم، ويناديجا . ثم اقليم المراعى المرتفعة ، ويميل الى البرودة ، وتصلح مراعيه للماشية ، واسمه اقليم الديجا . أما قمم الجبال العالية التى تغطيها الثلوج فهى مقفرة ، واسمها الشوكة .

***

لا تزال المنطقة بحاجة الى مزيد من أعمال الحفر والبحث عن البقايا الحفرية البشرية والآثار التى تركتها الشعوب الأقدم عهدا بالقرن الأفريقى . ورغم هذا فهناك ما يدل على أن أقدم انسان عاقل عثر على بقاياه فى شرق أفريقيا كان من الأرومة القوقازية . وأن أفريقيا كانت من المهود الأولى للانسان (١) . فيها نشأ وفيها تطور . كما تشير هذه الآثار الى أن صاحب حضارة العصر الحجرى القديم فى القرن الأفريقى والحبشة كان يمت الأصل البوشمنى Bushmanoid ، كما كان الحال فى وادى النيل كله . ومالبث هذا الأصل أن استوعب وذاب فى موجات الهجمات التالية ، أو ضغط واضطر الى التقهقر جنوبا (٢) .

تسود القرن الأفريقى وحدة ثقافية عامة رغم التنوع البيئى الكبير ، ورغم تشعب المناحى التاريخية . وتعبر اللغات واللهجات السائدة عن هذه الوحدة . فهى جميعا تنتمى الى الأصول الحامية السامية ، القادمة من جنوب شبه جزيرة العرب ، والتى يطلق عليها علماء اللغات تعبير اللغـات الافروأسيوية (٣) . أو اللغات الكوشيه Cushitic ، ولا يزال الفرع

---

(١) عن الانسان الحفرى فى أفريقيا انظر على سبيل المثال :
Richard E. Leakey and Roger Lewin, Origins, Macdonald and Jane's, London 1977; and Alimen, H. The Prehistory of Africa, Hutchuson Scientific and Technical London 1957, Ch. X.

(٢) انظر Coon, Carlton, S., The Living Races of Man, Jonathan Cape, London, 1966, Ch. 4. وترجمة محمد السيد غلاب السلالات البشرية الحالية ، القاهرة ١٩٧٥ الفصل الرابع .

(٣) Greenberg, J.H. The Languages of Africa, Int. Jour. of Amercian Linguistics, Bloomington, Indiana, Vol. 29, No. 1 (The Hague: Mouton & Co. 1963).

الحامى سائدا فى الصومال وفى طراز ساحل البحر الاحمر فى أرتريا وشرق السودان حتى جنوب مصر • وقد كانت اللغة المصرية القديمة حامية متأثرة تأثيرا كبيرا بالسامية • ولا تزال الحامية معمرة أيضا فى النوبة ، ثم فى واحات الصحراء الكبرى من سيوه نحو الغرب ، وفى لغات البربر ، شمال أفريقيه •

ثم دخلت اللغات السامية منطقة القرن الأفريقى ، قادمة أيضـا من اليمن ، وهى لغات عربية قديمة ، تتمثل فى التيجره والتجران والامهرية ، والجعز ، وانتشرت هذه اللغات فوق هضبة الحبشة • بينما اقتصرت الحامية على السهول (1) •

كما تسود شعوب القرن الأفريقى وحدة سلالية • فهم جميعا ينتمون الى سلالة البحر المتوسط ، ربما بفرعين منها ، فرع طويل القامة يسميه كارلتون كون بالفرع الاطلنطى البحر متوسطى ، وفرع متوسط القامة ربما كان أقرب الى الفرع البحر متوسط القديم المنتشر فى جنوب غرب آسيا ومصر • وقد لفت نظر علماء الانثرويولوجيا هذه الوحدة السلالية ، الأثيوبية ، أو السلالة السمراء • وميزوا بينها وبين السلالة السودانية المنتشرة فى النطاق النطاق السودانى ، أو نطـاق الحشـائش فيما يلى الصحراء الكبرى جنوبا فى أفريقيا • ويسميهم سليجمان بالسلالة الحامية • وأهم ما يميزها هو لون البشرة الأسمر أو هو لون القهوة ، وتقاطيع الوجه الدقيقة وعدم بروز الفك واعتدال الشفاء والرأس الطويل والوجه الضيق والشعر الجعد • مع وجود تنوعات اقليمية فى هذه الصفات سنذكره فيما بعد (2) •

---

(1) عن الاصول اللغوية للحامية والسامية أنظر على سبيل المثال Barton, G.A., Semitic and Hamitic Origins, London, 1933.

(2) أنظـر Coon, Carlton, S., Races of Europe, The Mac-Millan Co. New York, 1939, Ch. XI. & 8.; and Mesturkh, M. The Races of Mankind, Progress Publishers, Moscow, pp. 66 ff; and Seligman, C.G., Races of Africa.

أما عن أسلوب الحياة ، فان الاثيوبيين زراع ، وسكان السهول رعاة عامة • كما أن نسبة كبيرة من الاثيوبين مسيحيون ، وسكان السهول والطراز الساحلى مسلمون • وقد أدى النزاع بين الزراع والرعاة فى فترات مختلفة من التاريخ الى احتدام القتال والحروب ، التى كانت تتسم أيضا فى فترات مختلفة بسمة النزاع الدينى •

ويظهر من أبحاث علماء النبات ، أن هضبة الحبشة كانت وطنا أصليا لأنواع من القمح لا تزال تنمو عليها (١) ، ولغيره من الحبوب ، ربما ألقت بعض بذورها وسيقانها الى روافد النيل الحبشية ، فحملتها مع الفيضان الى مصر وأدت الى ظهور الزراعة • ويرى الأستاذ جورج مردوك أن عناصر زنجانية قديمة تغلغلت فى هضبة الحبشة قادمة من الغرب فى عصر سابق للالف الثالثة ق • م • أسماها طلائع النيليين ، وجلبت معها عناصر الزراعة السودانية وأهم هذه العناصر نوع من الذرة الرفيعة Eleusine coracana ، انتشر فيما بعد فى كل أرجاء شرق أفريقيا وجنوبها ،ويمر المحيط الهندى الى الهند ، وبعض النباتات الجذرية مثل الموز الحبشى Ensete edulis ويحتل مكانا هاما فى غذاء الأثيوبين وبعض النباتات الزيتية مثل الخروع Ricinus communis .

وقد انتشر شمالا فى مصر فى عصر الأسرات ، ونبات زيتى آخر اسمه Guizotia abyssinica ومن النباتات الاثيوبية أيضا البن والقات (٢) •

الزراعة عريقة فى أثيوبيا ، ربما تلقت بعض عناصرها من النطاق السودانى فى غرب أفريقيا ، ولكن الهضبة موطن لكثير من الأنواع النباتية ، ولابد وأن الأثيوبين القدامى قد جربوا استنبات بعض هذه النباتات ، التى انتشرت من بلادهم الى وادى النيل الأدنى فى مصر والى جهة والى الهند من جهة أخرى ، مما جعل بعض العلماء يعتبر أثيوبيا ، مع الهند والصين

---

(1) Murdock, G.P. Africa, Its Peoples and Their Culture History, McGraw-Hill, New York. London, 1959, pp. 182-183.

(٢) نفس المصدر

والصين مهدا قديما للزراعة وحقلا لتجاريها (١) .

وقد نهض بعبء هذه التجارب الزراعية شعب الأجاو Agau الذى لم يبق منه الآن سوى نحو ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ويبدو أنهم قد ذابوا تماما فى الهجرات العربية القديمة (السامية) التى دخلت أثيوبيا قادمة من اليمن نحو القرن السابع ق . م . وقد كان أسلاف الأجاو على صلة بالمصريين القدماء الذين امتد عمرانهم الى بلاد النوبة ، ومن ثم أثروا فى هضبة الحبشة ، ولقد كان الأثر المصرى قويا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة عن طريق النوبة ومملكة كوش القديمة .

وقد عرف الأجاو الكوشيين القدماء تربية الماشية والضأن والماعز من مصر ، عن طريق النوبة منذ مطلع الألف الثالثة ق . م . وعرفوا أيضا استئناس الحمار ، وتكونت لديهم عناصر زراعية وحيوانية مصرية الأصل، التأثير متبادل فى الزراعة وتربية الحيوان بين مصر والحبشة ، عن طريق النوبة وكوش ، النيل النوبى ونهر العطبرة والنيل الأزرق . كذلك كان التأثير متبادلا بين الصومال ومصر ، كما كان بين الحبشة والصومال وبلاد اليمن أو بلاد العرب السعيدة . ويسجل الدير البحرى رحلة حتشسوت الى بلاد بونت وجلبها الأنواع من النباتات واستزراعها فى مصر ، وذلك فى منتصف الألف الثانية ق . م . وتدل وثيقة مذكرات البحر الاريترى أو الأحمر Periplus of the Erythrean Sea التى كتبها ملاح مجهول فى القرن الأول للميلاد أن بلاد بونت كانت تصدر البخور والمر وأنواع النباتات الطبية التى كان يشتد عليها الطلب فى حوض البحر المتوسط ، الى جانب العاج وأصداف السلاحف وبعض الرقيق . كما كانت تشارك فى التجارة مع الهند شرقا ومع حضرموت واليمن عبر باب المندب (٢) .

ويبدو تاريخ حضرموت واليمن والقرن الأفريقى متداخلا منذ الألف السابقة للميلاد . بل أنه ليضرب فى الماضى أبعد من هذا بكثير . ويرى

---

(١) نفس المصدر Coon سبق ذكره ص ٤٤٤ .

(٢) Murdock, Op. Cit., Ch. 26.

جمهرة العلماء أن شبه جزيرة العرب هى مصدر الهجرات الكوشية القديمة ، ومصدر الشعوب التى أطلق عليها الحامية ثم السامية (١) ، أى أنها مصدر الوحدة الثقافية التى تربط اليمن بالقرن الأفريقى . فقد عبرت موجه سبئية البحر الأحمر قادمة من اليمن حوالى ٧٠٠ق.م. وأزاحت الأجاء من جزء من وطنهـا ، فى الشمال الشرقى لاثيوبيا الحالية ، ثم بعد ذلك استطاع أزانا (لعله أنينـة) أن يؤسس مملكة سبيئة وأتخذ أكسوم عاصمة له . ونقل اليها عناصر الثقافة العربية القديمة ، ومحاصيل جنوب غرب آسيا الزراعية ، مثل القمح والشعير . والماشية .

وقد ظهرت نتائج أعمال بعثة أثرية فى أوائل الخمسينات فى كتاب دوريس J. Doresse امبراطورية القديس يوحنا L'Empire du pretre Jean عام ١٩٥٧ (٢) ، وتدل هـذه الآثـار على أن السبئيين احتلوا الساحل الأرترى للبحر الأحمر ، وأنهم وحـدوا اليمن وبلاد العـرب الجنوبية مع تيجرة الشرقية ، وأن كثيرا من أسماء الأعـلام الجغرافيـة الاثيوبية هى نفسها الأسماء العربية القديمة ، وأن عصب خلفت ساباس القديمة ، وأن مدينة مصوع خلقت مدينة يمنية قديمة أسمها سابا وعبور المضيق أمر سهل ، كما أن البيئة الجبلية اليمنية تشبه نظيرتها فى هضبة

---

(١) أنظر على سبيل المثال Barton, G.A., A Sketch of Semitic Origins, t. 1. New York, 1902; Semitic and Hamitic Origins, London 1933.

ومحمد السيد غلاب

الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ ، دار العلم للملايين ١٩٦٩ ص ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٢) انظر عن علاقة بلاد العرب بالحبشة قبل الاسلام .

Rudinson, M. L'Arabie avant l'Islam, Histoire universelle tome 11, p. 14; Goosens, Godefroy. Asie Occidentale ancienne. Hist. Univ. t. 1, p. 415.

وعن تاريخ الحبشة Doresse, J., L'empire du pretren Jean. t. 1 et 11; Coulbeanx. Histoire Politique et religieuse de l'Abyssinie, Paris 1929; Cleret, L'Ethiopie fidele a la croix, Paris 1957; Jones, A.H.M. et Monrœ Histoire de l'Abyssinie. Paris. 1935.

الحبشة ،ولذلك جلب السبئيون زوجاتهم وعباداتهم ومؤسساتهم ، وقد عثر بقايا معبد قديم شرقى عدوة لالهم المقة ، كما عثر على تماثيل من الحجر الجيرى لهذا الاله اليمنى • وهذه الكشوف تدل على مدى الأثر السبىء قبل قيام دولة أكسوم •

بل أن دولة أكسوم نفسها أثر عربى جنوبى • فقد ظلت شمال أثيوبيا تستقبل موجات المهاجرين العرب من جنوب شبه الجزيرة ، وظل هؤلاء ينشئون مستوطناتهم ومرافئهم ، على الساحل وفى داخل الهضبة ، على طول الطرق الوديان التى تخترق الهضبة ، وساعد على ذلك نشاط التجارة الدولية عبر البحر الأحمر ما بين مصر والبحر المتوسط وبين الهند • وكانت من أهم المرافىء التجارية الدولية ، التى يتقابل فيها الرومان والاغريق والمصريون واليمنيون والحضارته والهنود ميناء أدوليس Adulis غير بعيد عن زيلع الحالية • واستطاع اتحاد المستوطنات اليمنية أن ينشىء دولة اكسوم (١) ، وقد أعطلت بعض قبائلهم « الحبشات » اسـمها الى الحبشة التقليدية ، كما أنهم أيضا أعطوها لغتهم القديمة الجعز ، والتى كانت تكتب بحروف عربية جنوبية قديمة • وهى أقدم لغة مكتوبة فى أفريقيا جنوبى مصر • وكانت حتى وقت قريب لغة الكنيسة المقدسة •

وليس هناك مجال تتبع موجات الغزو العربى للحبشة أو الغزو الحبشى لليمن • ولكننا لا نستطيع أن نغفل أثر التدخل البيزنطى من ناحية والتدخل الفارسى من ناحية أخرى كما لا نستطيع أن نغفل الصراع بين المسيحية التى دخلت الحبشة فى القرن الرابع الميلادى (مع النفوذ البيزنطى عن طريق مصر) والتى دخلت أيضا نجران ، وبين اليهودية التى كانت تحت رعاية الفرس • وقد كان هذا وجها آخر للتنافس البحرى التجارى بين الخليج الفارسى وبين البحر الأحمر • وقد ظل هذا التنافس قائما حتى ظهور الاسلام •

---

(١) أنظر بالاضافة الى ما سبق

Encyclopaedia Britannica, 1972,

Vol. 8 Ant. Ethiopia, pp. 783 ff.

أدى ظهور الاسلام فى أرض الحجاز ، والفتوحات الاسلامية فى القرن الأول الهجرى ــ السابع الميلادى وسقوط فارس وبيزنطه الى تغيير موازين القوى فى البحر الأحمر ، وانقطاع طريق العطبرة ــ اكسوم ، والبحر الأحمر اكسوم أيضا وتحرر اليمن من الحكم الحبشى ، وأصبح بحيرة عربية والخليج الفارسى خليجا اسلاميا عربيا ، وانكفأت مملكة اكسوم على نفسها فى الداخل (١) • وكانت العلاقات العربية الحبشية ودية أول الامر • ولكن عندما نشط القراصنة الأحباش فى الاغارة على موانى البحر الأحمر ، وتعرضت جده لهذه الغارات ، اضطر المسلمون الى رد الهجوم وبدءوا فى احتلال النقط الاستراتيجية فى مدخل باب المدن وعلى الساحل الأثيوبى الارترى ، فاحتلوا جزر دحلق وحطموا ميناء عدول (أدوليس) • واتجه الأحباش نحو الجنوب ، وأنشئوا مستوطنات تيجرية فى وادى تاكازى حتى شوا ، وتدهورت سلطة أكسوم فى القرن العاشر حتى تحطمت على يد المملكة اليهودية جديت Guedit أوايزاتو « المحطمة » ، وهى من أصل آجاوى التى أذاقت الأسرة المالكة السابقة ذل الأسر وأحدثت فيها مذبحة مروعة ، وردت فى كتاب ابن حوقل ، وكتابات بطاركة الاسكندرية وفى القصص الأثيوبية الى أن قامت أسرة مسيحية جديدة ، هى أسرة زاجوه ، طمست آثار كل الأسرة اليهودية السابقة وحكمت من القرن العاشر حتى القرن الثانى عشر واستعادت قوة الأمهرية ورجال الكنيسة ، ونقلت العاصمة الى روحا التى أطلق عليها اسم الملك الجديد لا ليبيلا Lalibela أو أورشليم • ولاتزال هذه المدينة مزارا للمسيحيين من جميع أنحاء أثيوبيا ، وهى تقع فى بقعة جبلية وعرة (٢) •

تعرضت سواحل القرن الأفريقى كله للتأثير الاسلامى منذ القرن السابع الميلادى ، ولم يكن هذا أمرا جديدا كما أوضحنا ، انما الجديد ان العرب جاءوا هذه المرة يحملون رسالة الاسلام ، وربما لم يأتوا وحدهم ، وانما جاء

---

(١) نفس المرجع

(٢) Cornevin, R. Histoire des Peuples de l'Afrique Noire, Berger-Levarult, 1963, Ch. XIV.

الفرس معهم تحت راية الدين الحنيف • وقد احتل جنود الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموى (٦٥ — ٨٦ هـ ٦٨٥ — ٧٠٥ م) • جزر دهلك وحرات وكباى ودركه وتوره وتقره ، وكمران إستقرت قبائل عربية من ربيعة وقحطان بين ظهـرانى البجا والصـوماليين والعفر ، ونشروا بينهم الاسلام • وبذلك وقفت قبائل السواحل وشعوبها فى مواجهة شعوب أثيوبيا المسيحية • وأخذ الصراع السياسى مظهرا دينيا ، لم يكن الاصدى صراع المصالح وأساليب الحياة • فقد حوصرت مصالح الحبشة التجارية ، وخرجت من الصراع على تجارة البحر الأحمر نهائيا • وأصبحت التجارة فى يد العرب الذين أصبحوا مسلمين • كما تعرضت أثيوبيا لهجمات قبائل الجالا الرعوية • وتأسست — مع مضى الزمن — امارات اسلامية تسمى بالطراز الاسلامى ، لأنها كانت تطرز سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى من جنوب مصر حتى شرق أفريقيا •

واشتهر من دول الطراز الاسلامى سبع امارات أو ممالك هى أوفات ودوارو وأرابيتى وهديه وشرخا وبالى وداره • وتوغلت هذه الممالك نحو الهضبة فقامت فى سفوحها الشرقية امارات وسلطنات اسلامية عاشت روحا من الزمن • منها واحدة فى منطقة شوا حوالى نهاية القرن الثالث الهجرى (نهاية القرن التاسع الميلادى) بزعامة أسرة عربية مخزومية ، وأخرى فى عدال وموروا وهويات وجيدايا • وكان اقليم هرر أيضا يعرف الممالك الاسلامية [1] •

---

(١) أنظر ابراهيم على طرخان — الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى — الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٨ — ١٩٥٩ ص ٣ — ١٨ .

وأنظر عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٦٧ — ١٦٩ . واليعقوبى جـ ١ ص ١٥٥ ، والمسعودى مروج الذهب جـ ١ ص ١٨١ ، ابن حوقل صورة الارض القسم الاول ص ١٦ والعمرى مسالك الابصار جـ ١ ص ١١ ، ١٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى جـ ٥ ، المقريزى ، السلوك معرفة دول المماليك جـ ١ .

أثيوبيا Aethiopia اسـم قديم أطلقه الاغريق وعنوابه الشـعوب السمراء أو بالمعنى الحرف للكلمة Aithiopes محروقة البشرية التى كانت تسكن الى الجنوب من مصر ، وقد وردت هذه الكلمـة فى أشـعار هوميروس وكتـابات هيرودوت ، وأطلقت على مروثم على مملكـة كوش وعاصمتها نباتا ، ثم على أثيوبيـا بالمعنى الجغـرافى السـياسى فى العصر الحديث •

أما فى العصور التاريخية السابقة ، فقد كان اسم الحبشة يطلق على الشعوب لسمراء التى تسكن الهضبة التى تنحدر منها روافد النيل • ويقال أن لحبشة اسم قبيلة عربية كانت تسكن اليمن ثم هاجرت الى أفريقيا عبر مضيق باب المندب • وقد وردت كلمة حبشان فى النصوص المصرية القديمة للاسرة الثامنة عشرة (حوالى ١٥٠٠ ق • م •) لتدل على سكان بلاد بو نت•

وتشمل الحبشة التاريخية لاستا ، وأمهرة ، وجوجام ، وشوا وهـذه ضمتها مملكة أكسوم تباعا ، ويتألف سكان أثيوبيا الحالية من عناصر حامية أو كوشية وعناصر سامية تسمى عامة بالأمهرة ويمكن أن تتعرف فى الاثيوبين على العناصر الافرواسيوية الآتية : ــ

١ ــ الأمهرية ، وهى الجماعة السائدة فى دولة أثيوبيا الحالية ، ولغتهم سامية ومعظمهم مسيحيون •

٢ ــ بقايا الأجاو ويسمون الأوبة أو الاوادار أو الأجوا مدير والداموت ويتحدثون لغة كوشية ، ومعظمهم مسيحيون •

٣ ــ الجوارج ، ويتحدثون لغة سامية ، ويتوزعون بالتساوى تقريبا بين الاسلام والمسيحية والوثنية •

٤ ــ الهرريون،وهم مسلمون ــ سكان هرر ــ ويتحدثون لغة سامية•

٥ ــ الكاميرا أو الخامير أو الحامير • وهم من بقايا الأجاو ويتحدثون لغة كوشية ومعظمهم مسيحيون •

٦ ـ الكياتت أو الشامانت أو القيمانت ، والفلاشا أو الاغراب وهم يهود ويتحدثون لغة كوشية ، وهم من بقايا الأجاو ومعظمهم فيما عدا الفلاشا وثنيون .

٧ ـ التجرينيات . وهم يتحدثون لغة سامية ، معظمهم مسلمون ويعيشون فى أثيوبيا وارتريا (١) .

وقد استوعبت هذه العناصر الحامية والسامية السكان الأصليين الذين كانوا يسكنون الهضبة والسهول من قبل ، وهى عناصر زنجانية سبقت الى سكنى القرن الأفريقى منذ الألف الثامنة ق . م . ويبقى منها الآن بعض شعوب قليلة العدد وبعثرة فى جنوب الهضبة وجنوبها الغربى تسمى شعوب الواتا أو الوايتو والمانجو والقوجا والدكو . وربما لم يتوغل الزنجانيون شمال نهر الأباى (النيل الأزرق) وجاء ولكنهم اختلطوا مع الحامين (الكوشيين) وانتقلت سمرتهم عن طريق هؤلاء الى بقية السكان الساميين الذين وفدوا بعدهم .

كما يسكن على الحافة الجنوبية الغربية عنصر مختلف حضاريا عن بقية عناصر الهضبة يعرفون عامة بالسيدامو . وتتنازعهم بالتساوى تقريبا كل من الصفات الجسمانية القوقازية والزنجانية . كما أنهم يتحدثون لهجات كوشية . وتظهر زنجانيتهم فى لون البشرة الغامق ، والشعر المفلفل، كما أنهم يزرعون الأرض بالمحاصيل السودانية ، ويتركز السيدامو موف اقليم كافا ، الذى أعطى أسمه للقهوة المعروفة ، كما ينتشرون فى أقليم الجالا ، ويكونون جماعات الزراع فيه .

ورغم أن الأمهرية هم العنصر السائد فى أثيوبيا ، والذين ضموا تحت لوائهم كثيرا من الشعوب السابقة على دخول الساميين ، وتنتشر لغتهم الآن فى اقليم تيجره وأمهرة وجوجام وشوا ، فان نسل المزارعين القدامى السابقين للساميين لا يزالون يسكنون شمالى الهضبة ويتحدثون لهجات

---

(١) مردوك ، سبق ذكره . ص ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

كوشية ، وأكثر هؤلاء عددا شعب الآجاو ، الذين يكونون أقنان الارض فى جوجام حول بحيرة تانا •

وإذا هبطنا من الهضبة قابلتنا الشعوب الرعوية الحامية من العفر والدناكل والصومال والجالا •

ويبدو أن حرفة الرعى لم تكن أصيلة فى القرن الافريقى ، ولم يكن هناك من الرعاة فى أفريقيا الشرقية الا البجا فى شرق السودان ، وكان اقليم القرن الأفريقى فيما عدا الهضبة الحبشية قفرا ، تتناثر فيه قبائل الصيادين وجامعى القوت من لشعوب البوشنية ، بينما سواحله ترتاده جموع التجار اليمنيين والحضارمة ويبنون فيها مرافئهم ، ثم ما لبث هؤلاء أن أقاموا مدنهم ومستوطناتهم على طول الساحل الشرقى لافريقيا حتى سوفالا •

وحوالى منتصف الالف الأولى للميلاد زحفت قبائل البانتو الشرقيين الى نهر جوبا وداوى شيلى ، وعندما أنشأ الحضارمة واليمنيون طرق القوافل التجارية من الموانى صوب الهضبة الحبشية ، هبط العفر والجالا والصوماليون نحو السهوب شبه المقفرة ، بينما كان أسلافهم المقفرة ، بينما كا أسلافهم يقتصرون على السفوح الجنوبية الشرقية للهضبة ، التى يفصلها عن بقية الهضبة الاخدود الشرقى العظيم • وقد وقد أخذت هذه القبائل حرفة رعى الابل الذى دخلت بلادهم عن طريق باب المندب ، مع التجار العرب • كما أنهم احترفوا رعى البقر ، ومايتعلق بهذه الحرفة من الاعتماد على اللبن ومنتجاته •

وربما كان العفر هم أول من أخذوا بحرفة الرعى والاعتماد التام عليها ، وقد تحركوا شمالا الى بلاد الدناكل شبه الصحراوية وساحل أرتريا • ثم تبعهم شعب الجالا ، الذين سبقوا الصوماليين فى الجزء الشرقى من القرن الافريقى • ولم يكد دخول لصوماليين الى سهول القرن الا فى القرن العاشر الميلادى حاملين معهم الاسلام ، الذى أخذوه من التجار العرب والمسلمين فى بربره وزيلع وقد انتشرت قبائل الصوماليين شرقانحو القرن وجنوبا نحو أوجادين ، وأحاطت ببقايا الشعوب القديمة واستوعبتها

وأن حل القرن الرابع عشر حتى كان الصوماليين قد احتلوا وادى شبيلى بأكمله ، كما انتشروا جنوبا بغرب فى أرض الجالا (١) •

ويتكلم العفر والصوماليون لهجات متقاربة من الفرع الشرقى للعائلة الكوشية أو الحامية • وكلهم — فيما عدا الساهو المسيحيين — مسلمون سنيون وكلهم من الأرومة القوقازانية ، وتجرى فى دمائهم بعض الدماء العربية • ويمتاز العفر بطول القامة ، والشعر المموج ، والانوف الضيقة والشفاه الرقيقة واللون الأسمر • والصوماليون أكثر سمرة من العفر ، ولكن لا يبدو فيهم أى أثر زنجانى وربما تزاوجوا مع بقايا الباتتو فى وادى شبيلى ، غير أن تأثير هؤلاء الزنجانين طفيف ، وربما كان أكثر ظهورا فى شعر الصوماليين شديد التجعد • وربما وفدت السمرة الى الصوماليين مع الهنود الذين ارتادوا شواطىء القرن الأفريقى • ويمكن أن تقسم شعوب السهول فى القرن الأفريقى الى ما يأتى أ —

١ — العفر أو الدناكل •

٢ — العيس وأقرباؤهم الجدابورسى أو الديروسى ويسكنون مدينة جيبوتى •

٣ — الجيرى وأقرباؤهم من البارتيرى والبورسك واليابارى ، وهم أكثر عددا من العيسى •

٤ — الهاويا مع الابجال والاجوران والهادادلا ويصل الى نصف مليون نسمة •

٥ — اسحق ويضمون الأول أو العوال وجرها جيس وتولجالا ويبلغ عددهم حوالى نصف مليون نسمة •

٦ — الميجرتين والدسيستى والدولبوهانتا والورسانجيلى •

٧ — الاوجادين مع الاباسكول والجليميس والميرهان •

---

(١) أنظر كورنفان ، سبق ذكره ص ٤٩٦ وما بعدها .

٨ ــ الساب ويضمون البيمان والديجيل والرهانونن وغيرهم ممن يتكلمون لهجة الجالا ويبلغ عددهم ثلث مليون •

٩ ــ الساهو (الساوأو الشيهو) ويتكلمون لغة العفر ويضمون الايروب المسيحيين •

١٠ ــ الصوماليون الغربيون ويشملون الاوليهان والدير والجيرا والجارتى والكابول وهم يتواخمون مع الجالا (١) •

القرن الافريقى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر • ويسكن العفر والدناكل • اقليما مثلث الشكل من رأس بورى على البحر الأحمر حتى خط حديد أديس أبابا ــ جيبوتى والسفوح الشرقية للهضبة الحبشية • أما الصوماليون فيسكنون كل سهول القرن الافريقى ويقسم الصوماليون والساب •

ويقول الصوماليون أن جدهم الأكبر صمالى وفد من اليمن فى القرن الحادى عشر ، كما يذكر كتاب بغية الآمال فى تاريخ الصومال المنشور فى موجاديشو عام ١٩٥٥ • والمجتمع الصومالى يهتم جدا بالانساب ، قبلى تكاد كل قبيلة أن تكون وحدة متميزة • وتحفظ كل قبيلة نسبها وتعتز به •

وقبائل الدير والهاويا السابقة هى أقدم قبائل الصومال ، وقد طغت عليها القبائل الصومالية الأخرى الوافدة حديثا ، ولم يبق منها سوى نويات متناثرة أهمها العيسى (شمال غرب الصومال وفى جيبوتى) والجدابورسى على السفوح الشمالية لهضبة هرروبيمال فى اقليم مرسا فى الجنوب • أما الهاويه السابقة فهى أيضا قاربت الاندثار ولم يبق منها سوى قبائل متناثرة أهمها الجيرا والجيرا او الجيرى • وهم على صلات أوثق مع الجالا فى اقليم اروسى •

والهاويا اتحاد قبائل قوى يتمركز فى وادى شيهيلى الأوسط والأسفل

(١) مردوك ــ سبق ذكره ص .

وقد استوعبت هذه القبائل بقايا الشعوب الزنجانية التى سبقتهم الى سكنى الاقليم وينحدر الهاويا ، مثل أبناء عمومتهم الدير ، ما صلب ارير ابن صمال وقد احتلوا الساحل بين ايطالا ومرسا فى نهاية القرن الرابع عشر . وقد كان وادى شبيلى ووأوى جويا فى ذلك الوقت فى حوزة قبائل الجالا . وقد لعبت بعض قبائل الهاويا مثل الابجال والاجوران دورا تاريخيا فى أسقاط الدولة الصومالية العربية التى كان مركزها موجاديشو والتى كانت قائمة من منتصف القرن لثالث عشر حتى القرن الخامس عشر .

أما سلالة الدير فيتمثلون فى قبائل اسحق ودارود . ويسكن أبناء اسحق كل الصومال . ويقال أن جدهم اسحق بن محمد وصل الصومال فى القرن الحادى عشر ، ولا يزال قبره مزارا فى ما يت .

أما الاقليم الذى تسكنه قبائل الدارود فهو مترا من الاطراف . يبدأ من رأس جرد افوى حتى ميرغ على الساحل . ويمتد الى الداخل حتى أروسى فى شمال كينيا وهو اقليم بالغ الجفاف ، فقر . وهذا يفسر اضطراب القبائل فيه وحركاتها المستمرة واغارة بعضها على البعض الآخر بحثا عن الماء وتنازعا على وسائل العيش وتروى التقاليد أن الشيخ دارود قدم من بلاد العرب الجنوبية بين القرنين السابع والثالث عشر ، وأنه استقر بين قبائل الدير . وتختلف الروايات عن هذا الشيخ ولكنها تتفق على أنه تزوج من احدى بنات الشعب الذى حل بين ظهرانيه . وقبائل الاوجادين أشد قبائل الدارود شكيمة ، وأكثرها عدوانا . وقد توغلت احدى بطونها فى هرروقت حملات جرانيه الاسلامية عليها ، واختلطت بالجالا وأخذت لهجتها ، وأصبح لها نظام الجالا والصومال الاجتماعية (١) .

والساب يحتلون جنوب الصومال فيما يلى وادى شبيلى . وشجرة نسب الساب تضعهم مع الصومال فى أصل واحد . وتقول قصصهم المأثورة أن جد الساب وفد من بلاد اليمن وهبط فى جيبوتى ، وتحالف مع سلطان

---

(١) كورنفان ، سبق ذكره .

الجالا والساب يوزعون على ثلاث قبائل كبيرة ، الديجيــل والرهواوين والتونى .

أما جنوب شبيلى فيختلط الصوماليون بالشعوب الزنجانية من الزراع والصيادين كما يختلطون بالجا ، حيث أنهم بأراضيهم أثناء حركاتهم الفصلية . ويختلف الرهاويون عن الصوماليين فى أنهــم أكثــر استقرارا وانتظاما فى قرى زراعية ، وأكثر تفقها فى المدارس القرآنية . الا أنهم يكثرون من زيارة قبور الأولياء ، مما جعل الأستاذ لويس يرى فيها نوعا من التقديس يشبه تقديس الاثيوبيين لقديسهم .

أشرنا من قبيل الى قيام الامارات والسلطنات الاسلامية على سواحل البحر الأحمر الجنوبية فى اقليم الدناكل والعفر ، وكانت هذه الامارات عشرية عربية ، وقامت بدور كبير فى النشاط التجارى ، كما أنها قامت بدور لا يستهان به فى نشر الاسلام فى القرن الافريقى والهضبة الحبشية . وكانت سلطنة عدال تحتل مكانا ممتازا بالنسبة لليمن من ناحية وأثيوبيا من ناحية أخرى وعندما غزا الجالا جنوب أثيوبيا واقليم هرر ، لجأت سلطنة عدال الى وادى حواش واصبحت سلطنة حواشة ، ولا يزال هذا الاقليم يتمتع بحكم شبه ذاتى فى أثيوبيا الحديثة ، والسلطان حواش نفوذ كبير على القبائل البدوية .

الجالا شعب حامى يتحدث لغة كوشيه ، يقوم اقتصاده على الرعى ، وهو شأن الرعاة له تاريخ ملىء بالغزوات الرعوبه ، بما تتميز به ما بين كروفر . وهو شديد الاضطراب والحركة ، وكان فى أول أمره يعيش على الحافة الجنوبية لهضبة الحبشة وعلى المنحدرات التى تهبط الى أرض الصومال . وكانوا منحصرون فى بيئتهم هذه بين أسلاف الصوماليين شرقا، وشعب كوشى قديم اسمه كونسوغربا ، ولا تزال قبائل اللايتو والاروسى تمثل الجالا القدماء فى هذه المنطقة (١) .

---

(١) مردوك ، سبق ذكره ، ص ٣٢٥ .

ثم هبط الجالا الى أراضي الحشائش فى السهول ، حيث استوعبوا بقايا البوشمن ، وحيث وجدوا قبائل الباتتو قد سبقتهم الى الاستقرار فى أودية تانا وجوبا وشبيلى كما تذكر المصادر العربية ــ وربما حدث هذا فى العام الآلف الميلادى • وقد فرت كثير من قبائل الباتتو من امامهم الى كينيا ، كما أنهم تزاوجوا مع من بقى منهم • ولا تزال هناك بقايا زنجية تتمثل فى قبائل جوشا والشبيلى ولا يزالون يعملون بالزراعة ، الا أنهم استبدلوا بألسنتهم لسان الجالا •

غير أنهم لم ينعموا طويلا بثمار انتصاراتهم ، اذ ما لبثوا أن وقعوا تحت ضغط شعب رعوى آخر ، هو شعب الصومال الذين هاجموهم من الشرق• وقد استطاع الهاويا ــ وهم من الصوماليين ــ أن يحتلوا الساحل الصومالى الحالى حتى وادى شبيلى ، وأن يزيحوا الجالا من أعالى هذا النهر • وعندما فشل الصوماليون فى غزو أأثيوبيا فى منتصــف القــرن الســادس عشر استداروا نحو الجالا وسكنوا المنطقة ما بين نهرى شبيلى وجوبا • فاتجه الجالا نحو أثيوبيا ، وحاولوا تسلق الهضبة واحتلوا مساحات كبيرة من الارض شمال موطنهم الاصلى وشماله الغربى • وتغلغوا فى امارة بالى الاسلامية عام ١٥٢٢ • وقد كان غزوهم لجنوب شرقى أثيوبيا سريعا ، فاستولوا على هضبة هرر شرقا وعلى أروسى فى اعالى شبيلى ووصلوا الى وولو شمالا ، بل والى بحيرة شانجى على نفس دائرة عرض بحيرة تانا ووصلوا غربا حتى ضفاف نهر ديدسا •

ويعرف الجالا بنظامهم الاجتماعى والسياسى الذى يهيؤهم للتحرك السريع والقتال وهم يجيدون الكر والفر • وكانوا يكونون تهديدا قويا لا ثيوبيا من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ، غزوا جوجام وبيجاميديربل وأمهرة نفسها • واستطاع الجالا أن يهينوا على الامبراطور نفسه ، كما أنهم أنشئوا امارات وممالك خاصة بهم فى جنوب شرق اثيوبيا• • ولم يفلح الأمهرة أبدا فى استيعاب شعب الجالا ، حتى أخضعهم ميلنك الاول فى نهاية القرن التاسع عشر • وساعد على ذلك انحصارهم الصوماليين جنوبا والاثيوبين شمالا •

والجالا وثنيون عامة • ولكن كثيرا من القبائل اعتنقت الاسلام أو المسيحية ويمكن أن تتعرف بينهم على الجماعات الآتية : —

١ — الأروسى ، وهم مستقرون فى الشمال ، بدو فى الجنوب ، وقليل منهم مسلمون ، وأغلبيتهم وثنيون •

٣ — البارايتا ، ويمثلون قبائل الجالوا الرئيسية ، ويسكنون ما بين نهرى تانا وجوبا •

٤ — الايتو مع أقربائهم من الألا ، والانيا والبابيل والجارسون والنولى وهم أكبر المجموعات عددا ، اذ يبلغون المليون تقريبا ومعظمهم مسلمون •

٥ — الماتشا ومعظمهم مسيحيون ، مع وجود بعض العشائر المسلمة والوثنية •

٦ — الرنديل ولغتهم أقرب الى الصومالية القديمة •

٧ — التولاما أو جالاشوا ، وهم أكثر قبائل الجالا اختلاطا بالأمهرة، ولذلك فهم مسيحيون ويبلغ عددهم المليون •

٨ — الواليجا — ومعظمهم وثنيون •

٩ — الولو — وهؤلاء مختلطون اختلاطا كبيرا بالأمهرة ، ومعظمهم مسلمون[1] •

لا تختلف الزراعة الجالاوية عن الزراعة الاثيوبيــة • ويحتل تربيــة الحيوان مكانا خاصا فى اقتصاد الجالا ، ويكاد يعيش الجالا الرعاة على منتجات الحيون • ويرعى الجالا الماشية والضأن والماعز •

ويعيش الجالا الرعاة كما يعيش شرق أفريقيا الآخرون • بينما يستقر

---

(١) كورنفان ، سبق ذكره ص ص ٤٩٠ وما بعدها .

الزراع فى قرى متكتلة • وهذه القرى تنتشر فى مرتفعات أثيوبيا الجنوبية وبعض قبائل الجالا تعيش فى قرى مبعثرة •

* * *

يتعرف الاستاذ كون ، من الناحية الانثروبومترية على خمسة عناصر رئيسية هى : الأمهرة والجالا يدمو الصوماليون والاجاو • وقد وجد أن أنقى العناصر الحامية وهى الأجاو والجالا والصوماليون أطول قامة من الأمهرة • وأن طول القامة عندهم يتراوح بين ١٦٩ — ١٧٤ سم • وأن متوسط طول القامة بينهم ١٧٢ سم • وأن طول القامة لدى المتحدثين بالسامية يتراوح بين ١٦٤ — ١٦٧ سم ، وأن طول القامة عند التيجرة ، وهم أول عنصر عربى هاجر الى الحبشة هو ١٦٧ — ١٦٩ ، ولدى الشوا ١٦٩ سم • كما لا حظ أن السيداموا — بعكس الاجاو — أقصر قامة •

ولا شك أن طول القامة صفة حامية ، حيث أن السيداموا المتأثرين بالزنجانية وعرب حضرموت أقصر بكثير من الجالا أو الصوماليين • فطول قامة سلالة البحر المتوسط فى شرقى أفريقيا شىء يميزهم عن القامة المتوسطة فى جزيرة العرب • أما عن بنيان الجسم فهو مثالى بالنسبة لسلالة البحر المتوسط ، ونسب الجذع والاذرع والسيقان هى النسب المعروفة عند هذه السلالة •

والرأس عامة طويل أو متوسط فى أثيوبيا ، والوجه ضيق ، فسكان القرن الأفريقى وأثيوبيا يمثلون سلالة البحر المتوسط أتم تمثيل • ورئوسهم أكبر من رئوس اليمنيين • ولا تختلف مقاييس الرأس (الطول ١٥٠ مم — العرض ١٢٧ مم الارتفاع ١٩٤ مم) عند الاثيوبيين عنها عند الشماليين (أو السلالة النوردية) • ومتوسط النسبة الاصلية ٧٧ عند الامهرة • الا أن هناك بعض الاختلافات المحلية ، فالتيجرة طوال الرئوس بينما رئوس الأمهرة وأهل جوجام تميل الى أن تكوين عريضة •

ورئوس الأجاو والسيدا متوسطة (النسبة الرأسية ٧٨) وهناك قلة عريضة الرأس • وعلى أية حال فسكان الهضبة عموما طوال الرئوس

أو متوسطوه وتقارن النسب الرأسية بينهم ومثيلاتها فى بربر شمال أفريقيا ، وفى الاوروبيين الشمالية • أما الصوماليون فهم طوال الرئوس ، والنسبة الرأسية بينهم ٧٤٫٥ • وهم أقرب الى اليمنيين والعرب الشماليين•

سكان الهضبة ضيقو الوجه ، ولكن الصوماليون يمثلون تطرفا فى الوجه الضيق • وأنوف الصوماليين والأمهرة والجالا ضيقة • والنسب الانفيه لديهم ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ • أما السيد امو فانوفهم أعرض ، مما يشير الى تأثر زنجانى ، والنسبة الانفية لديهم ٧١ •

أما عن لون البشرة ، فالسمرة تميز الاثيوبيين عن العرب • والأمهرة أخف الاثيوبيين سمرة ، بينما السيداموا أشدهم سمرة • ويقع لون البشرة بين ٢١ ، ٢٥ فى مقياس فون لوشان • ويمثل هيلاسلاسى اللون الفاتح ، بينما كان منليك الثانى شديد السمرة • وسمرة الجالا داكنة ، بين ٢٢ — ٢٩ فى مقياس لوشان ، وأشد منهم سمارا هولون السيدامو الذى يصل الى ٣٠ فى هذا المقياس • أما الصوماليون فيقعون بين رقمى ٢٧ — ٢٩ فى مقياس فون لوشان • وهم سمر بلون الشكولاته أو البن المحروق •

ويشعر الاثيوبيون بحساسية خاصة نحو اللون • وهم يقسمون أنفسهم الى الصفر والصفر الحمر والحمر والسود • ولا علاقة لهذه الألوان بمقياس فون لوشان • ويقع معظم الاثيوبيين (٧٠٪ منهم) فى زمرة الحمر ، بينما لا ينتمى الا ٤٧٪ من الجالا اليهم ، ويقع ٢٠٪ من الأمهرة فى زمرة الصفر، بينما ينتمى ٨٪ من الجالا الى هـذه الزمرة وأخيرا فلا يقع تحت زمرة السود سوى ٢٪ •

وللاثيوبيين أيضا طريقتهم الخاصة فى تصنيف الشعر ، فهم اما أصحاب شعر مسترسل « لوشاى » ، أو مجعد « جوفارى » واما أصحاب شعر شديد التجعد • وقد وجد أن ٨٠٪ من الأمهرة أصحاب شعر مجعد ، وأن ٢٠٪ فقط من الجالا من أصحاب الشعر الجعد ، بينما ارتفعت نسبة هؤلاء الى ٣٠٪ بين السيدامو • وحسب تصنيفنا هناك ٤٠ ٪ من الأمهرة من أصحاب الشعر المجعد غير الزنجانى •

الشفاه عموما سميكة ولكنها ليست مقلوبة ، وهناك نسبة ضئيلة من بروز الفلك[1] .

وعلى أية حال ، فصفات الاثيوبيين وسكان القرن الافريقى عامة ، سواء نشئوا فى الهضبة أو وفدوا من بلاد العرب الجنوبية يمثلون سلالة طويلة القامة ، طويلة الرأى متوسطتها ، معتدلة القوام ، نحيفة ، متناسقة الأطراف ، ضيقة الأنف غير مقلوبة الشفاه ، سمراء اللون ، أقرب الى سمرة سلالة البحر المتوسط الاوربية وشمال أفريقيا . وبها نسبة قليلة متأثرة بالزنجانية .

---

(١) كون ١٩٣٩ سبق ذكره ٤٥٠ – ٤٥٨ .

تم الطبع بالمراقبة
العامة لمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
مدير ادارة المطبعة

البرنس حموده حسين
١٤/٢/١٩٨٧

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١١٨٧/١٩٨٤/٢٠٠)